مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل
lisanerab.com

وفقاً للمنهج الحديث الذي أقرته وزارة التربية

تاريخ الأدب

والنصوص الأدبية

للسنة السادسة الثانوية

تأليف

محمد الطيب محمد النادي عبد النافع   ابراهيم عبد الرحيم يوسف

مراجعة

الأستاذ منير البعلبكي

الناشر : مكتبة الوحدة العربية

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل
lisanerab.com

وفقاً للمنهج الحديث الذي أقرته وزارة التربية الوطنية

تاريخ الأدب

والنصوص الأدبية

للسنة السادسة الثانوية

تأليف

محمد الطيب محمد النادي عبد النافع
أستاذ الادب
بمعهد المولى إدريس الازهر

ابراهيم عبد الرحيم يوسف
أستاذ الادب
بمعهد المولى إدريس الازهر

بالدار البيضاء

مراجعة
الأستاذ منير البعلبكي

منشورات
مكتبة الوحدة العربية
الدار البيضاء



مكتبة لسان العرب

أ. علاء الدين شوقي

رابط بديل

lisanerab.com

www.lisanarb.com

مكتبة لسان العرب instagram

مكتبة لسان العرب facebook

مكتبة لسان العرب twitter

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على الرسول الأمين محمد وآله .

وبعد

فإننا نقدم هذا المؤلف بين يدي أساتذة الأدب ، وطلاب السنة السادسة الثانوية ، نغنيهم به عن المراجع المطولة ، والكتب النادرة والمؤلفات العزيزة المنال ، ونوفر عليهم وقتهم في كد الذهن ، وإعمال الفكر في التحليل والنقد والضبط ، ليصرفوه في تذوق الأدب الجيد وهضم نصوصه والانتفاع بها .

والخيرَ أردنا لهم ولأنفسنا ، فنحن نرود منهجاً جديداً مطولاً ، يحيط الغموض ببعض أبوابه ، وقد يخوض هذا الميدان آخرون ، وسيرون حينئذ أن خير مرجع يغذون به إنتاجهم قد يكون هو كتابنا هذا في تفصيل تاريخ الأدب وتطبيقه ، وفي تحقيق نصوصه ، ودقة شرح الأساليب ، والكلمات اللغوية ، وعمق التحليل في وضوح ، والاعتماد على أسس النقد الحديث ، وعلى مجهودنا الشخصي بعد طول معاناة للأدب درساً وتمحيصاً .

وسيتبين لهم أننا عملنا — حقاً — بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه » .

وقد حاولنا جهدنا أن نتقن عملنا هذا ، وأن نكون أمناء فيه ، ولم نحاول أن نتهرب من صعوبة ، أو نمر بها متغافلين حقها في الوضوح ، وقسطها من

الإبانة ، بل إننا قد تجاوزنا عن كل ما من شأنه أن يكون قريب الفهم ، أو يستطيع الطالب أن يستقل فيه بنفسه ، ولو ببذل بعض الجهد في ذلك ، حتى نمنح عنايتنا لما يحتاج حقاً إلى العناية ، وحتى لا نمرّ مرّ الكرام بالمستعصيات .

وكان منهجنا – بوجه عام – يعتمد على إشراك الطالب ، وحمله على استخدام جهده وذكائه ، ولم « نسقه العلم في فنجان » ولم نجعله يعتمد اعتماداً كلياً على جهدنا ، بل تركنا له أحياناً أن « يتصرف » ولكن فيما يمكنه التصرف فيه ، لا فيما يعجز عنه ، وإلا ظن هو وظن غيره أننا « نهرب » ونقع فيما أخذنا أنفسنا بالابتعاد عنه .

ونتيجة لهذا كله جاء هذا المؤلف دقيقاً ، شديد التركيز . وقد سلكنا في التراجم مسلك الخبر أكثر مما سلكنا مسلكاً جامداً جافاً ، وذلك حتى تعلق صورة الأديب في الذهن لارتباطها بصور الحياة .

وسرنا مع المنهج دون تعديل أو تبديل . ولما كان تاريخ الأدب مادة أساسية في المقرر ، أعطيناه حقه من الأهمية ، وتجاوزنا به ما يوجد في النصوص المقررة من الخصائص الى غيرها من سائر نصوص العصر . والله نسأل أن يكون عملنا نافعاً ، وأن يجيء على ما قدرنا .

ولعلنا نكون قد وفقنا إلى تأدية بعض الواجب علينا لأبنائنا الطلاب .

المؤلفان

منهج الادب والنصوص للسنة السادسة

اولا : القسم الشرعى

الاشهر الثلاثة الاولى:

اللغة العربية وآدابها .

العرب وحضارتهم .

الحياة الجاهلية .

المهلهل ، امرؤ القيس ، طرفة ، عمرو بن كلثوم ، النابغة الذبياني ، زهير ، عنترة ، الخنساء ، قس بن ساعدة .

الاشهر الثلاثة الثانية

ظهور الاسلام ، القرآن الكريم، الحديث النبوي ، الشعر، الخطابة، كثّير، جميل . الشعر السياسي : الأخطل ، الفرزدق ، جرير – علي بن أبي طالب ، الحجاج ، عبدالحميد الكاتب .

الاشهر الثلاثة الاخيرة

المغرب قبل الاسلام ، السكان ، الحضارة المغربية ، عصر الولاة ، طارق ابن زياد ، سابق البربري . الأدارسة : الحضارة في هذا العصر ، المولى إدريس الثاني . المرابطون ؛ الحضارة في هذا العصر ، القاضي عياض . الموحدون : مظاهر الحضارة ، ابن تومرت ، الإدريسي، ابن حبوس، ابن عطية، الجراوي .

ثانيا ـ الادبي والعلمي

1 الأدب في العصر العباسي

نشوء الأوطان السياسية ، وأثر ذلك في ظهور آداب قومية .

ا ـ الشعر :

1 – حالة الشعر في هذا العصر .

2 - الشعراء :

ابن الرومي : في الجارية وحيد – منتخبات أخرى .
المتنبي : على قدر أهل العزم – واحر قلباه – منتخبات .
الشريف الرضي : منتخبات .

ب ـ النثر .

1 – نهضة النثر الكتابي وأسبابها :
ابن العميد : منتخبات .
البديع : منتخبات .
الحريري : منتخبات .

2 – النقد الأدبي (في صورة موجزة)
تعريفه ـ مقاييسه ـ النقد عند العرب ـ الناقد ـ أشهر النقاد : الجاحظ (منتخبات) .
أبو العلاء (منتخبات) .

٢ ـ الأدب العربي في الأندلس

تمهيد : لمحة جغرافية وتاريخية موجزة .

ا ـ الشعر :

فنونه ـ تطوره ـ الموشحات والزجل ـ الاتجاه الشرقي وأثره في الأدب الأندلسي ، ظاهرة التقليد والتجديد ـ خصائص الشعر الأندلسي .

١ ـ الشعر المحافظ : أشهر الشعراء :

ابن هانىء : ما شئت لا ما شاءت الأقدار ....

ابن شهيد : تردد فيها البرق حتى حسبته ....

ابن درّاج : ولما تدانت للوداع ....

٢ ـ الشعر المجدد :

ابن زيدون ، في وصف الطبيعة : إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً ....

المعتمد : منتخبات .

ابن عبدون ، في رثاء بني الأفطس : « الدهر يفجع بعد العين بالأثر » ....

ابن خفاجة ، في وصف الجبل : وأرعن طماح الذؤابة باذخ ....

٣ ـ الموشحات :

تعريفها ـ نشأتها ودوافعها ـ هيكلها ـ أغراضها ـ أشهر الوشاحين :

ابن سهل الاسرائيلي : هل درى ظبي الحمى ....

ب ـ النثر

١ ـ الخطابة : خطبة عبد الرحمن الأوسط في أهل ماردة .

خطبة منذر بن سعيد البلوطي لسفير امبراطور القسطنطينية .

٢ ـ أشهر الكتاب :

ابن عبد ربه : منتخبات من العقد .

ابن زيدون : منتخبات من الرسالة الجدية .
ابن حزم : منتخبات من طوق الحمامة .
لسان الدين بن الخطيب : (رسالة إلى ابن خلدون – مقامة مكناسة) .
ابن شهيد : منتخبات من التوابع والزوابع .

3 ـ الأدب العربي في المغرب

تمهيد : لمحة جغرافية وتاريخية موجزة .
الاتجاه الشرقي والأندلسي وأثرهما في الأدب المغربي ـ ظاهرة التقليد والتجديد ، مميزات الأدب المغربي .

ا ــ الشعر :

عصور الأدب ـ أشهر الشعراء :
ابن زنباع : (أبدت لنا الأيام ...)
ابن حبوس : (رد الطرف حتى ...)
ابن المرحل : منتخبات .
الجراوي : منتخبات .
عبد العزيز الفشتالي : طائيته في الوصف .
ابن الونان : من أرجوزته في الحكم .

ب ــ النثر :

١ – الخطابة :
خطبة للمولى إدريس الثاني ـ خطبة لأبي حفص الأغماتي ـ خطبة لابن تومرت .
٢ – اشهر الكتاب :
القاضي عياض : منتخبات ـ ابن عيسى : منتخبات ـ ابو جعفربن عطية : منتخبات ـ الحسن اليوسي : منتخبات ـ عبد الواحد المراكشي : منتخبات ابن الطيب العلمي : منتخبات .

4 ـ عصر النهضة الحديثة

١ ـ عصر ما قبل النهضة في الشرق وخصوصاً مصر .

٢ ـ الإشارة الى النهضات المنبثقة في كل بلدان العالم العربي .

٣ ـ الشعر في النهضة الحديثة مع الإشارة الى التيـارات الجديدة والمؤثرات الدخيلة .

ا ـــ الشعر :

١ ـ دور التقليد : البارودي ـ منتخبات من شعر الحرب .

٢ ـ الطور المجدد المحافظ : حافظ : رعاية الطفولة ـ شوقي: نكبة دمشق ـ منتخبات أخرى ـ مطران : منتخبات من فتاة الجبل ـ الرصافي : منتخبات وطنية .

٣ ـ الطور المجدد : ايليا أبو ماضي : فلسفة الحياة ـ الشابي : أغاني الرعاة ـ عمر أبو ريشة : النسر ـ مفدى زكرياء : ثوريات .

٤ ـ فنون الشعر الرئيسية : المسرحي او التمثيلي ـ القصصي أو الملحمي ـ الغنائي .

المسرحية : تعريفها ـ شروطها ـ أنواعها ـ أقسامها ـ العرب والمسرح ـ المسرح عند شوقي ـ مصرع كليوباترة ـ أميرة الأندلس ـ منتخبات .

الملحمة : تعريفها ـ أنواعها ـ مظاهر ملحمية في الأدب العربي ـ خصائص الشعر الغنائي .

ب ـــ النثر :

النثر في النهضة الحديثة مع الإشارة إلى اطواره الثلاثة :

١ ـ طور التقليد : حسن العطار ـ أبو عبدالله السليماني : منتخبات .

٢ ـ الطور المحافظ المجدد : جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، المنفلوطي ـ منتخبات .

٣ ـ أشهر فنون النثر المستجدة :

ا ـ المقال الاجتماعي ، ولي الدين يكن ، جبران خليل جبران .

ب ـ المقال السياسي : فكري أباظه ، المازني : منتخبات .

جـ ـ المقال الأدبي والعلمي : طه حسين ، الزيات ، العقاد، ميخائيل نعيمة، أحمد أمين ، أحمد زكي : منتخبات .

د ـ القصة الحديثة مع التعريف بها : محمود تيمور – عبدالرحمن الفاسي – نموذج .

٤ ـ المذاهب الأدبية : الكلاسيكية ، الرومانتيكية ، الواقعية ، الرمزية ، الفن للفن ، نموذج .

٥ ـ حركة الترجمة وأثرها في العلوم والآداب .

٦ ـ حركة الاستشراق وأثرها في اللغة العربية .

القسم الشرعي

اللغة العربية وآدابها

اللغة العربية هي إحدى اللغات التي انشعبت من اللغة السامية . واللغات السامية في نظر الباحثين وأولهم العالمان الألمانيان « شلوتزر وإيكهورن » هي اللغات : الآشورية والبابلية والفينيقية والعبرية والحبشية والعربية . ولم يكد ينتصف القرن السابع عشر حتى وضحت لدى الباحثين الروابط الوثيقة بين معظم أفراد الفصيلة السامية بعد أن فطن الباحثون القدامى في العصور الغابرة إلى صلات القرابة التي تربط هذه اللغات بعضها ببعض ، وعلى هذا يمكن لنا أن نتساءل : هل كانت الأمم الناطقة بهذه اللغات من أصل واحد ؟ والجواب على هذا ، هو أننا لا نستطيع أن نسلم بذلك ، وإن كان المفروض أن تكون هذه الأمم – التي نطقت باللغات السامية – من أصل واحد ما دامت لغاتها تنتمي إلى فصيلة واحدة ؛ فاللغة لا تنتقل من الأصل إلى الفرع فحسب بل يمكن لها أن تنتقل إلى الفرع وإلى أي فرع من شعب أجنبي عنها اختلطت به ، واشتبكت في صراع مع لغته ، وتغلبت عليها ؛ فمن المرجح إذن أن تكون بعض هذه الشعوب غير سامية ، انتقل إليها اللسان السامي مع النازحين – من الساميين – إلى بلادها ثم دخل في صراع مع لغتها القديمة فانتصر عليها . وقد اختلف العلماء والباحثون في الموطن الأول للأمم السامية ، وكان أصح هذه الآراء وأقواها وأقربها الى العقل والأدلة هو الرأي القائل : إن المهد الأول لهم هو القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية .

ومن الأدلة على ذلك ان الهجرة في العصور السابقة للتـاريخ ، وفي العصور التاريخية كانت تتجه دائمـاً من هذا القسم الى الشمال والشرق (سوريا والعراق وما اليهما) .

ومن العسير أن يكشف أي باحث عن مراحل النشأة الأولى للغة العربية ، بل من المستحيل ان تحتفظ هـــذه اللغة بوحدتها دون ان تنشعب الى لهجات ولغات تبعاً لتشعب قبائلها ؛ فمن الطبيعي ان ينتج من كثرة الحل والترحال ، وتأثير الاختلاط ، والبيئة ، ووسائل المعيشة اختلاف في طرق التعبير مما جعل في كلام كل قبيلة لهجة أو لغة خاصة بها ، تختلف عـــن الأخرى في الابدال ، والإعلال ، والبناء والبنية ، والإعراب ، وهنات المنطق في كل لهجة من هـــذه اللهجات ـ ما عدا قريشا ـ ومن هذه الهنات : عجعجة[1] قضاعة ، وطمطانية[2] حِمْـيَر ، وفحفحة[3] هُذَيل ، وعنعنة[4] تميم ، وكشكشة[5] أسد أو ربيعة ، وقطعة[6] طيء ، إلى غير ذلك من الهنات الأخرى .

ولغتنا العربية هذه مزيج من العدنانية لغة الشمال التي سادت على جميـــع أخواتها ، والقحطانية لغة الجنوب التي تغلبت أيضاً على أخواتها ؛ فقد كان بين

---

١ ـ العجعجة : تحويل الياء جيما اذا وقعت بعد العـــين فيقولون « الراعج خرج معج » أي « الراعي خرج معي » ، ويقال إن العجعجة هي قلب الياء المشددة جيما فيقال « مرج » في « مري » .

٢ الطمطمانية : هي جعل أم بـــدل أل فيقال « ليس من امبر امصيام فيامسفر» أي ليس من من البر الصيام في السفر ، و « طاب امهواء » في «طاب الهواء» .

٣ ـ الفحفحة : هي جعل الحـــاء عيناً مثـــل : « العسن أخو العسين » في « الحسن أخو الحسين » .

٤ ـ العنعنة : هي ابدال العين من الهمزة المبدوءة بهـا فيقال في : «أن»،«عن»وفي «أمان» ، «عمان» .

٥ ـ الكشكشة : إبدال الشين في كاف الخطاب في المؤنث مثل : « عليش » في « عليك »، أو هي زيادة شين بعد الكاف المكسورة مثل عليكش في عليك، وأشهر ما يكون ذلك في الوقف .

٦ ـ القطعة : هي حذف آخر الكلمة . يقولون (يا أبا الحكا) يريدون يا أبا الحكم .

الشعبين اتصال سياسي وتجاري ، فالقحطانيون ينتقلون إلى الشام للتجارة او للحرب فيختلطون بالعدنانيين اختلاطاً نشأ منه تجانس بين اللغتين في المنطق ، ثم تفرقت بعد ذلك قبائل الجنوب لأسباب سياسية واجتماعيــة واقتصادية ، وكوارث طبيعية اهمها : انهيار سد مأرب ، ونكبة البلاد بسبب الطوفان العظيم ، فضعف شأن الحميريــة ، بينما كان العدنانيون يسيرون قُدماً نحو النهضة والوحدة والألفة .

وكان للأدب ، شعره ونثره ــ من خطب ووصايا ــ لغة تفهمها القبائــل المختلفة ، وإن كانت بعيدة شيئاً ما عن لهجات هذه القبائل او لغاتها . وكانت أقرب هذه اللغات إلى لغة الأدب هي لغــة قريش ، اذ كان العرب من مختلف القبــائل يُجمعون عليها في الاسواق ، ويستمعون الى ما كان يدور في هــذه الأسواق ، من خطب ، ووصايا ، ومفاخرات ومنافرات ، وقصائــد شعرية . وكان الشاعر او الخطيب يتحرى في اختيار الالفاظ والأساليب ما كان شائعاً معروفاً ، ليفهم السامعون نظمه او نثره ، وليكثر مشايعوه .

وكانت مكة ذات موقع هام كان له اثره في توحيد اللغة وذوبان اللغات الأخرى في لغة قريش ؛ فهي محط للقوافل الآتيــة من الجنوب ، والتي تذهب إلى الشام تمر ــ ذهــاباً وإيابا ــ بمكة ، وفيها الكعبة التي تعظمها القبائل المختلفة ، وتحج اليها . وفي مكة وضواحيها أشهر الأسواق العربية وأقواها أثراً في تهذيب اللغة العربية : « عكاظ » ، و « مجنّة » ، و « ذو المجاز » . وكان العرب في كل ناحية حريصين على حضور تلك الأسواق ينزلونها فيستفيدون منها علمــاً واسعاً وأدباً رفيعاً .

وقريش كانت تقيم بمكــة تحتل المرتبة الأولى بين القبائل العربية لمــا لها من شرف وزعامة في الحج ، ورياسة في عكاظ . وقد هيأت هذه الأمور لأن تنشأ لغة أدبية رفيعة ، تأخذ من هذه اللهجات جميعها ، وتنتشر بين القبائل ، فتسود اللهجــاتِ واللغاتِ الأخرى ، ويقبل عليهــا الشعراء والخطباء ،

يؤثرونها على غيرها وينشرونها في الانحاء ، ثم أن ينزل القرآن بها فيتم لها الذيوع والشهرة ، هذه اللغة هي لغة قريش .

قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه « الألفاظ والحروف » :

« كانت قريش اجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، واسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس . والذين عنهم نُقلت اللغة العربية ، وبهم اُقتُديَ ، وعنهم أُخِذَ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قَيْس وتَمِيْم وأَسد ؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما أُخذ ومعظمه ، وعليهم اُتكل في الغريب وفي الإعراب ، والتصريف ، ثم هُذَيْل وبعض كِنانة ، وبعض الطائيين . ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم » .

وقد عرف العرب قيمة لغتهم ورقيها وجمالها ، فحرصوا على جودتها وحاولوا السيطرة عليها ليستعملوها في جميع أغراضهم المعيشية وليتخذوها سلاحاً يشهرونه في وجوه أعدائهم ، وفي إثارة المنازعات والخصومات ، وإشعال نار الحرب ، وإثارة الحمية للأخذ بالثأر ، وفي التباهي بكرم الأرومة ، والتفاخر بالنصر وتصوير ما في البيئة من مشاهدات ، وتسجيل الوقائع والقصص . وأقاموا على هذه اللغة يُعنون بها لقيمتها العظيمة ، ويهيئون الظروف لأولادهم ليجيدوها فكانوا يبعثون بهم الى أماكن اللهجات الفصيحة ومواطنها ، ليشبوا وقد مرن لسانهم وأصبحت الفصاحة من طبيعتهم . كما كانوا ينشئون أولادهم على يد أدبائهم وشعرائهم ، ليصبحوا متفوقين في اللغة والأدب .

ومن الشواهد المؤيدة لذلك تنشئة زهير بن ابي سُلمى على يد خاله بشامة ابن الغدير الذي خرَّجه شاعراً ، وانضواء الرواة تحت لواء الشعراء المبرّزين يحفظون أشعارهم ، ويدرسونها ويحذون حذوها .

وكان ذلك سبباً في وجود مدارس وبيوت شعرية ، فهذه مدرسة « عبيد الشعر » التي تضم زهيراً وابنه كعبا والحُطَيئة وغيرهم . وهذا بيت زهير الذي يجمع زهيراً وأبناءه وأحفاده وكلهم يقرض الشعر ؛ وهناك كانت مدرسة

الصعاليك التي كان من تلاميذها الشنفرى، وتأبط شراً .

وآداب اللغة العربية تشتمل على اللغة ، والشعر ، والخطابة ، والنسب ، والأمثال ، والأخبار ، ومجالس الأدب ، والأسواق . ولم نجد من بحث في آداب هذه اللغة في عصر ما قبل التاريخ لعدم وجود مصادر تساعد على ذلك ، وللاعتقاد بالفكرة القائلة إن العرب كانوا في جهالة عمياء وفوضى ضاربة أطنابها في كل ناحية ، لا همّ لهم إلا النهب والسلب والغزو والحروب ، مع أن لغتهم في عصر ما بعد التاريخ تثبت أنهم كانوا من أعرق الأمم في المدنية ، لأن هذه اللغة من أرقى لغات العالم لفظاً وأسلوباً ومعنى ، وهي تثبت أن أهلها كانوا أهل ذكاء وتجارب .

وإن قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردَّمِ أم هل عرفتَ الدار بعد توهمِ ؟

وقول زهير :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً أو معاداً من قولنا مكرورا

لأقوى دليل على أن هذه اللغة ، وتلك الآداب قد وصلتهم ناضجة ، قد عالجها مَنْ قبلهم قروناً طويلة .

وتمتاز اللغة العربية بميزات يقل او ينعدم وجودها في غيرها وهي :

١) **الاعراب** : وهو تغيير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلة عليها رفعاً ونصباً وجراً وسكوناً،وهذه ميزة كبرى للغة العربية بين اللغات الأخرى عدا الحبشية والالمانية .

٢) **كثرة المترادفات**: بما فيها من ثروة كبيرة في أصول الكلمات والمفردات في مختلف أنواع الكلمة : اسمها وفعلها وحرفها ، ولم تجتمع هذه في أي لغة من اللغات السامية الأخرى، وتكاد تندر في أي لغة من لغات العالم ، فللنور والظلام، والمطر والريح ، والماء والبئر أسماء كثيرة تبلغ عشرين في بعضها وتصل إلى

ثلاثمائة في بعضها الآخر ؛ وغير ذلك من الاسماء الكثيرة في هذا الصدد .

٣) **دقة التعبير** : اذ تزخر العربية بـألفاظ لتـأدية فروع المعـاني أو جزئياتها .

٤) **الايجاز** : وهو دلالة اللفظ القليل على المعنى الكثير .

٥) **والمجاز والكناية ، واساليب البديع** : وذلك في العربية أرقى مما في غيرها لانها لغة الشعر تسهل فيها التورية والألغـاز وتكثر فيها الكنايات والإشارات .

٦) **والتصريف ، والنحت، والابدال والاعلال، والتعريب** : وتختلف أساليب اللغة العربية تبعاً لاختلاف فنون القول ، وما يتميز به كل فن منها في طبيعته والموضوع الذي يتناوله : شعراً ، أو نثراً أدبيـاً ، أو رسائل ، أو خطابـة ، أو قصة ، ومن تاريخ ، وتدوين علوم . والاختلاف في الأسلوب، وطريقة التعبير يميز كل فن من هذه الفنون .

وقد تطور الاختلاف في هذه الأساليب حتى تميزت تميزاً واضحاً ، وأصبح كل فن متميزاً بأسلوب يُعرف بمجرد أن يسمعه السامع أو يقرأه القارىء .

وفنون الأدب – شعره ونثره الفني – من أهم هذه الفنون ، ومن أكثرهـا عناية بالأسلوب الذي هو من أهم مقوماتها بل من عناصرها الأساسية .

وقد لا تهتم الفنون الأخرى بالأسلوب نظراً لأنه وسيلة إلى غـاية هي تقديم الحقائق واضحة ليسهل فهمها . أما فنون الأدب فعمادها رقة الأسلوب ، وحسن البيان ، وبلاغة القول .

وتنقسم فنون الأدب الى نظم ونثر فني .

فالنظم هو : الكلام الموزون المقفى، هذا هو معناه في اصطلاح العروضيين .

أما في الاصطلاح الأدبي فهو : مخاطبة الوجدان والعواطف بأسلوب يغلب

عليه الخيال ، ويكثر في عباراته التشبيه ، واستخدام الكلام في غير ما وضع له عن طريق المجاز والكناية .

والنثر هو : الكلام غير الموزون ؛ وهو إما مسجوع وإما مرسل .

وبدءُ الشعر العربي غامض علينا لبعد العهد ، ولاعتماد الأدباء والشعراء على ذاكرة الرواة والمنشدين ، دون أن يدونوا ما قالوا ؛ وأول شعر صحت روايته هو الذي كان منذ أواسط القرن الثاني قبل الهجرة .

وقد قالوا إن أول من قصَّد القصائد ، وذكر الوقائع هو المُهَلْهِل ابن ربيعة التغلبي ، في قتل أخيه كليب ، وتبعه الشعراء مثل امرىء القيس وطرفة وغيرهما من الشعراء الذين نظموا الشعر الذي ندرسه الآن .

وقد سبق أن قلنا – عند الحديث عن اللغة العربية – إن الأدب ، شعرَهُ ونثرَهُ ، قد عولج قبل أن يصل إلينا على هذه الصورة ، وعلى هذا فإن هؤلاء الشعراء الذين نقرأ لهم هذا الشعر لا بد أن يكون قد سبقهم قوم هذبوا هذا الشعر ، ورققوه ، وجوَّدوه حتى وصل إلينا على هذه الحالة من النضج .

وكان العربي يقول الشعر بالفطرة والبديهة لبداوتهم إذ كانت البيئة البدوية مرتع الخيال ، ولأنه كان حراً طليقاً لا سلطان عليه فيها ، وقد عاش في هذه الارض المبسوطة الرقعة ، وفيها ما فيها من صفاء السماء ، ونقاء التربة ، فحلَّق خياله في أجوائها يستعين بلسان فصيح ، ولغة قد سيطر عليها ، وملكَ ناصيتها .

وقد طرق الشعراء أبواباً كثيرة من الشعر فوصفوا ومدحوا وهَجَوْا ودوَّنوا الأخبار وضربوا الأمثال ، وسجلوا كل ما في بيئتهم من عادات وأخلاق وأحوال اجتماعية ، وغير ذلك من كل ما كان في حياتهم وتربتهم ، فكان الشعر سجلاً حافلاً بكل ألوان الحياة الجاهلية .

وسترى صورة لحياة البيئة العربية الجاهلية في ما سنورده من شعر للشعراء الذين سندرس لهم من المقررين في المنهج .

وأجود ما قيل من الشعر القديم المعلقات السبع أو العشر ، وكان العرب يتناشدونها في مجتمعاتهم ، معجبين بما اشتملت عليه من محاسن الشيم ، وبديع المعاني ، وحسن التشبيه وغير ذلك .

وأصحابها : امرؤ القيس ، وطَرَفَةُ بن العبد ، وزُهير بن أبي سُلمى ، ولَبِيد بن ربيعة ، وعمْرو بن كلثوم ، وعَنْتَرَة بن شدّاد ، والحارث بن حِلِّزَة ، والأعشى مَيْمون ، والنابغة الذُّبياني ، وعَبِيْد بن الأبرص .

النثر : أُثر عن العرب من منثورهم الجاهلي بعض الأمثال والحكم ، والخطب والوصايا .

والامثال والحكم من الآداب المهمة ، ومن الأساليب التي كان العرب يؤدون بها معانيهم في كناية دون تصريح ، وفي إيجاز وحسن تشبيه .

والمثل هو : القول المحكيُّ السائر الذي يشبه مضربه بمورده ، ولم يترك العرب باباً منها إلا ولجوه ، وهي تعدّ مرآة للأمة يبدو فيها أدبها ولغتها ، وتنعكس فيها حالتها الاجتماعية والثقافية .

والحكمة هي : قول يتضمن حكماً من الأحكام يكون صحيحاً مسلّماً به .

وكل من المثل والحكمة قد ورد نثراً ونظماً .

فمن الامثال النثرية : « إن العَوان لا تُعلَّمُ الخِمْرة » و « سبق السيف العذَل » و «ما يوم حليمة بسرّ » .

ومن الامثال النظمية :

إني وقتلي سُليكا ثم أعقلَهُ كالثور يُضرب لما عافت البقر

ومن الحكم النثرية : « أنجز حر ما وعد » ، « اترك الشر يتركك » ، « بعض الشر أهون من بعض » .

ومنها نظماً :

قد قيلَ ما قيلَ إنْ صدقاً وإن كذبا فما اعتذارُك من قول إذا قيلا

وأما الخطب والوصايا فكل منها يُراد به جملة من القول قصدَ الترغيب فيما ينفع ، والتنفير مما يضر ، وقد تطرُق الخطابة باب الفخر والمدح ونحو ذلك .

والفرق بينهما أن **الخطب** تقال في الجامع والمحافل ، والأيام والمواسم .

وأما الوصايا : فإنها كثيراً ما تصدر من شخص لعشيرته ، أو سيد لقبيلته عند نزول أمر ، أو عند حلول مرض وما شا كل ذلك .

وكان العرب من أحوج الناس إلى الخطابة والوصايا ؛ لاستنهاض الهمم ، وإيقاظ الحمية ، والتحذير من عار الغلَبة ، وذلّ الدمار ، وغير ذلك من مقاصد الخطب والوصايا[١] .

وكان لكل قبيلة خطيب ، كما كان لكل قبيلة شاعر ، ولهم في الخطابة عادات . ومن أشهر خطبائهم قُسّ بن ساعدة الإيادي الذي سنحدثك عنه بعدُ .

وإذا أردت أن تستزيد ، فارجع إلى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه. ذلك لأن مقامنا هذا لا يتسع للتفصيل في هذا الباب ، وها قد تجاوزنا الحد الذي ينبغي أن يكون عليه هذا البحث ، تحرياً للدقة التي ألزمنا أنفسنا بها في المقدمة .

موضوعات للبحث الادبي

١ ـ تعرضت اللغة العربية ـ كسائر اللغات الحية ـ لظروف وطوارىء وتعاقبت عليها أحوال شتى أثرت في ألفاظها، ودخلها كثير من الألفاظ الأعجمية قبل أن تدون وتضبط .
ناقش ، ووضح ، واستشهد .

---

(١) هناك اقسام اخرى للنثر لم نتعرض لها لقلة ما ورد من نصوصها كالمنافرات .وسجع الكهان ... الخ .

٢ ـ للغة العربية خصائص تميزها من غيرها، وتدل على مبلغ عقول أصحابها من الذكاء والرقي .
وضح هذه الخصائص وادعم قولك بالبرهان .

٣ ـ عُني العرب بجمع الأمثال عناية فائقة ؛ لأنها كانت من بين ما احتاجوا اليه في تحقيق ألفاظ اللغة .
فما مظاهر هذه العناية ؟ وكيف كانت عاملاً مهماً في تحقيق ألفاظ اللغة؟

٤ ـ عرف العرب قيمة لغتهم ، فحرصوا على جودتها ، وعُنوا بها .
وضح مظاهر هذه الجودة ، وتلك العناية مؤيداً ما تقول بالأدلة .

المراجع

١ – مجمع الأمثال — للميداني
٢ – جمهرة الأمثال — لابي الحسن العسكري
٣ – الشعر والشعراء — لابن قتيبة
٤ – الحماسة — لابي تمام
٥ – العقد الفريد — لابن عبد ربه
٦ – تاريخ التمدن الاسلامي — لجورجي زيدان
٧ – تاريخ آداب اللغة العربية — » »
٨ – الادب الجاهلي — للدكتور طه حسين
٩ – فجر الاسلام — لاحمد أمين
١٠ – الفن ومذاهبه في النثر — للدكتور شوقي ضيف
١١ – الفن ومذاهبه في الشعر — » » »
١٢ – الحياة الادبية في العصر الجاهلي — لعبد المنعم خفاجة
١٣ – مصادر الشعر الجاهلي — للدكتور ناصر الدين الاسد

العرب وحضارتهم

العرب أمة من الشعوب السامية العريقة في القدم ، وهم بالنظر إلى أصلهم ثلاثة أقسام :

١ – **العرب البائدة** : وهم العرب الأولون ، الذين لم تصلنا أخبارهم لقدم عهدهم ، وقد قيل إنهم قبائل سبع : عاد ، وثمود ، وصَحَارِ ، وجاسِم ، ووبار ، وطَسْم ، وجَدِيْس .

ومساكنهم كانت بعُمَان والبحرين ، واليمامة . أما لغتهم فيقال إنها كانت من اللغات الخشنة .

٢ – **العرب العاربة** : وهم عرب اليمن أو عرب الجنوب ، وينسبون إلى يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن أرَفخشاد بن سام بن نوح ، وقد روي أن قحطان كان ملكاً سبق بملكه عهد الاسكندر المقدوني بنحو الف وسبعمائة سنة .

وقيل إن العرب العاربة هم أصل العرب ولذا سميت بذلك . أما لغتهم فهي اللغة الحِمْيَرِيّة وهي اللغة العربية الأصلية .

٣ – **العرب المستعربة** : وهم نسل عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ويسمون عرب الشمال ، وسموا المستعربة لأنهم نزحوا إلى الجزيرة العربية ، واختلطوا بأهلها فتعربوا . ومن هؤلاء : الحجازيون والنجديون ، والأنباط ، وأهل تَدْمُر . ومن قبائلهم : نِزار ، وربيعة ، ومُضَر ، وبكر ،

وتَغْلِب ، وذُبْيان ، وقُرَيْش .

حضارة العرب :

قامت للعرب المتحضرين ممالك من أشهرها مملكة حِمْيَر ،ومملكة المناذرة بالحيرة ، والغساسنة بالشام ، وكِنْدة بنجد .

مملكة حِمْيَر : هي مملكة سَبَأ ، امتدت من القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن السادس بعده،وقد امتد نفوذها الى اليمن وحَضْرَمَوْت، وشواطىء المحيط الهندي . ومن أشهر ملوكها : التبابعة .

وقد روى التاريخ القديم أن « أن ارض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها ، وأكثرها جناناً، وغيطانا ، وأفسحها مروجاً بين بنيان وجسر مقيم، وشجر موصوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار متفرقة . وكان السائر فيها لا يفارقه الظل ، ولا يرى الشمس ، لأن ظل العمارة والشجر قد كسا الأرض وسترها ، فكان أهلها في أرغد عيش وكانت مملكتهم من أعظم الممالك » . وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك فقال تعالى :

« لَقَدْ كانَ لِسَبَأٍ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنتَانِ عَنْ يَمينٍ وشمالٍ كُلوا من رزقِ رَبِّكمْ واشكُروا لَهُ بَلدَةٌ طَيِّبةٌ وربٌّ غَفورٌ » .

وكانت قاعدتها « ريدان » وهي الآن « ظفار » .

وقد كانت بين بلاد اليمن ، وبين البلاد الأخرى صلات تجارية كبيرة. ولم تقصر تجارتهم على منتجات بلادهم بل كانت تشمل كل ما يجلبونه من بلاد أفريقيا والهند من أنفس السلع كالعاج والحجارة الكريمة والعطور ، وكانت تجارة الرقيق أهم ضروب التجارة عندهم .

مملكة المناذرة : وهي مملكة اللخميّين .

وقد امتد عهدها من أوائل القرن الثالث إلى القرن السابع للميلاد . ومن ملوكها جذيمة الأبرش[1] .

وأول من اتخذ الحِيْرة داراً لملكه ابن اخته عمْرو بن عَديّ . واشتهر من ملوك هــذه المملكة النعمان الأول ، صاحب الخَوَرْنق والسَّدير ، وعمْرو ابن هند .

وكان ملوك الحيرة موالين للفرس يأتمرون بأمرهم. وظلت الحيرة تابعة للفرس إلى أن قوّض الخلفاء المسلمون دولة الأكاسرة واحتلوا بلاد الفرس .

وكانت الحيرة من أعظم المدنيات الراقية في ذلك الوقت ، وكانت تنافس القسطنطينية وعاصمة الفرس المدائن .

مملكة الغساسنة : وكانت تشمل معظم بــلاد حوران والجولان وشرقيّ الأردن ، وقد امتد سلطانهم من جبل الشيخ إلى العَقَبة ،وكانوا عمالاً للقياصرة البيزنطيين.ومن أشهر ملوكهم : الحارث بن جبلة الأعرج الذي ولاه الأمبراطور يوستنيانوس سنة ٥٢٩م ملكاً على عرب سوريا ، وقد انتصر على الحيرة في يوم حليمة [2] ، وكانت مملكة غسان أيضاً من المدنيات الراقية .

مملكة كندة : وهي من الممالك التي امتد سلطانها من سنة ٤٥٠ إلى سنة ٥٤٠م وقد انهارت هذه المملكة بانهيار مملكة التبابعة الذين كانوا يؤيدونها وقتــل ملكها حُجْر والد امرىء القيس الشاعر المشهور .

وهكذا نجد أن العرب قــد انشأوا المدن ، وشادوا القصور ، وكانت لهم صلة وثيقة بأرقى الشعوب حضارة ومدنية فسبقوا الرومان بعدة قرون .

---

١ ــ انظر مجمع الامثال للميداني في المثل (لا يطاع لقصير أمر) .

٢ ــ انظر مجمع الامثال في المثل (ما يوم حليمة بسر) .

ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى فكرهم ولغتهم وأدبهم لوجـدنا لهم بصيرة نافذة ، ومعارف واسعة تدل على حضارة ورقي في الفكر العربي .

وهذه المعارف تقوم على الخبرة والحنكة أكثر مما تقوم على النظر .

ومن أهم معارفهم : علم الأنساب الذي ازدادت عنايتهم به رغبةً في المفاخرة بالأصل العريق ، وبأمجاد الآباء والأجداد، وقد رتبت أنسابهم في ست مراتب: الشعب، ثم القبيلة، فالعمارة، فالبطن، فالفخذ، فالفصيلة، وكان النسابون يحفظون أسماء القبائل وفروعها حفظاً دقيقاً .

وقـد كثر النسابون في الجاهلية ، ومن أشهرهم ، عميرة أبو ضمضم ، وزيد ابن الكيِّس النَّمَري ، وعبدالله بن عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم .

التاريخ : ولم يكن بالصورة التي نعرفها اليوم بل كان اخباراً متفرقة حدث بعضها في بلادهم ، وأخباراً نقلت اليهم من الذين عاشروهم من الأمم الأخرى .

ومن الأخبار ايام العرب ووقائعهم المشهورة ، وقصة سد مـأرب وقصة أصحاب الأخدود ، وفتـح الحبشة لليمن ، وقصة أصحاب الفيل وقدومهم الى الكعبة ، وتاريخ الكعبة إلى أيام قصيّ بن كلاب . وحكاية بلقيس وسليمان وغير ذلك من الأخبار الكثيرة .

والطب من العلوم التي اشتهر بها الكلدان ، ومنهم أخذت العرب .

وكان التطبب نوعين : الأول التطبب بوساطة الكهان والعرافين وهو بالرقى والسحر أو بذبح الذبائح في الكعبة أو نحو ذلك .

والثاني : هو العلاج الحقيقي بالعقاقير وغيرها ، والحجامة والكيّ .

والطب البيطري : وقد مهروا في شئون الخيل وأحوالها لعنايتهم بها. ومن أشهر الأطباء البيطريين العاص بن وائل .

ومن بين المعارف : معارف طبيعية وهي (الريافة) معرفة أماكن المياه،

فكانوا يهتدون اليـــه بشم التراب أو برائحة بعض النباتات . ونزول الغيث ، والملاحة ، وقد عرفوهما عن طريق أسفارهم إلى الهند والحبشة للتجارة .

علم الفلك والنجوم: وقد اهتموا بذلك لأنها كانت دليلهم في أسفارهم، فإذا سألهم سائل عن الطريق المؤدي إلى بلد ما دلوه بقولهم « عليـــك بنجم كذا وكذا » فيسير حسب ما قالوا فيصلُ إلى ما يريد .

القيافة والعيافة : وعلم القيافة كان على نوعين : قيافة البشر وقيافــة الأثر . أما قيافة البشر فهي الاستدلال من ملامح الوجه ومظاهر الأعضاء في الإنسان على الخفايا .

وأما قيافة الأثر فهي الاستدلال بالأقدام والحوافر والخفــاف على حقيقة تارك الأثر ،وقد أتقن العرب ذلك حتى أصبح بعضهم يفرق بين أثر قدم الشاب والشيـخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثّيب . ولا تزال القيافة موجودة إلى اليوم عند بعض الدول العربية حيث يستعينون بها في الصحراء على ملاحقة المهربين أو الفارين من وجه العدالة .

وعلم العيافة : وهو زجر الطير (إثارته) بحصاة أو بصوت فإن طار ناحية اليمين تفاءل الزاجر ، وإن ولى ناحية اليسار تشاءم .

ولهذا كانوا إذا أرادوا السفر خرجوا مع الغلس ، والطير في أوكارها ، فيطيرونها فيتفاءلون أو يتشاءمون تبعاً لطيرانها .

وكان تعبير الرؤيا شائعاً عندهم وهو من قبيل الكهانة .

التوقيت : وهو التأريخ بكل عام فيه حدث مشهور ، وأشهر هـــذه الحوادث عام الفيل حيث أرّخوا به، كما أرّخوا بموت هشام بن المغيرة المخزومي.

وإن أردت تفصيلاً ومزيداً من ذلك فارجع إلى الكتب الآتية ففيها ما تريد:

الأغاني ، العقد الفريد ، معجم البلدان ليـــاقوت الحموي ، مروج الذهب للمسعودي، حياة الحيوان للدميري، وتاريخ ابن خلدون، ومجمع الأمثال للميداني.

موضوعات للبحث

١ – وصلت إلينا أخبار تنفي الزعم القائل بأن العرب كانوا أهل جهالة وهمجية ، وتثبت أنهم كانوا كبار العقول أهل ذكاء وصفاء ذهن وصدق نظر ، وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم .

حقق هذا الرأي مستدلا على صحته .

٢ – للعرب علوم اكتسبوها من تجاربهم ، وأخرى اقتبسوها من غيرهم ممن هاجر إليهم أو التقوا به في أسفارهم .

أبسط القول في ذلك مبيناً الأسباب التي دفعتهم إلى الاكتساب أو الاقتباس ، مبرهناً على مدى إتقانهم لهذه العلوم .

٣ – كيف تثبت أن العرب أصحاب حضارة عريقة ، وترد على من يزعم أن العرب عامة كانوا أهل فوضى وجهالة ؟

المراجع

مروج الذهب	للمسعودي
مقدمة ابن خلدون	
وفيات الاعيان	لابن خلكان
تاريخ الادب العربي	للمستشرق الالماني كارل بركلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار
تاريخ آداب العرب	لمصطفى صادق الرافعي
تاريخ التمدن الاسلامي	لجورجي زيدان
تاريخ آداب اللغة العربية	لجورجي زيدان
تاريخ العرب قبل الاسلام	لجواد علي (الجزء الاول)
فصول مختارة من كتب التاريخ	لطه حسين وآخرين
تاريخ الشعر السياسي	لاحمد الشايب
تاريخ العرب	لفيليب حتي

الحياة الجاهلية

لما كان الأدب الجاهلي قد رسم لنا بشعره ونثره صورة واضحة لهذه البيئة الجاهلية ، معبراً عنها أصدق التعبير ، كان لا بد أن ندرس الجزيرة العربية ، وحياة أهلها لنستطيع فهم الأدب الجاهلي ونعرف خصائصه .

جزيرة العرب :

تسامح القدماء في تسمية شبه الجزيرة العربية بجزيرة العرب . فهي ليست جزيرة بالمعنى المعروف لأن الماء لا يحيط بها من جهتها الشمالية . وهي تُحَدّ بالفرات وبادية الشام شمالاً ، والخليج العربي وعُمان شرقاً ، والمحيط الهندي جنوباً ، والبحر الأحمر غرباً .

وقد قسمها الجغرافيون خمسة أقسام :

الحجاز ، وتِهامة ، ونجْد ، واليَمامة ، واليمن .

والجزيرة العربية جزيرة جافة قاحلة ، مناخها قاريّ شديد الحرارة في الصيف ، شديد البرودة في الشتاء حتى ليخيم الثلج على رؤوس جبالها كما في الطائف مثلاً . ويعتمد أهل هذه الجزيرة على المطر ، وبعض الآبار والأودية التي لا يدوم فيها الماء .

وإذا قسنا بقاعها الخصبة بأرضها القفر وجدنا أن الخصب فيها قليل جداً بالنسبة الى القفار .

وقد سكن العرب الجزيرة العربية منذ أمد بعيد ، **وكان منهم أهل الحضر**

المقيمون في المدن كأهل اليمن ، وأهل البدو الذين يعيشون في الخيام ويتتبعون مساقط المياه ، ومنابت الكلأ في البادية ، وهم يعيشون على رعي الإبل يطعمون من لحمها ولبنها ، ويكتسون بصوفها ووبرها .

قال تعالى : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشِق الأنفس، إن ربكم لرءوف رحيم . »

وقال جل شأنه : « ومن أصوافها ، وأوبارها وأشعارها أثاث لكم ومتاع الى حين . »

ولم يتحضر من العرب سوى العدنانيين لقيامهم على البيت الحرام ، وإيلافهم رحلةَ الشتاء والصيف (فقد كانت بيدهم الزعامة التجارية في الجزيرة بعد أن كانت في يد اليمن) ولحضورهم الأسواق التجارية الأدبية كسوق عكاظ ــ كل هذا أثر فيهم فاستقروا وأثْروا وارتقوا في معيشتهم وحياتهم العقلية.

وتحضر أيضاً القحطانيون لحظّ بلادهم من الخصب، ووفرة ما تنتجه أرضهم من الزروع والثمار ، فكانوا يعيشون في رغد من العيش ، وكان حظهم من الرقي العقلي أعظم من حظ غيرهم .

وأهل البدو — وهم معظم سكان الجزيرة — أبرز ما فيهم وما يميزهم عن غيرهم الفقر، فقد عاشوا في أرض يندر فيها الخصب وتنعدم فيها المواد الأخرى التي تقوّم الحياة وتحفز السكان إلى الهدوء والاستقرار والخضوع لسلطان يكبح جماح حريتهم الفردية والاجتماعية . لذا كانت حياتهم متحركة غير مستقرة ، مضطربة ، يرقب العربي مواقع المطر فيهرع اليها أينما كانت لعله يظفر منها بمراعٍ لإبله وشائه التي هي عماد حياته ، والويل له إذا أخلف المطر وأطال في ذلك ، إنه سيذوق البؤس ألواناً ،وسيتقلب على أشواك الفقر تقض مضجعه، وتكاد تهلكه . ومثل هذه الحياة الشحيحة القاسية لا ينتظر منها هدوء ، ولا

يرجى منها فكر علمي إلا بقدر ما يحتاج إليه العربي في حياته هذه كالطب البيطري وغيره مما ذكرناه سابقاً .

فهل يضيف العربي إلى هذا البؤس ذلاً وخنوعاً ؟

كلا . إنه لا بد أن يتشبث بالحرية ، ويطرّح حياة الخنوع والذلة، وكيف يحتمل ذلك وقد قست عليه الطبيعة فلم تعوضه ما يمكن أن يخسره من حرية يرضى بها في سبيل العيش الخصب ، والبيئة الغنية فيكون له في ذلك عزاء .

إنه حين حُرم حياة الرخاء فرّ من حياة الخضوع ، وتحلل من عيشة الخنوع إلى الحرية يؤثرها ويتعلق بها إلى أقصى درجة التعلق يفضّلها ، ويدافع عنها ، وينكل بمن يحاول أن يسلبه إياها — ولكنه كان في حاجة إلى من يحميه من الذؤبان العربية ، ويحفظ لنفسه عزتها وانفتها وكبرياءها ، وإلا فكيف يعيش وحده وسط هذا الاضطراب المادي ، وهذه الفوضى التي لا تفرض نظاماً ، ولا تحقق عدالة داخلية ، ولا أمنا خارجياً ؟

لذا لجأ إلى الخضوع لحكومة صغيرة تكون مسؤولة عنه تحميه وتؤمّنه، وهو ممثلها أمام القبائل الأخرى وفي النوادي والأسواق ، والمجامع ، وفي الأدب ، وتكوّن المجتمع القبَلي نتيجة لذلك .

وقد طبعت هذه الحياة البدويّ على صفات خاصة ؛ جعلت الحياة الجاهلية حياة صاخبة : عراك دائب ، وحروب مهلكة ؛ فهو لا يحتمل الضيم أبداً ، وهو يريد أن يرفع قبيلته ويشيع رهبتها بين القبائل الأخرى ، وهو يريد أن يحصل على لقمة العيش بأي وسيلة كانت ، وهي عماد حياته ، فكيف يفرط فيها ؟ فكان القتال على المياه والآبار وما يجبى من القوافل وطرق التجارة ، وفي سبيل العزة والأنفة وحماية الجار والشرف ، وفي الثأر ونجدة الحليف أو القريب أو الصديق، ومن أجل الزعامة والسيادة ، وفي سبيل النفوذ الخارجي ، ونتيجة لحقد الفقير على الغني ، كثورة الشعراء الصعاليك والغربان على الأوضاع الشاذة في هذا المجتمع .

وبسبب ذلك نشبت الحروب الداخلية الكثيرة، والحروب الخارجية القليلة التي كانت كحرب العصابات، ينعدم فيها النظام الحربي من جيش منظم وخطط حربية ، ونحو ذلك من مقومات الدول الراقية . وكانت حروبهم الخارجية مع الفرس غالباً ، والحبشة والروم قليلاً .

وكانت هذه الحروب ضرورية لتحقيق كل الأغراض السابقة ، ولكنها صارت على مر الأيام غاية بعد أن كانت وسيلة، وحرفة ومفخرة يعدون شبابهم لها ، ويعتبرونها محك الرجولة ، ووسيلة من وسائل الفوز بإعجاب الرجال والنساء .

وجدب الصحراء ووضوحها وطبيعتها دفعهم الى التحلي بصفات كريمة كالجود ، والتفاني في إكرام الضيف ، وحماية اللاجىء، ونجدة المستغيث، وكان العربي شجاعاً حذراً يقظاً يتوقع الخطر ، فطرياً صريحاً لا يعرف الالتواء الى نفسه سبيلاً .

حالة العرب الدينية :

كانت هناك ديانات متباينة فمن عبادة اصنام وهي الغالبة ، وعبادة النجوم كالشمس في بعض جهات اليمن ، والقمر وعطارد والمشتري ، ومن مجوسية في بني تميم وزندقة في قريش، ومن يهودية في حُمَيْر وكِندة وبني الحارث بن كعب، الى نصرانية في ربيعة وغسان وبعض قُضاعة .

ومنهم من أنكر الخالق والبعث ولم يعترف بإلهٍ ولا دين ، ومن قال بوجود إلهين اثنين : إله القدر ، وإله الظلام . ومن أشهر أصنامهم اللات ، والعُزّى، ومَناة ، وقد ذكرها القرآن الكريم .

هذه صورة عامة للحياة الجاهلية ستكون لك خير عون عند دراستك للأدب تستطيع من خلالها أن تستنبط منه الحياة التي أوحت به وحالة البيئة التي صدر عنها ، وأن تحكم على نصوصه حكماً دقيقاً .

موضوعات للبحث

١ – كان الأدب العربي الجاهلي ، وليدَ الحياة الجاهلية في جميع مظاهرها . ناقش هذا الرأي موضحاً حياة العرب العامة ، وأثرها في الأدب مع الاستشهاد بما يثبت ذلك .

٢ – تخلق العربي بأخلاق جاءت نتيجة لطبيعة البيئة الجاهلية وأثرت في حياة العرب بعضهم مع بعض .
وضح هذا القول مبيناً أوضح مميزات النفس العربية .

٣ – وضح الأسباب التي جعلت كلا من القحطانيين والعدنانيين متحضرين دون غيرهم مبيناً مظاهر هذه الحضارة .

بعض المراجع

فجر الاسلام — لاحمد أمين
الادب الجاهلي — لمحمود مصطفى
التمدن الاسلامي — لجورجي زيدان
الحياة الادبية في العصر الجاهلي — لمحمد عبدالمنعم خفاجة
مصادر الشعر الجاهلي — للدكتور ناصر الدين الاسد
تاريخ الادب العربي — لكارل بروكلمان
ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار جـ ١
شعر الطبيعة في الادب العربي — لسيد نوفل
تاريخ النقائض في الشعر العربي — لاحمد الشايب

تراجم الشعراء

المهلهل

أصله : هو عديّ بن ربيعة التغلبي الملقب بالمُهَلْهِل (لقب بذلك لرقة شعره من قولهم ثوب مهلهل إذا كان رقيق النسج .

وقيل بل لقب بذلك لقوله :

لما توغل في الكراع هجينهم ‎ ‎ ‎ ‎ هلهلت أثأرُ مالكا أو منبلا

وقيل: لسهولة شعره سهولةً تبلغ الإسفاف أحيانا) .

ولقب كذلك بالزير لكثرة مجالسته النساء .

حياته : عاش المهلهل في ترف ولهو،عاش مع همام بن مرة (أخي جساس) متنادمين متصاحبين على اللهو والشراب ، لا يكتم أحدهما عن الآخر شيئاً ، ولا يهنأ له عيش بالبعد عنه ، وظلا على هذه الحال إلى أن وقعت حرب البَسُوس ، فكان المهلهل من مشعلي نارها وظل يقاتل حتى أسر ومات في أسره سنة ٥٣١ م

ولما كنا في حاجة إلى الوقوف على شعره من خلال حرب البسوس كان علينا أن نتناولها بشيء من التفصيل .

حرب البسوس :

كان كليب بن ربيعة (أخو المهلهل) سيدَ بني ربيعة لا يحلون ولا يرتحلون إلا بأمره ، مبجَّلا بينهم لا توقد نار مع ناره ، ولا ترِد إبل مع إبله ولا يحتبي أحد في مجلسه ، ولا يتكلم إلا أن يسأله وفي ذلك يقول المهلهل :

نبِّئت أن النارَ بعدك أُوقِدت واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلس
وتحدثوا في أمر كل عظيمة لوكنت حاضرَ أمرهم لم ينبسوا

وتزوج كليب جليلة بنت مرة بن ذهل من شيبان ، وكان لمرة عشرة بنين أكبرهم همام صاحب المهلهل ، وكان سيد بكر وفارسها بعد أبيه . وأصغرهم عمرو الملقب بجساس الذي كان فارس شيبان ، ومفتاح الفتنة الكبرى بين بكر وتغلب ، وكان لجساس خالة اسمها « الهيلة » بنت منقذ التميمي من سعد الملقبة بالبسوس ، نزلت على ابن أختها ولها ناقة يقال لها « سَراب » خرجت مع إبل جساس ترعى في حمى كليب الذي عظم شأنه فبغى على قومه فصار يحمي عليْهم مواقع السحاب والمراعي ويجير الوحش فلا يصاد ، وكان قد حمى أرض العالية فلا يكاد يدنو أحد من حماه الا أولاد مرة لما كان بينهما من مصاهرة ، وقد ضرب به المثل فقيل « أَمْنَعُ من كليب » .

وقد طافت ناقة البسوس بالحمى فوطئت عشّ قنبرة كان قد تركها كليب كرماً لما رآها ترقد على بيضها وطارت حينما رأته فأنشأ يقول فيها :

يا لك من قنبرة بمجحر خَلا لك الجو فبيضي واصفري[1]
ونقِّري ما شئت أن تنقِّري لا ترهبي خوفا ولا تستنكري
فأنت جاري من صروف الحذر إلى بلوغ يومك المقدَّر

---

١ ــ الاشطار الثلاثة الاولى مذكورة في قصة طرفة ، وكليب أقدم من طرفة .

فلما رأى كليب ما فعلته هـذه الناقة ـ وهو لم يعرفها ـ استدعى جساساً وسأله عن امرها فأعلمه به .

فاغتاظ كليب ومنع دخولها الحمى أبداً بعد هذا اليوم ، فأصر جساس على ان تعود مع إبله قائلاً: « تالله لتعودن مرة بعد مرة!» فقال كليب: «وأنصاب وائل لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها » . وأنشأ يقول :

إني ورب القمر المنير والحجر الأسود ذي الستور
لئن رعت في البلد المحجور وأفزعت جاري من الطيور
لأهلكنّ الضرع بالمطرور

فأجابه جساس قائلاً :

إني ورب الشاعر الغـرور وباعث المـوتى من القبور
وعالم المكنون في الضمير إن رُمْتَ منها مَعْقِر الجزور
لأثبَنَّ وَثبةَ المُغيرِ الذئبِ أو ذي اللبدة الهصور
بصارم ذي فنَن مشهور

وصادف أن خرجت ناقة البسوس ، ودخلت حمى كليب فرآهـا كليب فصوب سهمه نحوها فأصاب ضرعها فولت تجري ولها ضجيج ورغـاء شديد ، وبركت بفناء البسوس ، فلما رأتهـا صاحت « : واجوارَ جَسّاس ! واجوارَ همّام ! واجوارَ مُرّة ! واجوارَ بني ذهل بن شيبان » ! فقال لهـا جساس : « اسكتي فلكِ بناقتك أعظم منها.» فأبت، فظل يزيد في عوضها حتى صارت عشراً وهي رافضة، فقال جساس: « أقصري يا خالتاه فسيقتل جمل أعظم من ناقتك!» وكان لكليب بعيرمن كرام الإبل، فظن ـ لما سمع بذلك ـ أنه يقصده، وقد أراد جساس كليباً نفسه . ثم انتظر جساس يتوقـع خروج كليب الى

الحمى حتى بلغه ذلك فخرج اليه فقتله .

فلما علم المهلهل بذلك ـ وكان ينادم هماماً ـ ضحك وقال : « يد جساس أقصر من ذلك ! » ثم أقبلا على شرابها ، فأخذ المهلهل يشرب شرب الآمن ، وهمام يشرب شرب الخائف .

فلما سكر المهلهل ، ركب همام ولحق بأهله في اليمن ، ورجع المهلهل الى قومه سكرانَ ، فرأى القوم يعقرون خيولهم ، ويكسرون رماحهم وسيوفهم ، وقد خرجت العواتق من الخدور ، وقامت النوائح يَنُحنَ على كليبَ فقال :

«ويحكم ما الذي دهاكم؟ » فلما أخبروه الخبر قال « لقد ذهبتم شر مذهب ، أتعقرون خيلكم حين احتجتم اليها ، وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم اليه؟! » فانتهوا عن ذلك ، ثم نهى النساء عن البكاء وقال: «أستبقين للبكاء عيوناً تبكي الى آخر الأبد. » فظن قومه أنه لا زال سكرانَ ؛ لأنه لم يُعرف بالشجاعة في الحرب ، وعرف بالمجون واللهو ، ثم غدا إلى أخيه فدفنه ، ووقف على قبره يرثيه بشعر منه :

أرقتُ ونامت الشعراء عني ... وللباقين بعدُ بنا اعتبارُ
وبتُّ أراقبَ الجوزاء حتى ... تقارب من أوائلها انحدار
اصرِّف مقلتي في إثر قوم ... تباينت البــلاد بهم فغاروا
وأبكي والنجومُ مطلّعاتٌ ... إلى أن تحوِهَا عني البحارُ
على مَنْ لو نعيتُ وكان حيًّا ... لقاد الخيل يحجبُها الغبارُ
دعوتُك يا كُليبُ فلم تجِبْني ... وكيفَ يجيبُني البلدُ القفارُ

إلى أن قال :

أتغدو يا كليبُ مَعي إِذا ما　　حلوقُ القَوم يشحذُها الشفارُ
أقولُ لتغلبٍ والعزُّ فيهـــا　　أثيروها لذلكمُ انتصـــارُ
خذِ العهد الأكيد عليَّ عمري　　بتركي كل ما حوت الديارُ
وهجري الغانياتِ وشربَ كأس　　ولبْسي جُبَّةً لا تُستعارُ
ولست بخالع درعي وسيفي　　إلى أن يخلع الليلَ النهارُ

ومن قوله يرثيه :

إِنَّ تحت الأحجار حزما وعزما　　وقتيلاً من الأراقم كهلا
قتلته ذُهْلٌ فلست براض　　أو نُبيدَ الحيَّيْنِ قيساً وذُهلا
ذهب الصلح أو تَرُدُّوا كايبا　　أو أُذيقَ الغداةَ شيبان ثكلا
ذهب الصلح او تردوا كايبا　　او تنال العِداة هوْنا وذُلاَّ

وما زال المهلهل يبكي أخاه ، ويرثيه بالأشعار دون أن يفعل شيئاً سوى الوعيد والتهديد في أشعاره الى أن يئس قومه منه ، وسخرت منه بكر قائلين: ان المهلهل نائحة لا خير عنده ولا شر .

وبلغ المهلهلَ ذلـك فانتبه وهيَّأ نفسه للحرب ، وآلى على نفسه ألا يقرب النساء ، ولا يشم الطيب ، ولا يشرب الخمر حتى يقتـل بكل عضو من أعضاء كليب رجلاً من بني بكر بن وائل . فقـال له أكابر قومه « : إننا نرى عـدم التعجيل بالحرب حتى نعذر الى اخواننا ، فبالله مـــا تحدع بحرب قومك الا

أنفك ، ولا تقطع إلا كفَّك » فرفض المهلهل ، فقالوا له : « لا بد أن تخفض جناحك لنا ولهم.» فكره مخالفتهم، فذهبوا للمفاوضة لكنها لم تُجْدِ وقامت الحرب التي استمرت أربعين سنة ، وأشهر أيامهـا يوم الذنائب وهي أول وقعة اقتتل فيها الفريقان قتالاً عنيفاً وكثر القتل في بني شيبان ، فانهزموا وكان يوماً عبوساً قـال فيه المهلهل :

أكليبُ إن النار بعدك أُخمدت ... ونسيتُ بعدك طيبات المجلس

مَنْ للأرامل واليتامى والحِمَى ... والسيفِ والرمح الدقيق الأملس

ولقد شفيتُ النفس من سرواتهم ... بالسيف في يوم الذنيب الأغبس

إن القبائل أَضرمتْ من جمعنا ... يوم الذنائب مُرَّ موتٍ أحمس

فالإنسُ قد ذَلَّتْ لنا وتقاصرت ... والجن من وقع الحديد الملبَس

ويوم « واردات » وكان على رأس تغلب « ناشرة بن أغواث » وهـو من فوارس تغلب وفتاكها ، وقد خرج مع قومه بني تغلب في الحرب فلمـا عظمت مصيبته في بني ذهل حمل عباد بن الجهم اليشكري على ناشرة قاتل همام فقتله ، وكان اليشكريون معتزلين الحرب فقتل المهلهل (اليشكري هذا) وتجـالد الحيان إلى المساء ثم انصرف المهلهل يقول :

لما نعى الناعي كليبا أظلمت ... شمس النهار فما تريد طلوعا

إلى أن قال :

والخيلُ تقتحم الغبارَ عوابساً ... يَومَ الكريهة ما يُردنَ رُجوعا

وقد قُتل أيضاً الحارثُ بن مُرّة (أخو جساس) وأصاب المهلهل منهم

جماعة أسرى وقتلى فشفى بعض ما عنده من الغليل . وقال يذكر أخاه كليبا وغدْر بني شيبان ، ويحرض قومه على طلب دم كليب . وكانت العرب تسمي هذه القصيدة « الداهية » ويتناشدونها إذا أرادوا حرباً أو محالفة أو ضرب قداح ، وإذا أرادوا إنشادها اغتسلوا لها ومنها :

يا أيها الجاني على قومِه ما لمْ يكن لهُ بالخليق
خيانةً لم يدْرِ ما كنهها جانٍ ولم يصبح لها بالمطيق
كقاذفٍ يوماً بأجرامه في هُوَّةٍ ليس لها مِنْ طريق
إنَّ ركوبَ البحر ما لم يكُن ذا مَصْدرٍ من مُهلكات الغريق
إني رئيس الناس والمرتجى العاقدُ الشدّ ورَتق الفُتوق

إلى أن قال :

إن امرأً ضرَّجتُمُ ثوبَه بعاتكٍ من دمه كالخلوق
سيِّد ساداتٍ إذا ضمَّهم معظمُ أمر يومَ بؤس وضيق
لم يَكُ كالسيد في قومه بل مَلِكٌ دِينَ له بالحقوق
إنْ نحن لم نثأر به فاشحذوا شفارَكم منَّا لحزِّ الحلوق

ويوم عنيزة الذي لم يتغلب فيه أحد الفريقين على الآخر بل تكافآ ، ويوم القصيبات لتغلب على بكر ، ويوم تحلاق اللحم ، وكان لبكر على تغلب .

وكان الحارث بن عباد قد استعظم قتل كليب في ناقة فلم يدخل الحرب مع شيبان قوم جساس وتبعته قبائل أخرى من بكر لكن لما أسرف المهلهل في

القتل أرسل إليه الحارث ابنه بجيرا يعرض عليه الصلح فقتله المهلهل قائلاً له : « بُؤْ بشسْع نعل كليب » (تحقيراً لبجير بعدقتله) فلما جاء الحارث نبأ قتل ابنه ظن أنه كفء لكليب ، وأن المهلهل قد شفى نفسه بقتله فقال : « نعمَ القتيلُ قتيلا أصلح بين ابني وائل ! » لكنهم أعلموه بما قاله المهلهل ، فثارت حميته ، واستحث القوم على القتال وقال يحكي الحوادث في قصيدة بلغت مائة بيت كرر فيها قوله : قربا مربط النعامة مني في خمسين بيتاً منها :

قرِّبا مربط النعامة مني طال صبري على الليالي الطوالِ
قرِّبا مربط النعامة مني ببجيرٍ مفكك الأغلالِ

فرد عليه المهلهل بقصيدة طويلة منها :

قرِّبا مربط المشهَّر مني واسألاني ولا تطيلا سؤالي
قربا مربط المشهَّر مني لكليب فداه عمي وخالي

وكان فرس الحارث يدعى « النعامة » وفرس المهلهل يدعى « المشهّر » .

وقد هزمت في القتال تغلب بعد أن اقتتلوا قتالاً شديداً ، وتشتتت قبائل تغلب أخيراً بعد أن أسر المهلهل على ما قيل ثم مات في الأسر .

شعره : كان شعره مزيجاً من حياتين ، حياة الترف واللهو ، وحياة الرجولة والبطولة ، لذا نراه يمثل هاتين الحياتين أصدق تمثيل في الفاظه وأساليبه ومعانيه وأخيلته .

فأسلوبه سهل يبلغ أحياناً درجة الإسفاف وقد غلب عليه التكرار اللفظي كما رأيت في بعض ما قدمناه لك من نماذج ، وقد خلّف موسيقى شجية من هذا التكرار اللفظي . ومعانيه واضحة لا دقة فيها ولا عمق إلا بعض المبالغات التي لا حد لها ، وهو لم يختر ــ في الجملة ــ البحور والقوافي الملائمة لمقتضى الحال. وفي الجملة فإن تعبيره لم يتّسِمْ بالقوة إلا قليلاً ، وهي قوة لا تلبث أن تلين .

هذا هو المهلهل الذي كان أول من قصَّد القصائد ، وذكر الوقائع على ما قيل .

موضوعات للبحث

١ ـ كان مقتل كليب أخي المهلهل سبباً في تحويل مجرى حياته . ناقش ووضح واستشهد .

٢ ـ وضح الخصائص الفنية لشعر المهلهل على ضوء ما قرأته من شعره .

٣ ـ كانت حرب البسوس سبباً في شحذ همة المهلهل ، ودافعاً من دوافع قرض الشعر عنده .

تناولْ هذه الحرب بإيجاز ذاكراً بعض الأشعار التي نظمها المهلهل ومناسباتها موضحاً رأيك فيها .

٤ ـ بيّن رأيك ـ من خلال حرب البسوس والظروف التي دعت اليها ـ في العقلية العربية البدوية .

٥ ـ ما أشهر أيام حرب البسوس؟ اذكر شعراً للمهلهل قيل في هذه، وتناوله بالتحليل والنقد .

المراجع

الحماسة	لابي تمام شرح وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد
الكامل	للمبرد
المعلقات وشروحها	
الشعر والشعراء	لابن قتيبة
طبقات الشعراء	لابن سلام
رسالة الغفران	لابي العلاء المعري
الامالي	لابي علي القالي حـ ٢ ص ٢٢٨
الادب الجاهلي	لطه حسين
المهلهل	لفؤاد البستاني
العرب قبل الاسلام	لشوقي ضيف

امرؤ القيس

أصله : هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحـــارث بن عمرو بن حجر (آكل المرار) بن عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة ، وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب سيد تغلب ، وأخت المهلهل .

وامرؤ القيس معناه « رجل الشدة » وقد كثرت الخلافـــات في نسبه ، ويكفينا منها أصحها ولا داعي لذكر هذه الخلافات .

وامرؤ القيس من قبيلة كِنْدة وهي قبيلة يمنية الأصل ، وقـــد كان آله وأجداده ملوكا على كندة من قِبل تُبَّع اليمن ، وكانت لهم دولة عاشت وسط الجزيرة العربية ، واتسع نطاق سلطانها ، وقد عظم شأن الحارث جد امرىء القيس ، ودانت له القبائل بالطاعة ، وكان أبو امرىء القيس عـــلى بني أسد وغطفان، وأعمامه وهم : شرحبيل على بكر بن وائل، ومعد يكرب على قيس وكنانة ، وسَلَمَةُ على تغلب والنَمِر بن قاسط .

ولم تكن هذه الدولة ذات حضارة فائقة كأي دولة متحضرة ، بــل كانت دولة بدائية بدوية وقد انهار عرشها حينما تولى كسرى أنو شروان المُلك ، وأعاد إلى اللخميين نفوذهم ، والمناذرة إلى مُلك الحيرة . وتمرد بنو أسد على أبيه فقتلوه ، وحاول امرؤ القيس ـ عبثاً ـ أن يسترد هذا الملك الضائــع فلم يفلح .

ويكنى امرؤ القيس « أبا وهب » ويطلق عليه لقب « الملِك الضِلـّيل »

ونودي بذي القروح لقوله :

وبُدِّلتُ قُرْحاً دامياً بعد صحَّة ... لعل منايانا تَحوَّلْنَ أبؤسا

حياته : ولد امرؤ القيس في نجد قبل سنة ٥٠٠ م وعاش عيشة أبناء ملوك البادية ، لا يعرف غير حياة اللهو والمجون ، والترف ، والفروسية والصيد ، ومغازلة النساء ، وقد قال الشعر وهو صغير فأخذ يصف مجالس الأنس ، ويصف الملاهي وأيام اللعب والغرام ، وقال في مغامراته الغرامية شعراً مكشوفاً جاوز فيه حدود الصراحة .

ولم يرض والد امرىء القيس عن هذه الحياة اللاهية، ولا عن شعره الفاحش ونهاه عن ذلك فلم ينته ، وهدده بالطرد فلم يأبه بتهديده ، فطرده حينما رأى تماديه في غيِّه ، فكان يسير في العرب يتنقل في أحيائها ، ومعه بعض الصحاب من شباب طيىء وكلب وبكر بن وائل ينشدون حياة اللهو والصيد ، فإذا صادفوا غديراً أو روضة أو أجمة بها صيد نزلوا بها ، وأقاموا يأكلون ويشربون الخمر ملء رؤوسهم وينشدون الشعر، وتغني لهم القيان الى أن ينفد الصيد ، أو ينضب ماء الغدير فينتقلون الى آخر .

وقد جاءه نعي أبيه وهو (بدمّون) من أراضي الشام ، وقيل من أرض اليمن ، وكان يشرب الخمر ، ويلعب النّرد حينئذ ، فظل يلعب حتى انتهى ثم قال : « ضيَّعني صغيراً ، وحمَّلني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر » .

وبعد أن أفاق من سكره أقسم ألا يأكل لحماً، ولا يشرب خمراً ولا يتطيَّب بطيب حتى يثأر لأبيه ، فيقتل من بني أسد مائة ويجزّ نواصي مائة ، وأخذ يعد العدة للثأر واسترجاع الملك الضائع وأنشأ يقول :

أتاني حديث فكذَّبته ... بأمر تزعزعُ منه القُلَلْ

بنو أسد قتلوا ربَّهم ... ألا كلُّ شيءٍ سواه جَلَلْ

وعلم بنو أسد بذلك فأوفدوا إليه من يفاوضه على الصلح وإلا أمهلهم الى أن تضع الحوامل ويستعدوا للحرب ،فرفض الصلح ورضي بالإمهال ، ثم ارتحل الى أخواله من تغلب وبكر بن وائل يستنصرهم فنصروه وقاتلوا معه بني أسد قتالاً مريراً حتى أظلم الليل فهرب بنو أسد .

وفي الصباح أراد أن يلحق بهم فرفضت بكر وتغلب قائلين له: «قد أصبت ثأرك .» وانصرفوا عنه .

فذهب الشاعر الى ابن عمته عمرو بن هند ولزمه زمناً (مدحه فيه) وكان بنو أسد قد لجأوا الى المنذر الثالث ملك الحيرة، فطلبه المنذر حينما علم بوجوده عند عمرو بن هند، فهرب الشاعر إلى اليمن يستنصر أهله وعشيرته الأقربين من الحميريين ، فأعانوه ببعض الجند ، وانضم إليه جمع من شذّاذ العرب واستأجر بعض الرجال، وسار بهم جميعاً نحو بني أسد .

لكن لما ألحّ المنذر وجدّ في طلبه تفرق عنه رجال اليمن ، ونجا الشاعر في قوم من أهله ، وظل شريداً يطوف البلاد ، ويطلب نجدة القبائل حتى سُمي « الملك الضلّيل » إلى أن ذهب الى قيصر ملك الروم بعد أن وسّط السموأل في ذلك وأودع السموألَ ابنته هنداً وسلاحه ودروعه .

وكان بين قيصر الروم هذا وبين المناذرة عداوة فلجأ اليه امرؤ القيس ليعينه على المناذرة الذين أفسدوا عليه ثأره بمناصرتهم لبني أسد ، فأحسن قيصر وفادته ووعده بإعادة ملكه ثم ولاه فلسطين ، ويبدو أن قيصر أراد أن يصطنعه ليبسُط نفوذه في البلاد العربية ، ويقاوم نفوذ الفرس وعمالهم المناذرة.

ولكن امرأ القيس أبى إلا أن يأخذ بثأر أبيه ، واسترجاع ملكه على أسد ، فرفض ولاية فلسطين وقفل راجعاً .

وقد تضاربت الأقوال في ذلك فقيل : إنه حدثت وشايات بين قيصر وامرىءالقيس،وقيل إنه أرسل اليه حلة مسمومة فلما لبسها الشاعر أسرع فيه السم

وسقط جلده وُسمي بسبب ذلك « ذا القروح » ومات بأنقرة ، وقيل إنه كان يراسل بنت قيصر فأراد هذا أن ينتقم منه فأرسل اليه تلك الحُلّة المسمومة . وهناك رأي آخر يقول : إنه أصيب بمرض الجدري وهو عائد الى بلاد العرب فسبب له تلك القروح ، وهذا هو أرجح الآراء وتوفي سنة ٥٤٠م. وقد ذكره مؤرخو الروم في كتبهم ، وهم يسمونه « قيساً » . ولقد عبّر عن خيبة أمله ، واخفاقه في تحقيق غرضه بقوله :

لقد طوّفت بالآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

آثاره : لامرىء القيس ديوان شعر صغير طبع أول مرة في باريس وطبع وشرح بمصر ، وقد ترجم الى اللاتينية والألمانية .

وقد طرق امرؤ القيس جُلّ موضوعات الشعر العربي الجاهلي من وصف ومدح وهجاء ، ورثاء وغزل ، وقد ضاع الكثير من شعره ، وكل ما وصلنا الآن منه هو ما حواه هذا الديوان ، وأشهر قصائده ثلاث :

المعلقة وهي تشتمل على ثمانين بيتاً ومطلعها :

قِفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ [1]

ثم قصيدة مطلعها :

ألا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالي وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُر الخالي

وأخرى أولها :

خليليَّ مُرَّا بي على أم جُندُبِ نقضِّ لُبانات الفؤاد المعذَّبِ

ولمعلقته شهرة عظيمة جداً حتى صارت عنوان الإبداع والجمال ، فقيل : « أشهر من قفانبك ، وأجمل من قفانبك »

(١) سقط اللوى : منتهاه . الدخول وحومل : موضعان .

وسبب نظمها – على ما قيل – هو حبه « لعُنَيْزَة » ابنة عمه شُرَحْبيل التي كانت تتنزّه مع بعض بنات العرب فذبح لهـا ولهن ناقته ، ونظم المعلقة واصفاً الحادث وذكرياته التي مرت به وقتَ أن كان يتنقل مع أصحابه للصيد وشرب الخمر واللهو .

شعره : شعر امرىء القيس حديث هذه النفس المرهفة المترفة ، الثائرة الغاضبة ، وهو من المبرزين في الشعر المقدمين على الشعراء .

ومن الأسباب التي كان لها أثر في جودة شعره ما يأتي :

١ – وراثته الشعر عن آبائه وأخواله .

٢ – نشأته في بيت مُلك ثم انطلاقه وراء ملذاته واستجابته لأهواء الشباب، وكثرة تنقلاته مع أصحابه بين الغُدران والرياض .

٣ – كان ذا نفس عاطفية ، وحساسية مرهفة ، صقلتها هـذه الحياة التي عاشها بين اللهو والفجيعة .

٤ – كثرة التجارب التي اكتسبها من الأسفار ، وفجائع الدهر التي انتابته بعد مقتل أبيه .

كل هـذا جعل امرأ القيس يبزّ غيره من الشعراء، **وكان شعره يمثل حياتين**:

حياة اللهو والترف التي عاشها قبل مقتل أبيه وكان شعره فيها مرآة لها :

وظل طهاة اللحم ما بين مُنضجٍ صفيفَ شواءٍ أو قديدٍ مُعجَّلِ

ومن أخذ معه خدماً وطهاة كان لا شك ذا منزلة رفيعة .

ثم إذا قرأنا شعره الذي يصف فيه شحم ناقته التي ذبحها لعنيزة وصاحباتها يوم دارة جلجل :

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهُدَّاب الدِّمَقْس المفتَّلِ[1]

---

١ – الهداب : المسترسل من الشيء كالشعر وأطراف الأثواب . الدمقس : الحرير الابيض .

علمنا أنه كان مترفاً ، فالعذارى يرتمين باللحم ، والشحم كأهداب الحرير المفتل ، ومنْ يعرف الحرير المفتل ـ من أهـل البادية ـ غـــير المترفين أبناء الملوك ؟ أما حياته في الفترة الثانية حين كان يجوب الأرض مستجدياً المعونـــة على الاخذ بثأره ، فقد كان شعره فيها ينبض ألماً ويفيض بالشكوى والأنين .

وغزله غزل الشاعر الذي خاض المغامرات ، وعرف نفسية النساء ، يمتزج بذكريات فيها متعة وفجور ، يصف فيها ما يدور بينه وبين صاحبته (عُنَيْزة ابنة عمه أو فاطمة) في أسلوب متنوع ، تارة في حوار يبدأ بانزعاج الحبيبة من مفاجأة الشاعر لها ، وتارة بلوم فيه دلال ، وهو كثيراً ما يصور محاسن المرأة ، ويصفها ويتهتك في هذا الوصف .

ويغلب على غزله الفجور والفحش ، ويندر فيه العفيف كقوله :

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجملي [١]

أغرَّكِ مني أن حُبَّك قاتلي وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفعل

ويُضحي فتيتُ المسكِ فوق فراشها نَؤومُ الضُّحى لم تنتطِق عن تفضُّل

تضيء الظلامَ بالعشاء كأنها منارةُ مُمسَى راهبٍ مُتبتِّلِ

وامرؤ القيس وَصّاف للطبيعة من خلال تقلبه بين جنباتها في هذه الحيـــاة الفريدة التي عاشها قبـــل مقتل أبيـــه ، يصف الطبيعة الحزينـــة فيشخصها ويجسمها :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بأنواعِ الهموم ليبتلي

---

١ ـ صرمي : هجري . أجملي : ترفقي .

فقلتُ لهُ لما تمطَّى بصُـــلبه وأردَف أعجازاً وناء بكلكل [1]

ألا أيها الليل الطويلُ ألا أنجلي بصُبحٍ وما الإصبَاحُ منكَ بأمثل [2]

فيالكَ من ليلٍ كأن نجومَه بكلِّ مُغار الفتل شُدَّتْ بيَذْبُلِ [3]

والطبيعة الحية كقوله يصف فرسه :

وقد أغتَدي والطيرُ في وُكناتها بمُنْجَردٍ قَيْدِ الاوابدِ هَيْكلِ [4]

مكرٍّ مفَرٍّ مُقْبلٍ مُدْبرٍ معاً كجُلْمودصخرٍ حطَّهُ السَّيلُ من عَلِ

كُميْتٍ يزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ متنهِ كما زلّتِ الصَّفواءُ بالمتَنزِّلِ [5]

له أيطَلاَ ظبيٍ وساقا نعامَةٍ وإرخاءُ سِرحانٍ وتَقْريب تَتْفُلِ

كأنَّ عيونَ الوحشِ حوْل خبائِنا وأرحُلنا الجَزْعُ الذي لم يُثقَّبِ

وفي هذه الأبيات تتجلى روعة وصفه ، ودقة تأمله ، وطرافة مأخـــذه واتساع إيحاءات صوره على إيجازها ، وجمال تشبيهاته الغنية عـن كل تفصيل ، وهل هناك أدق وأروع من قوله :

بمنجرد قيد الاوابد هيكل ؟! وأعظم من هذا الوصف الذي ينبض بالحياة :

مِكرٍّ مِفَرٍّ مقْبلٍ مدبرٍ معاً كجلمود صخرٍ حطَّه السيلُ من علِ

---

١ ـ تمطى الليل : طال ، الكلكل: الصدر. ٢)امثل: أفضل. ٣)مغار: محكم شديد. يذبل: اسم جبل . ٤) أجرد ومنجرد : قصير الشعر رقيقه . الاوابـــد : الوحوش النـــافرة . ٥) كميت : خالط حمرتهسواد. الصفواء،الصخرة الملساء.

ثم هذا القول الذي نلمس فيه دقة التشبيه وروعته :

فعنَّ لنا سِربٌ كأنَّ نعاجَهُ عَذارى دُوارٍ في مَلاءٍ مُذَيَّلِ[1]
فأدبرْنَ كالجزْعِ المفصَّلِ بَيْنَه بجيدٍ مُعِمٍ في العشيرةِ مُخولِ[2]

هذا هو شعر الطبيعة عنده الذي جمع بين الدقة والإيجاز فجاء رائعاً .

وحياة المجد والمطالبة بثأر ابيه، الحياة الممتلئة بالمحن والشدائد يطوف على القبائل يطلب المعونة والنجدة ، فيشكر كل من مدّ له يداً ، ويمدح من عاونه، وهو ذو النفس العالية ، نفس قد عاشت في كنف الملك لم تتعود المديح لكنها الظروف القاسية ، ظروف الأخذ بثأر أبيه .

ثم نراه يهجو كل من خذله وقعد عن نصرته .

واليك شعراً يمثل بعض هذه الحياة :

فلو أنما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني - ولم أطلب - قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقد يدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي

وقوله يمدح واحداً من الذين عاونوه وناصروه :

سأشكرك الذي دافعت عني وما يجزيك مني غيرُ شكري
فما جارٌ بأوثقَ منك جاراً ونصرك للفريد أعزُّ نصر

وقوله يشكر أيضاً :

فأبلغْ مَعَدًا والعبادَ وطيِّئاً وكِنْدةَ أنِّي شاكرٌ لبني ثُعَلْ

---

١ ـ النعاج : البقر . دوار : اسم صنم . مذيل : طويل الاطراف . ٢) الجزع : الخرز .

وهجا الذين تخلوا عنه،حينما استنجد بهم، كما هجا بني أسد الذين قتلوا اباه.

ومن قوله يهجو بني حنظلة :

أبلغْ بني زَيْدٍ إذا ما لقيتَهم وأبلغ بني لُبْنى وأبلغ تُماضرا
أحنْظلُ لو كنتم كراماً صبرتمُ وحُطتم ولا يُلفَى التميميُّ صابرا

وله شعر في الفخر بنسبه كقوله :

خالي ابنُ كَبشةَ قد علمتَ مكانه وأبو يزيدَ ورَهْطُهُ أعمامِي

منزلته في الشعراء :

يُعد امرؤ القيس من فحول الشعراء في الجاهلية ، وقد َقرنبه ابنُ َسلاّم زهيراً والنابغة وأعشى قيس ، ولكن الأكثرين على تقديم امرىء القيس .

قيل للفرزدق من أشعر الناس ؟ قال ذو القروح يعني امرأ القيس . وسئل لبيد : من أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضّليل ، قيل ثم َمنْ ؟ قال ابن القرين (يعني طرفة) قيل ثم َمنْ ؟ قال أبو عقيل (يعني نفسه) .

وليس معنى تقديمه أنـه قال ما لم تقله العرب ، لكنه سبقهم إلى أشيـاء ابتدعها وقلده فيها غيره من الشعراء. فقد قيل إنه أول من وقف على الأطلال، واستوقف العرب وبكى واستبكى ، وجـاء بتشبيهات مبتكرة، كتشبيه المرأة ببيضة الطير الجارح في عشه في قوله « وبيضة خـدر لا يُرام خباؤها » وذلك من حيث رقتها وصفاء لونها وبريقها، وفي نعومتها وترفها ولين ما حولها، وحرارة الشباب فيها ، ثم في إحاطة أهلها بهـا وقيامهم بشئونها ، وحمايتهم لها ... كل هذا جمعه في هذا التشبيه .

وفي وصفه للعُقاب تشبيه مبتكر :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وَكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

ولشعر امرىء القيس قيمة أخرى تاريخية ، فقد سجل كثيراً من ملامح البيئة الجاهلية ، تاريخية ، وجغرافية ، واجتماعية ، وسياسية ، ودينية ، وثقافية .

ويكفينا دلالة على زعامة امرىء القيس ما نقله السيوطي عن ابن عساكر عن ابن الكلبي قال : « أتى قوم رسول الله ﷺ فسألوه عن أشعر الناس فقال: إيتوا بحسان ، فقال حسان : ذو القروح (يعني امرأ القيس) فرجعوا فأخبروا رسول الله ﷺ فقال : صدق ، رفيع في الدنيا خامل في الآخرة ، شريف في الدنيا وضيع في الآخرة . هو قائد الشعراء إلى النار » .

هذا هوامرؤ القيس الملك الضِّلِّيل .

موضوعات للبحث

١ ـ كان شعر امرىء القيس لسان نفسه اللاهية المترفة ، الحزينة الآملة . ناقش هذا الرأي مؤيداً ما تقول بالبرهان .

٢ ـ ابتسمت الحياة لامرىء القيس ثم سخرت منه وسلبته ثمرة كده وجده وأمله .

وضّح ذلك من خلال حياة امرىء القيس، وشعره .

٣ ـ أجاد امرؤ القيس شعر الوصف فهل لهذه الإجادة من سبب ؟ استعرض بعض أشعار الوصف لامرىء القيس مبيناً مظاهر الجودة فيها . ذاكراً أسبابها إن وجدت .

٤ ـ تناول بعض الأغراض التي طرقها امرؤ القيس ، وحللها واستنبط منها خصائصها الفنية .

المراجع

المعلقات العشر وشروحها

الادب الجاهلي لطه حسين
شعر الطبيعة في الادب العربي لسيد نوفل
تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان
ألشوامخ . امرؤ القيس لمحد صبري
الحياة الادبية في العصر الجاهلي لعبد المنعم خفاجه
مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد
زعامة الشعر الجاهلي بين امرىء القيس وعدى بن زيد للمرحوم عبد المتعال الصعيدي
تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان
تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج٣ ص ٢١٥
تاريخ العرب لفيليب حتي ص١
امرؤ القيس لسليم الجندي

طرفة بن العبد البكري

أصله : هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن قيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل ، وطرفة في الأصل واحد الطرفاء وهو « الأثل » وبها لقب طرفة ، واسمه عمرو ، ولد حوالي سنة **٥٤٣**م في البحرين على الخليج الفارسي وابوه : العبد البكر الشاعر ، وأمه وردة الثعلبية من بني ثعلب ـ على أصح الأقوال ـ وخاله المتلمس الشاعر ، وكان جدّه وأبوه وعماه المرقّشان : الأكبر والأصغر كلهم شعراء .

حياته : نشأ طرفة يتيماً مات ابوه وهو طفل فكفله أعمامه ، ولما شب وترعرع ونما انصرف إلى حياة اللهو والمجون ، يبذر بغير حساب على أصحابه من الشبان أمثاله ، وقد قيل ان اعمامه هضموا حقه ، وأبوا ان يقسموا ماله فقال لهم :

ما تنظرون بحق وردةَ فيكمُ صَغُرِ البنون ورَهْطُ وردةَ غيَّبُ

قد يَبْعَثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ حتى تظلَّ له الدماء تَصَبَّبُ

والظلمُ فرّق بين حيَّي وائلٍ بكرٌ تساقيها المنايـــا تَغْلِبُ

كان طرفة في صغره ذكياً ، ويقال إن أول شعر قاله هو الذي كان في مناسبة خروجه مع عمه في سفر فنصب فخاً فلما أراد الرحيل قال :

يا لــــك من قبَّرةٍ بمعمر   خلا لكِ الجو فبيضي واصفري

وقد سبق أن قلنا إنه لـكليب ، وهذا هو الرأي الصحيح ، فـكليب أقدم من طرفة.

وقد استمتع طرفة بالحياة ما شاء له الاستمتاع بهــا فعربد ولها ، ولعب وأسرف وتمادى في غيه حتى اضطر قومه إلى طرده وفي ذلك يقول :

وما زالَ تَشرابي الخمورَ ولذتي   وبيعي وإنفاقي طرِيفي ومُتْلَدِي
إلى أن تحامَتْني العشيرةُ كلُّها   وأُفرِدْتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّد

لم يحجم طرفة عن الإسراف في اللهو حتى لم يبق له شيء ، فذاق من الأيام مُرَّها ثم التجأ الى أقاربه كي يمدّوه بمـا يرضي نهمه وشهواته ، فلم يستجيبوا لطلبه ، فاعتقد أن عملهم هذا ظلم ، لأن الحرص على الحياة مذموم ، فلا ينبغي لذوي المروءة أن يحرصوا على المال ، وآلمه ذلك مع ما آلمه من أقربائـه الذين اضطهدوه لأنه بذر ماله في اللهو فأنشأ معلقته التي مطلعها :

لِخولةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثَهمدِ   تلوحُ كباقي الوَشمِ في ظاهرِ اليدِ

مقتله وسببه : مات طرفة قتيلاً حوالي سنة ٧٠ قبل الهجرة ، ٥٥٠ م.
وسبب مقتله هو أنه هجا عمرو بن هند وقابوس أخاه بقصيدته التي منها :

فليت لنا مكان الملكِ عمروٍ   رَغُوثاً حول قُبَّتِنَا تخورُ

ومنها :

لعمرُكَ إن قابوسَ بن هند   ليخلطُ مُلْكَهُ نَوْكٌ كثيرُ

فلم تبلغ عمراً لأنه كان شديد البأس لا يجسر أحد أن يخبره بذلك ، الى أن وافت الظروف الـتي هيأت لاعلامه بهذا الهجاء ، حينما قـال في عبد عمرو ابن مرثد :

ولا خير فيه غير أن له غنى　　وأن له كشحاً إذا قام أهضما

فقال عمرو بن هند لعبد عمرو : لقد أبصر طرفة كشحك ، فغضب عبد عمرو وقال: لقد قال في الملك أقبح من هذا ، فسأله أن يخبره بما قال، فأبى ان يسمعه وندم على ما قال . فقال أسمعنيه وطرفة آمن. فأسمعه القصيدة، فسكت على ضغينة وفكر في أمره وأطال . فظن طرفة أنه قد رضي عنه ، الى ان وجد الفرصة سانحة للانتقام فاستدعاه هو والمتلمس الذي كان قد هجاه أيضاً . فلما قدما اليه أظهر لهما مودة ثم أرسلهما الى عامله في البحرين وكتب اليه ان يقتلهما ، وأوهمهما بأنه أوصاه بإكرامهما وطلب منهما ان يذهبا اليه في الحال .

وفي الطريق رأى المتلمس شيخاً يتصرف تصرفاً شاذاً ، فسخر منه ، وأنكر عليه ذلك فقال له الشيخ : أحمق مني من يحمل حتفه بيمينه وهو لا يدري. فتنبه المتلمس فإذا هو بغلام من أهل الحيرة، فطلب منه ان يقرأ الكتاب فاذا فيه : اذا أتاك المتلمس ، فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً .

فرمى المتلمس صحيفته في نهر يقال له كافر ، وقد ضرب بصحيفته المثل .

ونصح طرفة بالهرب فأبى ، وقال إن كان قد اجترأ عليك فما كان ليجترىء عليّ .

فهرب المتلمس الى الشام ، ومضى طرفة الى العامل حتى قدم عليه بالبحرين فدفع اليه الكتاب فقرأه ، ثم أعلمه بأنه قد أُمر بقتله وقال « إن بيني وبينك خؤولة انا لها راعٍ فاهرب من ليلتك . » فأبى طرفة ، فلما أصبح أمر بحبسه وتكرَّم عن قتله، وأرسل الى عمرو بن هند يعلمه بذلك ويخبره بأنه لن يقتله ، فبعث اليه عمرو بن هند رجلاً من بني تغلب يقال له عبد هند واستعمله على البحرين ، وأمره بقتله . وقُتل طرفة وسنه اد ذاك ست وعشرون سنة كما قالت أخته ترثيه :

عَدَدْنا له ستاً وعشرين حِجَّةً　　فلما توافاها استوى سيّداً ضخما

فُجِعْنا به لما رَجَوْنا إيابه　　على خير حال لا وليدا ولا قَحِما

آثاره : لطرفة ديوان شعر جمعت فيه اشعاره ، اشهر مـا فيه معلقته التي مطلعها :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد .

موضوعات شعره وميزاتها : تناول طرفة في شعره : الوصف ، والغزل ، والشكوى ، والعتاب ، والهجاء ، والفخر ، والحكمة .

فمن الوصف وصف الناقة :

كأنَّ حُدوجَ المالكيّةِ غُدوةً خلايا سَفِينٍ بالنواصِفِ مِنْ دَدِ

وتغزل فقال :

ندامايَ بيضٌ كالنجوم وقَيْنَةٌ تَروحُ إليِنا بين بُرْدٍ ومجسَدِ [1]

رحيبٌ قطابُ الجيبِ منها رفيقةٌ بجس النَّدامى بضّةُ المتجرَّدِ [2]

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رِسْلها مطروفةً لمْ تَشَدَّدِ

إذا رجَّعَتْ في صوتها خِلْتَ صوتها تجاوُبَ أظآرٍ على رُبَعٍ رَدِي

وشكا وعاتب فقال :

فما لي أراني وابن عمِّيَ مالكاً مَتَى أدنُ منه يَنْأَ عَنِّي ويَبْعُدِ

★

(١) البرد : الثوب الابيض . والمجسد : المصبوغ بالزعفران .

(٢) قطاب الجيب . مجتمع الجيب (يصف صدرها بالرحب والسعة) . رفيقة : متئدة غير متعجلة . بضة المتجرد : بضة رقيقة الجلد ، المتجرد : ما تحت ثوبها .

يَلوم وما ادري عَلامَ يلومُني   كما لامَني في الحيِّ قُرطُ بنُ أعْبَدِ
وأيأسَنيِ من كلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ   كأنَّا وَضعْنَاهُ الى رَمْسِ مُلْحَدِ
على غير شيءٍ قلتُه غير أنَّني   نَشدتُ فلَمْ أغْفلْ حَمُولَةَ مَعْبَدِ

وهجا عمرو بن هند وأخاه قابوس ، وصهره عبد عمرو ، وقد قدمنا لك نموذجاً من ذلك سابقاً في الحديث عن سبب مقتله .

وافتخر بشجاعته وقوته :

إذا القومُ قالُوا مَنْ فَتىً خِلْتُ أنَّني   عُنِيتُ فلم أكسَلْ ولم أتبلَّدِ

وصوّر معيشته في السلم والحرب :

فإن تبْغني في حَلْقَةِ القَومِ تلْقَني   وإن تقتنصْني في الْحوانيت تَصْطَدِ
وما زالَ تَشرابي الخمورَ ولذَّتي   وبَيعي وإِنفاقي طَريفي ومُتْلَدي
الى أن تحامتني العشيرةُ كلُّها   وأُفرِدْتُ إِفرادَ البعيرِ الْمُعَبَّدِ

وله نظرات في الحياة والمجتمع :

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً   ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ
أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليْلَةٍ   وما تنقُصِ الأيامُ والدهرُ ينْفدِ
أرى الموتَ أعدادَ النفُوس ولا أرى
بَعيداً غَداً ، ما أقربَ اليَوم من غدِ

وأسلوب طرفة في شعره أسلوب يجمع بين الرقة والقوة والجزالة .
ومعانيه عميقة احياناً سطحية حيناً ، لا مبالغة فيها ، متحررة من تعبيرها

غير منطقية في ترتيبها .

وخياله خيـــال الشاعر المقتصد المعتدل ، قد غـــذته الصحراء ، وصقله التجوال والتطواف .

ويمتاز شعره بوقائع تاريخية فيها كثير من اخلاق العرب وعاداتهم وتثبت جزءاً من حضارتهم ، كالملاحة والصنـــاعة ، وكتهيئة خشب السفن لصنعها في البحرين ، ودبغ الجلد وغير ذلك مما يدل عليه بعض شعره .

مما تقدم تتبين لنا قيمة طرفة ، وقيمة فنه .

موضوعات للبحث

١ - في معلقة طرفة صورة لنفسيته في منازعها المختلفة .
استعرض معلقة طرفة، واستخلص منها نفسيته والأسباب التي كوت هذه النفسية .

٢ ـ وازن بين حياة طرفة وحياة امرىء القيس مبيناً أثر كل من الحيـــاتين في أدب الشاعرين موازناً بين شعريهما .

٣ ـ استخلص بعض مظاهر الحياة الجاهلية من خلال شعر :
المهلهل ـ امرىء القيس ـ طرفة .

المراجع

الادب الجاهلي	لطه حسين
أعلام الشعر الجاهلي	لمحمد عبد المنعم خفاجة
طرفة ولبيد	لفؤاد البستاني
تاريخ آداب اللغة العربية	لجروجي زيدان
الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
تاريخ الادب العربي	لـكارل بروكلمان
المعلقات وشروحها	
طبقات الشعراء	لابن سلام
مجمع الامثال	للميداني
الحماسة	لابي تمام

عمرو بن كلثوم

أصله : هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل . وكنيته «أبو الأسود» وأخوه مُرة هو الذي قتل المنذر بن النعمان ، وأمه اسماء بنت مهلهل بن ربيعة (اخي كليب) الذي يضرب به المثل في الفخر ، ولا بأس من أن نروي هنا شيئاً من الأخبار التي يبدو أنها مصنوعة ، نرويها كمثل لما جعل بعض الباحثين يشك في كثير من آداب الجاهلية ، ويرى أنها تشبه « الحواديت » التي يبتكرها الخيال . فيقال انه لما تزوج مهلهل هنداً بنت عتيبة ولدت له جارية فقال لأمها اقتليها وغيبيها فلما نام هتف به هاتف يقول :

« كم من فتى مؤمل ، وسيد شمردل ، وعدد لا يجهل ، في بطن بنت مهلهل . » فاستيقظ فقال لها أين بنيتي ، فقالت : قتلتها . فقال : لا وإله ربيعة ، وكان أول من حلف بها ، ثم رباها وسماها أسماء ، وقيل ليلى ، وتزوجها كلثوم بن مالك فلما حملت بعمرو أتاها آت في المنام فقال :

يا لكِ ليلى مِن وَلدْ   يقدم إِقدام الأَسَدْ
من جُشَمٍ فيه العدد   أقول قولاً لا فَنَدْ

فلما ولدت أتاها الآتي فقال :

أنا زعيم لكِ أُمَّ عمرو   بماجدِ الجدِ كريم النَّجْر

أشجعِ من ذي لبد هِزَبرِ وَقَّاص أقران شديد الأسر
يسودهم في خَمسةٍ وعَشْر

وكان كما قال ، فقد ساد عمرو بن كلثوم قومهُ وهو ابن خمس عشْرة سنة.

حياته : نشأ عمرو بن كلثوم في بيت عزّ ومجد ورفعة ، فهو من تغلب التي كانت من أعز القبائل حتى قيل فيها : « لو أبطأ الأسلام لأكلت بنو تغلب الناس » . وكانت قبيلته منتشرة في الجزيرة وضواحيها ، فنشأ عمرو بن كلثوم وفي نفسه عِزّ قومه ، وأنفة قبيلته وسؤددها .

وقد كان عمرو شجاعاً مقداماً ضرب به المثل في الفتك فقيل : أفتك من عمرو بن كلثوم . وذلك بسبب فتكه بعمرو بن هند .

وسبب ذلك أن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: «هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي ؟» فقالوا: «نعم» أم عمرو بن كلثوم : لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو وهو سيد قومه .»

فأرسل عمرو بن هند الى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله ان يزير أمَّه ، أُمَّه . فأقبل عمرو بن هند من الجزيرة الى الحيرة في جماعة من بني تغلب ، وأقبلت أمه في ظعن من بنات تغلب ، وامر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا ، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق ، وكانت هندُ عمةَ امرىء القيس بن حجر ، وكانت أمَّ بنت مهلهل بنت أخي فاطمة بنت ربيعة التي هي ام امرىء القيس ، وقد كان عمرو بن هند امر امه ان تنحّي الخدم وتستخدم ليلى ففعلت. فقالت ليلى: «لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها.» فأعادت عليها والحت، فصاحت ليلى: « واذلاه! يا لتغلب! » فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ، فنظر إليه عمرو بن هند فعرف الشر في

وجهه ، فوثب عمرو بن كلثوم الى سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره فضرب رأس عمرو بن هند ، ونادى في بني تغلب فانتبهوا ، فأمرهم بأخذ ما في الرواق فساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة ، وقد زادت شهرته بعد مقتل عمرو بن هند ودخله زهو عظيم. وفي هذه المناسبة قال جزءاً من معلقته. اما الجزء الآخر فقد قاله في مناسبة الاحتكام الى عمرو بن هند ، حينما احتكمت قبيلتا بكر وتغلب إليه ، وكان لسان تغلب عمرو بن كلثوم ، ولسان بكر شاعرها الحارث بن حِلِّزة ، وقد كان عمرو بن كلثوم انوفاً متكبراً يفخر بنفسه وبقومه .

اما الحارث فقد كان رزيناً حكيماً، فحكم ملك الحيرة لبكر على تغلب فأنشأ هذا الجزء من المعلقة .

وتوفي عمرو بن كلثوم سنة ٥٢ قبل الهجرة ، ٥٧٠ م .

وقد رُوي انه لما حضرته الوفاة جمع بنيه وقال :

« يا بني: قد بلغت من العمر ما لم يبلغه احد من آبائي ، ولا بد ان ينزل بي ما نزل بهم من الموت ، وإني والله ما عيَّرتُ الا عُيِّرتُ بمثله ان كان حقاً فحقاً ، وان كان باطلاً فباطلاً ، مَنْ سَبَّ سُبَّ فكفوا عن الشتم فإنه اسلم لكم ...»

... الى ان قال : «ولا تتزوجوا في حيّكم فإنه يؤدي الى قبيح البغض . »

آثاره : من آثاره معلقته المشهورة التي قالها ــ على اشهر الأقوال ــ في مناسبتين كما ذكرنا سابقاً ، وقد قيل انه خطب بها في سوق عكاظ وفي موسم مكة . وبنو تغلب يعظمونها ، ويرويها صغارهم وكبارهم حتى هجاهم بذلك بعض بني بكر بن وائل فقال :

ألهى بني تغلبٍ عن كل مكرُمةٍ   قصيدةٌ قالها عمرُو بن كُلثومِ
يَروُونَها أبداً مُذ كان أولُهم   يا لَلرِّجالِ لشعرٍ غيرِ مسؤومِ

وقد تناول الشاعر في معلقته ذكر الخمر :

ألا هُبِّي بصَحْنِكِ فَأَصْبَحينا ... ولا تُبْقي خُمورَ الأَندرينَا

والحبيبة ووصفها :

قفي قبل التفرُّقِ يا ظعِينا ... نخَبِّرْكِ اليقينَ وتخبرينـــا

قفي نسألْكِ هل أحدثتِ صَرمْا ... بِوشكِ البين أمْ خُنتِ الأمينا

والفخر والتهديد :

وأيام لنـــا غرٍ طوالٍ ... عَصَيْنا المَلْكَ فيها أنْ نَدينا

وسيِّدِ معشرٍ قـــد توَّجوهُ ... بتاجِ المُلكِ يحْمي المحجرينا

تركنا الخيلَ عـــاكفةً عليه ... مقلَّدةً أعنتَهـــا صفُوُنا

متى نَنْقُلْ إلى قومٍ رَحانا ... يكونوا في اللقاء لها طحينا

★

نطاعِنُ ما تراخى الناسُ عنا ... ونضربُ بالسيوفِ إذا غشينا

بسُمْرٍ من قنا الخطيِّ لُدْنٍ ... ذوابلَ أو ببيض يعتلينا

نَشُقُّ بها رؤوسَ القوم شقّاً ... وتَخْليها الرِّقابَ فتختلينا

الثورة على عمرو بن هند :

بأي مَشيئةٍ عَمْرَو بنَ هندٍ ... نكونُ لقَيْلكُمْ فيها قَطِينا

بأي مشيئةٍ عمرَو بنَ هندٍ ... تطيع بنا الوشاةَ وتزدرينا

تَهدَّدْنا وأوْعِدْنــــا رُوَيْداً متى كنـــا لأُمكَ مَقْتَوينا
فإِن قنَاتنا يا عمرُو أعْيَتْ على الأعداءِ قبلكَ أن تلينا

الفخر بعزة قومه وسيادتهم :

وقد علم القبائل من معدٍّ إِذا قُببٌ بأبطَحِها بُنِينا
بأنا المطعمونَ إِذا قدرنا وأنا المهلكون إِذا ابتُلينا
وأنا المانعونَ لمــا أردنا وأنا النازلون بحيث شِينا
وأنا التارِكون إِذا سخطنا وأنا الآخذونَ إِذا رَضينا
إِذا ما المَلْكُ سامَ الناسَ خسْفاً أَبيْنا أن نُقِرَّ الذلَّ فينا

وقدْ بالغ في بعض ابيات هذا الفخر مبالغة غير مقبولة كقوله :

لنا الدُّنيا ومنْ أمْسى عَلَيْها ونبطشُ حين نبطَشُ قادرينا
مَلأْنا البرَّ حتى ضاقَ عنَّا ونَحْنُ الْبَحرَ نملَؤهُ سَفينا
إِذا بلغ الرضيعُ لنا فِطاما تَخِرُّ لَهُ الجبابِرُ ساجدينا

شعره : لما كان عمرو بن كلثوم من الذين اعتزوا بقومهم وسيادته وسيادتهم، وانف من ان يخضع لحكم الملك ، فإننا قد وجـدناه في شعره ينطلق انطلاقاً دون ان يخضع لمنطق غير منطق الكبرياء ، فجاء شعره صادراً عـــن عاطفة جامحة وخيال مغالٍ ومعان تتجاوز حد الحقيقة ، لأنها صدرت عـن عاطفة لا لا يعرف العقل إليها سبيلاً .

والفاظ الشاعر واساليبه سهلة لا تعمُّل فيها ولا تعقيد .

المناقشة

١ ـ في صفات عمرو بن كلثوم كبرياء الملوك ، وانفة العربي .
فهل كان لهذا اثر في شعره ؟ وضح واستشهد .

٢ ـ قيلت معلقة عمرو بن كلثوم في مناسبتين :
اذكرهما مع بعض من الأبيات التي قيلت في كل منها .

٣ ـ في فخر عمرو بن كلثوم مبالغة غير مقبولة احياناً .
فما مصدر ذلك ؟ ايت ببعض الابيات التي يبدو فيها هـذا النوع من الفخر .

المراجع

المعلقات وشروحها :

الادب الجاهلي	لطه حسين
عمرو بن كلثوم	لفؤاد البستاني
الفن ومذاهبه في الشعر	الدكتور شوقي ضيف
تاريخ آدب اللغة العربية	لجورجي زيدان
تاريخ الادب العربي	لكارل بروكلمان
الادب الجاهلي	لمحمود مصطفى

النابغة الذبياني

أصله: هو زياد بن معاوية بن ضِباب بن يربوع بن مرّة بن سعد بن ذُبيان ابن غطفان بن قيس عيلان من مضر ، ويكنى « أبا أُمامة ». **قيل إنه لقب بالنابغة** لأنه كبر ولم يقل شعراً فنبغ فيه بغتة ، **وقيل هو مشتق من نبغت** الحمامة اذا تغنت .

قال ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » : « ونبغ بالشعر بعدما احتنك وهلك قبل أن يهتر » .

حياته : حياة النابغة تكاد تكون غامضة ، لا نعرف عنها شيئاً واضحاً ، وكل ما يمكن ان نعرفه منها أنه نشأ في نجد، البلد الطيب الهواء ، الجميل المنظر ، وعاش بين سراة بني ذبيان ، وكثيراً ما كانوا يعيشون أياماً يعز عليهم فيها القوت والكلأ فيلجأون الى الإغارة على جيرانهم ؛ ولذا فقد كثرت حروبهم .

وعاش النابغة عيشة جد ووقار ، وقد قيل : إن النابغة كان يحب في شبابه فتاة اسمها ماوية ، وقد زاحمه في حبها حاتم الطائي[1] فكانت له ، وأخفق هو في استمالتها ، على الرغم من وسامته ومهابته ، ولم يعرَف للنابغة شعر في حياته الأولى ، ولذا فقد ضاعت اخباره الخاصة بتلك الفترة .

---

١ – هي التي يقول فيها حاتم :

اماوِيّ إن المال غادٍ ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكر

وقد اتصل النابغة بملوك الحيرة ومدحهم ، وقربه النعمان بن المنذر واتخذه نديماً ، وأغدق عليه العطايا حتى صار يأكل في صحاف من ذهب. وقد قيل: إن المُنَخَّل اليَشْكُري" الشاعر الفاسق قد وشى به لدى النعمان بسبب عداوة بينه وبين النابغة ودس" – على ما قيل – أبياتاً فيها تعريض بالملك وأمه :

قبّحَ الله ثم ثَنَّى بلَعْنٍ وارثَ الصائغِ الجبانَ الجهولا

وقيل غير ذلك ، وهو أن النابغة قد دخل على النُعْمان فجأة إذ كان من أخصائه ، وكان مع النعمان امرأته (المتجردة) فالتفتت اليه مذعورة ، فسقط نصيفها ، فاستترت بيدها وذراعها فكادت ذراعها تستر وجهها لغلظها فأمره النعمان ان يقول قصيدة يصفها فيها فقال قصيدته التي يقول فيها :

سَقَطَ النصيفُ ولم تُرِدْ إِسْقَاطه فتناولتْه واتَّقَتْنــا بالْيَدِ

ووصف منها مواضع لا يليق ذكرها ، وكان المنخل اليشكري الشاعر من ندماء النعمان فغار من وصف النابغة لها فقال والله لا يقول هذا الا َمن جرّب، فغضب النعمان وأراد البطش بالنابغة .

اشتد غضب النعمان على النابغة ، وحاول الشاعر تبرئة نفسه مما نسب اليه، واعتذر للنعمان فلم ُيجدِه ذلك ولم يستطع أن يزيل ما في نفسه ، وهمّ النعمان بقتله ، فأسرّ اليه « عصام » حاجب النعمان بالأمر ، فهرب الشاعر الى الشام ، الى ملوك الغساسنة أعداء المناذرة، فالمناذرة يعملون في ظل الفرس، والغساسنة في ظل الروم ، وقد قامت المنافسة بين المملكتين وقامت بينهما حروب لم تنته الا مع الفتوح الاسلامية وانتصر الغساسنة مراراً على الحيرة وبخــاصة في يوم حليمة كما سبق ان تحدثنا عن ذلك في موضوع « حضارة العرب ».فوفد الشاعر على عمرو بن الحــارث السادس الغساني ومدحه بقصائد كثيرة منها قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

كِليني لهمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ وليلٍ أُقاسِيه بطيءِ الكواكبِ[1]

ورحب به عمرو ، وأكرم وفـــادته ، واستقر النابغة هناك يمدح الملك وأخاه النعمان ، لكنه على الرغم مما ناله من المنزلة والعيش الرغيد فـــإن هواه وميله كان مع النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

فكان يتحين الفرص لاسترضائه وإظهار براءته ، وتبرير مدائحه للغساسنة الذين أنزلوه منزلة حسنة ، فوجب عليه ان يعترف بفضلهم ، وظـــل الشاعر يبرر موقفه بالنسبة للغساسنة ويقول إنه ما مدحهم إلا شكراً لصنيعهم معه .

ملوك وإِخوان إِذا ما أتيتُهم أُحكَّمُ في أموالهم وأُقَرَّبُ
كفعلك في قوم أراك اصطنعتَهم ولم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

وعاد النابغة الى الحيرة بعد ان رضي النعمان عنه ، وقد قيل في رضا النعمان إن النابغة رأى احدى فتيات النعمان فلقنها قصيدته التي اعتذر اليه فيها وهي :

يا دارَ مَيَّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأبدِ[2]

فشرب النعمان فلما سكر غنَّته إياها الجـارية فطرب وقال : « هذا شعر علوي ، هذا شعر أبي أمامة ! »فرضي عنه .

ولما قتل النعمان سنة ٦٠٢م ترك النابغة بلاد الحـــيرة ذاهباً الى أهله فقضى بينهم أيامه الاخيرة حتى مات على جاهليته سنة ٦٠٤م ، ١٨ قبل الهجرة .

منزلته بين الشعراء :

يعد النابغة من فحول شعراء الجـــاهلية ، عده ابن سلام في الطبقة الاولى

---

١ ـ كليني : دعيني . الناصب : المتعب . بطيء الكواكب : طويل .
٢ ـ أقوت : خلت من أهلها. العلياء والسند : موضعان .

وقرنـــه بامرىء القيس والأعشى وزهير ، وهو أحد الأشراف الذين غـّض الشعر منهم ، وهو أحسنهم ديباجة ، وأكثرهم جزالة .

قال الأصمعي : «سألت بشاراً عن أشعر الناس فقال : أجمع أهل البصرة على تقدم امرىء القيس وطرفة ، وأهل الكوفة على بشر بن أبي خازم والأعشى ، وأهل الحجاز على النابغة وزهير ،وأهل الشام على جرير والفرزدق والأخطل.»

وكانت تضرب للنابغة قبة من جلد بسوق عكاظ فتـــأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، وكان مسموع الكلمة بين القبائل في الحرب ايضاً فيتدخل في إطلاق الأسرى .

آثاره : للنـــابغة ديوان مطبوع ، وشرح للديوان توجد منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ، ومن مصادر دراسته كتاب طبع بمصر يسمى « التوضيح والبيان لأشعار نابغة ذبيان »، وأخبار متفرقة في الأغاني، وطبقات الشعراء لابن سلام ، والادب الجـــاهلي لطه حسين .

ومن أشهر قصائده البائية ومطلعها :

كليني لهم ...

وقد عده العلماء من أصحاب المعلقات .

شعره وأثر البيئة فيه :

كان شعر النابغة مرآة انعكست فيها حيـــاة الشاعر ، أغراه التكسب ، وبهره المـــال فكثر في شعره المدح وأفتنّ فيه حتى أوغل إيغـــالاً جعله يمدح بالشيء وضده :

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ

وبالغ في اعتذارياته لاجتلاب الرضا :

فبِتُّ كأن العائداتِ فَرشنَ لي ... قَتاداً به يُعلى فراشي ويُقْشَبُ

وكثرت اعتذارياته ، وابتكر فيها حتى عُدّ من السابقين في باب الاعتذاريات :

فإنكَ كالليلِ الذي هو مُدرِكي وإِنْ خِلتُ أن المنتأَى عنك واسعُ

★

نُبِّئتُ أن أبا قابُوسَ أوعدني ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد

عاش في كنف الملوك وقوراً رزيناً فأثر ذلك في شعره ، فأتى بالحكم السامية ، وزخر شعره بالتدين ، ومكارم الأخلاق .

موضوعات شعره: تناول الشاعر في شعره أغراضاً كثيرة كالمدح والاعتذار والرثاء ، والهجاء ، والغزل ، والوصف ، وأشهر شعره اعتذارياته وإليك نماذج منها :

قال يمدح النعمان بن المنذر :

أَلم ترَ أَن الله أَعطاك سَوْرةً ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذبُ[1]

وقال يعتذر ويبرىء نفسه :

لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عني وشاية لَمبْلِغُكَ الواشي أغشُّ وأكذبُ

ولكنَّني كنت امرءاً ليَ جانبٌ من الأرض فيه مُستَرادٌ ومذهبُ

ومن هجائه قوله يهجو « زُرْعَة » من قوم خويلد بن عمرو :

نبئتُ زُرْعةَ والسفاهةُ كاسمها يُهدي إِليَّ غرائبَ الأشعار

أَرأَيتَ يومَ عُكاظَ حين لَقِيتني تحتَ العَجاجِ فما شققتَ غباري[2]

---

١ ـ سورة : صولة وقوة .

٢ ـ ما شققت غباري : لم تلحقني .

إِنا اقتسمنا خِطَّتينا بيننا فحملتُ بَرَّةَ واحتملتَ فِجارِ [1]

وقال يرثي النعمان بن الحارث الغساني :

سقى الغيثُ قبراً بين بُصرى وجاسم بغيثٍ من الوسميّ قَطرٌ ووابلُ
ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وعنبرٌ على منتهاه ديمة ثَمَّ هاطلُ [2]

قال في وصف المتجردة زوجة النعمان بن المنذر :

نظرتْ بمُقلة شادن متربِّبٍ أَحوى أَحمِّ المقلتين مقلَّدِ
والنظم في سلكٍ يزيِّن نحرَها ذهبٌ توقَدَ كالشهاب الموقدِ
صفراءِ كالسِّيراء أَكملَ خلقها كالغُصن في غُلوائه المتأوِّدِ [3]

ومن شعره في الغزل :

رأيت نُعماً ، وأَصحابي على عجل والعيسُ للبيْن قد شُدَّت بأَكوار [4]
بيضاء كالشمس وافت يوم أَسعِدَها لم تُؤذِ أَهلاً ولم تفحشْ على جار

ويمتاز شعر النابغة برشاقة اللفظ وسهولة الأسلوب ووضوح المعنى وعدم التكلف .

وكان شعره يمثل حياتين :حياة الترف،وحياة الألم لبعده عن صاحبه النعمان ثم اعتذارياته وتنصله مما نسب إليه .

---

١ ـ برة : اسم للخير . فجار: اسم للشر .
٢ ـ بصرى وجاسم : موضعان بالشام . الوسمى : أول المطر . الديمة : السحابة : الممطرة .
٣ ـ الشادن : الظبي الصغير . المتربب : المحبوس في البيت . أحوى : فيه حمرة الى سواد . السيراء : ثوب من حرير فيه خطوط . غلواء الغصن : ارتفاعه . المتأود : المتثني .
٤ ـ أكوار . جمع كور وهو رحل البعير .

ويُعد النابغة من « المدرسة » الأوسية التي أسسها أوس بن حجر، ومن أهم تلاميذها شاعرنا هذا وزهير والحطيئة .

وتمتاز هذه المدرسة بكثرة التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية. وهي تختلف في طريقتها عن طريقة امرىء القيس فهي تسير بالفن في روية وتفكير ، ولذا فانها تعد خطوة جديدة نحو الرقي بعد امرىء القيس . وكان شاعرنا هذا من الشعراء الذين جرى كثير من أقوالهم مجرى الأمثال :

فلو كفِّي اليمينُ بغتْكَ خوْناً لأفردتُ اليمينَ من الشمالِ

أخذه المثقب العبدي فقال :

ولو أني تخالفني شمالي بنصر لم تصاحبها يميني

وقوله :

واستبقِ وُدّكَ للصديق ولا تكن قَتَباً يعضُّ بغاربٍ ملحاحا [1]

أخذه ابن ميّادة فقال :

ما إِن أُلحُّ على الاخوان أسألهم كما يلحُّ بعضٌ الغاربِ القَتَبُ

١ ـ القتب : الرحل . الغارب : بين سنام البعير وعنقه .

موضوعات للبحث

١ – كانت للنابغة منزلة عظيمة بين شعراء عصره .
ما مظاهر هذه المنزلة ؟ وما أسبابها ؟

٢ – قالوا « إن النابغة أول من تكسّب بالشعر ، وان الشعر قد غض منه » .
ناقش هذا الرأي واستشهد .

٣ – غلب على شعر النابغة فن من فنون الشعر العربي هو الاعتذار .
ما عوامل هذا الفن في حياة الشاعر ؟ وما قيمته الفنية ؟
وضح واستشهد .

٤ – هل تذكر في عالم الشعر شاعراً طرق فن الاعتذار ؟
ابحث عن شاعر تناول هذا الغرض وقارن بين اعتذارياته واعتذاريات النابغة .

المراجع

الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
النابغة الذبياني	لعمر الدسوقي
الادب الجاهلي	لطه حسين
تاريخ الشعر السياسي	لأحمد الشايب
المعلقات العشر وشروحها	للتبريزي
تاريخ الادب العربي	لكارل بروكلمان
النابغة في مدائحه واعتذارياته	لبطرس البستاني

زهير بن أبي سلمى

أصله : هو زهير بن أبي سُلمى ، واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح المُزني من مُزَينة بن إلياس بن مضر .

حياته : نشأ زهير في غطفان ، وكان فيها شيخ حكيم مقعد عرف بسداد الرأي ورجاحة العقل هو بَشامة الشاعر خال ربيعة والد شاعرنا هذا ، فلزمه الشاعر ، وأخذ عنه الشعر والرزانة وحب السلم ، والنزعة إلى الإصلاح، وتتلمذ لزوج أمه أوس بن حَجَر زعيم المدرسة الحضرية . وحينما أقام زهير بغطفان تزوج هناك « أمّ أوفى ».ولما لم تنجب له أولاداً تزوج عليها «كبشة» ثم طلـّق أم أوفى، وأنجبت له كبشة كعباً وبجيراً وكانا شاعرين .

وعاش زهير ورعاً تقياً . وذهب بعض المؤرخين الى أنـه كان نصرانياً ، وقد استنتجوا ذلك من أشعاره التي مال فيها الى الناحية الدينية الصافية ، وأظهر فيها إيمانه بالبعث والحساب ، وبأن العلم بالغيب ليس من شأن البشر :

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ليوم الحسابِ أو يُعجَّلْ فيُنْقَمِ

وأعلَمُ ما في اليومِ والأمْسِ قبلَهُ ولكنني عَن علمِ ما في غدٍ عَمِ

وظل زهير منقطعاً لهرم بن سنان معجباً به ، وبـنزعته السلمية فخصه بأحسن شعره ، ومدحه ومدح الحارث بن عوف في معلقته ، لقيامهما بالصلح بين عَبْسٍ وذُبيْانَ في حرب داحس والغبراء ،وقد أغدق هرمُ على زهير العطايا

حين أُولِـع به وأعجبه شعره ، حتى حلف هرمُ ألاّ يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلّم عليه إلا أعطاه عبـداً أو وليدة أو فرساً ، فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبله منه ، فأصبح اذا رآه في مـلأ من الناس قال « عِمُوا صباحاً غيرَ هرِمٍ وخيرَكُمُ استثنيْت ». وقد عُمِّرَ زهـير طويلاً ، وقضى حياته حليماً ، وقوراً ، ناصحاً قومه داعياً الى الحق ، محاولاً إصلاح مجتمعه ، وتُوُفي سنة ٦٢٧ م .

آثاره : لزهير ديوان شعر شرحه الأعلم الشَّنْتَمَرِيُّ المتوَفى سنة ٤٧٦ هـ. وقد طبع هذا الشرح في ليدن سنة ١٣٠٦ هـ ، وله شروح أخرى ضاعت ولم تصلنا . ومن الديوان نسخة خطية في دار الكتب المصرية .

وقد جُمعت أخباره وأقواله في كتاب الأغاني ، وفي خزانـة الأدب ، وجمعت معلقته مع سائر المعلقات . ويكثر في ديوانـه مـدح الأشراف من غطفان ،وهرم بن سنان وقومه ، والحارث بن عوف ؛ والوصف ، وقليل من الغزل ، والهجاء ، والفخر .

عوامل نبوغه :

كان زهير شاعراً مطبوعاً ، عنده استعداد فطري للشعر لما ورثه عن أهله: جدِّه رياح ، وأبيه ربيعة ، وخالِ أبيه بشامـة بن الغدير الغطفاني . وكانت أختاه سلمى والخنساء[1] شاعرتين .

وقد أصبح زهير راوية لخاله بشامة بن الغدير، وزوج أمه أوس بن حجر، وقد اصطنع مذهبها في الحكمة ، وسداد الرأي والأدب ، وفنهما في الوصف والتشبيه وتمثيل ملامح البيئة البدوية . وكان لصفاته وأخلاقه التي تميز بهـا من رزانة وصدق قول وعفة وحلم أثر كبير في شعره ؛ واليك في ما يـلي بعض عوامل النبوغ عند زهير :

---

١ ـ الخنساء هذه غير الخنساء الشهيرة صاحبة المراثي في اخيها صخر .

١ ـ كانت بلاد غطفان مسرحاً للحروب بين عبس وذبيان ، وكان لزهير رأي خاص في هذه الحروب فقام يـــدعو الى السلم ، وينفّر الناس من الحرب ويندد بموقف المعارضين للسلم ، ويمدح الساعين في الصلح .

٢ ـ كثرة تجاربه التي اكتسبها . فقد حنكته التجارب، وصقلته الحوادث، وخـبر الناس ، وأهواء النفوس .

٣ ـ عنايته بتنقيح شعره، فهو لم يقل الشعر ارتجالاً بـــل كان من المعنيّين بجودته وصقله ـ وذلك أفضل عنده من الارتجال وكثرة قـول الشعر ـ فكان ينقح ويهذب حتى صفا شعره وسلم من الشوائب ، وله حوليات كان ينظمها في أربعة أشهر ، ولا ينشرها على الناس إلا بعد حول إذ كان ينقحها ويهذبهـــا ويصقلها ويدقق في ذلك ثم يظهرها على الملأ من الناس .

٤ ـ كثرة الأسواق الأدبية التي تدفع الشعراء الى الجودة والمنافسة .

٥ ـ ان الارهاصات التي سبقت الدين الاسلامي دفعته الى التـأمل فيها وابداء رأيه . وذلك واضح في شعره .

كل ذلك كان من عوامل نبوغ زهير ،فكان شاعر العقل والقوة والعفة التي اتصف بها الشرفاء من العرب، فمثّل هذه الحياة أصدق تمثيل وكان على عكس امرىء القيس وطرفة اللذين مثّلا حياة المجون والتهتك .

موضوعات شعره : أكثر الأغراض في شعر زهير هو المدح ، والوصف ، والحكمة ، والمثل ، وأقلها الهجاء والفخر والغزل .

المدح : وقد خص بأكثر مدحه هرم بن سنان والحارث بن عوف :

فرحتُ بما خُبِّرتُ عن سيِّدَيكمُ   وكانا أمرأَينِ كل شأنِهما يَعلو
رأَى اللهُ بالإحسانِ ما فعلا بكم   فأبلاَهما خيرَ البلاء الذي يبلو [١]

---

١ ـ السيدان : الحارث وهرم . أبلاهما : صنع الله إليهما خير الصنيع .

ومن قوله يمدح هرماً :

قد جعلَ المبتغون الخيرَ في هَرِمٍ والسائلونَ إلى أبوابه طُرُقا
إن تلْقَ يَوْماً على عِلاَّتِه هرماً تلْقَ السماحة منهُ والنَّدى خُلُقَا

ونحن لا يمكننا ان نعد زهيراً من المتكسّبين بالشعر مثل النابغة ، لانه لم يتصرف تصرّف النابغة في حرصه على التكسب إذ نراه يلجأ الى الغساسنة حينما غضب عليه النعمان بن المنذر وما ذاك الا طمعاً في المال وحباً في العطاء . وهو لم يبالغ في مدحه كما بالغ النابغة ، ولم يَفْتَنَّ في ضروب المدح كما فعل النابغة ، وهو لم يمدح هرماً الا لما رأى فيه من شهامة وكرم ومروءة فهو قد سعى في الصلح وهو قد تحمّل ديات القتلى مع الحارث بن عوف ثم هو الى جانب ذلك رزين وقور .

الوصف : وقد عُنيَ فيه زهير بإظهار ملامح البيئة البدوية ، كالأطلال والناقة والفرس وحمار الوحش ، والأخلاق والعادات والطباع .

والوصف عنده فيه حياة وحركة وأصباغ وألوان ، وقد كان وصفه خلال قصائده لا غرضاً قائماً بذاته .

ومن قوله يصف فرسه :

هبطتُ بممسودِ النواشر سابحٍ مُمَرٍّ أسيلِ الخد نَهْدٍ مراكلُهْ [1]
تميم فَلَوْناه فأكمل صنعُهُ فتم وغرَّته يـداه وكاهله [2]

---

١ ـ ممسود النواشر . النواشر عروق باطن الذراع، وممسودها: شديدها، قويها. سابح : يحسن مد يديه عند الجري . ممر : مفتول شديد الفتل. أسيل الخد طويله.نهد مراكله : ضخم الجنبين .

٢ ـ تميم : تام الخلق . فلوناه : فطمناه . غرت يداه وكاهله : أي غلبت يداه وكاهله (وهو مجتمع الكتفين من أصل العنق) سائر أعضائه .

الحكمة : وقد ضرب به المثل في ذلك حتى قيل « زهير شاعر الحكمة ».

وقد كانت حكمه نتيجة خبرته الطويلة وثمرة عمر طويل وبصيرة نافذة ، وميل الى الاصلاح والسلم .

وهو يتناول في حكمه الحياة والمجتمع ، وقد نظر الى الحياة نظرة الضجر الذي ملها لطولها .

وفرقٌ بين تناول طرفة ـ في ذلك ـ وتناول زهير . فطرفة كره الحياة نتيجة توالي هجوم الموت على الناس ، وزهير كره الحياة لطولها ، وهو على الرغم من ذلك يتمسك بها ، وطرفة يريد ان يلهو في الحياة وان يستمتع بكل ألوان الاستمتاع واللذة ، وزهير يؤمن بالحياة العفيفة الطاهرة البعيدة عن المجون واللهو ، ويؤمن بأن هناك حساباً وعقاباً وبأن الانسان سيؤاخذ على ما جنى .

ويبدي زهير في الحياة الاجتماعية آراءه السديدة ، وان كان قد أتى ببعض آراء نعدها غريبة من رجل حكيم مثله كقوله :

ومن لم يَذُدْ عن حوضِه بسلاحِه ... يُهدَّمْ ومن لا يظلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

والفرق بين حكم زهير وحكم طرفة هو أن حكم زهير ساذجة في أكثرها مبنية على تجارب وخبرة بدوية ، وهي أقل من حكم طرفة حياة ولكنها أوسع منها نطاقاً .

من حكم زهير :

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يَعشْ ... ثمانين حَوْلاً لا اباَلكَ يسأمِ

رأيتُ المنايا خَبْطَ عَشواءَ من تُصبْ ... تُمِتْهُ ومن تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فيَهرمِ

وأعلَمُ ما في اليومِ والأمسِ قبلَهُ ... ولكنني عن عِلمِ ما في غدٍ عَمِ

ومن شعره في الغزل :

إنِ الخليطَ أجدَّ البَيْنَ فانفرَقا وعُلِّق القلبُ من أَسماء مَا عَلقا

وفارقتْك برَهْنٍ لا فَكاكَ له يومَ الوداع فأمسى الرهنُ قد غَلِقَا

كأنَّ ريقتها بعد الكرى اغتَبَقَتْ من طيِّبِ الراحِ لَمَّا بَعْدُ أن عُتِقَا

مميزات شعره : يمتاز شعره بالصدق مع قلة المبالغة ، والإيجاز وبعده عن الغريب ، وقوة اللفظ وروعة الأسلوب ومطابقته لمقتضى الحال .

موضوعات للبحث

١ ـ نظر كل من زهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد في الحياة وكانت لهما آراء في الحياة والمجتمع .
قارن بين الشاعرين من حيث تناولهما لهذا الموضوع وبيّن أيهما أفضل فكرة ولفظاً وأسلوباً .

٢ ـ وازن بين مدح النابغة ، ومدح زهير ، مبيناً غرض كل منهما في المدح ، مستشهداً بأشعارهما في هذا الفن .

٣ ـ في شعر زهير كثير من ملامح البيئة العربية .
اعمد الى معلقته ، واستخلص منها أهم هذه الملامح .

٤ ـ لحياة زهير أثر كبير في شعره .
استعرض حياته الأدبية والمادية وبيّن مظاهر أثرها في الشعر عامة .

المراجع

ديوان الحماسة	لابي تمام
طبقات الشعراء	لابن سلام الجمحي
نقد الشعر	لقدامة بن جعفر
الشعر والشعراء	لابن قتيبة
الادب الجاهلي	لمحمود مصطفى
الادب الجاهلي	لطه حسين
زهير قاضي صلح يصدر احكامه شعراً	لبطرس البستاني
الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
آداب اللغة العربية	لجورجي زيدان

عنترة بن شداد

أصله : عنترة بن شداد بن عمرو بن معاويـــة العبسي المضري ، وأبوه من أشراف عبس ، أما أمه فهي حبشية الأصل تسمى « زبيبة »[1] .

ويلقب بـ « عنترة الفَلْحاء » . (ذهبوا به الى تأنيث الشفة من الفلح وهو انشقاق الشفة السفلى ، كما أن الأعلم مأخوذ من العلمة وهي انشقاق الشفة العليا) .

وهو أحد فرسان العرب المشهورين وأجوادهم المعروفين ، وأحد الأغربـة الجاهليين . قال صاحب الأغاني : « وهم عنترة وأمه زبيبة ، وخفاف بن عمـير الشريد وأمه ندبة ، والسُلَيْك بن عمير السعدي وأمه السُّلَكة » . وفي القاموس « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة في الجاهلية عنترة ، وخفاف بن ندبة ، وعمير بن الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي مِعْيط الا أنه مخضرم » .

حياته : نشأ عنترة منبوذاً على عادة العرب الذين كانوا لا يُلحقون ابن الأَمة بنسبهم ، فلا يدّعيهم آباؤهم الا إذا ظهرت عليهم النجابة ، فكان عبداً في بيت أبيه يرعى الإبل والخيل ، واكتسب من وراء ذلك الفروسية والشجاعة ، وكان اخوته من امه عبيداً . كانت امرأة أبيه ، واسمها سُمية قـــد أوغرت صدر ابيه عليه ، وادعت انه راودها عـن نفسها ، فغضب أبوه وهمّ ان يقتله ،

---

١ ـ ضبطها بعضهم بضم الزاي ، وضبطها آخرون بفتحها .

فوقعت عليه « سمية » هذه فقال فائيته التي أولها :

أمِن سُميّة دمعُ العين مذروفُ   لو ان ذا منك قبل اليوم معروفُ ؟

ولما شب ونما وأصبح فارساً مقداماً ، لم يُرضه حاله هذا من الرق والعبودية ، فلبث يتحين الفرصة ليجبر أباه على الحاقه بنسبه . وقد وجدها سانحة حينما أغار بعض احياء العرب على بني عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا ، فلحقوا بهم فقاتلوهم وعنترة يومئذ لا يشترك في القتال فقال أبوه : كرَّ يا عنترة ، فقال عنترة : العبد لا يحسن الكرّ وإنما يحسن الحِلاب والصَّرّ ، فقال : كرّ وأنت حر ، فكرَّ واستنقذ الابل من طيء فاعترف به ابوه .

شجاعته : شجاعة عنترة شجاعة نادرة ، وقد نسجت حوله الأساطير وأظهرته في صورة المثل الأعلى للفارس الهمام والشاعر العبقري ، وكتبت قصته في مجلدات تحكي شجاعته وشعره وحبه ومغالاته في طلب ابنة عمه عبلة ، وقد امتزج بشعره الصحيح شعر منحول ، ودخلت فيه قصائد بأكملها لم يقلها عنترة على الأصح من الأقوال .

قيل لعنترة « أنت أشعر العرب وأشدها ، قال لا ، قيل له فبِمَ شاع لك هذا في الناس ؟ قال كنت أُقدم إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأُحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً إلا أرى لي منه مخرجاً ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنّي عليه فأقتله » .

وقد خاض المعارك وقادها في غزوات على أعداء عبس من طيء وغطفان وحنيفة ، وكان قائداً قوي الشكيمة في حرب داحس والغبراء ، ذاعت شهرته فيها بسبب شجاعته وبطولته .

وفاته : اختلف الرواة في سبب موته ، وأشهر الأقوال هو أنه مات قتيلاً في إحدى غاراته على بني نبهان من طيء وكان ذلك سنة ٢٢ قبل الهجرة .

آثاره : لعنترة ديوان شعر أكثر ما فيه الفخر والحماسة ، والإشارة إلى

الوقائع ، والحكمة ، والغزل العفيف ، وأقل ما فيه المدح والرثاء، وقد اختلف الرواة كما قلنا فيما هو صحيح من شعره ، وفيما هو منحول .

ومن الثابت له معلقته التي مطلعها :

هل غادَرَ الشعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ   أمْ هَلْ عَرَفْتَ الدارَ بعد تَوَهُّمِ

ومن اجود قصائده تلك التي يتوعـد فيها النعمان ، ويفتخر بقومه وهي زاخرة بالحكم والحماسة ومطلعها :

لا يحملُ الحقدَ من تعلو به الرُّتب   ولا ينالُ العُلا مَنْ طبعُه الغَضَبُ

نماذج من شعره : في الفخر والحماسة :

هلاَّ سألتِ القومَ يا ابنةَ مالكٍ   إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يُخبِرْكِ من شهِدَ الوقيعةَ أنني   أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنمِ

وقوله :

يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرماحُ كأنّها   أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهمِ

ما زلتُ أرْميهم بِثغْرَةِ نَحْرِه   ولَبانِهِ حتّى تَسَرْبَلَ بالدّمِ

ومن الغزل قوله :

وقد أبْعَدوني عن حبيبٍ أُحبُّه   فأصبحتُ في قفرٍ عن الأنسِ نازحِ

وقوله يتحرق شوقاً :

وتخالُ أنفاسي إذا ردّدْتُها   بين الطلول محتْ نقوش المِبْردِ

وقوله :

قالوا اللقاء غداً بمنعرجِ اللِّوَى   واطولَ شوقِ المستهام إلى غدِ

وهو في غزله عفيف يلتاع شوقاً وتلهفاً الى ابنة عمه ، يطيب له ان يبذل لها حتى نفسه وساعده ، ويبتعد عن كل ما يسوؤها :

وأُجيبُها إمّا دعَتْ لعظيمةٍ   وأُعينها وأكفُّ عمـــا ساها

ومن شعره يفخر بأخلاقه :

أغشى فتاةَ الحيِّ عند حليلها   وإذا غزا في الجيش لا أغشاها

★

وأغضُّ طرْفي ما بَدتْ لي جارتي   حتى يُواري جـــارتي مأواها

★

إني امرؤ سمحُ الخليقةِ ماجدٌ   لا أُتبعُ النفسَ اللّجوجَ هَواها

★

ولقد أَبيت على الطوى وأظلُّه   حتى أنالَ بـــه كريمَ المأكل

★

أثني عليَّ بما علمتِ فإنني   سمْحٌ مخالقتي إذا لم أُظلَمِ

فإذا ظلِمْتُ فإنَّ ظلميَ باسلٌ   مُرٌّ مذاقتُهُ كطعْمِ العلقمِ

مميزات شعره : يميل أسلوب عنترة إلى النوع الملحمي ؛ يتجلى ذلـــك في موسيقاه الشعرية ، وألفاظــه المتوثبة المتدافعة ، وتضخيمه الحوادث الحربيــة التي بدت فيها بعض المغالاة .

وخياله خيال الشاعر الذي امتزجت روحه بجاهليته فكان فطريـــاً في

تخيلاته يعتمد على التشبيه الحسي وفقاً لعادة الجاهليين .

ومعانيه واضحة قوية جاءت صورة لنفس صاحبها التي أشقتها العبودية حيناً ، وأسعدها العتق والانطلاق حيناً آخر ، نفسٍ جُبلت على الكرم والاقدام والشجاعة والسمو فكان شعره من أروع شعر الجاهلية ، لصدوره عن نفس شريفة متألمة ترنو إلى المجد ، نفسٍ شجاعةٍ مقدامة ، أشادت بأمجادها في ساحة القتال .

موضوعات للبحث

١ ـ ينبىء شعر عنترة عن نفس كبيرة طموحٍ وعزيمة لم يَثْنِها ما اصابه من غبنٍ اجتماعي .

ناقش هذا القول ـ ووضح واستشهد .

٢ ـ لامرىء القيس وطرفة اتجاه في الحياة يغاير اتجاه عنترة وزهير ، وقد كان لاتجاه كل منهم أثر في حياته الشعرية .

استعرض حياة هؤلاء الشعراء واتجاههم وأثر ذلك في نفسيتهم وشعرهم .

٣ ـ يمتزج شعر عنترة الحماسي بعاطفة تصبغه بصبغة غنائية في مواطن كثيرة .

اعمد إلى شعره الحماسي واستخلص منه هذه الظاهرة .

٤ ـ ما عوامل شعر عنترة الحماسي ؟ وهل تجد في شعره نوعاً من شعر الملاحم ؟

ناقش ووضح واستشهد .

٥ ـ تناول بعض الأغراض التي طرقها عنترة ، ثم بين خصائصها الفنية وادعم بحثك بالبرهان .

٦ ـ فن عنترة الشعري فن بدوي نموذجي يتسم إلى جانب ذلك ببعض ملامح حديثة . اثبت أو انفِ هذا الرأي مؤيداً قولك بالبرهان .

المراجع

ديوان عنترة	تعليق محمد المناني
الشعر والشعراء	لابن قتيبة
ديوان الحماسة	لأبي تمام شرح الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد
طبقات الشعراء	لابن سلام
منية النفس في أشعار عنترة بني عبس	لاسكندر آغا ابيكاريوس (بيروت)
عنترة العبسي شاعر عبس وفارسهم	لجورجي زيدان
الأدب الجاهلي	لمحمود مصطفى
الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف

النساء الشاعرات

الخنساء

مقدمة :

ظهر في الجاهلية عـدة نساء شاعرات دلّ شعرهن على رقي المرأة الجاهلية وذكائها .

ومن أشهر هؤلاء النساء : الخنساء ، وخرنق بنت بدر بن هفان ، وليـلى العفيفة ، وجليلة بنت مُرّة .

وسنتناول واحدة من هؤلاء بالدرس وهي : الخنساء .

أصلها : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلميّة من سراة سليم (قيس) الملقبة بالخنساء ، وهي شاعرة مضرية أدركت الإسلام وأسلمت، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يستنشدهـا ويعجب بشعرها ويقول « هِيْهِ يا خُناس » ويومىء بيده .

حياتها : نشأت الخنساء في بيت عز وسيادة ، وخطبهـا دُرَيد بن الصِّمّة فارس جُشَم فرغبت عنه وآثرت التزوج في قومها . وكانت تقول المقطّعات من الشعر أول أمرها فلما قُتل شقيقها معاويـة ، ثم أخوها لأبيها صخر حزنت عليهما حزناً شديداً ، وكان أشد وجدها على صخر .

وكان لها أولاد من مرداس السلمي الذي تزوجته بعد «عبد العُزّى [1]» . ولم تنجب من عبد العزى إلا ولداً واحداً سمّي عَمْراً ، وقد اشتهر أولادها كلهم بالفروسية .

وعُمّرت الخنساء طويلاً ، وقد حضّت أولادها – بعد أن اعتنقت الاسلام – على الإسهام في معركة القادسية التي نشبت بين المسلمين والفرس فاشتركوا فيها مع المسلمين ، واستشهدوا كلهم . ولما بلغها خبر وفاتهم قالت في ذلك : « الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم » .

وكان أخواها معاوية وصخر من شرفاء العرب وسادات بني سليم . وحدث أن قُتِلا فحزنت عليهما حزناً شديداً ورثتهما بشعرها المشهور في ذلك .

وظلت في حزنها الذي كان أكثره على أخيها صخر لأنه تميز بصفات عربية أصيلة ولأنه شاطرها هي وزوجها أمواله مراراً . وقد عميت الخنساء بسبب هذا الحزن الشديد ، وكانت وفاتها بالبادية سنة ٤٦ هـ على ما قيل .

آثارها : للخنساء ديوان شعر كبير ،وأخبار كثيرة متفرقة في كتاب الأغاني . وأغلب شعرها في الرثاء . وورثت عنها ملكة الشعر بنتها عمرة وبقيت بعض أشعارها في ديوان أمها .

شاعريتها : شعر الخنساء هو شعر العاطفة المكلومة التي نُكبت في أعز من تحب ففاضت ألماً وحزناً دفيناً . فقد كانت لا تكف عن البكاء ،ولا تعرف له حداً ، فطيف خيال صخر يلازمها نهاراً وليلاً .

يذكّرني طلوعُ الشمسِ صخراً وأذكرُه لكل غروبِ شمسِ

وقد بلغت في حزنها مبلغاً كادت أن تقتل نفسها في غمرته :

ولولا كثرةُ الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي

---

١ ـ يذكر بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي أنها تزوجت أولاً مرداس وبعده عبد العزى .

وأفكارها غير عميقة لأنها صادرة من عاطفة قد شغلها الألم عـــن التريث وترتيب الفكرة وتعميقها ، فجاءت أفكارها مكرّرة ، فيها بعض الغلوّ غير المقبول أحياناً . أما أسلوبها فسهل عاطفي لا تكلّف فيه ولا تعمُّل .

ومن شعرها ترثي أخاها صخرا :

أبعدَ عمْرو من آل الشريـ ـدِ حَلَّتْ بهِ الأرضُ أثقالهـــا
فإن تك مُرَّةُ أودَتْ بـــه فقد كان يُكْثِر تَقْتالهـــا
سأحمل نفسي عـــلى خِطةٍ فإمـــا عليها وإما لهـــا
فإن تصبرِ النفسُ تَلْقَ السرور وإن تجزعِ النفس أشقى لها

وقولها :

أعَينيَّ جـــودا ولا تجمُدا ألا تبكيـــانِ لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيـــان الفتى السيِّدا
رفيعُ العمادِ طويـــلُ النجادِ ساد عشيرتـــه أمردا

وقولها :

ألا يا صخرُ إنْ أبكيتَ عَيْني فقد أضحكْتني زمناً طويلاً
دَفَعْتُ بك الخطوبَ وأنت حيٌّ فمَنْ ذا يدفعُ الخطبَ الجليلاً
إذا قَبُحَ البكاء عـــلى قتيلٍ رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

موضوعات للبحث

١ ـ أجمَعَ رواة الشعر على أنــه لم تقم أمرأة في العرب قبل الخنساء ولا بعدها أشعر منها .

ما العوامل الذي دعت رواة الشعر إلى هذا الحكم ؟

استعرض شعر الخنساء وبين خصائصه الفينة .

٢ ـ أكثر أغراض شعر الخنساء هو الرثاء ...

فما عوامله ؟ بيّن خصائصه الفنيّة . ثم وضح أسبـــاب كثرة الرثاء في « صخر » خاصة .

٣ ـ وازن بين رثاء الخنساء ورثاء المهلهل .

المراجع

الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام — لمحمد عبد المنعم خفاجي (مصر)

شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام — لبشير يموت (بيروت)

شهيرات النساء في العالم الاسلامي — لقدرية حسين

الشعر والشعراء — لابن قتيبة

ديوان الخنساء — طبعة بيروت

رياض الأدب في مراثي شواعر العرب — للويس شيخو (بيروت)

النثر الجاهلي

الخطابة

مقدمة :

لم يصل إلينـــا من النثر الجاهلي إلا القليل ؛ لأن العرب اعتمدوا على حافظتهم في نقل أدبهم إلينا لا على الكتابة، ولم يُعنَ الرواة بالمنشور على الرغم من كثرته ، إلا مـــا عَلِق بذهنهم من الأمثال والحـــكم والوصايا والوصف والقصص .

وقد كثرت الخطابة في العصر الجاهــلي لكثرة دواعيها . فقد كان العربي يلجأ اليها للمفاخرة والمنافرة ، وللدفاع عن نفسه وعن قبيلته وقومه وإصلاح ذات البين أو إشعال نار الحرب وإثارة الحمية والحض على القتال والثأر، وللسفارة بين رؤساء القبائل ، والى الملوك .

وأكثر ما كانت تقال في المواسم والمجامع والأسواق ، والذي وصل إلينـــا على قلته أغلبه مشكوك في صحته .

ومن أشهر الخطباء في الجاهلية : قُسّ بن ساعدة الإيادي، وعمْرو بن معدي كـَرِب الزبيدي ، وعمْرو بن كلثوم التـَغـْلبي ، وأكـــثمُ بن صَيْفي التميمي، والحارث بن عباد البكري ، وقيس بن زهير العبسي ، وعمْرو بن أهتم .

ومن أقدمهم : كعب بن لؤي ، وذو الإصبع العدْواني .

أما أسلوب الخطابة : فكان قوي اللفظ ، قصير السجع ، كثير الأمثال موجزاً ، وكان من عاداتهم الوقوف على نشز من الأرض أو القيام على ظهر دابة . وكانوا يحبون من خطيبهم أن يكون جهير الصوت سليم المنطق .

وكان الخطيب يستعين على العبارة بالإشارة ، واتخاذ المخاصر ، والاعتماد على الرمح أو العصا أو القوس .

وسنتناول واحداً من هـؤلاء الخطباء حسب المنهج المقرر وهو « قس بن ساعدة الإيادي » .

موضوعات للبحث

١ – كثرت الخطابة في العصر الجاهلي ، وعظم شأن الخطباء . فما أسباب ذلك ، وما مميزات هذه الخطابة ؟ برهن على تقريرك بالأمثلة .

٢ – ما أسباب اتصال الوصايا وسجع الكهان بالخطابة ؟ استعرض بعض الوصايا الجاهلية وسجع الكهان واذكر خصائصها .

٣ – لم يبلغنا الا القليل من الخطابة – شأنها شأن النثر الجاهلي – على الرغم من كثرتها .

فما أسباب ذلك .

٤ – هل تستطيع ان تحكم على النثر الجاهلي عامة من خلال الخطابة ، والوصايا ، وسجع الكهان ؟

إن أمكنك ذلك وضح واستشهد .

المراجع

الفن ومذاهبه في النثر	للدكتور شوقي ضيف
الخطابة عند العرب	للأستاذ محمد الخضر حسين
أيام العرب في الجاهلية	للأساتذة محمد البيجاوي ومحمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم
فجر الاسلام	لأحمد أمين
تاريخ آداب اللغة العربية	لجورجي زيدان
مجمع الأمثال	للميداني

قس بن ساعدة الإيادي

هو خطيب العرب قاطبة ، وقد ضرب به المثل في الحكمة والبلاغة .

كان يؤمن بالبعث ، ويدين بالتوحيد ، ويرغّب العرب عن الوثنية، ويرشدهم إلى عبادة الخالق ، ويقال إنه أول من اتكأ على سيف ، وقال في خطبه « أما بعد » . وكان الناس يتحاكمون إليه ، وهو القائل : « البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر » . وسمعه النبي ﷺ - قبل البعثة - يخطب في عكاظ فأثنى عليه ، ويروى أنه ﷺ قال: « رحم الله قساً ، إني لأرجو - يوم القيامة - أن يُبعث أمةً وحده » .

وكان قس يفد على قيصر من حين لآخر فيكرمه ، وقد عاش متقشفاً راغباً عن الدنيا ، يعبد الله ، ويعظ الناس . وعُمّر قس طويلاً ومات سنة ٦٠٠ م .

أسلوبه الخطابي : إن سلّمنا بما أُثِرَ عن قس من النثر تبين لنا أن أسلوبه كان كثير السجع قصير الفواصل وأن ألفاظه كانت منتقاة . وكان يعمد إلى ضروب الأمثال واستنتاج العبر من مصارع الطغاة ، وإرسال الحِكم .

وقد رووا أن لقسّ شعراً يجمع بين الجزالة والرقة ، وقوة التأثير .

ومن خطبه خطبته التي قالها في سوق عكاظ وهي :

« أيها الناس ؛ اسمعوا وَعُوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آت . ليلٌ داجٍ ، ونهار ساجٍ ، وسماء ذات أبراج ، ونجومٌ تزهر ، وبحار تزخر ، وجبالٌ مُرساة ، وأرض مُدحاة ، وأنهار مُجْراة . إن في

السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعِبَرا . ما بالُ الناسِ يذهبون ولا يرجعون ؟ . أرَضُوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تُركوا هناك فناموا ؟ يُقسم قسٌ بالله قسَماً لا إثم فيه إن لله ديناً هو أرضىَ لكم وأفضلُ من دينكم الذي أنتم عليه . إنكم لتأتون من الأمر مُنكرا . »

ويروى أنه أنشأ بعد ذلك يقول :

في الذاهبينَ الأولينَ ... من القرون لنا بصائرْ
لمـــّا رأيتُ مواردأ ... للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأكابرُ والأصاغرْ
لا يرجعُ الماضي إلـــ ... يَّ ولا منَ الباقينَ غابرْ
أيقنتُ أني لا مَحَالةَ ... حيث صار القوم صائرْ

ومن حكمه : « مَنْ عيّرك شيئاً ففيه مثله » ، و « من ظلمك وجد من يظلمـــه . »

ومن شعره قوله يَرثي أخوين له ، وقد وقف على قبريهما بدير سمعان :

ألم تعلما أنّي بسمعانَ مُفْرَدٌ ... ومالِيَ فيه من حبيبٍ سواكما ؟
أُقيم على قبريكما لستُ بارحاً ... طوالَ الليالي أو يجيبَ صداكما

إلى ان قال :

سأبكيكما طولَ الليالي وما الذي ... يردّ على ذي عَوْلَةٍ إن بكاكما

موضوعات للبحث

١ ـ استعرض خطبة قسّ التي القاها في سوق عكاظ ، واستخلص منها خصائص نثره .

هل تستطيع أن تستخلص عقيدته الدينية من خطبته هذه ؟

أذكر عبارات النص التي تثبت ذلك .

وازن بين أسلوب قس في الخطابة وأسلوب خطيب آخر من خطباء الجاهلية تختاره أنت ، وليكن أكثم بن صيفي مثلاً .

٣ ـ يقال : إن لقس شعراً إلى جانب خطبه وحكمه .

إيت ببعض أشعاره ووضحها فنيّاً ، اذا سلمت بهذا القول وإلا فانفِ هذا الزعم إن شئت .

المراجع

الفن ومذاهبه في النثر العربي	للدكتور شوقي ضيف
الأدب الجاهلي	لطه حسين
الخطابة عند العرب	لمحمد خضر حسين
أيام العرب في الجاهلية	لجماعة من الأساتذة
الأدب الجاهلي	لمحمود مصطفى

ظهور الاسلام

عاش العرب في جاهليتهم زمناً طويلاً في جهالة عمياء ، قبائل متفرقة متعادية ، لا تردعهم أحكام ، ولا تزجرهم قوانين ، ولا تربطهم جامعة . تغلب عليهم الوثنية ، ويُلجئهم فقرهم إلى الاتصاف بصفات مرذولة ، كالربا وقتل الأولاد خشية الإملاق (الفقر) ، واحتقار المرأة وحرمانها من الإرث ، ووأد البنات .

والشعراء ينشدون أهازيج على ألحان العصبية ، فيشعلون الحماسة والعدواة. وهكذا كانت حياتهم تتسم بالجهل والحمق والحميّة والأنفة .

وقد كادت هذه العادات أن تفتك بهم وتقضي عليهم . وكان من أثر هذا النظام الفاسد ، والفوضى التي تحكمت فيهم أن تهيأت النفوس السليمة لحياة أحسن ومثَل أعلى ، لكن العرب كما قال ابن خلدون :

« اصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة والأنفة ، وبُعد الهمة ، والمنافسة في الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم ، ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوّة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة » . وقد كان ذلك ـ فعلاً ـ هو الطريق الوحيد لإصلاح العرب ، والمنفذ الذي خرجوا منه إلى العالم لينشروا رسالتهم الإنسانية ، وتعاليمهم السمحة ، وليحكموه بالعدل والإنصاف .

فقد كان ظهور الإسلام حدثاً هاماً في تاريخ العرب ، غيّر حياتهم وبدل

رجسهم بطهر ، وفسادهم بصلاح ، وأقام دولة متآلفة وفرض عليهـــا نظامه ومبادئه ، ومحا هذه العادات القبيحة التي تـــأصلت في نفوس العرب ، ورسم للمجتمع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه من عبادة الأصنام والثأر والربـــا ووأد البنات ، والقسوة في الانتقام .

الحياة الدينية : دعا الإسلام الناس إلى الإيمـان بالله وحده : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » كما دعاهم إلى التأمل في الكون : « أَلم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله »،« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار . » والخضوع لله والانقياد لأوامره ، ثم الخضوع لحـــاكم واحد أوجبَ الاسلامُ طاعته ما دام على الحق « وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم »

الحياة الاجتماعية : نصح الاسلام بالتواضع والبعد عن المفاخرة « إن اكرمكم عند الله اتقاكم ». وقال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» . وحافظ على كيان الأسرة فحرم قتل المواليد : «ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطْئاً كبيراً » كما حرم وأد البنات : « وإذا الموءودة سُئلت ، بأي ذنب قُتلتْ » .

وانصف المرأة وانتشلها من مخالب الظلم والطغيان ، فأورثها ، وقيد تعـدد الزوجات واشترط العدل بينهن : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثلُ حظ الانثيين » « وإن خفتم ألا تَعْدِلوا فواحدة ». كما حض على التعاون ، وعلّم الناس آداب الإحسان ، ودعا إلى إنفاق المال ، ووعد المنفقين خيراً ،وأوجب الزكاة في مال الغني حقاً للفقير ، وفرض الصلاة لطهارة النفس والبدن : « إنما المؤمنون إخوة » ، « المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يَشدّ بعضه بعضاً » ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتَعَارَفوا»،« مَثَلُ الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله كمثَل حبَّة أنبتتْ سبْع سنابل في كل سُنْبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » ، « وفي أموالهم حقّ

معلوم للسائل والمحروم » ، « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون » .

في الحياة الفكرية : توقف الشعراء والخطباء الذين كانوا ينفثون سموم العداوة والبغضاء ، ويبثون الإحن والأحقاد ، ويفاخرون ويهجون ، وأخذوا يسايرون الدين الجديد، ويخضعون لتعاليمه لا ينظمون ولا يقولون إلا بما يتمشى مع ما أمر به الله ورسوله. وأصبح القرآن ومعه الحديث دستور الأمة، يرسمان الآداب ويهذبان الأخلاق . وانضوت الخطابة تحت لواءِ القرآن الكريم ، تسير على هديه ، وتقتبس من نوره . وقلت الأمية لحاجة الدين الجديد الى الكتابة، وأدى اتساع الرقعة الإسلامية الى استنباط أصول الاحكام من مصادر الدين الجديد ، والاجتهاد في الرأي فيما لم يرد به نص من الكتاب أو السنّة .

على أن تعاليم الاسلام لم تصل الى كل نفس ؛ فقد كان هناك المتمردون على كل دين أو قانون أو سلطان ، وهؤلاء لم يخضعوا للدين الجديد ، فكانوا أشد كفراً ونفاقاً .

وكان من سادتهم مَنْ يقبل على الدين الجديد لغرض في نفسه لا لأنه مقتنع به ومؤمن بتعاليمه ، وقد تجلى ذلك فيما حدث بعد وفاة النبي ﷺ من ارتداد كثير من المسلمين ، ومن قيام العصبية بين الهاشميين والأمويين وبين القحطانيين والعدنانيين .

في الحياة السياسية : أُلِّفت في عهد الرسول أول حكومة اسلامية منظمة، حكومة دستورها القرآن الكريم وحديث النبي الكريم ، حكومة كانت شريعتها ومبادؤها نبراساً يضيء الطريق للخَلَف لتظل مبادىء الاسلام راسخة، وأسسه قوية . وأتيح للعرب من بعدُ ان يستولوا على ممالك كسرى وقيصر ، وبلاد المغرب، واسبانيا الغربية ، وكان للامتزاج الذي نتج عن هذه الفتوحات أثره في ظهور المدنيات ، والفنون الأدبية ، والحضارة الاسلامية التي هيأت لصعود الانسان في مراقي الانسانية الحديثة .

وتحول الأعراب الى خلفاء وأمراء وقضاة وقواد : فأظهروا موهبة عقلية ومقدرة وذكاء . وكانت معاملتهم الحسنة لغـيرهم سبباً في دخول كثير من غير المسلمين في دين الله أفواجاً ، وهكذا خلق الاسلام أمـة متمدينة متحضرة من أمة مشركة متنافرة متأخرة ، نشرت عدلهـا ونورها في مشارق الارض ومغاربهـا ، وفتحت سبل التقدم ، وامتزجت بغيرها من الشعوب الأخرى فصار الكل دولة اسلامية قوية ، وأثر هذا الوضع الجديد في العقلية العربية ، وفي الأدب شعره ونثره .

ومن أعظم مصادر الادب العربي : **القرآن الكريم .**

موضوعات للبحث

١ – كان ظهور الاسلام حدثاً هاماً في تاريخ حياة العرب السياسية والاجتماعية والثقافية والادبية .
ناقش هذا الرأي ووضحه وأيده بالبرهان .

٢ – ما الأغراض الشعرية التي أطفأها الاسلام ؟ وما أسباب ذلك ؟
وضح .

٣ – أضعف الاسلام فناً أدبياً وقوّى آخر .
وضح هذا معللاً .

٤ – وازن بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الاسلام .

المراجع

تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان
الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام لمحمد عبد المنعم خفاجي
حياة محمد لمحمد حسين هيكل
فجر الاسلام لأحمد أمين

القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب أُحْكِمَتْ آياتُــه ثم فُصِّلت مِنْ لدنْ حكيمٍ خبير ، نزل على النبي ﷺ ليدعو الناس الى عبادة الله وينذرهم ويبشرهم بأسلوب عربي أعجز العرب مع أنهم أرباب الفصاحة وأمراء البيان ، فأنكروه وقالوا « إنه شعر شاعر أو فعل ساحر أو سجع كاهن » . والقرآن أول كتاب دُوِّن في اللغة العربية .

فدراسته ضرورية للأدب العربي وتاريخه ؛ اذ هــو ينبوع الحياة الأدبية والعقلية عند العرب ، ومنهل الأساليب والمعارف التي شاعت في أدب ذلـك العصر .

وقد حاول كثير من العرب الجري على أسلوب القرآن فباءوا بالفشل. وكان تأثيره القوي بأسلوبه الساحر ومنطقه البديع قوياً . وكان ذخــيرة للأديب يرصع به كلامه فينفذ إلى القلوب .

أسلوبه : نزل القرآن منجّماً على رسول الله في نحو ثــلاث وعشرين سنة حسب ما يَجِدّ من الحوادث ، وقد نزل على رسول الله في خلال مقامه بمكة ثلاث وتسعون سورة ، وبالمدينة إحدى وعشرون سورة .

وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون كلا على حدة .

وما امتاز به اسلوب القرآن :

قوة الألفاظ ، وجزالتهــا ، وروعــة الأساليب ، وكثرة التشبيهات

والاستعارة والكناية ، وتنوّعه حسب ما يقتضي الحال . فللأخبار والحكم والقصص أسلوب ، وللإنذار والتهديد والوعيد أسلوب آخر .

إعجازه : اجمع العلماء على القول بإعجاز القرآن ، ومن الأسباب التي تعدّ لإعجازه هذه الفصاحة الفائقة والمذاهب الواضحة، التي أعجزت هؤلاء القوم الذين ملكوا ناصية البلاغة والبيان ، وإخباره بالمغيبات والماضي والمستقبل .. الخ .

أثر القرآن في اللغة العربية : كانت لغة القرآن الكريم هي لغة قريش الأصلية التي سادت اللغات الأخرى فحفظها القرآن من الضياع ،ووسع نط وهذّب الفاظها وأساليبها ، وجعلها اللغة الرسمية لكثير من الدول الاسلامية، وقد دخل القرآنَ بعض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى « لا يَلِتْكُمْ من أعمالكم شيئاً » أي لا ينقصكم بلغة بني عبْس ، وألفاظ أخرى أجنبية من لغات الروم والفرس والقبط والسريان والحبشة . وقد عربت هذه الألفاظ وأصبحت جزءاً من اللغة العربية كالسندس، والاستبرق ، والزنجبيل ... الخ .

اغراضه ومعانيه : قلنا إن القرآن قد نزل بمكة والمدينة .

فالمكي : جاءت سوره تشتمل على أهم ما جاءت من أجله الدعوة ، كالإيمان بالله ، وتوحيده ، وتأييد الرسول ، والتذكير باليوم الآخر ، وضرب الأمثال والقصص التي كانت تحكي أحوال السابقين وذلك للعظة والعبرة ، ونبذ الأوثان، وكل ما يتصل بها من عقائد وعادات .

والمدني : يمتاز بالتشريع الإسلامي فيما ينفع المسلمين ديناً ودنيا ، وتأمين الدعوة بتنظيم الجهاد والمعاهدات ، ووصف الغزوات ، وذكر أسبابها ، وما يستفيده المسلمون من نتائجها .

جمعه وتدوينه : أُعلِن ختام القرآن في السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر تقريباً وبعد أن رُتّبت آياته وتمت سُوَره ، إلا أن الرسول تُوفي والقرآن إما محفوظ في الصدور، أو مسطور في السعف واللخاف.

وفي عهد أبي بكر أشفق عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ عليه من

الضياع حينما قُتل من قرائه سبعون في غزوة اليمامة ، فعرض على أبي بكر جمعه فتردّد أبو بكر قائلاً : « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله (ص) ولم يعهد إلينا فيه بعهد ؟! » فما زال عمر يلحّ ويُقنع حتى أذن أبو بكر بجمعه ، وعهد الى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي وصاحب العَرْضة الاخيرة على الرسول فجمعه من السطور والصدور ، وكتبه في صحائف أُودِعت عند ابي بكر ثم عند عمر بعده ، ثم عند بنت عمر (حَفْصة) زوج النبي ﷺ .

وفي عهد عثمان كثر القراء ، واختلفوا في قراءاتهم ، وفخر بعضهم على بعض بحسن قراءته ، فأمر عثمان زيدَ بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن هشام وغيرهم بنسخ القرآن خشية الاختلاف في دلالته فنسخوه في مصحف واحد بلغة قريش التي نزل بها ، وكتبت مصاحف أخرى أُرسلت نسخ منها الى اليمن والشام والبحرين والبصرة والكوفة وغيرها من أطراف الدولة الإسلامية ، وكانت هذه النسخ سبعاً ، وأُحرقت الصحف الأخرى بعد النسخ.

اثر القرآن في الأدب :

للقرآن فضل كبير على الأدب العربي ، فقد حاكاه الشعراء والخطباء والكتّاب في أسلوبه وألفاظه ، واقتبسوا من آياته ، واستشهدوا بها في جدلهم ووعظهم ، فهذب القرآن أساليب العرب نظمها وشعرها . وارتقى تفكيرهم وتصويرهم ، وكان دافعاً قوياً الى جمع الأدب العربي القديم ، وما يتصل بتاريخ ذلك العصر للاستعانة به على تفهّم القرآن وأساليبه كما كان من أكبر العوامل في نشأة العلوم البلاغية لِما زخر به من صور في التشبيه والمجاز .

وإن أردت نماذج فارجع الى كتاب الله فهو معين لا ينضب ، وقد سقنا اليك بعض الآيات سابقاً ويمكنك ان تكتفي بها للاستشهاد .

موضوعات للبحث

١ ــ القرآن الكريم ، دين الله ووحيه ، والنور اذا أظلمت الدنيا ، والمرشد اذا عميت السبل ، وتشابهت الطرق .
ناقش ، ووضح ، وعلل .

٢ ــ كان القرآن الكريم ، ولا يزال ، معيناً ، بل بحراً يكمن الدرّ في أحشائه ــ للأدب العربي .
ناقش .

٣ ــ اذكر أمثلة من القرآن لثلاث نواح مختلفة مستخلصاً ما فيها من سمو معنى وروعة تصوير .

المراجع

تاريخ القرآن	لأبي عبد الله الزنجاني
تاريخ التشريع الإسلامي	لمحمد الخضري
الأدب الجاهلي	لمحمود مصطفى

الحديث النبوي الشريف

الحديث الشريف : هو ما رُوي عن رسول الله ﷺ من قول او فعل او تقرير ، وهو في المنزلة الثانية من كتاب الله الكريم واقوم طريــق يؤدي إلى فهم القرآن ، اذ كان الرسول ﷺ يبين مراد القرآن تارةً بالقول وحده ، وتارة بالفعل وحده ، وتارة بهما معاً كما صلى وقال « صلـُّوا كما رأيتموني اصلي » وحجَّ وقال « خذوا عني مناسككم » .

فالحديث اذن شارح للقرآن يُظهر ما أجمل ، ويقيد ما اطلق ، ومن هنـا كان الحديث واجب الاتـّباع .

والمسلمون عندما يستمسكون بسنـّة نبيهم ، ويعملون بها انما يعملون بكتاب الله . قيل لصحابيّ « لا تحدثونا الا بالقرآن ، فقال لا نبغي بالقرآن بدلاً ، ولكن نريد من هو اعلم منا بالقرآن [illegible] بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم» وقال تعالى « ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ».

والاحاديث : التي صحَّت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلة لكنهـا مطبوعة بطابع البيان والإلهام والحكمة والفصاحة . قال عليه الصلاة والسلام : « انا افصح العرب بَيْدَ اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر » . فالنبيُّ ولد في قريش وبعث فيها ، واستُرضع في بني سعد بن بكر ، وهي افصح القبائل العربية ، فكان صلى الله عليه وسلم بليغاً بالطبع ، له قدرة فطرية على ابتكار الأساليب البليغة . لكن قيمة هذه الأحاديث البيانية واللغوية لا تسمو

الى مــــنزلة القرآن ، فالقرآن من عند الله جُعل الاحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين . فمَنْ بَدّله بعدما سمعه فإنما إثمهُ على الذين يبدلونه .

والحديث لم يدوّن إلا في حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة ، وكان يروى من الذاكرة من قبل ، وكثـيراً ما تخون الذاكرة ، ولذا فقد اختلفت فيـــه الروايات ، وناله تغيير أكثر مما نال الشعر الجاهـــلي ، ودس الناقمون على الدين أحاديث نسبوها إلى الرسول كذباً ، وكان عمر وبعض الصحابة يرون عـدم التوسع في رواية الحديث اتقاءً لخطر الوضع الذي كان سبباً في دخول كثير من الحكم المأثورة عن العرب في الحديث ، وحرصاً على كتاب الله .

وقد قال عمر لقرطبة بن كعب ولمن حوله من الصحابة حـــين خرجوا إلى العراق :

« إنكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدويّ النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتَشْغَلوهم . جوّدوا القرآن وأقلّوا الرواية عن رسول الله » .

اسلوب الحديث :

يمتاز حديث الرسول (ص) بفصاحة القول ، وإشراق الديباجة وروعـة التشبيه ، وحسن الاستعارة ، وبالايجاز ، وجاءت الأحاديث بعيدة عن التكلف والإغراب والتعقيد ، تحمل قوة التأثير والإقناع بجمال الأسلوب ، وقوة التصوير والتعبير ، وملاءمة لغته للغة المخاطب ، ولمقتضى الحال ، ولا عجب فقد أوتي الرسول من الفصاحة والبلاغة ما جعل كلامــه في المنزلة السامية : « أوتيتُ جوامعَ الكَلِم » . وللحديث أثر في اللغة العربية وآدابها كما للقرآن ، وقد ظهر أثره واضحاً في كلام الصحابة وخطبهم ، فقد وجد الشعر في القرآن والحديث الشريف منهلاً يفيض بالدرر الناصعة فجعلها دليـــله في طريقه الى الإجــادة والاكتمال ، واستمدت منها اللغة أفكاراً وألفاظاً وأساليب جديدة ، وتأثر بها الشعراء والخطباء والكتاب ، وساروا على نهج هذه الأحاديث واقتبسوا منها ،

وما زالت أحاديث الرسول إلى اليوم مصدراً قوياً ، ومعيناً للأدب واللغة .

نماذج من احاديث الرسول :

« الظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة » ؛ « المؤمن مرآة أخيه » ؛ « الكلمةُ الطيبةُ صَدقة » ، « لا يُلدَغ المؤمنُ من جحرٍ مرّتين » ، « ليس منا من دعا إلى عصبية » .

وغير ذلك أحاديث كثيرة لموضوعات مختلفة كقوله عليه السلام :

« إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوه وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدّ » .

« اتق الله حيثما كنت ، وأتبعِ السيئة الحسنة تمحُها، وخالقِ الناسَ بخُلق حسَن » .

الشعر في العصر الاسلامي

الشعر في فجر الاسلام :

كان الشعر عند ظهور الأسلام مظهراً من مظاهر البيئة الجاهلية يمثلها في عاداتها وأخلاقها وحياتها الاجتماعية والقبلية ، فجاء الأسلام يشنّ حرباً على هذه الحياة ، ويقلبها رأساً على عقب، وينفر الناس من قول الشعر : « والشعراء يتّبعُهُمُ الغاوون ، ألم تَرَ أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون ؛ وما علّمناه الشعرَ وما ينبغي له » : « لأن يمتلىء جوفُ أَحدكم قَيْحاً حتى يَرِيهُ خير له من أن يمتلىء فمه شعراً » .

على أن الدين الاسلامي لم يكره قرض الشعر إطلاقاً ، وإنما كره هذا الذي يدعو الى العصبية الجاهلية ، ويثير أحقاد القلوب . ويقول الرسول : « ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ »

وقد عارض الدينَ الجديد كثير من المتعصبين لدين آبائهم وأجدادهم فاشتدت الخصومة بين الرسول وبينهم ، وشنوا على الرسول حرباً بالسنان واللسان ، ووقف الشعراء موقفاً حيادياً إلا الشعراء القرشيون وهم قليل قبل الأسلام ، وكثير بعده . وتزعّم حركة المعارضة ، معارضة الدين الجديد ، عمرو بن العاص ، وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبدالله الزبعرى فهجوا الرسول وأتباعه ، فتحفز كثير من المسلمين للرد على هؤلاء ، واذن لهم الرسول فهجوا المشركين . ومن هؤلاء الشعراء : حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك .

وكانت أفكارهم وألفاظهم وأساليبهم وبناء قصائدهم تسير على النهج الجاهلي ما خلا بعض أفكار وألفاظ إسلامية :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاكَ الجزاء

*

وقال الله قد أرسلتُ عبدا يقولُ الحقَّ إنْ نفع البلاء

وقال الله قد يَسَّرتُ جُنْداً همُ الأنصارُ عُرْضَتُها اللقاء

وانتصر المسلمون ، وقويت أشعة الدين الجديد ، وانبسطت تنير الارض بتعاليمها .

وانصرف المسلمون الى حفظ القرآن الكريم ورواية الحديث فخبا ضوء الشعر ، ولم يظهر منه إلا بضع قصائد في مدح الرسول وانصاره والإشادة بشجاعة المسلمين ، والحث على الجهاد ، ورثاء من قتلوا من الصحابة في الغزوات والفتوحات الاسلامية .

ولذا فإن الشعر في عهد الرسول لم يتغير تغيراً جوهرياً .

الشعر في عهد الخلفاء الراشدين :

شُغل المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين بالفتوحات الاسلامية ، وبالغنائم التي يحصلون عليها ، وعرفوا طريق الجهاد والفتح . وتشدد الخلفاء في معاملة الشعراء ، وانعدم المعارضون ، فكانت حالة الشعر أقل شأناً منها في عهد النبوة إلا ما بدا من بعض الشعراء الذين تأثروا فكرياً بالدين الجديد ، ومظاهر الحضارة ، ككعب بن زهير ، والحطيئة ، والنابغة الجعدي . أما ألفاظه وأساليبه وأفكاره فقد غلبت عليها النزعة الجاهلية .

الشعر في عهد بني أمية : ظلت العصبيات العربية – القحطانية والعدنانية والهاشمية والأموية والعلوية والبكرية – قائمة في نفوس المسلمين تضعف مرة ،

وتشتد أخرى ، تبعاً لسياسة الحاكم ، وظلت تضطرم في نفوس اصحابها الى أن ضعف شأن الحاكم ، وتشتت الرأي ، فاستيقظت العصبية في ظل هذا الضعف ، وقامت الثورة وقُتل عثمان ، وانتهز بنو أمية الفرصة فوجدوها سانحة لتحقيق أغراضهم وأهوائهم ، وألّبوا القلوب على علي ، فبدأت الخلافات بينهم وبينه وانتهت بمقتله ، فتأزم الأمر ، وتفرق الناس أحزاباً وشيعاً . ففي الشام حزب بني أمية يناصر معاوية ويؤيده، وفي العراق حزب يؤيد آل البيت ، ويطالب بحقهم في الخلافة ، وفي الحجاز حزب ابن الزبير ، وأمام هذه الأحزاب يقف حزب آخر ينادي بالشورى ، ويتخذها مذهباً ، وبين هذا وذاك قامت الفتن ، وتوزعت الأهواء . فكان الشعر العربي وقوداً لهذه النار . وجاد الأمويون بالمال عن سعة على كل من يشايعهم ، ويؤيدهم ويهجو غيرهم ، وكثر الشعراء الذين مدحوا وهجوا وتفاخروا وقويت ألفاظ الشعر وأساليبه وصوره .

وكان هناك الشعر الديني ، والوطني ، والسياسي .

مواطن الشعر : في العراق وقعت الأحداث الاسلامية الكبرى: من مصرع القادة والأئمة ، ووقعة الجمل ، وانشقاق المسلمين ، وقيام الشيعة والخوارج ، وتعصّب البصرة لعثمان والكوفة لعلي ، فكانت العراق مسرحاً لهذا كله ، والشعر صورة على هذا المسرح يمثلها في عنف وقوة، يزدهر وينتشر ممثلوه حتى في زوايا المسرح .

واما في الحجاز : فقد رضي أهلوه بالوداعة والفراغ، والعكوف على اللذة والمنادمة ، واستمتعوا باللهو ، وشغلهم الأمويون بالمال ، واستهوت هذه الحال المغنين فرحلوا الى مكة والمدينة . وغلب الغناء هناك ، وشغل الناس ، وشاع الحب في مدن الحجاز، واشتهروا بالغزل الحضري الرقيق الصادق في المدن ، والعفيف الطاهر في البادية .

وفي الشام : انعدمت العصبية هناك فلم يثرها الأمويون لان أهله قد خضعوا

لحكمهم ، وأخلصوا لهم ، فلم يحفل أهله بالشعر ، ولذا فقد كان أغلبه يـأتيهم من العراق والحجاز ، مع الشعراء الذين استهواهم المال وسخاء القصر والأدباء ، أو استدعاهم الخلفاء للاستعانة بهم في ناحية علمية أو أدبية .

حالة الشعر العامة في هـــذا العصر:

الألفاظ والأساليب : حافظت على قوتها ، وقد رقق الاسلام منها ، وزادها عذوبة وسهولة ، وعمل على تفريعها وتوسيعها .

المعاني والاخيلة : اتسعت وزادت عما كانت عليه في العصر الجاهلي، وإن كانت قد بقيت متصلة اتصالاً وثيقاً بالخيال الجاهلي ، وازدادت المعاني عمقـــاً بسبب أثر القرآن والحديث والحكم والامثال فيها .

الاغراض : بقيت أغراض الشعر القديمة كما هي وتوسعوا في بعضها كالغزل الذي صار فناً قائماً بذاته ، وموضوعاً ينظم الشعراء فيه قصائدهم ، وكان عفيفاً وصريحاً . وزعيم المدرسة الأولى جميل بُثَيْنَةَ والثانيـــة عمر بن أبي ربيعة والثالثة كُثَيِّر عَزَّة .

ظهر الشعر السياسي نتيجة لما سبق أن تحدثنا عنه من تعـــدد الأحزاب وإسهام بني أمية في إشعال نار الفتنة ، فكان من شعراء الشيعـــة الفرزدق والكميت وكُثَيِّر، ومن شعراء الأمويين الأخطل وجرير وغيرهما، ومن شعراء الزبيريين: عُبَيد الله قيس الرقيَّات، ومن شعراء الخوارج قَطَرِيّ بن الفُجاءة، والطِّرِمّاح بن حكيم وعِمران بن حِطّان .

الخطابة

كثرت دواعي الخطابة في هذا العصر فعملت على رواجها وكثرتهـا وكثرة الخطباء ، فمن دواعيها :

الدعوة الى الدين ، وقمـع الفتن ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتحميس الجند للقتال ، والفخر بالنصر ، والدفاع عن الأحزاب، والمفاخرات ، وتأييد دعوة الحزب .

وتعددت بيئتها فكانت في الحجاز والعراق .

وكان أسلوبها عذباً قوياً مؤثراً يقتبس من القرآن الكريم،وحديث الرسول. وَنحَوْا منحى الإيجاز ، وكانت تبدأ بحمد الله والصلاة على رسوله (ص) .

وكثرت فيها أساليب التهديد والوعيد ، والتوبيخ، وظهر فيها السجع على مر الأيام ، وحوت فنوناً من الفصاحة والبلاغة وصوراً من البيان كثيرة .

اشهر الخطباء :

اشتهر من الخطباء بعد الرسول وخلفائه : الحجّاج بن يوسف الثّقَفي،وسَحْبان وائل ، وزياد بن أبيهِ ، وقَطَري بن الفُجاءة ، والأحنف بن قيس ، وعلي ابن أبي طالب ، وواصل بن عطاء ، والفضل بن عيسى .

وسنأتي لك بنماذج من الخطابة عندما ندرس علياً والحجاج المقررين في المنهج.

موضوعات للبحث

١ ـ اعتمد الأدب العربي في الاسلام على مصدرين كان لهما أكبر الأثر في الحياة الأدبية في ذلك العصر .
ما هذان المصدران ؟ وما وجه أثرهما في الأدب العربي ؟
وضح وعلل وبرهن .

٢ ـ تعددت مواطن الشعر في العصر الاسلامي واختلفت اتجاهات هذه المواطن فاختلف لون الشعر تبعاً لها .
تناول هذه المواطن وأثرها في الشعر بالتفصيل والأدلة.

٣ ـ وازن بين الخطابة في الجاهلية وبين الخطابة في الإسلام من حيث الموضوع ، والفكرة ، والأسلوب ، والمعنى ، والدواعي ، والرواج .

المراجع

الشعر والشعراء	لإبن قتيبة
الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام	لمحمد عبد المنعم خفاجي
الدين الاسلامي	لجورجي زيدان
خزانة الأدب	للبغدادي

الشعر الغزلي

مقدمة : اتخذ الغزل وجهة جديدة في هذا العصر كما قلنا ، وللأسباب التي سقناهـــا عند الكلام على الشعر . ومواطنه ـ كما ذكرنا ـ الحجاز وما يليه من البلاد العربية ، وندر في الشام والعراق .

انواعه : كان للغزل مدرستان : ١ ـ مدرسة الغزل البدوي ، ٢ ـ مدرسة الغزل الحضري .

فالأولى تمثل الغزل العفيف. ومن أصحابها جميل بثينة، وكثيِّر عزة ، وليلى الأخيلية ، ومجنون ليلى .

والثانية تمثل الإباحية. ومن أصحابها :عمر بن أبي ربيعة،والأحوص. وإليك شاعرين من شعراء الغزل وهما اللذان قررهما المنهج .

جميل بثينة

اصله :

هو جميـل بن عبدالله بن معْمَر العـــذري ، ولد في وادي القرى بالحجاز .

وقد هام بابنة عمه « بُثَيْنة » حباً ، فـُعرف بجميل بُثَيْنة ، وقال فيها شعراً كان فيه صادق العاطفة ، وقد أحبته بثينة كما أحبها .

كان جميل من أشهر شعراء البـــدو في الغزل العفيف ، كما كان من شعراء السياسة والمديح .

وتعد أشعاره في الغزل العفيف من أحسن ما قيل .

وقد أغضب جميل – بشعره في « بثينة » – أهلها ، وتنكروا له لمَّا ذهب ليخطبها ، وأبوا أن يلبوا طلبه ، وزوجوها من غيره ، فهجاهم بعد ذلك، ولبث يتردد على بثينة ، فاستَعْدَوْا عليه مروان بن الحكم فهدده وأهدر دمـه ، فصار يضرب في جوانب الأرض فذهب الى اليمن ، والشام ، وأخيراً مصر ، ومدح فيها عبد العزيز بن مروان ، وقيل إنـــه توفي بمصر ، وكانت وفاتـــه سنة ٨٢ هـ .

شعره : استولت أخبار حب جميل وبثينة على خيال العرب فنسجوا حولها قصة غرام ، وتطورت هذه القصة في أواخر العصر الأموي . وروى العرب هذه الأخبار دون أن يبحثوا عن مصدرها الحقيقي ، ودسوا على شعره كثيراً من الشعر المنحول . ولجميل ديوان شعر كبير .

وفي كتاب الأغاني كثير من شعر جميل ، وأخباره ، وله شعر متفرق في كتب الأدب ، كالشعر والشعراء لابن قـُتـَيْبَة ، ومصارع العشاق .

ومن شعره في الغزل قوله :

وما أنسَ مِ الأشياءِ لا أنسَ قولها

وقد قُرِّبَتْ نِضوي أَمِصْرَ تريد ؟ [1]

---

١ – م الأشياء : من الأشياء . النضو : المهزول الضعيف (يريد ناقته) .

ولا قولَها لولا العيونُ التي ترى
أتيتُكَ ؛ فأعذرني فَدَتْك جدودُ

★

إذا قُلْتُ : ما بي يا بثينةُ قاتلي من الُحبِّ ، قالت : ثابتٌ ويزيد
وإن قلت رُدِّي بعض عقلي أعِشْ به مَعَ الناسِ قالَتْ : ذاك منك بعيدُ

★

ألا لَيْتَ شعري هل أبيتَنَّ ليلةً بوادي القُرى ؟ إني إذَن لسعيدُ [1]
وهل أهبِطَنْ أرضاً تظل رياحُها لها بالثنايا القاويات وئيدُ [2]

ومن أوائل نظمه فيها قوله :

وأولَ ما قاد المودةَ بيننا بوادي بَغيضٍ يا بُثَيْنَ سِبابُ
وقلتُ لها قولا فجاءت بمثله لكل كلام يا بُثَيْنَ جواب [3]

وقوله :

وإني لأرضى من بثينةَ بالّذي لو اَبصرَهُ الواشي لقرّتْ بلابُلهْ [4]

---

١ ـ وادي القرى : واد بالحجاز شمالي المدينة . ليتَ شعري : ليت شعوري .
٢ ـ الثنايا : جمع ثنية وهي طريق في الجبل أو الجبل نفسه . القاويات : الخاليات . وئيد : صوت شديد .
٣ ـ رووا أن جميلا كان يحب أختا لبثينة ، ويقال إن ابله اختلطت بإبل لبثينة وأخواتها فعزلها واشتد في ضربها فجاءت بثينة تلومه على ما فعل بالإبل فتسابا فكان هذا أول تعارف بينهما.
٤ ـ لاطمأن وهدأ ما به قلق إذ يرى أن لا شيء يحدث بينهما مما يستحق الحقد أو النقل .

بلاَ وبأنْ لا أستطيعَ وبالمنى وبالأَملِ المرجُوِّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجْلى وبالحولِ تنقضي أواخرُه لا نلتقي وأوائلُــــه

وله في الفخر منها :

يُحب الغواني البيضُ ظل لوائنا إِذا ما أتانا الصّارخُ المتلهّفُ
نسير أَمام الناس والناسُ خلفنا فإِن نحن أومأنا إِلى الناس وقّفوا
وكنّا إِذا ما معشرٌ نصبوا لنا ومرّتْ جواري طَيْرهم وتعيّفوا
وضعنا لهم صاعَ القصاصِ رهينةً بماسوف نوفيها إِذا الناسُ طفّفُوا

شعره : شعر جميل من أرق الشعر العربي . كان صادق العاطفة ، يتمثـل أمامه طيف محبوبته ، فيناجيه ويبثه لوعته في أسلوب عفيف يبدو فيه التفجع والشكوى ، ولغة سهلة تسيل انسجاماً ، وموسيقى حية . وقد قيل « ان سكينة بنت الحسين بن عـــلي قالت انه أشعر الشعراء حينما اجتمع جـــرير والفرزدق ونصيب في موسم من مواسم الحج وسألوها عن شعرهم .

كثيِّرُ عَزّة

اصله :

هو كثير بن عبد الرحمـــن من خزاعة ، ويعرف بكثيِّر عزة نسبة الى محبوبته (عزة) ، وكان راوية جميل .

عـــاش كثيّر مع خاله الذي تولى تربيته فظنه ضعيف العقل فأعطاه إبلاً وأنزله «فِرْس مـــالك » . ويُفهم من الأخبار المرويّة عـــن كثيّر أنه

كان سهل الانقياد لكل تـــأثير ، وقد ساقه غلوه الديني الى التشيع لفرقة الكيسانية ، كما روي أنه كان ممن يقولون بالتناسخ ، ولكن كل ذلك لم يمنعه من أن يكون في خدمة الأمويين حتى انه زار عبد الملك في دمشق. وكان عبدالملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره لدرجـــة أنه إذا ما أراد ان يصدقه في شيء حلّفه بعلي .

وقد أحب كثـّير (عزّة) بنت حميد الضُمري ، وقيل إنـه ادعى حبها ، وقد كانت من أجمل النساء وأكثرهن أدباً وعقلاً ، وعاتبه بعض اهلها فقالوا : « قد شهرت نفسك ، وشهرت صاحبتنا فاكفف نفسك » فقال : « اني لا أذكرها بما تكرهون » . وكان كثـّير دميماً قبيحاً . توفي سنة ١٠٥ هـ .

نماذج من شعره :

لكثيّر قصيدة طويلة في عزة مطلعها :

خليليَّ هذا ربعُ عزَّةَ فاعقِلا قَلوصَيْكما ثم ابكيا حيث حلَّتِ[١]

وفيها يقول :

وما كنتُ أدري قبل عزَّةَ مـــا الْبُكا

ولا موجعـــاتِ القلْبِ حَتَّى تَوَلَّتِ

وكانَتْ بقطع الحبْل بيني وبينها كناذرةٍ نذراً فأوفَتْ وحَلَّتِ[٢]

فقلتُ لها يا عَزَّ كلُّ مصيبةٍ إذا وُطِّنَتْ يوماً لها النفسُ ذَلَّت[٣]

وقد قيل إن كثيراً لم يكن صادقاً في حبه لعزة ولا مرغوباً فيه عند النساء

---

١ – الربع : الدار . عقل البعير : شد وظيفه الى ذراعه : أي قيده . القلوص : الناقـــة الشابة أو الطويلة القوائم .

٢ – الحبل : الوصل . حلت : خرجت من عهدة النذر لما أوفته .

٣ – وطنت : مهدت وأعدت . ذلت : سهلت ولانت .

لقبح صورته وإنما تناول فن الغزل مدعياً حبّ عزة ليقلد غيره كما قال الجاحظ : « وقد رأى البدع في أيامه عند أهل الحجاز ان تكون لكل شاعر خليلة يذكرها ، ويهيم بحبها ، فأراد ان تكون له كغيره من الشعراء خليلة فذكر عزة ، وأكثر من الهيام بها » ومن قوله يتعجل عودة ابن الحنفية[1] الى الارض ليرفع فيها لواء بني هاشم :

ألا قل للوَصيِّ ــ فدتك نفسي ــ أطَلْتَ بذلكَ الجبل الُمقَاما

أضرَّ بمعشر وَالوْكَ منّا وسمّوك الخليفة والإمَامَا

وعادَوْا فيك أهلَ الأرض طرًّا مقامُكَ عنهمُ ستين عاما

ثم قال :

هدانا الله إذ جُزْتم لأمرٍ به وَلدَيهِ نَلْتَمِسُ التّماما

تمامَ مَودَّة المهديِّ حَتّى تروا راياتنا تَترى نِظاما

وعلى الرغم من ان كثيّراً كان شيعياً فإنه كان يمدح بني أمية ويأخذ جوائزهم وهو حينما يمدحهم إنما كان يخاصم الزبيريين أعداء بني أمية .

من شعره في الحكم :

ومنْ لا يغمِّضْ عينه عن صديقه

وعن بعض ما فيه يمُتْ وهو عاتبُ

ومَنْ يتتبَّع جاهداً كل عَثْرةٍ يجدها فلا يَسْلم له الدهرَ صاحبُ

---

١ – من آراء بعض فرق الشيعة أنه سيعود الى الارض بعد موته ليمهد لظهور المهدي .

شعره : لكثـيّر عزّة شعر أكثره في عزّة محبوبته ، وقد قال بعض الأدباء ان شعره يماثل شعر جرير والفرزدق ، وزعم بعضهم انه أشعر منهما ، وقد قيل إن بعضه منحول .

موضوعات للبحث

١ – كان لظهور فن الغزل في العصر الاسلامي عوامل سياسية واجتماعية .
ناقش هذا الرأي واذكر مميزات فن الغزل في هذا العصر مستنبطة من الشعر .

٢ – ظهرت مدرستان تمثلان لونين من الغزل في العصر الاسلامي .
هات أمثلة لكل من المدرستين وبعض اصحابها ثم اذكر العوامل التي ساعدت على ظهورهما .

٣ – وضح الخصائص الفنية لغزَلَيْ جميل وكثير وقارن بينهما مقارنة أدبية .

٤ – قيل « إن كثير كان يدعي حب (عزة) ولم يحدث ان تجاوبت معه وبادلته حباً بحب » .
فعلام استند هذا الرأي ؟ أيده أو آنفه مستعيناً بالبرهان الذي يدعم رأيك .

المراجع

الشعر والشعراء	لابن قتيبة
الأغاني أو مهذب الأغاني	للخضري
شاعر الغزل	لعباس محمود العقاد
جميل بثينة	لعباس محمود العقاد
الشعر الغنائي في الأمصار الاسلامية	للدكتور شوقي ضيف

الشعر السياسي

محا الاسلام العادات القبيحة التي كانت في العصر الجاهلي، وقضى على الإحن والأحقاد ، ولم يكد النبي (ص) يذهب الى جوار ربه حتى ارتد أناس من ذوي النفوس الضعيفة، وانقسم الناس الى مهاجرين وانصار، والانصار الى أوس وخزرج ، وواجه أبو بكر في خلافته فتنتين : الردّة ، ونقمة أتباع علي بسبب عدم توليه الخلافة . وقدّر له ان يقضي على الفتنتين بمعاونة المخلصين ، وتوفي ابو بكر والأمن قد استقر في الجزيرة العربية ، وولّى عمر الخلافة ، وجهز الجيوش للغزو والفتوحات، واستطاع ان يقضي على أعظم دولتين في ذلك الوقت هما الفرس والروم وان ينشر مبادىء الاسلام فيهما. ثم قُتل عمر، وقضى مجلس الشورى من بعده -الذي تكوّن حسب وصيته- بالخلافة لعثمان، وحيكت الدسائس ضد عثمان ، وساعد على نجاح هذه الدسائس اعتماد عثمان على أقاربه يوليهم اكبر المناصب ، فثار عليه حفنة من المناوئين له وحاصروه وقتلوه .

وسنحت الفرصة لمعاوية فأثار، بسبب قتل عثمان، سخَطَ الناسِ على القتلة . وبويع لعلي في الحجاز والعراق ، أما الشام -وفيها معاوية- فقد وقفت موقف المعارضة ، وعلى رأسها معاوية ، وخرج طلحة والزبير لملاقاة علي وقتاله ومعهما عائشة بنت أبي بكر فهزمهم علي في « وقعة الجمل »، وانثنى الى معاوية يقاتله، والتقى به في «صفّين» والتحما وكاد ينتصر لولا الخدعة التي كانت سبباً في انشقاق اتباع علي وهي رفع المصاحف على أسنة السيوف (لجأ إليها

معاوية للهدنة والتحكيم). وتوقف علي كارهاً وأيده جماعة، وخالفه الآخرون وقد خرجوا عليه فسمُّوا « الخوارج » ، وهم الذين قتلوه فيما بعد . وتولى معاوية الخلافة ، وساس الامور بحنكته وسياسته ثم جعل البيعة لابنه يزيد وخلّف الاضطرابات ، وترك ناراً كان يذكيها الشيعة والخوارج والزبيريون ، وخلفه ابنه يزيد. ثم انتقلت الخلافة بعد ذلك الى البيت المرواني، وأخذ مروان ابن الحكم الأمور بالشدة ، ولولا ذلك لأصابه ما أصاب عمر وعثمان وعلياً والحسين ، واستعان بالقبائل اليمنية في إخضاع القبائل القيسية (في مرج راهط) التي بايعت زعيمها الضحاك ابن قيس ، وانتصر مروان ، وقتل الضحاك .

وعلى الرغم من أن « مرج راهط » قد حفظت للأمويين سلطانهم فإنها من جانب آخر قد أشعلت نار العصبية بين القيسية واليمنية ، وهجا الشعراء قيساً وجريراً شاعرها .

وتوفي مروان بعد كفاح مشهود ، فخلفَهُ في إمرة المسلمين ولده عبد الملك. وقد استطاع عبد الملك ان ينتشل الدولة من الانهيار الذي كاد يقضي عليها ومن الفوضى التي خيّمت ، بما أوتي من رجاحة عقل وحسن تدبير . وقضى على العابثين والمارقين ، واستقرت البلاد ، وبفضل قائده الحجاج بن يوسف الثقفي قضى على ابن الزبير بالحجاز ، ثم على الخوارج بمعاونة المهلّب ابن أبي صُفرة .. وجاء الوليد ، وبقي معه الحجاج يساعده في إرساء قواعد الدولة ، وخمدت نار العصبية حيناً .

ومات الوليد ، فخلفه سليمان أخوه ... وظل الخلفاء يتعاقبون الى ان تقوضت أركان الدولة الأموية على يد العباسيين .

في هذا الجو الذي صورناه لك نما الشعر السياسي وترعرع وكثر التهاجي والتلاحي بين الشعراء ، وخرجت العصبيات القبلية تشن حرباً شعواء على أعدائها،وتعيد مجدها ، وصار الشاعر يمثل اتجاهاً سياسياً تؤيده قبائل مختلفة .

بل ربما سار الشاعر في اتجـــاه سياسي مضاد لاتجاه بطن أو فخذ من قبيلتـه فيهجوهما من أجل ذلك . ودليلنا على هذا هو ما وقع بين جرير والفرزدق من تهاج دام اربعين عاماً مع انهما من تميم ، وأصبح الشعراء بمثابة الصحيفة الحزبية اليوم يؤيد كل منهم الحزب الذي ينتمي اليه .

وقد بلغت الملاحاة أشدها بين جرير والفرزدق وكثير من الشعراء ، وتغلب جرير عليهم جميعاً ما عدا الفرزدق والأخطل فإنهما استطاعا أن يصمدا أمامه ، ثم توفي الأخطل ، ثم الفرزدق بعده .

وقد نشأ فن « النقائض » بسبب الملاحاة والمناظرة والتفاخر .

وفن النقائض : هو أن ينظم الشاعر قصيدة ، فينقض خصمه هذه القصيدة بأخرى تسير مع الأولى في بنائها ووزنها ، ويظهر فيها براعتـه وتفوقه .

وللنقائض قيمة تاريخيـة كبرى ، وأشهرهـــا نقائض : جرير والفرزدق والأخطل .

وسنعرض لبعض هذه النقائض عند الكلام على اصحابها .

موضوعات للبحث

١ ـ بُعثت — في العصر الأموي — العصبية الجاهلية من مرقدها ، فكان لذلك أثره في ظهور فن جديد في الشعر العربي .
وضح هذا مستدلاً ، مبينـــاً العوامل الرئيسية التي من أجلها ظهر شعر النقائض .

٢ ـ اعمد الى ثلاثة من شعراء الأحزاب واستخلص من خلال شعرهم صورة من الحياة السياسية في ذلك العصر .

٣ ـ بلغ التطاحن الحزبي مبلغاً كبـيراً في العصر الأموي جعل الشاعر يسير ، أحيانـــاً ، في اتجاه مضاد لبعض أفراد قبيلته فيهجوهـــا . ناقش هذا الرأي مستدلاً .

المراجع

تاريخ الشعر السياسي	لأحمد الشايب
تاريخ النقائض في الشعر العربي	لاحمد الشايب
الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
تاريخ آداب اللغة العربية	لجورجي زيدان
تاريخ الادب العربي	لكارل بروكلمان

الأخطل

أصله : هو أبو مـــالك غياثُ بن غوث التغلبي الملقب بالأخطل ، وبذي الصليب لنصرانيته . ولد في الحيرة سنة ٥٢٠ هـ.

حياته :

نشأ الأخطل بالجزيرة بين أحضان قومـه بني تغلب الذين كانوا يدينون بالنصرانية ، وفقد أمه وهو صغير ، فذاق مرارة معـاملة زوجة الأب ، فنشأ هجّاء سليط اللسان ، راغباً في الخمر مدمناً لهـا حتى انه كان لا يجيد نظم الشعر إلا اذا شرب .

وقد ظهرت شاعرية الأخطل منذ حداثته ، وهاجى شاعر َتغلِب قبـله كـَعبَ بن ُجعَيل فأفحمه وصار هو شاعرها المفضل . سئل حمـاد عن الأخطل فقال : « وما تسألونني عن رجل حبَّب شعره إليّ النصرانية . »

اتصاله ببني امية :

كان المعارضون للأمويين من الأنصار يهجون بني أمية من حـين الىآخر ، وحدث أن شبَّب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري برملة بنت معاوية ، فطلب يزيد بن معاوية من كعب بن ُجعيل أن يهجو الأنصار فـأبى وقال ليزيد : « أدلك على غلام منا نصراني لا يبالي ان يهجوهم كأن لسانه لسان ثور :»قال :«من هو ؟» قال :« الأخطل .» فاستدعاه معاوية وأمره بهجائهم، فقال يهجوهم بقصيدته التي يقول فيها :

خلوا المكارم لستُمُ من أهلها وخذوا مساحِيَكم بني النجَّارِ
إِن الفوارس يعلمون ظهوركم أولادُ كل مقبَّــح أكَّارِ
ذهبت قريشٌ بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

فغضب الأنصار وطلبوا معــاقبته ، فتوسط يزيــد في العفو عنه ، وأصبح الأخطل بعد ذلك لسان حال الحزب الأموي يمدح الأمويين ، ويدافع عنهم ويهجو اعداءهم وقد نال حظوة كبرى عند معاوية وابنه يزيد .

وفي عهد عبد الملك بن مروان كان الأخطل من أقرب الشعراء إليه ، أكرمه عبد الملك وأغدق عليه العطايا ، وسماه شاعر الخليفة ، وأصبح يدخل على عبد الملك بغير إذن ولحيته تنفض خمراً حتى انه طلب منه مرة ان يسقيه خمراً ، فغضب عليه وقال: « لولا حُرْمتُك لفعلت بك وفعلت » . فخرج من عنده فلقي خماراً شرب عنده ورجع فدخــل على عبد الملك وأنشده قصيدة مطلعها :

خَفَّ القطين فراحوا منك أو بكروا
وأزْعَجتْهُم نوىً في صَرفْهــا غِيَرُ

وقد استعان عبد الملك بالأخطل على القيسية التي نصرت أعداء عبد الملك كما سبق ان تحدثنا ـ في بحث الشعر السياسي ـ فهجا الشاعر أعــداء بني أمية من بني قيس والزبيريين والعلويين ومدح عبد الملك وأقرباءه .

دخوله في المهاجاة بين جرير والفرزدق :

كان الأخطل من أنصار الفرزدق ضد جرير ، وسبب دخوله في المهــاجاة بينهما هو ان الأخطل حينما علم بتهاجيهما قال لابنه مالك : « إنحدِرْ إلى العراق حتى تسمع منهما فتأتيني بخــبرهما » ، واستجاب مــالك لطلب أبيه وذهب

واستمع منها ثم قال لابيه حين لقيه: « وجدت جريراً يغرف من بحر، ووجدت الفرزدق ينحت من صخر » . فقال الاخطل: « الذي يغرف من بحر أشعرهما »
ثم قال :

إِني قضيت قضاءً غيرَ ذي جَنَفٍ لما سمعتُ ولما جاءني الخبَرُ
إِن الفرزدق قد شالت نعامته وعضَّه حيَّة من قومه ذكرُ [1]

ورحل الاخطل الى الكوفة ، فعلم بذلك « بشر بن مروان » واليها ، فأرسل إليه محمد بن عُمير بن عُطارد المجاشعي ، ليرشوه بألف درهم ، وبغلة وكسوة وخمر ، ويطلب منه ان يهجو جريراً ، فأنشأ الاخطل قصيدته التي مطلعها :

بكَرَ العواذلُ يبتدِرْنَ مَلامَتي والعالمُون فكُلُّهم يلحاني

ويقول فيها :

إِخسأ كُليْبُ إِليك إِن مجاشعاً وأبا الفوارس نَهْشَلاً أَخوانِ
وإِذا سمعت بدارمٍ قد أقبلوا فاهرب إِليك مخافَةَ الطوفان

فناقضه جرير بقصيدته التي مطلعها :

لمن الديارُ بِبُرقَةِ الروْحَانِ إِذ لا نبيعُ زماننَا بزمانِ

والتي يقول فيها :

يا ذا الغباوةِ إِن بِشْراً قدقضى ألاَّ تجوزَ حكومةُ النشْوان
فدعوا الحكومةَ لستمُ من أهلها إِن الحكومة في بني شيبان

---

١ – الجنف : الظلم ، سالت نعامته : ذهب عزه .

ورد الفرزدق يناقضها بقصيدة مطلعها :

يا ٱبن المراغةِ والهجاءِ إِذا التقتْ   أعناقهُ وتماحَكَ الخصمانِ

وظلا على هذه الحال حتى ضعف الاخطل ولم يستطع الوقوف أمام جرير ، ولكنه بقي يعين الفرزدق وهو نادم على دخوله بينهما . وتوفي الأخطل سنة ٩٥ هـ.

اثاره : للأخطل ديوان مطبوع يجمع ـ اكثر ما يجمع ـ المدح والهجاء والوصف والخمريات والفخر .

نماذج من شعره :

قال يفضل الفرزدق على جرير :

أجريرُ إِنك والذي تسمو له   كأسيفةٍ فَخَرَتْ بِحِدْجِ حَصَان[١]

حَمَلَت لربّتها فلما عُولِيَتْ   نسلت تعارضها مع الأظعان[٢]

أتعُدُّ مأثرةً لغيرك فخرُها   وسناؤها في سالف الأزمان

ومن قوله يمدح عبد الملك بن مروان :

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا   وأزعَجَتْهم نوى في صَرفِها غِيرُ

إِلى امرئ لا تُعدِّينا نوافِلهُ   أظفَرَه الله فلْيهنأ به الظفرُ

١ ـ تسمو له : تتعلق به . الاسيفة : الأمة . الحدج : مركب النساء على البعير كالهودج . الحصان هنا : الحرة ضد الأمة .

٢ ـ عوليت : علت الحدج . نسلت : أسرعت . تعارضها : تمد حبالها . الأظعان : النساء في الهودج .

الخائضُ الغمرةَ الميمونُ طائرهُ   خليفةُ الله يَستَسْقى به المطرُ
في نَبْعةٍ من قريشٍ يَعصِبُون بها   ما إِن يوازَى بأعلى نبْتها الشجرُ

ومن قوله :

والناسُ همُّهمُ الحياةُ ولا أرى   طولَ الحياة يزيد غيرَ خبالِ
وإِذا افتقرتَ إِلى الذّخائرلم تجد   ذخراً يكون كصالح الأعمالِ

شعره : لشعر الأخطل قيمة فنية وقيمة تاريخية .

أما القيمة الفنية فهو قوي السبك ، جزل العبارة ، قوي المعنى ، مرتب الفكرة، وقد قيل إنه كان يعنى بتهذيب شعره وتنقيحه، حتى إنه كان احياناً يلبث في بعض مدائحه سنة ، وقد ينظم القصيدة تسعين بيتاً فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث .

واما القيمة التاريخية فقد أطلعَنا على الحالة السياسية العامة واحوال الدولة في هذا العصر .

الفرزدق

اصله : هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة التميمي من دارم من تميم .

حياته : ولد ونشأ بالبصرة سنة ٢٠ هـ. وأقام في باديتها مع أبيه ، وكان أبوه ذا مناقب مشهورة ، ولما ظهرت فيه مَلكة الشعر وهو صغير ذهب به أبوه الى علي بن أبي طالب وأخبره بذلك فقال له علي : « عَلّمه القرآن فهو خير له »، فلم ينظم شعراً حتى حفظ القرآن .

وقد كان الفرزدق خبيث اللسان ، فاحش النطق ، ضعيف الدين ، وقد انتصر الفرزدق لآل علي ، وتشيع لهم ، واذا كنا قد رأيناه يمدح الحجاج وآل المهلب فإنما ذلك ـ على ما قيل ـ لخوف منهم ، وقيل طمعاً في المال وخدمة لمصالحه الشخصية والقبلية .

وللفرزدق مواقف محمودة في الدفاع عن آل البيت الطالبيين ، فهو الذي دافع عن علي بن الحسين حين رآه هشام بن عبد الملك فقال : « من هذا ؟ » تجاهلاً لأمره ، فقال قصيدته التي مطلعها :

هذا الذي تعرِفُ البطحاء وطأَتَهُ والبيتُ يعرِفهُ والِحلُّ والحَرَمُ

فحبسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه .

والفرزدق من الذين يميلون حيث تكون منفعتهم ، ولذا فقد كان متقلباً في أهوائه ، مضطرباً في حياته .

وكان الفرزدق معاصراً لجرير ، وكان بينهما تنافس وتحـاسد ، وقد احتدم الهجاء بينهما حينما وقف الفرزدق في صف البعيث الذي كان يهجو جريراً ، فغاظ ذلك جريراً فهجا الفرزدق فردّ الفرزدق عليه ، وهكذا ظلا يتهاجيان مدة عشر سنـين . وانقسم الناس في أمرهمـا الى قسمين : قسم ينـاصر الفرزدق ، والآخر يناصر جريراً .

وتوفي الفرزدق سنة ١١٠ هـ.

اثاره : له ديوان شعر مطبوع ، وقد طبع كثيراً في مصر ، وفي لبنان . وفي دار الكتب المصرية نسخة خطية تضم شعره .

وقد تناول في ديوانه المدح ، والرثاء ، والفخر ، والوصف ، والغزل .

نموذج من شعره :

قال في مدح علي بن الحسين :

هذا ٱبنُ خير عباد الله كلِّهِمُ   هذا التقيُّ النقِيُّ الطَّاهرُ العَلَمُ
وليس قولُكَ (مَنْ هذا) بضائرِه   العُربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجَم
إذا رأتهُ قريشٌ قال قائلها   إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

ومن ابياته السائرة :

فيا عجبا حتى كليب تسبُّني   كأن أباها نَهْشَلٌ أو مُجاشِعُ[١]

★

وكنا إذا الجبارُ صعَّر خدَّه   ضربناه حتى تستقيمَ الأخادعُ

★

---

١ – نهشل ومجاشع : من آباء الفرزدق . كليب : عشيرة جرير .

أَحْلامنا تزِنُ الجبال رزانةً وتخالنا جِنّاً إِذا ما نجهل

★

ترى كلَّ مظلوم إِلينا فرارُه ويهرب منا جَهْدَهُ كلُّ ظالمِ

★

ترى الناسَ ما سِرْنا يسيرون خلفنا

وإِن نحن أومأنا إِلى الناس وقّفُوا

★

وكنتَ كذئب السوء لما رأى دماً بصاحبه يوما أحالَ على الدم

★

فإِن تنجُ مني تَنْجُ من ذي عظيمةٍ وإِلاَّ فإِني لا إِخالُكَ ناجيا

ومن قوله ينشر ليربوع صحفاً سيئة ومثالب :

وإِذا عدَدْتَ بني كُليب لم تجد حسَباً لهم يوفي بشِسْع قبال

لا يمنعون لهم حَرام حليلة بمهـــابةٍ منهُمْ ولا بقتالِ

أجريرُ إِن أباكَ لو أتعبتَهُ قصُرت يداه ومدَّ شَرَّ حِبال

إِن الحجارة لو تَكَلَّمُ خبَّرت عنكم بألأم دقةٍ وسِفال

وقد رمى الفرزدق جريراً بأمه ، وبإِتيان الأتن ، واتهم أمه بالزنا ممـا لا يصح ذكره هنا .

وقال يفخر بقومه :

لنا العزة الغلْباء والعددُ الّذي عليه إِذا عُدَّ الحصى يتخلَّفُ

ولا عزَّ إلا عزُّنا قاهرٌ لـــه ويسألنا النَّصْفَ الذَّليلُ فينصَفُ[1]
ومنا الذي لا ينطق الناس عنده ولكن هو المستأذَنُ المتنصَّفُ[2]

شعره : يمتاز شعره بالنزعة البدوية ، لغته صلبة ، ومعناه قوي .

قال أبو عبيدة : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب » .

وقال أبو عمرو بن العلاء : « لم أر بدوياً أقام في الحضر إلا فسد لسانه غير الفرزدق » ولذا فقد كان شعره موقوفاً على الخاصة قليل الذيوع . ولمحافظته على الغريب من الألفاظ الجاهلية ،وقوة الأسر لم ينتشر انتشار شعر جرير ،فجرير رقيق الطبع والحس ، والفرزدق خشن الطباع جاف ، فاستأثرت به خشونة الألفاظ ، وبداوة الصورة حتى في الغزل الذي يحتاج الى الرقة ، فجاء شعره صورة لأساليب الفصحاء من شعراء الجاهلية في الغرابة والجزالة ، وسعة المفردات .

ولشعره قيمة تاريخية فقد أشاد ، أثناء الفخر والهجاء، بأيام قومه وحلفائهم كما فعل جرير . فهو يذكر في شعره يوم ذي نجَب ليربوع على عامر، والوَتَدات لنهشل من دارم على هلال بن عامر ، وغير ذلك من الأيام المشهورة لقومه وحلفائهم . وقد غلب في شعره الفخر كما غلب على جرير الهجاء ، فهو من أسرة كريمة غنية شديدة البأس بخلاف جرير الذي كان من أسرة فقيرة .

---

١ – النصف : الانصاف والعدل وسكنت الصاد لضرورة الوزن .

٢ – المتنصف : الذي يطلب منه الانصاف .

جرير

أصله : هـــو أبو حرزة جرير بن عطية التميمي من كليب بن يربوع. ولد باليمامة ونشأ بالبادية.

حياته :

نشأ جرير فقيراً وكان فصيح اللسان ، واسع الخيال ، وقد استمدّ عناصر ثقافته من البادية ، وأخذ عن أهلها الفصاحة، وكان أهل بيته شعراء على الرغم من فقرهم فورث الشعر عنهم .

وكان جرير من أكبر المتعصبين لقومه ، فما تعرض لهم شاعر بسوء إلا سلـّط عليه لسانه ، وقد أدى هذا الى وقوفه تجاه ثمانين شاعراً يهجوهم ويهجونـه ، وقد تغلب عليهم جميعاً ما عدا الأخطل والفرزدق .

وقد اشتاق جرير الى المال الوفير ، والغنى الواسع ، ورأى ما على الفرزدق من أثر النعمة ومظاهر الجـــاه بفضل الشعر ، فترك البادية واستوطن البصرة واتصل بالحجاج فحسُن موقعُه عنده ، ومدحه بقصائد علم بهـــا عبد الملك ابن مروان ، فنَفَسَهُ ، وقد أعجب به الحجـــاج وأراد ان يوفده الى الخليفة بدمشق ولكنه كان يعلم ان عبد الملك غاضب على شعراء مضر لمدحهم آ ل الزبير اعداءه ، فأوفده مع ابنه محمد وأُدخل مع ابنه عــلى الخليفة ، فلمــا استأذنه جرير في الدخول أبى وقال معاتباً غاضباً :

ماذا عسى ان تقول فينا بعد قولك في الحجاج عاملنا :

من سدَّ مُطَّلَعَ النفاق عليكمُ أم مَنْ يصولُ كصولْة الَحجَّاج

إن الله لم ينصرنا بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته! » فتوسط محمدبن الحجاج في رضا الخليفة ، وأذن الخليفة لجرير في الانشاد فأنشد قصيدته التي مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاحِ عشيةَ همَّ صحْبُك بالرواح

فلما وصل الى قوله :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

تبسم عبد الملك وقال : « كذلك نحن وما زلنا كذلك » وغمره بالعطايا. وصار جرير بعد ذلك يفد على عبد الملك ، وينال العطايا حتى كانت خلافة عمر ابن عبد العزيز فمدحه فلم يعطه شيئاً لأن عمر لم يحفل بالشعر .

وتوفي سنة ١١٠ هـ.

آثاره : لجرير ديوان طبع في مصر ، وتوجد نسخة خطية من ديوانه في دار الكتب المصرية ، ويضم الديوان شعر جرير في المدح والهجاء والرثاء والفخر والغزل .

جرير والفرزدق :

وقعت مهاجاة حامية الوطيس بين جرير والفرزدق ، وقد تحدثنا عن سبب مبدأ هذه المهاجاة عند كلامنا على الفرزدق فارجع إليها .

وكان الناس المحبون لسماع أخبار هذه الخصومة يعملون على الايقاع بين الشاعرين فتصدى لجرير ثمانون شاعراً استطاع ان يسكتهم بلسانه الحاد وقريحته الفياضة ، إلا الفرزدق والأخطل فانهما ثبتا امامه .

وكبر الأخطل فلم يصمد لجرير ، فتفرغ جرير للفرزدق ، وكانت بينهما النقائض التي شغلت الشعراء .

وقال الراعي النمّيري القيسي شاعر مضر في جرير :

يا صاحبيّ دنا الأصيل فسِيْرا غلَبَ الفرزدقُ في الهجاء جريرا

فلامه جرير لانه قيسي ، وجرير يدافع عن قيس ، فسكت الراعي ، وكفّ عن القول في جرير ، ولكن ابنه « جَندل» عنّفه وسبّ جريراً فأقسم ليرُجعنه الى قومه « بني نُمير » بأعباء ثقال ، ونظم قصيدته التي تسمى الدّماغة والتي مطلعها :

أقلّي اللومَ عـاذِلَ والعتابا وقولي إن أَصَبْتُ لقد أصابا

وقال جرير يهجو قوم الأخطل :

قبح الإله وجوه تغلب كلَّما سَبَحَ الحجيجُ وكبروا إهلالا

عبدو الصليب وكذّبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا

والتغلبي إذا تنحنح للقِرى حكّ آستَهُ وتمثل الأمثالا

أنسيتَ يومك بالجزيرة بعدما كانت عواقبهُ عليك وبالا

من شعر النقائض بينه وبين الفرزدق :

قال الفرزدق :

أحارثُ داري مرتين هَدَمْتَها وكنْتَ ابنَ أختٍ لا تُخافُ غوائله

وأنتَ امرؤ بطحاء مكة لم يزل بها منكمُ معطي الجزيل وفاعله

فقلنا له لا تَشْمِتَنَّ عدوّنا ولا تَنْسَ مِنْ أصحابنا مَن نُواصله

فرد عليه جرير يناقضه :

أحارثُ خذ من شئتَ منا ومنهمُ ودَعْنا نَقسْ مجداً تعُدُّ فواضله
فما في كتاب الله تهْديمُ دارنا بتهديم ماخور خبيثٍ مَداخلُهْ
وفي مخدعٍ منه النوارُ وشربه وفي مخدع أكيارُه ومراجله

شعره : امتاز شعر جرير بالسهولة التي بلغت الإسفاف أحيانـاً ، فشعره دون شعر الأخطل والفرزدق قوة لكنه كان مُرّاً في هجائه جيداً في رثائه ، رقيقاً في غزله ، وكان شعره أكثر ذيوعاً وانتشاراً ، وربما كان ذلك لسهولته .

موضوعات للبحث

١ -- يمثل شعر الأخطل والفرزدق وجرير صورة للمجتمع الأموي .
استخلص من خلال شعرهم ما يؤيد ذلك .

٢ – قال ابنُ الأخطل لأبيه عندما رجع اليه بعد ان أرسله ليطـّلع على مهاجاة الفرزدق وجرير :
« وجدت جريراً يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر » .
ناقش هذا القول وهل تراه يتفق مع شعر كل من الشاعرين؟وضح واستشهد.

٣ – وازن بين الشعراء الثلاثة موازنة أدبية .

٤ – قيل : « إن جريراً أطبع من الأخطل والفرزدق شعراً ، وأخصب مادة، وأبعد تـكلفاً » .
فكيف تدعم هذا الرأي بالأمثلة ثم توضحه ؟

المراجع

تاريخ النقائض في الشعر العربي	لأحمد الشايب
الفرزدق شاعر الفخر والهجاء	لأحمد الاسكندري
الفرزدق	لخليل مردم
جرير	لجميل سلطان
الأخطل	لأحمد الشايب
تاريخ الشعر السياسي	لأحمد الشايب

من مشاهير الخطباء في الاسلام

علي بن أبي طالب

هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب ، وابن عم رسول الله ، وزوج ابنته ، ورابع الخلفاء الراشدين . ولد علي بن أبي طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ونشأ مع الرسول في بيته ليخفف العبء عن أبيه ، وظل مع الرسول الى ان بعث (ص) ، وكان صبياً فآمن به ، وتفانى في خدمته ومعاونته ، وهو الذي خاطر بنفسه فقام مكان الرسول ليلة هجرته .

وقد شهد الغزوات كلها إلا غزوة تبوك التي خلّفه النبي فيها على أهله ، وتوفي النبي ، وعلي يأمل ان يخلفه لكن المسلمين بايعوا أبا بكر ، ولما توفي أبو بكر خلفه عمر ثم عثمان ، ولما قتل عثمان بايع الناس علياً في الحجاز ، وشق معاوية عصا الطاعة على علي فلم يبايعه ومعه أهل الشام بسبب مقتل عثمان ، وعدم اهتمام علي في البحث عن قتلته ، ونجم عن ذلك شقاق وخلاف كان سبباً في انشقاق المسلمين وانقسامهم الى قسمين : قسم يناصر عليا ، وقسم يعارضه ويؤيد معاوية ، وقامت بين الفريقين معارك كان النصر فيها لعلي لولا الحيلة التي كانت سبباً في إسقاطه .

وفكر ثلاثة من الخوارج في القضاء على علي ومعاوية وعمرو ابن العاص ،

ولكن لم يُقتل سوى علي ونجا الاثنان الآخران ، قتله عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ هـ.

آثاره : لعلي ديوان من الشعر – والأغلب على ما قيل – انه منحول ، وله كتب في النثر أشهرها : « نهج البلاغة » . وقد جمع الشريف الرضي في نهج البلاغة كل ما ينسب الى الإمام من خطب ، ومواعظ ، ورسائل ، وحكم ، وأوامر ، وقد شرحه كثيرون منهم الشيخ محمد عبده .

وقد قيل : ان اكثر ما في نهج البلاغة منحول أيضاً ، ولا شك في ان كتاب نهج البلاغة فيه كثير من المدخول الذي لا تصح نسبته الى الإمام علي .
وفي نهج البلاغة ما يدلنا على عقلية علي الفذة ، وسعة إدراكه ، وقوة ملكته ، وخبرته بأساليب الفن .

ولذا فقد كان « نهج البلاغة » ذخيرة أدبية وفكرية عظيمة .

والإمام علي من أبلغ الخطباء حتى في الخطب الارتجالية وقد كانت بلاغته نتيجة عقليته النادرة ، وصحبته للنبي (ص) وفكره الثاقب .

وقد امتازت خطابته بسلامة الذوق ، وصراحة المعنى .

وقد قال الشريف معلقاً على إحدى خطبه الدينية « لو كان كلامٌ يأخذ بالأعناق الى الزهد في الدنيا ، ويضطر الى عمل الآخرة ، لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاتعاظ ، والازدجار ، ومن أعجبه قوله : « ألا وان اليوم المضمارُ ، وغدا السباق ، والسبقة الجنة والغاية النار » .

وعلي ذو قدرة عجيبة على تنويع أسلوب الخطابة ، فهو ينتقل به من الإخبار الى الاستفهام الى التعجب الى النداء ، وهكذا . فيستولي بذلك على النفوس: « أما بعد، يا أهل العراق .. لقد بلغني انكم تقولون : يكذب. قاتلكم الله فعلى من أكذب ؟ أعلى الله ؟ وانا أول من آمن به ، أم على نبيه ، وانا اول

من صدقه . كلا والله ، لكنها لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها » .

وعلي يثير العواطف حينما يخطب لما عنده من مقدرة فنية في التصوير الذي يحرك العواطف : « إن الدنيا غرور حائل ، وظل زائل ، وسناد مائل ، حتى إذا أنس نافرها ، واطمأن ناكرها قمصت بأرجلها ، وقنصت بأحبُلها » .

وقد كان من المبرزين في مزج الخطب الدينية بالسياسة فتراه حينما يخطب في الجنود ، يعتمد على العقيدة الاسلامية بما يأتي من الآيات والأحاديث والحجج الدينية .

هذا هو علي بن أبي طالب خليفة رسول الله ، وقائد المعارك ضد معاوية وجند الباطل .

من خطبته بعد التحكيم :

«الحمد لله وإن أتى الدّهر بالخطْب الفادح والحدث الجلل ؛ وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله .

أما بعد .

فإن معصيةَ النّاصِح الشّفيق ، العالِم المجرِّب تورث الحسيرة وتُعقِبُ النّدامةَ ، وقد كنت أَمرْتكم في هذهِ الحكومةِ أمري ونخلتُ لكم مخزون رأيي « لو كان يطاع لقصير أمرٌ » فأبيْتم عليَّ إباء المخالفين المنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصحُ بنصحه ، وضَنَّ الزّنْدُ بقدحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتُهمُ أمري بمُنْعَرَجِ اللِّوى
فلم يستبينوا النُّصْحَ إلا ضُحى الغدِ»

ومن حكمه : الناس أعداء ما جهلوا — الناس من خوف الذل في ذل ـ إذا قَدَرْتَ على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ـ قيمة كل امرىء ما يحسن ـ المرء مخبوء تحت لسانه ـ استَغْنِ عمَّنْ شئت تكن نظيره ، واحتجْ إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسِنْ الى من شئت تكن أميره .

خيرُ اموالك ما كفاك ، وخير إخوانك من واساك .

وفي كتاب نهج البلاغة كثير من الخطب والحكم وغير ذلك فارجع إليه إن أردت الاستزادة .

الحجاج بن يوسف الثقفي

أصله : هو أحد القواد العرب وجبابرتهم وساستهم ، أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحَكم الثَّقَفِيّ ، ولد سنة ٤١ هـ بالطائف ، ونشأ في صناعة أبيه معلم صبيان . وقد عيّره أحد أعدائه بقوله :

أَيَنْسَى كُلَيْبٌ زمان الهُزالِ ... وتعْليمَهُ سورةَ الكَوْثرِ[١]
رغيفٌ لـــه فلكٌ دائرٌ ... وآخر كالقمر المزْهرِ

ويرى بعض المؤرخين ان أباه كان من سادة ثقيف وأن ما نسب اليه ، وما عُير به لا يعدو أن يكون تشهيراً به من أعدائه. وقـــد ولد الحجاج في فجر الدولة الأموية ، وشاهد عن كثب (وهو شاب) الفتن التي التهبت نيرانهـا في خلافة يزيد بن معاوية من تمرد الخوارج، وثوره عبدالله بن الزبير، وقتل الحسين، الى رمي الكعبة بالمنجنيق . وهكذا رأى الحجاج هذه الحوادث ، وتلـــك الأعاصير فشب غليظ الطبـع ، قاسي القلب .

وقد ساعده طموحه ومـا أظهره من مضاء وعزيمة على تقـُلد قيـــادة الجند في خلافة عبد الملك بن مروان ، فأظهر من الإخلاص والكفاءة والحزم مـــا أعجب الخليفة ، وجعله يكافئه ، فولاه بلداً اسمه (َتبَالة) من أعمال اليمن ، ولما توجه الى هناك واقترب منهاسأل عنها فقيل له : إنهـــا وراء هذه الأكمة .

---

١ ـ كليب : اسم الحجاج ، أما الحجاج فلقب غلب عليه . الهزال : الفقر .

فقال : أفٍ لبلد تستره أكمة ، ورجع واستعفى عبدَ الملك ، وبقي في خدمته.

ثم عرض على عبد الملك أن يأذن له بالذهاب الى عبدالله ابن الزبير (وكان لا يزال متمرداً ممتنعاً بمكة) فأذن له ، وسار على رأس جيش كبير . ولما ذهب الى مكة حاصرها، ورمى الكعبة بالمنجنيق ، وقتل ابن الزبير ، وبذلك أخمد فتنة كانت تقلق بال عبد الملك وتقضُّ مضجعه فكافأه بالولاية على الحجاز، لكن الحجاج لم يقنع بها ، وكتب الى الخليفة يقول : « أما بعد فقد حُزت الحجاز بشمالي ، وبقيت يميني فارغة ، فلبى عبد الملك طلبه وولاه العراق .

وفي العراق تمردٌ ونفاق ، وقد علم الحجاج ذلك فعامل أهلها معاملة قاسية، وكان لفصاحته أبلغ الأثر في نجاحه ، والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر بل ما لا تنفذ السيوف والرماح .

ذهب الى الكوفة ومعه اثنا عشر راكباً ، ودخلها فجأة فدخل المسجد معتَمّاً بعمامة خزٍّ قد غطى بها وجهه،متقلداً سيفاً ومتنكباً قوساً وصعد المنبر، والناس ينظرون اليه ، ومكث ساعة لا يتكلم ؛ فتغامز الناس ، وقالوا : « قبح الله بني أمية تستعمل مثل هذا على العراق ! » ، وقال بعضهم : « ألا أحصبه لكم ؟ » فقالوا له : « انتظر » .

فلما رأى الحجاج عيون الناس متجهة اليه كشف اللثام عن فمه وقال :

أنا ابنُ جلا وطلاَّعُ الثنايا   متى أضعِ العمامةَ تعرفوني

« والله يا أهل العراق اني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبُها وكأني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى » .

ثم قال :

هذا أوانُ الشدِّ فاشتدّي زِيَمْ   قد لفَّها الليلُ بسوّاق حُطَمْ[1]
ليس براعي إبلٍ ولا غَنَمْ   ولا بِجَزّارٍ على ظهرِ وَضَمْ[2]

١ - زيم : اسم ناقة . حطم : قاس .   ٢ - الوضم : ما يقطع عليه اللحم .

وقال :

قد شمَّرَتْ عن ساقها فشدُّوا   وَجدَّت الحربُ بكم فجدُّوا [1]

إني والله يا أهل العراق ما يُقعقَعُ [2] لي بالشِّنان [3] ، ولا يُغمَزُ جانبي كتغماز التين ، ولقد فُرِرْت عن ذكاء وفُتشْت عن تجربة ؛ وإن أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) نثر كِنانته [4] بين يديه فعَجَمَ [5] عيدانه فوجدني أمَرّها عوداً وأصلبها مَكسِراً ، فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال . والله لأحزمنَّكم حزم السَّلَمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعُم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . »

الى ان قال :

« وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلَّف بعد أخذ عطائه ثلاثة ايام إلا ضربت عُنقه . »

ثم خرج من الكوفة الى البصرة فخطب بها مثل خطبته هذه فاستطاع ان يُخضع الناس وان يلقي فيهم الرعب ، فاستتب الأمن ، وتمكن السلطان لعبد الملك ولبني أمية ، فأنزله عبد الملك منزلة كبرى وهو الذي قال فيه : « إن الحجاج جلدة ما بين عيني » .

وتوفي سنة ٩٥ هـ.

---

١ – شمرت عن ساقها : اشتدت الحرب ، وعمت أهوالها .

٢ – يقعقع : القعقعة: صوت الجلود اليابسة .

٣ – الشنان : جمع شن : الجلد اليابس ، اذ كان من عادة العرب الضرب على الجلود اليابسة لإزعاج الإبل وطردها .

٤ – الكنانة : جعبة السهام . والمراد : اختبر ما عنده من الرجال.

٥ – عجم : اختبر .

وقد كان لسياسة الحجاج أثران أحدهما حسن ، والآخر سيء .

فأما الحسن : فهو القضاء على الفتن وتوحيد الكلمة .

وأما السيء : فهو اضعاف النخوة العربية .

وذلك بسبب الاستبداد والتعسف ، واسرافه في التقتيل والسجن . فقد قتل ما يزيد على مائة ألف ، ومات وفي سجنه (الذي لم يسقف حتى في الشتاء) عشرون ألفاً .

وكان الحجاج شديداً قاسياً. وربما كان ذلك راجعاً لنشأته زمن الفتن والثورات ، وطموحه لمنزلة سامية ، ثم رغبته في محاكاة زياد بن أبيه .

وعلى الرغم من هذه القسوة فقد كان كريماً جواداً .

مميزات خطابته :

تمتاز خطابته بـ (١) التهويل والتفخيم في عباراتها القوية ومقاطعها الشديدة.

(٢) حسن اختيار الصور البلاغية ، والابداع في الكناية والتشبيه.

(٣) تجميل العبارات والجمل بسجع غير متكلف ومحسنات بديعية جاءت عفواً.

(٤) كثرة الاقتباس والتضمين .

وللحجاج فضل كبير على اللغة العربية ، بوضع النقط على الحروف المتشابهة في الكتابة كالراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والعين والغين ... الخ.

وللحجاج غير الخطب رسائل بليغة الأساليب وتدل على بصيرة نافذة ، وعقلية فذة .

عوامل نبوغه :

هناك عوامل نستطيع ان نعتبرها من اسباب نبوغ الحجاج وهي : موهبته الفطرية ، وطموحه الى منزلة سامية ، والفتن التي وجدت في عصره ومشاركته فيها ، ونشأته بالقرب من البيئة البدوية ، وحفظه للقرآن الكريم

ولكثير من أحاديث الرسول ، واستفادته من خطب من سبقه من البلغاء كأبي بكر وعمر وعلي .

موضوعات للبحث

١ ـ قال عبد الملك لبنيه عند وفاته : « أكرموا الحجاج فانه الذي وطّأ لكم المنابر ، ودوّخ لكم البلاد ، وأذلّ الأعداء » .
استعرض حياة الحجاج مع عبد الملك بن مروان ، وحياته الأدبية لتبين الدواعي التي دفعت عبد الملك الى هذا القول .

٢ ـ خدم الحجاج ـ على الرغم من قسوته ـ اللغة والأدب أجلّ خدمة .
ناقش هذا القول ووضحه مستدلاً .

٣ ـ هل تختلف الخطابة في صدر الاسلام عنها في العصر الأموي، وكيف ذلك؟
قارن بين الخطابتين بنماذج لخطباء كل عصر مبيناً أسباب اختلافهما ان وجدت .

٤ ـ وازن بين خطابة علي ، وخطابة الحجاج من حيث الموضوع والفكرة والمعاني والألفاظ والأساليب مبيناً عوامل كل منهما في بلاغته .

المراجع

الحجاج بن يوسف الثقفي	للدكتور عمر فروخ
الحجاج بن يوسف	لابراهيم الكيلاني
الحجاج طاغية العرب	لعبد اللطيف شرارة
الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
تطور الاساليب الشعرية في الأدب العربي	لأنيس المقدسي
من حديث الشعر والنثر	لطه حسين
سيف بني مروان – الحجاج	لعبد الرازق حميده
عبقرية الإمام	لعباس محمود العقاد
أدب الخلفاء الأمويين	لعبد الرازق حميدة
علي والسياسة	لسعيد صدر الدين

من مشاهير الكتاب في الاسلام

عبد الحميد الكاتب

أصله :

هو أبو غالب، عبدُ الحميد بن يحيى بن سعيد العامري، من أصل غير عربي ، ونُسِب الى بني عامر ، شيخ الكتاب الأولين .

حياته :

نشأ عبد الحميد بالشام ، وتخرج في الكتابة على سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب سره ، ثم أخذ يمارس مهنة تعليم الصبيان متنقلاً من بلد الى آخر حتى فطن له مروان بن محمد أيام ولايته على ارمينية ، وعلم بمكانته فاستكتبه مدة ولايته ، وتوثقت بينهما عرى المودة . ولما بويع مروانُ بالخلافة سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه الا عبد الحميد ، فقال له مروان : « لِمَ لا تسجد ؟ » فقال : « ولِمَ أسجد ؟ أعلى أنك كنت معنا فطِرْتَ عنا ؟ »

قال : « اذاً تطير معي ! » قال : « الآن طاب لي السجود ! » وسجد فاتخذه مروان كاتب دولته . ولما هاجمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية ، وتوالت الهزائم ، كان عبد الحميد ملازماً لمروان في شدته ، فقال له مروان : « قد احتجت ان تصير مع عدوي ، وتُظهر الغدرَ بي ، فإن

إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يحوجهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت ان تنفعني في حياتي والا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي . »
فقال عبد الحميد : « ان الذي أمرت به عليّ انفع الأمرين لك وأقبحهما بي، وما عندي الا الصبر حتى يفتح الله او أُقتل معك . » وأنشد :

أُسرُّ وفَاءً ثمّ أُظهِرُ غَدرةً   فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

ومكث حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ. وظل عبد الحميد على ولائه لسيده مروان الى ان قبض عليه عند صديقه ابن المقفع واُخِذ الى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ .

آثاره : لعبد الحميد الكاتب رسائل إخوانية وسياسية وأدبية تنبىء عن مقدرة كتابية وبيانية ، ونمط جديد في الخطب والرسائل ، فكانت خطبه ورسائله نظاماً جديداً ، وقاعدة معينة ينهج نهجها الكتاب .

فضله على الكتابة :

كانت الكتابة قبل عبد الحميد لا تعتمد على فن ولا على نظام ، فوضع لها عبد الحميد اصولاً ومبادىء وقواعد حتى عُدَّ ، بحقٍّ ، الأستاذ الأول لأهل صناعته في كتابة الرسائل وصاحب طريقة مبتكرة في الأسلوب ، وقد قيل « بُدِئَتِ الكتابة بعبد الحميد ، وخُتمت بابن العميد» ، فقد نوّع الكتابة على حسب مقتضى الحال، وجعل للكتابة والرسائل صوراً خاصة في البدء والختام حسب المقام .

اسلوبه في الكتابة :

لعبد الحميد الكاتب أسلوب في الكتابة يجذب النفوس ويعمل عمل السحر ويخلب الأفئدة، وقد عُرف عنه ذلك إذ كان زعيم البلغاء في عصره بما أوتي من قدرة على التعبير والبيان والتوشية باستعمال المحسّنات، وبخاصة المحسّنات المعنوية كالطباق والمقابلة ، وبما أتى به من ترادف موسيقي جميل يشنّف الآذان .

ولا أدل على بلاغة عبد الحميد وسحر كتابته من انه لما ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس ، كتب إليه مروان كتاباً يستجلبه به وضمّنه ما لو قرىء لأدى الى وقوع الخلاف والفشل ، وقال لمروان : « كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإنْ يَكُ ذلك ، وإلا فالهلاك . » فلما وصل الكتاب الى أبي مسلم الخراساني ، أمر بإحراقه قبل ان يقرأه ، وكتب على جذاذة منه إلى مروان :

محا السيفُ أسطار البلاغة وانتحى عليكُ ليوثُ الغاب من كلّ جانب

ومن رسائله هذه الرسالة الشهيرة التي تدل على مهارته . وقد كتبها الى اهله وهو منهزم مع مروان يعزيهم عن نفسه :

« .. اما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور وجعل فيها أقساماً مختلفة بين اهلها ، فمن درّت له بحلاوتها ، وساعده الحظ فيها سكن إليها ، ورضي بها ، واقام عليها ، ومن قرصته بأظفارها ، وعضّته بأنيابها ، وتوطّأته بثقلها قلاها[١] نافراً عنها ، وذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً منها . وقد كانت الدنيا اذاقتنا من حلاوتها ، وأرضعتنا من درها افاويقَ[٢] استحليناها ثم شمست منا نافرة ، واعرضت عنا متنكرة ، ورمحتنا[٣] مولية فملح عذبها وامرّ حلوها ، وخشن لينها ، ففرقتنا عن الاوطان ، فدارنا نازحة ، وطيرنا بارحة[٤] ، قد اخذت كل ما اعطت ، وتباعدت مثلما تقربت ، وأعقبت بالراحة نصَباً[٥] ، وبالجذل[٦] هماً ، وبالامن خوفاً ، وبالعز ذلا ، وبالجِدَة[٧] حاجة ، وبالسراء ضرّاء ، وبالحياة موتاً ، لا ترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له ، منفيين عن الأولياء ، مقطوعين عن الاحياء . »

ومن وصيته للكتاب :

« فتنافسوا معشرَ الكتاب في صنوف العلم والأدب ، وتفقّهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثِقافُ السنتكم ،

---

١ – قلاها : أبغضها . ٢) أفاويق : ما يتجمع في الضرع من اللبن الذي يحلب ، ٣) رمحتنا من رمحه الفرس اذا رفسه . ٤) الطير البارحة : التي تمر من اليمين الى اليسار ، وكان العرب يتشاءمون بها . ٥) نصباً : تعباً . ٦) الجذل : السرور . ٧) الجدة : الميسرة.

واجيدوا الخط ، فانه حلية كتبكم ، وارْوُوا الاشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيَها ، وايام العرب والعجم واحاديثها ، وسِيَرها ، فان ذلك معين على ما تسْمُون إليه بِهِمَمِكِم ، ولا يَضعُفَنّ نظرُكم في الحساب فانه قوام كُتّاب الخَراج منكم . »

وكتب في التوصية بشخص : « حق موصل كتابي عليك كحقه علي ، اذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآني اهلاً لحاجته ، وقد انجزت حاجته ، فصدِّق أمله » .

موضوعات للبحث

١. يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه الفن ومذاهبه في النثر : « ونحن لا نقول كما قال السابقون ان الرسائل بُدئت بعبد الحميد ، فقد بدأت منذ فاتحة العصر الإسلامي وقام عليها بلغاء كثيرون أتاحوا لها النماء ، وضروباً من الازدهار ومن ثم كنا نرفض أوليته في الرسائل ديوانية وغير ديوانية ولكننا بعد ذلك نثبت له أنه كان القمة التي وصلت اليها نهضة الكتابة في العصر الاسلامي » .

ناقش هذا القول مبيناً تطور الكتابة الفنية عند العرب من العصر الجاهلي الى العصر الأموي ووضح مدى إسهام عبد الحميد في هذا التطور .

٢ . وضع عبد الحميد الكاتب دستوراً للكتّاب في عصره .

استخلص من خلال وصيته للكتّاب مميزات الكتابة في هذا العصر وطريقة عبد الحميد فيها .

المراجع

الفن ومذاهبه في النثر	للدكتور شوقي ضيف
من حديث الشعر والنثر	للدكتور طه حسين
أدب الخلفاء الأمويين	لعبد الرازق حميدة
تاريخ آداب اللغة العربية	لجورجي زيدان
أمراء البيان	لمحمد كرد علي
عبد الحميد الكاتب	لخليل مردم
تاريخ الادب العربي	لكارل بروكلمان

تاريخ الادب المغربي

لمحة جغرافية وتاريخية موجزة[1]

أ ـ جغرافية المغرب

يقع المغرب الأقصى في الزاوية الشمالية الغربية من القارة الإفريقية ، ولا يفصله عن الجنوب الغربي لأوربا فاصل ذو بال حتى ليزعم بعض المؤرخين انه كانت بين المغرب والأندلس قنطرة تمر عليها الخيول والدواب بناها الإسكندر الأكبر او هرقل واستمرت اكثر من مائتي عام .

يحد المغرب شمالاً البحر الأبيض المتوسط ، وجنوباً الصحراء الكبرى ، وشرقاً الجزائر ، وغرباً المحيط الأطلسي . وتبلغ مساحته (الآن) نحو نصف مليون كيلو متر مربع ، وعدد سكانه حسب آخر إحصائية (نشرت في يناير سنة ١٩٦٣) ١٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، ويدخل في هـذا العدد اليهود وسائر الجاليات الأجنبية ، وتزيد نسبة النساء ـ بوجه عام ـ قليلاً .

وللمغرب شاطىء اطلسيّ به أهم موانيه ، وشاطىء على سواحل البحر الابيض المتوسط اكثره صخري غير صالح لرسو السفن ، ولكن كان لهذا الساحل اثر عظيم في تكوين الشخصية المغربية ، وفي تميزها بشدة المراس وتمسكها بالحرية وتمكّن روح التصلّب وحب التفوق فيها ، بالاضافة الى

---

١ ـ للشعب الثلاث .

احتفاظها دائماً بروح المقاومة والجنوح نحو اتخاذ شخصية مستقلة متميزة، حتى ان الفتوح المختلفة التي توالت على الشعب المغربي لم تستطع ان تمحو شخصيته كما سنعرف هذا فيما بعد ؛ ذلك ان صلابة صخور هذا الساحل ووعورته جعلت المكافحين البحريين المغاربة يتخذونه معاصم يدفعون منها غزوات الأمم البحرية ويسيطرون منها على هذا البحر الذي ظلوا سادته مئات السنين حتى ضجت منهم أوربا .

وفي الداخل تقوم سلاسل الجبال التي تختلف ارتفاعاً وانخفاضاً حتى ليبلغ ارتفاع قمة الأطلس الكبير نحو ٤٫٢٠٠ متر ، ويفصل ممر تازة بين سلسلتي جبال الأطلس التي تحاذي الصحراء ، وجبال الريف في الشمال التي تحاذي البحر الأبيض المتوسط وتمتد جنوباً حتى الورغة .

والحياة شاقة في القمم التي تزيد على ألفي متر والتي يسودها جو البرودة القاسية والثلوج أو الزوابع العاصفة والجفاف ، وتقل فيها المراعي فيما عدا الهضاب الحمراء ، ولذا يقل السكان بوجه عام في هذه القمم ، وتتركز الحياة في الأودية والسهول والسفوح حيث تكثر الأنهار التي يصب بعضها في البحر المتوسط كنهر الملوية، وبعضها في المحيط كنهر سبو ويصب بعضها في جوف الصحراء .

وتجود في هذه الأودية زراعة الحبوب والبقول والخضر والفواكه والزيتون واللوز والجوز . وتموج العزائب بقطعان الماشية والأغنام في المراعي الخصبة والخضرة الممرعة . وتكثر الغابات في كثير من مناطق المغرب .

وفي البلاد ثروة سمكية ومعدنية هائلة .

ويختلف المناخ بين منطقة وأخرى ، فهو معتدل بوجه عام على الشواطىء والسواحل وإن كان مشبعاً بالرطوبة . أما في الداخل فهو كثير الزوابع كثير الثلوج شديد البرودة في الشتاء . وفي المناطق الصحراوية يسود الجو القارّي .

والمغرب مشهور بكثرة مدنه العريقة والتي يحمل كل منها قطعة من تاريخ المغرب ، ومن أشهر المدن وأهمها :

فاس : العاصمة العلمية والفكرية والروحية ، والتي حفظت للمغرب عروبته وإسلامه في أحلك عهود الاستعمار .

الدار البيضاء : أكبر مـــدن المغرب وأكثرها عمراناً وهي عـــاصمته الاقتصادية، وقد زاد من أهميتها ميناؤها على المحيط الأطلسي الذي يعد من أكبر الموانىء العالمية .

الرباط : العاصمة السياسية على المحيط الأطلسي .

مراكش : عاصمة الجنوب التي شهدت حكم أكبر امبراطوريتين مغربيتـين ضمت كل منهما المغرب العربي من برقة الى السنغال، والأندلس .

تطوان : عاصمة الشمال والمركز العلمي الثاني بعد فاس .

طنجة : ثغر المغرب التاريخي الذي يصل أفريقيا بأوربا .

سلا : المدينة الضاربة في أعماق التاريخ والتي كانت تعرف بمملكة سلا .

وتربط مدن المغرب وقراه ومنازهه شبكة ضخمة من المواصلات الحديثة التي يندر نظيرها في العالم .

ب - مع التاريخ

المغرب قبل الاسلام

١ — **السكان** : هل كان الاغريقيون مبالغين في الخيال حينما تصوروا بلاد المغرب عالمـــاً من الرؤى والاحلام تستوطنــه كائنات تسمو عن سلالة البشر تطيف بقمم جبال الأطلس التي تحمل على كواهلها أعمدة السماء ؟ وهـــل هي نظرة الجشع الاستعماري – فقط – تلك التي جعلت الرومان يسمونها « منجم حبوب روما » ؟

لكن فلندع هؤلاء وهؤلاء يتخيلون ما يشاؤون ويعتقدون ما يعتقدون ، أفليس من الحق أن هذه البلاد جميلة وخيِّرة ؟ وأن أهلها من معدن طيب وأصل أبيّ شجاع ؟

ولنرجع الى أغوار التاريخ مع صاحب كتاب (الجمان في أخبار الزمان) لنتعرف على اولئك القوم الذين حلا لهم ان يستبطنوا جبــال الأطلس الشماء ، ويسيلوا في أودية الرقراق وسبو وبهت وأم الربيـع، ويشرفوا على بحر الظلمات وينتشروا على سواحـــل بحر الروم ويخترقوا برمـــال الصحراء ، ولنسمّهم الأمازيغ[1] كما يطيب لهم أن يسموا أنفسهم، أو فلنسمهم البربر كما أحب الرومان

١ - لأن جدهم الأعلى (مازيغ) فالبرانس هم أولاد برنس بن بر بن مازيـغ والبتر هم أبنـــاء مادغيس الأبتر بن بر بن مازيـغ.. هذا رأي .

ان يسموهم أو كما أراد العرب :

«... وبقي أكثر اولاد حام في فلسطين من أرض الشام الى زمن داود عليه السلام ، وكان ملكهم يسمى (جالوت) فلما قتل داودُ جالوتَ وآتاه الله الملك والحكمة أمر بإجلائهم من بلاد كنعان وفلسطين الى أرض المغرب ، فساروا نحو افريقيا والزاب ، وانتشروا هنالك حتى ضاقت بهم تلك البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال ، وصاروا يتبعون مواقع القطر بالإبل وبيوت الشَّعر ... وهم مع ذلك على اديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الأديان الفاسدة ، وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان ، ولهم حروب وملاحم عظام مع من نازعهم من الأمم[1]» أ.هـ. بتصرف .

ولكن هل كل سكان المغرب من هؤلاء الحاميين ؟ إن كثيراً من علماء الأنساب يرون ان أكثرهم عرب من حِميَر ؛ قالوا : « ولما قفل أفريقش — أحد التبابعة المشهورين ملوك اليمن — من غزو المغرب ترك هنالك حامية من قبائل حِمْيَرَ تناسلوا وتكاثروا فهم بها الى اليوم » .

ويقول آخرون : إن البربر صنفان : البرَانس والبُتر ، وإن البتر منهم من ولد بر بن قيس بن عيلان بن مضر ، وإن شئت فاحفظ قول عبيدة بن قيس العقيلي :

ألا أيها الساعي لفُرْقةِ بيننا توقفْ هداكَ الله سُبْلَ الأطايب

١ — ويقال ان البرانس أغلبهم من هؤلاء اليمنيين ، وانتقد ذلك ابن حزم المؤرخ الاندلسي ، ولكن ابن خلدون وكثيرين من المؤرخين العرب كالمسعودي والطبري ينسبونهم الى اليمن . وابن خلدون يناقض نفسه احياناً ، فيقول : « والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وان اسم أبيهم مازيغ » .

فأقسم أنّا والبرابر إِخوة   تناولَنا جــد كريم المناسب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرا   له حَومة تَشفي غليل المحارب
وَبَرّ بن قيس عصبة مُضَرِّيّة   وفي الفرع من أحسابها والذوائب
فنحن وهم ركن منيع وإِخوة   على رغم أعداء لئام المناقب

يقول الاستاذ عبد العزيز بن عبدالله في كتابه « مظاهر الحضارة المغربية » : « وقد دخل الكنعانيون العرب الى المغرب دخولاً رسمياً عام ٤٨٠ قبل الميلاد فازداد امتزاجهم بأبناء عمهم البربر وتكونت في أفريقيا الشمالية إذ ذاك لغــة تسمى باللغة البونيكية هي خليط من الفينيقي والعــبري ، وكانت هذه اللغة – حسبما تشهد بذلك ألواح أثرية سَلِمت من عوادي الزمان – قريبة من اللغة العربية الفصيحة بل أقرب اليها من لهجات عدة شعوب عربية اليوم ». انتشرت هذه الشعوب – ولنقل إنها حامية حميرية مضرية – في هذه الرقعة المنبسطة من الارض التي تمتد من برقة الى المحيط الاطلنطي من شمال افريقية ، والتي يقسمها المؤرخون العرب الى ثلاثة أقاليم : أ : المغرب الأدنى (افريقية) ، طرابلس وتونس . ب : المغرب الاوسط : الجزائر ، ج : المغرب الاقصى : مراكش .

ويتكون الشعب المغربي الآن من عنصري البربر والعرب ، وقــد عرفنا – الى حد ما – أصل البربر الذين يسكنون شمالي افريقيا منذ القدم ، ويكثرون عادة في الجبال والصحراء وما جــاورها ، ويكادون ان يبلغوا نصف سكان المغرب الأقصى ، ومن أشهر قبــائلهم التي برزت في أحـداث الفتح الاسلامي وما بعده :

قبيلة أوْرَبَة التي ناصرت الدولة الإدريسية والتي كان منها كسيلة الذي قاد البربر للفــاتحين العرب وقتـــل عقبة بن نافع . ومكناسة التي كان منها بنو العــافية . وجراوة التي منها الـكاهنة . وصنهاجة التي منها المرابطون .

ومصمودة التي منها الموحدون . وزناتة[1] التي منها المرينيون[2] .

أما العرب فقد وفدوا على البلاد منذ عهد الفتح الأول ، ثم اتسعت هجرتهم أيام الفاطميين إذ شجعوهم – وهم في مصر – على الهجرة الى المغرب وبخاصة قبائل هلال وسليم قصْدَ ان يفتّوا بهم في عضد الصنهاجيين الذين اقتطعوا المغرب من الفاطميين بعد استقرارهم بمصر ، ثم استقدمهم الى المغرب الأقصى يعقوب المنصور بعد ان ظلوا مدة غير يسيرة في المغربين الأدنى والأوسط .

ثم انضم الى هؤلاء وأولئك عرب الأندلس بعد تشتيت دولتهم هناك . ويقطن العرب عادة في الأراضي الزراعية ويمثلون الأغلبية الساحقة في جميع المدن المغربية .

ولقد امتزج العنصران العربي والبربري امتزاجاً كلياً فلم يعد هناك الآن إلا المغربي وإلا الشخصية المغربية .

ولئن توالت على المغرب الفتوح والموجات البشرية المختلفة فقد لبث العنصر المغربي عنصراً واحداً في طبائعه وخصائصه ومميزاته وخصاله وعاداته . والذي يميز المغاربة من قديم هو الإفراط في حب الاستقلال والحرية الفردية[3] .

---

١ – يقول كثير من المؤرخين ونسابة المغرب : ان بني مرين فخذ من زناتة يمتون في عداد قبيلتهم هذه الى قيس عيلان ، فهم عرب خلص لا شك في ذلك ، وقال شاعرهم الملزوزي :

فجاورت زناتة البرابرا ... فصيروا كلامهم كما ترى
ما بدّل الدهرُ سوى اقوالهم ... ولم يبدّل منتهى أحوالهم
فانظر كلام العُرْب قد تبدلا ... وحالهم عن حاله تحوّلا

(النبوغ المغربي ، ج١)

٢ – يرى ابن خلدون ان مصمودة من البرانس وان زناتة ومكناسة من البتر ، أما الملثمون فيراهم فريقاً ثالثاً رئيسياً كالبرانس والبتر ، وان منهم الطوارق ولمتة ولمتونة (ومن الملثمين وصنهاجة والبتر تكون المرابطون) .

٣ – من كتاب « مدنية المغرب العربي في التاريخ » .

وفي المغرب أقلية يهودية قدمت اليه على فترتين : إحداهما قبل الاسلام[1] وثانيتهما مع العرب الذين وفدوا من الأندلس فراراً من طغيان الصليبية، ويعمل أكثرهم بالزراعة والصناعة على خلاف ما عرف عن يهود العالم من ميلهم الى التجارة.

وتكثر الجاليات الاجنبية بالبلاد الآن ولا سيما الفرنسية والاسبانية والايطالية، ويكاد يبلغ مجموع هؤلاء واليهود اكثر من نصف مليون نسمة، وفيما عداهم فان الشعب المغربي يدين كله بالاسلام .

هذا وقد توسعنا في هذا البحث لينتفع به طلبة الشعب الثلاث : الشرعية والأدبية والعلمية ، ولهذا تعدينا به نطاق ما قبل الاسلام الى ما بعده بايجاز .

وتتميماً للفائدة نوجز ما مر بالمغرب من أحداث قبل الفتح الإسلامي :

٢ – علاقة المغرب بالأمم الاستعمارية القديمة :

استعمر الفينيقيون السواحل الإفريقية منذ ثلاثة آلاف سنة ، بيد أنهم لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد لاعتصام الوطنيين بالجبال المنيعة ، ثم خلفهم القرطاجيون ، ثم جاء الإسكندر الأكبر المقدوني فبسط نفوذه على المغرب ولكنه لم يضمه نهائياً الى دولته ، ثم غزا الرومان المغرب واستوطنوا بأعداد كثيرة في سبتة وطنجة والارباض المجاورة لـ«وليلى»، وبَقُوا به حتى منتصف القرن الثالث الميلادي حين اجتاحته قبائل الوندال الجرمانية الهمجية، ثم وقع في يد الروم مرة أخرى ولم يخلصه من براثنهم إلا الفتح الإسلامي .

ولم يكن المغرب يفقد شخصيته قط مع أيٍّ من هذه الدول حتى ولا في اثناء الفتح الإسلامي ، وقد كان يتخلل عهودَ هذه الدول الغازية فترات يجمع فيها المغرب شتاته ويوحد مقاومته أو دولته لا سيما بعد العهد المقدوني وبعد انتهاء الهجمات الوندالية .

---

١ ـ وقد اعتنق بعض البرابرة الديانة الموسوية وأدخلوا بعض طقوسها الى قلب القبائل البربرية، وقد وجد الفاتحون العرب طوائف اسرائيلية في بلاد البربر تدين باليهودية كقبيلة جراوة التي منها الكاهنة (أنظر ترجمة الشاعر الجراوي في هذا الكتاب) .

ج ـ الحضارة المغربية

(قبل الفتح الاسلامى)

لما فتح العرب إفريقية والمغرب لم يجدوا حضارة ذات بال ؛ فقد أكلت الحضارات التي توالت دولها على المغرب – أكلت بعضها بعضاً ،فكلما جاء فريق عفـّى على آثار من سبقه : فعل ذلك الرومان مع القرطاجنيين، والوندال مع الرومان ، وهؤلاء مع اولئك حين عادوا وقضوا عليهم بعدُ ، وخرج المغرب من هـذه المعمعة بخُـفـَّيْ حُنـَيْن ، فعاد الى بداوته في اساليب العيش والاجتماع واللغة .

ولكن هل كانت للبربر حضارة قبل سلسلة الاحتلالات الاجنبية ؟ أم انهم كانوا مغمورين في بوتقة الشعوب المتوحشة كما يزعم كثير من المؤرخين الاجانب ؟ يجب ان نعلم قبل كل شيء ان البربر آسيويون لا أفارقة وانهم هاجروا من آسيا الى المغرب عن طريق مصر والبلاد الليبية ، وجاء برابرة الاطلس المغربي على الخصوص من ربو ع الشام حيث كان يجمعهم قرب الجوار مع أبناء عمهم العرب الكنعانيين ، فالحضارة البربرية حضارة آسيوية بدائية ترتكز على الزراعة والرعي ، وقد وصف لنا مؤرخون اجانب التجانس الذي كان ملحوظاً بين عادات العرب والبربر ، والذي كان يبلغ سويداء الحياة الاجتماعية بل والدينية ، وقد اخترع البربر أحرفاً هجائية في الوقت الذي

اخترع فيه الكنعانيون أحرفاً خاصة بهم ، والحروف المعروفة بحروف تفناغ لا تزال مستعملة عند البربر الطوارق الصحراويين الى يومنا هذا . وعندما انكسف شعاع الحضارات القرطاجنية والرومانية والوندالية من المغرب انساق البربر في تيار حضارتهم الشرقية الاصيلة التي تتبلور فيها مُثُل عليا .. وقد وجد البربر أنفسهم بعد الفتح العربي الاسلامي إزاء شعب من بني عمومتهم يشاطرهم مثلهم السامية وتقاليدهم الحرة فامتزج العنصران ... وتكونت مع الزمن مدنية مغربية مزدوجة القوام انصهر في بوتقتها تراثان كلاهما شرقي الاصل طبعه الاسلام ووسمته العروبة بميسمها الخاص[1] . فالحضارة المغربية شرقية بدءاً ونهاية ليس فيها أي أثر يذكر للحضارة اللاتينية .

ويقول ابن خلدون : « كان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعُدّة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال وأمراء لا يُرامون بذلّ » .

١ ـ مظاهر الحضارة المغربية (ص ٣٥) .

د ـ الفتح الاسلامي للمغرب

ابتدأت محاولات الفتح الاسلامي للشمال الافريقي منذ عام ٢٢ هـ. واتخذ الفاتحون من مصر .مركزاً لغزوهم ، وقد اتجهوا منها في عهد عمر بن الخطاب نحو برقة وطرابلس ، ثم نهاهم عمر عن التوغل في افريقية فعادوا الى مصر .

وفي عهد عثمان بن عفان توجه عبدالله بن أبي سرح للفتح سنة ٢٦ هـ. فكان في جيشه كثير من الصحابة، ولحق بهم عبدالله بن الزبير — أول خطيب إسلامي بالمغرب — فكان له فضل كبير في انتصار العرب على الروم بفضل مشورة أبداها للقائد . ثم تولى هو قتل القائد الروماني جرجير الذي كان يملك لهرقل ما بين طرابلس وطنجة .

ثم عادوا الى مصر . وفي عهد معاوية توجه ابن حُدَيْج — أول داعية إسلامي بالمغرب — للفتح عام ٤٥ هـ.

وظلت هذه المناوشات متتابعة ، والتوغل في افريقية مستمراً ، ولم يتم الفتح للمغرب كله إلا في عهد يزيد بن معاوية على يد عقبة بن نافع — دفين تلمسان — في ولايته الثانية سنة ٦٢ هـ.

كان أول ما فتح عقبة من بلاد المغرب الأقصى طنجة ثم مضى يخضع البلاد متوغلاً حتى بلاد السوس حيث وقف على شاطىء المحيط الاطلسي عند آسفى وخاض بقوائم فرسه في الماء وقال قولته المشهورة : « اللهم إني قد بلغت الجهد .. » الخ .

وكان كسيلة الأوْرَبي في جيش عقبة وكان يستهين به ويمتهنه لموجدة عنده منه ، فيقال إن نافعاً أمره يوماً بسلخ شاة فدفعها كسيلة الى غلمانه ، فأراده عقبة على ان يتولاها بنفسه وزجره ، فقام إليها كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة مسح لحيته والعرب يقولون: « ما هذا يا بربري؟ » فيقول: « هو أجير ! » فقال لهم شيخ من البربر : « إن البربري يتوعدكم » . فنصح أبو المهاجر[1] عقبة وقال له : « إن رسول الله (ص) كان يتألف جبابرة العرب وانت تعمد الى رجل جبار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتستفسده !!» فتهاون عقبة في قوله ، فلما قفل راجعاً من غزواته سلك طريقاً بداخل البلاد[2] حتى انتهى الى طبنة من ارض الزاب فصرف العساكر أفواجاً الى القيروان حتى بقي في قليل من الجند ، فلما وصلوا الى تهودة خرج عليهم البربر – وكان كسيلة قد أرسلهم وجمّعهم[3] بينما هو في عسكر عقبة – فلم ينج أحد من أصحاب عقبة وكانوا نحو ثلثمائة من كبار الصحابة والتابعين ، وقتل هو ايضاً وأبو المهاجر .

وانتشرت الفتنة في المغرب، واجتمع الى كسيلة جميع اهل المغرب من البربر والفرنجة ، وفشت الردة .

ولم يزالوا كذلك حتى بعث عبد الملك بن مروان زهير بن قيس البلوي – وكان احد قواد عقبة – سنة ٦٢ هـ. فزحف الى المغرب في ستة آلاف مقاتل، وجمع له كسيلة سائر البربر، فالتقوا بمَمْس من بلاد القيروان، فقتل كسيلة ووجوه من معه من البربر ، وتبعهم العرب الى مرماجنة ثم الى وادي ملوية ، وفي هذه الموقعة الأخيرة فني فرسان البربر ومقاتلتهم واضمحل أمر الفرنجة

---

١ ـ كان معاوية قد ولى على مصر مسلمة بن مخلد الانصاري فاستعمل مسلمة مولاه أبا المهاجر سنة ٥٥ على المغرب ، فعزل هذا عقبة واستخف به ، وهذا هو سبب إساءة معاملة عقبة لكسيلة الذي كان مصاحباً لأبي المهاجر .

٢ ـ يرى بعض الباحثين ان هذه كانت غلطة قائد .

٣ ـ وحرضت على قتله الكاهنة داهيا ايضاً .

الذين كانوا معهم ولم يكن لهم بعد هذه الموقعة ذكر كما لم يعد ذكر لقبيلة أَوْرَبَة .

وفي طريق عودة زهير الى المشرق ماراً ببرقة وجد اسطول الروم وجحافلهم تقاتل المسلمين في جموع عظيمة وبأيديهم الاسرى منهم فانضم الى اخوانه بمن معه وقاتل الروم حتى ُقتل وقتل معه جماعة من أشراف الصحابة .

واضطرمت نيران الفتن بالمغرب مرة اخرى .. وافترق أمر البربر وتعدد سلاطينهم . وكان من أقواهم وأشدهم مراساً الكاهنة داهيا الزناتية ثم الجراوية صاحبة جبل أوراس .

أرسل عبد الملك – عامله على مصر حسان بن النعمان الغساني سنة ٧٣ هـ. لمحاربة البربر ، فكان أول ما فعل ان قاتل الروم في قرطاجنة – وكانت ندا لروما عظمةَ عمرانٍ وكثرةَ جندٍ وقلاع وحصون – فأبادهم وهرب من نجا منهم في مراكب الى صقلية والاندلس . وبعد ان أخمد كثيراً من الفتن في صطفورة وبنزرت توجه الى المغرب الأقصى حيث التقى بجموع الكاهنة في وادي مليانة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ُهزم فيه المسلمون ، ثم التقى الجمعان مرة اخرى بعد مدة يطول شرح ظروفها ، فقتلت الكاهنة بجبال اوراس وتفرقت جموعها وأسلم كثير منهم[١] .

وثارت الفتن في المغرب مرة أخرى بعد ان عاد حسان الى المشرق ، فأرسل الوليدُ بن عبد الملك موسى بن نصير سنة ٨٧ هـ. ففتح طنجة ودانت له جميع بلاد المغرب ، وكان هذا هو الفتح الحقيقي لبلاد المغرب إذ قد تبينت الآن المعالم ووضحت الأمور .

ولكن القلاقل لم تنقطع تماماً وظل المغاربة يناوشون العرب مدة طويلة حتى إن فتح المغرب تماماً استغرق نحو ثمانين سنة ، مما لم يعرف قط في تاريخ

---

١ – الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الجزء الأول .

الفتوح العربية مع أقوى الأمم وأعتى الدول .

ولم يستسلم المغرب للعرب إلا بعد ان عدلوا عن سياسة العنف الى سياسة نشر الدين واللغة العربية بينهم وتألف قلوبهم بالدعاة والفقهاء، ثم بإشراكهم في الجيش والقتال كجنود وقواد ، ولم يفعل العرب مع غيرهم من الأمم المغلوبة مثل هذا في عصر الفتوح ؛ ذلك أن للمغاربة طبيعة تختلف عن طبائع تلك الأمم وتكاد تقترب من طبيعة العرب .

ونختم هذا البحث بما قاله أصحاب[1] « المفصل في تاريخ الأدب العربي » :

« وأمم البربر صنوف كثيرة لهم لغات لا تحصى، وهم أهل بدو في معيشتهم لم يخضعوا لأمة من الأمم خضوعاً تاماً لشدة شجاعتهم وعصبيتهم ، ولم يلاق المسلمون في تاريخهم مع البلاد التي افتتحوها ما لاقوه في هذه البلاد ، فقد أسلموا وارتدوا اثنتي عشرة مرة وغدروا في كل مرة منها بالعرب وفتكوا بهم الى ان دانوا للاسلام زمن ولاية موسى بن نصير ، ثم أزمان الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى .. ولما أسلموا اتخذوا الاسلام سيفاً بأيديهم ينكرون به على الولاة والملوك باسم الشيعة مرة والأباضية مرة أخرى والسنية حيناً ، ويؤسسون لبعض بيوتهم أو بيوتات الأشراف العلويين دولاً بربرية أو عربية في حمايتهم ، ولذلك بقيت لغتهم منتشرة حتى الآن بالمغرب . وتولاهم أولاً ولاة من قبل الدولة الأموية ثم دولةُ الأدارسة مستقلةً بالمغرب الأقصى ... ثم دولة الفواطم وولاة بني أمية بالأندلس، ثم دولة البربر من المرابطين والموحدين، فبني مرين .. ثم الأشراف السعديون والسجلماسيون بالمغرب الأقصى . » (أ. هـ. بتصرف) .

وهكذا نجد ان المغرب قد تداولته بعد الفتح الاسلامي أيد كثيرة عربية وبربرية ، وأن اللغة والأدب كانا في مد وجزر بسبب هذه التقلبات .

---

١ ـ احمد الاسكندري ، احمد أمين ، علي الجارم ، عبد العزيز البشري ، احمد ضيف .

هـ - عصر الولاة[1] (٦٢ – ١٧٢ هـ.)

ليس من اليسير حين نتحدث عن عصر الولاة الفصل بين المغرب الاقصى وسائر أقطار المغرب ، اذ ان الوالي منهم كان يُوَلَّى على المغرب كله ، ولم يكن ثمة فرق بين قسم وقسم .

وقد مر بنا في الحديث عن الفتح الاسلامي للمغرب ذكر أسماء بعض الولاة، والذين كانوا في الوقت نفسه قواداً للجيوش ، أما الآن فسنقصر الكلام على الفترة الواقعة بين عام ٦٢ هـ. حين تم فتح المغرب كله وعام ١٧٢ هـ. حيث قامت الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى .

وقد عرفنا ان فتح المغرب حتى المحيط الاطلسي قد تم على يد عقبة بن نافع، وان المغرب قد انتفض بعد موته، ولم يزل كذلك حتى أرسل عبدالملك بن مروان زهير بن قيس فقضى على الفتنة ، لكن لم تلبث البلاد ان وقعت في فتنة أخرى بعد مقتل زهير ، وقد قادتهم الكاهنة التي عاثت في الارض فساداً وخراباً حتى ملّها البربر أنفسهم .

وبعث عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان والياً على المغرب فقضى على ثورة البربر وعلى رئيستهم الكاهنة كما قضى على أوكار الروم .

وارتحل حسان الى المشرق فثارت الفتن مرة أخرى حتى جاء موسى

---

١ - عصر الولاة بما فيه طارق بن زياد وسابق البربري خاص بالشعبة الشرعية .

ابن نصير والياً من قبل الوليد بن عبد الملك .

قال ابن خلكان : ولما قدم المغرب وجد أكثر مدنه خالية لاختلاف أيدي البربر عليها ، وكانت البلاد في قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم الى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ففرق بينها وبين اولادها فوقع البكاء والصراخ وأقام على ذلك الى منتصف النهار ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ فقال : هذا مقام لا يدعى فيه غير الله عز وجل فسُقوا حتى رووا .

ثم خرج موسى غازياً وتبع البربر وقتل فيهم قتلا ذريعاً وتوغل حتى انتهى الى السوس الأدنى فأذعن البربر لسلطانه وأخذ رهائن من المصامدة فأنزلهم بطنجة سنة ٨٨ هـ. وولى عليها طارق بن زياد .

وقد أسلم كثير من البربر في هذه الفترة وتم إسلام سائرهم على يد اسماعيل ابن عبيد الله بن أبي المهاجر سنة ١٠١ في خلافة عمر بن عبد العزيز .

وبعد ان ارتحل موسى بن نصير الى المشرق – وكان قد ولى ابنه عبدالله على المغرب – أرسل سليمان بن عبد الملك محمد بنَ يزيد أحد الموالي والياً على المغرب سنة ٩٦ فقاتل المخالفين بثغور المغرب .

ثم ولى عمر بن عبد العزيز اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر سنة ٩٩ هـ. وهو أحد الموالي ايضاً فوجه عنايته الى نشر الدين الاسلامي واسلام البربر حتى تم له ذلك .

وفي عام ١٠٢ أرسل يزيدُ بن عبد الملك يزيدَ بن أبي مسلم الثقفي والياً على المغرب وهو مولى الحجاج بن يوسف الثقفي ، فأساء السيرة فثار عليه المغاربة وقتلوه بعد شهر من ولايته . ويبدو انه أراد ان يتشبه بالحجاج فلم يفلح . فلما قتلوه كتبوا الى الخليفة يعتذرون اليه ويبينون سبب مقتله وانهم اختاروا بدلاً منه الوالي السابق محمد بن يزيد الذي كان حينئذ يغزو في سقلية فأقرهم الخليفة على ما فعلوا . ثم ولى عليهم بشر بن صفوان سنة ١٠٣ هـ. وظل عليهم مدة حياته .

فلما مات ولى هشامُ بنُ عبد الملك عبيدةَ بن عبدالرحمن السلمي سنة ١١٠هـ، ثم عزله الخليفة بعد اربع سنوات ونصف من ولايته، وولى عبيد الله بن الحبحاب أحد الموالي فقدم القيروان[1] سنة ١١٤هـ. وهو الذي بنى جامع الزيتونة[2] بتونس.

وفي عهد عبيدالله بن الحبحاب استطاع الخوارج الوافدون من العراق والمندسّون وسط المغاربة – ان يجدوا مرتعاً خصباً في نفوس أهل المغرب الذين ضاقوا ذرعاً بابن الحبحاب وعماله، والذين وجدوا في مبادىء الخوارج – وأهمها عدم اشتراط ان يكون الخليفة من قريش – ما يوافق أمزجتهم وطبيعتهم في حب الاستقلال والانفصال.

ثار المغرب بقيادة الخوارج وانتفضوا على الخلافة في دمشق وخلعوا طاعتها. ولما سمع هشام بن عبد الملك ذلك غضب على ابن الحبحاب وعزله واستقدمه فخرج من المغرب سنة ١٢٣ هـ.

وولى بعده كلثوم بن عياض على المغرب ووجه معه جيشاً كثيفاً زحف به على المغرب الأقصى فالتقى والبربر على وادي سبو، فاشتد القتال بينهم وانهزم جيش كلثوم وقتل هو وغيره من القواد وكثير من الجند.

ووجّه هشام الى المغرب حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤ هـ. فلم يلبث إلا قليلاً بالقيروان حتى زحف اليه الخوارج ومن معهم من البربر فأثخن فيهم القتل حتى ليقال إنه قتل منهم مائة وثمانين ألفاً.

وظل حنظلة في المغرب قوياً مرهوب الجانب حسن السيرة حتى سقطت خلافة بني أمية بالمشرق سنة ١٣٢ هـ. على يد العباسيين.

ولما علم بذلك عبد الرحمن[3] بن حبيب الفهري – وكان في الأندلس – جاز

---

١ - كانت القيروان هي العاصمة منذ أسسها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ. وكان الولاة يتخذونها مركز ولايتهم.

٢ - ويقال إن أول من اختطها حسان بن النعمان.

٣ - حفيد عقبة بن نافع، وكان لآل عقبة بن نافع وجاهة وشرف معروف في المغرب بعد الفتح وكذا في الأندلس، وكان عبدالرحمن بن حبيب قد قاتل الخوارج وقتل زعماءهم سنة ١٣١ هـ.

اليه البحر وغلبه على المغرب .

وفي هذا الوقت ظهر بعض المتنبئين بالمغرب الأقصى[1] .

ولما استقر أمر الخلافة العباسية بالمشرق وأفلت عبد الرحمن بن معاوية الأموي من قبضتهم وقصد المغرب ومنها الى الأندلس – أرسل الخليفةُ العباسي المنصورُ الى عبد الرحمن بن حبيب يطالبه بالطاعة لبني العباس فأجاب، ثم خلع طاعتهم بعد ذلك فقتله أخوه (إلياس) سنة ١٣٧ هـ .

وبعث هذا بطاعته الى المنصور فأقره على ولايته ، ثم قتله بعدُ أحدُ أبناء أخيه وهو حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي هزم فيما بعد على يد الخوارج من برابرة البتر وقتلوه سنة ١٤٠ هـ فانقرض بمقتله أمر آل عقبة بالمغرب نهائياً .

بعد هذا ظل الخوارج يعيثون فساداً في المغرب ويخربون . وتفننوا في ذلك كله تفنناً عجيباً .

وظل خلفاء بني العباس يرسلون ولاتهم الى القيروان فيُقتلون واحداً إثر واحد ، الى أن جاء بعض ولد المهلب بن أبي صفرة (يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب ، وأخوه رَوْح) .

فسكنت ريح الخوارج وانخضدت شوكتهم .

« وفي أيام رَوْح بن حاتم اجتاز الإمام إدريس بن عبدالله بلاد مصر وإفريقية ناجياً من وقعة كانت لبني العباس على آل علي بن أبي طالب ، ودخل مدينة وليلى من المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ » اهـ. (بتصرف من كتاب الاستقصا جـ ١) .

توفي روح وخلفه حبيب بن نصر المهلبي سنة ١٧٤ هـ من قبل هرون الرشيد،

---

١ ـ أشهرهم صالح بن طريف البرغواطي . أنظر أخباره في الاستقصا جـ ١ ص ١١٤ وما بعدها .

ثم الفضل بن روح سنة ١٧٧ هـ ثم قتل سنة ١٧٨ هـ ، وولى الرشيدُ بعد بني المهلب رجالاً آخرين .

ودعا إدريسُ بن عبدالله البربر الذين أضافوه بـ « وليلى » وكانوا من قبيلة أوْرَبة الى بيعته فبايعوه سنة ١٧٢ هـ في رمضان ، ثم توافد سائر البربر عليه وبايعوه .

هذا موجز سريع — على ما يبدو من طوله — عن عصر الولاة من الوجهة التاريخية وما مر به من أحداث .

فليس من المعقول أن تقوم نهضة علمية أو أدبية عربية في مثل هذا الجو القاتم الدامي ، فلم يكن للقرائح وقت فراغ تنتج فيه شيئاً في بلاد أهلُها ليسوا من العرب والوافدون عليها لا يكادون يقضون يوماً في أمان .

وكل ما نستطيع ان نسجله هنا من ملامح الثقافة والحضارة العربية الإسلامية شيء تافه وليس فيه غناء ، ولعل من الطبيعي ان تكون هناك خطب ورسائل وأشعار قيلت وسط هذه الآلام والاعتصارات البشرية ولكن البحث لم يسفر عن شيء كثير منها، فقد ضاعت في هذا الخضم الزاخر ولم تبقَ الا النبذ والمتفرقات وخطبة طارق بن زياد .

كانت لغة القرآن قد استهوت المسلمين الجدد من البربر فأكبوا على تعلم العربية وتخرج من صفوفهم مستعربون أمثال طارق بن زياد . وقد جعل حسان الغساني اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد ، وكان لهذا أثر كبير في الإقبال على تعلمها وانتشارها . وفي عهد عمر بن عبد العزيز أرسل الى افريقية من الفقهاء عشرة يعلمون الناس القرآن وأمور الدين ، وكذلك فعل موسى بن نصير أيام ولايته . ويقال إنه حينما غزا موسى بنُ نصير المغرب كان معه سبعة وعشرون ألفاً من العرب واثنا عشر ألفاً من البربر . وأمر موسى العرب أن يعلموا البربر القرآن والفقه ولكن لم يتم إسلام البربر — كما عرفنا من قبل — إلا في عهد عمر بن عبد العزيز على يد عامله على المغرب إسماعيل بن عبيدالله بن أبي

المهاجر سنة ١٠١ هـ . ومع هذا كله فقد ظل المغرب على حال سيئة من الوجهة السياسية والعلمية والأدبية طون عصر الولاة . وهذا مما دعا بعض الباحثين الى ان يشككوا في صدور خطبة بليغة من طارق بن زياد البربري وان يفهمها عنه جيش مؤلف أكثره من البربر .

وحتى لو وجدت آثار أدبية في هذا العصر – وهذا ما لم يعرف حتى الآن– فإنها لا يمكن إلا أن تكون شرقية جسماً وروحاً ولا يمكن أن تكون صادرة إلا من أفواه الفاتحين الذين لا يزالون يلبسون ثياب الحرب ، ولعل السبب الذي جعل المغرب يشذ في تأخر استعرابه عن سائر البلاد التي فتحها العرب، ومنها أمم ذات حضارات وآداب عريقة – هو ان الفتن الكثيرة التي حدثت وتخبط الولاة فيها جعلت البربر يطمعون في استرداد بلادهم . وقد تمسك المتنعون منهم بشعاف جبال الأطلس وغيرها بلغتهم، وكانوا يجدون أحياناً من الثائرين من يأخذ بضبعها، ويجبر من كسرها . هذا بالإضافة الى بعد المغرب عن مواطن العرب الأصلية فلم يتخذوه مقراً لهم ولم يختلطوا بسكانه اختلاطاً أخوياً كافياً .

طارق بن زياد

ولى موسى بن نُصير —حينما كان والياً على افريقيا من قبل الوليد بن عبدالملك— مولاه طارق بن زياد[1] الزناتي البربري على طنجة ، وفي سنة ٩٢ هـ. جهزه باثني عشر الف جندي لغزو اسبانيا أكثرهم من البربر .

ويذكر صاحب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » سببين لدخول طارق الأندلس : ١ — ان حاكم الجزيرة الخضراء من قِبَل القوط حبب إليه ذلك نكاية في لُذَرِيق الذي سلب عرض ابنته . ٢ — ان الحاكم خطب الى لذريق ابنته فغضب هذا وتوعد الحاكمَ وسبه . فلما علم هذا بذلك جمع جيشاً كبيراً وتوجه به الى الملك فأصبحت البلاد الاسبانية مكشوفة مما يلي طنجة[2] .

عبر طارق المضيق ونزل الجبل المسمى باسمه الآن يوم الاثنين خامس رجب سنة ٩٢ هـ . ذكر ابن بشكوال ان النبي عليه السلام بشر طارقاً بالفتح بينما هو نائم في المركب الذي عبر به الزقاق .

ثم إنه نزل بالجزيرة الخضراء وأقام بها مسجداً يسمى مسجد الرايات، فلما علم بهم لذريق توجه اليهم في جموع عظيمة فالتقوا بفحص شريش فهُزم لذريق ومن

---

١ ـ يرى بعض المؤرخين أن الذي كان والياً على طنجة أحد أبناء موسى بن نصير (مروان) ثم ذهب الى أبيه بالقيروان لأمر ما وخلف طارقاً على المعسكر فانتهز فرصة أمكنته فعبر البحر الى الأندلس .

٢ ـ يذكر صاحب الاستقصا ان (يليان) حاكم البربر من قبل الاسبان – وكان مقره سبتة في المغرب لا في الجزيرة وهو بربري – هو الذي كان مغاضباً للذريق .

معه ، وكتب طارق الى موسى بن نصير بهذا النصر ، فكتب اليه ألا يتوغل في البلاد إلا بإذنه ، ثم جاء موسى بجيش كبير ، وكان طارق قد توغل في البلاد[1] ، ونزل موسى بمكان آخر وتوغل في الأندلس الى برشلونة ، وكان طارق قد استولى على قرطبة وقتل لذريق فالتقيا ، وسار موسى بالجيش كله مجاهداً عازماً على أن يصل الى القسطنطينية ثم يعود منها الى دمشق فاتحاً ما بين ذلك كله من البلاد ، فلما علم الخليفة بذلك اشتد قلقه على المسلمين فكتب اليه ينهاه ويأمره بالرجوع ، ففتّ ذلك في عضده وعاد مستخلفاً ابنه عبد العزيز على الاندلس وجعل مقره قرطبة ، وقبض على طارق لأسباب يكثر فيها اختلاف المؤرخين . ونرجح أنه ربما يكون قد عصاه بسبب تمسكه بانتهاز الفرصة . ورجع الى القيروان سنة ٩٥ ، ثم ارتحل الى المشرق سنة ٩٦ ، وكان الوليد قد مات والخليفة سليمان بن عبد الملك ، وكان سليمان غاضباً على موسى فنكبه ونكب آل بيته جميعاً وشردهم ، وما زال كذلك حتى توفي بالمدينة سنة ٩٨ هـ ، وقد ثار الأندلسيون على ابنه عبد العزيز وقتلوه .

أما طارق فقد استقدمه الخليفة الوليد الى دمشق وما زال بها حتى توفي سنة ١٠١ هـ.

واشتهر طارق بخطبته التي قالها في جيشه بعد أن أحرق سفنه ووضعهم بين البحر والعدو .

ولئن شك بعض المؤرخين في الحادثة أو في الخطبة فان هذا الشك جاء أولاً من بعض المستشرقين الذين يُشك في نياتهم ، ونحن لا نشك في الخطبة ولا في الحادثة وإن شك فيهما كثير من الناس .

والخطبة منشورة في كثير من الكتب الحديثة فارجع اليها .

---

١ – لم يكن ذلك عصياناً للامير ولكن الكتاب لم يصله إلا بعد ان توغل في الفتح فعلاً .

سابق البربري

أبو سعيد سابق بن عبدالله البربري نسبة إلى البربر الذين يسكنون المغرب وبلاد شمال إفريقيا ، والذين يؤلفون مع العرب الآن بلاد المغرب العربي .

ويرى ابن الأثير في كتاب « اللباب في تهذيب الأنساب » أن « البربري » لقب وليس نسبة ، وأنه ليس من البربر . يقول في صفحة ١٠٧ من الجزء الأول : « وأبو سعيد سابق بن عبدالله البربري ، قلت والصحيح أن سابقاً ليس منسوباً الى البربر ، وإنما هو لقب له » ا هـ .

ونقل كلامه البغدادي في خزانة الأدب في الجزء الرابع ص ١٦٤ ، طبعة بولاق كالمؤيّد له في رأيه .

وذكر « سابقاً » المبرّدُ في « الكامل » جـ ١ ص ٢١٢ طبعة الخشاب، دون أن يترجم له ، ونسب إليه هذا البيت :

وإن جاء ما لا تستطيعان دَفْعَهُ   فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا

وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد :

وفد عبد العزيز بن زرارة سيد أهل الكوفة على معاوية ، فخرج مع يزيد ابن معاوية إلى الصائفة، فهلك هناك . فكتب به يزيد إلى معاوية فقال معاوية لأبيه زرارة : « أتاني اليوم نعي سيد شباب العرب » فقال زرارة : « ياسيدي هو ابني أو ابنك » فقال معاوية : « إنه ابنك . قال : للموت ما تلد الوالدة » أخذه سابق البربري فقال :

فللموت تَغْذو الوالداتُ سِخالها كما لخراب الدُّور تُبنى المساكنُ

وعلى أي حال فإن سابقاً كان يعيش في عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي العادل ، ولعله مغربي نزح إلى الشرق كما كان يفعل كثير من نابهي المغاربة يذهبون للحج وطلب العلم . وقد يطيب لهم المقام في الشرق فيقيمون ، وقد عرفنا كثيراً من أدباء المغرب وعلمائه فعلوا ذلك كابن خلدون والمقَّريّ ، وعبد الواحد المراكشي وغيرهم .

وفي خزانة الأدب وتاج العروس أنه سكن الرقة ودمشق .

يقول الأستاذ عبدالله كنون في مقال له عن سابق البربري هذا في مجلة دعوة الحق : « والمعتقد أن له ديواناً شعرياً يحوي جميع ما قاله في الأدب ، والأخلاق، والحكم والمواعظ إذ هي المواضيع الغالبة على شعره . ولم نقف له على شعر غيرها باستثناء ثلاثة أبيات قالها في قتال البربر والعرب مع الروم »[١] اهـ .

والبك طائفة من شعره لا تحتاج في معرض التعليق ، الى اكثر من القول إنها تدل على ان الرجل داعية خلق وواعظ بالشعر ، وانه قد سبق أبا العتاهية في شعر الزهد خلافاً لما يذكره مؤرخو الأدب من ان أبا العتاهية كان رائد شعر الزهد في الأدب العربي ، وانه يعد مفخرة المغرب في الشعر على حداثة عهد المغرب ـ في وقته ـ بالعربية كلغة محادثة فضلاً عن أن تكون لغة أدب وشعرٍ راق متين النسج صافي الديباجة كشعر سابق .

قال من قصيدة طويلة يعظ فيها عمر بن عبدالعزيز :

إِن الامور إِذا استقبلتَها اشتبهت وفي تدبُّرِها التبيان والعِبرُ

---

١ ـ هذا الى أن سابق البربري ، وسابق المطاطي شخص واحد ـ ارجع الى مقال الاستاذ كنون في العدد الأول من السنة الثانية ربيع ١٣٧٨ ـ سبتمبرسنة ١٩٥٨، والى الاستقصاء ج ١ ودليل مؤرخ المغرب ج ١ .

والمرء ما عاش في الدنيا له أمل إذا انقضى سَفرٌ منها أتى سفر
لها حلاوة عيش غيرُ دائمة وفي العواقب مِنها المُرُّ والصَّبرُ
إذا قضت زُمَرٌ آجالَها نزلت على منازلها من بعدها زُمَر
وليس يزجركم ما توعظون به والبَهْمُ يزجرها الراعي فتنزجر
أصبحتمُ جَزَراً للموت يقبضكم كما البهائم في الدنيا لكم جَزَر
لا تبطروا واهجروا الدنيا فإن لها غِبّاً وخيماً وكُفْرُ النعمة البطر
ثم اقتدوا بالأُلى كانوا لكم غُرراً وليس من أُمة إلا لها غرر
حتى تكونوا على منهاج أوّلكم وتصبروا عدم الدنيا كما صبروا

ومن شعره في الزهد ، وهو مما أورده الجراوي في كتابه « صفوة الأدب » المعروف « بالحماسة المغربية » :

النفس تكلَف بالدنيا وقد علمت أنّ السلامة منها تركُ ما فيها
والله ما قَنعت نفس بما رُزقت من المعيشة إلا سوف يكفيها
أموالُنا لذوي الميراث نجمعها ودُوْرُنا لخراب الدهر نبنيها
واللهِ ما عبرتْ في الأرض قاطرة إلا وصَرْفُ الليالي سوف يفنيها

ومن قوله في الحكمة :

تعاونْ على الخيرات تظفَرْ ولا تكن على الإثم والعدوان ممن يعاونُ
وداهِنْ إذا ما خفتَ يوماً مُسَلطاً عليك ولا يحتالُ من لا يداهن

هذا ولقد بلغ شعر سابق من الدقة والصحة والقوة أن أهل العربية وعلماء اللغة والأدب كانوا يحتجون بشعره ، ويستشهدون به .

عصر الادارسة (١٧٢ — ٣٧٥ هـ.)

كانت بين العلويين والعباسيين معارك كثيرة انتهت بموقعة «الفخ» (وادٍ بالقرب من مكة) سنة ١٦٩ هـ. التي هُزم فيها العلويون هزيمة شتتت شملهم وجعلت من نجا منهم يتلمس طريقاً للفرار من وجه العباسيين ، ومن هــؤلاء إدريس بن عبدالله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي فر الى مصر وساعده واليها على الالتحاق بالمغرب حتى نزل بمدينة وليلى والتجأ الى رؤساء قبيلة أوْربة بها ، ثم دعاهم الى بيعته فبايعوه ، وتوافد اليه البربر من كل فج ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة التي يشبعون بها نزعتهم الانفصالية .

وبعد ان استقر له الامر تجهز للغزو فكوّن جيشاً عظيماً جاب به بلاد المغرب طولاً وعرضاً حتى دانت له كلها . ثم تتبع الخوارج حتى قضى على حركتهم قضاء مبرماً ، وكان قد نزع طاعة الخليفة العباسي من المغرب وأزال كل سلطة دينية او سياسية للعباسيين . ويعتبر المؤرخون أن هذا هو الفتح الثالث للمغرب ، والأخير .

هذا وقد امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب من السوس الأقصى الى مدينة وهران بالجزائر ، وكان أزهى عصور دولتهم حكم ادريس الثاني ابن ادريس الفاتح ، ثم تقسمت الدولة بعد وفاته بين أبنائه وتضعضعت ودب اليها الوهن ، وما زالت كذلك مقسمة ، قد انتزع كل أمير جزءاً واستقل به ، حتى قضى عليهم العُبَيديون الفاطميون سنة ٣٧٥ هـ.

كان عهد ادريس الفاتح عهد إخماد للفتن ، ثم مات –في ما زعموا – مسموماً سنة ١٧٧، وخلفه وليده[1] إدريس الثاني الذي ولد في نفس العام الذي مات فيه أبوه ، وقد بويع بالخلافة وهو في سن صغيرة وخطب خطبة بليغة موجزة بهذه المناسبة [2]. وكان ملكاً مصلحاً ذا همة عـــالية وجد دولة مستقرة فانصرفت عنايته الى أعمال الإنشاء والتعمير. وهو الذي بنى مدينة فاس، فلما انتهى منها خرج غازياً بلاد المصامدة وبلاد المغرب الأوسط ، وترك بعده دولة كبـــيرة قد توفر لها كل مقومـــات الدولة المستقلة . ولم تتمتع البـــلاد بعده بشيء من الاستقرار الذي يمكّن القائمين بالأمر فيها من توجيه جهودهم الى نشر العـــلوم وتشجيع الآداب والفنون والأخذ بأسباب الحضارة .

الحضارة في عصر الادارسة :

سارت اللغة العربيـــة في أعقاب جيوش المـولى إدريس الأول وضربت أطنابها في كل مكان حل به ، وقد تدفق في هذا الوقت وفيما بعده ومـــا قبله علماء وفقهاء ودعاة للخوارج والشيعة والعباسيين في افريقيا وافتتحت الكتاتيب وأُسست الرباطات والمداشر ، فـــلم يكد يبزغ فجر القرن الرابع حتى صار البربر يزاحمون العرب في مدارسة اللغة بتونس والقيروان وتلمسان وفاس ، ويناظرون العلماء والفقهاء .

وتعددت مراكز الثقافة في المغرب من القيروان الى تاهرت الى سبتة وطنجة وسجلماسة وفاس وأصيلا .

وكان من أهم ظواهر المجتمع في ذلك الحين بروز العصبية العربيـة في عهد إدريس الثاني[3] وظهور طبقة المولدين بفعل الإصهار بين العرب والبربر، والتقدم الحضاري الممثَّل في أعمال الإنشاء والتعمير. وأبرزها في هذا الشأن إنشاء جامع

---

١ ـ يقال ان ادريس مات وابنه ما يزال جنيناً في بطن أمه وهي جارية من البربر .

٢ – أنظر ترجمته بهذا الكتاب ، ثم انظر في موضع آخر منه خطبته .

٣ ـ أنظر النبوغ المغربي جـ ١ .

القرويين الذي تبنته فاطمة الفهرية سنة ٢٤٥ هـ. في عهد يحيى بن محمد بن إدريس.

وفي هذا العصر اتخذ المغاربة من فريضة الحج وسيلة الى الرحلة والسياحة في الشرق وطلب العلم. وكانت رحلاتهم تستغرق الأعوام الطويلة ثم يعودون لينشروا في المغرب ما حصّلوه من علوم وثقافة ومعرفة وتجربة.

أما الأدب فقد تقدم نسبياً وظهرت فيه السمات الاولى للأدب المغربي وإن كان لم يتميز كثيراً عن الأدب في المشرق. والنصوص المحفوظة منه قليلة لا تكفي تماماً لأصدار أحكام دقيقة ومفصلة [1].

المولى ادريس الثاني

ورث المولى إدريس الثاني مُلك المغرب عن والده الذي أسس اول دولة عربية مستقلة بالمغرب الأقصى مقتطعة من جسم الدولة العباسية ايام هرون الرشيد.

بويع لإدريس الثاني عام ١٨٨ هـ وسنُّهُ إحدى عشرة سنة، فخطب في الناس خطبة بليغة سندرسها في النصوص.

وفي السنة التالية لبيعته وفد عليه وفود العرب من إفريقية والأندلس في نحو خمسمائة فارس، فاعتز بهم اعتزازاً شديداً لأنه كان كالغريب وسط البربر وقربهم اليه واسند الى بعضهم مناصب الدولة العليا كالوزارة والقضاء، وهكذا أثار حفيظة البربر عليه حتى كاد بعضهم أن ينتقض عليه، فقتَلَ بالشبهة وأرهب الباقي، فتوطدت سلطته.

ويقال إن سبب بنائه لمدينة فاس أن وليلى ضاقت بالوفود فأراد أن يبني

---

١) أنظر كتاب الأدب المغربي ص ١١٦ وما بعدها.
وكتاب النبوغ المغربي جـ١ ص ٤٨ وما بعدها.
وكتاب مظاهر الحضارة المغربية ص ٦٣ وما بعدها.
وكتاب ظهر الاسلام جـ١ ص ٢٩ وما بعدها.

لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصته ووجوه دولته . وقد أصبحت فيما بعد مقر القرويين مفخرة الجامعات الإسلامية وحافظة عروبة المغرب على كثرة ما تعرض له من تيارات وأعاصير مدمرة . وكما كان إدريس الثاني خطيباً مفوهاً كان كذلك شاعراً مجيداً . ومن شعره ما كتب به إلى أحد خاصته « بهلول » حين استماله خصمه ابراهيم بن الأغلب عامل العباسيين على تونس :

أبهلولُ قد جشَّمتَ نفسك خِطةً تبدلْتَ منها ضَلَّةً برشاد
أضلَّك إبراهيم مع بُعْد داره فأصبحتَ منقاداً بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكْرِ آبْنِ أغلب وقدماً رَمَىْ بالكيد كل بلاد

وخطبته إثر المبايعة دليل واضح على فصاحته وجرأته على صغر سنه .

قال بعض أصحابه :

لقينا الخوارج الصفرية من البربر وهم ثلاثة أضعافنا فلما تقارب الجمعان كان ادريس يضرب هنا وهناك حتى انتصف النهار فوقف بإزاء رايته يشجع الناس. فجعلت أُديم النظر اليه واعجب من ثباته وقوة جأشه . فالتفت إليّ وقال : مالك تديم النظر إليّ ؟ قلت : أيها الامير ، قد أعجبني منك خصال لم أرها في غيرك اليوم . وأخذ يعدّد له ما اعجبه منه وادريس يؤوّل ثم انشد متمثلاً بقول جده أبي طالب :

أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نملُّ الحرب حتى تملّنا ولا نشتكي مما يؤول من النصب

وقد صفا مُلك المغرب لإدريس واتخذ فاس عاصمة لملكه الى ان توفي في جمادى الآخرة من سنة ٢١٣ هـ وعمره نحو ست وثلاثين سنة . وكانت وفاته بفاس أو « وليلى » على خلاف .

مناقشة وبحث [1]

البحث الاول :(وضعت البذور الأولى للنهضة العلمية والأدبية في العصر الإدريسي . ما مظاهر هذه النهضة ؟ وما اسبابها ؟ وما ظروف النجاح التي توفرت لها ؟)

المراجع

النبوغ المغربي	للاستاذ عبدالله كنون ، الجزء الاول .
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى	للناصري ، الجزء الاول .
الأدب المغربي	لابن تاويت والصادق عفيفي .
ظهر الاسلام	لأحمد أمين ، الجزء الاول .
مظاهر الحضارة المغربية	لعبد العزيز بن عبدالله .
المفصل في الأدب العربي وتاريخه	لطه حسين وآخرين ج ٢ .
الموجز في الأدب العربي وتاريخه	لحنا فاخوري ج ٤ .
الجديد في الأدب العربي	لحنا فاخوري الجزء السادس .
تاريخ الاسلام السياسي	لحسن ابراهيم

البحث الثاني : (كانت فتنة الخوارج بلاء عظيماً أخـّر استعراب البربر وأطمع زعماءهم . ناقش هذا الرأي وبيـّن نصيبه من الصحة) .

المراجع

النبوغ المغربي ج ١ .	
مظاهر الحضارة المغربية .	
فتح العرب للمغرب	لحسين مؤنس .
نفح الطيب ج ٢	للمقري .
وفيات الأعيان	لابن خلكان .
مراكز الثقافة	لعثمان الكماك .
البيان المغرب	لابن عذارى ج ١ .

١ـ ملحوظة : اكثر ما نذكره من مراجع في هذا الكتاب موجود بمكتبة البلدية بالدارالبيضاء او الخزانة العامة بالرباط ومنها استقصينا مصادرنا زيادة عما بأيدينا من مراجع .

المرابطون (٤٦٢ – ٥٤١ هـ)

يعتبر يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين التي كان مركزها المغرب الأقصى وعاصمتها (مراكش)، وكانت تضم المغرب الأوسط والأندلس ، ولكن صاحب الفضل الأول الذي مهد الطريق ليوسف بن تاشفين هو عبدالله ابن ياسين الداعية والمصلح الديني . ولنذكر موجزاً تاريخياً نتعرف به الى الظروف التي قامت فيها هذه الدولة العظيمة التي وحدت المغرب وقضت على ما كان يسوده من تعفن وفساد ديني وسياسي :

خرج يحيى بن إبراهيم الكدالي أحد زعماء صنهاجة في رحلة الى الحج لقي فيها العالم الجليل ابا عمران الفاسي[1] فشكا إليه من فساد الامور وضعف الدين المتفشي في جهاتهم ، فكتب هذا الى من يرسل مع هذا الزعيم بعض الدعاة والمرشدين الدينيين ، فكان من هؤلاء عبدالله بن ياسين الجزولي الذي ذهب ومن معه يرافقون الزعيم الى بلاد كدالة آخر بلاد المغرب الأقصى غرباً ، وأخذ ينشر الدعوة الدينية بين قوم كانوا في جهالة تامة لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولكنه لم يجد إلا آذاناً صماء وقلوباً غُلْفاً، ولم يقدَّر له النجاح وأصابه ما يشبه اليأس فخرج وبعض الذين شرح الله قلوبهم لدعوته الى رباط ناءٍ في الصحراء وانقطعوا للعبادة وتطبيق تعالىم الدين في مجتمعهم هذا الصغير . وتناقل الناس أخبارهم فتوافدوا عليهم يعيشون عيشهم ويحيون حياتهم ، حتى اجتمع عنده

---

١ ـ انظر ترجمته في النبوغ ج ١ .

عدد كبير من أشراف صنهاجة سموا (المرابطين) من أجل ملازمتهم لذلك الرباط. ويذكر المراكشي في «المعجب» أن المرابطين قبيلتان عظيمتان : لمتونة ومسوفة .

فلما تكاثروا أمرهم بنشر الدعوة بين الآخرين ومن لم يستجب لهم منهم جاهدوه ، ففعلوا ما أمرهم به حتى نشروا دعوتهم في صنهاجة ثم في بقية البلاد كسجلماسة ودرعة وسوس . ودانت لهم كل هذه الجهات بالولاء والطاعة .

وتوفي ابن ياسين في معركة مع البرغواطيين الذين كانوا على فسادهم الديني من يوم أن ظهر بينهم مدّعو النبوة . وكان يلي أمر المرابطين حين استشهاده الامير أبو بكر اللمتوني ثم يوسف بن تاشفين الذي ما كاد يتسلم الامارة من ابن عمه حتى صال وجال يطهر بلاد المغرب من الإمارات المتناثرة. ونقل كرسي المملكة من فاس الى مراكش التي بناها سنة ٤٥٤ هـ. ، وكان يشارك العمال بنفسه في حمل الحجارة والبناء . ولم يكد يستقر الأمر له بالمغرب ويدين له بالطاعة المغربان : الأوسط والأقصى وبعض بلاد السودان والصحراء سنة ٤٧٥ هـ. حتى استدعي الى تونس لينقذ المسلمين من عدوهم (الفونس السادس) ملك قشتالة في شمال اسبانيا. وانتصر انتصاراً حاسماً في وقعة (الزلاقة) المشهورة سنة ٤٧٩ هـ. ثم ذهب الى الاندلس مرة أخرى ليزيل عنها عبث ملوك الطوائف .

وفعل ابن تاشفين مكرمة أخرى حين كتب الى المستظهر بالله الخليفة العباسي في بغداد يدين له بالطاعة ويطلب منه أن يقره على ما بيده من بلاد المغرب ، قاصداً بذلك توحيد البلاد الاسلامية في مشرق ومغرب ، فقلده المستظهر عهده وسماه (أمير المسلمين) .

وما زال هذا الأمير العظيم يجاهد الى ان توفي سنة ٥٠٠ هـ. على أرجح الأقوال[١].

وتولى أمر المرابطين بعده ابنه علي بن يوسف. وكان تقياً شجاعاً ميالاً الى

---

١ – في المعجب أن وفاته كانت سنة ٤٩٣ هـ.

الإنشاء والتعمير وتشجيع العلم والعلماء ، إلا ان الفقهاء قد غلبوا عليه وتحكموا في دولته. وفيما يشبه ذلك يقول بعض الشعراء يهجو الفقهاء الذين أثروا وجمعوا الأموال بسبب قربهم من السلاطين والأمراء[1] :

أهلَ الرياء لبستمو ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم في العالم

ثم إن أكابر المرابطين استبدوا في أواخر ولايته ببعض البلاد « واستولى النساء على الأحوال وأسندت اليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور. وأميرُ المسلمين في ذلك كله يتزايد تنافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين»[2] كان هذا في الوقت الذي ظهرت فيه دعوة المهدي بن تومرت رائد الموحدين .

وتوفي علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ. عاهداً بالأمر بعده الى ابنه الصبي تاشفين الذي انتحر آخر الأمر فراراً من ان يقع في قبضة الموحدين .

١ ـ هو الشاعر الاندلسي ابن البني يهجو قاضي قرطبة .
٢ ـ المعجب ص ١٧٧ .

١ - الحضارة في هذا العصر

عرف المجتمع المغربي الوحدة الشاملة في عصر المرابطين لأول مرة في تاريخه، بل لقد طوى صفحة تاريخ المغرب والأندلس وجمعها معاً ، وبرزت القومية المغربية محققة آمالها في الاستقلال بأمورها وتحقيق ذاتها والتخلص من التبعية الحقيقية ، وازدهرت الحياة والعمران ، وراجت سوق العلم والأدب ، وقامت الصناعات الكبيرة ، وارتفع مستوى المعيشة .

ازدهرت الصناعات وانتشر الرخاء ، وأهم هذه الصناعات مصانع صهر الحديد والنحاس بفاس ، ومصانع الزجاج وأفران الجير ومعامل الصابون والورق .. وغير ذلك .

وصحب هذا التقدمَ الصناعي تقدمٌ زراعي ورقيٌّ حضاري وعقلي وترف معيشي ظهر أثره في العمارة التي تأثرت الى حد كبير بهذا الفن في الأندلس، لا سيما بعد ذهاب المرابطين الى الأندلس . ففي عهد علي بن يوسف بن تاشفين الذي جدد بناء القرويين وزاد فيها زيادات مهمة وأسس الجامعة اليوسفية — بنيت قصور ومساجد ومدارس من أروع ما عرف المغرب .

وصارت «مراكش »—حاضرةُ المغرب في عهد المرابطين — منتدى الأدباء والشعراء وملتقى الحكماء والعلماء ، جمعهم يوسف من الأندلس ووفدوا عليه من القيروان ومن المشرق . ودُرست في « جامعة مراكش » التي بناها العلوم الرياضية والطبيعية . وفي الجامعة اليوسفية التي أسسها علي بن يوسف تخرج

الأطباء والصيادلة والمعماريون والرياضيون والمهندسون ، وهذا كله غير ما كانت تخرّجه جامعة فاس من العلماء في مختلف فروع الثقافة والمعرفة ، فلا عجب أن نهضت الثقافة المغربية نهضة شاملة كان من مظاهرها اتضاح الشخصية المغربية العلمية والأدبية ، وقد غذى حركتها الاستقرار والكفاية والمقدرة والتحضر .

وفي الحقيقة لقد كان فتح المرابطين للأندلس خيراً وبركة على النهضة الثقافية والحضارية في المغرب اذ نقلوا حضارتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم فتزاوجت الحضارتان ولا تزالان كذلك حتى الآن في كثير من المظاهر . فأنت حينما تزور جنوب اسبانيا وتشاهد فن العمارة وذوق المعيشة والأخلاق في اشبيلية وقرطبة وغرناطة تكاد تظن نفسك في فاس ومراكش لولا السِّحَنُ واللسان .

وهكذا وجدنا نهضة حضارية شاملة جاءت نتيجة التقدم الصناعي والزراعي والعلمي والأدبي والفني :

يقول صاحب المعجب : «فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم » وقد نبغ في هذا العصر علماء كثيرون[١] سنترجم منهم للقاضي عياض .

مناقشة

«في عصر المرابطين تميزت الحركة العلمية والأدبية ببدء بروز الشخصية المغربية وتميُّزها عن النهضات في الشرق والأندلس بخصائص تجعلنا نحكم بأننا بدأنا نلمس مركزاً جديداً متميزاً من مراكز الثقافة العربية أسهم في تكوين هذه الثقافة بحظ لا بأس به . »

حقق هذه القضية وبرهن على صحتها .

---

١ ـ انظر تفصيل ذلك في النبوغ ج١ من ص ٦٥ وما بعدها .

المراجع

١ ـ وفيات الأعيان — لابن خلكان .
٢ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب — لعبد الواحد المراكشي .
٣ ـ الأدب المغربي — لابن تاويت والصادق عفيفي .
٤ ـ القرطاس — لابن أبي زرع .
٥ ـ النبوغ جـ١ — لعبدالله كنون .
٦ ـ التعاشيب — لعبدالله كنون .
٧ ـ الكامل — لابن الاثير .
٨ ـ المراكز الثقافية — لعثمان الكعاك .
٩ ـ البيان المغرب — لابن عذارى .
١٠ ـ دليل مؤرخ المغرب الأقصى — لابن سوده .
١١ ـ قلائد العقيان — للفتح بن خاقان .

٢ – القاضي عياض (٤٧٦ – ٥٤٤ هـ)

جمع أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي معارف متنوعة أظهر فيها كلها تفوقاً قلّ أن يكون لمثله في مثلها مجتمعة ؛ فهو محدِّثٌ مفسّرٌ فقيهٌ أصوليٌّ نحويٌّ لغوي كاتبٌ شاعرٌ خطيب .

وقد خلّف مؤلفات ومنشورات في ذلك كله تشهد بعبقرية ونبوغ .

رحل الى الاندلس في العقد الثالث من عمره لتلقي العلم ، ثم عاد بعد أن تلقى عن أكثر من مائة شيخ ، واشتهر بلقب القاضي لأنه كان قاضياً في سبتة وفي غرناطة أكثر عمره ، وقد عاصر أواخر الدولة المرابطية وأوائل الموحدية ، وحدثت ببلدته سبتة فتنة واضطراب ضد الموحدين اتهم فيها القاضي عياض فأخذ إلى مراكش منفياً فلم يلبث أن مات بعد سنة من تغريبه بها .

وأشهر مؤلفات القاضي عياض : مشارق الأنوار ، الشفاء ، المدارك ، التنبيهات . وهي كتب مشهورة تغني شهرتها عن التعريف بها [١]

وللقاضي عياض رسائل وخطب واشعار [٢] سنتناول بعضها في منتخبات له في قسم النصوص من هذا الكتاب فارجع اليها في موضعها منه .

---

١ ـ انظر تفصيل ذلك في ظهر الاسلام ج ٣ والنبوغ ج ١ ، وقلائد العقيان ، والمعجب .

٢ ـ انظر بعض أشعاره في كتاب الأدب المغربي من ص ١٥١ وما بعدها وكتاب النبوغ المغربي ج ٣ مفرقا .

كان القاضي عياض معاصراً للفتح بن خاقـــان الوزير والأديب الأندلسي المشهور وقد[1] ترجم له وأتى على بعض إنتاجه في كتابه (قلائد العقيان) الذي جمع فيه كل شهير من العلماء والأدباء والوزراء والأمراء .

وأسلوب القاضي عياض في مؤلفاته هادىء واضح ، أما في رسائله فقد فشا الاهتمام بالزخارف اللفظية شأن أدباء ذلك العصر[1] حتى كاد بعضهـا ان يكون غامضاً أفسده التكلف .

مناقشة

حاول ان تقوم بدراسة لكتاب القاضي عياض : « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » :

١ً) موضوع الكتاب . ٢ً) طريقته في إيضاح المعلومات ورأيـك فيها . ٣ً) اسلوب الكتاب وهل تراه يناسب الموضوع . ٤ً) الربط بين هذا الاسلوب ومـــا ساد الأندلس والمشرق من اساليب التأليف[2] . ٥ً) القيمة العلمية لهـذا الكتاب .

واستعن على ذلك بالمراجع الآتية :

١ – ازهار الرياض في اخبار عياض للمقري .

٢ – شرح « الشفا » للقاري علي او غيره من الشروح .

٣ – الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج٢ .

---

١ – أنظر رسالته التي حملها للفتح بن خاقان .

٢ – استعن على هذه المقارنة بالكتب الآتية :

قلائد العقيان لابن خاقان – إحياء علوم الدين للغزالي – حي بن يقظان لابن الطفيل .

الموحدون (٥٢٤ – ٦٦٧ هـ)

قد عرفنا ان الدولة المرابطية قامت على اساس ديني من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكذلك الشأن في الدولة الموحدية التي قامت لإصلاح الفساد وهداية الناس الى طريق الدين الصحيح .

وكما كان للمرابطين رائد ديني دعا أتباعه للجهاد وأخذ المخالفين بالعنف والشدة ، فكذلك كان للموحدين رائد ديني أمر أتباعه بجهاد المخالفين . كان هناك عبد الله بن ياسين وكان هنا المهدي بن تومرت ، وكلاهما مات قبل أن يرى أمله يتحقق تماماً . وكما خلفَ عبدالله بن ياسين يوسف بن تاشفين فقد خلف محمدَ بن تومرت عبدُ المؤمن بن علي ، وهم جميعاً من البربر[١] ، الأولون من صنهاجة والآخرون من مصمودة ، وكما غزا يوسفُ الأندلس فقد غزاها عبد المؤمن ايضاً .

تشابهت الدولتان في اشياء كثيرة حتى في قصر كل منهما كما أشبهت بداية كل منهما نهايتها وما كان ينتظر لها .

فقد ظهر ابن تومرت والدولة المرابطية في عنفوان قوتها وأوج استقرارها واطمئنانها ، كان داعية دينياً لا يبدو أن وراء دعوته مطمحاً سياسياً ، ولعل دعوته لم تنقلب هذا الانقلاب السياسي إلا بعد ان ناوأه العلماء أولاً وأمراء

---

١ ـ وجد بخط المهدي أنه ينسب نفسه الى حسين بن علي بن أبي طالب كما ستعرف هذا في ترجمته .

المرابطين ثانيــاً . وخرج من مراكش مطـــارداً الى قبائل المصامدة بالسوس الأقصى متجهاً بدعوته الى الشعب [1] يخاطبه بلغته البسيطة ويجذبه اليه جذبـاً قوياً ، ولما بدا خطره على الدولة أرسلوا إليه كتيبة سنة ٥١٥ هـ . وهو بجبـل تينمل بالسوس . فما أيسر ما هزمها ، ومن يومئذ والحرب سجال بينه وبـين المرابطين حتى قضى شاباً سنة ٥٢٤ وقد عهد إلى عبد المؤمن بن علي الكومي .
وخرج عبد المؤمن من تينمل سنة ٥٣٤ في تجارة طويلة مع بلاد المغربين الأقصى والأوسط ، وخلصت له مملكة المرابطين اواخر سنة ٥٤١ [2] ثم بدأ يهتم بأمر الأندلس ، وقد أتاه وفدها الى مراكش مبايعاً سنة ٥٤٢ هـ ، ثم بعد أن مـد ملكه مع بقية الشمال الافريقي حتى برقـة (سنة ٥٥٥) هـ ـ عبر الى الاندلس (سنة ٥٥٦) .

ولم يلبث عبد المؤمن أن توفي سنة (٥٥٨ هـ) بعد ان عـــاد الى المغرب وأرسى قواعد الدولة الوليدة ووحد أقطـار الشمال الإفريقي ، وكانت دولة الموحدين في عهده تـكاد تكون أقوى دولة على وجه البسيطة . وتولى بعده ابنه يوسف [3] الذي ما لبث أن عبر الى الأندلس (سنة ٥٦٧ هـ) وبقي فيهـا بضع سنوات يشيد ويعمر ، ثم عـــاد الى افريقية يصلح وينظم ثم عاد الى الأندلس مرة اخرى وتوفي بها سنة ٥٨٠ هـ . وخلفـــه يعقوب [4] المنصور أشهر الموحدين وأكثرهم ميلاً الى الاصلاح والعمران مع ما توفر له من أسباب ، فكان عصره العصر الذهبي للموحدين وللمغرب بحق وبلغت الدولة في عهـــده أوج عظمتها وقوتها واستبحر عمرانها وازدهرت حضارتها .

وكان له فضل كبير في تعريب الصحراء المغربية بالمغرب الأقصى بنقل عرب هلال وسليم من الجزائر وتونس إلى اقصى الصحراء ، وكان يقصد الى حصرهم هناك اتقاء شرهم ـ إذ كانوا يعيثون فساداً بغـــاراتهم المتوالية على المدن

---

١ ـ أنظر ترجمة ابن تومرت في هذا الكتاب . ٢) انظر الكلام عن المرابطين في هـــذا الكتاب . ٣) لقبه «ابو يعقوب» . ٤) لقبه «ابو يوسف» .

والقرى ـ فأصبح نقلهم خيراً وبركة

ووالى المنصور خطة آبائه في الاهتمام بالأندلس ، واشتبك مع الفونس السادس ملك قشتالة في غزوة « الأراك» سنة ٥٩١ هـ وانتصر انتصاراً ساحقاً.

ولما توفي المنصور عام ٥٩٥ هـ وخلفه ابنه محمد الناصر حدثت موقعة «العقاب» مع القوات الصليبية بالأندلس وهُزم فيها ففتّ ذلك في عضده وعضد الدولة الموحدية والأندلسيين أيضاً ، ومن يومئذ بدا أن دولة الموحدين صائرة الى اضمحلال وإن استمرت بعد ذلك نحو نصف قرن من الزمان .

كان الموحدون قد قطعوا صلة المغرب بالعباسيين ، وبعد أن كان أمراء المرابطين يتخذون لقب « أمير المسلمين » الذي لقبهم به الخليفه العباسي — تجرأ الموحدون واتخذوا لأنفسهم لقب « أمير المؤمنين » وهو لقب لم تجر العادة أن يتلقب به إلا الخلفاء من قريش في المدينة ودمشق وبغداد . والحق أن الموحدين كانوا جديرين بهذا اللقب إذ قاموا بنشر الدعوة الاسلامية والجهاد في سبيلها وتقوية الدولة وبسط سلطانها على أصقاع كبيرة .. الى غير ذلك مما لم يتوفر للخلفاء العباسيين المعاصرين لهم في الشرق ، هذا الى أن المغرب كان يتوق دائماً الى تحقيق ذاته وإبراز شخصيته . وقد وجدها فرصة ودولته أقوى أمم الأرض ، ولها اسطول بحري ضخم وجيوش جرارة ومشاركة في العلوم والفنون والفكر والحضارة ...

الحضارة في عصر الموحدين

كانت دعوة الموحدين دعوة توحيد وتجديد للمفاهيم الإسلامية تجديـــداً صاحبه الاهتمام بعلوم الفكر والحكمة والرياضة والكيمياء والطب والهندسة..الخ، واتجاه كهذا يستتبعه ولا ريب جولات تطبيقية إبداعية متى توفر الاستقرار والرخاء ، وهذا ما كان في عصر الموحدين مما سنفصله — إلى حد ما — في هذا البحث :

كان عهد عبد المؤمن عهدَ فتوح وحروب ، وحينما عـــاد من الأندلس أمر بانشاء أسطول كبير واستجلاب الخيـــل والإكثار من العدة والسلاح ، ولم تتوقف مع هذا حركات العمارة الـــتي نقلت عن الأندلسيين أيام المرابطين . واستمرت كذلك الحركات العلمية والأدبية وحظيت بتشجيع هـــذا الخليفة العظيم. وقد حدثتنا كتب الأدب التي تحدثت عن الموحدين– ككتاب المعْجب وغيره — عن هـــذا الحشد العظيم من الأدباء والشعراء الذين حضروا مجلس عبد المؤمن في جبل الفتح (جبل طارق) حينما عبر الى الأندلس ، وكيف أنه أجازهم بجوائز سنية تدل على مقدار تذوقه للأدب وإعجابه بالجيد منه ، ومما روي في ذلك أن الطليق المرواني الشاعر انشده :

ما للعِدا جُنَّة أوقى من الهرب

فقال عبد المؤمن : إلى أين ؟ إلى أين ؟ رافعاً بها صوته .

فقال الشاعر :

أين المفرُّ وخيل الله في الطلب؟
وأينَ يذهب من في رأس شاهقةٍ
وقدْ رمتْه سماء الله بالشهُب؟
حدثْ عن الروم في أقطار أندلس
والبحرُ قد ملأ العِبْرَيْن بالعرب

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا تمدح الخلفاء[1] . وقد نظم عبد المؤمن المملكة وبنى الدور واتخذ القصور وأمّن السبل وأحسن الى الرعية ومهد لمن جاء بعده السبيل .

حتى إذا جاء ابنه يوسف رأينا حركة علمية كبيرة ورأينا يوسف نفسه مشاركاً في علوم الحكمة والفلسفة مجالساً لابن طُفَيْل الفيلسوف الاندلسي العظيم ، وتلميذه ابن رُشد أعظم فلاسفة العصر ، والطبيب الكبير ابي بكر بن زهر الذي لازم من بعدُ يعقوب المنصور وكان مختصاً به .

واستبحر العمران أيام المنصور وزهت الحضارة وتقدم فنّ المعمار بتقدم حركة البناء والهندسة . وقد بنى مدينة الرباط[2] وقصبة مراكش وجامعها الفخم ، ومنار الكتبية بها ، ومنار حسان بالرباط ، ومنار الخيرالدة بأشبيلية ، وكان في جامعه بمراكش مقصورة ومنبر يتحركان

---

١ ـ المعجب ص ٢١٥ ـ وانظر الصفحات بعدها ، و ص ٢٠١ .

٢ ـ في المعجب ص ٢٦٦ : «وبنى فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جداً لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه ، وعمل له مئذنة في نهاية العلو على هيئة منار الاسكندرية يصعد فيه بغير درج ، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص .. »

(اوتوماتيكياً) فيبرزان دفعة واحدة لدخوله ويغيبان لخروجه ، وهذه براعة هندسية عجيبة في مثل ذلك الوقت ، وكانت المقصورة تتسع لأكثر من ألف رجل .

ومما قيل في هذه المقصورة[1] قصيدة لابن جبر منها

طوراً تكون بمن حوته محيطةً فكأنهــــا سور من الأسوار
وتكون طوراً عنهمُ مخبوءةً فكأنهــــا سرٌّ من الأسرار
وكأنّما علمتْ مقادير الورى فتصرفت لهمُ عـــلى مقدار
فإذا أحسّت بالأمير يزورها في قومه قــامت الى الزوّار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده كتكوّن الهالات والأقمـــار

وقد بنى المنصور عدة مساجد ومدارس في إفريقية والاندلس ، وفي المغرب أيضاً. واقتدى به الامراء وابناء الشعب، وله ولهم آثار من ذلك في سلا وسبتة وغيرهما .

وقد بنى بمراكش مستشفى عظيماً لم يكن في الدنيا مثله على مـــا يظن صاحب المعجب[2] « .. وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيـه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح..زيادة على اربع برك في وسطه احداها من الرخام الابيض الخ ... »

يقول الاستاذ كنون في كتاب النبوغ ج ١ ص ١٣٩ تعليقـــاً على وصف المستشفى : « وفي هذا الوصف دليل على تقدم علم النبات والفلاحـة فضلاً عن الطب والكيمياء ، وبستان المسرة أعظم دليل على ذلك ، وهو بستان احــدثه

١ ـ بنى المقصورة الحاج يعيش المهندس الذي بنى لعبد المؤمن جبل الفتح .
٢ ـ انظر المعجب ص ٢٨٧ في وصف هذا المستشفى العظيم .

عبد المؤمن بضاحية مراكش طوله فيما يقول ابن عذارى[1] وصاحب الحلل[2] ثلاثة اميال وعرضه قريب من ذلك ، فكان فيه كل فاكهة تشتهى ، وجلب اليه الماء من أغمات زيادة على ما استنبط له من العيون الكثيرة ، وانشأ فيه صهريجاً واسعاً الخ ...)

وانظر الى ما فعلوه في تحلية المصحف العثماني « شرعوا في انتخاب كسوته واخذوا في اختيار حليته وتأنقوا في استعمال احفظته ، وبالغوا في استجادة أصونته ، فحشروا له الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية ... فاجتمع لذلك حذّاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلّدين وعرفاء البنائين[3] ... » الخ.

من ذلك كله ندرك مدى الترف والحضارة والعمران الذي عاش فيه الناس في عصر الموحدين ، والواقع أن من الاسباب البارزة لهذه النهضة :

١ – استمرار الهجرة من وإلى الاندلس والقيروان والمشرق . ولا تنسَ أن المهاجرين سواء أكانوا من المغاربة أو ممّن إليهم هم من نبهاء الناس وأذكيائهم وعلمائهم وأدبائهم ومتحضريهم وجيوشهم وقوادهم .

٢ – تشجيع الموحدين لحرية الفكر واحتضانهم لكبار المفكرين كإبن طُفَيْل وابن رشد وابن زهر ، مما جاء بنهضة فكرية وعلمية ورأينا أمثال الفيلسوف المتصوف أبي العباس السبتي واضع قواعد الاشتراكية علمياً وعملياً ، ويوسف بن شمعون الطبيب الاسرائيلي الفاسي الذي جاب مصر والشام والهند ، وعبد الواحد المراكشي خير مؤرخ للحركة الفكرية والأدبية في عصري المرابطين والموحدين والشريف الإدريسي مفخرة المغرب والعرب في

---

١ ـ في كتابه (البيان المغرب في أخبار المغرب) .

٢ ـ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لابن سماك العامري المالقي (ينسب الكتاب الى غير واحد ...) .

٣ ـ أنظر النبوغ جـ١ ص ٠. ١٤١٠ ، ١٤٢ تر وصفاً عجيباً لابن طفيل للاحتفال بتزيين المصاحف وما فعلوه وما جمعوا له

الجغرافيا وعلوم أخرى كثيرة ، والذي ساح في شمال إفريقية وآسيا الصغرى والأندلس وصقلية[1] ، وابن الياسمين المنطقي المهندس المنجم الرياضي الذي نظم أرجوزة رائعة في الجبر . ومن الأدباء والعلماء [illegible] عدد من النابغين لا يحصى. وقد أنتجوا كلٌّ في ميدان [illegible] جاً غزيراً ونحن نخص بالذكر منهم :

١) ابن معطٍ صاحب الألفية المشهورة في النحو التي نسج على منوالها ابن مالك صاحب الألفية المتداولة ، ٢) ميمون الخطابي الشاعر الذي يقارنه كثير من الباحثين بالمتنبي بعداً وقولاً وحكمة وفلسفة ، ٣) أبو العباس الجراوي الذي لا يقصر عن أبي تمام ، ٤) أبو جعفر بن عطية الذي قال فيه عبد المؤمن: ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه، ٥)ابن حبوس أول شاعر أنشد عبدالمؤمن في حفل جبل الفتح المشهور. .وغيرهم.هذا ونؤكد هنا أن الأدب المغربي أصبحت له شخصية واضحة متميزة في عصر الموحدين من أهم خصائصها البساطة والخلو من الزخارف اللفظية أو عدم تكلفها — كما هو الشأن في الآداب المماثلة حينئذ في الشرق والأندلس حتى فسد الكلام هناك أو كاد — وخلوه من السفاسف والتوافه الشائعة في الأدب العربي إذ ذاك .

كذلك امتاز هذا الأدب بالروح الدينية التي كانت عليها الدولة ، وبالتعبير عن مشاعر البيئة المغربية وأحداثها .

هذا وإن كان النثر ظل تابعاً — الى حد ما — للنثر الاندلسي .

٣ — تشجيع الترجمة والعلوم الحديثة كالكيمياء والتنجيم والجبر والهندسة والجغرافيا والطب .. الخ .

وقد نظم المغاربة بعض هذه كما رأينا في نظم ابن الياسمين للجبر .

---

١ ـ أنظر ترجمته في موضعها من هذا الكتاب .

٤ – تشجيع حركة الإنشاء والتعمير ، وقد جعل الأمراء من أنفسهم قدوة يقتدي بها الناس في إنشاء المدارس والمساجد والمستشفيات والمتنزهات والدور والقصور ، واهتموا بالزخارف والزينة ، حتى في خزانات الكتب الكثيرة التي أنشأوها وفي المستشفيات .

٥ – الترف والنعيم الذي نعم به الناس نتيجة لاتساع رقعة الدولة وانتشار الأمن والرخاء فيها .

وننقل هنا عن النبوغ المغربي ما استفاده من مؤلف مخطوط وهو يبيّن لنا مدى الترف في المآكل والمشارب مثلاً :

(تحدث إلينا عن خمسمائة لون من ألوان الطعام والشراب والحلوى والمربى وما إلى ذلك مما كان يعمل للخلفاء الموحدين والامراء منهم ورجال دولتهم ، ومنه ما يحمل اسم بعضهم لكونه يعجبه أو من اقتراحه ...)

هذا وقد شاركت المرأة في هذه النهضة وبنت مع البانين في أسس هذه الحضارة وفروعها .

مناقشة

١ – في هذا العصر نبغ كثير من المغاربة في فن الموشحات والأزجال (الملحون) وفي شعر الموالد . حقق ذلك وابحث عن أمثلة له .

المراجع

١ المعجب في تلخيص أخبار المغرب
٢ المطرب من أشعار المغرب — تحقيق ابراهيم الأبياري
٣ البيان المغرب في أخبار المغرب — لابن عذارى
٤ النبوغ المغربي — لعبد الله كنون ج ١ ، ج ٣
٥ نفح الطيب — للمقري

٢ – شجع الموحدون الأدباء والعلماء . ما أثر ذلك على الإنتاج العلمي والأدبي ؟ اضرب أمثلة لذلك ببعض المؤلفات العلمية وتتبع أثر الروح المغربية في بعض هذه المؤلفات مستقلة عن التيارات الشرقية والأندلسية .

المراجع

١ النبوغ المغربي ج ١

٢ الموجز في الأدب العربي وتاريخه ج ٤

٣ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية

٤ وفيات الأعيان — لابن خلكان

٥ المعجب — للمراكشي

٦ البيان المغربي — لابن عذارى

٧ القرطاس — لابن أبي زرع

ابن تومرت (٤٨٥ – ٥٢٤ هـ)

في قبيلة هرغة إحدى قبائل المصامدة بجبل السوس ولد محمد ابن تومرت الذي عرفه التاريخ فيما بعد باسم « المهدي » والذي وضع اللبنة الأولى لأساس اكبر دولة عرفتها مراكش في تاريخها (دولة الموحدين) ، ومن اكبر الدول التي عرفها المسلمون .

شب شغوفاً بالعلم ، ولم يكد يتلقى علومه الأولى بالمغرب حتى فكر في الرحلة لطلب العلم ، فرحل اولاً الى الاندلس سنة ٥٠١هـ. حيث قرأ كتب ابن حزم في قرطبة . وابن حزم غلب عليه مذهب الظاهرية وألف في الدفاع عنه وهو المذهب الذي كان عليه المرابطون والذي من أجله أُحرقت نسخ كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي في الاندلس وفي المغرب . ورأى ذلك المهدي بنفسه فترك عنده اثراً انتهى به الى لقاء الغزالي نفسه في بغداد والدراسة عليه . فقد رحل الى بغداد بعد ذلك ـ بالمشرق ـ وهناك تشبع بالافكار الحرة ، وبالمذاهب الفلسفية والكلامية ، ولما اتصل بالامام الغزالي الفيلسوف الصوفي وسمع دعاءه على المرابطين بتشتيت ملكهم وزوال دولتهم – رشح هو نفسه لذلك[١] .

وحصل على علم غزير ، وكان الى ذلك لسِناً فصيحاً مما رشحه لأن يكون

---

١ ـ هذا رأي يعتمد على أن الغزالي حين دعا على علي بن يوسف بن تاشفين الذي أحرق كتبه ـ قال : (ليذهبن عن قليل ملكه وليقتلن ولده وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا) فطمع ابن تومرت أن يكون هو المقصود ..

فيما بعد داعية من الطراز الأول ، وقد بدأ دعوته الى التط وهو في طريق عودته الى المغرب، فلم يكن يرى منكراً إلا سارع إلى تغييره بعنف وقوة وبطريقة عملية (فعل ذلك في الاسكندرية والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وغيرها ، فكان يريق الخمور ويكسر آلات الطرب واللهو ، ويغلظ على اهل المجون ، ولعل هذا يدلنا على ان الرجل لم يكن في بدء دعوته يهدف إلى ملك أو دنيا إذ قد فعل ما فعل وهو بعيد عن وطنه [1] .

فلما وصل الى المغرب ونشر آراءه حاربه الفقهاء، إذ كان مذهبه «التأويل» ومذهبهم « التجسيم » ، وهذه نقطة خلاف كبيرة بين علماء المسلمين في ذلك الحين فرّقتْ علماءهم في المشرق وجعلتهم شيعاً وأحزاباً . وخلاصة المسألة أن بعض ألفاظ القرآن والحديث يوهم ظاهرها أن الله يشبه المخلوقات ، مثل قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ، مع أن العقيدة الاسلامية الأساسية هي أن الله ليس كمثله شيء وأنه ليس جسماً ولا مادة وأنْ لا مكان يحيط به ولا زمان يحده ، فكيف تفسر الآية وأمثالها وهو كثير ؟

رأى بعضهم أن تُفهم بحسب ظاهرها فقالوا: له يد ولكن ليست كأيدينا . فهؤلاء هم علماء الظاهر الذين يقولون بالتجسيم على ما يبدو . وفريق آخر من العلماء جنح إلى التأويل . فقال : إن المراد باليد القوة والقهر أو نحو ذلك من الصفات . وهؤلاء هم علماء التأويل .

أنكر علماء المرابطين نظرية التأويل التي جاء بها المهدي وحاربوه وحاربوا كل ما أتى به ، وكل ما دعا إليه ، لا سيما وأن دعوته زلزلت الأرض تحت أقدام الدولة المرابطية لأنه كان يتهم الحاكمين بالتهاون في الدين وغض النظر عن استشراء الفساد واستحداث البدع .

وإليك خبراً يدلك على اتجاهه واتجاههم :

---

١ ـ النبوغ المغربي جـ ١ .

دخـــل المهدي بن تومرت وأصحابه الى مراكش وقد جـاهر بدعوته ، فذهب الى المسجد الجامع فوجد علي بن يوسف أمير المسلمـين فوعظه وأغلظ له القول ، فقـــال الوزراء لابن تومرت : سلم على الامير سلام الخلافة ، فقـال ابن تومرت : وأي أمير ؟ إنمـا أرى جواري منقّبات (كانواملثّمين) فأزال الأمير النقاب عن وجهه وقـــال : صدق . فلما رآه ابن تومرت قـــال له : « الخلافة لله لا لك يا علي » . وتمادى في ذلك وجادل العلماء الحاضرين .

وجمع له الأمير مجلساً بعد ذلك . فسأله أحدهم : « مـا هذه الاقوال التي تنقل عنك في حق الملك العادل المنقاد الى الحق والمؤثر لطاعة الله على هواه ؟ »

قال ابن تومرت : « إن مـــا نقل عني قد قلته حقاً ولي من ورائـه أقوال أخرى . أما قولك إن ملككم عادل منقاد للحق مؤثر طاعة الله على هـواه ، فهذه أقوال تقولونها وتنصرونه بها مع علمكم بأن الحجة متوجهـة عليه ، فهل بلغك أيها القاضي أن الخمر تباع في هذه الديار جهـاراً ، وأن الخنازير تمشي بين المسلمين ، وان أموال اليتامى تؤكل ظلماً وعدواناً .. »

فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء .

ونصحه العلماء بسجن الرجل وأتباعه فلم يستبح ذلك[1] .

ولما لم يجد عند العلماء خيراً بل وجد حرباً وإعاقة اتجه الى العامة يعقد لهم المجالس ويقيم حلقات الدروس ويعظهم بالبربرية أو العربية بقدر ما يفهمون . وأخذ يؤلف لهم الكتب – وكان الأمير قد نفاه عن مراكش فنزل بالسوس – وكان رجلاً مهيباً قد وهب قوة التاثير وجذب القلوب – فاجتمع الناس حوله وأحاطوا به يؤمنون بدعوته .

وأصبح ابن تومرت سلطاناً غير متوج ، فلمـــا أحس المرابطون بخطـره حاربوه فحاربهم: ينتصر عليهم مرة وينتصرون عليه تارة، الى ان وافته المنية

---

١ ـ ابن خلكان .

شاباً لم يجن ثمرة عمله ، ودفن في تينملّ حيث صار قبره محجاً ، وبالغ الشيعة في تعظيمه حتى جعلوه كالكعبة .

وقد ترك ابن تومرت كثيراً من الخطب والوصايا والمواعظ وبعض المؤلفات مثل « أعز ما يطلب » و « المرشدة » .

وكان قد خلط في دعوته بين المهدوية وأنه المهدي المنتظر وبين الإمامية التي يقول بها الشيعة ، وورث دعوته من بعده مخلص عبد المؤمن بن علي الكومي ، وكانا قد تقابلا في بجاية . وكان ابن تومرت قد عاد من المشرق وكان عبد المؤمن قد اعتزم الرحيل إليه ، فلما حضر درسه ، وجد فيه بغيته ، حثه على البقاء معه فعدل عن رحلته الى المشرق . وقد أفضى إليه المهدي بذات نفسه وخبيئة ما عنده ، ثم كان هذا وارثه من بعده فلم يضع السيف حتى جعل دولة المرابطين في ذمة التاريخ .

وسترى في المنتخبات نماذج من نثره وسترى أنه في القمة من البلاغة الصادرة عن طبيعة لا تكلف فيها ولا تعمّل . وله شعر من الطبقة العالية ايضاً . من ذلك في التصوف :

أخذتَ بأعضادهم إذْ نأوْا وخلَّفكَ القومُ إذ ودّعوا
فكم أنتَ تنْهَى ولا تنتهي وتُسمِع وعظاً ولا تسْمَعُ
فيا حَجَرَ السَّنِّ حتى متى تسُنُّ الحديدَ ولا تقطع !!

المناقشة

بين ابن تومرت وابن ياسين وجوه شبه كثيرة فما ذاك ؟ وما أثره في عروبة المغرب وإسلامه ؟

المراجع

١ الأدب المغربي

٢ النبوغ المغربي ٢٠١ .

٣ ظهر الاسلام جـ١

٤ وفيات الأعيان .

٥ المعجب .

٦ الجديد في الأدب العربي جـ٦ .

٧ البيان المغرب .

٨ رياض النفوس للمالكي

٩ المسالك والممالك للبكري

١٠ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي - تحقيق شوقي ضيف .

١١ المهدي بن تومرت لأبي بكر بن علي البيدق (تحقيق المستشرق بروفنسال)

١٢ من ذكريات مشاهير المغرب للاستاذ كنون .
(المهدي بن تومرت)

★

اطلع على بعض الموشحات والأزجال والمقـامات التي قيلت في هذا العصر في كتاب النبوغ : جـ٢ ، ٣ . وكتاب الموشحات لجميل سلطان .

الشريف الادريسي (٤٩٣ - ٥٦٩ هـ)

الرحالة الجغرافي العظيم ، والشاعر الأديب والفيلسوف الطبيب ، والمؤلف الأريب الدقيق ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس ، نسل ملوك الحموديين العرب بالأندلس ، وقد ولد بسبتة سنة ٤٩٣ ، وخرج سائحاً وهو في سن السادسة عشرة فطاف بالأندلس ، وبلاد شمال أفريقية ، ومصر ، وبلاد آسيا الصغرى وسواحل انجلترا وفرنسا ، وكان قد تعلم أولاً في قرطبة .

وذاعت شهرتــــه وهو في نحو الأربعين من العمر . حتى إن ملك صقلية (روجر الثاني) استدعاه الى صقلية ، فذهب اليها حوالي سنة ٥٢١ هـ فرغب إليه في أن يرسم له خريطة عالمية كاملة يبين فيها مواقع البلدان والبحار والجبال وغير ذلك ، فرسم له خريطة حائطية تضمنت أسماء نحو ٢٠٦٤ مدينة عامرة آهلة ، بعضها بأوربا وبعضها بأفريقية وبعضها بآسيا .

ثم رغب إليه أن يحضر هذه الخريطة على لوح من الفضة ، واستحضر له من الصناع المهرة من أتقن هذا العمل بإشراف الإدريسي :

صنعوا مائدة مستطيلة من الفضة يبلغ طولهـــا نحو ثلاثة أمتار ونصف في ارتفاع متر ونصف ثم حضر عليها تلك الخريطة مطابقة لتلك التي رسمها من قبل. وكتب عليها بحروف عربية كل ما عرفه من البلدان ، فجاءت بديعة الصنــع ثمينة القيمة وبلغ وزنها نحو ١٤٠ كجـ .

وقد فقدت هذه المائدة في بعض الثورات ولم يبق لها أثر .

أما الخريطة الحائطية فقد بقيت أجزاؤها مفرقة في كتاب(**نزهة المشتاق في**

اختراق الآفاق) الذي ألفه الإدريسي لروجر هذا وهو يعتبر شرحاً للخريطتين وتعليقاً عليهما ، وهو يقسم فيه الارض المعروفة في ذلك الوقت – أي القسم الشمالي من الكرة الارضية وجزءاً صغيراً من القسم الجنوبي حيث تقع منابع النيل – إلى سبعة أقاليم ، كل إقليم عشرة أقطار متساوية .

وقد أفلح الإدريسي في إثبات درجات العرض وتحديدها ، ولم يتعرض لخطوط الطول إذ تبين له أن مقادير المقاييس التي وصلت إليه غير دقيقة ولم يتيسر له تصحيحها .

وألف لغليوم الاول – ابن روجر الثاني – كتاب (**روضة الأنس ونزهة النفس**) حوالي سنة ٥٥٧ هـ ، وقد ضاع هذا الكتاب ، وإنما عرف من نقل بعض المؤرخين عنه . أما نزهة المشتاق فقد نشرت قطع منه ، ومنها الجزء الذي يتكلم فيه عن بلاد المغرب والسودان . وتوجد بدار الكتب بالقاهرة نسخة خطية كاملة لهذا الكتاب الثمين .

وللإدريسي كتيب صغير في الجغرافيا اختصره الادريسي من كتب من سبقوه ، وسماه (**روض الفرج ونزهة المهج**)[1]

وله ايضاً كتاب « الادوية المفردة » في الطب الذي كان يعد مرجعاً يقتبس منه المؤلفون في الاعشاب والادوية .

وإليك الآن نموذجاً من كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق »[2] بعنوان « رحلة الفتية المغررين » :

« .. فتية غرروا بانفسهم فركبوا البحر المظلم ، وظلوا فيه أشهراً ثم عادوا ، وكان ذلك في القرن الرابع للهجرة ، وهم ثمانية رجال كانوا أبناء عمومة ، أعدوا مركباً كبيراً وزودوه بالماء والمتاع ، ثم دخلوا البحر مع

١ ـ وهو مختصر من كتابه (روض الأنس وبهجة النفس) .
٢ ـ نقلاً عن كتاب (الأدب المغربي ص ٤١٠) اقتباساً بتصرف من نزهة المشتاق .

هبوب الريح الشرقية وأجروا فيه مركبهم نحو أحد عشر يوماً ، ولم يلبثوا أن انتهوا الى مجهول فأيقنوا أنهم هالكون لا محالة ، فسارعوا إلى تغيير وجهتهم فداروا الى الجنوب وظلوا كذلك اثني عشر يوماً، حتى رأوا جزيرة فرسوا عليها واطمأنوا الى المكان. ولكنهم ما كادوا يذبحون شاة منأغنامها ويعدونها لطعامهم حتىوجدوها شديدة المرارة، فانقلبوا الى مركبهم وأقلعوا الى الجنوب وساروا اثني عشر يوماً ، فتراءت لهم جزيرة فيها عمارة وحرث فنزلوا بها . وبعد هنيهة أحاط بهم رجال منها وساقوهم الى المدينة واعتقلوهم فيدار بها ظلوا فيها ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم بلسانهم العربي ، فسألهم عن حالهم وغايتهم ومن أين جاءوا ، فأخبروه بقصتهم فطمأنهم ووعدهم أخيراً . ولما نشطت الريح أخرجهم أهل المدينة في زورق وجروا بهم في البحر ثلاثة أيام . وبعد أهوال ومخاطرات وصلوا الى بلدهم فأطلق عليهم الناس اسم الفتية المغرّرين ! » اهـ. ولعلنا نستطيع أن نفهم من هذا أن كتاب نزهة المشتاق يتضمن قصصاً ورحلات . وهذه الرحلة هي حديث عن فريق من عرب الأندلس اقتحموا المحيط الأطلسي ليكتشفوا المجهول ، وأنهم وصلوا الى بعض جزر هذا المحيط ، وقد يكون ما وصلوا إليه هو بعض بلاد أمريكا التي اكتشفها كولمبوس فيما بعد .

هذا وللشريف الإدريسي ديوان شعر أيضاً، ومن شعره في الحماسة والفخر:

إن عيباً على المشارق أن أر جع عنها إلى ذيول المغاربْ
وعجيبٌ يضيع فيها غريب بعد ما جاء فكره بالغرائبْ
ويقاسي الظما خلال أناس قسموا بينهم هدايا السحائبْ

وبعد فهذا هو الشريف الإدريسي أستاذ أوربا الحديثة فيالجغرافية والرجل الذي سبق فكرُه الزمنَ وأتى بما لم يأت به سابقوه فكان دقيقاً محكماً . وقد توفي في صقلية سنة ٥٦٩ هـ. على خلاف في ذلك بين المترجمين له .

مناقشة

يوجد من كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفـاق » للشريف الإدريسي جزء مطبوع خاص بالمغرب والسودان – طبعة ليدن ١٨٦٦[1] – حاول ان تعثر على نسخة واكتب بحثاً عن هذا الجزء بعنوان « المغرب بلد الخصب والثروة » ، وانتفع بالمراجع الآتية في الاستعانة على وفاء بحثك :

المراجع

١ العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين — لمحمد المنوني
٢ الكامل في التاريخ — لابن الأثير
٣ وفيات الاعيان — لابن خلكان .
٤ نزهة في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان — لمحمد بن عبد العزيز الادريسي
٥ المغرب العربي — لصلاح العقاد
٦ الجغرافيا المصورة للمغرب الجديد — لعمر السباعي

١ ـ طبع الكتاب مرة أخرى في ليدن سنة ١٨٨٥ م. وفي روما سنة ١٨٨٣م.

ابن حبّوس (٥٠٠ – ٥٧٠ هـ)

شاعر الخلافة المهدية الموحدية ، أبو عبدالله محمد بن حسين بن حبوس الفاسي ، أدرك أواخر عصر المرابطين ونال حظوة عندهم ، ثم نُقلت إليهم حماقات عنه فغضبوا عليه فهرب إلى الاندلس . فلما قامت الدولة الموحدية وقدم أميرهم عبد المؤمن الى الأندلس تلقّاه الشاعر فيمن تلقاه من وجوه الأندلس وأدبائها وشعرائها ، فكان هو أول منشد بين يديه في ذلك اليوم الحافل ، فألقى قصيدته التي أعجب بها الخليفة ، ومنها :

بلغ الزمان بهديكم ما أمّلا وتعلمتْ أيامه أن تعدلا

وبحَسْبِهِ أن كان شيئاً قابلا وجد الهداية صورة فتشكّلا

ومن قوله فيه وقد حل بالرباط :

ألا أيهذا البحر جاورَك البحرُ وخيّم في أرجائك النفع والضُّرُّ

لعلك يطغيك اشتراك سمعتَهُ فذلك بحر لا يشاركه بحر

ولما فتح عبد المؤمن مدينة بجاية بالأندلس قال ابن حبوس :

إِلى الناصرية سرنا معاً ولما تَفُتْنا ولم تلحقِ

إِلى بَرْزَةٍ في ذُرا أرعن تجلُّ عن السور والخندق

يعوذون منا بمولاهمُ ومولاهمُ عاذ بالزورق

وأكسبه خوفه رقة فلو خاض في البحر لم يغرق

واتصل بعد عبد المؤمن بابنه يوسف فكان شاعره المفضل .

وقد تصرف في فنون كثيرة من الشعر ، وهو في شعر المدح أشبه الشعراء بابن هانىء الأندلسي في تفخيم الأسلوب وطنطنة التعبير وجلجلة الموسيقى والمبالغة ، وفيما عدا ذلك فإن شعره رقيق مليء بالعواطف الحية .

وانظر الى قوله في وصف الرياض :

إذا ما رنت ريح خفوق إزاءها ترك القضيب قوامه وتميَّلا
شربَ النشاط سلافة حتى انثنى ولو انها حَرُمَتْ عليه تأوّلا

وقد قال في الحماسة والفخر والغزل والاحتيال والحكمة ، وقد أكثر في شعره منها، ولكنها حكمة سطحية غير ناضجة ، وله في ذلك قصيدة كبيرة تجد جزءاً منها في المنتخبات المقررة في النصوص فانظرها في موضعها من هذا الكتاب .

ونختم الحديث عنه بهذه الأبيات التي قالها على نمط ما وضعه أصحاب المقامات على ألسنة أبطالهم في الاحتيال لكسب العيش :

أعدّ لنابحيك عصاً وأقضِمْ ماضغَيْك حصى
وكن وَرْداً خُبَعْثِنَةً يراوغ منهمُ قنصا[1]
وعامل بالخديعة من لقِيتَ وبادر الفُرَصا
وغمض عينك النجلا ء حتى تنعت الخوِصا[2]
وسؤْ ظنا بكل أخ يقاسمك الثنا حصصا

والأبيات كثيرة ولطيفة نكتفي منها بهذا القدر .

---

١ ـ الورد : الأسد ، الخبعثنة من أسمائه . القنص : الصيد. ٢) الخوص : صفة من الخوص ، عيب بالعين .

ابو جعفر بن عطية (٥١٧-٥٥٣)هـ.

كاتب الدولتين المرابطية والموحدية أبو جعفر أحمد بن عطية المراكشي ، الرجل العصامي الذي وصل إلى مرتبة الوزارة بجدّه ومواهبه ، ولد بمراكش وتلقى علومه على والده وغيره من العلماء ، وما إن بلغ العشرين حتى رأيناه كاتباً في بلاط المرابطين ، ثم نراه وقد صاهر أحدهم ، فلما قُضي عليهم ودالت دولته معهم التحق بخدمة الموحدين جندياً مغموراً في الجيش يقاتل في سبيل الله ، وقد خرج مع الجند الذين ساروا إلى السوس لقتال بعض الخارجين على سلطان الدولة ، فلما انتصر الجيش طلب قائدُه من يحسن الكتابة عنه إلى الخليفة فدُلّ على أبي جعفر ، فكتب رسالة بليغة إلى عبد المؤمن يصف الفتح ويبشر بالنصر ، فأعجب هذا بالرسالة وسأل عن كاتبها فألحقه بخدمته ثم جعله وزيراً .

وأسرّ إليه عبد المؤمن بنيّته في اعتقال صهره يحيى لِما بلغه عنه من إزماع الفتنة . قال عبد الواحد المراكشي :

« وكان سبب قتله — فيما بلغني — أنه كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف ابن تاشفين ؛ التي تعرف ببنت الصحراوية ، وأخوها يحيى فارس المرابطين المشهور عندهم يعرف أيضاً بيحيى ابن الصحراوية ، فحظي يحيى هذا عند الموحدين وقوّدوه على من وَحَّدَ من لمتونة ، ولم يزل وجيهاً عندهم — وكان خليقا بذلك — إلى أن نُقلت عنه إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوال كان يقولها أحنقته عليه ، فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك في مجلسه ، وربما

همّ بالقبض على يحيى هــذا ، فرأى الوزير أبو جعفر أن يجمع بــين المصلحتين ، من نصح أمــيره ، وتحذير صهره ، فقال لامرأته أخت يحيى المذكور : قولي لأخيك يتحفظ ، وإذا دعوناه غــداً فليَعْتلّ ويظهر المرض ، وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة مُيُرقة فليفعل . فــأخبرته بذلك ، فتمارض وأظهر أن ألماً ألمّ به ، فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته ، فأسرّ إلى بعضهم – ممن كان يثق به – ما بلغه عن الوزير ، فخرج ذلك الرجــل الذي أسرّ إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجــل من ولد عبد المؤمن .. فأمر أمير المؤمنين بتقييد يحيى المذكور وسجنه ، فكان في سجنه الى أن مــات . وكان هذا هو السبب الأكبر في قتل أبي جعفر المذكور». (المعجب ص ١٩٩).

وقد كتب أبو جعفر الى عبد المــؤمن يستعطف كما فعل ابن زيدون مع ابن جهور في الأندلس ، ويكاد ان يكون الاسلوب هو الاسلوب والطريقة هي الطريقــة ، وسترى في رسالة ابن زيدون الجدية ومــا سنورده في النصوص لأبي جعفر بن عطية الملامح المشتركة الواضحة لكلا الرسالتــين . ففي الأدب الأندلسي من هذا الكتاب سترى أسلوب الرسالة الجدية ، وفي الادب المغربي منه سترى أسلوب رسالة ابن عطية الى عبد المؤمن .

ولما لم يجبه عبد المؤمن الى طلبته أخذ يبكي نفسه ويندب حظه وقد أيقن بهلاكه ، من ذلك قوله :

أنوح على نفسي أم ٱنتظرُ الصفحا
فقد آن أن تُنسى الذنوب وأن تُمحى
وها أنا في ليل من السخط حائر
ولا أهتدي حتى أرى للرضا صُبحا

وذلك كما قال ابن زيدون في سجنه :

لقد آن أن يبكي الغمامُ عــــلى مثلي
ويعرف قدري السيفُ منصلتَ النصل

وكما قال النابغة الذبياني يستعطف النعمان بن المنذر :

فإنك كالليل الذي هو مدركي   وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع

ومما قاله في مقدمة رسالة الاستعطاف المذكورة :

عطفاً علينا أميرَ المؤمنين فقد   بان العزاء لفَرْط الهمّ والحزَنِ
قد أغرَقتْنا ذنوب كلها لججٌ   ورحمة منكمُ أنجى من السفن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه   بمن أجارته رحماكمْ من المحن
وصبية كفراخ الوُرق من صغر   لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أيادٍ منك سالفة   والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

ثم يقول : تالله لو أحاطت بي كل خطيئة .. الخ الرسالة التي ختمها بقوله :

فعفواً أميرَ المومنين فمن لنا   بردّ قلوب هدّها الخفقانُ ؟

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته .

ويعتبر أدب ابن عطيــة في المـنزلة الرفيعة شعراً ونثراً ، عنـايةً بالاسلوب ووضوحاً في المعاني – لولا غلوه احياناً في استخدام المحسنات البديعية في نثره – واتساعَ أفقٍ في الافكار .

وقد خلف ابن عطية مجموعة وطائفة من الرسائل ، نشر بعضهـا في مجموع « رسائل موحدية » .

مناقشة

وازن بين رسالة ابي جعفر ورسالة ابن زيدون الجديـة من ناحية الاسلوب والافكار دون ان تستعين بمراجع في ذلك .. جرب ذوقـك ومقدرتـك على الموازنة .

أبو العباس الجرّاوي (٥٣٠ – ٦٠٩)هـ

حدث صفوان[1] بن ادريس أن أبا الجـرّاويّ كان في حانوت ورّاق بتونس، وهناك فتى يميـــل اليه الجراوي ، والفتى يعرف ذلك ، فتناول الفتى سوسنة صفراء وأومأ بها الى خديه مشيراً ، وقـــال : أين الشعراء ؟ يقصد تحريـك الجراوي ، فقال هذا ارتجالاً :

وعُلْويٍّ الجمال إذا تبدى أراك جبينه بدرا أنارا
أشار بسَوْسنٍ يحكيه عَرْفاً ويحكي لون عاشقه اصفرارا

والجراوي شاعر آخر من شعراء عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور وإن كان اختصاصه بيوسف بن عبد المؤمن ، واسمه عبد السلام التادْلي ثم المراكشي ، الشيعي المذهب ، الزناتي القبيلة (وجراوة من زناتة) .

نادرة أهل زمانه في حفظ القديم والحـديث من الشعر ، اللطيف المعشر ، الحلو الفكاهة ، المــادحُ الهجّاء ، الذي يشبهونه بالحطيئة لبذاءة لسانه حتى يقال إنه هجا قومه وبلده وكثيراً من الناس . وله كتاب « الحمـاسة المغربية » الذي حاولنا ان نعثر عليه فلم نستطع .

من ذلك قوله يهجو قومه (بني غفجوم) :

---

١ ـ النبوغ المغربي ج٢ ص ٢٥٤ .

يابن السبيل إِذا مررت بتادلا لا تنزلنّ على بني غَفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى إِلا مجـــاوبة الصدى للبوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللُّوم
لا حظَّ في أموالهم ونوالهم للسائل العافي ولا المحروم
لا يملكون إِذا استبيح حريمهم إِلا الصراخ بدعوة المظلوم
يا ليتني من غيرهم ولو انني من أهل فاسٍ من بني الملجوم

ويقصد بابن السبيل المسافر الذي يحتاج الى زاد ومعونة ، وتادلا : بلده ، ويقصد بالبيت الثاني أنها بلاد خربة . وفي البيت الأخير تعريض ببني الملجوم الفاسيين ، وهو يهجو أهل فاس عموماً في بعض الأحيان كقوله :

مشى اللؤم في الدنيا طريدا مشردا
يجوب بـــلاد الله شرقـــاً ومغربا
فلما أتى فاساً تلقَّاه أهلها وقالوا له : أهلاً وسهلاً ومرحبا

وإن الجراوي ليحسن الهجاء كما ترى في تلك الأبيات التي صاغها صياغـة جميلة قوية وإن كان مقلداً في معانيه للحطيئة وغيره من شعراء الجاهلية .

ولقد أدرك الجرّاوي أربعة من أمراء الموحـدين ، ابتدأ بعبد المؤمن الذي الذي كان يبـاهي به الأندلسيين واختتم بالنـاصر بن يعقوب المنصور ، وتوفي بأشبيلية بعد أن عمَّر طويلاً ، واننا وإن لم يكن تاريخ مولده معروفاً نستطيع أن نقدر عمره بنحو ثمانين عاماً كما نقله الاستاذ كنون عن ابن خلكان ، فيكون مولده حوالى سنة ٥٣٠ ووفاته سنة ٦٠٩ .

وشعر الجراوي كما نرى في طبقة عالية ، وانظر منتخباته في هذا الكتاب والتعليق عليها لتزداد به معرفة .

مناقشة

درست من شعراء عصر الموحدين ابن حبوس والجراوي .
وازن بين اتجاه كل منهما في فنـه الشعري وفي الظروف المحيطـة به والتي أثرت في أدبه وفي اختيار أغراضه الشعرية وأفكاره وأساليبه .

المراجع

المعجب في تلخيص اخبار المغرب .
الأدب المغربي .
النبوغ المغربي جـ١ ، جـ٣ .
وفيات الأعيان .
البيان المغرب في اخبار المغرب .
الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى جـ٢ .
المطرب من اشعار أهل المغرب .

القسمان الأدبي والعلمي

اضواء على الحياة العامة
في
العصر العباسي

مقدمة : كان العرب قبل الاسلام أُميين ، ثقافتُهم ومعارفهم محدودة ، مضطربين في حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية ، ثم جاء الاسلام فبدل أرضاً بأرض ، وأدياناً بدين ، ولغاتٍ بلغة ، ورِجساً بصلاح ، وأقام دولة اتسعت أطرافها أيام الخلفاء الراشدين حتى شملت فارس وخراسان ، والسند ، والعراق ، والشام ومصر والمغرب .

وحينما قامت الدولة الأموية ، جعلت حكمها عربياً خالصاً يحتقر أبناء الأمم الأخرى ، ويخالف العهود المعقودة لهم من أيام النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدين . فقد نظر الأمويون إليهم نظرة السيد الى المسود ، ومنعوا زواج المسلم منهم بالعربية ، وطلقوا عليه زوجه ، بل عذبوه . فقد روى لنا كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني « أن رجلاً من الموالي خطب بنتاً من أعراب بني سليم ، وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجي الى المدينة ، وشكا الى واليها إبراهيم بن هشام بن اسماعيل فأرسل الى هذا الرجل ، وفرّق بينه وبين زوجه ، وضربه مائتي سوط ، وحلق رأسه ولحيته ، وحاجبيه ، فقال ابن بشير :

وفي المائتين للمولى نَكالٌ وفي سلب الحواجب والخدود . »

فنقم الفرس وغيرهم على الدولة الأموية ، وكانوا من أكبر الأعوان التي ساعدت على قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ.

العصر العباسي

يُعد العصر العباسي من أرقى العصور العربية مدنية وحضارة، وهو ينقسم بحسب الحوادث العظمى التي جرت فيه الى قسمين :

١ – عصر قوة وازدهار سياسي وادبي، عاش فيه الخليفة عزيز الجانب، قوي السلطان ، وقد ازدهت فيه اللغة ، وزادت ثروتها من الألفاظ ، إذ كان يسهر على رعايتها خلفاء وأمراء لا يبخلون بمالهم في سبيل إحيائها ، لانها لغة الدين الذي يدينون به ، فأغدقوا على الشعراء بسخاء لم يعهده التاريخ حتى وهبوا على كل بيت الف دينار ، وأنفقوا على ترجمة العلوم ما لم يعرف مثله في همم الملوك والأمراء – وهل عهدنا ملوكاً او حكاماً يعطون أجر ترجمة الكتاب الواحد وزنه ذهباً كما فعل البرامكة ؟

ولذا فإن هذا العهد كان العهد الذهبي – حقاً– للّغة العربية نظماً ونثراً ، وظل ذلك نحو قرنين من الزمان أي الى سنة ٣٣٤ هـ. وهذا هو العصر العباسي الأول .

٢ – وعصر ضعفت فيه هيبة الحاكم ودب الضعف في أوصال الدولة فعجز الخلفاء عن السيطرة عليها . فلم يُطلّ القرن الرابع الهجري ، حتى كانت بلاد فارس تحت سلطنة بني بُوَيْه ، وحلب والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد ابن طُغْج ، ثم بعد ذلك ، في أيدي الفاطميين .

واستمرت هذه الدويلات مستقلة ، إلى أن زحف التتار على بغداد، وقضوا على الخليفة العباسي ، فانتهت الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ.

وعلى الرغم من هذا التفكك السياسي ، فقد ظل الفكر العربي يشق طريقه نحو الازدهار ، ولم يتأثر بالضعف السياسي ، بل جاء هذا التفكك بأسباب ازدهار أكبر ، وتعددت مراكز الحضارة .

ففي بغداد ثقافات مزجت وصهرت في بوتقة واحدة ، وأفكار تلاقت واجتمعت ، وفي البصرة والكوفة تنافس علمي على أشده ، وفي المدينة نضج ديني ، وكذا في الفسطاط بمصر ، وبخارى بخراسان وتركستان ، وجرجان بطبرستان ، وفي حلب مقر الدولة الحمدانية بالشام رعاية للأدب والأدباء . ولكنها مع ذلك تأثرت إقليمياً وكان لكل بيئة من هذه البيئات لون يغلب عليها في الأخيلة والمعاني وطرق التفكير .

وأصبح الادب في هذه العصور مرآة واضحة لهذه الحياة كلها في عيشها ، وترفها ، وحريتها ، وانطلاقتها ، وميولها ، ومنازعها .

ومن مظاهر التغيير التي طرأت على الادب العباسي التمرد على القديم، والنعي على المستمسكين به ، والمحافظين عليه :

تبكي على طَلَلِ الماضينَ من أسدٍ لا دَرَّ دَرُّكَ قُلْ لي مَن بنو أَسَدِ؟
لا جَفَّ دمعُ الذي يبكي على حَجَرٍ ولا صبا قلبُ من يصْبو إلى وَتِدِ

إلا أن هذا التمرد لم يؤت أُكُله ، لقوة القديم وأصالته ولبقاء كثير من الشعراء على قديمهم يحرصون عليه ويستمسكون به. بل إن أبا نواس الذي تزعّم حركة التمرد قد أحلّ ذكر الديار محل ذكر الخمر حين اشتهر بذلك ، وبان فجوره فحبسه الرشيد ، فاضطر الى ان يعود في سخرية الى ذكر الأطلال قائلاً :

أَعِرْ شعرَكَ الأطلالَ والمنزل القفْرا
فقد طالما أزرَىٰ بــه نَعْتُكَ الخمرا

دعــاني إِلىٰ نَعْت الطلولِ مُسَلَّطٌ
تضيقُ ذراعي أن أرُدَّ لَـهُ أمْرا

فسمعاً أميرَ المؤمنينَ وطاعةً
وإِن كنتَ قد جشَّمْتَني مركباً وعْرا

وقد ظلت أكثر الأغراض الشعرية القديمة تسير في طريقها الذي سارت فيه من قبل ، إلا ما اقتضته ظروف الحياة الجديدة من تغيير وتنويـع .

ومن الأغراض التي خبا ضوْؤُها ، الشعر السياسي ، الذي بلغ أوجَه في في عهد الأمويين ، وذلك لقلة دواعيه ، وكذلك خمل شأن الغزل العذري إزاء الغزل الماجن الخليـع الذي نمــا نتيجة هذه الحياة اللاهية المترفـة ، كما ضعف التفاخر بالعنصر العربي أمام قوة العناصر الاجنبية الاخرى وغلبتها . وضعف شأن الفخر والحماسة ، لانقضاء عهد الفتوحات إلا ما كان نتيجة لظروف العصر كما في شعر أبي فِراس والمتنبي .

والى جانب ذلك جدَّت أغراض أخرى ، كالشعر الفلسفي والصُّوفي . وفي شعر المتنبي ، وأبي تمام ، وعمر بن الفارِض أمثلة كثيرة على ذلك .

وهناك أغراض أخرى جديدة ، سنتكلم عنها حين نتناول حالة الشعر في العصر العباسي الثاني، إلا أن هذه عُجالة أتينا بها، لنربط الحقائق بعضها ببعض.

هذا وقـد ظهر التطور واضحاً في النثر الفني ، فقد خطـا خطوات واسعة نحو الازدهار ، بصورة لم نعهدها من قبل .

وها نحن أولاءِ نعرض عليك ألواناً من الشعر العباسي سنعود بعد دراستها معــاً لنبحث في أغراض هذا الشعر ومميــزاته ، واختلاف بعضه في العصر العباسي الثاني باختلاف الأقاليم .

نشوء الاوطان السياسية

وأثر ذلك في ظهور آداب قومية

كان أول مسمار دُقّ في نعش الدولة العباسية هو ما فعله الخليفة المعتصم – في القرن الثالث الهجري – من اتخاذ جيش خاص له من أرقّاء الترك، يعتمد عليه ويستعين به على العرب والفرس الذين أقصاهم عن دواوين الجيش، وأصبح الجيش التركي قوة لا يستهان بها. وبعد حين صار هو الآمر الناهي، وتدخلت معه نساء القصر في تدبير شؤون أمور الدولة، فاختلّ نظام الحكم، وأصبحت السلطة موزعة بين الأتراك، ونساء القصر، والفرس، والعرب، وولاة الاقاليم. وأخذت كل جماعة من هذه الجماعات تخشى بأس الجماعة الاخرى وتحاول ان تنتزع لنفسها شيئاً، وتحولت الدولة الى دول متعددة مستقلة في ادارتها ومالها وجيشها وحاكمها، وإن اعترف بعضها بالخليفة في بغداد فترة من الزمن فهو اعتراف شكلي. ولم تكن هذه الدويلات كلها عربية فهناك البويهيون في فارس، والإخشيديون في مصر وسورية، والفاطميون في إفريقيا، والسّامانيون في خراسان وما وراء النهر، والديلم في طبرستان وجُرْجان، والقرامطة في البحرين واليمامة وهَجَر، والحمدانيون في المَوْصل وديار بكر ثم في حلب. واستطاع هؤلاء الولاة ان ينفصلوا تماماً عن الخلافة، بل إن بعضهم تلقب بإمرة المؤمنين أو بالخلفاء، مثل الفاطميين في إفريقية، والأمويين في الأندلس زمن خلافة عبد الرحمن الثالث.

ولم يكن تأثير هذا الانقسام على الأدب سيئاً بل كان على عكس ذلك،

فقد قوي الأدب ، وتعددت مراكزه ، واصطبغ بصبغة إقليمية ، واتبع أمير كل قطر نفس الطريقة التي كانت معهودة في بغداد من تقريب الأدباء والشعراء والعلماء ، وإغداق العطايا عليهم . ثم إنهم أرادوا مفاخرة الأقطار الأخرى ، فتنافسوا في إكرام العلم والعلماء ، والأدب والشعراء ، وتفاخروا في الثروة العلمية والادبية . بل لقد أدى هذا التنافس ، وذلك التفاخر إلى أن الأمراء الأتراك الذين لا يحسنون العربية كانوا يرغبون في ان تزخر قصورهم بالأدباء والعلماء .

ومن طريف ما يحكى في ذلك أن « بَجْكَمَ » التركي كان بواسط ، وكان من المقربين إليه أبو بكر محمد بن يحيى الصُّولي ، وكان « بجكَم » لا يحسن العربية فاستدعى الصُّولي ، وقال له : « إن أصحاب الأخبار رفعوا إلي أني لما طلبتك من المسجد (وكان الصولي يقرأ درساً فيه) قال الناس : أعجله الأمير ولم يتم مجلسنا ، أفتراه يقرأ عليه شعراً أو نحواً أو يسمع منه الحديث ؟ (يقولون ذلك تهكماً ببجكم لانه لا يحسن العربية) . ثم قال بجكم رداً على هذا : « انا انسان وان كنت لا أحسن العلوم والآداب أحب ألا يكون في الارض أديب ولا عالم ولا رأس في صناعة إلا كان في جنْبَتي وتحت اصطناعي ، وبين يديّ لا يفارقني . » ولعله بهذا القول يعبّر عما في نفس كل أمير في كل إقليم .

وهكذا أصبحت للعلم والادب مراكز هامة متعددة ، واتسع المجال أمام الأدباء والشعراء ، ولم ير هؤلاء بدّاً من التفنن في إجادة أدبهم ليكون سبباً في شهرتهم ، وساعدهم على ذلك يسر العلوم التي ترجمت ، وكثرة الآداب التي خلّفها لهم العصر الأول مما زاد في معارفهم فأثر في إنتاجهم .

ولم تعد بغداد وحدها المركز الادبي الهام الذي يحج اليه الأدباء والعلماء أملاً في شهرة أو ثروة كما كانت من قبل ، وأصبح الأدب من نظم ونثر صورة صادقة لحياة كل دويلة من هذه الدويلات في غناها وترفها ، وفقرها وبؤسها ،

وفي المجون والجد ، وفي تخلخل الشؤون السياسية ، وصار لكل إقليم شخصية متميزة في أدبها وعلمها وإن اتصل بغيره من الاقاليم الاخرى ، ووُجدت طبقة من الشعراء تمثل الطبقة العليـا في المجتمع ، كالمتنبي ، وابن حجّاج ، والشريف الرضي ، وأبي العلاء المعري ، والصنوبري ، وجماعة أخرى حـذت حذوهم وجارتهم في ذوقهم ، كما وجدت جماعة من الكتاب تمثل أعلامهم كابن العميد ، وابن عَبّاد ، والوزير المُهَلّبي ، والخصيبي ، والإسكافي .

ولما كان الادب نظمه ونثره يمثل حياة كل دويلة كما عرفنا فإننا قد وجدناه يصور حياتين (١) حياة الترف والمجون والخلاعـة ، فكانت التزاويق اللفظية تمثل التزاويق الاجتماعية ، والإيغال في المبالغة وكـثرة التشبيه والاستعارة ، وضعف المعنى نتيجة العناية باللفظ ، وشاعت المقطعات الشعرية ، وكـثر أدب المُلَح ووصف مجالس الأنس والقيان ، ووصف الزهر ، والشكر على الهدية ، والتفنن في الغزل بالمذكر ، إذ لم يتحرجوا في ذلك من ان يقولوا أقبح المعاني في أصرح الالفاظ . (٢) وحيـاة البؤس والفقر التي تسببت عن سوء الحـالة الاقتصادية وعدم التوازن بين الطبقات ، فكنت ترى بؤساً مفرطاً بجانب ترف بالغ ، وقد انعكست هذه الحالة على الادب فمثّلها ايضاً . وكان هناك طبقة من الأدباء اتخذوا التسول والكدية والاحتيال وسيلتهم في كسب العيش ، واشتهر من بين هذه الطبقة جماعة سُموا الساسانيين أو بني ساسان ، وظهر فن المقامات صدى لهؤلاء كما ظهر شعر الظرف والحرفة ، والاحتيـال لكسب العيش ، وشكوى الزمان .

وما دمنا سنتناول حالة الشعر بالتفصيل ثم نهضة النثر الكتـابي وأسبابها ، فإننا سنترك الاستشهاد بأمثلة من النظم والنثر الى الكلام عليهما .

حالة الشعر في هذا العصر

١ ـ حالة الشعر العامة :

سبق أن عرفنا أن الشعر قد تعددت أوطانه بعد ان كان له وطن واحد هو بغداد ، وأن الحكام قد تنافسوا في استمالة الشعراء ، وكان هذا من الدواعي التي حملت الشعراء على إجادة شعرهم والعناية به ليحظوا بالشهرة والثروة ، فارتقى الشعر خاصة ، والادب عامة ، وزاد في رقيه هذه العلوم والفنون المترجمة ، وتلك الثورة الشعرية التي هدأت للتركيز في العصر الثاني .

وقدكان من نتائج ذلك كله أن ظهرت في الشعر ألوان جديدة غير الأغراض السابقة التي ظهرت في العصر الأول نلخصها فيما يأتي :

الأغراض الجديدة :

«أ» ـ الحكمة والفلسفة ، والتصوف ، كما في شعر المتنبي، والمعرّي ، وأبي تمام ، وابن الفارض . وقد وجدت الحكمة منذ العصر الجاهلي لكنها كانت حكمة ساذجة مبنية على تجارب بدائية ، وظهر التفلسف في الشعر في العصر العباسي الأول ولكن ذلك كله كان منثوراً في القصيدة يأتي غير مقصود أحياناً ومقصوداً حيناً كما في شعر أبي العتاهية ، لكنه خالٍ من العمق .

«ب» الشعر التهكمي والهزلي ، ويكثر ذلك في شعر ابن الرومي وابن حجاج وابن سُكَّرة .

«ج» التراسل بالشعر ونظمه في المناسبات كالتهنئة بالاعياد والمواسم التي

كثرت في العصر الفاطمي .

«د» – وصف الوقائع الحربية نتيجة كثرة الحروب الرومية والصليبية ، فقال الشعراء في ذلك ، وأكثروا من شعر الحض على الجهاد ، والتهنئة بالفتوحات .

«ه» – شعر الملق المبالغ فيه ، فكل فنان أو أديب كان يحج الى خليفة أو أمير ليعرض عليه شعره متملقاً مستجدياً .

«و» شكوى الزمان وبؤسه وسوء الحال ، لأن الحالة الاجتماعية واضطرابها أثرت في الأدب فظهر شعر كثير في شكوى الزمان .

ألفاظ الشعر واساليبه :

وبلغ الشعر أوجه في ألفاظه وأساليبه أول هذا العصر ثم ظهرت فيه العناية بأنواع البديع قصد التزيين والزخرفة اللفظية . وقد بالغوا في ذلك فضعُف المعنى وتفهَ الموضوع، وظل الشعر يضعف حتى بلغ درجة من الضعف، الى ان جاء العصر الحديث فانتشله من هذه الهوة السحيقة .

ويجدر بنا بعد ان عرضنا لك حالة الشعر العامة في العصر الثاني ان نتناول حالته في كل دويلة من هذه الدويلات بشيء من التفصيل .

حالة الشعر في الاقاليم

١ – الشعر في فارس والعراق وخراسان :

كان الشعر أسبق فنون الادب انتشاراً في هذه الدويلات التي انسلخت من الدولة العباسية ، لأنه كان وسيلة من وسائل الدعاية للخلفاء والأمراء ، فكانوا يفسحون المجال امام الشعراء ، ويغدقون عليهم الأموال الطائلة ، ويولونهم الوزارة ، فكثر في شعرهم مدح الملوك والسلاطين .

ومن الاغراض البارزة في هذا الاقليم :

شعر التهكم والملق :

فن التهكم : قول السَّريّ من شعراء الموصل يهجو ويتهكم على شاعر قيل إنه كان جزّاراً وسرق من شعره :

أرى الجزَّارَ هيَّجني وولّى فكاشَفَني وأسرع في انكشافي
ورقَّع شعره بعيون شعري فشابَ الشهدَ بالسُّم الزُّعَافِ
لقد شَقيَتْ بمديتك الأضاحي كما شَقِيَتْ بغارتِــك القوافي
توَعَّرَ نهجُها بك وهو سهل وكدَّرَ ردَّها بك وهو صافي

ومن الملق قوله :

ألْبَسْتَني نِعَماً رأيتُ بها الدُّجى صُبْحا وكنتُ أرى الصباح بهيما
وغدوتُ يحسدني الصديقُ وقبلها قد كان يلقاني العدوُّ رحيما

ب – شكوى الايام وجورها والزمان وبؤسه ، لأن البؤس قد عمّ بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية وبسبب الحروب التي وقعت بين السلاطين والأمراء كقول الطغرائي :

أُعللُ النفسَ بالآمال أرْقُبُها ما أضيَقَ العَيْشَ لولا فسحةُ الأمل
لم أرضَ بالعيش والأيامُ مُقْبِلةٌ فكيف أرضى وقد ولَّتْ على عجلَ
غالى بنفسيَ عِرفاني بقيمتها فصُنْتُها عن رخيص القَدْر مُبْتَذَلِ
ما كنتُ أُوثِرُ أن يَمتدَّ بي زمني حتى أرى دولة الأوغادِ والسَّفَلِ

وقول أبي الفتح البُستي :

الدهرُ خدّاعةٌ خَلوبُ وصفوُهُ بالقَذَىٰ مَشوبُ
وأكثرُ الناسِ فاعتزِلْهُمْ قوالبٌ ما لها قلوبُ
فلا تغرَّنَّكَ الليالي وبَرْقُها الخُلَّبُ الكذوب
ففي قفا أُنسِها كروبٌ وفي حَشا سِلمها حُروبُ

حـ – الفخر بالأنساب والأحساب، دعا الى هذا سيادة الوضيع على الشريف مما دفع بعض الشعراء الى نظم الشعر في الفخر بالأحساب والانساب .

ومن أمثلة ذلك فخر الشريف الرضي الذي سبقت دراسته وقوله أيضاً يفخر بنسبه وجاهه ويخاطب الخليفة القادر :

عَطْفاً أميرَ المؤمنينَ فإننا في دَوْحة العلياءِ لا نَتَفرَّقُ
ما بيننا يومَ الفَخار تفاوتٌ أبداً كِلانا في العلاء مُعرِّق
إلا الخلافةَ مَيَّزَتْكَ فإنني أنا عاطلٌ منها وأنتَ مطوَّقُ

وفي العراق كثرت مجالس الأنس واللهو والطرب والقيان فكثر أدب التندر والفكاهة مثل :

يا مَنْ تَعَمَّم فوق رأسٍ فارغ بعمامة مرَوية بيضاء
حَسُنَتْ وقُبِّح كلُّ شيءٍ تحتها فكأنّها نورٌ على ظلماء
لو أنني مُكِّنْتُ مما أشتهي وأرَى من الشهوات والآراء
لجعلت موضعَك الثرّى وجعلتُها في رأسِ حُرٍّ من ذوي العَلياء

ومثل قول أحدهم في إنسان شريف الاصل وضيع النفس :

قل للشريف المنتمي   للغُرّ من سَرَواته
آبـــاؤه وجدوده   والزهر من أُمّاته
لا تَجْرِينّ من الفخار   إلى مدى لم تأته
شاد الألى لك منصبا   قوضت من شرفاته

وكثر وصف القصور والبرك والبساتين ، والزهر والسوسن ، والخروج إلى الصيد ، كما كثر وصف القيان ، والجواري البيض والسود وحسنهن، وزعيمهم في ذلك ابن الرومي الذي سندرس له قصيدة « وحيد المغنية » وهي خير مثل على ذلك .

وقيل إن ابن سكّرة الشاعر في هذا العصر نظم في قينة سوداء عشرة آلاف بيت .

وعُرف الغزل بالمذكر نتيجة حبهم للغلمان ، وقد طرق الشعراء هذا الباب بكثرة ، ولم يتحرجوا من الإتيان بأقبح المعاني حتى الوزير المهلبي نجده يتغزل في مملوك تركي جميل قاد جيشاً لمحاربة بني حمدان :

ظبي يرقُّ المـــاء في   وَجناتِه ويَرُوقُ عُوده
ويكاد من شبْهِ العَذا   رى فيه أنْ تبدو نُهوده
ناطوا بمَعْقِدِ خصره   سيفا ومنطقةً تؤودُهْ
جعلوه قائدَ عَسكر   ضاع الرعيلُ ومَنْ يقوده

الألفاظ والاساليب :

لم يشذ الشعراء عن الألفاظ والأساليب العربية ، غير أنهم توغلوا في الصناعة والزخرفة .

وينبغي أن نعلم أن الألفاظ والأساليب والمعاني والأخيلة في جميع الأقاليم كانت تغلب عليها الصنعة والزخرفة وتكاد تكون متقاربة ، ولذلك فسوف نكتفي بعد ذلك بالحديث عنها في حالة الشعر العامة السابقة .

المعاني والاخيلة :

تضمن الشعر كثيراً من المعاني الفلسفية وكاد المنطق والحكمة يقضيان على الخيال الرائع والمعنى الواضح الدقيق ، فقد قلّ هذا النوع من الأخيلة للعناية ببعض الآراء الفلسفية ، يبثونها في شعرهم والتعمق في الصناعة احياناً ومزج الأمثال بالشعر .

ولكن على الرغم من ذلك فقد مثلت المعاني والأخيلة مظاهر الحضارة في ذلك العصر .

الشعر في الشام

في عهد الدولة الحمدانية :

كانت الدولة الحمدانية تسيطر في حلب والموصل ودياربكر ، وكانت دولة عربية أبية تفهم الشعر وتتذوقه . وقد استطاع سيف الدولة أن يوطد أركان ملكه في المدة القصيرة التي قضاها ، وهي ثلاث وعشرون سنة، بسط سلطانه خلالها على شمال الشام ، وهزم الروم في وقائع كثيرة ، لكن هذه الجهود أرهقت ميزانية الدولة فدب فيها شيء من الضعف في آخر عهده حتى ان خلفاءه لم يستطيعوا الصمود أمام هجمات الروم من الشمال والفاطميين من الجنوب. وقد تغنى المتنبي بحروب سيف الدولة وانتصاراته وصَحبَه تسع سنين كانت من أجمل أيامه وأعزها ونال حظوة كبيرة عنده .

وعلى الرغم من هذه المشاكل الكثيرة لم يغفل سيف الدولة - وهو العربي - عن العناية بالأدب والأدباء والسهر على إحياء العلوم والآداب ، فضمّ بلاطه

أعظم الشعراء كالسّري الرّفّاء وأبي الفرَج الببغاء، والمتنبي؛ واكبر الأدباء كأبي الفرج الأصفهاني، صاحب كتاب الأغاني الذي أهدى نسخة منه الى سيف الدولة فأعطاه الف دينـــار معتذراً عن قلة الصلة التي لا تجزي الهدية ، وكالفيلسوف العظيم أبي نصر الفارابي ، وابن خالوَيْه .

ولم يبخل سيف الدولة على العلماء والأدباء والشعراء بالعطايا والهبات ، لأنه كما قلنا عربي تهتز أريحيته للأدب والشعر شأن كل عربي أصيل .

وكان لهذا كله أثر كبير في نهضة الشعر في عهـده . وظل الشعر قويـــاً ناهضاً حتى بعد زوال الدولة الحمدانية ، وحتى في عهد نور الدين زنكي على الرغم من شُحّهِ ، وقلة عنايته بالشعر . فقد وجد الشعر مجالاً يحلق في أجوائه وهو الحروب الصليبية التي كانت خير غذاء له .

وستدرس في النصوص مختارات من المتنبي يمكن أن تستشهد بها على جودة الشعر في هذا العصر .

الشعر في مصر

١ – في عهد الطولونيين والاخشيديين :

أخذت الدولة الطولونية ـ وبخاصة احمد بن طولون بأسباب الترف والنعيم، وتفننت في ألوان الزخرف والتجميل ، ولكن على الرغم من ذلك ومن كثرة الشعراء في ذلك العصر ، لم يصل الشعرُ الى المرتبة التي وصل اليها في العراق ولم نجد شعراء ممتـــازين أمثال أبي تمـــام والبحتري وابن الرومي وغـيرهم من الشعراء المجيدين .

ومن أسباب عدم نهضة الشعر في ذلك العهد هو ان الذين تولوا الحـكم كانوا من الأتراك ، وليس لهـــم ذوق يشعرون به بقيمة الشعر كذوق العربي .
واذا كنا قد وجدنا شعراء ينظمون الشعر في أغراض مختلفـــة كالحسين

ابن عبد السلام ، وابن طباطبا ، وابراهيم بن عبدالله فانهم كانوا مقلّين .

نموذج من الشعر في هذا العصر :

قال أبوهريرة احمد بن أبي عصام وهو من شعراء المجون الذين كانوا يدمنون شرب الخمر – قال يصف مجلس شراب :

مَجْلِسٌ لا يَرَى الإله بِهِ غَدْ ... رَ مُصَلٍّ بلا وُضوء وطُهرِ
سُجَّدٌ للكئوس مِن دون تسْبِيـ ... ـحٍ سِوى نغْمةٍ لعُودٍ وزَمْرِ

وابن طباطبا نقيب الطالبيين بمصر يقول في المجون ايضاً :

أأتركُ الشُّرْبَ والأنواء دائمةٌ ... والطَّلُّ منها على الأشجار منثورُ
والغصن يهتز كالنشوان من طرَب ... والورد في العود مطويٌّ ومنشورُ

أما حالة الشعر العامة في هذا العصر فكل ما يقال فيها هو أن الشعر لم تكن فيه نهضة فنية كالتي رأيناها في شعر الديار العراقية ولم يصل شعراؤه الى مرتبة شعرائها أو حتى مرتبة مقاربة لهم .

وقد قدمنا لك ما يمكن أن تتخذه سبباً لذلك .

ب – الشعر في عهد الفاطميين : كان حكام هذه الدولة يتذوقون الشعر ، ويعنون به كوسيلة من وسائل الدعاية لدولتهم ونشر مذهبهم . وكان المعز لدين الله من أحرص هؤلاء على منافسة بغداد في حضارتها وثقافتها وأدبها وعلومها ، أعانه على ذلك مال كثير جاد به بسخاء على الشعراء والأدباء . وقد كانت أغلب أيامهم أعياداً ومواسم ، فكانت ميداناً عظيماً لنظم الشعر ، فكثر الشعراء والتفوا حول الفاطميين يمدحونهم وينالون عطاءهم ، وتنافسوا في إجادة مدحهم .

وراج الشعر رواجاً كبيراً ، وارتفع شأنه ، وتوسّع الشعراء في مدح خلفاء

الدولة ، والمبالغة في ذلك حتى أنهم كانوا يرفعونهم إلى مرتبة الآلهة ، كقول الشريف بن الأخفش من قصيدة في مدح الحافظ ، وقد بدأها بالغزل والخمر ثم انتقل الى المديح :

بَشَرٌ في العين إلا أنهُ   من طريق العقل نورٌ وهدى
جَلّ أن تُدرِكَهُ أعيُنُنَا   وتعالى أن نراه جسدا
فهو في التسبيح زُلفى راكعٍ   سمِعَ الله به مَنْ حَمِدا
تُدْرِكُ الأفكارُ فيه نبأً   كاد من إجلاله أن يُعبدا

وتعلق الشعراء بوصف بالأزهار والأنوار وبخاصة ما يحف منها النيل فتغنوا بها :

وروضةٍ تزهرُ من بنفسجٍ   كأنّها أرض من الفيروزَجِ

ووصف النواعير كقول أبي الفرج الموقفي في ناعورة :

ناعورة تحسبُ في صوتها   متيّما يشكو إلى زائر

ومما لا شك فيه هو أن الشعر في عهد الفاطميين قد صور بيئة البلاد وأهلها وحياتهم ، فكان يمثل ما يجري فيها من مجون وزهد وتصوف ، وقد أسرف الشعراء في الغزل فقالوا غزلاً في المذكر. وكانوا في أساليبهم وأخيلتهم ومعانيهم ينهجون منهج الشرق ، وقد عنوا بزخرف القول وأوغلوا في عنايتهم وتَوْريتهم .

والواقع ان الشعراء قد مثلوا بيئتهم بجميع جوانبها تمثيلاً صادقاً واضحاً ، وأن الشعر قد نهض في هذا العصر نهضة واضحة . ومن النماذج أيضاً :

في التصوف (من الخريدة) :

جهادُ النفسِ مفترَضٌ فخذها بآداب القناعة والزّهادهْ
فإن جنحت لذلك واستجابت وخالفتِ الهوى فهو الإرادهْ
عساك تحلُّها دَرَجَ المعالي وترفعها إلى رُتَب السعادهْ

ومن الاسراف في الزخرف :

سقى دِمَن السّفحين للقَطر صيِّبٌ وحيّا رُبى حَيٍّ رَبا فيه رَبْرَبُ
ومالِيَ عن شَرْع الصّبابة مَشْرَعٌ وماليَ إلا مَذْهبَ الحقِ مَذْهبُ

الشعر في عهد الأيوبيين :

استمرت الحركة الشعرية التي كانت قائمة في عهد الفاطميين ، إلا أن النفوس في هذا العصر لم تكن ترتع في مرح كالذي رتع فيه أولئك الذين عاشوا في ظل اللهو والبهجة في عهد الفاطميين . وقد ساعد على وجود هذا الجو ، الكآبة التي جاءت نتيجة الحروب الصليبية ، فمال الشعراء إلى الشكوى والزهد . وخير من يعبر عن هذه الحياة آنذاك البهاء زهير ، وابن مطروح رفيق البهاء، وكل منهما يمتاز بالسهولة المطلقة، إلا أن البهاء يفوق صديقه خفة روح وعذوبة أسلوب . غير أنه كان مولعاً بتوشية شعره والإكثار من المحسنات بنوعيها وبخاصة الجناس والطِّباق ، ثم التورية وتطرف في سهولته حتى لقد مزج شعره بكثير من الكلمات العامية .

نماذج : لابن مطروح يصف أسر ملك فرنسا في عهد الملك الصالح بالمنصورة :

قل للفرنسيس إذا جئته مقالَ صدق من قئولٍ فصيح
دارُ ابن لقمانَ على حالها والقيد باقٍ والطواشي صبيح

ومن قول البهاء زهير (وفيه سمة العامية) :

من اليوم تَعارَفْنَا ونطوي ما جرى منا
ولا كان ولا صارَ ولا قُلْتُم ولا قُلْنا
وإِن كان ولا بُدَّ من العَتْبِ فبالحسنى

هذه لمحة عن حالة الشعر العامة في العصر العباسي الثاني وفي عهد نشوء الأوطان السياسية ، وقد رأينا أن نتناولها بشيء يسير من التفصيل ليكون للباحث فيها غناء .

المناقشة

١ – كان انقسام الدولة العباسية إلى دويلات نقمة عليها ونعمة على الأدب. ناقش هذا الرأي مستعرضاً الحالة العامة للأدب في هذا العصر مبيناً خصائصه الفكرية والفنية .

٢ – انحط شأن الشعر في العهد الإخشيدي والطولوني وارتفع شأنه في عهد الفاطميين .

فما عوامل كلٍّ ؟ وما مظاهر الانحطاط والجودة ؟

٣ – ما المميزات التي يمتاز بها كل من الشعر الشامي والعراقي ، والشعر المصري ؟

المراجع

الفن ومذاهبه في الشعر — للدكتور شوقي ضيف
ظهر الإسلام — لأحمد أمين
تاريخ آداب اللغة العربية — لجورجي زيدان
الأدب العباسي — لمحمود مصطفى
أدباء العرب في الأعصر العباسية — لبطرس البستاني
الأدب في ظل بني بويه — لمحمود غناوي

وحيد المغنية

لابن الرومي

بلغ الترف أقصاه في القرن الثالث الذي عاش فيه ابن الرومي فكان لا بد له من أن يصبح ابن البيئة التي يعيش فيها . كان كلما بدا له وجه جميل افتتن به، فأفرغ ماء شبابه على أشواك شهواته ، وهو الذي أحب الجمال أينما كان وتفاءل به ، وكره القبح وتطيّر منه ، وهو الذي كان يحب الصوت الجميـل ومجالس اللهو فيقبل عليها ويصفها ويتغزل في القيان طالباً اللذة والاستمتاع ، فهي عنده زينة الحياة الدنيا حتى إن جـانباً كبيراً من شعره كان صدى لحبـه العميق للجمال ، وكراهيته الشديدة للقبح .

فمما قاله في مغنية قبيحة الصوت :

صوتُها في القلوب غيرُ رقيقٍ بل له في القلوب فَتْكٌ وبَطْشُ
فإذا رقَّقَتْهُ بالجهد منها خِلْتَ في حَلْقها شعيراً يُجشُّ

والنص التالي صورة دقيقة لهذه النفس المرهفة المولعة بالجمال ، وأثر من آثار هذا العصر الذي عاش فيه ابن الرومي، عصر الترف ومجالس اللهو ، والسّمَر ، والغناء .

ووحيد مغنية من مغنيات ذلك العصر الكثيرات ، ولكنها ليست في نظره كمثلهن ، فهي جميـلة في منظرها ، جميلة في صوتها ، وقـد عذبت الشاعر في

إقبالها وإحجامها ، في وعدها وإخلافها ، فحركت وجدانه ، فأمتعنا بهذا النص الذي سنعرضه عليك .

وأبو الحسن علي بن العباس بن جُريج الملقب بابن الرومي ولد ببغداد في ٢٢١ هـ ، وبها نشأ وتأدب ، وهو ينحدر من أصل رومي وأم فارسية ، ولقد بخسه المؤرخون حقه فلم يهتموا بجمع أخباره ، ولم يرد الينا منها إلا أخبار ليس فيها غناء ، ولكنه كان أحرص منهم على ذلك فجاء شعره تاريخاً صادقاً لحياته .

فإذا أردت حقيقة نسبه فهو رومي من ناحية أبيه ، وفارسي الأم :

كيف أُغضي على الدَّنيَّةِ والفر سُ خئولي والروم أعمامي

أما ولاؤه فعباسي :

قومي بنو العباس حِلْمُهُمُ حِلمي كذاك وجَهلُهمْ جهلي
مولاهمُ وَغَذيُّ نعمتِهمْ والرومُ حين تَنُصُّني أصلي

وقد عاش فقيراً ضيق العيش :

أيلتمس الناسُ الغنى فيصيبهم وألتمسُ القوتَ الطفيف فيلتوي

تركبه الديون فيشكو ، ويتبرم بأصحابه ، فيعاتب ويؤنب ويهجو ، وتمر به أوقات يلهو وينعم ، ثم يعود إليه بؤسه . لقد حالفه النحس والشقاء ، فلم يبتسم له الدهر إلا ساخراً منه . خذله أصدقاؤه ، وابتعدوا عنه ، وأقصاه الملوك ، ولم يقرّبوه ، فعاش مضطهداً كثير العَوَز ، وفجع في أعز الناس عنده ، فمات وهو على أشد ما يكون من البؤس والتطيُّر سنة ٢٨٣ هـ .

وقد خلّف لنا شعراً كثيراً ظل متفرقاً في كتب الأدب حتى عُني بعض الأدباء في مصر بطبعه ونشره ، وعني بدراسته جماعة منهم عباس محمود العقاد.

وليس ثمة غرض من أغراض الشعر الغنائي إلا قال فيه ابن الرومي ، كما خلَّف لنا رسائل صغيرة ، بعضها إلى بعض أصدقائه ، وإلى الوزير أبي القاسم ، وبعضها في تفضيل النرجس ، وكان يباري بنثره بلغاء الكتاب ويفتخر به كما يفتخر بشعره ، مشبهاً نفسه بالأخطل والجاحظ .

ألم تجدوني آلَ وهبٍ لمدحِكُمْ   بشعري ونثري أخطلاً ثم جاحظا؟

وشعره يمتاز بعمق التصوير ، واتساق الأفكار ، ودقة المعنى واهتمامه بتوليد المعاني واستيفائها ، ولذا نجده يهمل أحياناً جانب اللفظ .

وهو أطول الشعراء نَفَساً ، وأكثرهم اختراعاً للمعاني ، فهو في طليعة الشعراء المولدين .

النص :   « أ »

يا خليليَّ تيَّمتني وحيدُ   ففؤادي بها مُعَنًّى عميدُ
غادةٌ زانها من الغصن قدٌّ   ومن الظَّبْي مُقْلتانِ وجِيدُ

●

وغريرٍ بحُسْنِها قالَ صِفْها   قلتُ أمرانِ بيِّنٌ وشديدُ
يَسْهُلُ القولُ إنها أجملُ الأشـ   ـياءِ طُرًّا ويصعُبُ التَّحْديدُ
تتجلَّى للنَّاظرينَ إليها   فشقيٌّ بحُسْنِها وسعيدُ
ظَبيةٌ تسكُنُ القُلوبَ وترعاها   وقُمْرِيَّةٌ لها تغريدُ

« ب »

تَتَغَنَّى كأنها لا تُغَنِّي   مِنْ سكون الأوْصالِ وهي تجيدُ

لا تَراهَا هُناكَ تجحظُ عَيْنٌ لكَ منها ، ولا يَـدِرٌّ وَرِيدُ
مِنْ هُدوءٍ ، وليسَ فيه انقطاعٌ وسُجُوٌّ ، وما بــهِ تبْلِيْدُ
مَـدَّ في شَأوِ صَوتِها نَفَسٌ كا فٍ كـأنفاسِ عاشِقِيها مَديدُ
وأرقَّ الدَّلالُ والغُنْجُ منــهُ وبَراهُ الشَّجَا فكَادَ يبيدُ
فتَرَاهُ يموتُ طَـوْراً وَيَحْيا مُسْتَلَذٌّ بَسِيطُــهُ والنَّشيدُ
فيهِ وَشْيٌ وفيهِ حَليٌ مِنَ النَّغْ مِ مَصُوغٌ يخْتَالُ فيهِ القَصيدُ
طابَ فوها وما تُرَجِّعُ فيهِ كلُّ شيءٍ لهــا بِذَاكَ شَهِيْدُ
في هَوى مِثْلِها يخفُّ حَليمٌ راجِحٌ حلمهُ ويَغوى رَشيدُ

« ج »

وحسانٍ عرَضْنَ لي قلْتُ مَهلاً عَن وَحيدٍ فحقُّهــا التَّوحيدُ
حُسنُها في العُيونِ حُسنٌ جديدٌ فَلَها في القُلوبِ حُبٌّ جديدُ
فَهِيَ نُعْمَى يَمِيدُ منها كبيرٌ وَهيَ بَلْوَى يَشيبُ منها وَليدُ
خُلِقَتْ فِتنَةً غناءً وحُسنــاً مَا لهَا فِيهما جَميعاً نَديدُ
لِيَ حيثُ انصَرَفْتُ منها رفيقٌ من هَواها وحَيثُ حَلَّتْ قَعيدُ
عَن يَميني وعن شِمالي وقُدَّا مِي ، وخَلفي فأينَ عنهُ أحيدُ ؟
سَدَّ شَيطانُ حُبِّها كلَّ فَجٍّ إِن شَيطانَ حُبِّهــا لَمَريدُ

ما تزالين نظرةٌ منكِ موتٌ لي مُميتٌ ونظْرةٌ تخليدُ
نتلاقى فلحظةٌ منكِ وَعْدٌ بوصالٍ ولحظةٌ تهديدُ
قد مَلَلْنا من سِترِ شَيءٍ مَليحٍ نشتهيهِ فهل لهُ تجريدُ؟
هو في القلبِ وهو أبعد من نجم الثُّرَيَّا، وهو القَريبُ البعيدُ

الكلمات والاساليب

معنّى : مكلف ما يَشق عليه (مُتعب) . العميد : الشديد الحزن الذي هدّه العشق . الغادة : المرأة الناعمة . القد : القامة . القمرية : ضرب من الحمام حسن الصوت وتجمع على قُمر وقُماري . يدر الوريد : ينتفخ ويتوتر ، والوريد عرق في العنق . السجوّ : مد الصوت . التبليد : انقطاع الصوت . شأو صوتها : امتداده وغايته . يختال : يتبختر . الغنج : الدلال . الشجا : الطرب والغناء . يميد : يتمايل .

الافكار الرئيسية

تناول النص ثلاثة أفكار رئيسية هي :

١) تعلق الشاعر بوحيد المغنية التي هده عشقها ؛ ووصفها وإبراز مفاتنها ٢) وصف غنائها ٣) فتنة الشاعر بوحيد واستغناؤه بها .

التحليل

«أ» استهل الشاعر قصيدته بنداء المثنى على عادة الجاهليين ثم أخذ يبوح بوجده ، واصفاً جمال وحيد الذي أشقاه وتيّمه . فهي فتاة ممشوقة القد ، ليّنة الأعطاف ، تشبه الغصن الرطيب بلدانة قدها ، واستواء قامتها ، وتحاكي

الغزال في حَورَ عينيها ، وإشراف عنقها . أمـــا جمالهـــا فبادٍ للعيان تسهل مشاهدته ، لكن يصعب تحديده ، والإحاطة بمواطن حسنها كلـــه ، ويسهل القول بأنها أحسن الأشياء جميعاً دون تحديد ، وهي كشمس ساطعة تتجـــلى للناظرين موكباً من الفتنة والحسن ، فتـُشْقي بجمالها أناساً ، وتسعد آخرين : ُتشْقي من تصدّ عنــه ، وتسعِد من تقبـِل عليه ، وهي ظبية القلوب وُقمرية الغناء .

«ب» ثم يصف الشاعر غناء وحيد فيذكر تجويدها للغناء . إنها تغني غناءً يمتدّ ويشجو . وهي ساكنة الأوصال حتى كأنها لا تغني دون أن تجحظ منهـا عين ، ومن غير أن ينتفخ عرق عنقها حين يعلو الصوت بالغناء ، ويرتفع . وقد يهدأ صوتها ، وينخفض انخفاضاً شديداً فلا ينقطع ، فهي ليست كهؤلاء المغنين الذين لا تسعفهم حناجرهم على أداء طبقات الصوت الخفيفة فينقطع غناؤهم ، وقد يمتد صوتها امتداداً طويلاً فلا يتوقف . ذلك أن َنفَسها طويل كأنفاس عاشقيها الذين يُصعِدون الآهــات والزفرات حين تمتد أبصارهم إلى حسنهـا ، وتطرب مسامعهم بصوتها ، يضعفه الدلال والشجا فهــو يموت ويحيا كما أنــه يعذُب ممتداً أو مرتفعاً ، وهو لا ينقطع من رقة وإن أوشك أن يفنى ، وهو في كل الحالات لذيذ ممتع رائع ، يروع سامعه . وهي قد فتنت بجمالها وحسنها وغنائها الحليم ، وأغوت الرشيد .

«ج» يعبر الشاعر عن فتنته بوحيد ، بغنائها وحسنها ، فهي لا تضاهى في الفتنــة والإغراء ، فضلاً عن الغناء ، وهي تشغله عن كل فاتنة حسناء ، فليس في القلب سواها . حسنها يتجدد في العين ، فيجدد حبها في القلب . جمالهـــا نعمة لكن حبها بلاء لا نظير لـــه . وهو حيثما انصرف ، وأينما حلت هي كان له من هواها رفيق قاعد لديه لا ينفك عنه ولا يتفلـّت منه . إن شيطان حبها قد سدّ عليه كل طريق فليس في ميسوره ان ينجو منه .

ثم يلتفت الشاعر الى مخاطبتها قائلاً : ان نظراتك الساخطة حيناً، الراضية

حيناً آخر ، تمنح الموت المميت في سخطها ، والخلود المخلد في رضاهـا . يكمن فيها التهديد الموئس ، والوعد المطمع بوصلك والدنو منك . ثم يفضي الشاعـر بسآمته وعجزه عن الارتواء من هذا الشيء الذي افتتن به ، ويتمنى أن يتحقق غرضه ، فينكشف له ويقبل عليه ، فهو عاجز عن التخلي عنها على الرغم من صدودها ، وإحْجامِها ، فهي قريبة بحلولهـــا في قلبه ، وأبعد من الثريا في صدودها .

هذه حبيبة ابن الرومي ، وليدة وجده وحنانه وانخذاله .

التعليق والنقد

تتناول هذه القصيدة موضوعاً غنائياً عـــبر فيه الشاعر عن وجدانـــه ومرارته ، فهي بذلك أدلّ على حقيقة أسلوب الشاعر من سائر قصائـــده في الأغراض الأخرى وبخاصة قصائد المدح والعتاب والطلب، لأنه في تلك الأغراض يوقظ تجربته الشعرية ويبدي التعمد ، ويتفنن في أساليب الاحتيال والتوريـة والمبالغة ، أما هنا فإنه ينظم القصيدة بوجدانه الفني والنفسي معاً ، ويجتهد في الوصول إلى الذروة . وقد استهل الشاعر قصيدته على عادة التعبير الجاهـلي ممزوجاً بصوره ، وأضاف إلى ذلك خاصة أسلوبه ، وهي التفصيل والإحكام ، ويبدو أنـــه لم يستعر تلك العبارة « يا خليليَّ » بتأثير التقليد ، بقدر مـــا استعارها لما تشتمل عليه من نداء التفجع والشكوى ، فقد شاع استعمال هذه العبارة في الشعر للحسرة والبكاء ، وهي هنا ليست مبتذلة لأن الشاعر أضفى عليها كثيراً من وجده وتولّهه .

وقد غلب القديم أيضاً على روح القصيدة ، فقـــدّ الغصن ، ومقلتا الظبي وجيده ، وقمرية الغناء ، كلها ألفاظ جاهلية وفيهـــا ملامح المرأة الجاهلية . والذي لا ريب فيه أن ابن الرومي لم يتخيل وحيداً ، بل رسم الملامح المطلقة لجمال المرأة ، فكأنما هو يتلوها تلاوة من ذاكرته ، ويعيد ما شاع في الناس من

هذه الصفات . ويلاحظ أن الشاعر مفتون حقاً بمغنيته الجميلة لكنها فتنة لم تَرْقَ الى عاطفة الحب بمعناه الحقيقي ، بل هي الفتنة التي ينشدها الشاعر أينما وجدت : في الصوت ، في الوجه ، في القد ، في الروض .. إنها فتنة صادقة ، لكنها ليست الحب .

كان ابن الرومي حاذقاً طريفاً في وصفه وإحاطته بالموصوف إحاطة شاملة، سواء أكان مادة كالصوت ، أو عاطفة كالحب . فحينما نراه يصف غناء وحيد ، نجده لم يترك زيادة لمستزيد فكأنه خبير بفن الغناء خِبْرَتَهُ بفن الشعر ، وقد اختار الشاعر من جزئيات الغناء أهمها ، وهي ارتفاع الصوت ارتفاعاً شديداً، وانخفاضه انخفاضاً يكاد يتلاشى فيه ويفنى . وهاتان الجزئيتان أهم من أي جزئيات أخرى في الغناء . فهما اللتان يسقط فيهما المغنون غير الماهرين الذين تعجز حناجرهم عن أداء هاتين الطبقتين أداء كأداء وحيد . ثم هو في وصفه يسير على عادته المشهورة من الاستقصاء .

شبه الشاعر قدّ مغنيته بالغصن ، وشبه عنقها وعينيها بعنق الظبي وعينيه ، لكن لا فضل له فيهما كما قلنا ، فهما تقليديان .

وقد أبدع في تشبيه نفَس وحيد بأنفاس عاشقيها في آهاتهم وتوجعهم ، وهو تشبيه مبتكر وطريف .

وقد استعار الشاعر للصوت الموت والحياة ، في حالتي ارتفاعه وانخفاضه .

في أبيات الفكرة الأولى جمال ليس مرده إلى ألوان البيان التي أتى بها بل إلى دقة وصف الصوت، وإلى الجَرْس الموسيقي الجميل الشبيه بالغناء في ائتلاف الألفاظ ، وعدم تنافرها وتعاقب حروف المد تعاقباً يتسلسل على شكل موجات ترتفع وتنخفض وتمتد .

وقد أجاد الشاعر في تصوير وقوعه في شباك حبها :

سد شيطان حبها كل فج ... البيت .

فقد صور الحب رفيقاً ملحاحاً ، قد لازمه ، وسدّ عليه جميع منافذ روحه فلم يجد مخلصاً منه .

وفي البيتين : ما تزالين نظرة منك .... البيت .

نتلاقى فلحظة ...... البيت

برع الشاعر في تصوير نظراتها المؤنسة المطمعة معاً .

النص يدل دلالة واضحة على لون من ألوان العصر الذي عاش فيه الشاعر ، ذلك اللون الذي شاع نتيجة هذه الحياة الرخية الزاخرة بالغنى والثروات ، لون الترف وارتياد مجالس اللهو وحانات الخمر والقيان ، لون تأثر به العرب ، نتيجة اختلاطهم بالأجناس الأخرى من فرس ، وروم وغيرهما ممن اتصلوا بهم.

★

هذه القصيدة من البحر الخفيف وأجزاؤه :

فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن

وإليك تقطيع البيت الأول منها :

يا خَلِيْلَيْ يَتَيْيَمَتْ نِيْوَحِيدو ففُؤادي بِهامُعنْ نَنْعِميدو

/٥//٥/٥ //٥//٥ /٥//٥/٥ ////٥/٥ //٥//٥ /٥//٥/٥

فاعلاتن متفعلن فاعلاتن فعلاتن منفعلن فاعلاتن

موضوعات للبحث

١ – وصفُ ابن الرومي وصف الشاعر الذي يحب الحياة والجمال بعاطفة تتأثر بكل مظهر من مظاهرهما .

وضّح وبرهن .

٢ – يتجلى لنا من خلال وصف وحيد قدرة ابن الرومي الغزلية على إيقاظ كل

ما في نفسه من مشاعر ، وما في حواسه من حدة ، وخبرته بفن الغنـــاء والمغنين .

ناقش هذا القول على ضوء دراستك لقصيدة وحيد .

٣ – قصيدة وحيد مظهر من مظاهر الحياة العباسية في ذلك العهد .
كيف تثبت ذلك وتدعمه بالدليل ؟

المراجع

ابن الرومي — لعباس محمود العقاد
الفن ومذاهبه في الشعر — للدكتور شوقي ضيف
تاريخ الادب العربي – العصر العباسي — لمحمود مصطفى
تاريخ الادب العربي — لـكارل بروكلمان، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار

منتخبات

١ ـ لون من التهكم

لابن الرومي

تعددت مراكز الشعر في العصر العباسي الثاني ، وظهرت فيه الوان جديدة من الفنون الشعرية ، كالحكمة ، والتصوف ، ووصف الوقائع الحربية ، وشكوى الزمان وبؤسه ، والتهكم والسخرية .

وسنعرض عليك فناً جديداً من هـذه الفنون وهو الشعر التهكمي الذي برز واضحاً في هجاء ابن الرومي ، فقد اشتهر بالتهكم اللاذع والسخرية من المهجو ، يدفعه الى ذلك غضب ممن ضايقه ، أو ممن بخل عليه بالعطايا أو انتقد شعره ، أو نفور مما لا يستسيغه ذوقه . وقد برع ابن الرومي في هذا النوع براعـة لا تضارع ، فهو يصور الحركات ، ويصف الاشكال ، وصفاً يبعث على الضحك .

قال في أبي سليمان المغني :

وَمُسمعٍ لا عَدِمْتُ فُرقَتَهُ فانَّها نِعْمَةٌ مِنَ النِّعَم
يطولُ يومي إِذا قرنْتُ به كأَنَّني صـائمٌ ولم أَصُم
مجلسُهُ مأتمُ اللّذاذاتِ والقَصْفِ وعُرسُ الهُمُومِ والسَّدَم [1]
يَشْدو بصوتٍ يسوء سامعَه تباركَ اللهُ بارىءُ النَّسَم

١ ـ السدم : الهم والغيظ والحزن .

أبحّ فيه شذورُ حشرجةٍ منظُومةٍ في مقاطعِ النَّغَم
نَبرتُه غُصّةٌ وهِزّتُـــه مثلُ نبيبِ التُّيوس في الغَنَم[1]

*

أحلفُ باللهِ لا شريك له فانها غايـــةٌ من القَسَم
ما عرّف اللهُ قبلهُ أحداً ما فضلُ نعمائه على النِّقَم

التحليل

تبدو سخرية الشاعر في هذه الأبيات واضحة فهو يتمنى ُفرقـة أبي سليمان وهي عنده نعمة من نعم الله المحمودة . ثم إن رؤية هذا الرجل ، تسبب طول اليوم كما يطول الصيام على الصائم ، لكن فرق بين الاثنـين ، فطول يوم الصيام يعود على صاحبه بالنفع ، والثواب العظيم ، لما فيه من طـاعة تقرّب الى الله ، وطول يوم أبي سليمان لا ينفع بل يبعث على السآمـــة والضجر . مجلسه يجلب الحزن والكآبة وغناؤه يبدل العرس هماً وحزناً وغيظاً .

ان صوت هذا المغني يسيء سامعيه ، تسمعه فيخيل اليك أن مقــاطع نغمه فيها ما يجعلها تحشرج حشرجة المحتَضَر يلفظ أنفاسه الأخيرة .

نبرة صوته ُغصّة ، وهزته تشير الى تيس يصيح في الغنم ، اذا بكى الصبية ُخوّفوا به فسكتوا . وأخـــيراً يقسم الشاعر أن أبا سليمان وغناءه سبب في معرفة الفرق بين النعمة والنقمة .

المناقشة

١ – تتراءى لنا في هذه الأبيات قدرة الشاعر على تجسيم العيوب وفنه في بعث الضحك ، وبراعة السخرية ، وضح ذلك .

---

١ – نبيب : صياح ؛ صوت .

٢ – حدد الأبيات التي ذكرها ابن الرومي في قبح صوت أبي سليمان .
وضح أحسن الصور التي أعجبتك ، وبيّن سبب إعجابك .

٣ – هجا دِعبل الخزاعي الهجّاء ، أمير مصر المطّلِب بن عبدالله بن مالك فقال :

وَضَعْتَ رجالا فما ضرَّهم   وشرَّفتَ قومــاً فلم ينبلوا
تنَوِّطُ مِصْرُ بك المُخزِيات   وتبصُق في وجهك المَوْصِلُ
إِذَا الحربُ كنتَ أميراً لها   فحظُّهمُ منكَ أن يُقْتَلوا
شعارُك في الحرب يوم الوغى   إِذا انهزموا «عجِّلوا عجِّلوا ! »

قارن بين هجاء ابن الرومي ، وهجاء دعبل ، وبيّن أيهما أكثر سخرية وإجادة ؟ ولماذا ؟

٤ – مجلسه مأتم اللذاذات والقصف وعرس الهموم والسدّم .
في هذا البيت صورتان خياليتان فوضحها .

ب ـ جانب من حياة اللهو

لابن الرومي

إذا كنا قد عهدنا ابن الرومي متشائماً متطيراً منطوياً على نفسه فإننا قد وجدنا عنده جانباً آخر من جوانب الحياة اللاهية المرحة ، فهو لم ينعزل تماماً عن الحياة الاجتماعية ، وهو لم ينبذ حياة اللهو .

وسنجد في النص التالي صورة لهذه النفس التي لم يكن طابع التشاؤم كلّ ما عندها ، بل جمعت بين الحزن والأسى وبين ألوان المسرة والبهجة والمتعة كما وجدنا قبل في قصيدته « المغنية وحيد » .

النص :

وقدأغتَدي لِلطَّيْرِ والطيرُ هُجَّعٌ   ولو أوْجَسَتْ مَغْدايَ ما بِتْنَ هُجَّعا
بِخِليْنِ تمَّا بي ثلاثةَ إِخوةٍ   جسومُهمُ شتَّى وأرْوَاحهم معا
مطيعَيْنِ أهواءً تَوافَتْ على هوىً   فلو أُرْسِلَتْ كالنَّبل لم تَعْدُ مَوقعَا
إِذا ما دعا مِنَّا خليلٌ خليلَهُ   « بأفديك » لبَّاه مجيباً فأسرعا
كأنَّ لهُ في كل عُضوٍ ومِفْصَلٍ   وجَارِحةٍ قلباً من الجَمْرِ أصمَعَا

★

فثارُوا الى آلاتِهم فتقلدوا خرائطَ حُمراً تَحمل السُّم مُنْقَعا
منمَّقَةً ما اسْتَودَع القومُ مثلَها ودائعَهم ، إلا لكيلا تُضيَّعا
مُحمَّلةً زاداً خفيفاً مناطُهُ مِن البُنْدُق الموزونِ قلَّ وأقنعا
وقد وقفُوا للحائماتِ وشَمَّروا لهُنَّ إلى الأنصافِ سُوْقا وأذرُعا
وَجَدَّت قِسِيُّ القومِ في الطَّيْرِ جِدَّها
فظلت سجوداً للرّمــــاةِ ورُكَّعا

الكلمات والاساليب

هجع : نائمـــة في أعشاشهـــا . أوجست : أحست وتوقعت . مغداي : خروجي في هذا الوقت. أهواء : عواطف ورغبات. توافت: تآلفت واتفقت. لم تعْدُ : لم تتجاوز . أصمعا : ذكياً متيقظاً ، ويطلق الأصمع أيضاً على القلب، قال الأخطل في مدح عبد الملك بن مروان :

والهمُّ بعد نجيّ النفس يبعثه بالحزم والأصمعان القلب والحذرُ

جارحة : عضو . ثاروا : قاموا مسرعين . خرائط : جمع خريطة وهي تشبه الكيس . تحمل السم منقعاً : تحمل السم قاتلاً . منمقة : مزخرفة . محملة زاداً خفيفاً مناطه : أي محمـلة بندقاً (ضرباً من الرصاص) خفيف الحَمْل . أقنعا : أرضى الصائد ووجد فيه كفايته في الصيد. الحائمات : الطير التي تحوم في الجو أي تدور فيه . سُوق : جمع ساق وهي الرّجل .

التحليل

تمثل الأبيات جانباً من حيــاة المتعة التي وجدها ابن الرومي في بعض أيام حياته فهو يسجل هذه اللحظات التي مرت في حياته الباسمة ، حين يخرج هو وثلة من أصدقائــه – صباحاً – قصْد المتعة واللهو بـــين أحضان الطبيعة ، فيباغتون الطير وهي نائمة مطمئنة في أعشاشها، هادئة في أوكارها، ولو أحست هذه الطيور بتلك المباغتة لما باتت مستقرة هاجعة . وهذه المرحلة إنما قام بها جماعة من الأصدقاء المتحابين المتآلفين نفساً وروحاً وهوى ، فبينهم تجاوب تام ، وإخلاص متبادل ، وميول متحدة ، كالنبل تقذف بنادقها أيـــد كثيرة لكنها تصيب هدفاً واحداً، وقد تمثل الوفاء في كل عمل من أعمالهم .

المناقشة

١ – سلك الشاعر في التعبير عن معنى البيتين الأولين سبيل الإطناب ، وضح ذلك .

٢ – في البيت الثالث صورة خيالية ، وضّحْها وبين رأيك فيها أمقبولةٌ هي ؟ أم جيدة ؟ ولماذا ؟ أمبتكرة ؟ أم شائقة ؟

٣ – عبر الشاعر – في أحد الأبيات – عـــن الخفة والمرح والنشاط فأين هو ؟ وكيف عبر الشاعر عن هذه المعاني ؟

٤ – المعروف عن ابن الرومي أنه يتقصى المعاني، ويولدها بعضها من بعض، فهل تستطيـع أن تستخرج من هذه الأبيات ما يدل على هذه الظاهرة ؟.

٥ – ابحث في الأبيات عن صور أخرى تروقك ووضحها .

٦ – صور الشاعر في أحد الأبيات حالة معنوية بحـــالة حسية ، استخرج البيت وعين الصورة فيه .

٧ — عبر الشاعر في أحد الأبيات عن استعداد الصيادين وترقبهم . فأين البيت الذي يفيد ذلك ؟

وما رأيك في كيفية تناوُل معناه ؟

٨ — هل هذا الموضوع الذي طرقه ابن الرومي من الأغراض التي جـدت في العصر العباسي ؟ وضح ذلك .

٩ — يئس ابن الرومي من ألفـــة الناس ، فابتعد عنهم جملة . فما أسباب ذلك ؟ وما أثره في نفس ابن الرومي ؟

ايوان كسرى

للبحتري

ارتحل البحتري الى « المدائن » قرب بغداد، نتيجة لما أصابه من ألم وحزن بسبب مقتل الخليفة « المتوكل » الذي قرّبه ونادمه ، وأغدق عليه من العطايا الكثيرة ما هيأ له حياة رخية جعلت الشاعر يسكب الدموع حسراتٍ في رثائه لولي نعمته، مما أوغر صدر ابن المتوكل ـ الذي كانت له يد في قتل أبيه ـ عليه، فأصبح لا يطيق الحياة في بغداد .

وفي المدائن أطلال ايوان كسرى ، مقر ملوك الفرس الذين قوض العرب دعائم ملكهم في فجر الاسلام. وقد زار البحتري هذه الأطلال ووقف عندها ، فأثارت في نفسه الشجن ، وبعثت على الاعتبار، فراح يصور هذه الآثار ، ويصف تلك الأطلال ، ويبدي إعجابه بأصحابها الفرس .

وأبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي (صاحب النص) من قبيلة طَيْء وغلب عليه اسم البحتري نسبة الى عشيرته « بحتر » التي كانت تجوب بادية الشام الشمالية ، فهو شاعر طائيّ شامي ، كانت مسقط رأسه « مَنْبِج » بالقرب من حلب سنة ٢٥٤ هـ. ، وقد تيقظت موهبته الادبية في سن مبكرة ، واستطاع ان يتصل منذ أعوامه الاولى بأبي تمام ، أستاذ الشعر والفن في ذلك العصر . وقد قربه أبو تمام اليه عندما لمح فيه علامات النبوغ الفني ، وحاول أن يلقنه أصول صناعته .

واذا كان البحتري قد تتلمذ على أبي تمام فإنه لم يتأثر بفنه الشعري وببديعياته تأثراً يجعله صورة من أستاذه ، بل سلك مسلكاً آخر يغاير مسلك أبي تمـــام حينما حرص على الوضوح والسلاسة وجمال الصور . ولم يتعمق البحتري في المعاني كما تعمق فيها أبو تمام ، ولم يتعمل ويتصنـع كما تعمل أستاذه ، ولذا فقد اعتبر النقاد البحتري زعيم مدرسة الطبـع ، أما أبو تمام فزعيم مدرسة الصناعة ، وقد خصّصت كتب النقد والبلاغة مكاناً كبيراً لمنـاقشة الخصائص الفنية لكل من المدرستين ، وفي كتاب « الفن ومذاهبه في الشعر » للدكتور شوقي ضيف بيان شاف في ذلك فارجع اليه ان شئت التوسع والتعمق . وتوفي البحـتري سنة ٢٨٤ هـ.

آثاره : خلـّف لنا ذلك الشاعر العظـيم ديوان شعر في جزءين وهو غـــير مبوب ، تتوالى فيه القصائد دون نظـــام ، وأغلبه يـدور حول مدح الخلفاء والوزراء . وقد حظي المتوكل والمعتز بالنصيب الأكبر من مدائحه . ومدائح البحتري سجل تاريخي حافل بكثير من الحوادث المعاصرة مثل ثورة أرمينية التي نشبت في عهد المتوكل ، وغيرها من المناسبات التاريخية . وكان بعض الحـكام والرؤساء الذين اتصل بهم البحتري وأثنى عليهم فرساً ، أو حكاماً على مقاطعات فارسية ، لذا وجدنا كثيراً من شعره يشير الى تأملاته ولمحاته الفارسية . ولعل أصدق دليل على ذلك ، سينيته هذه في « وصف ايوان كسرى » .

النص

أ) الفخر والشجن

صُنتُ نفْسي عمَّا يُدَ نسُ نفْسي وترفَّعتُ عَنْ جَدَا كلِّ جِبْسِ

وتماسكتُ حين زعْزعَني الدَّهرُ التماساً منه لتَعْسي ونَكسي

بُلَغٌ من صَبابَةِ العيشِ عندي طفَّفَتْها الأيامُ تطفيفَ بَخسِ

وبعيدٌ ما بَيْنَ واردِ رَفْهٍ   عَلَلٍ شُرْبُه ووارد خِمْسِ

وكأنّ الزّمانَ أصبحَ محْمُو   لاً هَواهُ معَ الأَخسِّ الأَخَسِّ

واشْترائي العراقَ خِطةُ غَبْنٍ   بعْدَ بَيْعي الشآمَ بَيْعةَ وَكْسِ

★

وإِذا ما جُفِيتُ كُنتُ حَرِيّاً   أنْ أُرَى غيرَ مُصبحٍ حيثُ أُمْسي

حَضرَتْ رَحْليَ الهمومُ فوجّهتُ   إِلى أَبيضِ المدائنِ عَنْسي

أَتسلّى عن الحظوظِ وآسَى   لمحلّ منْ آل ساسانَ دَرْسِ

ذَكّرَتْنِيهمُ الخطُوبُ التوالي   وَلَقَدْ تُذكِرُ الخطوبُ وتُنْسي

وهمُ خافضونَ في ظلّ عالٍ   مُسرفٍ يُحسِرُ العيونَ ويُخْسِي

ب) وصف الأطلال

حِللٌ لمْ تَكُنْ كأطلالِ سُعْدى   في قِفَارٍ من البَسابسِ مُلْسِ

ومساعٍ لولا المحاباةُ مِنّي   لمْ تُطِقْها مَسعاةُ عَنْسٍ وَعبْسِ

نَقَل الدهرُ عَهدَهُنّ عن الجِدّ   ةِ حَتى غدوْنَ أنضَاءَ لُبْسِ

فكأنّ الجِرْمَازَ مِن عَدَمِ الأُنسِ   وإِخلاقِه بَنِيّةُ رَمْسِ

لو تراهُ علمتَ أن الليالي   جَعَلتْ فيه مأتماً بعد عُرْسِ

وَهوَ يُنبِيكَ عن عجائبِ قوم   لا يُشابُ البيانُ فيهم بِلَبْسِ

ج) صورة انطاكية

فإذا ما رَأيتَ صورةَ أنْطا   كِيَّةَ ارْتعتَ بَيْن رُوم وفُرسِ
والمنايا مواثلٌ وأنُوشر   وان يُزجي الصُّفُوفَ تحت الدِّرَفْسِ
في اخْضرَار منَ اللِّباسِ على   أصفرَ يختالُ في صَبيغَةِ وَرْسِ
وعِراكُ الرجال بَيْن يَدْيهِ   في خُفُوتٍ منْهُم وإِغماضِ جَرْسِ
مِن مُشيحٍ يُهوي بعامِلِ رُمْحٍ   ومُليحٍ من السِّنان بتُرسِ
تَصفُ العينُ أنَّهمْ جدُّ أحياً   ءِ لهم بيْنَهمْ إِشارَةُ خُرسِ
يَغْتَلي فيهمُ ارْتيابيَ حتَّى   تتقراهُمُ يَدايَ بِلَمْسِ

د) وصف الايوان

وكأنَّ الإِيوانَ من عجب الصَّنْعَة   جَوْبٌ في جَنْبِ أرعَنَ جَلْسِ
يُتظنَّى مِن الكآبَةِ أنْ يبْدُو   لعيْنَيْ مُصَبِّحٍ أو مُمَسِّ
مُزعَجاً بالفراق عن أُنسِ إِلفٍ   عَزَّ أو مُرهقاً بتطليق عِرْسِ
فهُو يُبْدي تجلُّدًا وعَلَيه   كَلْكَلٌ من كلاكل الدهر مُرْسي
لَمْ يَعبْهُ أنْ بُزَّ مِن بُسُطِ الدِّيباجِ   واستُلَّ من ستور الدِّمَقْسِ
مُشمَخِرٌّ تَعلُو لَهُ شُرُفاتٌ   رُفعتْ في رؤُوسِ رَضْوىٰ وَقُدْسِ
لابساتٌ من البَياض فما   تُبصرُ منها إِلا غلائلَ بُرْسِ
لَيْسَ يُدْرَىٰ أصُنْعُ إِنسٍ لجنٍّ   سَكنُوهُ أمْ صُنْعُ جِنٍّ لإِنْسِ

الكلمات والاساليب

الجدا : العطاء . الجبس : الجبان اللئيم . تماسكت : صبرت وتجلدت . النكس : الانتكاس ويراد به هنا الإذلال والقهر .

المدائن : قصر المدائن الأبيض . بُلَغ : جمع بُلْغة ، وهو ما يكفي من العيش . العلل : الشربُ تباعاً ، الخمس من إظماء الإبل ، وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الماء في اليوم الرابع ، والمعنى المراد هنا : العيش البئيس .

حضرت رحلي الهموم : نالتني الأحزان بسبب هذه الحال السيئة . أبيض المدائن : قصر المدائن الأبيض . العنس : الناقة القوية . آل ساسان أو الساسانيون: أكاسرة الفرس الذين كانوا يحكمون بلاد فارس ثم أطاح بهم العرب في موقعة القادسية . في ظل عال : أي في ظل قصر عال . يحسر العيون : يضعفها اذا نظرت إليه . يخسي : يؤلم . البسابس : القفار . ملس : خالية . المساعي : المكارم . عنس قبيلة يمنية . عبس : قبيلة مضرية ومنها عنترة . أنضاء : جمع نضو ، وهو المهزول البالي ، الجرماز : بناء عظيم ، ويعني البهو في ذلك القصر وهي كلمة فارسية .

أنطاكية : بلدة بالشام وقعت فيها معركة بين الفرس والروم كانت صورتها في الإيوان . أنوشروان : من أعظم أكاسرة الفرس تصدَّى للروم ، وانتصر عليهم ، عرف بعدله وحنكته . يزجي الصفوف : يدفع بها ويرسلها . الدرفس: فارسية وتعني الراية الكسروية الكبرى، وهي راية تكون مطرزة ومرصعة بالجواهر انتزعها الفرسان العرب من أصحابها يوم القادسية ، أصفر : صفة للجواد المحذوف ، ويبدو أنه لون رداء كان يُكسى به حصان كسرى . الورس : نبات شديد الصفرة . اغماض الجرس : الصوت الغامض الخافت . المشيح: صفة للمحارب اليقظ. المليح : الحذر الذي يقي نفسه الضرب والطعن . والفعل ألاح وهو في الاصل أشار ولمع . الجوب : الخرق . الأرعن : الجبل ذو أنف يتقدمه . الجَلْس : الجبل العالي . المشتري : كوكب سعد ، لكنه

تحول نحساً في هـذا القصر . الغـلائل : جمع غـلالة ، شعار يلبس تحت الثوب سداه ولحمته حرير . الدمقس : الحرير الأبيض . البرس : القطن أو ما يشبهه .

الافكار الرئيسية

«أ» الفخر بالترفع عن الدنايا وعطايا اللئـيم ، والصمود أمام نوائب الدهر وصروفه حين أرادت قهره ، ثم الإفاضة بما يعانيه من أسى وما يلاقيه من آلام بسبب الهموم التي تـكاثرت عليه فدفعته الى التحول عن بغداد الى المدائن قاعدة الأكاسرة عله يتعزى بما أصاب أكاسرة الفرس عما أصابه هو .

«ب» وصف أطلال الأكاسرة ، وما تبقى من قصورهم .

«ج» صورة انطاكية التي استوقفته فراح يبدع في تصويرها .

«د» وصف الايوان .

التحليل

أ) يفخر الشاعر بترفعه عن الدنايا ووقوفه صامداً قوياً أمام صروف الدهر الذي ابتلاه ، وأراد قهره فضيق عليه العيش ، فكأن هوى ذلك الزمـان كان مع الصعاليك من الناس . ان مقـامه بالعراق قد جلب له الهموم والآلام بعد أن ترك وطنه الاول في الشام ، ولما كان الشاعر ذا نفس أبيـة لا تقبل الضيم فقد ترك بغداد متوجهاً الى أطلال المدائن عله يجد هناك ما يؤنس وحشته .

ب) ثم يصف الشاعر بعد ذلك ما تبقى من أطلال الأكاسرة ، تلك الأطلال التي ذكـّرته اياهـا الخطوب المتتالية على الخلافـة العباسية، وهكذا تُذكِر الخطوب وتُنسي، فالقصر الأبيض عالٍ يرتدُّ البصر عنه تعباً، ولا يمكن لأطلال سعدى في الصحارى العربية ان تضارعه وأمثاله روعة وجمالاً .

ويبدي لنا الشاعر اعجابه بمكارم أهل هذه المنـازل فيقول : لولا محاباتي

لقومي العرب ، لقلت انها فوق طاقة القبائل العربية .

والجرماز مقفر يخيم عليه السكون ، لخلوّه من قومه ، وتصدُّع مبانيه ، فلو رحت تتأمله ، لأدركت أن توالي الايام وحوادثها صَيَّرته قبراً مهجوراً ، بعد ان كان قصراً عظيماً يفيض حيوية ونشاطـاً ، كأنه عرس حافل بالبهجة والمسرة .

ج) واستوقفت شاعرَنا صورةُ انطـاكية ، لجمالها وفنّيتها فرسمهـا بريشة فنـان بارع بدا فيها الجيشان – من الروم والفرس – وقـد التحما حول أنطاكية ، والموت يُطل من ثنايا هذه المعركة ، وانوشروان – الملك العظيم – يقود جنده قيادة بطل محنك ويتقدم بهم في ظل الراية الكبرى . انه وسط المعركة يروح ويغدو في حُلتّه السندسية الفضفاضة ، وقد امتطى صهوةجواده المكسو بردائـه الأصفر ، وعراك الجند بين يديه يحتـدم دون ان تسمع منهم صوتاً ، وهم بين بطل يقظ ، يتلقى الطعنة بترسه ، وفارس ينقضّ بسنان رمحه على خصمه . ويبدو للناظر أنهم أحياء ، بل بلغوا من الحياة حداً يخيل للرائي أنهم يتكلمون ويفصحون ، فلا يحسبهم المرء إلا خرساً أغنت إشاراتهم عن نطقهم . انها لوحة فنية رائعة تعبّر عن مدى براعة مصورها ، وإن يـد الشاعر التي راحت تتلمس بأناملها هذه الصورة ، بعد ان تشكك في حقيقة ما رآه ، هي وحدها التي أحالت شكـّه الى يقين .

وهذا هو الفن بعينه ، فن يجعل الرائي متحيراً بين الحقيقة والخيال .

د) أما الإيوان فرائع عجيب في فنه ، شاهق البنيان ، تبدو عليه علامات الكآبة حتى لتظنه متألماً لفراق حبيب ، أو تعباً بتطليق عِرْس، يبدي التجلد على نوائب الأيـّام الجاثمة فوق صدره ، وهو وإن عُرّي من ستور الحرير ، فإن ذلك لم يُنقص من شأنه ، فهو لا يزال شامخاً بأنفه يطل – بشرفاته المرتفعة – على جَبَلي رضوى و قُدس ، وقد بلغ من دقة فنه وإبداعه درجة يقف الرائي امامها متحيراً يتساءل : أهو من صنع إنس لجن ، أم من صنع جن لإنس ؟!.

التعليق والنقد

كان مجال الوصف – في العصر العباسي – واسعاً أمام الشعراء نتيجة لهذه الحضارة الراقية ، فوصفوا الرياض ، والبرك والقصور وغيرها . وممن حلّق في أجواء هذا المجال الشاعر البحتري الذي ضرب بسهم وافر في هذا المضمار .

وسينيته هذه فريدة في موضوعها، فوَصْفُ الممالك الزائلة موضوع طريف في الشعر العربي .

وهي تعد من روائع الفن الأدبي .

كان البحتري حاذقاً في نقل مشاعره إلى القارىء ، وقد أبدع الشاعر في وصف الإيوان وصفاً دقيقاً . وأفضل ما يتجلى في هذا الوصف ، صورة أنطاكية ، اذ استطاع – بحذقه ومهارته – أن يجسّمها ، وأن يبث فيها الروح والحياة حتى بدت وكأنها تعمل وتنطق وتشعر ، بل إنه قد أشرك حواسه في استجلاء هذه الصورة .

يغتلي فيهمُ ارتيابيَ حتى تَتَقرّاهُمُ يدايَ بلمسِ

وقد سطر الشاعر بمداد الفخر – من خلال وصفه – صحيفة من مكرمات الفرس ، وتخيل الإيوان قبراً يبعث على الألم والحسرة بعد عرس حافل بالبهجة .

وتتميز القصيدة بعاطفة صادقة ، عاطفة شاعر معجب بالجمال ، وهي من النوع النادر في الشعر العربي ، إذ قليلاً ما يتحدث الشعراء عن عواطفهم من خلال وصفهم .

وقد برع الشاعر حينما قصد إلى الإيوان يَنْشُدُ بين أطلاله التسلي والعزاء ، حتى جعلنا ننسَى شَجَنَهُ الذي بدا في أبياته الأولى .

وألفاظ الشاعر منتقاة سهلة مألوفة ، ما خلا بضعة ألفاظ غريبة ربما دعت إليها قافية صعبة التناول .

وأسلوب الشاعر عذب قريب المأخذ .

فهو لم يسرف ولم يتكلف استعمال المحسنات البديعية ، بل جاءت عفو الخاطر فكانت قليلة ، مثل : الطباق بين « مأتم » و « عرس » ، « تذكّر » الخطوب و « تنسي » .

والمقابلة بين شطري البيت :

وهذا البيت ، أيضاً ، « إيضاح بعد إبهام » ففيه إطناب .

وقد برع البحتري في التصوير الذي لم يتعمق فيه تعمق أستاذه أبي تمام بل أتى قريب المنال .

فالجرماز شبيه بالرمس ، وهو الذي ينبىء بلسان حاله عن عجائب الفرس.

وقد صور المنايا ماثلة تنتظر الأمر بالعمل في المعركة . وفي القصيدة بضعة ألفاظ جديدة على الأدب العربي ، ألفاظ فارسية ، جاءت نتيجة اتصالنا بالأمم الأجنبية وتأثرنا – نحن العرب – بالثقافة الفارسية في هذا العصر .

ومن هذه الألفاظ « الايوان » و « الجرماز » .

ولما كان العنصر الفارسي من أقوى العناصر التي برزت في ذلك العصر ، ومن أعرقها حضارة ، رأينا الأدباء والمفكرين ، يتأثرون بثقافة الفرس وحضارتهم .

وفي قصيدة هذا الشاعر ، ما يدل على هذا ، فنحن نراه محيطاً بتاريخ الفرس ، وبألوان حياتهم ، فيذكر لنا أسماء بعض ملوكهم ويشير الى الحوادث التي وقعت لهم ، ويعرفنا بما يدور في قصورهم . وهكذا يتحفنا الشاعر البحتري بهذه اللوحة الفنية المتكاملة ، البينة الملامح .

القصيدة من البحر الخفيف وأجزاؤه :

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن   فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

وتقطيع البيت الاول منها هكذا :

صنتُ نفْسي عمّا يُدنْ نِسُ نَفْسِي

/ه//ه /ه /ه//ه /ه//ه ////ه/ه

فاعلاتن مستفعلن فعلاتن

وَتَرَفّعْتُ عن جَدا كُلِّ جِبْسِ

///ه/ه //ه//ه /ه//ه/ه

فعلاتن متفعلن فاعلاتن

المناقشة

موضوعات للبحث :

١ – قيل إن البحتري وابن الرومي من أشهر الوصّافين في الشعر العربي . فهل كان كل من الشاعرين يستقي من معين واحد ؟

وضح ذلك ، وأيّد إجابتك بالأمثلة .

٢ – كان ليأس ابن الرومي من ألفة الناس أثر في بعض جوانب حياته .

ناقش هذا الرأي وادعمه بالأمثلة والدلائل .

٢ – البحتري شاعر حضري في زي بدوي .

وضح هذا الرأي مبيناً أسباب ذلك ، مؤيداً كلامك بالأدلة .

٤ – يمثل كل من ابن الرومي والبحتري عصريهما في حضارته وترفه ، في ثقافته وحياته الفكرية .

وضّح – من خلال ما درست من شعريهما – هذا القول .

مراجع عن ابن الرومي للبحث

الفن ومذاهبه في الشعر	لشوقي ضيف
حصاد الهشيم	لابراهيم عبد القادر المازني
ابن الرومي	لعباس محمود العقاد
زهر الآداب	للحصري

مراجع عن البحتري للبحث

الفن ومذاهبه في الشعر	لشوقي ضيف
الرؤوس	لمارون عبود
عبقرية البحتري	لعبد العزيز سيد الأهل
طيف الوليد	لعبد السلام رستم
من حديث الشعر والنثر	للدكتور طه حسين

في مدح سيف الدولة

للشاعر الطموح المتنبي

تمزقت أوصال الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري ، حين ضعف شأن الخلافة فيها واستقل كل حاكم – عربياً كان أو غير عربي – بولاية .

ومن الحكام العرب الذين استقلوا بإحدى الولايات العباسية سيف الدولة ابن حمدان .

وقد قدّر للشاعر المتنبي أن يلتقي بسيف الدولة فيقبل عليه بعد أن ظل طويلاً يبحث عمن يشاكله من الناس فلم يجد بغيته ، فهو من معدن غير معدنهم ، وهو وإن عاش معهم فليس منهم :

وما أنا منهمُ بالعيش فيهمْ ولكنْ مَعْدِنُ الذهبِ الرَّغامُ

كان سيف الدولة بطلاً عربياً أبيّاً ، وكانت في المتنبي عبقرية شعرية تعشق البطولة العربية الخالصة ، فلقي كل منهما بُغيته في الآخر ، فلازم المتنبي سيف الدولة في حلب زمناً طويلاً يصحبه في المعارك الحربية ضد الروم .

أنت طولَ الحياةِ للروم غازٍ فمتى الوعدُ أن يكونَ القُفول؟

وشاهد المتنبي المعارك الحربية بنفسه ، ورأى البطولة بأسمى معانيها ، فغناها شعراً حماسياً .

وأبو الطيب أحمد بن الحسين ، الملقب بالمتنبي ، ولد بالكوفة من أبوين فقيرين سنة ٣٠٣ هـ. ، في عهد ضعفت فيه الدولة العباسية وانفصل عن سلطتها كل صاحب نفوذ وقوة حتى تعددت الإمارات والدويلات .

وكان أبوه سقّاء بالكوفة ، ونشأ المتنبي فريد الذكاء ، طموحاً الى المجد ، والمراتب العالية . سافر به أبوه وهو صغير إلى الشام فتنقل به بين البادية ، والحاضرة ، فتأدب المتنبي نتيجة لذلك . وحين توفي أبوه كان قد ترعرع ، ونال حظه من علوم اللغة فأخذ يضرب في الارض ابتغاء للرزق ، واكتساباً للمجد .

وقد قيل إنه ادعى النبوة بين عرب البادية بمكان قرب الكوفة يدعى « السّماوه » وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه ، وسحر بيانه ، وصنّف كلاماً عارض به القرآن الكريم ، وسار بأتباعه يريد القتال ، والغزو ، فخرج في وجهه « لؤلؤة » أمير حمص وسجنه سنتين ، ثم أطلق سراحه ، فراح المتنبي يتنقل من بلد الى بلد ، متصلاً بالحكام والأمراء علّه يجد ما تصبو اليه نفسه من عزة ومجد ، حتى اتصل بأبي العشائر الحمداني والي انطاكية من قبل سيف الدولة ، فمدحه ، فقدمه أبو العشائر الى سيف الدولة وعرّفه بمنزلته في الشعر والأدب ، فقرّبه الأمير ، وحسن موقعه عنده ، فسلمه الى الروّاض فعلموه الفروسية ، والطّراد ، ولزم سيف الدولة بعد ذلك تسع سنين كانت أطيب أيام المتنبي .

ثم حدثت بين الرجلين جفْوة فرحل الى مصر سنة ٣٤٦ هـ. ، ومدح كافوراً الإخشيدي طمعاً في نيل مجد أو شهرة . وظل ينتظر ، لكن كافوراً توجس منه خيفة لتعاليه في شعره وطموحه ، فعرف المتنبي ذلك، ففر بعد ان هجاه ، وراح يتنقل بين العراق وبلاد فارس ؛ واتصل بابن العميد ، وزير ركن الدولة البُوَيهيّ ، وبعَضُد الدولة بن بُوَيه ، ومدحه فأغدق عليه العطايا ، ثم غادره راجعاً الى بلاده ، فعرض له في طريقه فاتك بن جهل الأسدي فقتله في أواخر رمضان سنة ٣٥٤ هـ.

وهكذا طويت حياة شاعر طلب المجد فلم يجبه الدهر الى طلبه ، وطمع في ولاية فلم تحقق له الايام ما طمع فيه .

شعره : المتنبي شاعر من شعراء المعاني ، تبدو في شعره العنـاية بالمعنى ، وقد أطلق الشعر من قيده الذي قيده بهأبوتمام وأتباعه ومزج الشعر بالفلسفة ، فكثرت في شعره الأمثــال والحـكم ، وخرج عن أساليب العرب المعهودة ، وأبرز خاصة في شعره ظهور شخصيته فيه ، وقوة اعتداده بنفسه .

آثاره : للمتنبي ديوان شعر تنـــاول فيه جلّ فنون الشعر العربي من مدح وعتاب ، ورثاء وهجاء ، وفخر ، ووصف ، وحكمة ، وغزل .

مناسبة القصيدة : كان سيف الدولة قد بنى قلعة الحـدَث في بلاد الروم ، فخاف الروم من ذلك واغتــاظوا ، فعقدوا مع الروس معاهدة عسكريـــة وجاءوا لهدمها ، فهب سيف الدولة لصد هجمات الروم وإعــادة بناء القلعة ، وليذود عن حمى القلعة. وانتصر البطل العربي ، وأنزل بالأعداء هزيمة منكرة:

فقال المتنبيقصيدته يمـدح سيف الدولة، ويصف المعركة التيانتهت بالهزيمة:

النص :

عَلَى قَدْرِ أهلِ العزْمِ تأتي العزائمُ
وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمُ
وتعظُمُ في عينِ الصَّغيرِ صغارُها وتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظيمِ العظائمُ
يُكَلِّفُ سيفُ الدولة الجيشَ همَّهُ
وقد عَجِزَتْ عَنْهُ الجيوشُ الخضارمُ
ويطلُبُ عند الناسِ ما عندنفسِهِ وذلك ما لا تَدَّعيهِ الضَّراغمُ

يُفَدِّي أَتَمُّ الطَّيرِ عُمْراً سِلاحَهُ نسورُ الفلا أحداثُها والقَشاعِمُ
وما ضَرَّها خَلْقٌ بغير مخالبٍ وقد خُلِقَتْ أسيافُهُ والقوائمُ
هَلِ الحدَثُ الحمراءُ تَعْرِفُ لونها وتعلمُ أيُّ الساقِيَيْنِ الغمائمُ
سَقَتْها الغَمامُ الغُرُّ قبلَ نزولِهِ فلما دنا منها سَقَتْها الجماجِمُ
بناها فأعْلَى والقنا يَقْرَعُ القَنَا ومَوْجُ المنايا حولَها متلاطمُ
وكان بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ ومن جُثَثِ القَتْلى عليها تمائمُ
طريدةُ دَهرٍ ساقَها فرددْتَها على الدِّين بالخَطِّي والدهرُ راغِمُ

الكلمات والأساليب

العزيمة بمعنى العزم ، عزم يعزم عَزْماً وعُزْماً ومَعْزماً وعزيمةً وعُزماناً الأمرَ وعليه : عقد ضميره على فعله .

والمكرمة : اسم من الكرم . الهم ما هممت به من أمر لتفعله . الضراغم : جمع ضَرْغم ، وهو الأسد . الضِّرغام والضرغامة : الأسد الشجاع القوي . الخضارم : جمع خِضرم وهو الكثير من كل شيء .

أتمُّ الطير عمراً : المراد النسور ، وقد فسرها في الشطر الثاني بالنسور صغارها وكبارها . ونسور الفلا بدل من أتم الطير . والفلا : جمع فلاة وهي الصحراء . أحداثها : صغارها وهو بدل تفصيل من نسور . والقشاعم : المسنة منها : القوائم : جمع قائم ، وقائم السيف مقبضه . الحدث : قلعة بناها سيف الدولة ببلاد الروم . الغمام الغُرّ : الغمام الابيض . التمائم : جمع تميمة وهي العوذة يتقون بها مسَّ الجن . الطريدة : ما طردته من صيد أو غيره وجمعها طرائد . الخطي : الرمح . راغم : ذليل .

الأفكار الرئيسية

تناول المتنبي في هذا النص ما يأتي :

أ) الحكمة ب) الإشادة ببطولة سيف الدولة ورجاله جـ) قلعة الحدث وما دار فيها .

التحليل

استهل الشاعر قصيدته بالحكمة قائلاً :

إن المكارم تأتي على مقدار همة فاعليها، ومبلغهم ، والصغير من هذه العزائم يعظم في عين صغير الشأن ، لأنه منتهى ما تصل إليه عزيمته ، أما العظيم فتصغر العظائم في عينه لأن همته وطموحه لا تكتفي بما حققته . ثم ينتقل الى مدح سيف الدولة فيقول :

إن الأمير من الفئة الثانية ، فئة عظيمي النفوس ، كبيري الهمة ، فهو يكلف جيشه القيام بما اقتضت همته من خوض المعارك الطاحنة ، ولقاء الجيوش الجرارة ، وهذا ما تعجز عنه أعظم الجيوش كثرة وقوة ، لأن ما في همة سيف الدولة فوق طاقة البشر . وهو يريد من جيشه أن يكون له من الشجاعة والبطولة مثل ما عنده ، وهذا شيء لا تستطيع الأسود ادّعاءه فكيف يبلغه البشر ؟

إن هذا البطل العربي قد حقق انتصارات في كل المعارك التي يقودها ، وأنزل الهزيمة بكل من يتصدّى له ، وبلغ في ذلك مبلغاً حمل النسورَ صغارَها وكبارَها على أن تهب نفسها فداء لأسلحته ، لأنها كفتها المشقة في الحصول على القوت ، ولو خلقت هذه النسور بدون مخالب ، ما ضرّها ذلك ، لأن سيوف سيف الدولة أغنتها عن طلب الفريسة فلا حاجة بها الى المخالب .

ان قلعة الحدث تشهد ببطولة سيف الدولة وهزيمة الروم المنكرة . انه قد

لقنهم درساً قاسياً لئلا يعودوا الى هذا التمرد، وان جماجم الأعداء قد سقتها بالدماء ، فصارت حمراء ، والتبس عليها الامير حين نزل عليها المطر قبلُ فاختلط به الدم فلم تدر أسقيت بالغمام أم بالدم ، وذلك لكثرة ما سال من جماجم القتلى ، وقد كلف سيف الدولة الجنود بناءها والمعركة قائمة على أشدها حتى كثر القتل حولها فكانت المنايا أشبه ببحر تتلاطم أمواجه، وقد احتدمت فيها الفتنة ، واضطربت أحوالها فكانت كمن ألمّ به جنون ، فلما حاربهم سيف الدولة وقتلهم ، وعلق القتلى على جدران القلعة سكنت الفتنة ، مَثَلُها كمَثَلِ المجنون الذي عُلّقت عليه التمائم .

وظلت هذه القلعة كالطريدة أمام صروف الدهر التي تعقبتها فدفعت الروم إلى مهاجمتها المرة بعد الأخرى إلى أن صدَدْتهم عنها ببطولتك النادرة ، ورددتها رغم أنف الدهر .

التعليق والنقد

اتخذ مطلع القصائد عند المتنبي عدة وجوه أشهرها الغزل التقليدي والحكمة، وقد كان المتنبي أولَ حياته مقلداً ينهج نهج القدامى في أساليبهم ، والمحدثين (كأبي تمام) في صناعتهم . فلما تفتحت مواهبه ، وانجلت عبقريته ، رسم لنفسه طريقاً يبرز فيه شخصيته المستقلة ، فراح ينظم شعره حسبما يقتضيه الأمر أو بحسب ما توحي به عاطفته المعجبة بأمر من الأمور .

وقد جعل المتنبي من الحكمة التي افتتح بها قصيدته مبدأ عاماً يطبقه على سيف الدولة ، فيصوره بطلا من أبطال الأساطير ، لأنه (في مخيلة الشاعر) فوق البشر. ولا عجب فقد أعجب المتنبي بسيف الدولة اعجاب العظيم بالعظيم، وتمثل فيه الانسان الذي ينشده ، فراح يلقي عليه صفات نفسه في طموحها ، ويرفع شأنه ، ويضعه في الجو الملحمي الذي تنبعث من خلال وصفه موسيقى القتال .

وقد رأينـــا كيف يجعل المتنبي وصفَ الحروب والقتــال عنصراً أساسياً في مدحه .

ألفاظ الشاعر متدافعة مدوية مناسبة للغرض ، ومعانيه متتابعة تتابـــع الأتيّ في خيال ممزوج بالغلوّ المنطلق .

والأساليب البديعية غير متكلفة تزين ألفاظ القصيدة وتعينها ، كالمقابلة بين شطري البيت الثاني ، وكالطباق بين « احداثها » و « القشاعم » .

والصور البيانية في القصيدة – تنساب انسياباً دون تعمُّلٍ أو تعقيد .

هذا هو المتنبي الشاعر الفذ ، يضفي على شعره من نفسه العظيمة ، فاذا هو ظل روحه .

القصيدة من البحر الطويل وأجزاؤه :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وتقطيع البيت الاول منه هكذا :

علاقـــد	رأهللعز	متـــأتل	عزائمو	وتأتي	علاقدرل	كرامل	مكارمو
///٥	///٥/٥/٥	///٥/٥	///٥//٥	///٥/٥	///٥/٥/٥	///٥/٥	///٥//٥
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

موضوعات للبحث

١ – أعجب المتنبي بسيف الدولة اعجاب العربي الأبي بمن يجد في غيره ضالته ، ويرى فيه عظمته وطموحه .
ناقش هذا القول وبرهن على صحته .

٢ – كان المتنبي يضع سيف الدولة في مصاف أبطال الاساطير ، ويضفي عليه في مدحه روحاً من نفسه الطموحة الأبية .

فما مظاهر ذلك في شعره ، وما الدوافع التي دفعت المتنبي الى ذلك ؟

٤ – تناول بعض الأبيات بالتحليل واستخلص منها مميزات مدح المتنبي لسيف الدولة .

المراجع

مع المتنبي — للدكتور طه حسين
ذكرى أبي الطيب بعد الف عام — لعبد الوهاب عزام
الفن ومذاهبه في الشعر — للدكتور شوقي ضيف
ظهر الاسلام — لأحمد أمين
فيض الخاطر — لأحمد أمين
حصاد الهشيم — لابراهيم المازني
على هامش الأدب والنقد — لعلي أدهم

عتاب عنيف

للمتنبي

حينما التحق المتنبي ببلاط سيف الدولة ، كان البلاط غاصاً بالشعراء الذين اعتبرهم المتنبي أقل منه شأناً ، وأدنى منزلة ، فراح يكيل لهم الطعنات ، ويحتقرهم ، ويزري بشعرهم ، مفتخراً بشعره ، متهماً هؤلاء بالقصور .

عجبتُ له لَمّا رأيتُ صفاتِه بلا واصفٍ ، والشعرُ تهذي طماطِمُهْ

★

ولي فيكَ ما لم يَقُلْ قائلٌ وما لم يَسِرْ قَمَرٌ حيثُ سارا

★

وما الدهرُ إلا مِن رُواةِ قصائدي إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنشِدا

★

أجِزْني إذا أُنشِدْتَ شعراً فإنما بشِعري أتاك المادحونَ مُرَدَّدا

فلم يجن من وراء ذلك إلا بغضاً ، وحقداً ، وتحفزاً للانتقام منه اذا سنحت الفرصة . وتحقق للحاقدين ما أرادوا ، واستطاعوا أن يوغروا صدر الأمير الذي طالما أحبه . وبدأ الأمير يتحول عنه ويستمع لأعدائه ، ويسمح لهم ان يكيدوا له . ويعلم الشاعر ذلك فيتغاضى ويتجاهل.. لكن الى متى وقد بدأت العداوة تتفاقم ؟ لا بد من وضع حد لهذه القضية . وكاشف المتنبي سيف

الدولة ، أملاً في إزالة هذه الغيوم المتراكمة ، فانتهز الشاعر الفرصة ، فرصة انسحاب جيش الروم من ملاقاة سيف الدولة ، فنظم هذه القصيدة التي سندرسها والتي مطلعها :

واحَرَّ قلْباهُ مِمَّنْ قلبُهُ شَبِمُ   ومَنْ بجِسْمي وحالي عِنْدَهُ سَقَمُ

وأنشد الشاعرُ الأميرَ قصيدته ، لكن « قد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن » . فقد جاء الأمر على عكس ما كان يأمل ، لما في شعره من عتاب قاسٍ ، حاول اصلاحه بمدحه . وازدادت نقمة الامير على الشاعر ، وأحس هو بذلك ، فسعى للوساطة ، واستطاع الوسيط ان يصفي الجو . ويصفحُ الأمير عن الشاعر ، ويقبل اعتذاره ، ويعيش المتنبي في بلاط سيف الدولة فترة كان فيها معذب الفؤاد ، فلم يلبث ان ترك القصر الى مصر .

النص :

(أ)

واحَرَّ قلْبَاهُ مِمَّن قلبُهُ شَبِمُ   ومَنْ بجِسْمي وحالي عندَهُ سَقَمُ
مالي أكتِّمُ حباً قد بَرَىٰ جسَدِي   وتدَّعي حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلةِ الأُمَمُ
إن كانَ يَجمعُنَا حُبٌّ لغُرَّتِه   فلَيْتَ أنَّا بقَدْرِ الحُبِّ نقتسِمُ
قد زُرْتُهُ وسُيوفُ الهندِ مُغْمَدَةٌ   وقد نَظَرتُ إليْهِ والسُّيُوفُ دَمُ
فكانَ أحسنَ خلقِ اللهِ كلِّهِمُ   وكانَ أحسنَ ما في الأحسَنِ الشِّيَمُ

(ب)

فَوْتُ العدُوِّ الذي يممْتَه ظفَرٌ   في طَيِّهِ أسَفٌ في طَيِّهِ نِعَمُ

قد نَابَ عَنكَ شديدُ الخوفِ واصْطَنَعْت
لَـــكَ المَهابةُ مـــا لا تصْنَعُ البُهُمُ
ألزمتَ نفسكَ شيئاً ليس يلزمُها ألاَّ يُوارِيَهم أرضٌ ولا عَلَم
أكلَّما رُمْتَ جيشاً فانثنى هَرَباً تصَرَّفتْ بِكَ في آثاره الهِمَمُ؟
عليكَ هزمُهُمُ في كلِّ مُعْتَرَكٍ وما علَيْكَ بهم عارٌ إِذا انهزَمُوا
أما ترَىٰ ظفَراً حُلْواً سوَىٰ ظفرٍ تصَافحتْ فيه بيضُ الهند واللمَمُ؟

(جـ)

يا أعدلَ النَّاس إِلا في مُعاملتي فيكَ الخِصامُ وأنت الخصْمُ والحكَمُ
أُعيذُها نظراتٍ منك صادقة أن تحسَبَ الشَحْمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ
وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره إِذا استَوَتْ عندَهُ الأَنوارُ والظُّلم
أنا الذي نَظَرَ الأعمى إِلى أدبي وأسمعَتْ كلماتي مَن بهِ صَمَمُ
أنامُ مِلءَ جُفوني عن شوارِدِها ويَسْهرُ الخَلْقُ جَرَّاها ويختَصِمُ

(د)

يا من يعِزُّ علينَا أنْ نفارِقَهم وِجْدانُنَا كلَّ شيءٍ بعدَكمْ عَدَم
ما كانَ أخلَقَنا منكمْ بتكرمةٍ لوْ أنَّ أمرَكُمُ مِنْ أمرنا أمَمُ
إِن كان سرَّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا فما لجُرحٍ إِذا أرضاكمُ ألَمُ

وبيننا لو رَعَيْتُمْ ذاكَ معرفةٌ إِنّ المعارفَ في أهلِ النُّهى ذِمَمُ
هذا عتابُكَ إلا أنه مِقَةٌ قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنه كَلِمُ

الكلمات والاساليب

الشبم : البـــارد . الغـرّة : الطلعة . السيوف مغمدة : كناية عن السلم . السيوف دم : كناية عن الحرب . البهم: الأبطال (المفرد بهمة) . علم : جبل . تصافحت : تلاقت بالصفاح وهي السيوف . اللمم : جمع لمة وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن . شواردهـــا : الشوارد : النوافر ، والمقصود بها هنا القصائد المشهورة التي ذاعت في كل مكان . جرّاهـــا : من أجلها . الأمم : القصد ، وهو أمر بـين أمرين لا قريب ولا بعيد . النهى : العقول . الذمم : العهود . مِقةٌ : محبة .

الافكار الرئيسية

تناول الشاعر في أبياته الأفكار الآتية :

أ) الكشف عمـــا يعانيه من أسى ولوعة بسبب ضعف مكانته عند سيف الدولة ، ثم تصوير حبه لسيف الدولة ، والإشارة الى سمو منزلته .

ب) الإشادة ببطولة سيف الدولة .

ج) الشكوى والاحتكام الى سيف الدولة ، ومواجهته بالحقيقـة سافرة .

التحليل

أ) يستهل الشاعر قصيدته بالتعبير عما يعانيه بسبب انصراف الامير عنه ،

ويؤنب الشاعر نفسه ، لانه قد أخفى حب سيف الدولة مع انه حبٌ قد أضنى جسده وأنحله ، بينما يدعي حبه أناس لو كشفتَ عن نفوسهم لوجدته حباً زائفاً .

ثم يحاول الشاعر كشف حقيقة هؤلاء المدعين قائلاً إن كنا – حقيقة – نشترك في حبه فاني أتمنى ان تكون منزلتنا عند الامير بقدر حبنا له، اذاً لكنتُ أولى هؤلاء بالنصيب الأوفى .

وقد تبين للشاعر من خلال مصاحبته للامير في السلم والحرب أنه أحسن خلق الله في حسن تدبيره للأمور ، وأحسن ما فيه أخلاقه .

ب) ويصور الشاعر انسحاب الاعداء من وجه الأمير ، وتحصُّنهم بأرضهم، نصراً مؤزراً لسيف الدولة ، لكن الأمير غير راض عن هذا النصر إلا ان تلتقي البيض والقنا، ويخوض معهم المعارك الطاحنة .

ويحاول المتنبي ارضاءه فيقول : ان هذه نعمة كبرى ، وان خوفهم منك هو الذي دفعهم الى الهرب ، لانه أشد أثراً في نفوسهم من الجيوش الجرارة ، والأبطال المغاوير . وعلى الرغم من ان هذا فوز كبير ، فان سيف الدولة لا يسره ذلك، وهو قد ألزم نفسه ما لا داعي اليه حين لم يرض عن هذا الانسحاب، وحين أراد ان يشتبك معهم في معركة ، ليقضي عليهم دون ان يحتموا وراء رجالهم ، ويلتجئوا الى أرضهم ، لأن همة سيف الدولة فوق ما يحتمله البشر .

ثم يحاول الشاعر إرضاء الامير فيقول : يكفيك مجداً وفخراً ان ينسحبوا هاربين أمام بطولتك ، وان تنزل بهم الهزيمة اذا التقيت بهم في قتال . أما اذا فروا خوفاً منك فانهزموا دون قتال ، فالعيب عيبهم ، والعار عارهم ، وما عليك من عار اذا هربوا ولم يلتقوا بك .

ج) ينتقل الشاعر بعد ذلك الى الهدف الذي ساق القصيدة من أجله ويصارح الأمير ، ويُعلمه بالحقيقة ، ويشكوه الى نفسه ، ويحتكم اليه آملاً في عدله ، بعد ان اتهمه بعدم العدل معه .

ويندد الشاعر بمنافسيه وحاسديه ، وينزه سيف الدولة عن عدم التعمق في الأمور فلا يسوي بين التافه والثمين، فالشاعر يرى هؤلاء أقل منه شأناً، وأدنى فضلاً ، فكيف يسوي الأمير بينه وبينهم ؟ ان الذي يسوي بين النور والظلام لا نفع في ناظريه ما دام لا يميز بها . ولا ريب في ان الشاعر قد أسرف في العتاب وتجاوز حدوده ، وهكذا لا يتخلى المتنبي عن كبريائه حتى في عتابه . ويتمادى الشاعر في كبريائه فيحدثنا عن عظمته الشعرية التي بلغت مبلغاً جعلت الأعمى يسلـّم بها ، والأصمّ يتشوق الى سماعها ، لأنها عظيمة نادرة فريدة .

انه ينشد شعره مطمئناً الى جودته ، وينام دون ان يهتم بنوادر ودرر ما ينظم ، ويترك الخلق من أدباء ونقاد يسهرون محاولين تفهم ما ينظم .

د) ويبدي الشاعر ألمه وحزنه لفراق الامير ، مبيناً أنه وان كان لا يقوى عليه فهو مضطر اليه ، وأنه كان جديراً بالتقدير والاكرام لو أن سيف الدولة قابل التقدير بالتقدير . ثم يستعطفه قائلاً : ان أرضاك ما قاله الحاسدون ، فلن أتألم حرصاً على رضاكم ، ومحافظة على شعوركم . ان العلائق التي بيننا قائمة على حب وتقدير متبادل .

ويحس الشاعر بعتابه القاسي فيحاول ان يحد منه بقوله أخيراً : إنه ما عاتبه هذا العتاب إلا لما يكنه له من حب وما يحمل في نفسه من تقدير ، ولولا هذا الحب وذلك التقدير ما حاول عتابه، وان كلامه هذا الذي أنشأه وان بدا عتاباً لكنه يتضمن الحكمة .

التعليق والنقد

هذا الشاعر الطموح الذي ساء ظنه بمجتمعه فذمّ الزمان ، واحتقر الناس وأشاد بعظمته ، نراه في هذه القصيدة يعاتب سيف الدولة في إطار من التـّيه والعجب والخيلاء ، ويبثـّه شكواه ، ولكن هذا العتاب يكاد أن يبلغ الهجاء . ولقد تحدث عن منافسيه وحاسديه حديثاً صريحاً ، فغضب سيف الدولة غضباً

أباح بسببه للشعراء ان يهجوه . فتعرض الشاعر لمحنة شديدة ، وانطلقت عليه هذه الجوارح المتعطشة للانتقام . وأحس الشاعر بخطورة الموقف ، وبدت بوادر الخطورة في المحاولة الفاشلة التي دبرها حساده للتخلص منه حينما هجموا عليه في ليلة من الليالي . ونجا الشاعر من هذه المحاولة وظل يعاني ما يعاني من جراء ذلك كله الى ان عفا الأمير عنه ، ولكن ، هل هدأت نفسه ؟ هل عادت العلاقات بينه وبين سيف الدولة كما كان يرجو ؟ لا ، ان الالتئام كان صعباً ، فلم يلبث ان غادر القصر قاصداً الى مصر .

تحدث الشاعر في الأبيات الخمسة الاولى عن نفسه وعن سيف الدولة وعن حساده ، فأعطى كلاماً يستحقه في نظره . أما الأبيات الستة التي تليها فقد بالغ الشاعر فيها في إرضاء سيف الدولة حين جعل الانسحاب نصراً ومجداً لسيف الدولة وهزيمة كبيرة للعدو . وليس في هذا من عجب فكثيراً ما غرد الشاعر ، وتغنى ببطولة سيف الدولة .

والأبيات من « يا أعدل الناس » ... الى « أنام ملء جفوني ... » هي الغرض الذي نظم القصيدة من اجله .

وقد عرّض المتنبي بسيف الدولة تعريضاً مُقنّعاً في هذه الأبيات ، ثم تحدث عن شعره فبالغ وأسرف في الاعجاب به .

وفي الأبيات الاخيرة تلويح بالرحيل ، وعتاب واستعطاف . أما البيت الأخير من هذه الأبيات ففيه يحاول الشاعر ان يخفف من حدة العتاب .

وما أشبه موقف المتنبي هنا من سيف الدولة بموقف النابغة الذبياني من النعمان بن المنذر ؛ الا ان الفرق واضح بين الشاعرين. فالمتنبي أبيّ متغطرس، والنابغة ضعيف ذليل .

تسجل القصيدة في فحولة وجزالة هذه المعاني مع مبالغة في التعبير وتركيز للتجارب ، وصوغها في صورة حِكم ، وتوضيح المعاني، وتصويرها بصور خيالية رائعة مثل :

قد ناب عنك شديد الخوف.. البيت. تصافحت فيه بيض الهند واللمم..الخ.

وتلك كلها خصائص يعرفها الشعر العربي لأبي الطيب المتنبي .

نستطيع ان نلمس في القصيدة ما اتجه اليه الادب في ذلك العصر من العناية بالمحسنات البديعية مثل :

الخصم والحكم ، الأنوار والظُّلَم .

وكثير من أبيات هذه القصيدة قد اشتهر على السنة الناس مثل « يا أعدل الناس » ... و « أعيذها نظرات » ... « أنا الذي نظر » ... « يا من يعز علينا » ... « ان كان سركم » ...

وأخيراً يلخص المتنبي الموقف بهذا البيت :

هذا عتابُكَ إلا أَنَّهُ مِقَةٌ قَدْ ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنه كَلِمُ

منتخبات

ا ـ وصف شِعب بوّان

للمتنبي

وهي أبيات من قصيدة يمدح بها عضد الدولة ويذكر طريقه إليه في شِعب بَوّان .

★

بعد أن غادر المتنبي قصر سيف الدولة وقصد مصر تلبية لدعوة تلقاها من كافور الإخشيدي – العبد الزنجي الذي استبد بالأمور بعد موت سيده محمد ابن طُغج صاحب مصر – لم يحقق العبد بغيته وماطله مماطلة حملته على الفرار عام ٣٥٠ هـ. بعد أن صب جام غضبه عليه . وقصد المتنبي بعدئذ العراق ثم أرّجان عند ابن العميد وزير ركن الدولة البويهي ، وأخيراً ولّى وجهه شطر شيراز حيث عضد الدولة السلطان البويهي. وفي طريقه إلى ذلك السلطان مرّ بشعب بوان في بلاد فارس، وهو أحد منازه الدنيا السبع، فأعجبه ما رأى من جمال المكان وروعته ، فوصفه في هذه الأبيات التي سنعرضها عليك .

النص :

مَغاني الشِّعبِ طِيْباً في المغاني   بمنزلةِ الرَّبيعِ من الزَّمانِ

ولكنَّ الفَتَى العربيَّ فيهـــا غريبُ ٱلوَجْه واليد واللسانِ
ملاعبُ جِنَّة لوسار فيهـــا سليانٌ لسارَ بترجُمَـــانِ
طَبَتْ فرسانَنا والخيلَ حتى خشيتُ وإن كرُمْنَ من الحِرانِ
غَدَوْنا تنفضُ الأغصانُ فيه عَلى أعرافِها مثلَ الجُمانِ
فسرْنَ وقد حَجَبْن الشَّمسَ عنيَّ وَجِئنَ مِنَ الضِّياءِ بما كفاني
وألقى الشرقُ منها في ثيابي دنانيراً تفرُّ من البَنَـــانِ
لها ثمرٌ تشير إليكَ مِنْهـــا بأشْربةٍ وَقَفْنَ بِـــلاَ أواني
وأمواهٌ يَصِلُّ بهـــا حصاها صليلَ الحَلْي في أيدي الغواني
إذا غَنَّى الحمامُ الوُرق فيها أَجابتْهُ أغانيُّ القيـــانِ
وَمَنْ بالشِّعب أحوج من حمام إذا غنَّى وناح إلى البَيانِ
يقولُ بِشِعْبِ بَوّانٍ حصاني أعَنْ هذا يُسَارُ إلى الطِّعانِ؟

الكلمات والأساليب

المغاني : جمع مغنى ، وهي المنازل . شِعب بوان : أحد منازه الدنيـــا وجناتها في بلاد العجم وهو كثير المياه والشجر . المـــلاعب : جمع ملعب . الجنة : الجن . طبت فرساننا والخيل: استمالت الخيلَ وفرسانها.

كرمن : طهرن . الحران: الامتناع على الراكب . الأعراف: جمع عُرف، وهو الشعر على ناصية الفرس . تنفض الأغصان على أعرافهـا مثل الجمان : أي

أن قطرات الندى تتساقط من الأغصان نقيّة كحبّ الجمان الذي يشبه اللؤلؤ فتنزل على الشَعْرِ الذي على ناصية الفرس .

الجمان : حب صغير من الفضة يشبه اللؤلؤ . صل : صوّت . الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة التي في لونها بياض إلى سواد. القيان: جمع قينة وهي الجارية المغنية .

الأفكار الرئيسية

تدور القطعة حول وصف مكان جميل تناول فيه ما يأتي :

١ – وصف جمال المكان . ٢ – وصف أهله .

٣ – أثر جمال المكان في خيله وفرسانها . ٤ – مظاهر جمال المكان .

التعليق والنقد

وصف المتنبي شِعب بَوّان فأجمل الوصف وصوره تصوير الفنان الذي وقف أمام مشهد فسجله في لوحة فنية متكاملة . فهو قد أجاد نقل تلك اللوحة إلينا وكأنه أخذنا معه إلى هذا المكان نشاهد روعته وجماله، ونستطيع أن نلمس ذلك في الصور الجميلة التي أوردها الشاعر لتصوير مرئيات المكان .

غدونا تنفض الأغصان فيه ... البيت

لها ثمر تشير إليك منها

وألقى الشرق منها في ثيابي ..

وفي البيت :

طبت فرسانَنا والخيلَ حتى خشيتُ وإن كرُمنَ من الحران

احترسَ بقوله « وإن كرمن » حتى لا يتوهم القارىء أو السامع عدم كرم الخيل .

البيت السادس كناية عن كثرة الشجر وتكاثفه .

البيت : لها ثمر تشير إليك منها بأشربة وقفن بـــلا أواني

تصوير جميل ورائع لنضج الثمر ، وقد قيل إن المتنبي سرق معنـــاه من معنى بيت البحتري حين قال يصف الشراب :

يُخفى الزجاجة لونُها فكأنها في الكفِّ قائمة بغـــير إناء

استمد الشاعر صوره من روح العصر والبيئة التي كان يعيش فيها فجاءت صوراً حضرية مترفة ، وكانت تراكيبه واضحة هـــادئة ، وألفاظه مأنوسة مألوفة .

هذا هو المتنبي شاعر العظمة ، وشاغل الناس بشعره وعبقريته يُجلّي في كل مجال ، ويبدع في كل فن .

ب ـ من حكم المتنبي

كان لثقافة المتنبي وتجاربه القاسية من عراكه مع الحياة التي خاضها ، وصراعه الدائم مع الدنيا :

أُطاعِنُ خيلاً من فوارسها الدهرُ وحيداً وما قَولي كذا ومعي الصَّبرُ

★

تمرَّستُ بالآفاتِ حتى تركتُها تقول أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعر؟!

كان لذلك أثر في شعره إذ ساق خلاصة تلك التجارب وهذه الثقافة في حِكمه وآرائه ، وقد كثرت هذه الحكم فاذا هي مبثوثة في جل قصائده .

والحكمة من الفنون التي كانت موجودة ومعروفة من قبل، ولكنها لم تكن بهذه الصورة التي نراها في شعر المتنبي وغيره من شعراء عصره الذين ازدادت معارفهم بسبب ترجمة العلوم والفنون .

فهي – قبل – لم تكن عميقة ، ولم يقصد الشاعر إليها قصداً . وفي النص الذي سنعرضه عليك لون من ألوان هذه الحكم التي تأثرت بالدراسات الفلسفية، والتي جاءت نتيجة هذه التجارب الدائمة .

النص :

ولقد رأيتُ الحادثاتِ فلاأرى يَقَقاً يُميتُ ولا سواداً يعصِمُ [1]

---

١ ـ اليقق : المراد به الشيب .

والهمُّ يخترمُ الجسيمَ نحافةً ويشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويُهرِمُ[1]
ذو العقل يشقَى في النعيم بعقلِهِ وأخو الجهالةِ في الشقاوة ينعمُ
والناسُ قد نبذوا الحِفاظ فمطلق ينسى الذي يولَى وعافٍ يندمُ
لا يخدعنَّك من عدوٍّ دمعُهُ وارحمْ شبابَكَ من عدوٍّ ترحمُ
لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبِهِ الدَّمُ
والظلمُ مِنْ شِيَمِ النُّفوسِ فإن تَجِدْ
ذا عِفَّــةٍ فلعلّةٍ لا يَظلِــمُ
ومِنَ البَليَّةِ عذلُ من لا يرعوي عن غيِّهِ وخطابُ من لا يَفْهَمُ[2]

التحليل

يعلمنا الشاعر أنه قد خبر الحياة وحوادثها فلم ير الشيب سبباً في الموت ، فقد يهرم الإنسان ويشيخ ومع ذلك يعمِّر طويلا ، ولم يجد الشباب عاصماً من الموت فقد يهلك المرء ويلاقي حتفه وهو في ريعان شبابه . ان الذي يقضي على الإنسان ، ويُشيب الصبي قبل الأوان لهو الهم والحزن .

ويرى الشاعر – نتيجة تأمله في الحياة – أن الهموم تنشأ من التفكير في أمور الحياة وتدبُّر أحوالها ، فيشقى العاقل بها ، ويسعد الجاهل لغفلته عن كل ما يدور فيها . ويطلعنا الشاعر على طباع الناس وأخلاقهم فيقول : إنهم لئام

١ – يخترم : يهلك .
٢ – يرعوي : يرتدع .

لا يحافظون على عهود ، ولا يقدرون معروفاً أسديتـــه إليهم ، فإن أحسنت إليهم أنكروا إحسانك ، وإذا عفوت عمن أساء إليك لا يشكرك على صنيعك هذا معه . وقد خرج الشاعر من تجاربه بالحذر من الناس ، وسوء الظن فيهم . ويحذرنا من الانخداع بدموع العدو ، لأنها دموع التماسيح ، فهو لم يدمع إلا لأنه عاجز عن تحقيق ما يريده في عـدوه ، وهو إذا ظفر فلن يرحم ، والشرف الرفيع لا يصان إلا بسفك دماء الحاسدين دونه ، فلا سبيل إلى حياة الضعف والاستسلام .

ومن طبيعة الإنسان الظلم ، فإذا تخلى عنه ، فلِعِلَّةٍ ألجأته إلى ذلك ، ومن البلية التي يُختبر بها المرء أن يرى الفساد كثيراً فيردع الجاهل الذي لا يرتـدع عنه ، ويخاطب من لا يفهم ما يرشده اليه .

هذه الأحكام التي ساقها المتنبي جاءت نتيجة سوء ظنه بالدنيا والنـاس .

موضوعات للبحث

١ — شعر المتنبي ظِل روحه الطموح ونفسه العالية . ناقش هذا القول من خلال شعره .

٢ — سخرت الدنيا من المتنبي حين ابتسمت له أول الأمر فهل كان لهـذا أثر في شعره ؟ وضح ذلك .

٣ — لحياة المتنبي أثر كبير في تكوين شخصيته النفسية والأدبية . استعرض حياته وبيّن أثرها في ذلك .

٤ — قال أبو العلاء المعري : أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري ، ناقش هذا القول من خلال شعر كلٍ .

المراجع

أبو الطيب المتنبي وأخباره	لأبي منصور الثعالبي
فيض الخاطر	لأحمد أمين
ظهر الاسلام	لأحمد أمين جـ١
المتنبي وسر عظمته	لعبد الرحمن شكري
ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام	لعبد الوهاب عزام
مطالعات في الكتب والحياة	لعباس محمود العقاد
مع المتنبي	لطه حسين
أبو الطيب المتنبي	لفؤاد البستاني
على هامش الأدب والنقد	لعلي أدهم

منتخبات

نفثة عربية

للشاعر العربي ـ الشريف الرضي

منذ اعتمدت الدولة العباسية على الأجانب ، واتخذت منهم الوزراء والجند والعمال ، وأقصت العرب أبناء أرومتها ، وتوغلت في ذلك فاعتمدت على الترك وأقصت الفرس ، بدأ هذا المجد الشامخ يتهدم وذلك الدر يتساقط . ولم يكد القرن الثالث الهجري يشارف غايته حتى صارت هذه الدولة التي تربعت من قبلُ على قمم العزة والفخار دويلاتٍ سياسيةً مستقلة استقلالاً ذاتياً ، لا يجمعها إلا أوهى الصلات .

ومن هذه الدويلات التي صارت إليها الدولة العباسية ، دولة بني بويه التي غلبت على بغداد ، سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة . وقد تعصب البويهيون للفرس تعصباً شجع هؤلاء على إحياء عاداتهم وتقاليدهم والاحتفال بأعيادهم . وأصبح للبويهيين النفوذ ، وعلى الخلفاء العباسيين الطاعة ، فطغت الروح الفارسية على كل شيء ، وضعفت النعرة العربية في نفوس العرب ، وهجر الشعراء الفخر بأمجاد العرب ، وتحول الأدب العربي إلى أدب انحلال ومدح فيه ملق مبالغ فيه ، وافتخر الفرس بقوميتهم وتحاملوا على العرب .

مثل هذا المصير المؤلم دفع الأدباء العرب – الذين يغارون على قوميتهم – إلى التعلق بعروبتهم ، والتعصب لها ، ورفض هذه الحياة التي يحياها الشعب العربي في العراق .

وشاعرنا هذا الذي سندرس له عربي غيور عاش في بغداد فآلمه ما آل إليه حال العرب ، فراح يعتز بعروبته وتقاليدها ويتغنى بها، ويسخط على الفرس، ويتبرم بالعيش في بغداد التي يحكمها الدخلاء ، ويتطلع إلى مستقبل مشرق فيه عودة إلى الأمجاد العريضة، ونصر للعرب، وينحي باللائمة على أبناء جنسه الذين غدوا كالنساء ، لا نخوة تحركهم ، ولا رجولة تثير فيهم الحماسة .

هو أبو الحسن بن الطاهر أحمد بن أبي الحسين الموسوي الملقب بالشريف الرضي . ولد ببغداد سنة ٣٥٩ هـ . وقد نشأ في عصر كثر فيه التنافس في العلم والأدب بين الدول التي خرجت على الدولة العباسية ، فنضجت العلوم . وقرأ الشريف الرضي كتب العلم والأدب وعلوم الدين ، وكان اشتغاله بالادب واللغة سبباً في علومنزلته الشعرية فأصبح من كبار الشعراء ، ومن أشعر قريش .

وكان الشريف – لعلو منزلته وشرف نسبه – أبيّ النفس ، عالي الهمة ، وقوراً ، محباً لأهله ، وقد آلت نقابة الأشراف العلويين اليه بعد والده . واذا كنا نرى الشريف الرضي يفخر بشعره ، ويتحدث عن كرم اخلاقه ، ويتغنى بعلو نسبه وحسبه ، فما ذاك الا لانه كان يرى في نفسه فضلاً عظيماً . وتوفي سنة ٤٠٦ هـ.

آثاره : له ديوان شعر مطبوع في مجلدين ، و « اعجازات النبوة » و « مجاز القرآن » .

شعره : كان شعره صورة لنفسه التي امتلأت عزة واباء ومكارم ، وهو من أجزل الشعر العربي ، وأجمعه للتجارب ونقد المجتمع وشكوى الدهر . صوّر النفوس المفكرة ، وتهكم على الناس والحياة ، وتمدح بالفضيلة وافتخر بقومه .

النص

(أ)

نبَّهتُهُمْ مثلَ عوالي الرِّماحْ إلى الوغَى قبل نُمومِ الصباحْ
فوارسٌ نالوا الُمنى بالقَنا وصافحوا أغراضهم بالصِّفاحْ
لغارةٍ ، سامعُ أنْبائِهـــا يَغَصُّ مِنها بالزُّلال القَراحْ[1]

(ب)

يا نفسُ من همٍّ إلى همَّةٍ فليس من عِبْءِ الأذَى مُسْتَراحْ
قد آنَ للقلبِ الَّذي كَدَّهُ طولُ مناجاةِ الُمنى أنْ يُراحْ
لا بدَّ أن أرْكبَها صعبةً وَقَاحةً تحت غلامٍ وَقاحْ[2]
يُجهدُها أو ينثني بالرَّدى دون الذي قدَّر أو بالنَّجاح
الراح والراحة ذُلُّ الفتى والعزُّ في شربِ ضريبِ اللِّقاح[3]
في حيث لا حكمَ لغير القَنا ولا مُطاعٌ غيرُ داعي الِكفاح

(جـ)

وأشعثِ الَمفْرِق ذي همَّةٍ طوَّحهُ الهمُّ بعيداً فطَـــاح

---

١ ـ القراح : الماء الصافي . عوالي : جمع عالية ، الجزء الذي يـــلي السنان من الرمح . نموم الصباح : تباشير الصباح . ٢) ناقة وقـــاح : شديدة حافرها صلب ، وفتى وقـــاح : شجاع جريء . غـــلام : يقصد الشاعر : فتى . ٣) ضريب اللقـــاح : اللبن يحلب بعضه على بعض من عدة لقـــاح ، واللقاح : جمع لقوح وهي الناقة الحلوب .

لما رأى الصبرَ مُضِرّاً بــه   راح ، ومَنْ لا يُطِقِ الذُّلَّ رَاح
دَفْعاً بصَدْرِ السيف لما رأى   أن لا يَرُدُّ الضيمَ دفعاً براح

(د)

مَتَى أرى الزّوراء مُرْتَجّةً   تُمطِرُ بالبيض الظُّبا أو تُراح [١]
يصيح فيها الموت عن ألسُنٍ   مِن العوالي والمواضي فِصَاح
مَتى أرى الأرضَ وقد زُلْزِلت   بعارضٍ أغبرَ دامي النواح
مَتَى أرى النَّاسَ وقد صبّحوا   أوائلَ اليوم بطَعْنٍ صُراح
يلتفتُ الهارب في عِطفه   مُرَوّعا ، يرقب وَقْعَ الجِراح [٢]
متى أرى البيضَ وقد أمطرت   سيلَ دمٍ يغلُبُ سيْلَ البِطاح [٣]
متى أرى البَيْضةَ مصدوعةً   عَن كلِ نشوانَ طويلِ المراح [٤]
مُضمَّخِ الجِيد نَؤومِ الضحى   كأنه العذراء ذاتُ الوشاح [٥]
إِذا رَدَاحُ الرَّوْع عنَّت لــه   فرَّ إِلى ضَمِّ الكَعاب الرَّداح [٦]

---

١ ـ الزوراء : بغداد . ٢) في عطفه : في جوانبه . مروعاً : مفزعاً . ٣) البطاح : جمع بطحاء وهي ارض واسعة فيها الرمل ودقاق الحصى . ٤) البيضة : خوذة من حـديد يلبسها الفـارس فوق رأسه ليتقي بها ضربة خصمه . نشوان : سكران . المراح : موضع يروح القوم منه أو إليه. والمراح مأوى الابل والبقر والغنم. ٥) نؤوم الضحى : يكثر من النوم حتى في الوقت الذي لا ينام فيه أحد . الوشاح : شبه قلادة من نسيج عريض يرصع بالجـواهر تشده المرأة على وسطها بـين عاتقها وكشحيـها ، والعذراء ذات الوشاح : الفتاة البكر الناعمـة . ٦) الرداح : المرأة العظيمة الأوراك ، ورداح الروع الكتيبة الثقيلة الجرارة الكثيرة الفرسان .

الافكار الرئيسية

تناول الشاعر في هذا النص الأفكار الآتية :

١ – تنبهُ فرسان جيشه الشجعان للاستعداد للحرب قبل تنفُّس الصباح ، ثم وصف هؤلاء الفرسان وصفاً يثير الاعجاب .

٢ – حزنُ الشاعر وهمه بسبب ما يلاقيه من الأذى والضرر في بغداد، والاعتزاز بنفسه التي تتمرد على الضعف والخنوع .

٣ – تصوير البطل الحقيقي والبطولة .

٤ – سخط الشاعر على حكام بغداد ومن على شا كلتهم وغضبه على ما يجري فيها ، يتجلى ذلك في أمانيه الغضاب .

التحليل

أ) يصيح الشاعر صيحة الحرب المدوية فينبه جنود جيشه – قبل انقشاع ظلام الليل – للاستعداد للحرب ، وهؤلاء الفرسان شجعان أقوياء ذوو عزيمة ومضاء ، نالوا أغراضهم وحققوا أمانيهم برماحهم وسيوفهم .

وقد كان هذا التنبيه للقيام بغارة رهيبة ، يفزع سامع أخبارها فيغص بالماء الزلال إذا شربه ، لما يتوقعه من هولها وشدتها .

(ب) يتحدث الشاعر عن نفسه متعجباً من هذه النفس التي ارهقتها الأماني، واحتمال الصعاب فلم تلن ولم تضعف أو تخلد إلى الراحة ، وقد طال هذا بها فلم لا تستريح ؟ إنها لن تستريح إلا بالثورة على الواقع المؤلم لتحقق النصر أو تهلك دون ما قدَّرت . ثم ينعى أولئك الضعاف الذين انصرفوا إلى حياة اللهو والمجون فاستكانوا ، على حين أن عز الإنسان لا يكون إلا في ركوب الأخطار التي من وسائلها دوام الحرب والكفاح بالسيوف والرماح ، ومن أراد أن

يُنشأ تنشئة حسنة ، فيشب شجاعاً مقداماً وبطلاً مغواراً فليعش في الباديـة منبت البطولة والإباء ، وميدان التدرّب على الإقدام والمغامرة .

ج) ويصور الشاعر ، البطلَ الذي ينبغي أن يلقب بالبطولة فيبين أنـه هو الذي تدفع به همته إلى أبعد الغايات ، لا يهمه أن يبدو أشعث الشعر ، بل يهمه أن يكون بطلاً مغواراً يندفع لتحقيق ما يختلج في نفسه ، وقد وجـد أن الصبر الطويل على الأذى والضرّ قـد أضرّ به ، فراح يدفعها عنه بالرمـح والسيف ، بعد أن نفد صبره فأعجزه الدفع بغيرهما .

د) يبدي الشاعر ما يضطرم في نفسه الجريحة من آمال وأماني ، يدفعه الى ذلك إحساس بهذه الحياة المؤلمة التي تعيش فيها بغداد ، والتي يصرّف أمورهـا دخلاء أوغاد فيمني نفسه بغارة تعمل فيها السيوف والرماح عملها ، وتـنزل الموت بأهليها ، فيقعون صرعى في كل مكان ، وان يحدق بها الفوارس الشجعان المفزعون ، يزلزلون أرضها بصواعق الموت ، ويطهرونها من هؤلاء الدخـلاء ، وان تشتد المعركة حتى يُرى النـاس وقد استولى عليهـم الفزع من هول الموقف فيجدّ الهارب في هربه متلفّتاً حوله هلعاً وخوفاً لا يفارقه توقع الشر لحظة ، فلا يدري متى يلقى مصيره .

ويأمل ان يقضي على هؤلاء المخنثين الذين بهرهم الترف ، وجذبتهم الراحـة يضمّخون أعناقهم بالمسك ، وينفقون أوقاتهم في النوم بل وينـامون الضحى كأنهم العذارى في ثيابها ، اذا دعاهم داعي الوطن للذود عن كرامته فروا من وجهه ليرتموا في أحضان النساء ، أما الوطن ، وأما حقه عليهم فشيء غـير ذي بال .

هذه آمال عريضة ينفثها الشاعر في دنيا الأدب ، عله يجد لهـا صدى بل لعلها تحرك النخوة العربية المتـأصلة في نفوس هؤلاء الذين آلمهم واقع بغداد المهيضة الجناح .

التعليق والنقد

هذه زفرة قومية ، وعواطف ثائرة صوّرتها هذه القصيدة تصويراً حيــاً يثير الاعجاب بالشاعر العربي الغيور على عروبته وقد وجدها تُطعن في كرامتها، فسيطرة المــوالي الفرس في العراق على العرب الكرام الذين أقــاموا الدنيا وأقعدوها بما حققوا من انتصارات في دنيـــا الفتوحات قد أقضّت مضجعه . وكيف يبسط الفرس ظلهم على القومية العربية والعرب سادتهم ! ان هــذا الألم الممضّ الذي يشعل في قلبه نار المقت الشديد ، والاحتقار المرير للفرس ، وعدم الرضى بواقع العرب الذليل، كل هذه قد جعلته يبدع في تصوير ما يختلج في قلبه، فجاءت صورة شديدة الصلة بعواطفه المتــأججة ، عنيفة قــاسية أشاعت في القصيدة جواً حربياً مفزعاً من مطر السيوف وصخب المــوت المفــزع ، وزلزلة الارض ، وسيول الدم ، وهرب الفرسان وتلفتها مذعورة، ترقب وقع الجراح.

إنها صور طبيعية غير متـكلفة .

وألفاظ القصيدة قوية الإيحاء ، مرتبطة ارتباطاً وثيقــاً بالمعنى ، بارعة في دلالتها على الأحاسيس والمشاعر ، وقد جمّلها بعض المحسنات التي أتت غــير متـكلفة كالجناس بين هم وهمة ، والراح والراحة .

والموسيقى واضحة المعالم ، وقد وفق الشاعر في ذلك أيما توفيق ، فقــد ائتلفت مع القصيدة ائتلافاً جميلاً ، وصوّرتْ جوّ الحرب تصويراً جعل لهــا وقعاً عنيفاً في الاذن ، فضلاً عن أن الشاعر قد اختار لها بحراً ينسجم مــع حالته النفسية وقافية مناسبة ، لها جرس يسمعنا لحن الحرب ونغمتها ، وكان موقعها من البيت طبيعياً لا يقلق النفس .

والحقيقة ان القصيدة قد جمعت كل المقومات الفنية مما جعلها تحفة في عالم الشعر والأدب .

موضوعات للبحث

١ – صور الحياة العباسية في العهد الذي قال فيه الشريف هذه القصيدة .

٢ – تنبىء قصيدة الشريف الرضي عن نفس عربية أصيلة غيورة متألمة مشفقة على وطنها .

ناقش هذا القول من خلال القصيدة .

٣ – تناول بعض الأبيات بالتحليل ثم استخلص منها ميزاتها الأدبية .

المراجع

الشريف الرضي — لعبد الرحمن شكري
الشريف الرضي — لأحمد عارف الزين
عبقرية الشريف الرضي — للدكتور زكي مبارك
الفن ومذاهبه في الشعر — للدكتور شوقي ضيف
الشريف الرضي — لطارق كيلاني

ب ـ الشريف شاعر الغزل

ظلت بغداد – التي كانت عروس الدولة العباسية وكعبة الأدباء والعلماء – ظلت تتفنن في مجالس اللهو ، ويتقلب شعراؤها في ضروب الغزل ووصف القيان والجواري حتى بلغت من ذلك غايةً لا تُدرَكُ .

ومن شعراء العراق الذين شاركوا في مظاهر الحياة في هذا العصر الشريف الرضي ، فقد كان له غزل كما كان للشعراء من أقرانه ، ولكنه غزل رقيق لا فحش فيه. وإليك نموذجاً منه :

النص :

يا ظبْيَةَ البان تَرْعَى في خَمائِلِه ... لِيَهْنِكِ اليَوْمَ أن القَلْبَ مَرْعاكِ [١]
الماءُ عِنْدَكِ مَبذولٌ لشاربِهِ ... وليس يُرْوِيكِ إلا مَدْمَعي الباكي
هبَّتْ لنا من رياحِ الغَوْرِ رائحةٌ ... بعدَ الرُّقاد عرفنَاها برَيَّاكِ [٢]
ثم انثنينا ، إذا ما هزَّنا طرَبٌ ... على الرِّحـــالِ تَعلَّلْنَا بذكراكِ

---

١ ـ البان : شجر معتدل السوق تشبه قامات الملاح بأغصانه في الاعتدال واللين . الخمائل : جمع خميلة وهي الأشجار الملتفة .

٢ ـ الغور : المنخفض من الأرض من نجد والحجاز ، ويسمى تهامة على ساحل البحر الأحمر ، رائحة : ريح تمر مساء من (راح) إذا عاد مساء . ريا : رائحة ذكية .

سهم أصاب وراميه بذي سَلَمٍ   مَنْ بالعراقِ ، لقد أبعَدْتِ مرماكِ [1]
حَكَتْ لِحاظكِ ما في الرِّيم من مُلَحٍ
يَوْمَ اللقاءِ ، وكان الفضلُ للحاكي [2]
كأنَّ ظرفكِ يومَ الجزْعَ يُخبرنا بما طوى عَنْكِ مِنْ أسماء قتلاكِ [3]
أَنْتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ له   فما أمرَّكِ في قلبي وأحلاكِ !
عندي رسائِلُ شوقٍ لستُ أذكُرُها
لولا الرقيبُ لَقَد بلَّغْتُها فـــاكِ

التعليق والنقد

هذه قطعة في الغزل نهج الشاعر فيها نهج الشعراء القدامى ورمز إلى الفتاة الجميلة بالظبية ، وخاطبها بذلك ، لأنها رشيقة جميلة ، ولأنها معتدلة القـــوام لينة القدّ كظبية البان والظبية. والبان ، وذو سلم كلها ألفاظ قديمة ومعروفة . وألفاظ القطعـــة وأساليبها تفيض عذوبـــة وسلاسة ، ومعانيهـــا رقيقة دارت حول الشوق ، وأثر الجفاء بعد الوقوع في الأسر والألم من مرارة البعد ، وحلاوة القرب .

والطباق الذي أتى به الشاعر غير متكلف ، « أمرّكِ وأحلاك » و « النعيم والعذاب »

---

١ ـ ذو سلم : موضع بالحجاز قريب من مكة .
٢ ـ الريم : الظبي الخالص البياض ، ملح : مفاتن ، الحاكي : المشابه .
٣ ـ الجزع : موضع بالحجاز قرب الطائف .

وقد عارض هذه القطعة أدباء كثيرون منهم المرحوم علي الجارم . وسميت أمثال هذه القطعة من غزليات الشاعر « بالحجازيات » لان أكثرها قيـــل في مواسم الحج .

المناقشة

١ – غزل الشريف الرضي غزل النزعة البدوية .
ناقش ووضح من خلال الأبيات السابقة .

٢ – هل تجد في غزل الشريف الرضي صورة صادقة للحياة في هذا العصر؟
وما مظاهر ذلك ؟
ناقش ووضح .

٣ – اعمد إلى بعض الأبيات من القطعة السابقة وحللها واستنتج منهـــا مميزاتها الفنية .

٤ – قالوا لا تصقل نفس الأديب إلا إذا قرأ
« . . . . . . ومنها حجازيات الشريف الرضي »
فما هذه الحجازيات ؟ وما عوامل نبوغ الشريف فيها ؟
ناقش واستشهد .

المراجع

الشريف الرضي	لعبد الرحمن شكري
الشريف الرضي	لأحمد عارف الزين
عبقرية الشريف الرضي	للدكتور زكي مبارك
الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
الشريف الرضي	لطارق كيلاني

ج ـ فخر الشريف الرضي

الشريف الرضي من أسرة تعتز بمكانتها ، ومن بيت عز وشرف . وقد شب الشاعر عزيز النفس عالي الهمة ، طموحاً إلى المجد ، لهذا نجد أكثر شعره في الفخر بأصله وقومه ومزاياه . ولِمَ لا يفخر وهو الشاعر الذي نبت في منابت الشرف والإباء ؟

ولِمَ لا تهزه أريحيته إلى الفخر بأصله العريق ، ونسبه الشريف وقد شاهد أمامه — بعد أن تمزقت الدولة العباسية — سيادة بعض الصعاليك ، وضعف النعرة العربية ؟

والنص الآتي نموذج من نماذج فخر الشريف الرضي ستجد فيه نفساً جبارة تميل إلى الفخامة والعظمة والجلال ، وتهتز اهتزاز الفرع الذي يتعالى في السماء شامخاً أنوفاً .

النص :

لغيرِ العُلا مِنّي القِلى والتجنُّبُ ... ولولا العُلا ما كنتُ في الحبِّ أرغبُ
إذا اللهُ لم يعذِرْكَ فيما ترومُه ... فما الناسُ إلاّ عاذلٌ ومؤنِّبُ
ملكتُ بحلمِي فرصةً ما استرقَّها ... من الدّهر مفتولُ الذراعين أغلب
فإن تكُ سِنِّي ما تطاولَ باعُها ... فلي من وراءِ المجدِ قلبٌ مُدرَّبُ

فحسبيَ أنّي في الأعالي مُبغَّضٌ وأنّي إلى غرّ المعـــالي محبّبُ
وأُعرِضُ عن كأس النديم كأنَّها وميضُ غَمامٍ غائِرُ المُزنِ خُلَّبُ
وقورٌ فلا الألحان تأسر عزمْتي ولا تمكر الصهباء بي حين أشربُ
تَحلّمُ عن كرّ القوارصِ شيمتي كأن مُعيدَ الذمِّ بالمدح مطنبُ
لساني حَصاةٌ يقرع الجهلَ بالحِجى إذا نالَ مِني العاضهُ المتوثِّبُ
ولستُ براضٍ أن تَمَسَّ عزائمي فُضالاتُ ما يُعطِي الزمانُ ويَسْلُبُ
غرائِبُ آدابٍ حباني بحفظها زماني، وصَرْفُ الدهرِ نِعْمَ المؤدِّبُ

التعليق والنقد

الفخر من الشعر الحماسي الذي نبت بكثرة في العصر الجاهلي ثم الاسلامي، وقلَّ في العصر العباسي لسيطرة العنصر الأجنبي وبخاصة الفرس . وقد اتفق أن كان يسود الوضيع على الشريف أحياناً فيدفع ذلك الوضعُ النفوسَ العظيمة إلى الفخر بنسبها وحسبها من أمثال الشريف الرضي وأبي فراس الحمداني وغيرهما من الشعراء الذين تجري في عروقهم دماء العظمة والعزة . وقد حالت الأيام دون بلوغ الشاعر ما يريد ، ودون تحقيق آماله العريضة فوقف صامداً أمامها قوياً كالجبل ، وناله الناس بشرّهم فلم تلنْ قناتُه ، ولا وهنت عزيمته ، وفاخر بأصله وقومه مفاخرةً تبدو فيها تلك الأنفة التي تظهر عجبه وخيلاءه وكبرياءه وعنفوانه .

تناول الشاعر في أبياته الفخر بحلمه ، ومجده ، ووقاره وترفعه عن الدنايا في أسلوب قد اتسم بسمة البادية يميل إلى الفخامة في ألفاظه مثل : « أغلب ، مذرب ، كر القوارص » ومعان عميقة في وضوح ، وقصد واعتدال .

نهضة النثر الكتابي

وأسبابها

مقدمة : النثر الفني

النثر الفني هو ذلك الفن الجميل الذي يجمع بين الألفاظ الجيدة والأساليب الرائعة التي تجذب النفوس بروعتها وحسن بيانها .

وهو نوعان :

١) نثرٌ عمادُهُ اللسان ، وهو يعرف بالخطابة .

٢) نثرٌ عماده الكتابة ، وهو يسمى بالكتابة الفنية .

والذي يعنينا من بحثنا هذا هو النثر الكتابي ونهضته وأسبابها .

والنثر الكتابي : هو الكتابة الفنية . وقد كان معروفاً في أول هذا العصر أنها لا تعدو الرسائل الديوانية والإخوانية والتوقيعات ، لكنها حينما ارتقت مظاهر الحضارة في العصر ارتقت معها فصارت تصف هذه المظاهر بعد أن كان ذلك في الشعر فقط .

ومعلوم أن كتابة الرسائل كانت في صدر هذا العصر تسير على النظام المعهود من الكلام المرسل ، والعبارة الواضحة سواء في ذلك الرسائل الديوانية أو الإخوانية .

نهضته وأسبابها :

أ – النهضة ومظاهرها :

ارتقى النثر الكتابي في هذا العصر فتأنق الكتاب في إنشائهم وتوسعوا في التنميق ، وأطالوا العبارة ، وانتقدوا مذهب الإيجاز الذي كان عند سابقيهم في العصر الاسلامي ومن أتى بعده إلى أوائل هذا العصر ، كقول يزيد لمروان – وقد تلكأ في بيعته : « أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت » فقال ابن قتيبة : « إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب ، والصواب أن يطيل ويكرر ، ويعيد ويُبْدي ، ويحذّر ويُنْذر » .

ثم مالوا إلى الازدواج والسجع ، وتضمين الآيات القرآنية ، والأحاديث والأشعار والأمثال ، وأكثروا من ذلك الترصيع حتى أصبح الشعر فيه أكثر من النثر كقول الصاحب بن عَبّاد يصف فصلاً من كتب ابن العميد قال :

« فصل رأيته فصيح الإشارة لطيف العبارة .

إذا اختصر المعنى فشربة صائمٍ وإن رام إسهاماً أتى الفيض بالمدّ

فصل قد نظرته فرأيته جسماً معتدلاً ، وفهما مشتعلا .

ونفساً تفيضُ كفيْضِ الغَمامِ وظرفاً يناسب صفو المدام

فصل قد عمهم بنعمه ، وغمرهم بشيمه .

وغزاهمُ بسوابغٍ من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعلهِ . »

وقد تفننوا حتى جعلوا الترصيع شطراً شطراً .

كقول الهمذاني « من رسالة إلى الخوارزمي » :

إنا لقرب دار الأستاذ (كما طربَ النَّشوانُ مـــالتْ به الخمرُ)
ومن الارتياح للقائه (كما انتفض العصفـــور بلـَّله القطرُ)
ومن الامتزاج بولائه (كما التقت الصهباءُ والبـــاردُ العذْبُ)
ومن الابتهاج بمزاره (كما اهتز تحت البارحِ الغـُصُنُ الرطبُ)

وظلوا على هذه الحال وبالغوا في التأنق وتوغلوا ، وصارت الكتابـــة في آخر العصر مجرد كلام مسجوع متكلف لا يحمل أي معنى جيـــد ، وأُلفت رسائل في أغراض مختلفة كان الناس يرجعون إليها عنـــد الكتابة لعجزهم الشديد في الكتابة أيا كانت جيدة أم رديئة ، إلى أن جـــاء العصر الحديث فبدلها من الضعف قوة ومن الرداءة جودة .

ب – أسباب رقيه :

مما لا شك فيه أن الكتابة الفنية قد ارتقت في هـــذا العصر وازدهرت ازدهاراً لم نعهده في العصور السابقة وكان ذلك للأسباب الآتية :

١ – عناية الحكام والأمراء – في الإمارات والدويلات المختلفة التي انفصلت عن الدولة العباسية – بالأدب والأدباء والعلم والعلماء ؛ فقد هيأت هذه الدويلات وتلك الإمارات لحركة أدبية واسعة . إذ كان كل حاكم يهمه أن يكون في بلاطه جماعة من الأدباء المشهورين المجيدين ليباهي بهم حكام الدويلات الأخرى ، كما أن الحكام استوزروا أعاظم الكتاب والأدباء في دويلاتهم ، وبسبب ذلك كله صار في كل إقليم أدباء ممتازون يدبرون شئونه ، ويحلقون في سماء الأدب . فعند السامانيين نجد كتاباً مشهورين وهم إلى جانب ذلك يحتلون مناصب في دواوين السامانيين ، ومن هـــؤلاء العميد والد الكاتب المشهور (ابن العميد) وأسرة بني ميكال النيسابورية .

ونجد بـــلاط البويهيين يضم كاتبين هما أشهر كتاب العصر : ابن العميد ، والصاحب بن عباد .

أما الدولة الزيارية[1] فقد اشتهر أحد أمرائهـا بالكتابة وهو قابوس بن وشمكير .

وأصبحت الكتابة تتخذ لها مواطن حتى في البلدان والمدن الصغيرة وحتى إن الأمراء والحكام كانوا يعتدّون بالكاتب أيا كان مسلماً أو غير مسلم ما دام بيانه وبلاغته تؤهله لأن يكون محل تقدير .

فقد استخدم الحكام في بغداد أبا إسحاق الصابي على ديوان الرسائل وهو صابئيّ لكن مهارته الفنية في الكتابة أهلته لهذا المنصب .

وصارت الكتابة الجيدة تحل محل القوة في إخضاع المتمردين والتغلب على العدو . وليس أدل على هذا من الرسالة التي كتبها ابن العميد إلى ابن بلكا عند خروجه على ركن الدولة ابن بويه ، فلما وصلت إليه وقرأها رجع إلى حظيرة الطاعة وقال « لقد ناب كتاب ابن العميد عن الكتائب في عركْ أديمي واستصلاحي وردي إلى طاعة صاحبه[2] » ومثل رسائل الخميس التي جُعلت لتقرأ في خراسان للقضاء على ثورتها ، ولإبقاء أهلها في نطاق الطاعة .

وسنعرض عليك نموذج ابن العميد الذي أرسله إلى ابن بلكا عند دراسة النصوص المنتخبة .

فليس عجباً أن نرى الأمراء في كل إقليم يعنون بالكتابة والكتّاب ويولونهم مناصب الوزارة ورئاسة الدواوين .

٢ – اتساع أسباب الحضارة والتأنق والزخرفة ، والتبسط في العيش ، وإسراف الحكام والأمراء في هذه الزينة ، وتلك الزخرفة وذلك الترف ، فأترف الذوق الكتابي بسبب ترف الحكام والأمراء ، فالكتاب يعيشون في

---

١ ـ الدولة الزيارية كان مقرها في جرجان وطبرستان، وأول ملوكها مرداويج بن زيار ، تولى الملك سنة ٣١٦ هـ. وأشهرهم قابوس هذا سنة (٣٦٦–٤٠٣) وكان شاعراً أديبا كاتباً من أبلغ كتاب العربية .

٢ ـ يتيمة الدهر للثعالبي جـ١ (طبعة الصاوي) .

قصورهم ، وينالون عطاءهم ، ويعيشون معيشة فيها رخاء وترف ، فكان لا بد أن يسري هذا الترف إلى فنهم .

٣ - تطلّع الكتاب إلى المجد والشهرة ، وطمعهم في الغنى والمنصب الذي وصل إليه من عاصروهم من الكتاب المشهورين .

٤ - رقي الثقافة وكثرة المعارف والعلوم العربية ، والمترجمة إلى العربية ، والانتفاع بآداب الأمم الأخرى .

٥ - الاعتماد على الكتابة في مختلف الشئون والاهتمام بها كوسيلة من وسائل القضاء على الحوادث التي كثرت، والفتن التي انتشرت، حتى انهم كادوا ان ينسوا الخطابة ويهجروها فضعف شأنها .

نهض النثر الكتابي بسبب ذلك كله ، واشتهرت كل إمـارة بمراكز مختلفة للنهضة الأدبية وبخاصة الكتابية ، كهمذان ، ونيسابور ، وأصبهان ، والريّ ، وخوارزم وطبرستان .

وقد تخرج في كل مركز من هذه المراكز أدباء وكتاب مشهورون كبديع الزمان في همذان ، والثعالبي في نيسابور ، والصاحب ابن عبـاد في أصبهان ، واستقرّ ابن العميد في الريّ دار عضد الدولة البـويهيّ ، والخوارزمي في خوارزم ، وشمس المعالي قابوس ابن أبي طاهر وشمكير الجيلي في طبرستان .

وكما قلنا إن الكتابة لم تقتصر على الرسائل الرسمية والإخوانية والتوقيعات بل شملت ، أيضاً ، الوصف ، وصورت الحياة الجديدة من مجالس لهو وطرب وترف ومنـاظرات ، وقصور ورياحين ، ومياه ونافورات وبرك ، كما شملت القصة التي جاءت نتيجة تطور فن المقامات وكثرة الثقافات : من فارسية وهندية ويونانية وقصص الجاحظ في كتاب البخلاء ، وأبي الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني . فشاعت وذاعت ، وإن كانت قليلة الحوادث عديمة الربط خالية غالباً من العقد والمشكلات غير هادفة ؛ فهي لمجرد التسلية .

وكثر القصاصون، وكثرت قصصهم الضخمة التي امتلأت بالبطولات الخيالية الأسطورية ، ومن هذه القصص :

ألف ليلة وليلة ، وعنترة بن شداد ، وأبو زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن .

وسنعرض عليك منتخبات لأشهر الكتاب في هذا العصر ونبدأ بـأولهم وأستاذ التجميل والزينة في الكتابة وهو : ابن العميد .

موضوعات للبحث

١ – قارن بين النثر الفني في العصر العباسي ، الأول والثاني .

٢ – ما أسباب رقي النثر الفني في العصر العباسي الثاني ؟
وما مظاهر ذلك ؟

٣ – كانت النثر الفني مراكز مختلفة وبخاصة الكتابة ، ما هذه المراكز وما الدور الذي أدته في خدمة الكتابة ؟ وما أشهر الكتاب والأدباء فيها؟

المراجع

الفن ومذاهبه في النثر العربي	للدكتور شوقي ضيف
أدباء العرب	لبطرس البستاني
الأدب العربي والعصر العباسي	لمحمود مصطفى
تاريخ آداب اللغة العربية	لجورجي زيدان
تاريخ الأدب العربي	لكارل بروكلمان
ظهر الاسلام	لأحمد امين
المفصل في الأدب العربي	للاسكندري وآخرين

ابن العميد

عاش ابن العميد في هذا الجو الذي قدمناه لك في عصر بلـــغ فيه التأنق مبلغاً عظيما ، وفي زمن تفككت فيه أوصال الدولة العباسية ، وتنافس الأمراء في كل إقليم في جذب الأدباء من شعراء وكتاب .

وقد عاش ابن العميد في بيت علم وأدب وكتابة .

فهو أبو الفضل محمد بن الحسين الملقب بابن العميد من مدينة (قم)الشيعية . ولد سنة ٣٠٠ هـ. وكانوالده مشهوراً بالعلم وحسن التدبير كاتبا لما كان بن كاكي . ولما قتله السامانيون في بعض مواقعهم معه أخذوا والد ابن العميد هذا أسيراً معهم ، ثم أفرجوا عنه وأكرموه ، ورتّبوه في الدار السلطانية . وبعدها ولي ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ولقـّب بالشيـخ ، وهو لقب كان يطلق على كل من يتقلد ذلك الديوان كما لقب بالعميد .

« ولم يزل أبو الفضل في حياة أبيه ، وبعد وفاته بالرّي وكـُوَر الجبـــل وفارس يتدرج إلى المعالي ويزداد على الأيام فضلا وبراعة حتى بلغ مـــا بلغ واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل[1] »

وقد كان تقلـّده وزارة ركن الدولة من سنة ٣٢٨ هـ. إلى وفاته سنة ٣٦٠ هـ.

---

١ - « يتيمة الدهر » للثعالبي .

وينبوع ثقافة ابن العميد غير واضح الدلالة ، لكننا يمكن أن نعرف من حياته وآثاره أنه قد ألمّ بألوان كثيرة من الثقافة ، ولذا فقد سُمّي « الجاحظ الثاني » .

فقد حفظ القرآن وتوسع في دراسة الفلسفة والمنطق ، وعلوم الالهيات ، وأكثر من هذا أنه كان على علم بالهندسة والطبيعة ، وقد تقدّم إليه الرّازي بتفسيره للمقالة العاشرة في أصول الهندسة من كتاب إقليدس بعد أن نسّقها وجوّدها . وقد أُعجب الشعراء ببراعة ابن العميد هذه وببلاغته وفصاحته ، وأبدى المتنبي إعجابه به في قوله :

من مُبْلغ الأعرابِ أني بعدهم شاهدتُ رُسْطاليس والإسكندرا
وسمعتُ بطليْموسَ دارسَ كُتْبه
متملّكاً متبدّياً متحضّرا
ولقيتُ كلّ الفاضلين كأنّما ردّ الالهُ نفوسهم والأعْصُرا

وقوله أيضاً :

عربيٌّ لسانه ، فلسفي رأيُه ، فارسيةٌ أعيادُهْ
خلق الله أفصحَ الناسِ طُرّاً في بلاد أعرابُهُ أكرادُهُ

وقد أخلص ابن العميد لركن الدولة ثم لابنه عضد الدولة وساعده في بسط نفوذه على بغداد والعراق .

وبرع ابن العميد في فن الكتابة دون غيرها من العلوم الأخرى وذلك نتيجة اطلاعه الواسع ، واشتغاله بإنشاء الرسائل. ولما كان العصر الذي يعيش فيه عصر الزخرف والعناية بالمحسنات ابتكر ابن العميد طريقة في الكتابة كانت منهاجاً

لمن عاصره وأتى بعده ، وانتشر أسلوبه في العراق وخراسان وما جاورها وأعجب بطريقته هذه الأدباء فاحتذوها .

وطريقة ابن العميد يمكن أن نلمسها في كتابته ، ففيها السجع القصير الفقرات مع شيء من المحسنات ، والتضمين، والتنميق واختيار الألفاظ والجمل، والإكثار من التشبيهات ، والميل إلى الإطالة .

النص : قال من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة :

(وهذه الرسالة سبق أن أشرنا إليها عند كلامنا عن نهضة النثر الكتابي وقلنا إن الكتابة كانت تقوم مقام الجيوش في الحرب ، وأن هذه الرسالة التي أرسلها ابن العميد إلى ابن بلكا قد صيّرته طائعاً بعد عصيان، وقال عبارته التي ذكرناها سابقاً فارجع إليها إن أردت .)

قال :

كتابي وأنا مترّجح بين طمع فيك ، ويأس منكَ ، وإقبال عليك وإعراض عنك ، فإنك تُدِلُّ بسابق حُرْمة ، وتمتّ بسالف خِدْمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظةً وعناية ؛ ثم تَشْفَعهما بحادث غُلول وخيانة ، وتُتْبِعُهما بآنفِ خلاف ومعصيةٍ ، وأدنى ذلك يُحْبط أعمالك، ويمْحَقُ كل ما يُرعى لكَ ، لا جَرمَ أني وَقفتُ بين ميل إليك ، وميل عَليْكَ ، أقدّمُ رجلاً لصَدّك ، وأؤخّر أخرى عَنْ قصْدك ، وأبسُط يداً لاصطِلامِك واجتياحِك ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقفُ عن امتثال بعض المأمور فيك ، ضنّاً بالنعمة عندك ، ومنافسة في الصّنيعة لديك ، وتأميلاً لفيئتِك وانصرافك ، ورجاءً لمراجعتِك وانعطافك ، فقد يغربُ العقلُ ثم يثوبُ ، ويعزُبُ اللبُّ ثم يثوب ، ويذْهب الحزمُ ثم يَعُودُ ، ويفسد العَزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يُستدرك، ويسكرُ المرء ثم يصحو، ويكدرُ الماء ثم يصفو .

الافكار الرئيسية

تضمنت هذه الرسالة الأفكار الآتية :

١ – اللوم – ٢ – التهديد – عدم تنفيذ العقوبة أملاً في رجوعه إلى الصواب .

الكلمات والأساليب

الإدلال : الانبساط وفرض الثقة بالمُدَلّ عليه . ومعنى تدل بسابق حرمة : لك صلة بنا سابقة تجعلنا نثق بك . تمتّ بسالف خدمة : تتصل بنا بخدمة سابقة لنا . تشفعها : تتبعها . غلول : خيانة . آنف : قريب ، لم ينقض عليه عهد طويل . يحبط أعمالك : يمحوها .

لا جرم : لا محالة أو حقاً . أقدم رجلاً لصدك وأؤخر أخرى عن قصدك : أتقدم تارة لعقوبتك ، ثم أتاخر تارة أخرى . أبسط يداً لاصطلامك واجتياحك : الاصطلام والاجتياح ، الاستئصال ومعنى ذلك أنني أهم بأن أقتص منك أشد قصاص .

ضنّاً بالنعمة عندك : أي بخلاً بسابق إنعامنا عليك . تأميلاً لفيئتك وانصرافك : أي أملاً في رجوعك إلى جادة الصواب والصلاح وأملاً في الانصراف عما أنت فيه من العصيان والتمرد .

يغرب العقل ثم يثوب : يذهب العقل ثم يرجع .

يعزب اللب ثم يثوب : يغيب العقل ثم يعود إلى رشده . ويذهب الحزم ثم يعود : قد يفقد الإنسان حزمه وعزمه ، ثم يرجع إلى صوابه .

التحليل

هذه رسالة إلى ابن بلكا أرسلها ابن العميد إليه ليعيده إلى طاعة ركن الدولة وهو يقول له فيها :

أكتب إليك وأنا بين الأمل في صلاحك واليأس منه ، ومن أجل ذلك فأنا حائر بين أن أصفح عنك ، او أن أعاقبك، فإن لك صلة بنا سابقة تجعلنا نثق بك ، وتتصل بنا بخدمة سالفة لنا ، وأقل هاتين العلاقتين – الصلة السابقة والخدمة السالفة – يوجب علينا رعايتك ، ويقتضى منا المحافظة عليك ، ولكنك تتبع فضلك السابق بالخيانة والغدر ، واقتراف أشد المعاصي ، وأقل هذه الذنوب التي ارتكبتها يمحو كل ما لك عندنا. وإني لحائر بين مد يد المعونة لك ، وعقوبة تحل بك ، أتقدم تارة لعقوبتك ، ثم أتاخر تارة أخرى لأعفو عنك . وأهم بأن أعاقبك أشد عقاب ، وأحجم عن ذلك إبقاءً عليك ، وطمعاً في صلاحك . وإن مثل خيانتك هذه يجب فيها – حسب القانون والعرف – العقاب الشديد . لكني أتوقف عن معاقبتك حتى لا أضيع ما سبق أن أنعمنا به عليك ، وليكون عفونا هذا منافساً لأيادينا السابقة عليك ، أملاً في عودتك إلى الصواب والصلاح والإقلاع عما أنت فيه ، فقد يفعل الإنسان أموراً لا يقرها عقله ثم يرى نفسه بعد ذلك قد أتت أمراً لا ينبغي أن يصدر منه فيرغب عنه ويعود إلى صوابه ، وقد يفقد الإنسان حزمه وعزمه ثم يعود إليه ثانية ، حينما يعرف خطأه فيتداركه بالصواب .

التعليق والنقد

تمثل الرسالة الصورة التي كانت عليها الكتابة في ذلك العصر ، عصر الوشي والتطريز ، الذي تأثر به ابن العميد ، فجاءت صناعة الكتابة الديوانية عنده مرصعة بالسجع موشاة بزخرف البديع .

وكان سجعه قصير الفقرات غالبا كما نرى في أول القطعة .

أما بعض السجع الذي طالت عباراته في القطعة فقد احتال عليه بالموازنة بين العبارتين المتجاورتين فلم يثقل أذن السامع بذلك الطول لأنه كان دقيقاً في إظهار التلاؤم الموسيقي كما نرى مثلاً في قوله : « وأبسط يداً لاصطلامك

واجتياحك ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك » . فقد وازن بينهما موازنة جعلت ألفاظها على نغمة موسيقية طريفة .

وهكذا نجده دقيقاً في فنه ماهراً في صناعته . لذا كان بحق زعيم مدرسة التصنيع في عصره .

ووشي ابن العميد في الألفاظ يتجلى في الجناس بين يَغْرب ويَعْزب ، ويئوب ويثوب ، والطباق بين أقدّم وأؤخر .

وفي الرسالة جمل مترادفة متجاورة ، منها :

يغرب العقل ثم يئوب ، ويعزب اللب ثم يثوب .

وفيها اقتباس الأمثال مثل : أقدم رجلاً وأؤخر أخرى .

وفيها الاستعارات والكنايات مثل :

وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ... وغير ذلك مما هو موجود وواضح .

هذا هو ابن العميد الذي وصل إلى مكانة أدبية ممتازة بفضل فنه بل موهبته الفنية . وقد قال فيه مسكويه :

« لقد رأيته يتناول في مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته وأهل أنسته التفاحة وما يجري مجراها فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه وقد خطّها بظفره ، لو تعمّد لها غيره بالآلات المعدة ، وفي الأيام الكثيرة ما استوفى وقائعها ، ولا تأتّى له مثلها » .

ويقول فيه الثعالبي : « يضرب به المثل في البلاغة ، ويُنتهى اليه في الإشارة بالفصاحة ، والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعاني ونفاستها » .

●

وقال من رسالة إلى صديق له :

كتابي وأنا بحال لو لم ينغِّصها الشوق إليك ، ولم يرنّق صَفْوَها النزوعُ

نحوك ، لعددتُها من الأحوال الجميلة ، وأعددتُ حظّي منها في النّعم الجليلة ، فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة ونعمة تامة ، وحظيت منها في جسمي بصلاح، وفي سعيي بنجاح . ولكن ما بقي أن يصفوَ لي عيش مع بُعدي عنك ، ويخلوَ ذرعي مع خلُوّي منك ، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك. وكيف أطمعُ في ذلك وأنت جزء من نَفسي ، وناظمٌ لِشَمْل أُنسي ؟ وقد حُرمتُ رؤيتك ، وعَدِمتُ مشاهدتك، وهل تسكنُ نفس متشعبة ذاتُ انقسام ، وينفعُ أُنس بيت بلا نظام ؟ وقد قرأتُ كتابك — جعلني الله فداك — فامتلأت سرورا بملاحظة خطّك ، وتأمُّل تصرُّفك في لفظك .

وما أقرّظها فكلٌّ خِصَالك مقرَّظ عِندي ، وما أمدحُها فكل أمرك ممدوحٌ في ضميري وعقدي ، وأرجو أن تكون حقيقة أمْرِكَ موافقةً لتقديري فيكَ ، فإن كذلكَ وإلاّ فقَد غَطى هواك وما ألقى على بصري .

الأفكار الرئيسية

١ — وصف حالته .

٢ — كدر الحياة لبُعده عن صديقه .

٣ — — أثر كتاب صديقه في نفسه ، ورجاؤه من صديقه أن يؤكد حسن ظنه فيه .

الكلمات والاساليب

ينغصها : يكدرها . يرنق : يكدر . النزوع : الميل والشوق . حظيت : نلت وتمتعت . يخلو ذرعي : يفرغ قلبي من الهموم . يسوغ : يطيب . ناظم : جامع . تسكن : تهدأ وتطمئن . أُقرّظها : أمدحها . عَقدي : اعتقادي ورأيي ، إن كان كذلك : اذا كانت خصالك جميلة كما أعتقد ، وإلا فقدغطى: أي إن لم تكن خصالك كما أعتقد فإن حبي لك هو الذي أخفى عني عيوبك .

التحليل

١ – الكاتب في نعمة وصحة ونجاح في عمله ولولا بعد صديقه عنه وشوقه اليه لما تكدّر صفوه وتنغصت حاله . فما دام بعيداً عنه فلن يصفو له عيش ، وكيف تهدأ نفسه أو يطيب عيشه وهو قد حُرم لقاء صديقه الذي يعتبره جزءاً منه ؟

٢ – ثم يبين أثر الخطاب في نفسه فيقول : إنه قد سر لرؤية خطه وبلاغة أسلوبه وكلاهما غني عن المدح ، فكل صفات صديقه وأموره ممدوحة في اعتقاده .

٤ – وأخيراً رجا صديقه أن تكون جميع خصاله كما يعتقد ، فإذا لم تكن كذلك فإن حبه له هو الذي أخفى عنه عيوبه وجعله لا يرى إلا فضائله .

التعليق والنقد

هذه الرسالة الاخوانية توضح – أيضاً – طريقة ابن العميد . ففيها :

١ – السجع الكثير ؛ والوشي البديعي كالجناس بين عامة وتامة ، جميلة وجليلة . والاستعارات والكنايات (ينغصها الشوق ، يرنق صفوها ، يصفو لي عيش ، يخلو ذرعي مع خلوي منك). والإطالة التي بدت في الترادف :

رؤيتك ، ومشاهدتك ، أقرظها ، أمدحها .

موضوعات للبحث

١ – وصل ابن العميد الى مكانة ادبية ممتازة عن طريق فنه الخالص .
ناقش هذا القول ، ووضح أثر ابن العميد في الكتابة ومثل لما تقول :

٢ – قيل : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » .

بين مدى صحة هذا الرأي على ضوء دراستك لفن ابن العميد .

٣ – كان ابن العميد زعيم مذهب التصنيع في عصره وأستـــاذ فن الزخرف والتوشية .

ناقش هذا الرأي واستشهد بصور من كتابته على ذلك .

المراجع

الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
يتيمة الدهر	للثعالبي
الأدب العباسي	لمحمود مصطفى
أدباء العرب في الأعصر العباسية	لبطرس البستاني
تاريخ آداب اللغة العربية	لجورجي زيدان

بديع الزمان الهمذاني

المقامة البغدادية

مقدمة : تنوعت أساليب النثر في العصر العباسي تدريجياً وأخذت تأخذ سمة العصر الذي تعيش فيه متأثرة به ، وقد بلغت الحياة الأدبية مبلغاً من الرقي جاء نتيجة ازدهار العلوم واتساع دائرة المعرفة ، ووصل امتزاج الثقافات إلى أقصاه في أواخر القرن الرابع الهجري .

ومعلوم أن الترف قد بلغ حداً كبيراً في هذا العصر وبدت مظاهره في جميع جوانب الحياة: في القصور، وفي مجالس اللهو، وفي المآدب . وظهرت فئة أثرت وعاشت في رغد من العيش يشبه إلى حدٍّ ما ترف القصور ورغد الأمراء.

أما السواد الباقي فقد عاش بائساً محروماً ، يجد صعوبة في الحصول على أسباب العيش ، وخيَّم البؤس والفقر على الأدباء وبخاصة الطبقتين الوسطى والدنيا ، وكَسدت سوق الأدب فلم تجد لها مشجعين ، وانطلق الأدباء يبحثون عن مصدر رزق يقيم أوَدهم . فشاعت الكُدْية وكثر الاحتيال ، وأخذ الأدباء يكتبون قصصاً تصور انصراف الخلفاء والحكام عن تشجيع الأدب والأدباء ، واضطرارهم إلى الطواف في البلاد للاستجداء .

وجاءت المقامات تصور هذه الحياة على الرغم من أن أبطالها وأحداثها من صنع وابتداع صاحبها بديع الزمان .

والمقامة في اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس ، ثم قصد بها ما يكتبه

الأدباء من هذه القصص الزاخرة بالزخرف والتكلف مصورة بؤسهم واحتيالهم لكسب العيش ، ولها راوية وبطل .

وبديع الزمان صاحب فن المقامات ليس أول من اخترع هذا الفن . فقد سبقه إلى ذلك – متأثراً بالأدب الفارسي – ابن دُرَيْد وابن فـــارس . لكن مقاماتهما كانت أقل نضجاً من مقامات بديع الزمان ، إذ كتب بديع الزمان بعدهما مقامات أكثر جودة ونضجاً من مقاماتهما ثم قلده الحريري بعد ذلك .

هذه هي المقامة في إطارها الخاص، أما المقامة في إطارها العام فقد عرفت في صورة قصة أو مقال أو حديث .

وكانت مقامات الحريري ذات أهمية كبيرة عند المغاربة والأندلسيين فقد حفظوها وشرحوها واقتبسوا منها ، وكان لها تأثير كبير في الأساليب الادبيـة والرسائل الرسمية والخطب المنبرية. وقد بلغ من اهتمام الاندلسيين بفن الحريري أنهم سافروا الى الشرق لرواية المقامات عن الحريري نفسه ، ومن هؤلاء الذين أخذوا مقامات عن الحريري نفسه يوسف بن علي القضاعي ، وأحمـــد بن محمد خلف الأنصاري ، ويوسف بن عبد العزيز اللخمي من أهل ميورقة .

وقد أنشأ المويلحي مقامات في كتابه « حديث عيسى بن هشام » .

والشيخ ناصيف اليازجي (اللبناني) كتب أيضاً مقـامات حاكى فيهـــا الحريري ، ورتب مقاماته كما رتبها الحريري .

وصاحب المقامة البغدادية هو أبو الفضل أحمد بن الحسين المشهور ببديـــع الزمان وُلد في همذان سنة ٣٥٨ هـ. ونشأ فيها وقد أخـــذ اللغة عن ابن فارس العالم اللغوي الشهير ، ثم تجول في خراسان وجرجان وأفغانستان وفي نيسابور .

وقد ناظر أبا بكر الخوارزمي في نيسابور واستطاع بما فيه من دهاء ، وما له من حيلة أن يتغلب عليه فذاع صيته وطارت شهرته .

وقد عاش أخيراً في هراة، واستقرت حاله هناك واقتنى ضياعاً وكثر ماله

بفضل صهره أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي الذي ساعده في ذلك . وتوفي سنة ٣٩٨ هـ.

مقاماته : مقامات بديع الزمان التي وصلت إلينا هي إحدى وخمسون مقامة، وقد روى الثعالبي والحصري أن مقاماته أربعمائة مقامة، ولعلها اعتمدا الدروس التي كتبها الهمذاني في صورة مقامات ثم اختار منها ما وصل إلينا .

ومقامات الهمذاني حكايات قصيرة انتزعها من حوادث وقعت له أو شاهدها في رحلاته الكثيرة في خراسان وما جاورها .

وقد كتبها في نيسابور ونسبها الى رجل سماه (أبا الفتح الاسكندري) ونسب روايتها إلى رجل آخر سماه (عيسى بن هشام) .

والمقامات ، وان كانت من الفن القصصي ، لم يُقصد فيها الى ذلك إنما كان يقصد فيها الى حسن الأسلوب والتوشية ، وإظهار القدرة في الصناعة والمهارة في صياغتها وكيفية التحايل لكسب العيش ، وغير ذلك، مما كان منتشراً في ذلك الوقت ، فهي تضم ألواناً من البيان واللغة والاجتماع .

النص :

١ – حدّثنا عيسى بن هشام ، قال : « اشتهيت الأزاذَ وأنا ببغداد، وليس معي عَقد ، على نقد . فخرجت أنتهز محالّة، حتى أحلني الكرخ ، فإذا أنا بسواديٍّ ، يسوق بالجهد حماره ، ويُطرّف بالعُقَد إزاره ، فقلت ظفرنا والله بِصَيْد .

« وحيّاك الله أبا زيد ، من أين أقبلتَ ، وأين نزلت ومتى وافيت ، وهلمّ إلى البيت . »

فقال السواديُّ: « لستُ بأبي زيد ، ولكني أبو عبيد » فقلت : « نعم، لعن الله الشيطان وأبعد النسيانَ ، أنسانيكَ طولُ العهد، واتصالُ البعد ، فكيف حال أبيك ؟ أشابٌ كعهدي أم شابَ بعدي ؟» فقال :

« قدْ نبت الربيع على دِمْنتَهِ ، وأرجو أن يصيِّره الله إلى جنتَّه » فقلت : « إننا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

ومددت يدَ البدار إلى الصِدار ، أريد تمزيقـــه . فقبض السوادي على خصري بجُمْعه ، وقال :

« نشدتك الله لا مزقتـه » فقلت :

« هلمّ إلى البيت نصيب غـداء ، أو إلى السوق نشترِ شواء ، والسوق أقرب ، وطعامه أطيب . »

فاستفزّتْهُ حُمـةُ القـرَم ، وعطفتْه عاطفة اللُّقـَم ، وطمع ولم يعـــلم أنه وقع .

ب — ثم أتينا شوّاءً ، يتقاطر شواؤه عرقاً ، وتتسايل جوذاباته مرقـاً ، فقلت :

« أفرز لأبي زيد من هذا الشواء ، ثم زنْ له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك الأطباق ، وانضُدْ عليها أوراق الرقـاق ، ورُشّ عليها شيئاً من مـــاء السُّماق .. ليأكله أبو زيد هنيّاً » .

فانحنى الشوّاء بساطوره ، على زبدَةِ تنُّوره ، فجعلها كالكُحل سَحقاً وكالطحين دقـّاً ، ثم جلس وجلستُ ، ولا نبَـس ولا نبَـست حتى استوفيناه. وقلت لصاحب الحلوى : « زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين ، فهو أجرى في الحلوق وأمضى في العروق ، وليكن ليليّ العُمرِ ، يوميّ النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤي الدُهن ، كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنياً » .

قال : فوزنه ، ثم قعَد وقعدتُ ، وجرّد وجرّدتُ ، حتى استوفيناه . ثم قلت :

« يا أبا زيد ، ما أحوجنا الى ماء يُشعشَعُ بالثلج ، ليقمَع هذه الصاّرةَ ،

ويفثأ هذه اللُّقَمَ الحارّة ، إجلس يا أبا زيد حتى نأتيك بسقّاءٍ ، يأتيك بشربة ماءٍ » .

ج – ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولا يراني ، أنظرُ ما يصنع فلما أبطأتُ عليه ، قام السوادي الى حماره ، فاعتلق الشوّاء بإزاره وقال : « أين ثمنُ ما أكلت ؟ » فقال أبو زيد :

« أكلته ضيفاً » ، فلكمه لكمةً وثنّى عليه بلطمةٍ ، ثم قال الشواء : « هاك ، ومتى دعوناك ؟ زن يا أخا القحة عشرين » .

فجعل السوادي يبكي ويحل عُقَدَه بأسنانه ويقول :

كم قلت لذاك القُريد : « أنا أبو عبيد » وهو يقول « أنت أبو زيد » فأنشدت :

أعمل لرزقك كلَّ آلهْ ... لا تَقْعُدَنَّ بذُلِّ حالهْ
وانهض بكل عزيمةٍ ... فالمرء يعجز لا محالهْ

الكلمات والاساليب

الأزاذ : هو من أجواد أنواع التمر ، ويريد به مطلق الطعام .

الكرخ : في الجانب الغربي من بغداد .

السوادي : نسبة الى سواد العراق وهو يشمل سهوله التي تبدو داكنة بخصبها وامتداد الزرع فيها .

الدمنة : آثار الدار المهجورة ويريد بها القبر .

البدار : المسارعة . جمع اليد : قبْضتها .

الحمة : شدة الشيء ، وأصلها إبرة العقرب ، والقرم : اشتداد الشهوة الى أكل اللحم خاصة .

اللقم : الاكل السريع ، ويريد به التهام الطعام بدافع النهم .
الجوذابة : خبز يصنع في التنور ويوضع تحت اللحم لينزل فوقه الدهن .
زبدة التنور : أي خير ما يشوى على موقده .
اللوزينج : نوع من الحلوى تسقى بدهن اللوز وتحشى بالجوز وما شابهه .
ليليّ العمر : ابن ليلته أي لم يمض على صنعه سوى ساعات ومثلها يوميّ النشر .
الصارة : العطش ، يفثأ : يكسر من شدة حرارتها . هاك : خذ ، والمراد هنا بادره بلطم ولكم .

التحليل

هذا لون جديد ابتدعه بديع الزمان ، وهو أشبه شيء بقصة أو تمثيلية قصيرة يمكن ان نحللها كما يأتي :

أ) عيسى بن هشام يسير في شوارع بغداد متسكعاً خاوي الجيب والبطن، يجدّ في البحث عن وسيلة يسد بها رمقه .

وبينما هو سائر اذ به يرى رجلاً قروياً يلمح عليه بفراسته سمات السّذاجة، وبخاصة حينما رأى كثرة العقد في أطراف ثوبه تلك العقد التي انطوت على قدر من النقود ، فهرع اليه وأخذ يلقي عليه الأسئلة يستفسر عن وقت وصوله، والمكان الذي نزل به ، ثم يدعوه الى بيته دون أن ينتظر منه جواباً .

وقد نادى عيسى بن هشام السواديّ وهو يقدر أن التسمية صحيحة ، لأن السواد الأعظم من الريف كان يؤثر هذا الاسم وقتئذ، لكنه فوجىء بالسوادي يصحح الاسم الذي ناداه به ، فبادر السوادي بسؤال آخر علّه يغطي ما أخطأ فيه حتى لا تنكشف حيلته ، فسأله عن أحوال أبيه ، لكنه أصيب بخيبة أمل حين أعلمه الرجل بوفاته في سذاجة واضحة ، فيصطنع عيسى الحوقلة والحزن

لهـول المصاب – دون ارتبـاك – حتى انه ليتظاهر بشدة الحـزن فيهمّ بتمزيق ثوبه .

لقد برع بحركاته في تضليل السوادي ، وبدأ ينفذ حيلته فيكرر على مسامع السوادي دعوته الى الغداء في داره . وبعد ان يسبك الحيلة يذكر كلمة السوق مع البيت، وكأنه بذلك يترك الخيار لضيفه ليختار أيهما. ثم يسرع حتى لا يفاجأ بما لا يريد فتضيع عليه حيلته، فيبتُّ في الأمر ويفضل السوق لقربه، وبسبب طعامه اللذيذ .

والسوادي غافل لا يدرك شيئاً ممـا دبر ، فقد علـّل نفسه بما طاب ، ولذا استسلم له ، وذهبا الى السوق .

ب) دخل عيسى وضيفه أحد مطـاعم بغداد ، وجلسا لتنـاول الطعام : السوادي يجلس جلسة الضيف ، والبغدادي يأخذ سمة المضيف . وطلب الشواء وقدّم الشواء فـالتهماه التهامـاً دون ان ينبسا ببنت شفة . ولم يكتف عيسى بذلك، فأمر بإحضار بعض الحلوى اللذيذة، واشترط فيها شروطاً تجعلها فاخرة تليق بالضيف ، وأُتي بمـا طلبه وأكلاه ، ثم يمضي عيسى ليأتي بماء بارد لينعش جسمه ، ويشفي غليله بعد هذه الوجبة الدسمة .

ج) ويختفي عيسى ويجلس السوادي وحـده في محل الشواء ينتظر المـاء فيطول انتظاره وأخيراً يفكر في الانصراف لان انتظاره صار بدون جدوى.

ولكن الشوّاء يمسك به يطلب الثمن... ويرد عليه رد السُذّج قائلاً : إنه ضيف ، فيوسعه الشواء ضرباً ولكماً ، وينعته بأقبح الألفاظ، فيدرك السوادي أنه وقع في شباك نصّاب ، فلا يجد مفراً من دفع الثمن باكياً لما أصابه ، وعيسى يراه دون ان يُرى . وأخيراً يتمثل بشعر ينبىء عن اعتداده بما فعل .

الشخصيات : الشخصيات في المقـامة ثلاث : عيسى والسوادي والشوّاء، **فعيسى** رجل يسكن المدن فقير عاطل، يحصل على المال من النصب والاحتيال، سريـع البديهة ، عنده قدرة على التخلص في الأزمات . وقد تجرد من كل المثل

الأخلاقية العليا ومن وخز الضمير ، فنحن نراه هنا لا يشعر بألم أو ندم على ما اقترفه من إثم بل إنه يزهو ويعتد بما فعل كأنه أحرز نصراً كبيراً .

السوادي : وهو في زي أهل السواد المعروف قروي « يسوق بالجهد حماره ويطرّف بالعقد إزاره » بدت لنا سذاجته من تصرفاته ، وتلك هي عادة أهل السواد من أمثاله .

وكثيراً ما نصادف في حياتنا اليومية أمثال هذا السوادي من الذين يفدون الى المدن من القرى ويقعون فريسة الاحتيال والنصب .

الشوّاء : وهو منهمك في عمله ليس عليه إلا أن يستجيب لطلب عيسى وتوجيهاته وتنفيذ ما أراد ، فدوره هنا دور ثانوي ، وقد رأيناه يسبّ ويقذع في السبّ عندما ردّ عليه السوادي بسذاجة قائلاً إنه ضيف عيسى ، وأمثال هذه الشخصية لا نعدم لها نظيراً في كل مكان وعصر فكثيراً ما نرى الباعة بهذه الصورة .

التعليق والنقد

هذه المقامة أشبه بقصة شخصياتها ثلاث ، وقد وفق بديع الزمان في طبع كل منهم بطابع خاص ، ووقعت أحداثها في عصر بديع الزمان وفي أحد أسواق بغداد . وحوار القصة مشوّق لطرافته ، وقد استطاع بديع الزمان بما أوتي من مهارة أن يبثّ فيها المرح في بعض المواقف .

وفي المقامة مقومات القصة من المقدمة ثم العقدة وأخيراً حلها . والحل في المقامة غير متكلف بل جاء طبيعياً .

وليست كل المقامات على هذه الصورة بل إن هذا نادر وقليل، فأغلبها يقوم على السرد ، وإظهار القوة اللفظية .

وألفاظ المقامة وأسلوبها يقدمان الينا صورة عن الطريقة التي كانت تصاغ

بها المعاني ، وان هذه الألفاظ والأساليب قد أصبحت غاية لا وسيلة . ففيها الألفاظ الغريبة ، وفيها السجع المقبول لتنوعه وعدم تكلفه ، وفيها الزخرف اللفظي دون تكلف .

وكل ما في المقامة مقبول ، اذا قسناه بما أصاب الأسلوب بعدئذ من التزاويق اللفظية والإسراف في السجع والألفاظ الغريبة .

وأما الناحية الاجتماعية في أفكار المقامة وموضوعها فمطروقة كثيراً نجدها في صورة نوادر وأخبار في كتب الأدب التي تتحدث عن أخبار القرويين في المدن ونوادر البداة في قصور الأمراء ، كالذي رواه أبو الفرج الاصبهاني في كتابه « الأغاني » .

وكما رواه الجاحظ في كتابه البخلاء من أن فئة من الناس اتسمت بالفصاحة والثقافة والظرف، واتخذت من ذلك وسيلة للتكسب . لكنها اتسعت في عهد الهمذاني نتيجة سوء توزيع الثروة مما أدى الى احتراف الأدباء الكُدية والاحتيال، وقد عبرت المقامة عن هذا الوضع .

وسلوك بطل المقامة – على الرغم من فصاحته وظرفه – جاء نتيجة هذا الوضع الاجتماعي المعقد ، وقد امتزج العرب بالأجانب ونقلوا عنهم عاداتهم وأخلاقهم ، ففسدت المثل العربية العليا واتصف هؤلاء بصفات يستنكرها العربي الأبي والمتحضر الراقي . ثم ان المجتمع الذي يعيش أغلب أفراده على النصب والاحتيال لهو مجتمع فاسد وأفراده كأعضاء مشلولة ، بل أفاع تنفث سمومها في المجتمع . ولذا فان الشخصية العربية الأصيلة لا تقر هذا الوضع ولا ترضى بأن يكون أفرادها عالة على المجتمع ، مجردين من الصدق والشهامة والكرم الذي عرف به العربي .

٢ ـ المقامة الساسانية

حدثنا عيسى بن هشام قال : أحلـّتني دمشق بعض أسفاري فبينا أنا يوماً على باب داري ، إذ طلع عليّ من بني ساسان كتيبة قد لفّوا رؤوسهم وطلوْا بالمُغْرَةِ لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجراً يدق به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاوبونه ، فلما رآني قال :

أريدُ منكَ رغيفا   يعلو خواناً نظيفا
أريد جَدْياً رضيعا   أريد سخلاً خَروفا
أريد مـاءً بثلج   يغشى إناءً طريفا
أريد منك قميصاً   وجُبّةً ونَصيفا
رضِيْتُ منك بهذا   ولم أُرِدْ أن أحيفا

قال عيسى بن هشام : فنُلْتُه دِرهما وقلت له قد آذنتُ بالدعوة وسنُعد ونستعد ، ونَجدّ ونجْتهد ، ولك علينا الوَعْدُ من بعدُ ، وهذا الدرهم تذكرة معك فخذ المنقود ، وانتظر الموعود ، فأخذه وصار إلى رجل آخر ظننت أنه يلقاه بمثل ما لقيني فقال :

يا فاضلاً قد تبَدّى   كأنّه الغصنُ قدّا
قد آشتهى اللحمَ ضرسي   فأجلُدْهُ بالخبز جَلْدا
وآمْنُنْ عليّ بشيء   واجعلْهُ للوقت نقدا

قال عيسى بن هشام : فلما فتق سمعي منه هذا الكلام علمت أن وراءه فضلاً فتبعته حتى صار إلى أمّ مثواه، ووقفت منه بحيث لا يراني وأراه، وأماط

السادة لُئمهم ، فاذا زعيمهم أبو الفتح الاسكندري ، فنظرت إليه وقلت ما هذه الحيلة وَيْحك ؟ فأنشأ يقول :

هذا الزمانُ مَشومُ كما تراه غَشُوم
الُحمْقُ فيه مليحُ والعقلُ عَيْبٌ ولوم
والمالُ طَيفٌ ولكن حول اللئام يحُوم

الكلمات والاساليب

أحلتني دمشق بعض أسفاري : أي اضطرتني الأسفار إلى نزول دمشق .

بنو ساسان : الشحاذون المتسولون ، ومعنى العبارة رأيت جماعة من المتسولين قد لفوا رؤوسهم وصبغوا ملابسهم بلون أحمر إشارة إلى سوء حالهم.

أمّ مثواه : ربّة بيته . مشوم : جالب للشؤم والنحس . غشوم : قاس ظالم . الحمق : الغباء وضعف العقل . لوم : أي لؤم ، والمعنى أن الجهل والحمق مستحسنان مقبولان في زماننا والعقل آية التأخر والنقص .

موضوعات للبحث

١ – استعرض مراحل تطور فن المقامات حتى بديع الزمان الهمذاني مبيناً أهم الأدباء الذين مهّدوا الطريق لبديع الزمان .

٢ – هيأ فن المقامات مع غيره من فنون النثر الأخرى لظهور فن القصة، لكن أثر المقامة كان أكثر .

ناقش هذا الرأي موضحاً ومستشهداً .

٣ – صاغ بعض الكتاب بعض موضوعاتهم النثرية في أسلوب المقامة .
أذكر من تعرفه من هؤلاء، ومثّل بنوع من هذا الاسلوب يتجلى فيه أسلوب فن المقامة .

٤ – قال الدكتور شوقي ضيف :« ليست المقامة اذن قصة ، وإنما هي حديث أدبي بليغ وهي أدنى الى الحيلة منها الى القصة ، وليس فيها من القصة إلا ظاهر فقط » . ناقش هذا القول .

المراجع

الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
المقامة	للدكتور شوقي ضيف
بديع الزمان الهمذاني	لمارون عبود
القصة والمقامة	لمحمد جميل سلطان
الأدب في ظل بني بويه	لمحمود الزهيري

من منتخبات الحريري

المقامة الصنعانية

هذه مقامة لأديب آخر هو الحريري سار فيها على منوال الهمذاني في إظهار البراعة لكنه لم يوفق توفيقاً تاماً في كتابة قصة مرتبطة الحوادث تثير شوق القارىء وتجمع الحوادث حول العقدة وتنتهي إلى حل في آخر القصة .

وهذا لا يُنقص من شأنه.. ففي مقاماته أدب كثير. وهي مختلفة الأغراض، منها ما اشتمل على ألغاز نحوية ألقاها أبو زيد السروجي بطل مقاماته على جماعة فعجزوا عن حلها فيأبى أن يفسرها لهم حتى يَصِلوه فيعطوه ما أراد، وإلى فكاهية كالمقامة الواسطية، وإلى مجونية كالمقامة الرَّحْبيَّة (نسبة إلى رحبة مالك بن طوق ، بلدٍ بالعراق) وإلى دينية كالمقامة التي سندرسها (الصنعانية) وإلى خلقية اجتماعية كالمقامة الرازية .

ومقامات الحريري أكثر تعلقاً بالحَضَر من مقامات بديع الزمان ، وهي غالباً أطول من مقامات البديع . وليس طولها لناحية فنية ولكن لكثرة المترادفات أو لكثرة الأشعار .

والحريري هو أبو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري ، عربي الأصل (ينتمي إلى ربيعة بن نزار) وكنيته أبو محمد ولقبه الحريري (نسبة

إلى الحرير وعمله أو بيعه) .

ولد سنة ٤٤٦هـ « ببليدة المشان فوق البصرة » وتعلم بالبصرة وكان يقيم في حي من أحيائها يسمى حي بني حرام .

وقد نبغ الحريري في العلوم الدينية والنحوية واللغوية ثم انتقل إلى بغداد وأقام بها زمناً ، وقد طمع في وظائف الدولة فاتصل بالولاة والوزراء وشجعوه على إنشاء المقامات .

وكان الحريري دميماً قبيحاً بخيلاً . ولولا براعته في تأليف مقاماته وعلمه الواسع لما اهتم به أحد ، وقد كان للحريري طلاب يعجبون بفنه وطريقته . وتوفي سنة ٥١٦ هـ .

النص :

حدَّث الحارثُ بن هَمّام ، قال : لما اقتَعَدْتُ غاربَ الاغتراب ، وأنأتني المتربَة عن الأتراب ، طوَّحتْ بي طوائح الزمن إلى صنعاء اليمن ، فدَخلتُها خاليَ الوفاض ، باديَ الأنقاض ، لا أملكُ بُلْغَةً ، ولا أجد في جرابي مُضغَةً ، فطفقتُ أجوب طرقاتها مثل الهائم ، وأجول في حوماتها جوَلان الحائم وأرود في مسارح لمحاتي ، ومسابح غدَواتي وروْحاتي كريماً أُخلِقُ له ديباجتي ، وأبوح له بحاجتي ، أو أديباً تفرجّ رؤيتُه غُمَّتي ، وتُرْوي روايتُه غُلَّتي ، حتى أدْنَتْني خاتمةُ المطاف ، وهدَتْني فاتحة الألطاف إلى نادٍ رحيب ، مُحْتوٍ على زحام ونحيب ، فولَجتُ غابَة الجمع ، لأسْبُر مجلبة الدَّمع ، فرأيتُ في بُهرَةِ الحلْقة ، شخصاً شَخْتَ الخِلْقة ، عليه أُهْبَةُ السياحة ، وله رَنّةَ النِّياحة ، وهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه ، وقد أحاطت به أخلاط الزُّمر ، إحاطةَ الهالةِ بالقَمر ، والأكامِ بالزّهر . فدُفعتُ إليه لأقتبسَ من فوائده ، وألتقط بعض فرائده .

الكلمات والاساليب

اقتعدت : ركبت . الغارب : مقدَّم سنام البعير. المتربة: الفقر . طوحت: رمت . طوائح الزمن : نوائبه . الوفاض : جمع وفضة وهي الحقيبة من جلد يجعل فيها الراعي زاده . البلغة : زاد المسافر يبلغ به غايته . الجراب : وعاء من جلد يصنع للزاد . والمضغة : المراد بها هنا اللقمة . أجول في حوماتها : أسير في نواحيها . الحائم: الطائر العطشان . أرود : ألتمس . مسارح اللمحات الموضع الذي يجول فيه النظر . أخلق له ديباجتي : أبذل له ماء وجهي. هدتني فاتحة الألطاف : دلّني حسن السؤال . لأسبر مجلبة الدمع : لأعرف سبب بكائهم .

شخت الخلقة : رقيق الجسم ، له رنة النياحة : له أنين الباكي .

التحليل

هذا الجزء من المقامة يتضمن ما يأتي :

ألجأ الفقر الحارث بن همام إلى مغادرة بلده وراء عيشه ، فنزل بصنعاء اليمن وأخذ يجوب طرقاتها عله يحصل على كريم يطلب منه المعونة ، أو أديبٍ يسرّي عنه بأخباره وآدابه ، وانتهى به المطاف والتلطف في السؤال إلى مجلس واسع قد اجتمع فيه قوم يبكون ، فدخل بينهم ، ليقف على حقيقة أمرهم ، فرأى شخصاً نحيفاً تبدو عليه آثار السفر ، يقف واعظاً في الناس يُبكي العيون ويؤثر في القلوب ، والناس يحيطون به من كل جانب ، كما تحيط الهالة بالقمر ، والأوعية بالثمر ، فاقترب منه رغبة في الاستفادة .

ولو استعرضنا بقية المقامة لرأيناه يذكر الناس بالموت ويؤنبهم على غفلتهم، فإذا ما انتهى من وعظه تأبط عصاه ، ورأينا الناس يتسابقون إلى الإحسان إليه ، فيأخذ عطاياهم ويرحل متوارياً عنهم فيتبعه الحارث ، وهو لا يراه ،

إلى أن انتهى إلى مغارة ، فوجده يجلس مع تلميذ يتعاطيان الخبز واللحم والنبيذ ، فيلومه الحارث على ذلك وهو الذي كان منذ وقت قليل واعظاً ، فأجابه قائلاً : إنما جعلت وعظي شبكة لرزقي في وقت أصبح للدون من الناس شأن ، ثم يقول الحارث : وأخيراً عرفت من تلميذه أنه أبو زيد السّروجي .

التعليق والنقد

هذا هو الحريري الذي نحا نحو بديع الزمان في مقاماته ، لكننا نجده أكثر من « البديع » في تعمله وولوعه بالسجع، فلم يقتصر على التزامه في فواصل الجمل ، وإنما تعمّله في أجزائها كقوله : « وهو يَطبَعُ الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه » ويفتنُّ في الجناس « لا أملك بلغة ، ولا أجد في جرابي مُضغة » ؛ « غمَّتي وغلَّتي » ، « الجمع ، والدَّمع » ؛ « السياحة والنياحة » ؛ « الهائم ، والحائم » . والطباق مثل « غدواتي وروحاتي » . وجاء بكثير من صور البيان مثل « أحاطت به أخلاط الزمر إحاطة الهالة بالقمر » ؛ و « أرود في مسارح لمحاتي ، ومسابح غدواتي وروحاتي » .

وللأدباء الأجانب مآخذ على مقامات الحريري منها :وحدة مغزاها ، وعدم عنايتها بتصوير الحكايات تصويراً دقيقاً محكم النسج ، والعناية باللفظ .

أما أدباء العرب فيرون أنها خيال متكرر في صور مختلفة ، وفي إنشائها تكلف لا تسمح به طبيعة الذي قيلت على لسانه .

موضوعات للبحث

١ – قارن بين مقامات الهمذاني ومقامات الحريري مبيناً أيها أجود في نظرك ولماذا ؟

٢ – حلل المقامة الصنعانية للحريري ، وبين المظاهر الفنية والاجتماعية فيها ومثّل لما تقول .

٣ – وازن بين مقامات الحريري واليازجي مبيّناً أهم الخصائص التي اتبع فيها اليازجي الحريري .

٤ – للأدباء الأجانب ، والعرب، رأي في مقامات الحريري .

بيّن رأي كلٍّ، واذكر رأيك الذي يؤيـد أو ينفي هذه الآراء ، مستدلاً في كل .

المراجع

نفس المراجع السابقة في موضوعات البحث .

النقد الادبي

في صورة موجزة

تعريفه : هو إلقاء الضوء على الآثار الأدبية مع تحليلها ثم تقويمها وتقدير قيمتها الفنية .

وهو لم يأخذ سمة العلم إلا في العصور الحديثة ، فقد كاد الآن أن يكون علماً لما له من قواعد وأصول ثابتة يجري بها القياس وتفهم بوساطتها قيم الأعمال الأدبية ، فضلاً عن أنه فن من فنون الجمال الأدبي لأن هدفه التبصير بمواطن الجمال والقبح في الأدب مستعيناً بالذوق والشعور كعنصرين أساسيين ، لأن الآثار الفنية لا تخضع لميزان العقل وحده .

وللنقد معانٍ كثيرة عند العرب منها « نقدت الدراهم » إذا ميزت جيدها من رديئها ، ومنها الذم والاستهجان كما في حديث أبي الدرداء « إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك » ومعنى نقدتهم عِبْتهم .

وقد استعاره الباحثون للتمييز بين الجيد والرديء في الإنتاج الأدبي وأخذ الناس يقولون : « نقد الكلام » وهو من نقَدة الشعر ونقاده ، « وانتقد الشعر على قائله » واستعمل النقد بهذا المعنى فقال بعضهم :

ربَّ شعر نقدته مثل ما ينـ ـقد رأس الصيارف الدينارا

واستخدم المؤلفون هذا التعبير وأولهم – على ما قيل – قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ ه .

واذا كان العرب لم يعرفوا هذا التعبير الحديث إلا متأخراً فإنهم قد عرفوه – قديماً – عملا .

فقد عرفنا للعرب منذ العصر الجاهلي نقداً واضح الهدف تارة كنقد طرفة ابن العبد حينما أنشده عمرو بن هند شعراً لعمرو بن كلثوم فلما بلغ قوله :

وقد أتناسى الهمَّ عند ادّكاره   بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدِمِ [1]

فقال له طرفة « استنوق الجمل » يريد أن الشاعر قد وصف الجمل بما توصف به الناقة ، لأن الصيعرية سمة في عنق الناقة لا في عنق الجمل .

وغامضاً مبهماً تارة أخرى كما روي عن الزِّبرِقانِ بن بدر ، وعمرو ابن الأهتم ، وعَبْدة بن الطبيب ، والمُخَبَّل السَعدي أنهم تحاكموا الى ربيعة ابن هذار الأسدي في الشعر أيهم أشعر . فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أُسْخِنَ ، لا هو أنضِج ، فأُكل ، ولا تُرك نيئاً فيُنتفع به . وأما أنت يا عمرو فان شعرك كبرود حبر[2] يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر ، نقص البصر . وأما أنت يا مُخَبَّل فإن شعرك كمزادة[3] أحكم خرزها ، فليس تقطر ولا تمطر . »

وقد عرف أنهم حكموا بجودة بعض القصائد كما سموا قصيدة سُوَيْد بن أبي كاهل اليَشْكُرِي التي مطلعها :

بَسَطتْ رابعةُ الحبلَ لنا   فوصلْنا الحبْلَ منها ما اتسعْ

باليتيمة لإعجابهم بها .

١ – الناجي : الجمل السريع . المكدم : الصلب .
٢ – برود : جمع برد : وهو الثوب المخطط ، والحبر : الشاة .
٣ – المزادة : ما يوضع فيه الماء .

مقاييسه : للنقد مقاييس لا بد للناقد ان يراعيها ليحكم حكماً صحيحاً على الأثر الأدبي الذي سيتناوله ليأخذ هذا الأثر مكانته في عالم الفن الأدبي .

ويمكن ان نجمل هذه المقاييس العامة فيما يأتي :

١ ـ مقاييس نفسية أو عقلية وهي تشمل :

الفكرة : والفكرة ثمرة العقل ، ومقياس النقد فيها ان نبحثها من النواحي الآتية :

أ ـ الحقيقة وموافقتها للواقع المحسوس . ب ـ العمق الإدراكي . ج ـ الجدّة والابتكار . د ـ تسلسل المعاني حسب كل فن من فنون القول قصصاً أو غناء ... الخ .

٢ ـ **العاطفة** : وهي ثمرة الشعور والاحساس ، ومقياسها في النقد أن تكون صادقة ، أي أن تكون هناك صلة وثيقة بين نفس الأديب وبين ما يقول ، بمعنى أن يكون انتاجه مرآة لنفسه تنعكس فيها اختلاجاته ، ولا يكون أدبه مجرد صنعة خالياً من العاطفة والاحساس .

فالعاطفة الصادقة تحرك المشاعر وتأخذ بلبّ السامع أو القارىء، وبقدر ما تكون عميقة بقدر ما يكون أثرها بليغاً .

٢ ـ **مقاييس بيانية وهي تشمل** :

أ ـ العبارة : ومقياسها في النقد ان تكون بليغة فصيحة، والمراد بالفصاحة أن تكون سليمة التركيب تؤدي المعنى في سهولة ويسر ووضوح دون تعقيد أو غموض . ونعني بالبلاغة أن تكون العبارة موافقة لمقتضى الحال والمقام .

والعبارة الأدبية ـ كما نعلم ـ غير العبارة العلمية . فالاولى عبارة الجمال ، ومن مميزاتها الاشراق والايحاء والحيوية مع شيء من صيغ المجاز، واذا وُشّيت بالزخرفة البديعية فيجب أن يكون ذلك في قصد واعتدال .

ب ـ الصورة : وهي ثمرة الخيال ؛ ومقياسها أن تكون سريعة الأنطباع

شديدة الرسوخ في نفس السامع أو القارىء تنقله من مجرد الحقيقة إلى جو جديد ينفعل فيه مع صاحبها فتحرك خياله وتشرك مشاعره ، فإذا هو في النهـــاية شريك لصاحبها ، تبعث في نفسه الإعجاب والارتياح. ويجب ان تخلو الصورة الخيالية من المبالغة غير المقبولة التي تخرج عن حدود العقل والإمكان .

أما قول أرسطو : « إن أعذب الشعر أكذبه » فالمراد أن تكون مبالغته مقبولة مستساغة ترتفع إلى مستوى المثالية وتقترب من الواقع وإلا كان الفهمُ لحقيقة الشعر – كفنٍ يعتمد على الصدق – فهماً خاطئاً . ولا بد للصورة أن تكون إيحائية بحيث تتسع آفاقها وتنعكس إشعاعاتهـــا في خدمة المعنى ، ويشترط فيها أن تكون واضحة حتى لا تفقد قيمتها في التأثير .

والخيال مظهر من مظاهر العاطفة ، ومن أنواعه عند الأدباء :

ا – الخيال الحسي وهو الذي ينتزع مادته من المحسوس .

ب – الخيال التأملي وهو الذي ينطلق من المحسوس إلى اللامحسوس.

حـ – الخيال التحليلي وهو الذي يذهب في العمق أكثر مما يذهب فيالطول.

وهناك مقاييس أخرى لا تقل شأناً عن المقاييس السابقة وهي البحث في المنبع والأصل الثقافي الذي استقى منه الأديب فنه ، ثم البيئة التي نشأ الأديب فيها . وتحديد الصلة بين بيئتـــه وأدبه ، والتطورات المـكانية والزمانية ، وأثر البيئة في الأديب ، ثم قيمة إنتاجـه من حيث الهدف الإنساني ، والمغزى الأدبي .

الناقد : هو ذلك الذي أُعطي موهبة فطرية واستعداداً يمكّنه من تقـيم الآثار الأدبية ، قد وقف على آثار العرب في كل عصر ، وعرف تطور أساليب الشعر والنثر وعوامل كلٍ ، وكان ذا ثقافة علمية وفنية واسعة ، وصاحبَ ذوق مصقول مرهف ، شديدَ الشعور بالجمال وعناصره ، شديد التنبـــه لمواطن القبح يُصدر أحكامه على ضوء مقاييس الفنون الأدبية ، وأنظمة الروح العلمية متمكناً من إقامة البرهان على ما يحكم ، غير متحيز في حكمـه أو متخوف من

أحد لأن انفعال النفس بغيرها من الأشخاص يحول دون إدراك البصيرة .

النقد عند العرب : قلنا إن النقد قديم عند العرب وأنهم تذوقوا الآثار الأدبية وأحسُّوا فخفقت قلوبهم أمامها خفقات تعبر عن إعجابهم حيناً وسخطهم أحياناً .

وقد كان النقد في الجاهلية أحكاماً قائمة على ذوق ساذج يعكس روحهم ، ولم يكن مبنياً على قواعد فنية ولا على ذوق ناضج منظم ، فهو انفعالات نفسية ، وأحكام عامة كقولهم : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رَغِب ، والنابغة إذا رَهِب ، والأعشى إذا طَرِب » وغير ذلك من الأمثلة التي سقناها لك في أول هذا الباب .

ولما جاء الاسلام كانت الفترة بين ظهوره والعهد العباسي فترةً ازدهر فيها النقد شيئاً ما لا سيا في العهد الأموي في بلاد الحجاز والعراق والشام .

أما في الحجاز فقد أخذ النقد ينحو إلى نزعة تجديدية مبنية على ذوق رققته الحضارة الجديدة . وقد اشتهر في تلك البيئة المترفة عدد كبير من النقاد كابن عتيق الذي تعقب الشعراء ونقدهم نقداً ظريفاً . ومن ذلك تفضيله عمر ابن أبي ربيعة على غيره من معاصريه بقوله « لشعر عمر نَوْطة بالقلب وعلوق بالنفس . وما عُصِيَ الله عز وجل بشعرٍ أكثر مما عُصِيَ بشعر ابن أبي ربيعة فخذ عني ما أصف لك » .

وقوله : « أشعر قريش من دقَّ معناه ، ولطُفَ مدخله ، وسَهُل مخرجه ، ومتُن حشوه ، وتعطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن حاجته » .

واما في العراق والشام فقد سادت النزعة القديمة في الشعر . وكان النقد لا يعدو تفضيلاً بين الشعراء ، وأحكاماً أشبه ما تكون بالخطرات السريعة ، وأقوالاً بعيدة عن التحليل والتعليل . وازدهار النقد في صدر الاسلام ينحصر في هذه الأحكام الخالية من التفصيل والتحليل مع لمحات تشمل المبنى والمعنى ،

مثل : ما أمدحُ بيت قالته العرب ، وما أهجى بيت وأغزل بيت ، ومثـــل الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر . وفي العهد الأموي اعتمد النقد على الذوق والشعور مع بعض الملاحظات السريعة التي كانت متأثرة بالنزعة القبلية بين الشعراء .

وإذن فالعصر الاسلامي كان أساسه الذوق والشعور فحسب لا يسير النقد فيه على مقاييس دقيقة ولا على قوانين مرسومة .

أما في العصر العباسي فقد ارتقت الحياة نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى من فرس ويونان وهنود ورومان ، وتأثر العقل العربي بثقافة هذه الأمم فارتقت حاسة النقد من الفطرة إلى المعرفة والفلسفة . وراح العلماء يصوغون قواعد اللغة والنحو والعروض ، كما راحوا يعالجون قضايا البيان والبلاغة والأسلوب وصناعة الكلام . ومن أشهرهم الجاحظ في البيان والتبيين ، وابن الأثير صاحب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البـلاغة ودلائل الإعجاز .

وأصبحوا يتعقبون الشعراء والكتاب آخذين عليهم سقطاتهم .

وحفل العصر بالباحثين والمنقبين فانتقل النقد – نتيجة لذلك – من أحكام فطرية إلى علم ذي قواعد وأصول ، وصار يعالج الأدب ويحلل ويقيس العناصر الجمالية بمقاييسها .

وقد ظهرت في هذا العصر نتيجة لهذا كله عدة مدارس في النقـــد اتجهت اتجاهات متباينة وهي :

١ – مدرسة اللغويين ، ٢ – مدرسة المتكلمين ، ٣ – مدرسة الفلاسفة

١ – مدرسة اللغويين :

وهي التي كانت تهتم بالألفاظ في كل عصر ، وجعل أصحابها القِدَم قـاعدة حكمهم ، وفضلوا القديم على الحديث لأنه في نظرهم أمتن تركيباً وأقوى لغة ،

وتعرضوا لكل مجدِّد واتهموه بأنه مجترىء على تقاليد العرب ومفهومهم للألفاظ والأساليب . ويمثل هذه المدرسة : محمد بن سَلاّم الجُمَحِي صاحب كتاب « طبقات الشعراء ». وقد رتّب الشعراء طبقاتٍ بعضها فوق بعض مراعياً في ذلك :

١ – الزمان ، فجعل منهم مجموعتين : جاهليين وإسلاميين .

٢ – المكان ، لأنه حينا قسم الجاهليين والإسلاميين إلى طبقات نظر فوجد شعراء ظلوا إقليميين فجعلهم في باب شعراء القرى ، وفاضل بين شعراء كل قرية فجعل من حسان أشعر المدنيين ومن عبدالله الزِّبَعْرَى أبرع المكيين ، معتمداً في ترتيبه وتقديمه هذا على كثرة الشعر ، ووفرة الفنون ، والجودة الفنية . وقد تحرى الدقة والصحة ، ونبه على المنحول من الشعر الجاهلي ، وسبق النقاد الحديثين في بحثه عن صحة نسبة الآثار الى أصحابها .

٢ – **مدرسة المتكلمين** : وهؤلاء كانوا ذوي ثقافة واسعة عميقة قد خرجوا عن الجمود العقلي ، واعتمدوا في نقدهم على البلاغة من تشبيه واستعارة ، وايجاز واطناب ، واختلطت عندهم وسائل النقد بمسائل البلاغة . ولعلهم كانوا السبب في أن النقد العربي لم يتميز من البلاغة تميزاً تاماً بل ظل دائماً ممتزجاً بها . وحتى في النقد المقارن عند الآمدي (صاحب كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري) كان النقاد يناقشون الشعراء ويوازنون بينهم على أسس بلاغية . وظل النقد ممتزجاً بالبلاغة الى مطلع عصرنا الحديث ، ويمثل هذه المدرسة أبو القاسم الآمدي .

٣ – **مدرسة الفلاسفة** : وهي المدرسة التي حاولت أن تخضع النقد للمقاييس المنطقية والفلسفية التي اقتبست من اليونان ، وقد اخفقوا عندما أرادوا أن يخضعوا الشعر والنثر العربيين لتلك القواعد التي لبيئة غير بيئتهم ولنفسية غير نفسيتهم .

ومن أعلام هذه الفئة قُدامة بن جعفر صاحب كتاب « نقد الشعر » . وقد

امتاز بالدقة العجيبة والآراء السّديدة التي ألقت أضواء كثيرة على عملية النقد العميق الرصين .

وهناك مدرسة أخرى تسمى مدرسة الأدباء وهي التي تقيم الموازنات بين القديم والحديث وتجعل الشعراء طبقتين : العرب الخُلّص وهم شعراء الجاهلية حتى مطلع العصر العباسي، والمولدون وهم شعراء العصر العباسي ومن جاء بعده . ويفضلون الطبقة الأولى لتطورها بالشعر من حيث الجزالة والقوة في التعبير ومتانة التركيب ، ويفضلون الطبقة الثانية لتطورها بالشعر من حيث العذوبة والرقة والتأنق والابتكار .

أما النقد في العصر الحديث فقد تطور تطوراً ملموساً واتجه وجهة علمية قائمة على العقل والذوق والمنطق والشعور، وعلى الدراسات العلمية والثقافية الواسعة ، والتحري والمقابلة والموازنة . كما اعتمد على علم النفس والأخلاق والاجتماع وما إلى ذلك مما خلفه لنا القدماء والمحدثون . وكان هذا التطور نتيجة اتصالنا بالغرب وامتزاج الثقافات وتفاعلها وشيوع الثقافة التي أصبحت ميسرة للجميع .

ومن أشهر النقاد في عصرنا الحديث الشيخ ابراهيم اليازجي ، وسليمان البستاني ، والدكتور طه حسين ، والعقاد ، والدكتور شوقي ضيف ، والدكتور احمد احمد بدوي ، والدكتور مندور وغيرهم .

منتخبات من النقد :

للجاحظ

١ – « من كتاب الحيوان »

قال ابن العميد : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » . وكتاب الحيوان يمثل شخصية الجاحظ الفذّة ويدل على عقل كبير . فقد جمع فيه بين العلم والأدب وأخذ من كل فن بطرف ، فمن آيات من القرآن ونماذج من الحديث إلى كثير من أخبار الحيوان في طباعه وغرائزه إلى الحكايات والنوادر والأشعار إلى ما يتطلبه الأمر من منطق ونقد في ذلك .

ولقد ذكر الجاحظ في كتابه الحيوان كثيراً من عالم الحيوان الواسع . وكان فيما يسمعه من اخبار يقف موقف العالم الحكيم الذي لا يسلّم بما يسمع او يُروى له إلا بعد تحكيم المنطق والعقل .

النص :

حدثنا أبو جعفر المكفوف النحويُّ العَنْبري ، وأخوه رَوْحٌ الكاتب ورجال من بني العنبر : أن عندهم في رمال بَلْعَنْبر حيةً تتصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد، زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحرُّ في رمال بَلْعنبر ، وامتنعت الأرض على الحافي والمُنْتعِل ورَمِضَ الجُندُب غمست هذه

الحية ذنبها في الرمل ، ثم انتصبت كأنها رُمح مَركوز أو عود ثابت . فيجيء الطائر الصغير أو الجرادة ، فإذا رأى عوداً قائماً ، وكره الوقوعَ على الرَّمل لشدة حره ، وقع على رأس الحية على أنها عود ، فاذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإن كان جرادةً أو جُعَلاً أو بعض ما لا يُشبعها مثلُه ، ابتلعته وبقيت على انتصابها ، وإن كان الواقع على رأسها طائراً يُشبعها مثلُه أكلته وانصرفت ، وان ذلك دأبها ما منع الرجل جانبه في الصيف والقيظ في انتصاف النهار والهاجرة ؛ وذلك أن الطائر لا يشك أن الحيّة عود ، وأن سيقوم له مقام الجِذْل للحرباء الى أن يسكن الحرّ ووَهج الرمل .

وفي هذا الحديث من العجب أن تستطيع هذه الحية الاهتداء لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بالفرق ما بين الحيوان والعود ، وفيه قلة اكتراث الحية للرمل الذي عاد كالجمر وصاح أن يكون ملة وموضعاً للخبزة ، ثم أن يشتمل ذلك على ثُلث الحية ساعات من النهار ، والرمل على هذه الصفة فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات .

تعريف بصاحب النص: هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، وُلد بالبصرة ونشأ بها وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب فأكب على الدرس ، وجدّ في التحصيل ودرس على علماء اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة . كما درس علم الكلام على يد أبي إسحق النظّام أحد المعتزلة ، فنصر الاعتزال بكتابته . وصاحَب فئةً من كتّاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم ، واستفاد منهم . وأولِع بالمطالعة فلم يقع في يده كتاب إلا استتم قراءته واستوعب مادته ، وكان يكتري حوانيت الوراقين ، ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حتى استوعب مسائل العلوم ، وغاص في كنوز الفنون وحلّق في أجواء الأدب .

وقد استقدمه المأمون وعيّنه رئيساً لديوان الرسائل ولكنه تركه بعد ثلاثة أيام . واتصل بالفتح بن خاقان وزير المتوكل وكانت له معه مودة . وأصيب في

آخر عمره بالفالج النصفي ، وطال عليه المرض واشتد حتى توفي سنة ٢٥٥ هـ.

وكان الجاحظ – على الرغم من دمامة خلقته – صاحب فكاهة وظرف ، وكان متفائلا واقعياً عذب الحديث ، سريع البديهة ميالاً إلى السخرية واللهو .

آثاره : للجاحظ مؤلفات كثيرة تربو على خمسين ومائتي كتاب في الفلسفة والدين والتاريخ والجغرافيا والسياسة والاقتصاد والطبيعيَّات والرياضيَّات والأدب والعصبيات والأجناس .

ومن أشهر هذه الكتب : كتاب البيان والتبيين (في الأدب والإنشاء والخطابة) وكتاب الحيوان وهو أقدم كتاب عربي في موضوعه ، وكتاب المحاسن والأضداد ، وكتاب البخلاء ، وديوان رسائله .

وللجاحظ أيضاً شعر لكنه قليل .

منزلته في عالم الأدب : حلقت شهرة الجاحظ في الآفاق وأُعجب به الأدباء والقراء ، وقد نال هذه المنزلة بعلمه الواسع المتنوع فهو أول من أكثر التصنيف في الأدب ، ووضع الكتب الجامعة في الفنون الكثيرة ، وجمع بين طرَفي الجد والهزل فكان حجة في الدين ، وسامراً من السُّمّار ، وعالماً من العلماء وأديباً من الأدباء ، وناقداً من النقاد ، ولقد أنصف القاضي الفاضل حين قال «ما مِنّا معشرَ الكتاب إلا من دخل من كتب الجاحظ الحارَةَ ، وشنّ عليها الغارة ، وخرج وعلى كتفه منها كارَه » .

وذُكرت مُتَنَزَّهات الدنيا بين يَدَي ابن دُرَيد فقال « هذه متنزَّهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : ما هي ؟ قال : كتب الجاحظ ، وأشعار المحْدَثين ، ونوادر أبي العَيْناء » .

مقدمة دراسة النقد :

مصدر النص : كتاب الحيوان .

موضوعه : خبر حيَّة تصيد الطير بحيلة عجيبة .

عناصر النص : ١ – سرد الخبر – ٢ – نقد الجاحظ .

دراسة النقد

١ – العنصر الأول : نقل إلينا خبر الحية كما سمعه أولاً ثم علق عليه بعد ذلك ، وهذه هي الطريقة السليمة التي يأخذ بها الباحثون اليوم .

وقد أسند إلى رواته لتكون التبعة – في خبر يحتمل الصدق والكذب – على الراوي لا على الناقل ، وهذه طريقة قد أخذ بها رواة الحديث أولاً ثم انتقلت إلى فنون المعرفة كالتاريخ والأدب ، شعرهِ ونثره ، والسِّيَر .

وقد أشار الجاحظ في نقله للخبر إلى ناحية قد تكون مهمة في مدى التصديق، وهي أن أبا جعفر النحوي كان مكفوفاً ، وفي ذلك كله تتبين أمامنا طريقة الجاحظ المكينة في نقل الأخبار .

٢ – وأما نقده فكان فيه دقيقاً ، فقد تناول نقده بطريقة الباحث المتشكك ، فرواية الخبر شيء ، وتصديقه شيء آخر . وقد تجلت شخصيته الفكرية في نواحي الشك التي أبداها لنا في :

١ – التعجب من تفكير الحية في مثل هذه الحيلة البارعة .

٢ – كيف تقدر الحية على الوقوف ساعات وقت الهاجرة وقد غمست ذنبها في رمال كالجمر ؟!

٣ – تعجبه من عدم تميز الطائر بين الحيوان والعود .

ثم هو في نقله للخبر اكتفى بإبداء شكه في عجبه هذا الذي ألقى في نفوسنا الشك تجاه الخبر فترك لنا حرية تصديقه أو تكذيبه على ضوء تفكيرنا وتمحيصنا .

وقد أتحفنا الجاحظ بهذا الخبر الطريف وهذه الحكاية التي برع في سردها فاستهوتنا فكدنا أن نصدقها .

اسلوب الجاحظ : سلك الجاحظ في هذا الاسلوب سبيل العقل والمنطق والمحاكمة ، فنقل إلينا الخبر بأقرب الطرق المؤدية الى ذلك ، فكان أسلوبه

وسيلة لا غاية، وهذا هو الأسلوب العلمي. فهو قد عبر عن الحقيقة دون أن يتقيد بطول أو قصر إلا بقدر ما يتطلبه المعنى .

وكانت اللغة طيّعة بين يديه ، وقد أتى بعبارات جميلة في وصفه للحية ووقت الهاجرة مثل « رِمضَ الجندب ، منع الرمل جانبه في الصيف ، حتى يسكن الحر ووهج الرمل ..»

٢ – كذب يكذب « من كتاب البخلاء »

حدّثني محمد بنُ بشير عن والٍ كان بفارس ، إما أن يكون خالداً أخا مهرويه أو غيره ، قال :

بينا هو يوماً في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب جُهدَه ، إذ نجم شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرّظه ومجّده ، فلما فرغ ، قال « لقد أحسنت » ، ثم أقبل على كاتبه فقال اعطه عشرة آلاف درهم . »

ففرح الشاعر فرحاً يُستطار له ، فلما رأى حاله قال :

« وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ، اجعلها عشرين ألف درهم ! » وكاد الشاعر يخرج من جلده ، فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : « وإن فرحك ليتضاعفُ على قدر القول ! اعطه يا فلان أربعين ألفاً ! » فكاد الفرح يقتله ، فلما رجعت اليه نفسه قال له :

« أنت – جُعِلت فداك – رجل كريم . وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددتُ فرحاً زدتني في الجائزة ، وقبولُ هذا منك لا يكون الا من قلة الشكر له » ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال: « سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً ... تأمر له بأربعين ألف درهم ! »

قال : « ويلك ! أوَ تريد أن تعطيه شيئاً ؟! »

قال « ومَنْ إنفاذ أمرك بدٌّ ؟! » قال : « يا أحمق ! إنما هذا الرجل سرَّنا بكلامٍ ، وسررناه بكلام ، وهو حين زعم أني أحسن من القمر ، وأشدُّ من الأسد ، وأن لساني أقطع من السيف ، وأن أمري أنفذ من السِّنان جعل في يدي من هذا شيئاً أرجع به إلى بيتي ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولكنه قد سرَّنا حين كذب لنا فنحن أيضاً نسرّ بالقول ونأمر له بالجوائز وإن كان كذبا فيكون كذبٌ بكذب ، وقول بقول . فأما أن يكون كذبٌ بصدق ، وقول بفعل ، فهذا هو الخسران الذي ما سمعت به ! »

الدراسة

مصدر النص : من كتاب البخلاء الذي سرد فيه أخبار المقتصدين والبخلاء ، والذي قصد فيه إلى البعد عن عيبين : البخل والتبذير . وقد تندر فيه بملح البخلاء من العلماء والأدباء مثبتاً ما يلحق ذلك من مناظرات بين الكرم والبخل .

نقد الجاحظ : بيّن الجاحظ في نقده ناحية مهمة في ذلك العصر وهي موقف الشعراء من ذوي الأمر والسلطان ونظمهم الشعر في أحوال كثيرة للتكسب لا إرضاء للفن أو تعبيراً عن خلجات النفوس والوجدان ، أو معالجة لمشكلة اجتماعية أو غير ذلك مما يوحي به الفن .

وهو يوضح أيضاً ميل الحكام وذوي الأمر في ذلك العصر إلى جعل الشعراء أداة تسلية وبوق دعاية لهم مع علمهم بما في ذلك الشعر التكسبي من كذب وتزّلف وتمويه .

ويُبرز الجاحظ في نقده ظاهرة من الظواهر الاجتماعية في ذلك العهد نعني شيوع الترف حتى صار المال ينثر بين يدي شعر ينشد ، ومدائحَ تنظم مموّهة بالصدق مبطّنة بالكذب،وأصبح الشعر فناً ممسوخاً على الأعتاب في منحة يمنحها الممدوح . وكشف الجاحظ ايضاًعن تنبّهِ بعض الولاة وذوي الأمر إلى هذه

المدائح المزيفة التي لا تستخففهم ، ولذا فهم لا يبذلون المال في سبيلها .

وكان في سرده يميل إلى الأسلوب القصصي فكان حديثه ذا مغزى ، وقد استطاع بأسلوبه التهكمي أن يحبكها حبكاً : جعل الوالي مشغولاً منعزلاً والشاعر يأتيه فينشده . ثم صوّر نفسية الوالي حين بيّن أنه وقف موقف الجد ينصت ويصغي على الرغم من انشغاله ، ويبدي آراءه في شعر الشاعر ثم يأمر له بالعطاء... والشاعر قد أسكره الكسب وأخذ منه الجشع المادي كلّ مأخذ فلا يتنبه لسخرية الوالي ولا يشك في قوله على الرغم مما فيه من مغالاة ، ويتهكم الجاحظ فيصوّر حركات الشاعر المختلفة ، وتنجلي حقيقة الأمر فإذا هو كذب بكذب .

وأسلوب الجاحظ هنا أسلوب بارع ، وعباراته موجزة ونظراته ثاقبة ناقدة . ونحن نلمس في هذا الاسلوب أثر روحه الخفيفة ونفسه المرحة .

أسلوب الجاحظ العام : ارتقى الجاحظ كثيراً بالكتابة وقد جمع فيها بين محاسن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع، وزاد عليها خفة روح وجمال عرض.

وأسلوبه سهل ، يمتاز بالسجع السائغ ، والجمل المترادفة التي يأتي بها أحياناً لإقرار المعنى في النفوس ، والاستطراد فيما له صلة بالموضوع الذي يتحدث عنه بذكر طريف الأخبار وممتع النوادر مما ينشّط القارىء ويرفّه عنه ،وهو يخلط في أسلوبه بين الجد والهزل دفعاً للسآمة ، ويميل إلى الاقتباس من القرآن والحديث والاستشهاد بالشعر ومأثور القول .

نموذج آخر من النقد

لابي العلاء المعري

منتخبات من رسالة الغفران

١ ـــ ملاحاة النابغة الجعدي والأعشى

.... ويقول نابغة بني جعدة ، وهو جالس يستمع :

« يا أبا بصير ، أهذه الرَّباب التي ذكرها السَّعدي هي ربابك التي ذكرتها في قولك :

فما نطق الديك حتى ملأتُ كوب الرّباب له فاستدارا »

فيقول أبو بصير : « قد طال عمرُك يا أبا ليلى ، وأحسبك أصابك الفَنَد فبقيت على فَنَدك إلى اليوم . أما علمتَ أن اللواتي يسمَّين بالرَّباب أكثر من أن يُحْصَيْن ؟ أفتظن أن الرّباب هذه هي التي ذكرها القائل :

ما بالُ قومكِ يا ربابُ خُزْراً كأنهمُ غضابُ

أو التي ذكرها امرؤ القيس في قوله :

دارٌ لهندٍ والرباب وفرْتني ولميسَ، قبلَ حوادثِ الأيَّامِ»

فيقول نابغة بني جَعْدة : « أتكلمني بمثل هذا الكلام يا خليع بني ضُبيعةَ وقد متّ كافراً وأقررتَ على نفسك بالفاحشة ، وأنا لقيت النبيّ ﷺ فأنشدته كلمتي التي أقول فيها :

بلغنا السَّماءَ مجدُنا وسناؤنا وإنا لنَبغِي فوق ذلك مظهرا

فقال لي : إلى أين يا أبا ليلى؟ فقلت إلى الجنة بك يا رسول الله . فقال : لا يفْضِض الله فاك !

أغرّك أن عدّك بعض الجهّال رابع الشعراء الأربعة وكذَب مفضّلك واني لأطوَلُ منكَ نفساً ، وأكثر تصرُّفاً . ولقد بلغتُ بعدد البيوت ، ما لم يبلغه أحدٌ من العرب قبلي وأنت لاهٍ بعفارتك ، تفتري على كرائم قومك ، وان صدقت فخزياً لك ولمُقَارّك . »

فيغضب أبو بصير ، فيقول : « أتقول هذا وإن بيتاً مما بنيتُ ليُعدَل بمائة من بنائك ؟ وإن أَسهَبتَ في منطقك ، فإن المسهب كحاطب الليل . واني لفي الجرثومة من ربيعة الفرس ؛ وهل جعدةُ الا رائدة ظليمٍ نفور ؟ أتعيّرني مَدْحَ الملوك يا جاهل ؟ ولو قدرت على ذلك لهجرتَ اليه أهلك وولدك ، ولكنك خُلقتَ جباناً ، لا تدلج في الظلماء الداجية ، ولا تهجر في الوديقة الصاخدة . »

فيقول الجعدي : « أسكت يا ضُلّ بن ضلّ ، فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله ! لَحقُّك أن تكون في الدرك الأسفل من النار ، ولقد صَلِيَ بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على ربّ العزة لقلت : « انك غُلط بك . »

٢ ـــ مع امرىء القيس

ويسأل عن امرىء القيس بن حُجرٍ فيقول: « يا أبا هند أخبرني عن التسميط

المنسوب إليك أصحيح هو عنك ؟ »

ويُنشده الذي يرويه بعض الناس :

يا قومُ إنّ الهوى إذا أصاب الفتى
في القلب ثم ٱرتقى فهدّ بعض القوى
فقد هوى الرجلُ

فيقول : « والله ما سمعت هذا قط ، وإنه لعِريٌ لم أسلكه وإن الكذب لكثيرٌ ، وأحسب هذا لبعض شعراء الاسلام ولقد ظلمني وأساء إليّ ، أبَعْدَ كلمتي التي أولها :

ألا عِمْ صباحاً أيُّها الطَلَل البالي وهل يَعِمَنْ من كانَ في العُصُر الخالي

وقولي :

خليليّ مُرّا بي على أُمّ جُنْدُبِ لِأقضيَ حاجاتِ الفؤاد المعذّبِ

يقال لي مثلُ ذلك ؟ والرّجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرّجز » . فيعجب لما سمعه من امرىء القيس .

٣ ــــ مع عنترة

وينظر فإذا عنترةُ متلدّدٌ في السعير فيقول : « مالك يا أخا عبس ! كأنك لم تنطق بقولك :

ولقد شربتُ من المُدامَةِ بعدمَا ركدَ الهواجرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ
بِزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسِرَّةٍ قُرِنتْ بأزْهَرَ في الشِّمال مُفَدَّمِ

وإني إذا ذكرت قولك : « هل غادر الشعراءُ من مُتردَّمِ » لأقول « إنما

قيل ذلك ، وديوان الشعر قليل محفوظ ، فأما الآن فلو سمعتَ مـا قيل ، وعلمت أن الأمر كما قال حبيب بن أوس :

فلو كان يفنى الشِّعر أفناه ما قَرَت

حِياضُك منهُ في العُصور الذَّواهبِ

ولكنهُ صَوْبُ العقولِ اذا انجلتْ سحائبُ منهُ أُعْقِبَتْ بسَحَائبِ »

فيقول : « وما حبيبكم هـذا » ? فيقول : « شاعر ظهر في الاسلام » ويُنشده شيئاً من نظمه ، فيقول : « أما الأصل فعربيٌّ وأما الفرع فنطق به غبيٌّ ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب » فيقول ، وهو ضاحك مستبشر : إنما يُنكر عليه المستعار ، وقد جاءت العاريَّة في أشعار كثيرة من المتقدمين ، إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس . ولقـد شق عليَّ دخول مثلك إلى الجحيم ، وكأن أذني مصغية الى قَيْنـات الفسطاط وهي تغرد بقولك :

أمن سُمَيَّةَ دمعُ العين مذروفُ لو أنَّ ذا منكِ قبلَ اليومِ معروفُ.

صاحب النص : هو أحمـد بن عبدالله بن سليمان التنوخي نسبة الى تنوخ احدى قبائل اليمن المعروف بأبي العلاء المعرّي . وُلد ذلك الفيلسوف الحكيم في معـرّة النعمان بين حمص وحلب من أبوين شريفين فقد كان أبوه من أفـاضل العلماء ، وجدّه قاضياً بالمعرة .

وكانت ولادته سنة ٣٦٣ هـ.

وقد أصيب في سن الرابعة بداء الجدري وفقد بصره فنشأ ضريراً لا يعرف من الالوان الا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوباً معصفراً في مرضه .

وقد أخذ عن أبيه مبادىء العـلوم ثم راح يطوف في البلاد من المعرّة الى حلب الى انطاكيـة الى اللاذقية الى طرابلس الشام باحثاً منقّباً ، مختلفـاً الى

المكتبات ودور العلم ، متردداً على العلماء والرهبان ، آخذاً من كل فن .

وقد نظم الشعر منذ حداثته ، وفي سنة ٣٩٢ هـ. غادر المعرة الى بلاد الشام ونزل بدير للرهبان في اللاذقية ودرس فيه العهدين القديم والجديد ، ثم ذهب الى بغداد مركز العلم والعلماء حينئذ . وقد لقي هناك حفاوة بالغة وأقام بينهم يدرس العلوم والأدب وعلوم الفلسفة والحكمة اليونانية .

وقد ارتاب في عقيدته الأمراء وغيرهم فاضطربت حياته ، وغادر بغداد قاصداً المعرة بعد أن وصله نبأ مرض أمه ، وقد بلغه نبأ وفاتها وهو في طريقه الى بلدته فحزن حزناً شديداً وأثر ذلك النبأ في نفسه وكان أبوه قد توفي قبلها.

وبعد ان رجع الى المعرة قرر العزلة ولزم بيته هناك ، وسمى نفسه رهين المحبسين بل المحابس الثلاثة، العمى والمنزل والجسم الخبيث. ونظم في هذه الفترة ديوانه الذي سماه « اللزوميات » .

كما وضع « رسالة الغفران » ، وقد حرّم على نفسه الزواج حتى لا يعذّب نسله ببؤس الحياة ولؤم الناس كما عُذّب هو . وتوفي سنة ٤٤٩ هـ، وقد وقف على قبره يوم موته ما يقرب من ثمانين ومائة شاعر بينهم المحدّثون والمتصوفون والفقهاء .

آثاره : لأبي العلاء مؤلفات كثيرة بين منثور ومنظوم ، وهي تشمل موضوعات مختلفة بين لغة وفلسفة وأدب ودين واجتماع . ومن أهمها « سقط الزند » و « اللزوميات » و « رسالة الغفران » و « رسالة ملقى السبيل » وكتاب « الأيك والغصون » وكتاب « الفصول والغايات » و« رسالة الملائكة » « وذكرى حبيب » (في غريب شعر أبي تمام) وكتاب «عبث الوليد » .

وقد ضاع أكثر آثار المعري وبقي قسم آخر مخطوطاً . وقد صدر مؤخراً الكتاب الأول في شرح (لزوم ما لا يلزم) تأليف الدكتور طه حسين وابراهيم الأبياري .

رسالة الغفران : الموضوع الذي بين أيدينا من رسالة الغفران . ورسالة الغفران لأبي العلاء كتبها رداً على رسالة كان قد وجهها اليه أبو العلاء علي بن منصور المشهور بابن القارح. كان مقيماً بحلب وقد بعث بها يسأل أبا العلاء المعري عن الزندقة والزنادقة ويطلب رأيه في بعض الاشخاص الذين يراهم ابن القارح زنادقة ملحدين. فأجابه المعري برسالة بدا فيه حذقه بضروب الأساليب ، وفنون المعرفة . ورسالة الغفران تشتمل على نوعين : ١ – رواية الغفران . ٢ – الرد على ابن القارح .

ورواية الغفران رواية خيالية تخيل فيها أبو العلاء ابنَ القارح وقد غُفِرَ له يوم القيامة فأُدْخِل الجنة ، وجعل يجول فيها وينعم بطيّباتها ، ويلتقي بطائفة من شعراء الجاهلية والإسلام ويعقد معهم المجالس الأدبية ، ويعرف منهم كيف نالوا الغفران . ومن ذلك سمى الرسالة . ويعرّج على العصر العباسي ثم يتطرق الى الأدب الأندلسي فيتعرض لمبالغات الأدباء التي أولعوا بها دون عمق ولا تفصيل ، وبيّن الشعر المنحول وغيره من الصحيح ، وأتى بالبراهين الدالة على ذلك . ولم يغفل النواحي اللغوية والنحوية في رسالته . وعرض لشياطين الشعر وللشعر المنسوب الى آدم والجن، وهو في كل هذا ساخر متهكم يغرب ما استطاع، ويحاور ما استطاع الحوار ويلخص آراءه، فكان أستاذاً بل قاضياً يحكم على هذا ويدين ذاك .

وفي الرد على ابن القارح يحلل بدَع العصر ومذاهبه ويبدي رأيه في الأشخاص الذين ذكرهم ابن القارح مؤيّداً أو نافياً .

دراسة النقد : تناول المعري في نقده في المنتخبات السابقة ما يأتي :

أ – الملاحاة

١ – التحري والبحث في حقيقة الأشخاص كالرباب .

٢– الاعتماد في ترتيب طبقات الشعراء على طول النَّفَس، وكثرة التصرُّف، وعدد الأبيات وهم من الأوهام ، فرأى أبو العلاء أن المُسْهب كحاطب الليل .

٣ – يرى أبو العلاء أنّ مدح الشعراء للملوك واقتصارهم عليه عيب كبير .

٤ – تصوير حياة الشعراء .

ب – مع امرىء القيس :

١ – كذب الرواة في نسبة التسميط إلى امرىء القيس .

٢ – تعرضه لبلاغة الأوزان « والرجز من أضعف الشعر وهـذا الوزن أضعف الرجز » .

وهو في ذلك قد جعل النقد اللفظي من الأسس المهمة في النقد .

جـ – مع عنترة :

١ – ينتقد قول عنترة : هل غادر الشعراء من متردّم .....

ويأخذ عليه ذلك ، ولو عرف ما قيل بعد ذلك لأدرك خطأه في قوله .

٢ – ويعيب على الشاعر حبيب بن أوس الطائي (أبي تمام) أسلوبه غير العربي في التصنّع والتعقيد « إنما ينكر عليه المستعار ، وقد جاءت العاريّة في في أشعار كثيرة من المتقدمين إلا أنهـا لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس » .

قيمة نقده : جمع أبو العلاء في نقده صفات الناقد الحقيقي من ثقافة واسعة، وعمق في البحث ، وتحرٍّ للدقة والحقيقة ، وميل إلى النقاش والجدل ، فقد اطلع على آداب السابقين وأخبارهم وكان متمكّناً من اللغة وقواعد النحو، ووقف على أحوال عصره في جميع مظاهرها فكان ممن وضعوا أسس النقد الحديث .

وقد كان في تحرّيه الحقيقة عن طريق الشك العلمي ، وإرجاعه الشعر إلى حقيقته الفنية وغير ذلـك من نواحي نقده المختلفة خير ممهّد لطريق النقاد الحديثين .

موضوعات للبحث

١ – وضح الأسس التي وضعها كل من الجاحظ وأبي العلاء المعري في النقد.

٢ – قارن – مع الاستشهاد – بين نقد الجاحظ ونقد أبي العلاء .

٣ – يكاد النقد أن يكون علماً في العصر الحديث. ناقش هذا الرأي ووضحه.

٤ – استعرض المراحل التي مر بها النقد منذ العصر الجاهلي الى الآن موضحاً خصائص ومميزات كل مرحلة .

٥ – كثر النقاد في عصرنا الحديث واتضحت آراؤهم ومذاهبهم في النقد . بيّن أشهر النقاد في عصرنا هذا ، ذاكراً خصائصهم النقدية مقارناً بينهم.

المراجع

أسس النقد الأدبي — للدكتور أحمد محمد بدوي
النقد الأدبي — لسيد قطب
النقد الأدبي — لأحمد أمين
النقد المنهجي — للدكتور محمد مندور

الادب العربي في الاندلس

لمحة جغرافية وتاريخية

تمهيد : إن وصف الشعراء لطبيعة بلادهم « الاندلس » الساحرة ، والتغني بمباهجها الفاتنة لدليل على جمال هذه الدرة التي سقطت من تاج الإسلام وضاعت من يد العرب :

يا أهل أندلسٍ لله درُّكُمُ ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنَّةُ الخلدِ إلا في ديارِكُمُ ولو تخيَّرتُ ، هذا كنتُ أختارُ

★

إن للجنـــة بالأندلس مُجْتَلى حُسنٍ ورَيّا نَفَسِ

وقد استعمرت هذه البلادَ قبـل الفتح العربي الاسلامي أمم مختلفة . نزلت أولاً قبائل البَسْك والسِّلت والجلالقة من الشمال من بلاد الغال ؛ ثم نزل بهـا الفنيقيون ، ثم الرومان ، ثم أغار عليها القندال ونزلوا بها وأسسوا مملكة باسمهم تدعى (مملكة الفندال) ثم جماعة من القوط .

والعرب لا يستعملون اسم (اسبانيا) للاشارة إلى شبه الجزيرة المعروفـة بهذا الاسم ، وإنما يطلقون اسم الأندلس على شبه الجزيرة كلها .

والجغرافيون والمؤرخون متفقون على أن كلمـــة « الأندلس » تطلق على شبه جزيرة « إيبيريا » المكونة من إسبانيا والبرتغال ، وتطلق أيضاً عندهم على

إسبانيا المسلمة التي كانت تشمل إسبانيا بعد الفتح ما عـــدا جليقية ، وولايات جبال البيرينيه .

لكن الأندلس تطلق في العصور المتأخرة وفي الجغرافيا الحديثة على ولايات الأندلس الواقعة في جنوبي أسبانيا بين نهر الوادي الكبير والبحر وبين ولايـة مرسية وإشبيلية ، وما زالت الأندلس تحتل في تقسيم إسبانيا الإداري الحاضر نفس هذه المنطقة . وإذا ذهبنا نُعلل هذه التسمية وجدنا أمامنا عللا تأخـذ صوراً مختلفة فتقول مثلاً : إنها سميت « أندلس » نسبة إلى أول من سـكنهـا من قديم الزمان وهم قوم من الأعاجم يقال لهم « اندلوش » .

وابن الأثـــير يخبرنا بأن النصارى يسمون الأندلس إشبانية باسم اشبانس أحد ملوكها .

أما ابن خلدون فيقول : إنهـا سميت الأندلس باسم « قندلس » ولعلهـا فندلس .

وبديهي أنه يقصد الفندال أي الوندال . ويقدم لنا البكري خلاصة دقيقة لهذه المسميات الجغرافية التاريخية فيقول في وصفه لجزيرة الأندلس : « إن اسمها في القديم إباريه من وادي إبره ، ثم سميت بعد ذلك « باطقة » من وادي بيطى وهو نهر قرطبة ، ثم سميت إشبانية من اسم مَنْ ملكها في القديم وكان اسمه إشبان » .

والرأي الذي يمكن أن نستخلصه من هذه الآراء هو أنهـا سميت بالأندلس نسبة إلى الأندليش وهم من الذين سكنوها .

والأندليش هم الوندال وهذا هو أقرب الآراء التي يمكن الأخذ بها .

وتُحد الأندلس من الشمال والغرب بالمحيط الأطلسي ، ومن الجنوب بمنتهى الخليج الذي هـو ملتقى البحرين : البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ، ومن الشرق بالجبل الحاجز ما بين الأندلس وبلاد فرنسا وهي التي كانت تسمى عند القدماء بالأرض الكبيرة أو بلاد الافرنجة .

وقد بلغت إسبانيا حالةً تنذر بالانفجار نتيجة الضعف السياسي والاجتماعي الذي أدى إلى هذا الاضطراب وتمنى أكثر الشعب زوال هذا الحكم .

فالضرائب باهظة قد أثقلت كاهل الطبقات الوسطى ، وسيادة الإقطاعيين واستبدادهم واستعباد الفلاحين وارهاقهم ... كل ذلك بلغ حداً كبيراً .

وأدت عداوة يليان – (الذي كان عاملاً لقيصر الروم على مدينة سبتة) – لِلـُذَريق ملك إسبانيا ومغتصب العرش القوطي بعد وفاة غيطشة ، أدت هذه العدواة الى محاولة القضاء على ُلذَريق واسقاط عرشه . فأرسل يُليان الى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يرّغبه في فتح الأندلس ويذكر له سهولة فتحها لاختلال الحكم فيها ، وأخذ يصف له ما فيها من وفرة أموال وخصوبة أرض وجمال طبيعة ، ووعده يليان أن يساعده اذا اعتزم فتحها . فاستأذن موسى الخليفة الأموي بالشام في فتح الأندلس فأذن له على ألا يندفع في الفتح قبل أن يقف على حقيقة امرها . فبعث موسى أولاً جيشاً مكوناً من أربعمائة راجل ومائة فارس وعلى رأسهم مولى من البرابرة يدعى طريف بن مالك النَّخعي ، فحملتهم أربع سفن إلى جزيرة « الفندال » فسميت جزيرة طريف لنزوله بها وقد أقاموا فيها أياماً ثم رجعوا إلى المغرب بعد أن حصلوا على غنائم عظيمة .

ثم أرسل موسى حملة ثانية يقودها بربري من مواليه يقال له طارق بن زياد وبعثه في سبعة آلاف من البربر ليس فيهم إلا ثلثمائة من العرب فأقلتهم سفن يليان التجارية ، وعبرت بهم بحر الزقاق من سبتة إلى الجزيرة . ونزلت الحملة عند جبل « كلبة » فسمي منذ ذلك الحين « جبل طارق » وما زال يحتفظ بهذا الاسم حتى اليوم . والتقى العرب بالاسبانيين ودارت المعارك، وتم للمسلمين النصر ، واستولى طارق على قرطبة وقتل لذريق .

وقيل : إن موسى بن نصير حسد طارقاً على الانفراد بذلك فلحقه فتلقاه طارق وترضاه ، وأراد أن يستل ما في نفسه من الحقد وقال : « إنما أنا

مولاك ومن قِبَلِك ، وهذا الفتح لك وبسببك » ، وحمل طارق إليه ما جمع من الأموال فلذلك نسب الفتح إلى موسى بن نصير . وقد ولى موسى ابنه عبدالعزيز على الأندلس وعاد مع طارق على اثر دعوة من الوليد بن عبد الملك.

وبطارق بن زياد يبدأ عهد الولاة سنة ٩٢ هـ. — ٧١٠ م ، وينتهي بيوسف ابن عبد الرحمن الفهري سنة ١٣٨ هـ. — ٧٥٥ م.

ويبدأ عهد بني أمية بالأندلس منذ هذا التاريخ حينما فر صقر قريش عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان من بطش العباسيين وقدّر له أن ينجو ، ويستقر أخيراً في الأندلس . وشاءت له الظروف أن يرتقي عرش قرطبة وينتصر على يوسف الفهري هذا . ولُقّب بالداخل لدخوله إياها ، وأبطل الخطبة باسم الخليفة ، ودُعِيَ لهُ هو على المنابر ولم يتخذ لقب خليفة واكتفى بلقب الأمير هو ومن خلفه الى عهد عبدالرحمن الثالث. وتداول الملك بعده أبناؤه وأحفاده، وكان عهد عبدالرحمن الثالث الذي لُقّب بالناصر عهد ازدهار بلغت فيه الدولة أوج مجدها ، وكذلك ابنه الحكَم الذي تولى بعده . وكانت خلافة الحكم نهاية عهد القوة في دولة بني أمية ، ثم مزقت الدولة الأموية بعد ذلك ، وانتهت بآخر ملوكها ، هشام المعتمد بالله بن محمد سنة ٤٤٢ هـ.

ثم بدأ عهد ملوك الطوائف سنة ٤٠٣ هـ وانتهى سنة ٥٣٦ هـ .

واندفع الأسبانيون يشنون حملات على المسلمين منتهزين فرصة انقسامهم وتفرق كلمتهم ، إلى أن ضاعت بلاد الأندلس من أيديهم . ولم يبق للمسلمين في هذه البلاد غير غرناطة التي كانت تحكمها قبيلة عربية من بني الأحمر ينتهي نسبها إلى الخزْرجَ . وقد عرفت غرناطة في عهد بني الأحمر أزهى عصورها في الحضارة والآداب ، ولم يلبث الإسبانيون أن حاصروا غرناطة سنة ٨٩٧ هـ — ١٤٩١م، واضطر ملكها أبوعبدالله محمد بن محمد إلى تسليمها، فسقط آخر معقل للعرب في الأندلس . وأرسل أبو عبدالله إلى الحمراء النظرة الأخيرة ، وزفرته

الحرّى ، ودمعته الحزينة .

وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ

كما حَكَى عن خيال الطيف وسْنان !

ولو رحنا نبحث عن حقيقة الشعب الأندلسي وعناصره لوجدناه مزيجاً من عناصر متباينة تختلف في العِرق وفي الدين والأهواء والغايات . وقد كان لهذا التباين وذلك المزيج أثر في تميز هذه الدولة عن باقي الدول الاسلامية الأخرى، وفي كثرة الاضطرابات والفتن .

فقد كان هناك البربر الذين تدفقوا على هذه البلاد مع عدد كبير من جنود العرب من اليمانية والقيسية منذ دخول موسى بن نصير إليها . وكان البربر يكوّنون الأكثرية الاسلامية فيها . وهم الذين كانوا يقومون بثورات وفتن ضد العرب . وقد ظلوا يتوافدون حتى عصر الموحدين ، ويغلب أن أول الجنود الفاتحين قد ظلوا في البلاد ولم يرجعوا مع طارق وموسى وتزوج أكثرهم بنسائها وكوّنوا هناك أسراً .

وإلى جانب العرب والبربر كان هناك الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام ديناً فسموا « المسالمة » وسُمِّي نسلهم « المولدين » . أما من بقي على دينه فسموا الأعاجم. وقد أخلصت هذه الأسر التي اعتنقت الاسلام للدين الجديد واندمجت في المسلمين اندماجاً وثيقاً حتى أصبح من العسير في ما بعد تميز المسلمين عنهم .

وكان هناك الصقالبة ، وهم الأسرى الذين جلبهم رجال من القرصان اليهود وغيرهم من الشواطىء الأوروبية للبحر الأبيض المتوسط .

وقد ازداد عدد هؤلاء ولعبوا دوراً سياسياً هاماً وتقلدوا المناصب العليا في الدولة ، وبخاصة في عهد عبد الرحمن الثالث الذي استخدمهم لمحاربة الارستقراطية العربية ، ولإضعاف سلطتها مما جعل نفوذهم يزداد فيما بعد .

وقد كان أكثر البرابرة يقيمون في الجبال ولا سيما الجنوبية .

وفي قرطبة أقام عدد منهم ، لكن أكثرهم كانوا موالي للأمراء الأمويين. واحتلوا فيما بعد مناصب عسكرية وإدارية وقضائية في الدولة . وكانت معظم الأسر العربية الارستقراطية تقيم في مدن الأندلس الجنوبية .

وفي قرطبة عاش كثير من هذه الأسر العريقة لازدهار الحياة والمدنية فيها. وكان كثير من الإسبان المسلمين قد دخلوا في خدمة العرب المسلمين وأصبحوا موالي لهم وتلقبوا بألقابهم ، أما المولدون فقد قاموا باستثمار الأرض بشروط ، والبعض الآخر كان غنياً يعيش في بُلَهْنِيَة من العيش لا سيما في إشبيلية .

ولو أردنا أن نعرض للحياة الاجتماعية والحضارية بالأندلس بالتفصيل لخرجت هذه اللمحة الموجزة عن غايتها . من اجل ذلك نكتفي من الكلام عنها بالصورة التي قدمناها لك . بيد أنه لا بدّ لنا قبل أن ننهيها من أن نلقي نظرة عجلى على الحضارة العربية في الأندلس .

نعمت الأندلس بأبهى طبيعة وأنضرها : سهولٌ فسيحة خصبة وأرضٌ مزينة بمروج خضراء ، وجداولُ وانهارٌ ، ونسيمٌ رُخاء وورود وأزهار تعطر جوها البديع ، وعنادلُ وأطيارٌ تغرد على أفنان أشجارها ، وفلاحون يعملون في الحقول فينتجون الغلات والثمرات التي تجلب الرفاهية وتثبت دعائم الحضارة. وقدزخرت البلاد بالمصانع وبخاصة معامل الزجاج والورق والصباغة ، وافتنّوا في البناء والهندسة وأقاموا المدن والقصور الشاهقة والبرك والحمامات والمساجد والجسور وغير ذلك مما بقي الى اليوم ناطقاً بعظمة الفن .

وقد كان بقرطبة من القصور المشهورة عدد يشهد على ما بلغه هؤلاء من الحضارة والفن، كالقصر الكبير والمسجد العظيم وقصر الزهراء وقصر الحمراء التاريخي الذي كان آية من الفن. وكان ذلك يدفع الشعراء إلى وصف هذه الآيات الفنية . وكان المجتمع الأندلسي مكوناً من عناصر كما قلنا ، وقد تأثر العرب بسكان البلاد السابقين في عاداتهم وتفكيرهم وطرق معيشتهم وملابسهم وزينة لباسهم ونظم الحكم . وأخذت هذه الأجناس من العرب الفضائلَ العربية

كالصبر والشجاعة وفصاحة اللسان . وكان أكبر شيء يهم الامراء الأندلسيين هو محا كاتهم للعباسيين في الشرق ومنافستهم في كل شيء ، فنقلوا غناء الشرق واستقدموا علماءه ومغنيه . وبين هذا وذاك شاع الترف واللهو والغناء . وقد ساعدتهم الظروف على ذلك ، فالثروة كبيرة والغنى واسع والحياة لينّة .

وقد زخرت الأندلس في ظلال الحكم العربي بحركة فكرية ناشطة ، فاستطاع الشعراء الأندلسيون أن يبعثوا في الشعر روحاً جديدة ويضفوا عليه رقة خاصة ، وأن ينفعلوا بالجمال ويستجيبوا لمفاتن الطبيعة ويُصوروها حين بهرتهم فتنتها : كل ذلك كان ثمرة للمزاج الجديد الذي اكتسبه العرب في هذه البلاد الجميلة . وتستطيع أن تلمس هذا المزاج حينما ندرس النماذج الشعرية الأندلسية .

وقد أنجبت الأندلس فيلسوفين من أعظم الفلاسفة في الغرب الإسلامي وهما « ابن طفيل» صاحب القصة الفلسفية المشهورة التي أخرجها الأدب العربي للناس، قصة « حي بن يقظان » ، وابن رشد الذي فتح للغرب مغاليق الفلسفة اليونانية في شروحه على أرسطو . ومن العلماء والمفكرين أيضاً ابن حزم الذي وضع مؤلَّفه الديني التاريخي العظيم « الفِصَل في المِلَل والاهواء والنِحَل » ذلك المؤلف الكبير الذي لم يُسبَق الى مثله في بحث العقائد الدينية ونقدها . ويحق للأندلس أن تفخر بمؤرخ عظيم هو ابن خلدون الذي مهّد الطريق للفكر الإنساني في مقدمته المشهورة التي وضع فيها أول فلسفة للتاريخ ، وأن تباهي بعالم مفكر هو محي الدين بن عربي الصوفي الملقب بالشيخ الأكبر صاحب كتاب « الفتوحات الملكية » بأجزائها السبعة عشر .

هذه لمحة جغرافية وتاريخية وحضارية.. وهي وإن طالت شيئاً ما فما ذاك إلا لأننا أردنا أن نكفيك عناء البحث ، وإن أردت المزيد فإليك هذه المراجع:

المراجع

تاريخ الشعوب الاسلامية الجزء الثاني	المستشرق الالماني (كارل بركلمان) ترجمة الدكتور نبيه امين فارس ومنير البعلبكي
تاريخ الأدب العربي	لكارل بروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار
تاريخ الفكر الأندلسي	لآنخل جنثالث بالثنيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس
الشعر الاندلسي	لإميليو غرسيه غومس ترجمة الدكتور حسين مؤنس
دولة الاسلام في الاندلس	لعبدالله عنان
الأعلام	للزركلي
نفح الطيب	

الشعر

نزح العرب الى الاندلس ولغتهم تامة السليقة ، ثم انهم كانوا المجموعة الغالبة بها ، والعنصر الشائع ، ولأمرائهم وخلفائهم وملوكهم السلطان والجاه . وقد فتنوا بذلك الفردوس الجميل فأرسلوا شعرهم غناء خالصاً وقعّوه على ألحان الطبيعة الفاتنة وأطلقوه بين خمائلها الباسمة في كل ما عرفوا من فنون الشعر . ولم يقتصر النظم على الرجال بل تعداه الى النساء فنبغ منهن عدد كبير ، وكانت بينهن النابغات في الشعر كحمْدة بنت زياد المعروفة بخنساء المغرب ، وحفصة بنت الحاج الرّكونية ، وولاّدة ، ونزهون الغرناطية .

وكانت العناية بالشعر في الاندلس فائقة . فقد شجع الخلفاء والملوك الشعراء ، وبعثوا فيهم الهمم ، وكان الملوك أنفسهم شعراء ، ينظمون الشعر : فعبدالرحمن الشاعر كان شاعراً ، وابنه هشام ايضاً كان أديباً ، والمستنصر كان عالماً وأديباً ، وكذلك كان كثير من ملوك الطوائف وغيرهم كابن أبي عامر وملوك بني الافطس والمعتضد والمعتمد وابن جَهْوَر ، فكانوا لهذا يتنافسون في إكرام الشعراء ، وإغداق الاموال عليهم . وبلغ من فرط عنايتهم بالشعر أنهم كانوا لا يستوزرون وزيراً إلا أن يكون شاعراً أديباً ، كما فعل المعتمد بن عباد . ولقد قالوا : إنه لم يجتمع من فحول الشعراء وأمراء الكلام بباب أحد من ملوك الاسلام ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد والمعتمد بن عباد . وكان بحضرته مثل ابن زيدون وابن اللبّانة وابن عمّار وابن وهبون وكثير غيرهم .

وقد عني ملوك الطوائف بالشعر فصار المدح غذاء لأرواحهم . وظلت هذه

العادة فيهم حتى ان يوسف بن تاشفين لما دخل الأندلس توسط له المعتمد بن عباد عند الشعراء ليمدحوه حتى لا يصغر شأنه « على ما قيل » . ولو زعم زاعم أنه ما من حاكم أو ملك أو أمير أو خليفة أو وزير -الى آخر القرن الخامس- إلا وهو جامع لأسباب الأدب لكان خليقاً أن يصدق في زعمه . وكانت مجالس الأدب من أكبر الميادين للإنتاج الشعري، فهي حافلة بألوان الشعر والطرب. وكان الشعر فيها غناء الراقص وأدب النفوس . وكان بعض الملوك يهتمون بالأدب والشعر فيجعلون في كل أسبوع يوماً يجتمعون فيه بأهل الأدب والعلم والمناظرة كالمنصور بن أبي عامر والمعتمد بن عباد الذي خصص داراً للشعراء وديواناً تُقيد فيه اسماؤهم ، وتفرغ يوماً لا يدخل عليه فيه أحد غير الأدباء .

وللأندلسيين من الذكاء والحافظة القوية ما جعلهم ملهمين في الشعر ، لذلك لم يكن عجباً ان يرتقي الشعر وأن يحلّق في كل ميدان. ومن الشعراء الذين ذاع صيتهم ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ) وابن هانىء (٣٣٦ - ٣٦٣ هـ) وابن درّاج (٣٤٧ - ٤٢١ هـ) وهؤلاء من شعراء الدولة الأموية . وابن زيدون وابن عمار وابن حمديس وابن عبدون وابن خفاجة والمعتمد بن عباد وابن الحداد وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم .

فنون الشعر : طرق الأندلسيون كل فنون الشعر المعروفة فلم يتركوا غرضاً من أغراضه إلا نظموا فيه ، ومنه ما ترسموا فيه أهل المشرق فواطئوهم في معانيهم ، وشاركوهم في أساليبهم . ومنه ما طبعوه بطابعهم الخاص بل بزّوا فيه المشارقة كوصف الطبيعة والعمران ، ورثاء الممالك الزائلة . وسيبدو ذلك في النماذج التي سندرسها . وها نحن نتناول هذه الفنون بشيء من الايجاز قبل ان نتحدث عن تطور الشعر .

١ - **شعر الحب والغزل** : كان للحركة العذرية التي نشأت في قبيلة بني عذرة البدوية ، والتي تحمس الناس لها في بغداد فيما بعد ، ولقي الشعراء بسببها حتفهم ، نقول كان لهذه الحركة صدى بعيد في قرطبة في عصر الخلافة فألف

ابن فرج الحياني (على غرار كتاب الزهرة لأبي داود الاصفهاني) كتاباً في الحب الأفلاطوني ، أيام الحكم المستنصر . ومن شعره العذري :

وطائعةِ الوصال عففتُ عنها وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ
بدَت في الليل ساحرةً فبانت دياجي الليل سافِرةَ القناع
وما من لحظة إلا وفيهـا إلى فِتَنِ القلوب لها دواعي
فملَّكتُ النُّهى جمحاتِ شوقي لأجري في العفاف على طباعي
وبتُّ بها مبيت السَّغْب يظما فيمنعه الكِعام من الرضاع

ثم وصف ابن حزم في رسالته (طوق الحمامة) مـاهية الحب العذري .

وسار بعض الشعراء على منهج العذريين فقال الشاعر (أبو المطرف الغرناطي).

أنا صبٌّ كما تشاء وتهـوى شاعر ماجد كريم جوادُ
سُنَّة سنَّهـا قديماً جميل وأتى المُحْدَثون مثلي ، فزادوا

ونهج الشاعر أبو بحر صفوان بن إدريس المـُرسي نَهْجَ الشاعر حمزة بن أبي ضيغم فقال :

بتنا نُشَعْشِع والعفافُ نديمنا خمرَيْن من غَزَلي ومن كلماتِهِ
ضاجعتُهُ والليل يُذكي تحته نارَيْن من نَفَسي ومن وجناتِهِ
وضممتُهُ ضمَّ البخيلِ لمالِهِ أحنو عليهِ من جميع جهاتِهِ

ثم ظهر التجديـد في الغزل والمجون والخمر كما حصل في العصر العباسي فشرعوا يصفون الأنس مع عشاقهم مثل قول ابي الحسين محمـد بن سفر من شعراء وسط الأندلس :

وواعدتُها والشمسُ تَجْنَحُ للنّوى
بزَوْرتها شمساً وبدرُ الدجى يَسْري

فجاءت كما يمشي سَنى الصبح في الدُّجى
وطوراً كمـــا مرّ النسيمُ على النهر

فَعطَّرتِ الأفاقَ حولي فأشعَرتْ بمَقْدَمها والعَرْفُ يُشْعِر بالزهر

فتابعتُ بالتقبيل آثارَ سَعْيها كما يتقصّى قارىءٌ أحرفَ السطر

فبتُّ بها والليلُ قد نام والهوى تنبَّهَ بين الغصن والحقف والبدر

أعانقها طوراً وألثمُ تارة إلى أن دعتنا للنّوَى راية الفجر

وتهتّكوا ما شاء لهم التهتك حتى وصفوا (القـوّادة) فقال شاعـرهم أبو جعفر بن سعيد يصف قوّادة :

قوّادةٌ تفخرُ بالعارِ أقْوَدُ من ليلٍ على سارِ
ولاّجةٌ في كل دارٍ وما يدري بها من حِذقها داري
ظريفةٌ مقبولة الملتقى خفيفةُ الوطء على الجار
جاهلةٌ حيث ثوى مسجد عارفةٌ حانةَ خمّـــار
بسّامةٌ مكثرة برّهـــا ذاتُ فكاهات وأخبار

وتغزلوا بالمذكر ، فقال أبو علي بن الحسين النشار البلنسيّ :

ألوّامي على كلفي بيحيى متى مِن حبّه أرجو سراحا

وبين الخدّ والشفتين خالٌ	كزنجيٍّ أتى روضاً صباحا
تحيّر في جناه فليس يدري	أيجني الوردَ أم يجني الأقاحا

وقد مزجوا وصف الخمر بالطبيعة ، فقال ابو اسحق ابراهيم بن خفاجة :

حثَّ المدامةَ والنسيمُ عليل	والظلُّ خفّاقُ الرواق ظليلُ
والروضُ مهتزٌّ المعاطف نعمةً	نشوانُ تعطفه الصّبا فيميل
ريّانُ فضْفَضَهُ الندى ثم انجلى	عنه فذهَّب صفحتَيْه أصيل

وقال محمد بن غالب الرصافي في مجلس شراب :

وعشيٍّ رائـــق منظره	قدقطعناه على صرف الشمولْ
فكأن الشمس في أثنائـــه	ألصقت بالأرض خدّاً للنزول
والصَّبا ترفع أذيال الرُّبى	ومُحيّا الجوِّ كالنهر الصَّقيل

وقـــد بلغ الغزل والمجون ووصف الخمر في زمن ملوك الطوائف دركاً من التهتك المزري الذي يعبر عن حياة ذلك العصر أصدق تعبير . وكانت أوصافهم في الغزل الماجن مادية حتى وصلوا إلى درجة الفرح بالتذلل للحبيب والخضوع له ، وبكاء أيام السعادة في ظل المحبوبة والحنين الى هذه الأيام الماضية بعد أن تركت حبّاً دفيناً في القلب ، يهيج الذكرى ، ويقض المضاجع . وقصيدة ابن زيدون التي سندرسها تمثل ذلك اللون .

المديح : نهج الشعراء في المديح نهج المشارقـــة ، فبدأوا القصيدة بوصف الفلاة ، او بكاء الديار والأطلال أو وصف الناقة ، وَعُنوا بالاستهلال وحسن التخلص كما سيأتي في قصيدة ابن هانىء في مـــدح المعزّ وقصيدة ابن درّاج في

مـــدح المنصور بن أبي عامر، والتي بدأها كما بدأها أبو نواس في مدح الخصيب فوصف وداع زوجته وما دار بينه وبينها من حوار ثم تخلص الى مدح المنصور ابن أبي عامر .

وكانوا أحياناً يجعلون مطلع قصائدهم في المديح وصفاً للخمر أو للطبيعة أو للمرأة التي أحبها الشاعر أو البلد التي نشأ فيها .

قال أبو بكر بن عمار الشلبي يمدح المعتضد :

أدِرِ الزجاجة فالنسيمُ قـــد انبرى
والنجمُ قد صرف العِنانَ عن السُّرى
والصُّبْحُ قد أهدى لنا كافورَهُ لمـــا استردَّ الليلُ منه العنبرا
والروضُ كالَحسْنَا كساهُ زهرُهُ وشياً وقلّدهُ نـــداهُ جوهرا
وتهزّه ريحُ الصَّبا فتخاله سيفَ ابن عبَّادٍ يبدِّد عسكرا
ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ونحاه لا يَرِدون حتى يَصْدُرا
مِلك يروقك خَلقه أو خلقه كالروضِ يحسن منظراً أو مخبرا

ومن القصائد التي تظهر حسن التخلص، النونيـة في مدح ادريس بن يحيى التي مطلعها :

قد بدا لي وَضحُ الصبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الأذين
اسقنيهـــا مُزّةً مشمولة لبثت في دنّها بضع سنين
وكأن الشمس لمـــا أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن عليٍّ بن حمود أمـــير المؤمنينْ

ويغلب في مدحهم التملق والتزلف واستجداء الممدوحين ، وتقلّ فيه المغالاة والإغراق ، واستعمال الغريب . وممّن جنح الى هذا النوع ابن هانىء في مدائحه للمعزّ لدين الله .

الهجاء : لم يكن للهجاء حظ من الرواج ، فقد عرف للأندلسيين هجاء غير ذي بال بين المضرية واليمانية ، وهجا الشعراء الفرنجةَ أثناء الحروب معهم كما هجوا البرابرة عندما أحدثوا الفتن والقلاقل . لكن ذلك كله لم يصل الى درجة الهجاء الذي كان معروفاً عند المشارقة كالهجاء السياسي الذي نما في ظل الاحزاب هناك وخمد في الاندلس لقلة الاحزاب ، وكالهجاء الشعوبي الذي كثر عند المشارقة بسبب نار العداوة التي كانت بين الشعوبيين والعرب وقلّ في الاندلس بسبب انعدام شأن الشعوبية فيها .

وقد أُثر عنهم هجاء يزخر بالفحش والإقذاع كهجاء أبي بكر المخزومي الأعمى . ومن معابثاته الفاحشة مع نزهون الغرناطية :

على وجه نزهونٍ من الُحسن مسحَةٌ   وتحت الثياب العارُ لو كان باديا
قواصد نزهونٍ توارِكُ غيرِها   ومَنْ قصدَ البحر استقل السواقيا

فردت عليه قائلة :

إِن كان ما قلت حقاً   من بعد عهدٍ كريم
فصار ذكري ذميا   يُعزَى إِلى كل لوم
وصرتُ أقبحَ شيء   في صورة المخزومي ...

وقد عرف لهم أيضاً شعر في النقائض يمثل الصراع الأدبي بين المولدين والعرب إلى جانب الصراع السياسي. وكان شعراء العرب هم قادتهم. ومن قولهم في ذلك وهو لسعيد بن جوديّ يمدح سوار القيسي الثائر ويصف انهزام المولدين:

ولما رأونا زاحفين إليهمُ   تولّوْا سراعاً خوفَ وقْعِ المناصِل
قصدنا إليهم والرماح تنوشهم   كوقع الصياصي تحتَ وهج القساطِل
فلم يبق منهم غيرَ عانٍ مصفّدٍ   يقادُ أسيراً موثقـــاً بالسلاسِل

وقول العبْلي وهو شاعر المولدين والمحامي عنهم يذكر انتصارات المولدين :

قد انقصَفَت قناتُهمُ وذلّوا   وزُعْزِع رُكنُ عزِّهمُ الأذلُّ

فأجابه الأسدي :

قد احتمل الأحبَّةُ واستقلّوا   لطِيَّتهم بليـــل واحزألوا
فظل الدّمعُ من جَزَعٍ عليهم   إذ احتملوا يسِحُّ ويَسْتَهِل
سأصرف همتي عنهم وأسلو   بهَجْوي معشراً كفروا وضلّوا

وقد ناقض قصيدة العبلي شاعر عربي آخر بقصيدة مطلعها :

لسوّارٍ على الأعداء سيفٌ   أباد ذوي العداوةِ فاستقلوا

وقد كان لهذه العصبيات أثر في رثاء السادات الذين قتلوا في الحروب مثل رثاء الاسديّ لسعيد بن جوديّ ومنها :

لا ساغت الراحُ لي من كفّ ساقيها   حتى تقرّب نفسي من تمنيها
وأن أرى الخيل تردي في أعنتها   لثأرِ من كان قبل اليوم يُرضيها

ولولادة بنت المستكفي شعر فاضح في هجاء صاحبها ابن زيدون .

الحماسة والفخر :

لم يرتفع شأن الشعر الحماسي واقتصر شعرهم في الحماسة على المدح ووصف الممدوحين بالشجاعة ووصف المعارك الحربية والحضّ على الجهاد، لكنه لم يكن صادراً عن عاطفة صادقة بل غلب عليه التقليد ، مع أن ما حدث في بلاد الاندلس من فتن وثورات وحروب كان يستدعي وجود شعر حماسي قوي. ولعل للظروف الإقليمية التي جعلتهم وادعين مستسلمين للطبيعة الجميلة وللحياة الرضية أثراً في ذلك . فقلّ الفخر والحماسة في شعرهم ، وإن وجد فهو في أكثر الاحيان ممزوج بالعاطفة الدينية لتأصلها في نفوسهم وللعداوة التي كانت بينهم وبين الفرنجة جيرانهم .

ومن شعراء الحماسة والفخر ابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد ومن قوله:

سأرمي بهمّاتي قُصَارَى مَرَاتبي وإِن كان أدناها يُطيل طِلابي

لتعلمَ أطرافُ الأسِنَّة أنني كفيل بها عند الصَّدى بشراب

وتشهدَ أطراف البراعات أنَّني بهنّ مُصيبٌ فصْلَ كلِّ خطاب

وليس نديمي غير أبيض َصارمٍ وليس سميري غير شخص كتاب

الحكمة :

لم يحفل الاندلسيون بالفلسفة والفلاسفة ، وقد شن الفقهاء الذين كانت لهم سلطة دينية في ذلك الوقت حملة على الفلاسفة والويل لمن اتهموه بدراسة الفلسفة أو عُرف عنه أنه من المعنيين بها. وكان العامة يستجيبون لأهواء هؤلاء الفقهاء بل إن السلطان نفسه لم يستطع الوقوف أمام تيارهم الجارف . فهذا حاكم إشبيلية يطلب من ابن هانىء مغادرتها حيناً حتى تهدأ الثورة التي قامت ضده .

ثم إن الاندلسيين انشغلوا بحياة اللهو وفتنة الطبيعة عن الحياة التأملية . من أجل ذلك جاءت حكمهم ساذجة سطحية خالية من العمق لا تنبىء عن ثقافة

ونضج وعلم . ومن شعراء الحكمة ابن هانىء، لكن حكـَمِه جاءت غير ناضجة شأنها شأن حكم الشعراء الآخرين .

وربما كانت حكم ابن وهبون أكثر نضجاً من غيرها لأنه أدرك الزمن الذي بدأت الفلسفة فيه تتخذ طريقها في الأندلس ، لكن حكمه كان ينقصها الصقل. ومن حكمه :

لو تعلم الأجيالُ كيف مآلها علمي لما امْتسكَتْ لها أرجاء
إنا نعلم مـــا يراد بنا فَلِمْ تُعيي القلوبُ و تَغْلبُ الاهواء؟
طيفُ المنايا في أساليب المُنَى وعَلى طريقِ الصحَّة الادواء
تتعاقبُ الاضدادُ مما قد ترى جَلبَتْ عليكَ الحكمةُ الشَّنْعاء

الزهد :

كان الزهد على عكس الفلسفة ، قد وجد له مرتعاً خصيباً بين الدوافـــع الكثيرة التي عملت على رواجه وهيأت لانتشاره . فأثرُ الفقهاء في نفوس الناس وبخاصة العامة واضح ، والحروب الكثيرة ضد النصارى تزيد الإنسان تعصباً لدينه واستمساكاً به ، واللاهون قد أسرفوا في لهـــوهم ففكروا في مصيرهم واستعرضوا ذنوبهم فندموا واعتذروا إلى الله .

كل هذا دفعهم إلى نظم الشعر في الزهد وشكوى الدهر وصروفـه وذم الدنيا والتنفير من زينتها الخداعة ، وقد يكون الناظم صادقاً في زهدياته أو غير صادق وإنما اراد تقليد غيره ممَّن قالوا شعراً في الزهد .

ومن زهدياتهم قول ابن عبد ربه في شكوى الأيام وجور الزمان :

ألا إنما الدنيا غُضارةُ أيْكة إذا اخضرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ
هي الدارُ ،ما الآمال إلا فجائعٌ عليها ، ولا اللذَّاتُ إلاَّ مصائبُ

فكمْ سخَّنَتْ بالامسِ عَيناً قريرة وقرَّت عُيوناً دمعُها اليومَ ساكبُ
فلا تكتحلْ عيناك منها بِعَبْرَةٍ على ذاهبٍ منها فإنك ذاهبُ

ومن الأغراض الوثيقة الصلة بالزهد التصوف ، وكان الزهد من العوامل التي أدت اليه . وقـــد امتزج شعر التصوف الغربي بالتصوف الشرقي نتيجة التنقل والرحلات ، فرأينا وحدة في الأساليب والمصطلحات والافكار .

ومن شعرائهم في ذلك ابن عربي الذي ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ . ومات سنة سنة ٦٣٨ هـ . ومن موشحته في التصوف :

يقول والوجد	أضناه والبعد	قـد حيّره
لمـا دنا البُعد	لم أدْرِ من بعدُ	من غيّـره

*

يا مَنْ له قلبُ	لو انه يذكو	عند الشباب
قد قرّب الرب	لكنه إفـك	فانْوِ المتاب
ونادِ يا رحمان	يارب يا منّان	إني حـزين
أضناني الهجران	ولا حبيبٌ دانْ	ولا معـين

الرثاء : فاق الأندلسيون المشارقة في رثاء الممالك الزائلة لأنهم عـاشوا في وطن طالما تغنوا بفتنته ثم رأوه فجأة يسقط بلداً اثر بلد، فأحرق ذلك أكبادهم وفتّت قلوبهم فأرسلوا ذلك بكاء وتفجعـاً على مُلْكٍ ضيّعه حكامه . وهم في رثائهم العام يشبهون المشارقة في معانيه وألفاظه من التفجع والتوجع والاستهلال بالحـكم أحياناً .

وسنقدم اليك نموذجاً من الرثاء في دراسة النصوص يطلعك على مـيزة الرثاء عندهم وبخاصة رثاء الممالك الزائلة .

ولما كان شعر الشكوى والاستعطاف يفيض أسى ولوعة ونحيباً ، وبخاصة عند الملوك والأمراء الذين نكبوا في عزهم ومجدهم، فانه الى الرثاء أقرب، وبه ألصق ، وسنرى ذلك في شعر المعتمد بن عباد عندما ندرس له .

الوصف : لقد برع الاندلسيون في الوصف ، وأظهروا فيه مقدرة تفوق مقدرة المشارقة ، عدا بعض المشهورين هناك من الشرقيين المجيدين .

وقد ساعدهم على ذلك طبيعة ناعمة وجمال فائق أقبل الأندلسيون عليه يستمتعون ما شاء لهم الاستمتاع ، فأرسلوا شعرهم أنغاماً على مسارح هذه الطبيعة . ثم ان الحياة اللاهية التي عاشها الاندلسيون وبخاصة الشعراء قد ملكت عقولهم ، فاستحثت قرائحهم فصوروا هذا اللهو وذلك الحب .

وقد تناولوا في وصفهم كل ما وقعت عليه عيونهم وتأثرت به نفوسهم فوصفوا المعارك لكثرة الحروب التي رأوها ، وانتشار الفتن الداخلية ، ووصفوا الصيد وآلته . وكان وصفهم للطبيعة يتناول جميع مظاهرها فوصفوا الطبيعة الخصبة ورياضها والطبيعةَ الصناعيةَ بقصورها وبرَكها وكل ما في بلادهم من عمران . وتغزلوا ووصفوا الخمر ، والمحبوب في رحاب الطبيعة . وهم يرون في الطبيعة جمال المرأة وفتنتها فهي مشرقة باسمة ، وورودها خدود ، ونرجسها عيون ، وسفرجلها نهود . وقد برعوا في تشخيص الطبيعة فاذا هي ظل لروح الشاعر ، كقصيدة ابن زيدون في قصيدته « إني ذكرتك بالزهراء .. » وقصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل « وأرعَن طمّاح الذؤابة باذخٍ » وسيأتي ذكرهما في دراسة النصوص .

وقد كان لبعض الأقاليم شعراؤها الوصافون للطبيعة والديار ، فابن زيدون في قرطبة والزهراء ، وابن سفر المريني في اشبيلية ، وأبو الحسن بن نزار بوادي آشات ، وهكذا كان الكل يتغنى بطبيعة البلاد . واذا كان الأندلسيون قد أكثروا من شعر الطبيعة وقد فاقوا فيه المشارقة فليس معنى ذلك أنهم تميزوا عنهم بالجودة فإن العناية الفائقة بالصورة قد صرفتهم عن العناية بالموضوع نفسه . أما الصورة فغالباً ما كانت شبيهة بالصورة المشرقية . ومن أمثلة ذلك قول ابن النظام :

قد بدت للبَهارِ ألويةٌ تعْبَقُ مِسكا طلوعُها عجَبُ

رؤوسها فضةٌ مورّقــة تشرق نوراً عيونها ذَهبُ
فهو أمير الرياض حَفّ به من سائر النَّوْرِ عسكرٌ لجِبُ

وقول ابن القوطية :

وكأنما الروض الأنيق وقد بدتْ متلوّنــات غَضَّةً أنوارُهُ
بِيضاً وصفراً فاقعاتٍ صائغٌ لم ينأ دِرهَمُهُ ولا دينـارُهُ
سبَكَ الخميلةَ عَسْجَداً ووذيلة لما غدتْ شمسَ الظهيرة نارُهُ

وهناك بعض النماذج التي ضربت بسهم كبـير في الإشراق والحيوية كقول ابن حصن في النَّيلُوفَر :

كلما أقبل الظلام عليه غمَّضَتْ أنجمُ السَّما عينيه
فإذا عاد للصباح ضياءٌ عاد روحُ الحياة منهُ إِليهِ

وقول الوزير أبي عثمان بن إدريس :

أقام كرجْع الطرفِ لم يَشْفِ غلّةً ولم يروِ مشتَاقَ الجوانح شائقهُ
فما كان إلا الطيف زار مسلّماً فسرَّ مُلاقيه وسيءَ مفارِقُهُ

تطور الشعر الاندلسي : بدأ الشعر الأندلسي في دور التكوين في الوقت الذي كان الشعر المشرقي ينزع الى حركة تجديديــة على يد بشار وأبي نواس. ومعروف أن الشعر الأندلسي قــد ولى وجهه نحو المشرق يحتذيه ويقلده ، فقد عاش الشعراء في هذه البيئة الجديدة وروحهم لا تزال متعلقة بالشرق ، بموطنهم الأول لا يفتأون يذكرونه ويحنون إليه ، ويصوغون شعرهم على غرار

الشعر المشرقي دون ان يتأثروا بالبيئة التي نزحوا اليها .

ويذكر المقّري لنـــا خطباً لعبد الرحمن الداخل ورسائل تشبه خطب الأمويين في أسلوبها وتشبه أيضاً رسائلهم في آخر حكمهم .

ومن شعره الذي تبدو فيه ظاهرة المشرق قوله يحن الى وطنه الأول :

أيها الراكبُ الميمِّمُ أرضي إِقْرَ بعضَ السلام عني لبعضي

إِن جسمي كما تراه بأرضٍ وفؤادي ومَالِكيهِ بأرضِ

قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعِنا سوف يَقضي

وقال في نخلة كانت فريدة في حديقة قصره بالرّصافة فأهاجت ذكرياته :

تبدّت لنا وسط الرصافةِ نخلة تناءت بأرض الغرْب عن بَلد النَّخْل

فقلت : شبيهي في التغرُّب والنوى وطولِ التنائي عن بَنيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنت فيها غريبةٌ فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

ومن شعر ابن عمه عبد الملك بن مروان بن الحكم الذي فر الى الاندلس في حماية عبد الرحمن ، وقد رأى نخلة أذكرته بوطنه الأول :

يا نخلُ أنتِ فريدةٌ مثلي في الأرض نائية عن الأهلِ [1]

تبكي وهل تبكي مكمّمةٌ عجماء لم تُجبَلْ على جَبْلي

لكنها حُرِمت وأخرَجني بُغضي بني العباس عن أهلي

وتأثر الشعراء بمجالس تدريس المؤدبين في الأندلس لأنهـــم هم الذين كانوا

---

١ – يقال ان هذا الشعر لعبد الرحمن الداخل .

يشرحون الشعر لطلبتهم ، وهؤلاء المؤدبون قد تأثروا بالشرق وبشعرائه ، وساعد بعض المهاجرين من غير الأندلسيين على تثبيت أثر المحدثين في البيئة الأندلسية مثل ابراهيم بن سليمان الشامي الذي كان بالاندلس في آخر حكم الحكَم ابن هشام (وقد أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبي العتاهية) ومثل ابراهيم ابن احمد الشيباني .

ولقد كاد اعتماد الأندلسيين على اللحن الشرقي ان يكون كلياً .وقد أقبل امراؤهم على الجواري المشرقيات يبتاعونهن لعلمهم بتفوقهن في هذا اللون . فقد اشترى عبدالرحمن الداخل جارية تغني في المدينة، واشترى ابن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية جارية تدعى قمر البغدادية ، وفي أيام الحكم بن هشام وفد على الأندلس مغنيان شرقيان هما : «علّون » و « زرقون » . ثم كان أكبر المغنين في الشرق وهو زرْياب المغني الذي أتى من بغداد بأبنائه وجواريه، فأكرم عبد الرحمن بن الحكم وفادته وأجزل عطاياه .

وبين هاتين الظاهرتين (الشعر المشرقي والغناء) تأثر الشعر الأندلسي، فكانت فيه روح التقليد وسطحية الغناء وصفته . وبدت ظاهرة التقليد في أشعار ابن هانىء وابن شهيد وابن دراج القسطلي من أصحاب مدرسة التقليد ، وسترى شعرهم عند دراسته .

ثم بدأ الشعر بعد ذلك في التحرر ومنافسة الشرق ، لكنه لم يكن تجديداً ولا تحرراً خالصاً ، فقد تعلق الشعراء ببيئتهم الجديدة وفضلوها على غيرها وافتتنوا بجمال الطبيعة فوصفوها ، وصرنا نجد لكل إقليم وصافين .

وتطورت لغتهم بحكم الزمن وبعدهم عن الشرق وامتزاجهم بالعناصر الأخرى ، وظهر أثر الاختلاط بين العرب الفاتحين ، والسكان الأصليين في الصورة الجديدة التي اتخذتها لهجة عرب الأندلس ، وأخذت الفصحى تنكمش فلا تمثل إلا الجانب الرسمي في الدولة ، وصارت لغة لا يفهمها إلا المثقفون . وقد نقل لنا ابن حزم لوناً من ذلك فقال: « ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ

في اللغة العربية، وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كَلـُغَةٍ أخرى، ولا فرق. فنجدهم يقولون في العنب : العنيب وفي ثلاثـــة دنانير : ثلندا ، وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة، وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاءً فقال مهمداً إذ أراد أن يقول محمداً » .

ونتيجة لهذا التبلور ، وبسبب استقلال الشخصيـــة الأندلسية نشأت الموشحات التي أعطت للأندلس طابعاً خاصاً يميزها عن الشعر المشرقي . وكان أول من نظم فيها –على الأرجح– مقدَّم بن مُعافى القبري ، وكانت فتحـــاً جديداً في الأدب العربي. ثم شاع هذا الفن ، وانتشر بين العامة ، واشترطوا فيما بعد أن تكون الخرجة ملحونة بل إنهم مالوا الى الموشحات الملحونة وبسبب ذلك ظهر فن آخر سموه « الزَّجل » .

ولما كنا سنتناول فن الموشحات والازجال بالتفصيل حسب المنهـج المقرر رأينا أن نرجىء الحديث عنها بالتفصيل إلى حينه .

اما الازجال : فيجدر بنا ان نمر عليها بصورة موجزة ما دمنا سنتحدث هناك عن الموشحات فقط .

أوزان الأزْجَال لا تلتزم بالأوزان العروضية، وألفاظها من الدارج حتى إن اللغط بقوافي الأزجال لا يخضع لشروط التقفية في الشعر العربي .

ومِنَ الزجالين المشهورين ابن قُزمان، وقد برع فيه، وله في الزجل ديوان .

وقد تناول في زجله الغزل والخمر والسخرية من المجتمع والمدح .

ومن زجله قوله :

تَشربْ المِلـــحَ[1] وتسقيـني لا رقيب علينا ولا حاكم كذا أملحْ
بتْنا في رِضى ، قُبَـــلْ وعَنَقْ[2]

---

١ ـ المليح ـ المليحة . ٢ ـ عنق : عناق .

أي تمُور ، أوَشْ تريـــد تقلقْ[١]
وفـِّرِ الغرامـــة لمـــن يعشقْ[٢]
من صـــبر لشـدتي راليـــني[٣]
قلْ مـا عليـه أنـــا عـــازمْ[٣]
فلا يفلح .
الصِّبـا يشاكل مـــا يعمـــلْ
داعُ داعُ يجـــي ويـــدّلّل[٤]

وقد انتشر الزجل في جميع انحاء بلاد الاندلس وانصرف الناس الى صناعته، ومنهم أبو عبدالله محمد بن نامية بمرسية ، ومحمد بن خيرة كاتب المرابطين ، وأبو الحسن علي بن ُجحْدر في اشبيلية وغيرهم كثير .

الاتجاه الشرقي وأثره في الأدب الاندلسي وظاهرة التقليد والتجديد :

قلنا سابقاً: «إن الادب الاندلسي قد بدأ في دور التكوين حين كان الأدب المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس وغيرهم » ، وقد أخـذ الشعر الأندلسي يتخذ من شعر المشارقة المحدثـــين من أمثال بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد وابن الرومي ، وأبي العتاهية وابن المعتز — مثالاً يحتذى .

وكان هناك جماعة كثيرة من طبقة المؤدبين قد ارتحلت الى الشرق لتنهل من مناهل الثقافة والمعرفة هناك ، ثم عادت لتقوم بالتدريس في جامعة قرطبة، وأتوا معهم بأوائل الكتب اللغوية ككتب الأصمعي والكسائي والفرّاء وبكتب في العروض والمنطق والنقد للخليل بن احمـــد ويعقوب بن السِكـّيت ، وابن ُقتيبة . واهتم بنقل شعر أبي تمام اثنان من المؤَدبين هاجرا الى المشرق وروياه عن صاحبه وأقرآه بالاندلس وهما عثمان بن المغني النحوي ، ومؤمن بن سعيد .

---

١ ـ أي تمور : أين تمر : أين تذهب . أوش : لماذا . تريد تقلق : تقلق . ٢) وفر الغرامة : دع فرصة الغرام . ٣) راليني : رأى ليني ورقتي . ٤) قل ما عليه أنا عازم : ما أقل ما أستطيع . ٥) داع داع : دعه دعه ، يدلل : يتدلل .

واهتمت جماعة أخرى بشعر البحتري ، وأصبح الذوق الاندلسي فيما بعد يعشق هذا اللون من الشعر . أما المؤدبون فقد ميزوا بين القديم والحديث من الشعر ، ونسبوا كل شعر قيل من شعراء الاندلس الى الطريقة التي تناسبه ، وكانوا الى شعر المشارقة المحدثين أميل . وبفضل هؤلاء المؤدبين ظهر شيء من تكوين الذوق الاندلسي . ولزِرْياب المغني أثر كبير في النهضة الغنائية التي اشتركت في إبراز الشخصية الاندلسية فيما بعد .

وشجع الخلفاء والأمراء (من أمثال الأمير عبد الرحمن ومحمد ابنه والناصر وابنه الحكم) الثقافة والمثقفين الوافدين إلى الشرق والمقيمين بالأندلس وهيأوا الأسباب التي تعمل على تقدمها وازدهارها ، كما شجعوا المؤلفين على التأليف . واهتمّ أناس بالعلوم وأقبلوا عليها كالطبّ والفلك والهندسة والحساب. وكان الحكم من الذين اهتموا اهتماماً كبيراً بالأدب والأدباء وبتشجيع الثقافات ، ونقل الكتب من الشرق ، فقدم عليه كثير من المشارقة من بينهم ابو علي القالي صاحب كتاب الامالي . ويقال إنه كتب إلى أبي عليٍ هذا حين كان ولياً للعهد فلما قدم إليه أكرمه ، وظل على إكرامه إلى أن ولي الخلافة فبالغ في إكرامه وباسمِه طرّز أبو علي كتاب الأمالي .

وكان قدوم القالي إلى الأندلس يمثل نهضة أدبية ولغوية ، فقد اتخذه الاندلسيون حجة ، واخذوا عنه ، وقد جاءت مع أبي القالي كتب في الأدب للجاهليين والامويين كشعر ذي الرمة والحطيئة وأبي النجم والنابغة الجعدي ، وعلقمة وجميل وكثّير عزة والأخطل ، وألوان من المجموعات الشعرية البارزة كالمُفَضّليّات والنقائض وشعر الهُذَليّين ، إلى جانب كتب أخرى في الاخبار والفنون المختلفة . فكان لهذا أثر في اتجاه المثقفين إلى التعمق في الدراسات القديمة ، والتقليل من الاعجاب بالمحدثين. ولم يقتصر اهتمام الحَكَم بالوافدين عليه فقط بل تعداهم إلى البعيدين عنه ، فوصلهم بعطاياه ليؤلفوا لخزائنه أو يضيفوا كتبهم إلى ما فيها ، كأبي إسحق محمد بن القاسم بمصر ،وأبي عمر بن يوسف الكِنْدي فيلسوف العرب ، وأبي الفرج الاصبهاني الذي تلقّى

منه – على ما قيل – ألف دينـــار ذهباً عيناً ليرسل اليه نسخة من كتابه الذي ألفه من الاغاني ، فاستجاب لطلبه ، وأرسل نسخة منه إلى الاندلس قبل أن يظهر الكتاب في العراق ، وانفذ معه قصيدة يمدح فيها الحكم ويذكر مجد قومه بني امية وفخرهم على سائر قريش ، فجدَّد له عليه الصلة الجزيلة . وزخرت مكتبة الحكم بأنفس الكتب والمجلدات تضاهي ما جمعَـه ملوك بني العباس في الازمان الطويلة لأنه أنفق عليه بسخاء .

ومن دلائل اهتمامه الشديد بالادب ، ونقلِ ما في الشرق الى الاندلس ، انه اراد مرة التوجه إلى الحرب فاعتذر عن مصاحبته « ابن الصفار» لضعف جسمه فأرسل إليه أحمد بن نصر قائلاً: « قل له إن ضمن لي أن يؤلف في اشعار خلفائنا بالمشرق والاندلس مثل كتاب الصُّولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيتـه » فقبل ابن الصفار ، وجلس في دار الملك ليتفرغ له ، ولما انتهى منه كان الحَكَمُ لم يعُد بعدُ فحمله إليه ولقيه بطُلَيْطُلة عائـــداً فتلقى الحكم منه الكتاب مسروراً .

واستمرت هذه النهضة الادبية في عهد المنصور بن أبي عامر ما عدا الجانب العلمي الذي أصابه قليل من الركود .

وهكذا اتجهت الحركة الادبية والعلميـــة الى الشرق ، واهتمت بعد ذلك بحاضرها فزخرت المكتبة الأندلسية بالأدب شعره ونثره، وسير الأدباء، والنقد الأدبي ، ككتاب أخبار الشعراء لمحمد بن هشام الأموي ، وطبقـات الشعراء لابن الفرَضيّ ، والتشبيهـات من أشعار أهـــل الاندلس لعلي بن أبي الحسين وما الى ذلك .

واستقلت الاندلس بعد ذلك في لهجتها ولغتها وفي أمثالها ، وكلمـا تقدم بها الزمن وضحت معالم الاستقلال .

وصارت لهم أمثال نابعة من بيئتهم وحياتهم من ذلك قولهم :

« أفصح من الرشاش » « وأفصح من بكر الكناني » .

ومن أمثالهم السائرة « شتان بين خلة وسعاد » وخلة كانت زوجة أحد القضاة قبيحة الشكل ، أما خادمتها سعاد فكانت فائقة في الحسن .

ومن مظاهر استقلالهم في لهجتهم ولغتهم وجود تعبيرات تختص بالبيئة الأندلسية في الأحوال والهيئات والحركات غامضة على القارىء المشرقي ، لابتعادهم فيها عن اللغة الفصحى ابتعاداً كثيراً . وقد حاول القائمون على اللغة الفصيحة ان يحاربوا هذا التطور أمثال الزبيدي الذي ألف كتاب«لحن العامة» بيّن فيه الصواب والخطأ ، وابن شهيد الذي هاجم الاندلسيين في كتابتهم . ومع ذلك فلم يستطيعوا ردهم عن ذلك لأن شيوع الازجال بعد ذلك جعل اللهجة المحلية في الاندلس مقياساً أدبياً .

ومن مظاهر الاتجاه الشرقي في الأدب الأندلسي تأثر الشعراء الاندلسيين بالشعر والشعراء المشارقة من أمثال أبي العتاهية في الزهد ، وأبي نواس في الخمر والغزل ، وأبي تمام في الغرابة والاستطراف ، وابن الرومي في وصف الطبيعة وابن المعتز في صوره وتشبيهاته . وكان في اعتماد الشعر الأندلسي على نماذج الأدب الشرقي ما شغل الشعراء عن الانتاج المبتكر الأصيل . .

وقد وجدنا من أثر ذلك نزعة في الشعر الأندلسي إلى الزهد عند ابن زمنين الغزال وابن عبد ربه تتجلى فيها شخصية أبي العتاهية وأفكاره ونظراته في الحياة والموت . لكن من الصعب الحكم باقتباس الموضوع نفسه من أبي العتاهية أو فنه الشعري تماماً ؛ أما أثر أبي العتاهية في تقوية النزعة والاتجاه الشعري فلا ينكره أحد .

فقول الزبيدي :

لقد فاز الموفّق للصّواب وعاتب نفسه قبل العقابِ
ومن شَغَل الفؤاد بحبٍّ مولى يجازى بالجزيل من الثواب

ثم قوله :

ولا تَغْتَرَّ بالدنيا فعمّـــا　　قريبٍ سوفَ تؤذِن بالخرابِ

يتفق مع أبي العتاهية في نظرته للدنيا حينما يقول :

لِدُوا للموت وٱبْنُوْا للخرابِ　　فكلُّكُمُ يصيرُ إلى تبابِ

لكن لو سمعنا قول ابن زمنين :

أيها المرءُ إن دنياك بحرٌ　　طامحٌ موْجُه فــلا تأمنَنْها

وسبيلُ النجاة فيها مبينٌ　　وهو أخْذُ الكفافِ والقوتِ منها

وقارناه بشعر أبي العتاهية في الزهـــد سنجد اتفاقاً في الموضوع وفرقاً في الصورة، فالصورةعند ابن زمنين أقرب إلىالبيئة الأندلسية من صورة ابيالعتاهية.

وفي الخمر ووصفها قلد الأندلسيون أبا نواس كقول يحيى الغزال :

ولما رأيت الشَّرْب أكْدَتْ سماؤُهُمُ　　تأبطت زِقّي واحتسبتُ عَنائي

فلما أتيتُ ٱلحانَ ناديتُ ربَّه　　فهبَّ خفيفَ الروح نحو ندائي

ولأبي تمام أثر كبير في الشعر الأندلسي من حيث الغرابة والمبنى الشعري ، وقد كان لشعره أيضاً أثر في وصف الطبيعة الأندلسية .

ومن ذلك قول محمد بن أحمد بن قادم :

قف برَبْع البِلَى ورَبْع الهمومِ　　واسفحِ الدمعَ فيه سفحَ الغيومِ

غَيَّرت آيَهُ صروفُ الليالي　　ومحاها الغمامُ محـــوَ الرقيم

ساء ما اعتاض بالسحائبِ من　　نبت المعالي بمنبت القيصوم

وكان لابن الرومي بشعره في المناظرة بين الأزهار وإظهار الحمية في المفاخرة أثر في الشعر الأندلسي ، مثل :

تعاير السوسانُ والجُلَّنَارْ والأُقْحُوانُ الغضُّ بين البهارْ
مبتسماً ذاك وذا مُوْضحاً عن حُسن توريدٍ بدا واستثار
واستحكم الوردُ ببرهانه وانتحلَ الفضل معاً والفخار

وقد توغلتْ صور ابن المعتز في الطبيعة أيضاً كما في قول بعضهم :

والبدْرُ في جَوِّ السماء قدانطوى طَرَفاه حتى عادَ مِثلَ ٱلزورقِ
فتراه من تحت المحاقِ كأنَّهُ غَرِقَ الكثيرُ وبعضُهُ لم يَغْرقَ

فهو مأخوذ من قول ابن المعتز :

أُنظُرْ إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أَثقَلَتْهُ حمولةٌ مِنْ عَنبرِ

وممن قلدَّ المتنبي ابن هانىء الأندلسي ، وابن درَّاج القسطلي الذي عارضه في قصيدته الرائية ، ولكنهما لم يبلغا شأوه ، ولم ينتهيا الى غايته لعظمته الشعرية الطويلة الباع .

وعلى الرغم من أن هذا التأثير الشرقي كانت له حسناته ، فقد قيد الأندلسيين بقيد التقليد وخنقهم في إطاره ، فجعل شعرهم قليلَ الابتكار ، ضعيف الاستقلال حينما بدأت الشخصية الأندلسية تبدو في الادب الاندلسي .

واذا كنا لم نتبين الملامح الاندلسية على حقيقتها ، واذا كان يتعذر علينا أن نبرز هذه الملامح فما ذاك إلا لان الحياتين المشرقية والاندلسية كانتا متقاربتين في مظهرهما العام .

وقد كان انتهاء القرن الخامس إيذاناً بانتصار جديد جمع بين طرافة البيئة

ومعاني الشعراء السابقين ، وكان اتساعاً لحركة الموشحات. وفي هذه الفترة صور الشعر النفس ومشاعرها والبيئة ومظاهرها .

أما في القرن السادس وما بعده فكان الشعر تمثيلاً للبيئة الاندلسية وكان منطبعاً بطابع الجدّة .

ومن أشهر الشعراء في القرن الخامس ابن زيدون ، وابن عمار ، والمعتمد ابن عباد ، وابن الحداد ، والأعمى التطيلي ، ومن اليهم . أما في القرن السادس فلمع ابن حمديس، وابن عبدون، ولسان الدين بن الخطيب، وابن سهل وغيرهم.

وفي النماذج المقررة كثير من الشواهد .

خصائص الشعر الاندلسي :

في المعاني والأخيلة : كانت معانيهم واضحة سهلة الفهم ، بعيدة عن العمق والتكلّف ، خالية من الصور الفلسفية والتراكيب المنطقية الى حد كادت معه ان تكون سطحية لوضوحها .

وهي ممزوجة بالخيال الذي أغربوا فيه ، وهو في الغالب رقيق تزدحم فيه الصور البراقة التي انتزعوها من الطبيعة الفاتنة الزاخرة بالجمال .

في الألفاظ والأساليب : كانت ألفاظهم سهلة مهما كان الغرض الذي قيلت فيه ، وقد انتهت بهم السهولة أحياناً الى حد الليونة والإسفاف . ولم يستعملوا الألفاظ الاعجمية في شعرهم كما فعل المشارقة . وصورُهم وتشبيهاتهم ومجازاتهم كثيرة مع قلة عناية بالمحسنات البديعية .

في الأوزان : نهجوا نهج الشرق فيها لكنهم كانوا يميلون الى الأوزان الخفيفة التي تلائم الموسيقى ، وتناسب لهوهم ومجونهم وترفهم ، وقد أدى هذا الى ابتداع فن الموشح وبعده انتشر الزجل .

موضوعات للبحث

١ – وضحت شخصية الشاعر الأندلسي في بعض الأغراض واختفت حيناً آخر في أغراض اخرى .
ناقش هذا الرأي ذاكراً مظاهر كل .

٢ – هل كان تطور الشعر الاندلسي واضحاً ؟ وكيف ذلك ؟ وما مظاهر هذا التطور ؟
استشهد بأمثلة تؤيد ما تقول .

٣ – كان للاتجاه الشرقي آثاره السيئة الى جانب آثاره الحسنة .
ناقش هذا الرأي مؤيداً أو نافياً ، واستشهد في كلٍ .

٤ – بيّن خصائص الشعر الاندلسي وأهم مميزاته .

المراجع

الشعر الاندلسي — للمستشرق غرسيه غومس ترجمة حسين مؤنس
تاريخ الفكر الاندلسي — ترجمة الدكتور حسين مؤنس
الفن ومذاهبه في الشعر — للدكتور شوقي ضيف
بلاغة العرب في الاندلس — لأحمد ضيف
شعر الطبيعة في الأدب العربي — للدكتور سيد نوفل

من الشعر المحافظ

ابن هانىء الاندلسي في مدح المعز

كانت السنوات الأولى بعد فتح الاندلس سنوات تخمّرٍ بالنسبة للعرب فالبيئة الجديدة غريبة عنهم ، ومناظرها تختلف كثيراً عما ألفوه ، لذا لم يكن غريباً أن نراهم يقولون شعراً شبيهاً بالشعر المشرقي ويقلدون شعراء المشرق ويلقبون بالقابهم. ومن هؤلاء الشعراء المقلدين أبو القاسم محمد بن هانىء الاندلسي الذي ولد في قرية من قرى إشبيلية بالاندلس سنة ٣٢٠هـ ولقب بمتنبي المغرب. وكان ابوه قد ارتحل من شمال افريقيا إليها . وكانت الاندلس إذ ذاك في عصرها الذهبي زمن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم (وقد قيل إن ابن هانىء هذا عربي الاصل أزدِيّ يمني من نسل المهلّب بن أبي صفرة الذي اشتهر بحروبه وانتصاراته على الخوارج ، وفي خراسان ، أيام بني أمية).

وشب ابن هانىء وابوه معنيّ بتربيته ، فما لبث ان لمع اسمه في عالم الادب، ودنيا الشعر ، واتصل بصاحب إشبيلية ولبث معه زماناً ، وقد كان حين ذاك مشتهراً بآرائه الفلسفية ، مستهتراً متهافتاً على الملاذ والمجون والزندقة . ويظهر ذلك من مزجه الدعوة الفاطمية بشيء من التفلسف ، فثار الفقهاء والشعب عليه. فاضطر صاحب إشبيلية الى نصحه بالابتعاد عن المدينة زمناً ، فسافر الى المغرب واتصل بجوهر الصقلي قائد المعز ثم بالمعز نفسه . فبالغ في اكرامه حين

مدحه، وعلت منزلته عند الخليفة الفاطمي فجعله شاعره الخاص، ورأى انه ان فتح مصر احتاج إليه كثيراً في مدحه وإعــلاء شأنه ، فيكون بمثابة الصحافة ، فأكرمه وقــدَّره وبنى له قصراً في القيروان . ثم دعاه إليه ليخرج معه لفتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، فخرج معه ، ولما استقرت الأحوال هناك رجع ابن هانىء إلى المغرب ليأتي بأهله ، ولما توجه ذاهباً الى مصر بأهله قتل في الطريق ببرقة . وفي قتله خلاف ، قيل انه أصيب بالفالج وهو سكران فاشتد عليه فمات بعد أن وقع فانكسرت رقبته . وقيل ان دعاة الأمويــين خافوا من دعوته الفاطمية فأغرَوْا به من يقتله، وكان ذلك سنة ٣٦٢هـ،٩٧٣م.

آثاره : لابن هانىء ديوان شعر مرتب حسب حروف الهجاء أكــثره في مدح الخليفة المعز ، وغالبه في الرثاء والوصف والهجاء .

ومن يقرأ ديوانه يرى تعاليم الشيعة منثورة فيه ، من صفات الاماميــة وعقيدة الدعوة الفاطمية ، وشروط الدعوة ، والامــام المعصوم ، وحقه في الخلافة ، وبطلان الدعوة العباسية ، وغير ذلك من الصفات العلوية للإمام ،التي تجعله في مرتبة فوق مرتبة البشر ، وتضفي عليه من القدسية والجلال ما يجعله روحاً من الله . وقد عاب[1] ابن خلــكان غلوه في المدح . وله بعض الابيات في مدح المعز مفْضية إلى الكفر . وقد طبــع ديوانه في مصر سنة ١٢٧٦ هـ وفي بيروت ، وطبع كتاب تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هــانىء ، الاندلسي المغربي ، لمولوي زاهد علي ، في مصر ١٣٥١ هـ – ١٩٣٤ م .

ويقال إن لابن هانىء كتاباً في التاريــخ لا يزال محفوظاً في فاس .

النص :

ما شِئتَ لا ما شاءَتِ الأقدارُ فاحكُمْ فأنتَ الواحد القهّارُ

١ ـ وفيات الأعيان لابن خلــكان ٢:٦

وكأنَّمَا أنتَ النبيُّ محمدٌ ... وكأنمّا أنصارُكَ الأنصارُ
أنتَ الذي كانت تبشِّرنا بِـه ... في كُتْبِها الأحبارُ والأخبارُ[1]
هذا إِمامُ المتَّقِينَ ومَن بــه ... قد دُوِّخ الطغيان والكفَّارُ
هذا الذي تُرجَى النجاةُ بحبِّه ... وبه يُحطُّ الإِصْرُ والأَوزارُ[2]
هذا الذي تُجدِي شَفاعتُه غداً ... حقّاً وتخمُد أن تراهُ النَّارُ[3]
من آلِ أحمدَ كلُّ فخرٍ لم يكنْ ... يُنمى إِليهم، ليس فيه فخارُ
في جحفلٍ هتَم الثنايا وقْعُه ... كالبحرِ فهو غُطامِطٌ زَخَّارُ[4]
غمَرَ الرِّعانَ الباذخاتِ وأغرق الـ ... قُنَنَ المنيفةَ ذلك التيَّارُ[5]
زَجِلٌ يبرِّح بالفضاء مضيقُهُ ... فالسهلُ يمٌّ والجبال بحارُ[6]
والمستظلُّ سماؤه مــن عِثْيَرٍ ... فيها الكواكب لِهْذَمٌ وغِرارُ[7]
وكأن غيضات الرِّماح حدائق ... لُمع الأَسِنَّةِ بينها أزهارُ[8]
وثمارُها مِن عَظْلَمٍ، أو أَيدعٍ ... يَنعٍ فليس لها سواه ثمارُ[9]

١ ـ الاحبار : جمع حبر وحبور : العالم الصالح ، أو رئيس من رؤساء الدين. ٢) الاصر والوزر : الذنب والاثم . ٣) النار جهنم . ٤) هتم : كسر . الغطامط : الفياض . ٥) الرعان جمع رعن وهو أنف يتقدم الجبل . ٦) زجل : ذو صوت. ٧) العثير : الغبار. اللهذم : السيف القاطع . الغرار : حد السيف والرمح . ٨) الغيضات جمع غيضة : مجتمع الشجر في مغيض الماء . ٩) العظلم : نبت يصبغ به . الأيدع : الزعفران . ينع يينع ينما(بفتح الياء وضمها) وينوعا الثمر أدرك وطاب وحان قطافه .

الأفكار الرئيسية

١ – وصف الممدوح بالإمامية والتقوى وبأنه شفيع الناس يوم القيامة .
٢ – وصفه بالشجاعة والقوة .

التحليل

١ – إن الأمور تسير حسب مشيئة المعزّ لا حسب مشيئة الأقدار ، كيف لا وهو الواحد الذي لا نظير له ، الغالب الذي لا يتغلب عليه أحد ؟ وقد حلّت فيه روح النبي محمد في هديه وإرشاده والتفاف الأنصار حوله وتأييدهم له ، فهو إمام المتقين الذي يكره الظلم والذي حاربه أينما كان حتى حطمه ودوّخ الطغيان وحقق الدعوة التي تكفّل بها ، وستجدي شفاعته حينما يشفع للناس يوم القيامة . ثم بالغ فجعله سبباً في خمود النار ، وهو من آل النبي ﷺ الذين فاقوا الناس في صفاتهم وأخلاقهم حتى أصبح كل فخر ينسب لغيرهم معدوم .

يقود المعز جيشاً جراراً عظيماً جارفاً لا يقف أي شيء في سبيله فهو يطيح بكل ما يعترضه ، وهو كثير ضاق به الفضاء سهله وجباله ، حتى إن قليله قد غمر الفضاء الواسع كالبحر العظيم الفياض يعم ماؤه كل مكان ، ولأمواجه أصوات مخيفة مفزعة .

وإن صورة الغبار الناتج من المعركة والسيوف وأسنة الرماح فيه كالسماء الزاخرة بكواكبها اللامعة . وصورة أعواد الرماح الكثيرة التي تلمع الأسنة في رؤوسها والقتلى والجرحى الذين لا حصر لهم كصورة أشجار كثيرة بها أزهار ناضرة ولها ثمار ناضجة من عظلم أو أيدع ليس بها غيرها .

التعليق والنقد

مدح ابن هانىء المعز فبالغ وأسرف في نعته بأوصاف موهمة بالكفر، ونحن لا نعجب اذا عرفنا أن الشاعر شيعي وأنه يعتقد القدسية في الإمام .

ونلاحظ في هذا المدح الضخامة في الالفاظ الى جانب الصور البصرية . وقد اتبع ابن هانىء في مدحه أسلوب أبي الطيب المتنبي محاولاً ان يجعله مظهراً من مظاهر القوة ، فاختار له ما ضخم من اللفظ واستخدم اللهجة البدوية والمعاني الصحراوية ، وغالى فيها مغالاة تلتقي فيها السيوف والحدائق والرماح والأزهار والصحراء والأندلس . فكان شرقي النسيج أندلسي الصورة ، يريد أن يكون في الغرب صوتاً شرقياً ، صوت المتنبي في قوة ألفاظه ، والبحتري في ألوانه وأصباغه ، وأبي تمام في غرابته وجناسه وطباقه ، فكانت مدائحه تصويراً وتقليداً ومغالاة لكنها على كل حال صورة من صور المقدرة الشعرية واللفظية .

وهذا يطلعنا على هذا اللون من الشعر الذي حاكى فيه الأندلسيون المشارقة وقلدوهم في أغراضهم ومعانيهم وألفاظهم وأساليبهم وأوزانهم، لكنهم لم يبلغوا مبلغ المشارقة في دقة المعنى وترتيب الفكرة .

لابن شهيد

في وصف عاصفة

وهذا شاعر آخر من شعراء مدرسة التقليد هو ابن شهيد الذي قال عنه (غرسيه غومس) المستشرق الإسباني : « إن ابن شهيد الشاعر الناقد ليمثل في نظرنا رجل الفكر الصرف، لقد كان من بيت عريق يصبح الأدب في يده خدمة بل سيادة. وتتراءى لنا في شعره بين الفينة والفينة لمحات ذات وقع حديث. وأما عن جانبه النقدي فقد خلّف لنا رسالة صوّر فيها رحلة شاعر الى الجنة سابقاً بذلك المعري ودانتي الى ذلك الموضوع . »

والشاعر هو أبو عامر بن شهيد ، ولد سنة ٣٨٢ هـ. وكان أبوه وزيراً للدولة العامرية مقرباً عند المنصور بن أبي عامر ، وقد شهد ابن شهيد عز أبيه في ظل العامريين . وكان هو في طفولته شديد الحساسية فانطبعت في نفسه في صغره ذكريات لم تنطمس بعد ، ظهرت في التطلع الى الثراء واستشعار السيادة وهو في الدور المبكر من حياته .

وقد أقبل على العلم فحصّل منه ما استطاع ، ولبث في قرطبة التي ولد بها الى ان اضطرمت نيران الفتنة فيها وغزاها البربر وثارت فيها سلطة على سلطة. فراح يستقبل خليفة ويودع خليفة راجياً من وراء ذلك استعادة ما كان له من العز في الدولة العامرية . وقد تضافر الحساد على النيل من كرامة ابن شهيد فراحوا يدسون له الدسائس ويسوّدون صحيفته لدى أُولي الامر، فسجن وأهين

كثيراً ثم أُفرج عنه ، وأخيراً مرض وفلج لانهماكه في الترف والمجون، وتوفي سنة ٤٢٧ هـ.

آثاره: أُثرت عن ابن شهيد أقوال في البلاغة والنقد تدل على ذوقه ومنهجه . فهو يرى أن البلاغة لا تكون إلا اذا وُهب الاديب ملكة بيانية ، وإلا فلا ينفعه نحو ولا صرف ولا بلاغة . ولم يبق لنا من شعره أو نثره إلا مقطوعات ونتف. وله رسائل كثيرة في مختلف الموضوعات مما وجهه الى الوزراء والأمراء والأدباء والكتاب، ومما دار حول القضايا الاجتماعية . وكان أشد ما يغيظه إلصاق العيب بإنشائه وشعره ، لذا صب سوط عذابه على ابن الأفليلي أحد معلمي اللغة بقرطبة فتهكم عليه بشدة، وبسببه جرد قلمه لكتابة «رسالة التوابع والزوابع » ومعنى التوابع الجن تصحب الانسان ، والزوابع العواصف ، وتستعمل بمعنى رئيس الجن، وسماها بذلك لأنها وضعت لبيان آرائه في الكتاب والأدباء على لسان الجنّ ، وأشبه ما يكون بها رسالة أبي العلاء .

وشعر ابن شهيد منثور في كتب كثيرة كالذخيرة لابن بسّام ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب للمقّري ، ويتيمة الدهر للثعالبي، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ودار شعره حول المدح ، والرثاء، والغزل، والشكوى ، والهجاء ، والفخر ، والوصف .

النص :

تردَّدَ فيها البرقُ حتى حسبتُه ... يشير إلى نجم الرُّبا بالأناملِ
رُبىً نسجَتْ أيدي الغمام للبْسها ... غلائِلَ صُفْرا فوق بيض غلائلِ
سَهِرتُ بها أرعى النجوم وأنجُما ... طوالِعَ للراعين غيرَ أوافلِ
وقد فغَرَتْ فاها بها كل زُهرة ... إلى كلِّ ضَرعٍ للغمامة حافِلِ
ومرّت جيوشُ المزن رهواً كأنّها ... عساكرُ زَنجٍ مُذهباتُ المناصلِ

الكلمات والاساليب

تردَّدَ مطاوع ردَّد : جاء إليه المرة بعد الأخرى . النجم : ما ظهر ، أي طلع من النبات على غير ساق وهو خلاف الشجر . والنجمة نوع من النبات يمتد على سطح الارض .

غلائل : جمع غلالة ، شعار يلبس تحت الثوب أو تحت الدرع ، والغليلة : واحدة الغلائل وهي الدروع أو بطائن تلبس تحت الدروع .

راعى مراعاة النجومَ : راقبها . ورعى رعْيا ومَرْعى النجومَ راقبها ليعرف منها أحوال العالم . راعى الأمرَ : نظر إليه .

غير أوافل : غير غائبة . أفل النجم أفولاً : غاب . ففرت فاها: فتحته .

المزن : السحاب أو ذو الماء منه ، الرهو : السير السريع ، مرت رهواً : أي سريعة . الزَّنج والزِّنج : عساكر سود البشرة واحدهم زنجي .

التحليل

ومض فيها البرق متردداً حتى ظننته يشير الى نبات الربى بأنامله ، هذه الربى التي أمطرتها السحب الكثيرة البرق ـ بمائها فكأنها كستها غلائل صفراً فوق غلائل بيض ، ولقد راعني منظر النجوم الساطعة فوق هذه الرى فسهرت أتأملها مع رياض هذه الرى المتفتحة دائماً لا تغيب ولا تأفل ، والزهور فيها ناضرة باسمة في ظلام الليل متفتحة عن أكامها لتستقبل مطر الغمام فكانت كالفاتح فاه – فرحاً مسروراً – ليشرب من الضرع الزاخر باللبن ، وقد مرت السحب مسرعة فوقها والبرق يلمع فيها فكانت كجيش كبير ذي عساكر سود بأيديهم سيوف مذهبة بريقها أصفر لامع .

التعليق والنقد

هذه قطعة من مقطوعات ابن شهيد زاخرة بالصور الخيالية ، ومع ذلك فهي مقبولة لعدم التكلف فيها . وهذه الصور التي أتى بها صورٌ طرقها الشعراء من قبل فلا ابتكار فيها ولا جدّة ، فهو فيها يحذو حذو المشارقة القدامى والمحدثين منهم غير متميز بخصائص أندلسية واضحة .

لكنه على الرغم من ذلك نجده قد أوتي من وفرة الخيال واتساعه ما جعله شاعرَ العاطفة الحية التي تملأ كل بيت وتبعث فيه الحياة والحركة، وشاعرَ الألوان والأنغام ، يجمع بين صلابة الألفاظ ولينها وجزالتها وسهولتها .

من رائية ابن دَرَّاج

في مدح المنصور بن أبي عامر

يصف ساعة الوداع ويذكر ابنه الصغير الذي خلفه وراءه .

وقد عارض فيها رائية أبي نواس في مدح الخصيب عامل الرشيد على مصر التي مطلعها : أجارةَ بيتينا أبوك غيور وميسور ما يُرجى لديك عسيرُ

ومطلع الرائية هو :

ألم تعلمي أن الثَّواء هو التَّوى وأن بيوت العاجزين قبور [1]

وأن خطيرات المهالك ضُمَّنٌ لراكبهـــا أن الجزاء خطير

تخوِّفني طولَ السِّفار وإنـــه لتقبيلِ كف العامريِّ جديرُ

مُجير الهوى والدين من كل ملحدٍ وليس عليـــه للضلال مجير

مقدمة : ابن دَرَّاج من زعماء مدرسة التقليد التي منها ابن هانىء وابن شهيد، وكان ابن درّاج على رأسهم، وقد انتهت إليه الطريقة التي اختارها الأندلسيون وارتضوها بعد (الغزال) ، ونال كثيراً من تقدير النقاد الأندلسيين وغيرهم . قال فيه ابن حزم : « لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج لما

١ – الثواء : الاقامة ، التوى الهلاك .

عصور الادب، وفي بلاط المتوكل بن الافطس في بَطَلْيوس غربي قرطبة، وكان من اكبر شخصيات هذه الدويلة، وأصله من (يابُرة) ثم قدم على المتوكل وحظي عنده، وصار له صاحباً ورفيقاً، وأقامه كاتباً له. وكان اعجوبة في النظم والنثر حتى قالوا: « هذا اديب الاندلس وامامها وسيدها في علم الآداب، هذا ابو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الاغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره، وجودة قريحته ».

وقد توفي سنة ٥٢٠ هـ، وقيل سنة ٥٢٩ هـ.

وقد خلّف لنا ابن عبدون أشعاراً وآثاراً كثيرة كالرسالة التي كتبها عن لسان سير بن بكر بن تاشفين الى علي بن يوسف بن تاشفين يخبره فيها بفتح مدينة (سنترين) ورسائل اخرى متعددة.

وهذه القصيدة التي سندرسها دفعت الكثيرين من الأدباء الى وضع المؤلفات في شرحها والتعليق عليها.

النص:

الدهرُ يفجعُ بعد العين بالأثرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّورِ ١
فلا تغرَّنْكَ من دنياكَ نَوْمَتُها فما صِناعةُ عينيها سِوَى السَّهَرِ
ما للَّيالي أقالَ اللهُ عَثْرَتَنا مِنَ اللَّيالي وخَانَتْها يَدُ الْغِيَرِ ٢
تَسَرُّ بالشيء لكن كي تَغُرَّ به كالأيمِ ثارَ إِلى الجاني من الزَّهَرِ ٣
كم دولةٍ وَلِيَتْ بالنَّصر خدمتها
لم تُبقِ منها ــ وَسَلْ ذكراكَ ــ مِنْ خبرِ

---

١) بعد العين: بعد ذهاب الاصل. ٢) ما لليالي: عجباً لها. أقال عثرتنا: نجانا منها.
٣) الأيم: الثعبان الأبيض.

هَوَتْ بِدارًا وفلَّتْ غربَ قـــاتِله
وكان عَضباً على الأملاك ذا أُشُرِ [1]
واسترجعت من بني ساسان ما وهبَتْ
ولم تدعْ لبني يُونـــانَ مِنْ أثَرِ [2]
بني المظفَّر والأيامُ ما بَرِحتْ مراحلاً والورى منها على سَفَرِ [3]
سُحْقا ليومكمُ يوماً ولا حَملَتْ بمثله ليلةٌ في مُقْبِلِ العُمُرِ
مَنْ للبراعةِ أو مَنْ لليَراعَةِ أو مَنْ للسَّماحةِ أو للنَّفع والضَّرَرِ [4]
ويحَ السَّماحِ وويْحَ البأس لو سلِمَا
واحسرة الدين والدنيـــا على عُمَرِ [5]
سَقتْ ثرى الفضل والعبَّاسِ هاميةٌ
تعْزى إليهم سماحـــا لا إلى المطرِ [6]
أين الجلالُ الَّذي عمَّت مَهابتُه قُلوبَنا وعيُونَ الأنجُمِ الزُّهُرِ [7]

---

١) دارا : أحد ملوك الفرس . غرب : حد . العضب : السيف القاطع . الأملاك : الملوك . ذا أشر : ذا حدة ومضاء . ٢) بنو ساسان : ملوك الفرس قبل الاسلام . بنو يونان : ملوك اليونان . ٣) بنو المظفر : ملوك بني الأفطس . ٤) البراعــة : المهــارة . اليراعة : القلم . السماحة : الكرم . ٥) ويح : كلمة رحمة . عمر : هو عمر بن المظفر آخر بني الأفطس بالأندلس وهو الذي حاصره المرابطون وقتلوه مع ولديه الفضل والعباس المذكورين في البيت التالي. ٦) هامية : سحابة ممطرة . تعزى اليهم : تنسب اليهم . ٧) الأنجم الزهر : النجوم المنيرة .

كانوا رواسيَ أرض الله مُنْذُ مضَوا عنها استطارت بمن فيها ولم تَقِرِ[1]
مَنْ لي ومَنْ لهمُ إنِ أظلمت نُوَبٌ ولم يكن ليلُها يُفضي إلى سَحَرِ[2]
على الفضائل إلا الصبرَ بعدهمُ سلامُ مُرتقبٍ للأجر منتظرِ[3]

الأفكار الرئيسية

١ – الحكم البالغة التي تدور حول الدنيا الفانية وما جُبلت عليه من أذى وشر ، والاعتبار بالتاريخ وذكر أخبار الماضين وانقراض الدول واندثار المدن وفناء العظماء .

٢ – رثاء بني المظفر .

التحليل

أ – يستهل الشاعر ابن عبدون مرثيته بمطلع جميـــل في الحكمة والاعتبار يشير فيه إلى طبيعة الكون وسنة الحياة ، وأن الدنيا جُبلت على النقص والفناء فلا راحة للإنسان .

ويبدو أنه قد طاب للشاعر الحزين العزف على هذا الوتر الشجيّ فراح يقلب ذلك المعنى على وجوه متعددة في سائر أبيات الفكرة الأولى بعظات وعبر بالغة. فطبيعة الدهر عدم الكف عن فجائعه ، فلا جدوى من البكاء على بقايا الاطلال ما دام لا يُرجع أصلاً ، فلا تغترّ بالدنيا إذا وجدت منها مسالمة ،فإنما هي ساهرة ترقب الفرصة للانقضاض عليك. ثم يستنطق الشاعر التاريخ الغابر ويسأله عما حلّ بالماضين أولي البأس والسلطان من ملوك الفرس ، وقياصرة اليونان، ويسأله عن

١) الرواسي : الجبال الثابتة . استطارت : خفت واضطربت . لم تقر : لم تسكن وتهدأ .
٢) من لي : من أعتمد عليه بعدهم . نوب : مصائب . يفضي ، ينتهي . السحر : قبيل الفجر .
٣) مرتقب : منتظر .

مصير ما بنوا من ملك عريض ، ومجد فخم فإذا هم جميعاً وما ملكوا في ذمة الدهر ، طواهم الزمن في غياهبه فأصبحوا اثراً بعد عين . وقد ترك الشاعر نفسه على سجيتها في هذه الابيات فلم يتصنع ولم يتكلف .

ب – وفي الفكرة الثانية يدخل الشاعر في صُلْب موضوعه فيخبرنا بنكبة بني المظفَّر ، والخسارة التي عمَّت بفقدهم قائلاً إن الأيام مراحل يقطعها الناس في سفرهم إلى نهاية آجالهم ، فبعداً لهذا اليوم المشئوم الذين نكبوا فيه ! ثم يقول لا أرانا الله مثيلاً له في المستقبل . إن الخسارة بفقدهم جسيمة فمَنْ بعدهم يقوم بما قاموا به من كرم وحسن سياسة وتدبير أمور ، ونفع الناس بالمروءة ، وإلحاق الضرر بالاعداء ، فرحم الله هذه الشجاعة وذلك الكرم بل هذه الصفات كلها . فما أشد حسرة الدين والدنيا على عُمَر امير هذه الدولة . إني أدعو ربي أن يشملهم برحمته ، وأن يسقي قبورهم سحابة هامية من سحائب كرمهم الفياض . أين ما كان لهم من عظمة ومهابة كانت تخشع لها قلوبنا وتدركها نجوم السماء ؟ لقد كانوا للأرض كالجبال الرواسي فلما مضوا اضطربت أحوالها ولم تستقر الأمور فيها ، فمن بعدَهُمْ يكون عوناً لنا إذا واجهتنا الأيام بنوائب لا انجلاء لها ! فسلام على كل الفضائل من بعدهم وليس لي إلا الصبر الذي نرتقب ثوابه .

التعليق والنقد

رثاء الممالك الزائلة والمدن المفجوعة موضوع طريف في شعرنا القديم يرتبط بأحداث جسام ألمت بالعرب ، وكان له نصيب وافٍ في بلاد الأندلس حيث تقلص ظل العرب شيئاً فشيئاً عن هذه البلاذ العظيمة والجنة المفقودة .

لقد رأينا ما يشبه ذلك الموضوع في سينية البحتري التي ندب فيها الشاعر إيوان الأكاسرة ووصفه أروع وصف متطرقاً إلى ماضيهم معتبراً بتاريخهم ، كما رثى ابن الرومي مدينة البصرة التي تعرضت لثورة الزنج .

ولقد مهد الشاعر لقصيدته بباقة طيبة من الحكم البالغة التي تدور حول

هذه الدنيا الفانية ، وما جُبلت عليه من اذى وشر .وتتجلى في الحكم بل في ابيات القصيدة سماتُ التشاؤم القاتمة التي تطل من ثنايا كل كلمة ، وتضفي على الابيات طابعاً شجياً حزيناً ربما كان من اهم عوامل اعجابنا بالقصيدة . أما الاعتبار بالتاريخ وذكر أخبار الماضين واندثار المدن وانقراض الدول وفناء العظماء فتلك ظاهرة عُنيَ بها شعراء الإندلس ، وإن كنا نجد لها جذوراً في القرآن بصدد حديثه عن عاد وثمود وذكر اساطير الاولين وسير الانبياء والمرسلين وما يتصل بذلك من الاخبار، وكذلك نجد في القرآن الحديث الشجي عن الدنيا وأعراضها الزائلة .

وأما اسلوب الشاعر فهو اسلوب سهل ينساب الى النفس بيسر وعذوبة ، وقد ترك الشاعر نفسه على سجيتها مع بعض عناية بالزخزفة والتنميق والصور الخيالية على عادة الاندلسيين الذين ولعوا بذلك .

اما المعاني فغير مبتكرة ولا عميقة، إذ ان اكثرها مطروق ومعروف : أين الجلال، وأين و ... ومن للبراعة ... ومن ...

ولولا تسربل الافكار بالثوب العاطفي لما وجدنا فيها جديداً. على ان في القصيدة خطة منطقية سليمة حين مهد الشاعر بأبيات في الاعتبار ثم انتقل إلى الموضوع .

والقصيدة من البسيط : وتقطيع البيت الأول منها .

أَتَرِيْ	دَلْعَيْنِبْلْ	جَعْبَعْ	ادْدَهْرُيَفْ
///٥	/٥/٥//٥	///٥	/٥/٥//٥
فعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن

صُوَرِيْ	أَشْبَاْحِوَصْ	ءُعَلَلْ	فَلَنْبُكَا
///٥	/٥/٥//٥	///٥	//٥//٥
فعلن	مستفعلن	فعلن	متفعلن

ابن خفاجة الاندلسي

في وصف الجبل

حمل العرب معهم حضارتهم الى الأندلس المفتوحة وذلك شأن العرب في كل مكان وزمـــان ، فهم لم يفتحوا بلداً إلا ساقوه الى التقدم والازدهار . إنهـم أصحاب رسالة إنسانية يحملونها في عقولهم وقلوبهم أينما ضربوا في الارض، وقد حملوا الى الاندلس عدلهم ونورهم فاذا هي قبلة الثقافة والعرفان .

وقد أنعم الله على الاندلس بطبيعة خـــلابة ملكت نفوس الشعراء فحثت قرائحهم على قول الشعر وغذّت قلوبهم فانطلقوا يعبّرون عن افتتانهم بها فقال شاعرنا ابن خفاجة :

يا أهلَ أندلسٍ للهِ دَرُّكُمُ ماءٌ وظل وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنةُ الخلدِ إلا في دياركمُ ولو تخيَّرتُ ، هذا كنتُ أختارُ

ومنهم من اندمج في الطبيعة فاذا هي ظل روحه ، وصورة نفسه ، تكون كئيبة إذا كانت نفسه حزينة ، ومبتسمة اذا فرح وسَعِد .

وفي هذا النص الذي سنعرضه عليك لون من ذلك فقد نفـخ الشاعر من روحه في الجبل فـــاذا هو كئيب قد ملّ البقاء على ظهر الفلاة ، قـد ودّع أصحابه ، وهو قائم منتصب يرعى النجوم ويرقب أفولها وتجاوز الثمانين فملّ الحياة . إن الجبل قد صوّر نفس الشاعر في حزنها هذا وعبّر عنهـا في هذه

الأبيات التي هي لأبي اسحق ابراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله بن خفاجة، وُلد سنة ٤٥٠هـ. في جزيرة من جزر الأندلس بل جنة من جناتها هي جزيرة شُقْر من أعمال بلنسية . وهو فرع شجرة رويت بالعلم والادب فارتوى الفرع من الأصل، وسرعان ما انجلت مواهبه ولمع نجمه واشتهر بين الشعراء واتجه شعره الى تصوير الطبيعة الجميلة من حوله . وقد سافر الى عدوة المغرب ومدح علي ابن يوسف بن تاشفين ووزراءه ، واشتد شوقه الى وطنه الجميل فرجع إليه. وقد كان ينفق ما يناله من عطايا في مُتعه ومسراته ، وفي آخر حياته كف عن ذلك وهام على وجهه بين الوديان والجبال مذهولاً وظل على هذه الحالة حتى توفي سنة ٥٣٣ هـ.

أثاره وقيمتها : لابن خفاجة ديوان شعر أكثره في المديح . وهو في مديحه ينهج نهج الشعراء قبله ، معجباً بألوان البديع والمبالغات . وأهم ما يتميز به ابن خفاجة وصف الطبيعة ، ويتسم هذا الوصف بالتشخيص والتصوير لمباهجها. ولا يبدو للتجديد أثر عنده إلا في طرافة الخيال وبراعة التصوير. فالمعاني والصور مشرقية لكنها معادة في معارض جديدة ، لكننا لا نفكر أنه قد برع في وصفها كما برع ابن زيدون وغيرهما من شعراء الطبيعة ، أعانهم على ذلك جمال المنظر ، وروعة المظهر .

النص :

وأرعنَ طمّاحِ الذؤابَةِ باذخٍ   يُطاولُ أعنانَ السماء بغاربِ [1]
يسُدُّ مهبَّ الريحِ من كل وجهةٍ   ويزحَمُ ليلاً شُهْبَه بالمناكب [2]
وقورٌ على ظهر الفلاةِ كأنه   طِوالَ الليالي مُفكرٌ في العواقب

---

١ – الأرعن : الجبل الطويل . طماح : مرتفع . ذؤابته : أعلاه . أعنان السماء : نواحيها. الغارب : ظهره ، وأصل الغارب ما بين عنق البعير وسنامه .

٢ – المناكب : جمع منكب : وهو مجتمع رأس الكتف بالعضد .

يلُوثُ عليه الغيمُ سودَ عمائم لها مِنْ وميض البرق حُمرُ ذوائب[1]
أصخْتُ إلِيه وهوأخرسُ صامتٌ فحدَّثني ليلَ السُّرى بالعجائب[2]
وقال إلِى كم كنتُ مَلْجأ قاتِلٍ ومَوْطِنَ أوَّاهٍ تبَتّل تائب[3]
وكم مَرَّ بي من مُدلجٍ ومؤوِّبٍ وقال بِظِلِّيْ من مطيٍّ وراكب[4]
ولاَطَمَ مِنْ نُكْبِ الرياح مَعاطفي وزاحم من خُضْرِ البحار غواربي[5]
فما كان إِلا أن طوتْهُم يد الرَّدى وطاحت بهم ريح النَّوى والنوائب[6]
فما خفقُ أيكي غيرُ رجفةِ أضلع ولا نوحُ وُرْقي غيرُ صَرْخَةِ نادبِ[7]
وما غيَّض السُّلوانَ دَمْعِي وإنما نزَفْتُ دُمُوعِي في فِراق الصواحبِ[8]
فحتى متى أُبْقي ويظعنُ صاحبٌ أودِّعُ منه راحلاً غير آيب؟
وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ؟[9]

---

١ – يلوث : يلف . ذوائب : أطراف .
٢ – أصخت : استمعت . ليل السرى : أي استمر يحدثني طول الليل .
٣ – الأواه : الراهب يتعبد في الجبل ، تبتل : انقطع الى عبادة الله .
٤ – المدلج: من سار الليل كله او في آخره . مؤوب: راجع، عائد. قال بظلي: نام في ظلي ظهراً.
٥ – نكب : جمع نكباء وهي الريح تهب بين مهب الريحين . معاطفي وغواربي : جوانبي وظهري . خضر البحار : المراد بها السحب .
٦ – ريح النوى : ريح الفراق .
٧ – خفق أيكي : تحرك أشجاري واهتزازها . رجفة الأضلع : اضطرابها . الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة .
٨ – غيض السلوان : نقصه وقلله . نزفت دموعي : سكبتها بكثرة .
٩ – أرعى الكواكب : أبيت ساهراً أرقبها .

فرُحماكَ يا مولاي دعوةَ ضارعٍ يَمُدُّ إلى نعماكَ راحَةِ راغبِ
فأسْمَعَني من وَعظه كلَّ عبرة يُتَرجمُها عنه لسانُ التجاربِ
فسلَّى بما أبكى وسرَّى بما شجا[1] وكان على عهد السُّرى خير صاحب
وقلتُ وقد نكَّبْتُ عَنْه لِطيَّةٍ سلامٌ فإنا من مُقيم وذاهِبِ[2]

الأفكار الرئيسية

١ – هيئة الجبل وتصويره حيّاً وقوراً لا يضطرب ولا يتزعزع ... الخ
٢ – حديث الجبل ووعظه .
٣ – تسلي الشاعر بما سمع من عبر وتحيته الأخيرة تحية الراحل للمقيم .

التحليل:

يقف الشاعر إزاء الجبل كأنه مع إنسان حيّ وقور ثابت عجيب الحديث باذخ أشم ، ضخم لا حـد لضخامته يصد الريح أنى واجهته ويزاحم بمناكبه النجوم مهما ارتفعت ، جاثم على صدر الفلاة كأنما يفكر في العواقب ، وقـد لبس عمامـة سوداء ذوائبها الحمر من لمعان البرق الخاطف ، ثم ينصت الشاعر إلى ما سيلقيه الجبل عليه . فينطلق لسانه وهو الأخرس الصامت ليحدثـه في ليل السُّرَى حديثاً عجيباً .

ب – وإذا حديثه قصة إنسان سئم الحياة ، ومل البقاء وذلك الخلود الذي لا غاية وراءه .

---

١ – شجا : أحزن .
٢ – نكبت عنه : عدلت وتنحيت . لطية : لحاجة، والمراد هنا السفر .

ان حوادث الدهر قد عبثت به ، فكثيراً ما احتمى به القتلة الفارون من وجه العدالة ، وكم كان ملجأ العابدين الزاهدين في الدنيا والناس .

وقد مرّ به كثير من السائرين ليلاً ونهاراً : هذا رجع من سفره ، وذاك لجأ الى حصنه ليستظلّ بظله في منتصف النهار ، وليستريح هو ومطيته في رحابه، أما الريح الهوج فكم عصفت به من كل ناحية فلم تزحزحه قيد أنملة ، وأما السحب الخضر فكم هطلت وابلا على ذراه فما أثرت فيه وما ضرته ، وها هي ذي يد الموت المفترسة التي لا يفلت منها أحد تطوي كل شيء وتتركه هو ، ويبقى هو وحيداً متألماً ، وما هذا الذي تراه من خفق الأشجار ، ونوح الحمائم الا ارتجاف أضالعه ، وصرخاته على مصير البشر . انه لم ينس أحداً من أصدقائه الذين ذهبوا واحداً إثر الآخر فإذا ما نضبت دموعه فما ذاك إلا لأنه نزفها في فراقهم .

ثم يقول وقد انتابه السأم والضجر مستبطئاً نهايته : الى متى يمتد بي الأجل وأصحابي قد طواهم الدهر ؟ ألا سبيل الى هذه النهاية التي يتمناها ؟ ما أشقاني إذاً بهذا البقاء! ثم يمد يده متضرعاً متذللاً طالباً الفناء وعسى أن يستجاب له.

ج – وأخيراً يختم الشاعر قصيدته بأن وعظ الجبل الذي كشف عن خبرة طويلة كان له خير صاحب في مسراه ، سلاّه ببكائه ، وسرّى عنه بهذه الأحزان التي قصّها عليه ، فحمل اليه العزاء والسُّلوان . ثم يلقي عليه التحية ليواصل السير في طرق الحياة الى أن تطويه يد الموت .

التعليق والنقد

تميزت هذه القصيدة بالتشخيص والتصوير الذي أفرغه الشاعر على الجبل ، فاذا هو انسان يفكر وينطق ويعظ وترتجف أضالعه ، ويندب مصير رفاقه ، ويذرف الدمع مدراراً لفراقهم ويتألم ويكتئب لبقائه الدائم ، ويتضجر لوجوده وحده يرقب طلوع النجوم وأفولها . وقد صبغ الشاعر القصيدة

بروحه فانعكست عليها نفسيته القلقة التي دبت فيهـــا الشيخوخة ، فقوست السنون ظهره وأعشت بصره ، ودبّت في نفسه روح الملل والضجر فـاكتأب من البقـــاء العابث ، وقد فـــارقه أصحابه وودعوه الوداع الاخير ، فشعر بتفاهة الحياة .

وفي القصيدة قوة الخيال ، وازدحام الصور ، فنحن لا نكاد نجـــد معنى عارياً من ثوب الخيال ، أو مجرداً من التوشية والتنميق .

فالجبل شيخ معمّم ، جليل ، طويل الجسم ، يعـــلو بذوائبه في أجواز الفضاء ، يزحم بمنكبيه النجوم ، ويصد الريح ، بارع البيان على صمته ، يتحدث فيسرّي ، ويعظ فيفيد ، وللردى يد وللتجارب لسان يترجم عن الجبل .

وبين « النوى والنوائب » جناس ناقص . وفي « قاتل وأواه » و « ومدلج ومؤوّب » و « أبقى ويظعن » و « راحل وآيب » طباق ، وكذلك « مقـــيم وذاهب » . وبين « سلـّى وسرّى » : جناس ناقص . وهكذا زخرت القصيدة بالصور والتصنيـع .

ولعلنا لا نكون مبالغين اذا قلنا : إن حالة القلق والضجر التي أفرغهـــا الشاعر على الجبل جاءت حارّة ، قد أعارها الشاعر وجـــدانه المتقد ، فغطى ذلك كل عيب ، وعُدّت القصيدة لونـــاً جديداً في الأدب العربي ، برع فيه ابن خفاجة ، وتفوّق على السابقين .

والقصيدة من البحر الطويل وتقطع البيت الاول هكذا :

وأرْع نطمماحذ   ذؤاب تباذِخن   يطاو   لأعنانس   سماء   بغارب

ه//ه// /د// ه/ه/ه// /ه// ه//ه// ه/ه// ه/ه/ه// /ه//

فعول مفاعيلن فعول مفاعلن فعول مفاعيلن فعول مفاعلن

موضوعات للبحث

١ – مثلت قصيدة ابن زيدون الماضي بأحلامه وابتساماته ، والحاضر بآلامه وأحزانه .
وضح واستشهد .

٢ – بدا تصوير الطبيعة في كل من شعر ابن زيدون وابن خفاجه فكيف ذلك؟
بيّن ذلك بشيء من التفصيل مستدلاً على ما تقول بالأمثلة .

٣ – كان لضياع مجد العرب في الأندلس أثر في نفوس الشعراء أثار عواطفهم وحرك مشاعرهم فعزفوا ألحاناً مؤثرة مؤلمة وأجادوا هذا العزف .
ناقش هذا الرأي على ضوء دراستك لقصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس موضحاً مستشهداً .

المراجع

الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
أدباء العرب في الاندلس	لبطرس البستاني
بلاغة العرب في الاندلس	لأحمد ضيف
تاريخ الفكر الاندلسي	ترجمة الدكتور حسين مؤنس

الموشحات

تعريفها : هي قصائد شعرية وضعت للغناء ، وهي تتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال لهذا الموشح « التام » ، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له « الأقرع » .

فالتام : ما ابتدىء فيه بالأقفال ، والأقرع ما ابتدىء فيه بالأبيات . والأقفال في الموشحة الواحدة على وزن واحد وقافية واحدة لا يجوز فيها التغيير ، ويسمى القفل الأخير من الموشح (خرجة) وقد استحسنوا أن تكون ملحونة الألفاظ .

وسمي هذا اللون بالموشح لما فيه من تزيين وصنعة فكان شبيهاً بوشاح المرأة الذي رصّع بالجواهر واللآلىء .

نشأتها ودوافعها : كانت الأندلس من أجمل بلاد الدنيا ، وأخصبها أرضاً ، وأعذبها مناخاً ، فأقبل العرب على ذلك الجمال والثراء ، على القصور والحمامات يشيدونها ويبدعون ما شاء لهم غناهم أن يبدعوا ، فإذا البساتين ينافس بعضها بعضاً ، واذا القصور تتسامى واذا السباع في ساحتها تقذف من أفواهها أعذب المياه وأصفاها، واذا في كل قصر ليالي سمر وغناء وأعواد وقيان تغني وتطرب، والشعب يتجاوب مع هذا الغناء منغمساً في لهو وترف ، والشعر الخفيف مادة الغناء يغذيه بظرفه وقرب مأخذه ، واذا هناك على ألحان هذا الغناء وذاك الطرب لون جديد من ألوان الشعر هو شعر الموشحات الذي نما بين

أحضان مجالس اللهو ، وعلى ألسنة المنشدين والمغنين حــراً طليقاً فأصبح فناً مستقلاً وضعت له أصول ومقاييس .

وأصح الآراء في أول من اخترع هذا الفن هو الرأي القائل بأنـه مقدَّم بن معُافـَى القـَبرْي (نسبة الى قرية قبرة) من شعراء الأندلس في عهد الأمـير عبدالله بن محمد المرواني الذي كانت خـلافته من ٢٧٥ هـ الى سنة ٣٠٠ هـ ، ثم أخذ عنه أبو عمر أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد .

ومنذ نهاية القرن الثالث الهجري ، والمحاولات في هـذا الفن قائمـة على أشدها ، الى أن جاء أبو بكر عبادة بن ماء السماء (لا عبادة القزاز كما يذكر ابن خلدون) فأصبح الموشح على يده فنـّاً له أسسه وقواعده وجماله، فناً قائماً بذاته .

وفي ذلك يقول ابن بَسـَّام صاحب « الذخيرة » :

وكان أبو بكر (عبادة بن ماء السماء) في ذلك العصر شيخ الصناعـة ، وإمام الجماعة، سلك الى الشعر مسلكاً سهلاً فقالت له غرائبه مرحباً وأهـلاً ، وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها غير مرموقة البرُود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا مُنآدها وقوَّم ميلها وسِنادها ، فكأنها لم تسمع بالأندلس الا منه ولا أخذت إلا عنـه ، واشتهر اشتهاراً غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته » .

ثم تتابع شعراء الموشح بعده كعبادة القزاز وابن اللبانة وغيرهما .

وينبغي أن تعـلم أن هذا الفن الجديد لم يحدث فجأة على هذه الصورة التي نراها بـل كانت هناك محاولات سابقة لم تلق تأييداً من المحافظين الذين شنوا عليها الغارة ، وعابوا أصحابها ، واعتبروا الموشح ظاهرة من مظاهر الانحطاط الأدبي إلا أن أهل الأندلس على الرغم من هـذا أقبلوا عليـه واستساغوه ، لأنه يلائم حياتهم اللاهية .

هيكلها : يتألف الموشح مما يأتي :

١ — البيت : ويتألف من عدة أشطر لا من شطرين ، وكل بيت من أبيات

الموشحة ينقسم الى قسمين: الغصن والقفل .

فالغُصن مجموعة من الاشعار تتغير قوافيها في كل بيت، ويجب ألا يقل عدد الأشطر عن ثلاثة وألا يزيد على خمسة ويسمى الغصن (بالدور) .

القفل : وهو شطران أو أكثر الى ثمانية أو عشرة ، وقد أوصله ابن سناء الملك الى أكثر من ذلك .

والأشطار متحدة القافية في جميع الموشحة .

الخرجة : وهي آخر قفل في الموشح ، ويفضل الوشاحون ان تكون عامية لبعث الفكاهة والظرف الا في المديح وبخاصة اذا ذكر اسم الممدوح فيحسن ان تكون معربة ، وهذا النوع المعرب قليل .

ويجعل الوشاحون الخرجة، في الغالب، على ألسنة الصبيان والنساء والسكارى أو على ألسنة الحيوانات كالحمام، ويمهدون لها بكلمة قال أو غنى أو ما يقارب ذلك كقول عبادة :

ان الحمام في أيكها تشدو

قل هل عُلِمْ ، أو هل عُهِد ، أو كان كالمعتصم ، والمعتضد ، مَلِكَان

ولما كان الاندلسيون قد نظموا الموشح من أجل اللهو والغناء فليس عجباً ان نراهم لا يتقيدون بالأوزان الشعرية تقيداً تاماً لأن عدم التقيد بالوزن يضفي عليه جمالاً وبهجة. وليس عجزاً منهم ان يخرجوا عن الوزن ولكنهم أرادوا ذلك حتى لا يتنافى مع روح الموشح الخاضع للتلحين والغناء ، وليس معنى ذلك أنهم تحللوا تماماً من الوزن ، فقد قدموا لنا موشحات على الأوزان العربية المعروفة لكنهم عدوها مرذولة .

أغراضها : نظم الأندلسيون الموشحات في أكثر أغراض الشعر المعروفة ، وحلت الموشحات محل القصائد الشعرية في كثير من الموضوعات ، وكان أكثرها في الغزل ووصف مجالس اللهو والخمر ووصف الطبيعة ، كما نظمت في المدح بغية التكسب، ولأنها كانت وسيلة للاتصال بالأمير حين كانت تضم قصور الأمراء

مجالس اللهو والطرب ، فيجد الوشاح أو الشاعر الفرصة سانحة لإيصال مديحه للأمير أو لأي ممن قيلت فيه . وقد أجاد الشعراء في الموشحات التي تصف مجالس الطرب والأنس والطبيعة حيث كانت تصور الطبيعة بأزهارها وبلابلها وجداولها وكيف أنها ملتقى العشاق ومبعث الأنس والبهجة .

وقد قيلت الموشحات أيضا في الزهد والتصوف .

أشهر الوشاحين : كان في الأندلس وشاحون على جانب كبير من البراعة والعبقرية كأبي بكر عبادة بن ماء السماء وعبادة القزاز ، وابن اللّبانة ، والأعمى التطيلي ، وابن بَقيّ ، وابن باجة ، وأبي بكر بن زُهر ، وابن سهل ، ولسان الدين بن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك وغيرهم .

موضوعات للبحث

١ – الموشحات ثورة على شكل القصيدة التقليدية وعلى موضوعها .
ناقش هذا الرأي ووضحه .

٢ – كانت هناك في الأندلس دوافع وعوامل أدت إلى ظهور فن الموشحات التي أعطت لوناً جديداً أصيلاً للأدب العربي .
فما هذه العوامل وتلك الدوافع ،
وما هذا اللون التي أعطته للأدب العربي ؟

٣ – الزجل تطورٌ لفن الموشحات .
ناقش ، واستشهد ، ووضح .

المراجع

الفن ومذاهبه في النثر العربي — للدكتور شوقي ضيف
الشعر الأندلسي — لأميليو غرسيه غومس
الموشحات — لجميل سلطان
الرءوس — لمارون عبود
مقدمة ابن خلدون ، الفصل الخمسون
تاريخ الفكر الأندلسي — لآنخل جنثالث بالنثيا ترجمة حسين مونس

عصور الادب، وفي بلاط المتوكل بن الافطس في بَطَلْيوس غربي قرطبة، وكان من اكبر شخصيات هذه الدويلة ، وأصله من (يابُرة) ثم قدم على المتوكل وحظي عنده ، وصار له صاحباً ورفيقاً ، وأقامه كاتباً له . وكان اعجوبة في النظم والنثر حتى قالوا : « هذا اديب الاندلس وامامها وسيدها في علم الآداب ، هذا ابو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الاغاني ، وما حفظه في ذكاء خاطره ، وجودة قريحته » .

وقد توفي سنة ٥٢٠ هـ ، وقيل سنة ٥٢٩ هـ .

وقد خلّف لنا ابن عبدون أشعاراً وآثاراً كثيرة كالرسالة التي كتبها عن لسان سير بن بكر بن تاشفين الى علي بن يوسف بن تاشفين يخبره فيها بفتح مدينة (سنترين) ورسائل اخرى متعددة .

وهذه القصيدة التي سندرسها دفعت الكثيرين من الأدباء الى وضع المؤلفات في شرحها والتعليق عليها .

النص :

الدهرُ يفجعُ بعد العين بالأثرِ فما البكاء على الأشباح والصُّورِ [1]

فلا تغرَّنْكَ من دنياكَ نَوْمَتُها فما صِناعةُ عينيها سِوَى السَّهَرِ

ما لليالي أقالَ اللهُ عَثْرَتنا مِنَ اللَّيالي وخانتْها يَدُ الْغِيَرِ [2]

تَسُرُّ بالشيء لكن كي تَغُرَّ به كالأيم ثارَ إلى الجاني من الزَّهَرِ [3]

كم دولةٍ وَلِيَتْ بالنَّصر خدمتها

لم تُبْقِ منها — وَسَلْ ذكراكَ — مِنْ خبرِ

---

١) بعد العين : بعد ذهاب الاصل . ٢) ما لليالي : عجباً لها. أقال عثرتنا : نجانا منها .
٣) الأيم : الثعبان الأبيض .

هَوَتْ بِدارَا وفلَّتْ غربَ قـــاتِله
وكان عَضباً على الأملاكِ ذا أُشُرِ [1]

واسترجعت من بني ساسان ما وهبَتْ
ولم تدعْ لبني يُونـــانَ مِنْ أثَرِ [2]

بني المظفَّر والأيامُ ما بَرِحتْ مراحلاً والورى منها على سَفَرِ [3]

سُحْقا ليومكمُ يوماً ولا حَملَتْ بمثله ليلةٌ في مُقبِلِ العُمُرِ

مَنْ للبراعةِ أو مَنْ لليَراعَةِ أو مَنْ للسَّماحةِ أو للنَّفع والضَّرَرِ [4]

ويحَ السَّماحِ وويْحَ البأس لو سلِمَا
واحسرة الدين والدنيـــا على عُمَرِ [5]

سَقتْ ثرى الفضل والعبَّاسِ هاميةٌ
تعْزى إِليهم سماحـــا لا إِلى المطرِ [6]

أينَ الجلالُ الَّذي عمَّت مَهابتُه قُلوبَنا وعيُونَ الأنجُم الزُّهُرِ [7]

---

١) دارا : أحد ملوك الفرس . غرب : حد . العضب : السيف القاطع . الأملاك : الملوك . ذا أشر : ذا حدة ومضاء . ٢) بنو ساسان : ملوك الفرس قبل الاسلام . بنو يونان : ملوك اليونان . ٣) بنو المظفر : ملوك بني الأفطس . ٤) البراعة : المهارة . اليراعة : القلم . السماحة : الكرم . ٥) ويح : كلمة رحمة . عمر : هو عمر بن المظفر آخر بني الأفطس بالأندلس وهو الذي حاصره المرابطون وقتلوه مع ولديه الفضل والعباس المذكورين في البيت التالي.
٦) هامية : سحابة ممطرة . تعزى اليهم : تنسب اليهم . ٧) الأنجم الزهر : النجوم المنيرة .

كانوا رواسيَ أرض الله مُنْذُ مضَوا عنها استطارت بمن فيها ولم تَقِرِ[1]
مَنْ لي ومَنْ لهمُ إن أظلمت نُوَبٌ ولم يكن ليلُها يُفضي إلى سَحَرِ[2]
على الفضائل إلا الصبرَ بعدهمُ سلامُ مُرتقبٍ للأجر منتظرِ[3]

الأفكار الرئيسية

١ – الحكم البالغة التي تدور حول الدنيا الفانية وما جُبلت عليه من أذى وشر ، والاعتبار بالتاريخ وذكر أخبار الماضين وانقراض الدول واندثار المدن وفناء العظماء .

٢ – رثاء بني المظفر .

التحليل

أ – يستهل الشاعر ابن عبدون مرثيته بمطلع جميـــل في الحكمة والاعتبار يشير فيه إلى طبيعة الكون وسنة الحياة ، وأن الدنيا جُبلت على النقص والفناء فلا راحة للإنسان .

ويبدو أنه قد طاب للشاعر الحزين العزف على هذا الوتر الشجيّ فراح يقلب ذلك المعنى على وجوه متعددة في سائر أبيات الفكرة الأولى بعظات وعبر بالغة. فطبيعة الدهر عدم الكف عن فجائعه ، فلا جدوى من البكاء على بقايا الاطلال ما دام لا يُرجع أصلاً ، فلا تغترّ بالدنيا إذا وجدت منها مسالمة، فإنما هي ساهرة ترقب الفرصة للانقضاض عليك. ثم يستنطق الشاعر التاريخ الغابر ويسأله عما حلّ بالماضين أولي البأس والسلطان من ملوك الفرس ، وقياصرة اليونان، ويسأله عن

١) الرواسي : الجبال الثابتة . استطارت : خفت واضطربت . لم تقر : لم تسكن وتهدأ .
٢) من لي : من أعتمد عليه بعدهم . نوب : مصائب . يفضي ، ينتهي . السحر: قبيل الفجر .
٣) مرتقب : منتظر .

مصير ما بنوا من ملك عريض ، ومجد فخم فإذا هم جميعاً وما ملكوا في ذمة الدهر ، طواهم الزمن في غياهبه فأصبحوا اثراً بعد عين . وقد ترك الشاعر نفسه على سجيتها في هذه الابيات فلم يتصنع ولم يتكلف .

ب – وفي الفكرة الثانية يدخل الشاعر في صُلْب موضوعه فيخبرنا بنكبة بني المظفَّر ، والخسارة التي عمَّت بفقدهم قائلاً إن الأيام مراحل يقطعها الناس في سفرهم إلى نهاية آجالهم ، فبعداً لهذا اليوم المشئوم الذين نكبوا فيه ! ثم يقول لا أرانا الله مثيلاً له في المستقبل . إن الخسارة بفقدهم جسيمة فمَنْ بعدهم يقوم بما قاموا به من كرم وحسن سياسة وتدبير أمور ، ونفع الناس بالمروءة ، وإلحاق الضرر بالاعداء ، فرحم الله هذه الشجاعة وذلك الكرم بل هذه الصفات كلها . فما أشد حسرة الدين والدنيا على عُمَر امير هذه الدولة . إني أدعو ربي أن يشملهم برحمته، وأن يسقي قبورهم سحابة هامية من سحائب كرمهم الفياض . أين ما كان لهم من عظمة ومهابة كانت تخشع لها قلوبنا وتدركها نجوم السماء ؟ لقد كانوا للأرض كالجبال الرواسي فلما مضوا اضطربت أحوالها ولم تستقر الأمور فيها ، فمن بعدَهُمْ يكون عوناً لنا إذا واجهتنا الأيام بنوائب لا انجلاء لها ! فسلام على كل الفضائل من بعدهم وليس لي إلا الصبر الذي نرتقب ثوابه .

التعليق والنقد

رثاء الممالك الزائلة والمدن المفجوعة موضوع طريف في شعرنا القديم يرتبط بأحداث جسام ألمت بالعرب ، وكان له نصيب وافٍ في بلاد الأندلس حيث تقلص ظل العرب شيئاً فشيئاً عن هذه البلاذ العظيمة والجنة المفقودة .

لقد رأينا ما يشبه ذلك الموضوع في سينية البحتري التي ندب فيها الشاعر إيوان الأكاسرة ووصفه أروع وصف متطرقاً إلى ماضيهم معتبراً بتاريخهم ، كما رثى ابن الرومي مدينة البصرة التي تعرضت لثورة الزنج .

ولقد مهد الشاعر لقصيدته بباقة طيبة من الحكم البالغة التي تدور حول

هذه الدنيا الفانية ، وما جُبلت عليه من اذى وشر .وتتجلى في الحكم بل في ابيات القصيدة سماتُ التشاؤم القاتمة التي تطل من ثنايا كل كلمة ، وتضفي على الابيات طابعاً شجياً حزيناً ربما كان من اهم عوامل اعجابنا بالقصيدة . أما الاعتبار بالتاريخ وذكر أخبار الماضين واندثار المدن وانقراض الدول وفناء العظماء فتلك ظاهرة عُنيَ بها شعراء الإندلس ، وإن كنا نجد لها جذوراً في القرآن بصدد حديثه عن عاد وثمود وذكر اساطير الاولين وسير الانبياء والمرسلين وما يتصل بذلك من الاخبار، وكذلك نجد في القرآن الحديث الشجي عن الدنيا وأعراضها الزائلة .

وأما اسلوب الشاعر فهو اسلوب سهل ينساب الى النفس بيسر وعذوبة ، وقد ترك الشاعر نفسه على سجيتها مع بعض عناية بالزخرفة والتنميق والصور الخيالية على عادة الاندلسيين الذين ولعوا بذلك .

اما المعاني فغير مبتكرة ولا عميقة، إذ ان اكثرها مطروق ومعروف : أين الجلال، وأين و ... ومن للبراعة ... ومن ...

ولولا تسربل الافكار بالثوب العاطفي لما وجدنا فيها جديداً. على ان في القصيدة خطة منطقية سليمة حين مهد الشاعر بأبيات في الاعتبار ثم انتقل إلى الموضوع .

والقصيدة من البسيط : وتقطيع البيت الأول منها .

ادْدَهْرُيَفْـ	ـجَعُبَعْـ	ـدَلعَيـنِبْـلـ	أَثَرِيْ
/ه/ه//ه	///ه	/ه/ه//ه	///ه
مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فعلن

ـفَمَلْـبُـكا	ءُعَلَـلْ	أَشْبَاْحِوَصْـ	ـصُوَرِيْ
//ه//ه	///ه	/ه/ه//ه	///ه
متفعلن	فعلن	مستفعلن	فعلن

ابن خفاجة الاندلسي

في وصف الجبل

حمل العرب معهم حضارتهم الى الأندلس المفتوحة وذلك شأن العرب في كل مكان وزمـــان ، فهم لم يفتحوا بلداً إلا ساقوه الى التقدم والازدهار . إنهـم أصحاب رسالة إنسانية يحملونها في عقولهم وقلوبهم أينما ضربوا في الارض، وقد حملوا الى الاندلس عدلهم ونورهم فاذا هي قبلة الثقافة والعرفان .

وقد أنعم الله على الاندلس بطبيعة خـــلابة ملكت نفوس الشعراء فحثت قرائحهم على قول الشعر وغذّت قلوبهم فانطلقوا يعبّرون عن افتتانهم بها فقال شاعرنا ابن خفاجة :

يا أهلَ أندلسٍ للهِ دَرُّكمُ ماءٌ وظل وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنةُ الخلدِ إلا في دياركمُ ولو تخيّرتُ ، هذا كنتُ أختارُ

ومنهم من اندمج في الطبيعة فاذا هي ظل روحه ، وصورة نفسه ، تكون كئيبة إذا كانت نفسه حزينة ، ومبتسمة اذا فرح وسَعِد .

وفي هذا النص الذي سنعرضه عليك لون من ذلك فقد نفـخ الشاعر من روحه في الجبل فـــاذا هو كئيب قد ملّ البقاء على ظهر الفلاة ، قـد ودّع أصحابه ، وهو قائم منتصب يرعى النجوم ويرقب أفولها وتجاوز الثمانين فملّ الحياة . إن الجبل قد صوّر نفس الشاعر في حزنها هذا وعبّر عنها في هذه

الأبيات التي هي لأبي اسحق ابراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله بن خفاجة، وُلد سنة ٤٥٠هـ. في جزيرة من جزر الأندلس بل جنة من جناتها هي جزيرة شُقْر من أعمال بلنسية . وهو فرع شجرة رويت بالعلم والادب فارتوى الفرع من الأصل، وسرعان ما انجلت مواهبه ولمع نجمه واشتهر بين الشعراء واتجه شعره الى تصوير الطبيعة الجميلة من حوله . وقد سافر الى عدوة المغرب ومدح علي ابن يوسف بن تاشفين ووزراءه ، واشتد شوقه الى وطنه الجميل فرجع إليه. وقد كان ينفق ما يناله من عطايا في مُتعه ومسراته ، وفي آخر حياته كف عن ذلك وهام على وجهه بين الوديان والجبال مذهولاً وظل على هذه الحالة حتى توفي سنة ٥٣٣ هـ.

أثاره وقيمتها : لابن خفاجة ديوان شعر أكثره في المديح . وهو في مديحه ينهج نهج الشعراء قبله ، معجباً بألوان البديع والمبالغات . وأهم ما يتميز به ابن خفاجة وصف الطبيعة ، ويتسم هذا الوصف بالتشخيص والتصوير لمباهجها. ولا يبدو للتجديد أثر عنده إلا في طرافة الخيال وبراعة التصوير. فالمعاني والصور مشرقية لكنها معادة في معارض جديدة ، لكننا لا ننكر أنه قد برع في وصفها كما برع ابن زيدون وغيرهما من شعراء الطبيعة ، أعانهم على ذلك جمال المنظر ، وروعة المظهر .

النص :

وأرعنَ طمّاحِ الذؤابَةِ باذخٍ يُطاولُ أعنانَ السماء بغاربِ [1]

يسُدُّ مهبَّ الريحِ من كل وجهةٍ ويزحَمُ ليلاً شُهْبَه بالمناكبِ [2]

وقورٌ على ظهر الفلاةِ كأنه طِوالَ الليالي مُفكرٌ في العواقب

---

١ – الأرعن : الجبل الطويل . طماح : مرتفع . ذؤابته : أعلاه . أعنان السماء : نواحيها. الغارب : ظهره ، وأصل الغارب ما بين عنق البعير وسنامه .

٢ – المناكب : جمع منكب : وهو مجتمع رأس الكتف بالعضد .

يلُوثُ عليه الغيمُ سودَ عمائم لها مِنْ وميض البرق حُمرُ ذوائب[1]
أصخْتُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ فحدَّثني ليلَ السُّرى بالعجائب[2]
وقال إلى كم كنتُ مَلْجأ قاتِلٍ ومَوْطِنَ أوّاهٍ تبتَّل تائب[3]
وكم مرَّ بي من مُدلجٍ ومؤوِّبٍ وقال بِظلِّيْ من مطيٍّ وراكب[4]
ولاَطَمَ مِنْ نُكْبِ الرياح مَعاطفي وزاحم من خُضْرِ البحار غواربي[5]
فما كان إلا أن طوتْهم يد الرّدى وطاحت بهم ريح النَّوى والنوائب[6]
فما خفقُ أيكي غيْرُ رجفةِ أضلع ولا نوحُ وُرْقي غيرُ صَرْخةِ نادب[7]
وما غيَّض السُّلوانَ دَمْعي وإنما نزَفْتُ دُمُوعي في فِراق الصواحب[8]
فحتى متى أبْقى ويظعنُ صاحبٌ أودِّعُ منه رائحاً غير آيب؟
وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ؟[9]

---

١ – يلوث : يلف . ذوائب : أطراف .
٢ – أصخت : استمعت . ليل السرى : أي استمر يحدثني طول الليل .
٣ – الأواه : الراهب يتعبد في الجبل ، تبتل : انقطع الى عبادة الله .
٤ – المدلج: من سار الليل كله او في آخره . مؤوب: راجع، عائد. قال بظلي: نام في ظلي ظهراً.
٥ – نكب : جمع نكباء وهي الريح تهب بين مهب الريحين . معاطفي وغواربي : جواني وظهري . خضر البحار : المراد بها السحب .
٦ – ريح النوى : ريح الفراق .
٧ – خفق أيكي : تحرك أشجاري واهتزازها . رجفة الأضلع : اضطرابها . الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة .
٨ – غيض السلوان : نقصه وقلله . نزفت دموعي : سكبتها بكثرة .
٩ – أرعى الكواكب : أبيت ساهراً أرقبها .

فرُحماكَ يا مولاي دعوةَ ضارع يَمُدُّ إلى نعماكَ راحَةِ راغِبِ
فأَسْمَعَني من وَعظه كلَّ عبرة يُتَرجمُها عنه لسانُ التجاربِ
فسلّى بما أبكى وسرّى بما شجا وكان على عهد السُّرى خير صاحب[1]
وقلتُ وقد نكّبْتُ عَنْه لِطيَّةٍ سلامٌ فإنا من مُقيم وذاهِبِ[2]

الأفكار الرئيسية

١ – هيئة الجبل وتصويره حيّاً وقوراً لا يضطرب ولا يتزعزع ... الخ
٢ – حديث الجبل ووعظه .
٣ – تسلي الشاعر بما سمع من عبر وتحيته الأخيرة تحية الراحل للمقيم .

التحليل:

يقف الشاعر إزاء الجبل كأنه مع إنسان حيّ وقور ثابت عجيب الحديث باذخ أشم ، ضخم لا حد لضخامته يصد الريح أنى واجهته ويزاحم بمناكبه النجوم مهما ارتفعت ، جاثم على صدر الفلاة كأنما يفكر في العواقب ، وقد لبس عمامة سوداء ذوائبها الحمر من لمعان البرق الخاطف ، ثم ينصت الشاعر إلى ما سيلقيه الجبل عليه . فينطلق لسانه وهو الأخرس الصامت ليحدثه في ليل السُّرَى حديثاً عجيباً .

ب – وإذا حديثه قصة إنسان سئم الحياة ، ومل البقاء وذلك الخلود الذي لا غاية وراءه .

---

١ – شجا : أحزن .
٢ – نكبت عنه : عدلت وتنحيت . لطية : لحاجة، والمراد هنا السفر .

ان حوادث الدهر قد عبثت به ، فكثيراً ما احتمى به القتلة الفارون من وجه العدالة ، وكم كان ملجأ العابدين الزاهدين في الدنيا والناس .

وقد مرّ به كثير من السائرين ليلاً ونهاراً : هذا رجع من سفره ، وذاك لجأ الى حصنه ليستظلّ بظله في منتصف النهار ، وليستريح هو ومطيته في رحابه، أما الريح الهوج فكم عصفت به من كل ناحية فلم تزحزحه قيد أنملة ، وأما السحب الخضر فكم هطلت وابلا على ذراه فما أثرت فيه وما ضرته ، وها هي ذي يد الموت المفترسة التي لا يفلت منها أحد تطوي كل شيء وتتركه هو ، ويبقى هو وحيداً متألماً ، وما هذا الذي تراه من خفق الأشجار ، ونوح الحمائم الا ارتجاف أضالعه ، وصرخاته على مصير البشر . انه لم ينس أحداً من أصدقائه الذين ذهبوا واحداً إثر الآخر فإذا ما نضبت دموعه فما ذاك إلا لأنه نزفها في فراقهم .

ثم يقول وقد انتابه السأم والضجر مستبطئاً نهايته : الى متى يمتد بي الأجل وأصحابي قد طواهم الدهر ؟ ألا سبيل الى هذه النهاية التي يتمناها ؟ ما أشقاني إذاً بهذا البقاء! ثم يمد يده متضرعاً متذللاً طالباً الفناء وعسى أن يستجاب له.

ج – وأخيراً يختم الشاعر قصيدته بأن وعظ الجبل الذي كشف عن خبرة طويلة كان له خير صاحب في مسراه ، سلاّه ببكائه ، وسرّى عنه بهذه الأحزان التي قصّها عليه ، فحمل اليه العزاء والسُّلوان . ثم يلقي عليه التحية ليواصل السير في طرق الحياة الى أن تطويه يد الموت .

التعليق والنقد

تميزت هذه القصيدة بالتشخيص والتصوير الذي أفرغه الشاعر على الجبل ، فاذا هو انسان يفكر وينطق ويعظ وترتجف أضالعه ، ويندب مصير رفاقه ، ويذرف الدمع مدراراً لفراقهم ويتألم ويكتئب لبقائه الدائم ، ويتضجر لوجوده وحده يرقب طلوع النجوم وأفولها . وقد صبغ الشاعر القصيدة

بروحه فانعكست عليها نفسيته القلقة التي دبت فيهـــا الشيخوخة ، فقوست السنون ظهره وأعشت بصره ، ودبّت في نفسه روح الملل والضجر فـاكتأب من البقـــاء العابث ، وقد فـــارقه أصحابه وودعوه الوداع الأخير ، فشعر بتفاهة الحياة .

وفي القصيدة قوة الخيال ، وازدحام الصور ، فنحن لا نكاد نجـــد معنى عارياً من ثوب الخيال ، أو مجرداً من التوشية والتنميق .

فالجبل شيخ معمّم ، جليل ، طويل الجسم ، يعـــلو بذوائبه في أجواز الفضاء ، يزحم بمنكبيه النجوم ، ويصد الريح ، بارع البيان على صمته ، يتحدث فيسرّي ، ويعظ فيفيد ، وللردى يد وللتجارب لسان يترجم عن الجبل .

وبين « النوى والنوائب » جناس ناقص . وفي « قاتل وأواه » و « ومدلج ومؤوّب » و « أبقى ويظعن » و « راحل وآيب » طباق ، وكذلك « مقـــيم وذاهب » . وبين « سلـّى وسرّى » : جناس ناقص . وهكذا زخرت القصيدة بالصور والتصنيـع .

ولعلنا لا نكون مبالغين اذا قلنا : إن حالة القلق والضجر التي أفرغهـــا الشاعر على الجبل جاءت حارّة ، قد أعارها الشاعر وجـــدانه المتقد ، فغطى ذلك كل عيب ، وعُدّت القصيدة لونـــاً جديداً في الأدب العربي ، برع فيه ابن خفاجة ، وتفوّق على السابقين .

والقصيدة من البحر الطويل وتقطع البيت الاول هكذا :

وأرْع نطمحاذ ذؤاب تباذِخن يطاو لأعنانس سماء بغارب

o//o// //د/ o/o/o// /o// o//o// o/o// o/o/o// /o//

فعول مفاعيلن فعول مفاعلن فعول مفاعيلن فعول مفاعلن

موضوعات للبحث

١ – مثلت قصيدة ابن زيدون الماضي بأحلامه وابتساماته ، والحاضر بآلامه وأحزانه .
وضح واستشهد .

٢ – بدا تصوير الطبيعة في كل من شعر ابن زيدون وابن خفاجه فكيف ذلك؟
بيّن ذلك بشيء من التفصيل مستدلاً على ما تقول بالأمثلة .

٣ – كان لضياع مجد العرب في الأندلس أثر في نفوس الشعراء أثار عواطفهم وحرك مشاعرهم فعزفوا ألحاناً مؤثرة مؤلمة وأجادوا هذا العزف .
ناقش هذا الرأي على ضوء دراستك لقصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس موضحاً مستشهداً .

المراجع

الفن ومذاهبه في الشعر	للدكتور شوقي ضيف
أدباء العرب في الاندلس	لبطرس البستاني
بلاغة العرب في الاندلس	لأحمد ضيف
تاريخ الفكر الاندلسي	ترجمة الدكتور حسين مؤنس

الموشحات

تعريفها : هي قصائد شعرية وضعت للغناء ، وهي تتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال لهذا الموشح « التام » ، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له « الأقرع » .

فالتام : ما ابتدىء فيه بالأقفال ، والأقرع ما ابتدىء فيه بالأبيات . والأقفال في الموشحة الواحدة على وزن واحد وقافية واحدة لا يجوز فيها التغيير ، ويسمى القفل الأخير من الموشح (خرجة) وقد استحسنوا أن تكون ملحونة الألفاظ .

وسمى هذا اللون بالموشح لما فيه من تزيين وصنعة فكان شبيهاً بوشاح المرأة الذي رصّع بالجواهر واللآلىء .

نشأتها ودوافعها : كانت الأندلس من أجمل بلاد الدنيا ، وأخصبها أرضاً ، وأعذبها مناخاً ، فأقبل العرب على ذلك الجمال والثراء ، على القصور والحمامات يشيدونها ويبدعون ما شاء لهم غناهم أن يبدعوا ، فإذا البساتين ينافس بعضها بعضاً ، واذا القصور تتسامى واذا السباع في ساحتها تقذف من أفواهها أعذب المياه وأصفاها، واذا في كل قصر ليالي سمر وغناء وأعواد وقيان تغني وتطرب، والشعب يتجاوب مع هذا الغناء منغمساً في لهو وترف ، والشعر الخفيف مادة الغناء يغذيه بظرفه وقرب مأخذه ، واذا هناك على ألحان هذا الغناء وذاك الطرب لون جديد من ألوان الشعر هو شعر الموشحات الذي نما بين

أحضان مجالس اللهو ، وعلى ألسنة المنشدين والمغنين حـــراً طليقاً فأصبح فناً مستقلاً وضعت له أصول ومقاييس .

وأصح الآراء في أول من اخترع هذا الفن هو الرأي القائل بأنـه مقدَّم بن معُافَى القَبْرْي (نسبة الى قرية قبرة) من شعراء الأندلس في عهد الأمـير عبدالله بن محمد المرواني الذي كانت خـلافته من ٢٧٥ هـ الى سنة ٣٠٠ هـ ، ثم أخذ عنه أبو عمر أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد .

ومنذ نهاية القرن الثالث الهجري ، والمحاولات في هـذا الفن قائمـة على أشدها ، الى أن جاء أبو بكر عبادة بن ماء السماء (لا عبادة القزاز كما يذكر ابن خلدون)فأصبح الموشح على يده فنـاً له أسسه وقواعده وجماله، فناً قائماً بذاته .

وفي ذلك يقول ابن بَسَّام صاحب « الذخيرة » :

وكان أبو بكر (عبادة بن ماء السماء) في ذلك العصر شيخ الصناعـة ، وإمام الجماعة، سلك الى الشعر مسلكاً سهلاً فقالت له غرائبه مرحباً وأهـلاً ، وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها غير مرموقة البرُود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا مُنآدها وقوَّم ميلها وسِنادها ، فكأنها لم تسمع بالأندلس الا منه ولا أخذت إلا عنـه ، واشتهر اشتهاراً غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته » .

ثم تتابع شعراء الموشح بعده كعبادة القزاز وابن اللبانة وغيرهما .

وينبغي أن تعـلم أن هذا الفن الجديد لم يحدث فجأة على هذه الصورة التي نراها بـل كانت هناك محاولات سابقة لم تلق تأييداً من المحافظين الذين شنوا عليها الغارة ، وعابوا أصحابها ، واعتبروا الموشح ظاهرة من مظاهر الانحطاط الأدبي إلا أن أهل الأندلس على الرغم من هـذا أقبلوا عليـه واستساغوه ، لأنه يلائم حياتهم اللاهية .

هيكلها : يتألف الموشح مما يأتي :

١ – البيت : ويتألف من عدة أشطر لا من شطرين ، وكل بيت من أبيات

الموشحة ينقسم الى قسمين: الغصن والقفل .

فالغُصن مجموعة من الاشعار تتغير قوافيها في كل بيت، ويجب ألا يقل عدد الأشطر عن ثلاثة وألا يزيد على خمسة ويسمى الغصن (بالدور) .

القفل : وهو شطران أو أكثر الى ثمانية أو عشرة ، وقد أوصله ابن سناء الملك الى أكثر من ذلك .

والأشطار متحدة القافية في جميع الموشحة .

الخرجة : وهي آخر قفل في الموشح ، ويفضل الوشاحون ان تكون عامية لبعث الفكاهة والظرف الا في المديح وبخاصة اذا ذكر اسم الممدوح فيحسن ان تكون معربة ، وهذا النوع المعرب قليل .

ويجعل الوشاحون الخرجة، في الغالب، على ألسنة الصبيان والنساء والسكارى أو على ألسنة الحيوانات كالحمام، ويمهدون لها بكلمة قال أو غنى أو ما يقارب ذلك كقول عبادة :

ان الحمام   في أيكها تشدو

قل هل عُلِمْ ، أو هل عُهِد ، أو كان   كالمعتصم ، والمعتضد ، مَلِكَان

ولما كان الاندلسيون قد نظموا الموشح من أجل اللهو والغناء فليس عجباً ان نراهم لا يتقيدون بالأوزان الشعرية تقيداً تاماً لأن عدم التقيد بالوزن يضفي عليه جمالاً وبهجة. وليس عجزاً منهم ان يخرجوا عن الوزن ولكنهم أرادوا ذلك حتى لا يتنافى مع روح الموشح الخاضع للتلحين والغناء ، وليس معنى ذلك أنهم تحللوا تماماً من الوزن ، فقد قدموا لنا موشحات على الأوزان العربية المعروفة لكنهم عدوها مرذولة .

أغراضها : نظم الأندلسيون الموشحات في أكثر أغراض الشعر المعروفة ، وحلت الموشحات محل القصائد الشعرية في كثير من الموضوعات ، وكان أكثرها في الغزل ووصف مجالس اللهو والخمر ووصف الطبيعة ، كما نظمت في المدح بغية التكسب، ولأنها كانت وسيلة للاتصال بالأمير حين كانت تضم قصور الأمراء

مجالس اللهو والطرب ، فيجد الوشاح أو الشاعر الفرصة سانحة لإيصال مديحه للأمير أو لأي ممن قيلت فيه . وقد أجاد الشعراء في الموشحات التي تصف مجالس الطرب والأنس والطبيعة حيث كانت تصور الطبيعة بأزهارها وبلابلها وجداولها وكيف أنها ملتقى العشاق ومبعث الأنس والبهجة .

وقد قيلت الموشحات أيضا في الزهد والتصوف .

أشهر الوشاحين : كان في الأندلس وشاحون على جانب كبير من البراعة والعبقرية كأبي بكر عبادة بن ماء السماء وعبادة القزاز ، وابن اللبّانة ، والأعمى التطيلي ، وابن بَقيّ ، وابن باجة ، وأبي بكر بن زُهر ، وابن سهل ، ولسان الدين بن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك وغيرهم .

موضوعات للبحث

١ – الموشحات ثورة على شكل القصيدة التقليدية وعلى موضوعها .
ناقش هذا الرأي ووضحه .

٢ – كانت هناك في الأندلس دوافع وعوامل أدت إلى ظهور فن الموشحات التي أعطت لوناً جديداً أصيلاً للأدب العربي .
فما هذه العوامل وتلك الدوافع ،
وما هذا اللون التي أعطته للأدب العربي ؟

٣ – الزجل تطورٌ لفن الموشحات .
ناقش ، واستشهد ، ووضح .

المراجع

الفن ومذاهبه في النثر العربي	للدكتور شوقي ضيف
الشعر الأندلسي	لأميليو غرسيه غومس
الموشحات	لجميل سلطان
الرءوس	لمارون عبود
مقدمة ابن خلدون ، الفصل الخمسون	
تاريخ الفكر الأندلسي	لآنخل جنثالث بالنثيا ترجمة حسين مونس

ظبي الحمى

لابن سهل الاسرائيلي

لعل خير مثال نسوقه لك هو هذه الموشحة لأبن سهل أبي اسحق ابراهيم ابن سهل الإشبيلي من يهود إسبانيا(المستعربين) .

ولد ابن سهل سنة ٦٠٩ ه في خلافة أبي عبدالله محمد الناصر ابن الخليفة المنصور الموحدي في زمن آذنت فيه شمس الموحدين بالغروب ، فنشأ في ذلك الجو ، وشب في مدينة إشبيلية مدينة اللهو والغناء . وكان يهود الأندلس يتوفرون على دراسة العربية ، وإن لم يتخذوا الأسلام ديناً . فقد نظم ابن سهل الشعر قبل أن يسلم ، وقد درس النحو على أبي علي الشلوبيني وغيره من علماء إشبيلية الأعلام ، وخالط المسلمين في دروسه ومطالعاته حتى أتقن اللغة وآدابها ، ونظم الشعر .

ويعد ابن سهل من كبار الوشاحين الأندلسيين ، وأجمل شعره ما قاله في الغزل ، وعليه تقوم شهرته ، ومعظم غزله في شخص اسمه موسى. وقد اختُلف في موسى هذا فقال بعضهم إنه أراد النبي موسى فتغزل به على طريقة الصوفيين ، ويعزز هذا الرأي خلو غزله من الفحش ، ويرى البعض الآخر (ابن حيّان) أن هذا غير صحيح .

وغزله رقيق ناعم فيه عاطفة وتوجُّع وتذلل ، لا يستحي أن يستعذب الضيم في سبيل إرضاء الحبيب ، ولذا فقد قال فيه بعض المغاربة حين سئل عن

السبب في رقة نظمه « اجتمع فيه ذل العشق وذل اليهودية » .

وهذه الموشحة التي ستدرسها من أشهر موشحاته وقد عارضها لسان الدين ابن الخطيب بموشحته الشهيرة « جادك الغيث اذا الغيث همى » .

النص :

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمَى أنْ قد حَمَى
قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهُ عَـــن مَكْنَسِ
فهو في حَرٍّ وخَفقٍ مِثْلما لعبتْ ريح الصَّبا بالقَبَسِ

★

يا بدوراً أشرقت يوم النَوَى غُرَرًا تسلك بي نهجَ الغَرَرْ
ما لنفسي في الهوى ذنبٌ سوى منكمُ الحسنى ومن عيني النَّظرْ
أجتَنِي اللَّذَّاتِ مكلُومَ الجوى والْتذاذي من حبيبي بالفِكَرْ

★

كلما أشكوه وجْدِي بَسَما كالرُّبى بالعارضِ المنْبَجِسِ
إذْ يقيمُ القَطْرُ فيه مأتما وَهْيَ مِنْ بَهْجَتِها في عُرُسِ

★

أيُّها السائل عن جُرْمي لديْه لي جزاءُ الذنبِ وهْو المذنِبُ
أخذَتْ شمسُ الضحى من وجنتيه مَشرِقاً للشمس فيه مَغْرِبُ
ذهَبَ الدَّمْعُ بـــأشواقي إليه ولـــه خَدٌّ بلَحْظي مُذْهَبُ

★

يَنْبُت الوردُ بعُرْسي كُلَّمــا لاحظَتْهُ مقلتي في الخَلَسِ
ليت شِعْري أيُّ شيء حرَّما ذلك الوردَ عــلى المغْترِسِ

★

كلما أشكو إِليه حُرَقي غادرتْني مقلتاه دنِفَا
تركَتْ ألحاظُه منْ رمَقي أثرَ النَّمل على صُمِّ الصَّفا
وأنــا أشْكُرُهُ فيما بَقِي لستُ ألحاهُ على ما أتْلَفَا

★

فهو عندي عــادل إِن ظلما وعذولي نطقُــه كالخَرَسِ
لَيْس لي في الأمْرِ حُكمٌ بَعْدَما حلَّ من نَفْسي مَحَلَّ النَّفَسِ

التحليل

يتراءى الحبيب في نظر الشاعر ظبياً ، وقــد سكن هــذا الحبيب قلبه واستقل بــه وحده ، وجعله مأوى ينعم فيه ، في حين حرمه البهجة والنعيم فبات معذباً يخفق بالحب ، ويتأجج بنار الوجد كالريح تذكي النار اضطراماً .

وتمر أمام خاطر الشاعر الذكريات ويتذكر حبيبه بين أقرانــه يوم الفراق فيتمثل وجوهاً مشرقة جميلة كالبدور غير أنها أوردتــه موارد التهلكة ، ولا ذنب لقلبه في هذا الهوى سوى أنه متّع نظره بالجمال فضاع قلبه ، وطار لبه بعد هذه النظرة . وكل ما بقي له من ملذات بعد الفراق هو التفكر في الحبيب وتذكره . وهو في ذكرياته يتذكر كيف كان كلما يشكو إلى حبيبه مــا يكابده تبسم له ابتسامــة ساحرة كبسمة وجه الروابي ، وإشراقته غِبَّ نزول المطر عليه ، فكان حاله مع حبيبه كحال الغيث مع الرياض ، فالمطر ينهمر أدمعاً كأنما هو في مناحة ، والرياض مشرقة بهجة كأنمــا هي في عرس . ثم يتخيّل

الشاعر مستمعاً قـد تملكه العجب الذي يدفعه الى السؤال فيقول الشاعر : إنني المظلوم ولا بد من أن أتحمّل تبعة الظلم وجزاءه . ولا عجب في هـذا فللجمال عظمته وسلطانه ، إن شروق الشمس وغربها قـد استعارتا حمرتها من وجنتي الحبيب المتوردتين . ولقد كلفتُ به حباً ، وتأججت الأشواق في قلبي فانسكب الدمع يحمل وهج هذه الأشواق . إني كلما تطلعت إليـه بالنظر تورد خداه ، واتقدا بجمرة الخجل . الحبيب غَرْسٌ قد غرسته في روض المحبة ومع ذلـك فإن خديه يتوردان خجلاً كلما اختلست منه نظرة ، فكيف يحرم عـليّ التمتع بالورد وانا الذي غرسته وتعهدته ؟!

ثم يعود الشاعر مرة أخرى إلى الشكوى : فهو كلما أشقاه وهج الحب فجاء يشكو الحبيب ، نظر إليه حبيبه بعينيه الساحرتين فيتركه مريضاً هزيـلاً قد أضناه الحب . ومهما فعل الحبيب فليس عليه إلا أن يشكره على ما أبقى ولا سبيل إلى لومه على ما أتلف . وإن ظلمه لعدل ، وفي أذن الشاعر صمم عن كلام العذال ، ولن يكون في هذا حكم أو رأي آخر فقد استولى على نفسه وتربـع على قلبه ، وسكن مهجته .

التعليق والنقد

يتغزل الشاعر بمحبوبته فيعبر عن مظاهر حبـه ويبث الحبيب شكواه ونوازعه ، ويصف جمال حبيبه في هذه الموشحة التي جاءت تمثل معاني طَرقهـا الشعراء من قبل، فالحبيب كالظبي ، وقلبه كِناسٌ له ، والوجوه بدور ، والعين ساحرة ، والخد أحمر وقد أحرق الصدُّ قلبه ، وأضنى جسمه ، وأبكى عينه وقد فتكت به ألحاظ الحبيب ، وفي أذنه صمم عن سماع كلام العذول .

ولو رحنا نتلمس جديداً في المعاني فلن نخرج بشيء يذكر . لكن الشاعر لم يفته أن يستمد من الطبيعة الخلابة الساحرة بعض الصور مثل الروابي الخضر التي تبتهج بنزول المطر ، والورد الذي يفيض حمرة ونضرة ، غـير أنه أضاع

بهاءها بالتعمل والصنعة والزخرفة التي ألجأته إلى تكرار المعنى الواحد، وتكرار بعض الصور ، كتورد خد المحبوب حينما ينظر إليه .

وعاطفة الشاعر في هذه الموشحة عاطفة خاملة لا يبدو فيها توهُّج على الرغم من انه قد حدثنا عما انتابه بسبب الحب من حرقة الفؤاد وخفقان القلب وانهار الدمع، وتوقد الأشجان . وكانت عنايته بالزخرفة أكثر من عنايته بتبيان عشقه وولهه وتعلقه بمحبوبته .

وقد أكثر الشاعر من الصور البيانية فاستعار وكنى ، لكنها صور قديمة شائعة لم يَبْدُ فيها أثر للجِدّة والابتكار . وهو لم يكتف باستعارة هذه الصور الكثيرة بل أسرف في الصنعة أيضاً كما قلنا فجانس بين « حِمى وحَمى » ، و« غُرَر وغَرَر » و« نَفْس ونَفَس » ، وطابق بين « الشكوى والابتسام »، « ومأتم وعرس » ، « وشكر ولحا » ، « وعدل ، وظلم » ، و « نطق وخرس » .

وعنايته بالصنعة وتكلفه جعلا بعض الألفاظ غير منسجمة مع غيرها بل مع بيئة الشاعر نفسه .

وإلا فكيف تنسجم « انبجس » مع السحاب ، وكيف يذهب بأشواقه إليه ، وينبت الورد بالعُرس .

ثم في قوله « منكم الحسنى ومني النظر » هل نجد كلمة الحسنى قد عبرت تعبيراً حقيقياً عن الجمال ؟ ! إنها كلمة عامة غير دقيقة . والواقع الذي لا يمكننا صرف النظر عنه هو أن الشاعر حينما أسرف في الصنعة أضاع رونق المعنى وجمال الفكرة .

والموشحة من بحر الرمل وتقطيع المطلع هكذا :

هل درى ظبـ	يلحمى أن	قد حمى	قلب صَبْبِنْ	حللهو عن	مكنسي
/٥//٥/٥	/٥//٥/٥	/٥//٥	/٥//٥/٥	/٥//٥/٥	/٥//٥
فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلن	فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلن

النثر :

النقد الأدبي مظهر من مظاهر الرقي العقلي يجد فيه القارىء من اللذة ما يجده في الشعر الجيد ، وقد عُني الاندلسيون بهذا النثر .

وكان النثر أول عهدهم بالبلاد لا يعدو الخطب والرسائل الإدارية والسياسية لتدبير امور الدوله وإشعال الحماسة في الجند، وأطلقوا لفظ الكاتب على طبقتين: كاتب الرسائل ، وكاتب الذمام (الخراج). أما كاتب الرسائل فصاحب مكانة مرموقة ان كان مجيداً ، ولقب الكاتب لقب عظيم له . وان كان مقصراً فلا فائدة في ماله وجاهه ولا يمنعه ذلك من طعنه ونقده .

ولم تكن الحياة الاجتماعية قد استقرت بعد حتى تساعد على نُموّ ملكة الكتابة الفنية في الموضوعات الاجتماعية والخيالية . كذلك خفيت علينا صورة الكتابة الإخوانية والرسائل المستقلة لضياع الكتب التي ألّفها بعض كتاب هذه الفترة .

وكانت الكتابة في ذلك العهد، جَزْلة الأسلوب خالية من الصنعة والتكلف يفضّل فيها الإيجاز على الإطناب ، وكان اصحاب التوقيعات المختصرة هم المشهود لهم بالبلاغة في هذا الشأن ، وهذه صورة من التوقيعات كتبها أمية بن زيد، كاتب عبد الرحمن ، إلى بعض عماله يستقصره فيما فرط من عمله فيقول : « أما بعد فإن يكن التقصير لك مقدماً فعند الاكتفاء يكون مؤخراً ، وقد علمت بما قدمت ، فاعتمد على أيها أحببت » .

أما المرحلة الثانية ، أيام عهد الدولة العامرية، فقد ظهر فيها أكابر الكتاب ومنهم ابن برد الأكبر ، وعبد الملك الجزيري ، وابن درّاج ، وابن شهيد ، وابن حزم ، والحنّاط ، وابن حيان المؤرخ ، وابن زيدون .

وهي تفترق عن سابقتها بكثير. فقد تغيرت النصوص الشرقية والنماذج التي كانوا يحتذونها ، وأصبحت طريقة سهل بن هارون والجاحظ أولا ، ثم بديع الزمان ثانياً هما أعلى طريقة للكتاب .

وقد تميزت هذه المرحلة بالأطناب وعدم الميل إلى الإيجاز ، وكثر نقد الكتاب المقصرين ، وتميزت المذاهب النثرية وتنوعت الأساليب فأصبح لكل كاتب طريقة معينة بحيث يمكن للقارىء أن يعرف الخصائص الأسلوبية لابن دراج وابن شهيد وابن حيان وابن زيدون . واستقل النثر الأدبي في بعض حالاته عن الكتابة الديوانية ، وطرق موضوعات من الحياة التي يدور حولها الشعر وبخاصة الوصف، وكثر فيه الخيال، كما في رسائل ابن شهيد وبعض رسائل ابن برد الأصغر كرسالة المفاخرة بين السيف والقلم .

ثم كثرت في العصر التالي لهذا العصر العناية بالزخرفة والتوشية حتى في الرسائل الديوانية ، وأكثر ابن زيدون من الاقتباس والتلميح والإشارات ونثر الشعر كما ستراه في الرسالة الجدية التي ستدرسها له .

الخطابة : حينما دخل العرب الأندلس كانت الحاجة إلى الخطابة قوية وضرورية لأنها ترجمان حماسة النفوس ، وأمل القلوب ، فالقائد في حاجة إلى بث الحماسة في قلوب الجند ، والحاكم يلجأ اليها ليخمد ثورة قامت أو تمردا حصل ، والعرب يريدون تثبيت قواعد دينهم في بيئتهم الجديدة .

ولما استقرت الأحوال في البلاد ، وافتتن الناس بالطبيعة وانشغلوا باللهو والترف ، وأخلدوا إلى الراحة ضعفت دواعيها فضعف شأنها تدريجياً وانكمشت الخطابة منحصرة في المساجد . وما وصل إلينا من خطب في كتب الأدب يكشف لنا عن خطابة تفيض حيوية وقوة ومتانة ، وروعة وبلاغة في عهدها الأول ، لقرب عهد العقل العربي بموطنه الذي رحل منه . ثم انحط شأنها حين امتزج العرب بالعجم واهتم الخطباء بالمظهر ، وعنوا بالكلام المصطنع وبالعرض دون الجوهر .

موضوعات للبحث

١ – قارن بين النثر الأندلسي والنثر العباسي الثاني مبينـــاً أوجه المشابهة إن وُجدت وعوامل كل من النثرين مستشهداً على ما تقول بالأمثلة .

٢ – استعرض النثر في عصوره المختلفة وبين حالته في كل عصر. وضح ومثل.

٣ – ما الخصائص الفنية للنثر الأندلسي ؟ وما عواملها ؟

٤ – بين ميزات كل من نثر الدواوين والرسائل الإخوانية .

٥ – وضح خصائص الخطابة في الأندلس ، وبين مميزاتها .

المراجع

الفن ومذاهبه في النثر العربي	للدكتور شوقي ضيف
ظهر الاسلام	للدكتور أحمد أمين
أدباء العرب	لبطرس البستاني
تاريخ الفكر الأندلسي	ترجمة الدكتور حسين مؤنس
بلاغة العرب في الاندلس	لأحمد ضيف

عبد الرحمن الاوسط

في ماردة

واجهت عبد الرحمن الأوسط فتن وقلاقل ألجأته الى الجهاد في إخماد هذه الفتن في أول عهده بالإمارة .

ومن بين هـــذه الفتن والثورات الثورةُ في ماردة حيث ثار البربر بقيادة زعيمين من زعمائهم هما محمود بن عبد الجبار بن راحلة وسليمان بن مرتين . وكان محمود زعيماً قوياً ومغامراً جريئاً ، فوثب على عامل ماردة وقتله ، وعاث في تلك الأنحاء قتلاً ونهباً وتخريباً ، وتوالت إليه بعوث عبد الرحمن ، فكان في كل مرة يعتصم بالمدينة ، فإذا غادرها الجند عاد إلى عبثه . وفي سنة ٢١٨ هـ ٨٣٣م سار إليه عبد الرحمن بنفسه .

وقدِّر لعبد الرحمن في ٢٢٠ هـ أن يطارد سليمان بن مرتين في أحواز ماردة. وحاصره عبد الرحمن ، وقُتِل الثائر في سقطة مميتة عـــن جواده ، فانفضت جموعه ، وخبت ثورته .

وفي عهده عرفت الأندلس لأول مرة خطراً جديداً ، هو خطر الغزوات النورمانية البحرية ، واستطالت غزوتهم الى أن تمت هزيمتهم وإقـلاعهم ، وبادر الأمير عبد الرحمن فبعث بالكتب الى سائر الآفاق معلنة هذا النصر على العدو المغير .

عبد الرحمن الأمير

هو عبدالرحمن بن الحَكَم وأكبر أولاده، ولد بطليطلة سنة ١٧٦ هـ(٧٩٢م) وأمه أم ولد تدعى «حلاوة» وكان أحب أبناء الحكم إليه، وقد عُنِي الحَكَم بتربيته وتثقيفه، وولع عبد الرحمن منذ فتوته بالأدب والحكمة، ودرس الحديث والفقه، فكان وافر الخبرة واسع الاطلاع مثقفاً.

بويع بالإمارة في اليوم التالي لوفاة أبيه سنة ٢٠٦ – ٨٢٢ م، وكان حينما ولي العرش في الحادية والثلاثين من عمره. وكان مثل أبيه، وافر البأس والعزم يعشق مظاهر البذخ والفخامة، وفي عهده بدت الارستقراطية العربية في أبهى مظاهرها.

وقد حذا حذو أبيه أيضاً في اصطفاء الموالي والصقالبة، واستكثر من اقتناء الجواري، وعُني بالمنشآت العامة.

وكان يعشق الفلك والتنجيم، ويشغف بدراستها، كما كان يحب الغناء والموسيقى.

وتوفي عبد الرحمن سنة ٢٣٨ هـ – ٨٥٢ م بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة وبضعة أشهر.

خطبته في اهل ماردة

قاتل عبد الرحمن الأوسط وجنده الأعداء في ماردة حتى أُشفِي بهم على العَطب فنظر إلى جنده وقد تعلقوا بِشُرفات السور، وتغلبوا عليه وضعُف أهل ماردة عن دفاعهم، وسمع عبد الرحمن صراخ النساء وعويل الصبيان

وعجيج البكاء فأمر بالإمساك عنهم ، وقبض أهل العسكر عن قتالهم ، ثم دعا بوزرائه وقواده ، وخطب فيهم الخطبة التالية :

« قد علمتُم ما كان من تَغَلُّب حَشمنا ورجالنا على هؤلاء الظلّمة لأنفسهم ولم يكن رَفْعُنا ما رفعناهُ عنهم إلا رِقبةَ الله عز وجل فيهم ، وتخوُّفاً مِنْ قتْل ولدانهم وأطفالهم ، ومن لا ذنب لهم ممن استُكرِه على نفسِه منهم ، ونحن نرى استجلاب النَّصر من حيث عوّدنا الله وعرّفنا من العفو والصفح ، وقد عزمتُ على الانتقال عنهم فإن أبصروا قَدْرَ يَدِنا في الإبقاء عليهم ، ومراقبة الله فيهم وإلا كان الله مِنْ ورائهم محيطاً ، وعلى الانتقام منهم قديرا ، فهو الذي أيَّدنا وقهرهم ، ونصرنا وكبتهم » .

فلم ينتقل إلى محله حتى أتته رسلهم بالطاعة ، والإلقاء إليه بأيديهم .

وسنترك لك أيها الطالب التعليق على هذه الخطبة ونقدهـا على ضوء ما درست من نصوص .

منذر بن سعيد البلوطي

أمام سفير القسطنطينية

احتفل عبد الرحمن الناصر بدخول رسول ملك الروم صاحب قُسْطنطينية وأعد الاحتفال بقصر قرطبة ، وكان بين برامج الاحتفال أن يقوم الشعراء والخطباء بين يديه في حضور رسول الملك هذا ، يشيدون بذكر الناصر ، ويصفون ما تهيأ له من توطيد الخلافة ورمي ملوك الأمم بسهام بأسه ونجدته. فطلب من ابنه وولي عهده ، الحكم ، أن يُعد من يقوم بذلك ، ويقدمه أمام إنشاد الشعراء ، فتقدم الحكم إلى أبي علي البغدادي ضيف الخليفة الناصر وأمير الكلام وبحر اللغة ، وأمره بأن يقوم بالمهمة . فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد (ص) ثم انقطع ، وبُهت فما وصل ولا قطع ووقف ساكناً مفكراً. فلما رأى منذر بن سعيد ذلك قام قائماً بدرجة من مرقاة أبي علي ووصل افتتاحه : ثم قال المقري ما صورته: وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه . وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر اشدهم تعجباً ، وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته — فسأله عنه ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلّوطي ، وقال والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أخرني الله بعد لأرفعن من ذكره فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه وذكّرني بشأنه ، فما للصنيعة ان تذهب عنه ، ثم ولاّه الصّلاة والخطبة في المسجد الجامع بقرطبة ، وأقرّه على الصلاة بالزهراء . وهو منذر بن سعيد البلّوطي قاضي الجماعة بقرطبة ، له كتب مؤلفة في القرآن والسنة والورع ، والرد على اهل الأهواء والبدع ، وهو

شاعر محسن له شعر في الزهد ، وخطيب بليغ . وسنعرض عليك الآن جزءاً من خطبته التي ذكرنا مناسبتها الآن . وتوفي سنة ٣٥٥ هـ .

قال :

« أما بعد حمد الله والثناء عليه ، والتعداد لآلائه والشكر لنعمائــه ، والصلاة والسلام على محمد صفيِّه وخاتم أنبيائــه ، فإن لكل حادثة مقاماً ، ولكل مقام مقالاً ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وإني قد قمت في مقام كريم ، بين يدي ملك عظيم ، فاصغوا إليَّ معشر الملأ بأسماعكم ، وأتقنوا عني بأفئدتكم. ان من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت . وإن الجليل تعالى في سمائه ، وتقدَّس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه ، وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكِّر قومه بأيام الله جـــل وعز عندهم ، وفيه وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، وإني أذكركم بأيام الله عندَكم وتـلافيه لـكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمَّتْ شعثكم وأمّنت سِربكم ، ورفعت قوتكم بعد أن كنتم قليلاً فكثّركم ، ومستضعفين فقوّاكم ، ومُستذَلين فنصركم ، ولاّه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سُرادقهـا على الآفـاق ، وأحاطت بكم شعَلُ النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخـاء ، وانتقلتم بيُمن سياسته الى تمهيد كنَف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم بالله معاشرَ الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبلُ مخوفة فأمّنها ، والأموال منتهَبَةً فأحرزها وحصَّنها ? ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهضومة فحماها ونصرها ?

فاذكروا آلاءَ الله عليـكم بخلافته ، وتلافيه جمعَ كلمتكم بعد افتراقهـا بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يـداً على عدوكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم . فأنشدُكم الله ، ألم تكن خـلافته قُفلْ الفتنة بعد انطلاقهـا من عقالها ? ألم يتلافَ صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب

احوالها ، ولم يَكِلْ ذلك الى القوّاد والأجناد حتى باشرَهُ بالقوة ، والمهجةِ ، والأولاد ، واعتزال النسْوان وهجر الأوطان ورفض الدَّعة وهي محبوبة ، وترك الركون الى الرّاحة وهي مطلوبة ، بطويّة صحيحة ، وعزيمة صريحة وبصيرةٍ ثابتةٍ نافذة ثاقبةٍ . الى ان قال :

أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين .

التعليق والنقد

عُني الخلفاء بالخطابة والخطباء يستخدمونها عند مقدم سفير أو عظيم ، ويكرمون من اشتهر بها وتفوق فيها حتى صار لقب الخطيب من ألقاب التعظيم التي كانت معروفة عندهم .

وهذا لون من ألوان الخطابة لمنذر بن سعيد يوقفنا على مميزات الخطابة في عهد الناصر ، ذلك العهد الذي انتشرت فيه الصناعة والزخرفة وتطرقتا إلى الخطابة فامتلأت بالسجع وتغيرت أساليبها . ونحن إذا قارنا عهد منذر بالعهد الذي سبقه وجدنا أن الخطابة في العهد الأول كانت جزلة قوية سهلة الأسلوب واضحة المعنى خالية من التكلف والصنعة والسجع، وخطبة طارق بن زياد خير ما يمثل الخطابة في أول عهدها . وخطبة منذر هذه سهلة الأسلوب واضحة المعنى ، كثر فيها الاقتباس من القرآن ، وازدانت بالاستعارات والكنايات . وقد عني فيها بالاطناب ، ونُوعت فيها الأساليب من خبرية الى إنشائية ، ففيها عناصر الخطابة الرئيسية .

ويبدو أن ثقافة الخطيب الدينية كان لها أثر في خطبته فهي أقرب الى الخطب الدينية منها الى الأدبية .

وعلى الرغم من ان الخطبة مرتجلة على ما يقال ، فقد كثر فيها البديع ، وبخاصة الطباق ، مما يبدي لنا أن ذلك كان منتشراً في ذلك العهد حتى أصبح عادة عند الأديب .

ابن عبد ربّه

هو من اقدم المؤلفين الأندلسيين في فنون الفكر العربي بالأنـــدلس ومن المذكورين النابهين ، أبو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه ، ولد سنة ٢٤٦ هـ وهو مولى لبني أمية وشاعر البلاط ، إلا ان شاعريته لم تكن كفنـّه النثري . وقـد عاصر اربعة من خلفاء بني أمية ونال حظوة عندهم ، وكان آخرهم عبد الرحمـن الناصر الذي مدحه بقصيدة تبلغ نحو أربعمائة وأربعين بيتاً ضمّنها غزواتــه وأعماله المجيدة . وقد تعلم ابن عبد ربـــه النحو والعروض والفقه والتاريخ والأدب ، ثم رحل الى مصر وغيرها واخذ علمها ايضاً . وكتـــابه (العقد الفريد) الذي قامت عليه شهرته كتاب يضم مجموعة تاريخية أدبية فنية ، بـه أخبار الملوك والخلفاء وغيرهم ، وأخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ، وفيه مجموعة من أقوال الخطباء والشعراء والكتاب ، وبعض من اقـــوال العلماء والحكماء . والكتاب شرقي في موضوعاته وأساليبه ولا أثر فيه للأندلس إلا بعض ابيات ومقاطع شعرية من نظمه ، ولذا فقد قال الصاحب بن عباد عندما وقع الكتاب بين يديه « هذه بضاعتنا رُدّت الينا » . وقد تخيل كتابه عقـداً منظوماً يضم خمساً وعشرين حبة من جهة ، وخمساً وعشرين من جهـــة اخرى ، وواسطة العقد في وسط هذه الحبات ، وجعل عنوان كل باب من ابواب كتابـــه اسمَ جوهرة مما تنظم منه العقود مثل « اللؤلؤة في السلطان » و« الياقوتة في العـلم والأدب » ، ثم سمّى الباب الذي يقابلها بنفس التسمية مع إضافة كلمة (الثانية) الـــخ ..

والكتاب منبع من ينابيع الأدب العربي وتاريخ العَرب ، ولا يُنقص من شأنه بعض ما فيه من الناحية التاريخية ، وما إلى ذلك .

وقد قال في أول كتابه : « وقد ألفت هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخيّر جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجواهر ، ولباب اللباب . وإنما لي فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرشٌ في صدر كل كتاب ، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء ، واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

وقال أفلاطون : « عقول الناس مدونة في أطراف اقلامهم ، وظاهرة في حسن اختيارهم » .

وقد كان ابن عبد ربه لاهياً مسرفاً في اللهو ، فلما كبر ندم على هذا اللهو وما ارتكبه فيه ، ومال إلى الزهد ، ونظم شعراً يعارض به ما قاله في الغزل وسمى قصائده الزهدية « الممحّصات » وتوفي سنة ٣٢٨ هـ .

مختارات من « العقد الفريد » :

١ – قولهم في الاستطعام

قدم أعرابيّ من بني كنانة على معن بن زائدة وهو باليمن فقال : إني والله ما أعرف سبباً بعد الاسلام والرَّحم أقوى من رحلة مثلي من أهل السنّ والحسب إليك من بلاده بلا سبب ولا وسيلة الا دُعاءَك الى المكارم ،ورغبتك في المعروف ، فإن رأيت أن تضعني من نفسك بحيثُ وضعتُ نفسي من رجائك فافعل ، فوصله وأحسن إليه .

ووقف أعرابي بقوم ، فقال : يا قوم ، تتابعت علينا سنون جماد شداد ، لم يكنْ للسماء فيها رَجْع ، ولا للأرض فيها صَدْع ، فنضب العِدّ[1] ، ونشف

---

١ ـ العد : الماء الجاري الذي لا ينقطع .

الوشل ، وأمحل الخصب وكلح الجدب، ، وشفَّ المال، وكسف البال، وشظُف المعاش ، وذهبت الرياش ، وطرحتني الأيام إليكم غريب الدار نائي المحل ، ليس لي مالٌ أرجع اليه، ولا عشيرة ألحق بها ، فرحم الله امرءاً رحم اغترابي، وجعل المعروف جوابي .

٢ – في مواطن تقبيح الحسن وتحسين القبيح

مما عيب من الشعر وليس بعيب ، قول ذي الرمة :

رأيتُ الناسَ ينتجعون غيثا   فقلت لصَيْدحَ انتجعي بلالا

ولما أنشدوا هذا الشعر بلال بن ابي بردة ، قال : يا غلام ، مُرْ لصيدح بقَتٍّ من علف ، فإنها هي انتجعتنا ! .

وهذا من التعنت الذي لا إنصاف معه ، لأن قوله انتجعي بلالا ، إنما أراد نفسه . ومثله في كتاب الله تعالى : « واسأل القرية التي كنا فيها والعيرْ التي اقبلنا فيها » وإنما اراد « أهل القرية وأهل العير » .

٣ – العلم والأدب

قد مضى قولنا في مخاطبة الملوك ومقاماتهم وما تفننوا فيه ... ونحن قائلون بحمد الله في العلم والأدب، فإنهما القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا، ومجْرى ما بين الإنسان وسائر الحيوان ، وما بين الطبيعة الملَكية والطبيعة البهيمية، وهما مادة العقل، وسراج البدن، ونور القلب، وعَمارُ الروح. وقد جعل الله بلطيف قُدرته وعظيم سلطانه بعض الأشياء عَمَداً لبعض، ومتولداً من بعض. فإجالة الوهم فيما تدركه الحواس تبعث خواطر الذكر وخواطرُ الذكر تنبه روية الفكر، ورويَّة الفكر تثير مَكامن الإرادة، والأرادة تحكم أسباب العمل ،

فكل شيء يقوم في العقل ، ويمثُل في الوهم ، يكون ذكراً ثم فكراً ثم إرادة ثم عملاً . والعقل متقبّل للعلم لا يعمل في غير ذلك شيئاً .

التعليق والنقد

هذه ثلاثـــة نماذج من العقد الفريد أولها من مختارات ابن عبد ربـــه في الاستطعام وما أثر في ذلك والاختيار أصعب من التأليف كما يقول ابن عبد ربه، وقد كان ابن عبد ربه موفقاً في الاختيار ، قـــد أوقفنا على كيفية الاستطعام عند العرب وعلى بلاغة قولهم في استطعامهم .

وثانيها : نموذج يوقفنا على شخصية ابن عبد ربه ووقوفه موقف الحكَم الذي يبدي رأيه ، ويميز بـين الحسَن والقبيح فيوضح ما عابه النقاد من الشعر وليس بعيب . وتتجلى هنا قوة ابن عبد ربه في ابـــداء الرأي وتحطيم آراء النقاد ، ومعارضتهم معارضة مبنية على برهان ودليل .

وثالثها : في العـلم والأدب ، يبين ابن عبد ربه مكانتها وأثرهما في اسلوب مُرْسَل سهل لم يستخدم فيه السجع ولم يتصنع فيه، لأن غايته تقريب المعلومات إلى الأذهان وتوضيح الفكرة واستيفاؤها .

بين جدران السجون

لابن زيدون

ذاق ابن زيدون مرارة السجن ، وعانى في محنته ألوان العذاب والشقاء ، فلجأ الى استعطاف ابن جهور بكثير من المقطوعات الشعرية والقصائد والرسائل يصور فيها هذا البؤس ويطلب منه العفو .

ومن رسائله في هذا المضمار رسالته « الجدية » التي كتبها في ظلام السجن وذيّلها بقصيدته التي مطلعها :

الهوى في طلوع تلك النجومِ والمنى في هبوب ذاك النسيمِ

وقد قدم لهذه القصيدة في نهاية رسالته التي سندرس جزءاً منها بقوله :

« ولما توالت غُرر هذا النثر واتسقت درره[١] ، فهز اعطاف غُلَوائه[٢] وجرّ ذيل خيلائه ، عارضه النظم مباهياً ، بل كايده مداهياً حين اشفق من أن يعطفك استعطافه ، وتميل بنفسك ألطافه ، فاستحسن العائدة منه ، واعتدّ بالفائدة له ، وما زال يستكدّ الذهن العليل ، والخاطر الكليل ، حتى زف إليك عروساً مجلوة في اثوابها منصوصة بحليها وملابها[٣] .

١ ـ الغرر : جمع غرة . والغرة من الشهر أوله ، ومن الهلال طلعته . اتسقت . انتظمت .
٢ ـ الغلواء : المغالاة .
٣ ـ مجلوة : من جلا العروس يجلوها أظهر حسنها. منصوصة : مرفوعة. الملاب : الزعفران.

وبلغت الرسالة، وبآخرها القصيدة ، ابن جَهْوَر ...فهل رق قلبه ومالت نفسه الى العفو عن ابن زيدون ؟ إن شكوى ابن زيدون لم تجد أذناً مصغية ، ولا نفساً تأثرت باستعطافه .

وها هي ذي منتخبات من رسالته :

« يا مولايَ وسيِّدي الذي ودادي لهُ ، واعتمادي عليه واعتدادِي بـه ، ومَنْ أبقاه الله تعالى ماضيَ حدِّ العزْم واريَ زَنْدِ الأمل ، ثابتَ عهـد النعمة ، ان سلبْتَني – أعزَّكَ الله – لِباسَ إنعامِك ، وعطَّلْتني من حَلْي إينَاسِك وأظمأتني الى بُرود إسْعَافِكَ ، ونفضْتَ عني كفَّ حياطتِك ، وغضَضْت عَنيّ طرْفَ حِمَايتِك بَعْدَ أن نظر الأعمى الى تأميـلي لـك ، وسَمِعَ الأصمُّ ثنَائي عليك ، وأحسَّ الجمادُ باستحمادي اليك ، فلا غرو قد يغصُّ بالماء شاربُه ، ويَقتُل الدواء المستشفِيَ به ، ويُؤتى الحذِرُ من مأمنه، وتكونُ منيَّةُ المتمني في أمنيته ، والحَيْنُ قد يسبق جُهدَ الحريص :

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى وتهونُ غيرَ شماتَةِ الحُسّادِ

واني لأتجلَّدُ ، وأُرِي الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعْضَعُ . فأقول: هل أنا إلا يدٌ أدماها سِوارُها ، وجبينٌ عضَّ به إكليلُه ، ومشرفيٌّ ألصقه بالأرْضِ صاقله ، وسمهريٌّ عرَضه على النار مُثقِّفُه ، وعَبْد ذهبَ بـه سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ، ومن يكُ حازماً
فليقْسُ أحياناً على من يَرْحَمُ

هذا العتب محمودٌ عواقبُه . وهذه النَّبْوةُ غمْرةٌ ثم تنجـلي ، وهذه النكبة سحابةُ صَيْفٍ عن قليلٍ تقَشَّعُ ، ولن يريبني مِنْ سيِّدي أن أبطأ سَيْبُه ، أو تأخر – غير ضنين – غَناؤه ، فأبطأ الدِّلاءِ فَيْضاً أملؤُها، وأثقل

السحائب مَشْياً أحفَلُها ، وأنفعُ الحيَـا ما صادَف جَدْبـاً ، وألذُّ الشراب ما أصاب غليلاً ، ومع اليوْمِ غدٌ ، ولِكُلِّ أجلٍ كتاب ، وله الحمد على اهتباله ، ولا عَتْبَ عليه في اغفالهِ .

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاّئي سَررنَ أُلوفُ

وأعود فأقول :

ما هذا الذنبُ الذي لم يسَعْهُ عَفوك ، والجهل الذي لم يأتِ من ورَائـه حِلمُك ؟ والتطاول الذي لم يستغرقه تطوّلك ؟ والتحاملُ الذي لم يف احتمالك؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً ، فأين العدل ؟ أو مسيئاً ، فـأين الفضل ؟

إلاّ يكن ذَنبٌ فعدلك واسع أو كان لي ذنب فَفَضلُك أوسع

الكلمات والاساليب

الزند : الزناد ، ورْي الزّند هو اقتداحه وإخراج النار منه .

البرود : الماء البارد أي إسعافك الذي هو كالماء البارد في إروائه للغليل . غضضت : خفضت . يغص : يشرق. الحين : الهـلاك ، الجهد : الطاقـــة . المشرفي: السيف الذي ينسب إلى مشارف الشام . السمهري : الرمح ينسب الى سمهر وهو صانع للرماح ماهر ، وزوجه كانت تصنع معه السلاح . النبْوة : الجفوة . الغمرة : الشدة .

السيْب : الجود والعطاء . تقشع : تتقشع أي تنكشف وتزول . غناؤه : خيره ونفعه . الدلاء : جمع دلو وهو معروف . أحفلها : أكثرها مـــاء . الحيا : المطر . اهتباله : اغتنامه أي اغتنام معروفه . التطـاول : التكبر . التطـّول : التفضل والتكرم .

النقد والتعليق

بعث ابن زيدون هذه الرسالة إلى ابن جَهْوَر قبيل فراره من سجنه ، بعد أن مكث فيه خمسمائة يوم ، لعلها تستميل قلب ابن جهور لكنها لم تجد ففرّ من السجن .

وابن زيدون في أول رسالته يبدو ذليلاً متضرعاً ، يتملق ويمدح ، ويبدي له إخلاصه ، ويعتذر عما وقع منه في حقه . ثم يبين للأمير شدة الألم والخوف من شماته الأعداء .

(يا مولاي وسيدي الذي ودادي له ...) الخ .

وفي القسم الثاني يبعث في نفسه الأمل ، ويسليها ويخفف عنها بضرب الأمثال :

(هذا العتب محمودٌ عواقبه ، وهذه النبوة غَمْرة ثم تنجلي ...)

وتارة أخرى يقف موقف الضعيف المتخاذل ، يستصغر ذنبه أمام كرم ابن جهور ومروءته ، ويجانب ما ارتكبه غيره من كبار الذنوب .

(ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ...) ؟.. الخ .

ومن خلال رسالة ابن زيدون نرى نفساً حائرة قلقة تتنازعها ألوان من المشاعر والأحاسيس المختلفة .

وقد اتبع ابن زيدون في رسالته طريقة العصر الذي عاش فيه فلم يلتزم السجع في جميع الرسالة ولم يفرط في استعمال البديع ، لكنه جرى على نحو من طريقة ابن العميد فاقتبس من القرآن والأمثال والشعر ، فأتى بأبيات وبشطور أبيات لكنه لم يشر الى قائليها ، كما استعمل الجمل الدعائية أيضاً .

أسلوبه في كتابته عذب المذاق ، خفيف الروح ، مؤثر لأنه صادر عن نفس مكلومة ، ونلاحظ أن أسلوبه في الاستعطاف يشبه أسلوب النظم في ذلك أيضاً .

منتخبات من طوق الحمامة لابن حزم

رسالة « طَوْق الحمامة » رسالة في الحب كتبها رجل من أشد المدافعين عن الدين ، قد شغل جُل أوقاته في المجادلات الفقهية . وقد أحس وهو يكتب هذا الكتاب أن بعض المتعصبين سينكرون عليه ذلك فقال :

« وما أمل لأحدٍ ان يظن في غير ما قصدته . قال الله عز وجل :

يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم » .

وقد كان هدفه من تأليف هذا الكتاب رسمَ صورة واقعية من حياته هو ومن حياة الناس في بلده حول موضوع « الحب » .

فتحدث عن نفسه وعن مجتمعه ، فجاء الكتاب من أحسن ما ألف في هذا الباب .

والحب الذي يتحدث عنه ابن حزم نوع من الحب العُذْريّ الذي لم يكن كثير الانتشار في الشعر الأندلسي .

فكان شرح الحب على طريقة ابن حزم هذه من البواعث التي دفعت الباحثين من المستشرقين الى عقد الصلة بين نظرة ابن حزم هذه وما طرأ من تغير على شعر الحب في أوربا في القرن الثاني عشر .

ورسالة ابن حزم اشتملت على ثلاثين باباً : عشرة منها في أصول الحب، واثنا عشر في اعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة ، وستة أبواب في الآفات

الداخلة على الحب ، ثم اخيراً خاتمة في بابَين تحدث فيهما عن قبح المعصيـة ، وفضل التعفف .

وقد امتلأ كتابه « طَوْق الحمامة » بالنثر والشعر الذي يمليه عليه حبُّـه . وابن حزم من أبرز الشخصيات التي ظهرت في سماء العلم والأدب .

هو ابو محمد علي بن حزم ،ولد سنة ٣٨٣ هـ وابوه احمد بن حزم كان وزيراً للمنصور . وقد درس ابن حزم الحديث على أبي عمر احمد بن محمـد الجسور ، ودرس تاريخ الطـَّبري دراسة تمعُّن ، وتعلم المنطق على يـد الكتاني الطبيب ، والأدب على أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي زيد الأزدي ، ودرس الفقه والشريعة فقرأ ُموَّطأ مالك على يد الفقيه المشاور عبدالله بن يحيى بن دُّحون ، ثم وجد من نفسه ميلاً الى مذهب محمد بن ادريس الشافعي فانتقل اليه ، وكان الشافعيون قلة بالأندلس . وبعد فترة قصيرة استحسن المذهب الظاهري فصار ظاهرياً ، والظاهريون أتباع ابي داود ممن يلتزمون التقليد المأثور ويأخذون بالمعنى اللفظي الظاهر .

وقد توفي أبوه سنة ٤٠٢هـ ، وكان قد أقام في خدمة العامريين حتى مقتـل عبد الرحمن بن منصور بن عامر . وقد أُخرج من قرطبة في ثورة البربر ، اذ كان يميل الى البيت الأموي ، ونهبت قصوره فتوجه الى المريـَّة وأقام فيها ، ثم أُسر في موقعة غرناطة التي كان فيها مع جيش عبد الرحمن الرابع المرتضى المقاتل لبني حمود ، فانهزم المرتضى وقتل، وأُخلي سبيل ابن حزم فيما بعد فلجأ الى شاطبة ، وكتب فيها كتاب « طوق الحمامة » . وقـد نفي مرة ثانية من قرطبة بعد عودته اليها حين قتل المستظهر الذي دعا له وأيده ، فاعتزل بعـد ذلك السياسة وانصرف الى خدمة الدين والفقه والأدب بعد دراستهـا . وتوفي سنة ٤٥٤ هـ

آثاره : لابن حزم كتب في الفلسفة والشريعة وعـلوم الدين والتاريخ . وأشهر ما ألف في مادة التاريخ هو كتـاب « الفِصَل في المِلَل والأهواء

والنِحَل»، وهو تاريخ نقديّ للاديان والفِرق والمذاهب .

ومن آثاره الأدبية كتاب « طوق الحمامة » في الألفة والألاّف الذي سندرس منتخباً منه . وهو الى جانب ذلك شاعر لكنه لم يبلغ الغاية في شعره بسبب غلبة الناحية الدينية عليه .

واليك المنتخبات :

١ – حبه الأول

« اني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشَّعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو انه على الشمس او على الحسن نفسه . واني لأجد هذا في اصل تركيبي من ذلك الوقت ولا تواتيني نفسي على سواها ، ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه » .

٢ – لوعته في الحب وتقديره للوصال

« لقد جَرَّبتُ اللذات على تصرّفها ، وادركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ولا المال المستفاد ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الامن بعد الخوف – من الموقع في النفس ما للوصول ، لا سيما بعد طول الامتناع ، وطول الهجر ، حتى يتأجج عليه الجوى ، ويتوقد لهيب الشوق ، وتنصرم نار الرَّجاء . وما ازدهار النبات بعد غبّ القطر، ولا اشراق الازاهير بعد اقلاع السحاب ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار ، ولا تألق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر بأحسن من وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه ، وحُمدت غرائزه ، وتقابلت في الحسن أوصافه » .

التعليق والنقد

هذان نصّان لابن حزم الحب يخبرنا في نصّه الأول عـــن أول حب له في صباه ، حب المخلص لحبيبه الذي لا يرى أحسن منه ولا يعادله بغيره . بل لقد أثر منظر المحبوبـة في نفسه ولون شعرها فأصبح لا يستحسن سوداء الشعر ، ولا تتوق نفسه إلى سواها ، ولا يحب غيرها أبداً .

وفي النص الثاني يبدو أنه قد جرّب ألوان اللذات ، وأدرك الحظوظ على اختلافها فما رأى أحسن ولا اجمل في هذه الحياة وملاذها من وصل الحبيب ، الحبيب الذي رُضيت أخلاقه وحمـدت غرائزه وتقابلت في الحسن أوصافه .

كل ذلك في أسلوب حيّ لم يلجأ فيه الى تزويق لفظي أو تصنع ، فهو سهل مسترسل ، خالٍ من الجلبة اللفظية .

هذا إلى ما فيه من شجاعة في الحديث عن نفسه وعن أبيه .

مثل هذه الدراسات لابن حزم فتحت الطريق شيئاً ما لمن يريدون فهم المرأة ، وإن كانت لم تكشف كشفاً تاماً عـــن مغاليق هذا المخلوق ، فالمرأة ستظل شيئاً غامضاً مبهماً .

وأحسن ما في هذه الدراسات لابن حزم أنها توقفنا على نفس مخلصة صادقة في حبها .

لسان الدين بن الخطيب

هو محمد بن عبدالله بن سعيد الغرناطي. ولد في لوشة سنة ٧١٣ هـ في بيت علم وفقه وأدب وطب ، فشب وهو ينهل من هـذه الينابيع الثقافية ، ودرس في غرناطة وشغف بالعلوم الطبِّيَّة والفلسفية وأقبل عليهـا يدرسها على الطبيب المشهور يحيى بن ذهيـل ؛ كما أظهر مقدرة في نظم الشعر وظهرت موهبته الأدبية في سن مبكرة .

وقد أورد ابن الخطيب قائمة بأسماء مؤلفاته في الترجمة التي عقدهـا لنفسه في آخر كتابه المعروف بـ « الإحاطة في أخبار غرناطة » .

وقد استوزره أبو الحجاج يوسف سلطان غرناطة ، وابنـه السلطان محمد فلم يتركه الحساد ينعم بما أوتي فراحوا ينالون منه ، ويرمونه بالكفر والزندقـة الى أن اعتقل بفاس ومات في سجنه مخنوقاً سنة ٧٧٦ هـ . وقـد كان البخل والطموح الى المجد سر مأساة هذا الرجل العظيم الذي لم تعُقه حياتـه القلقة المضطربة عن الانتاج الزاخر في الأدب والتاريخ .

اثاره : له مؤلفات كثيرة منها : الإحاطة بتاريخ غرناطة ، واللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ونفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ومعيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار – وهو عبارة عن رسالة في وصف بعض مدن المغرب وبلاد الأندلس مكتوبة في أسلوب فـن المقامات المعروفة – وكتاب الحلل المرقومة في اللمع المنظومـة ، وكتاب رقم الحلل في نظم الدول . وكناسة

الدكان بعد انتقال السكان ، وهـو لا يزال مخطوطاً في خزائن الرباط وفاس والاسكوريال ، وأراجيز وأشعار أخرى مختلفة .

في الشوق

من رسالة له (كتبها الى ابن خلدون)

أما الشوقُ فحدّث عن البحر ولا حَرَج ، وأمـــا الصبرُ فسَلْ به أية دَرج[١] ، بعد أن تجاوز اللّوى والمنعرَج ، لكن الشدة تعشق الفرَج، والمؤمن ينشق مِن روْح الله الأرَج ، وأنىّ بالصبر على إبر الدّبر[٢] ؟ ومطـــاولة اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ، وهــل للعين أن تسلو سلوّ المقصر؟ عن إنسانِهـــا المبْصِر ، أو تَذْهل ذهولَ الزّاهد عن سرها الرائي والمشاهد ، وفي الجسد مُضْغَـة يَصْلُـح إذا صَلَحتْ فكيف حالُه ان رَحَلَـتْ عنــهُ ونزَحت ؟

واذا كان الفراقُ هو الحِمام الأوّل ، فعلامَ المُـعوّل ؟

أعيَت مُراوضة الفراق على السرّاق ، وكادَتْ لوعـة الاشتياق أن تفضي الى السياق :

تركتموني بعد تشييعكم   أُوْسِعُ أمْر الصّبر عصيانا
أقرعُ سنِّي ندماً تــارةً   وأستميحُ الدّمْعَ أحيانا

---

١ ـ الدرج : واحد الأدراج والمراد به هنا المرتبة .
٢ ـ اللوى : مفرد الألواء والألوية وهو ما التوى وانعطف من الطريق .
٣ ـ إبر الدبر : الواحدة « دبرة » جمع أدبر ودبور . جماعة النحل والزنابير . (وإبر الدبر : إبر النحل) .

التعليق والنقد

يبدي ابن الخطيب في هذه الرسالة لصديقه ابن خلدون ، مقدار ما به من الشوق ، وما يحدثه هذا الشوق في نفسه من لوعة لا يمكن معها الصبر . ونستطيع ان نتبين الصفات العامة للسان الدين في نثره ، فهو يعتمد على السجع، ولسنا نعني السجع البسيط على طريقة الكتّاب الأندلسيين من قبله ، وإنما السجع المركّب ، فظهرت فيه آثار التكلف وقد فعل ذلك ليدل على مبلغ تفنّنه وجودة ترسّله ، ثم هو يضيف الى ذلك تكلفاً واسعاً لألوان البديع وزخارفه ، وبخاصة زخرف الجناس والجناس الناقص : « الفرج والأرج » ، « الدّبر والشهر » ، « المقصر والمبصر » .. الخ .

وليس هذا هو مذهب لسان الدين الدائم ، فقد تراه يبتعد تماماً عن هذا التصنع الى أسلوب سلس لا تكلف فيه ولا تعقيد كما سنرى في « مقامة مكناسة » فهو اذن لا يتقيد بمذهب معين كعادة كتّاب الأندلس في عصره وقبل عصره .

والرسالة زاخرة بالصور البلاغية مثل : « تجاوز اللوى والمنعرج » « الصبر على إبر الدبر » ، و « أن تسلو سلوى المقصر عن انسانها المبصر » ، و « تذهل ذهول الزاهد عن سرها الرائي والمشاهد » و « أقرع سني ندماً .. » .. الخ .

وللسان الدين بن الخطيب رِسالةٌ عظيمة في وصف بلاد الأندلس وبعض مدن المغرب ، وقد صاغها في أسلوب فن المقامات ومن ذلك سميت مقامة وإليك الجزء المقرر عليك وهو :

مقامة مكناسة

قال :

وأطلّت مدينةُ مِكناسة في مظهر النّجد ، رافلة في حُلل مبتسمة عن شنب المياه العذبة ، سافرة عن أجمل المراد ، قد أحكم وضْعَها الذي أخرج

المرعى قيد النص ، وفذلكة الحسن .

فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعا .

دارت به المداسِرُ المغلّة ، والتفّت بسوره الزياتين المفيدة ،وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليـــه الطرف ، ورحب بساحته ، والتفاف شجره ، ونباهة بنيته ، وإشراف ربوته ، ومثلت بإزائها الزاوية القدْمى ، المعدة للورّاد ، ذات البركة النامية ، والمئذنة السامية ، والمرافق المتيسرة .

ثم قال :

وبداخلها مدارس ثلاث لبثّ العلم ، كلفت بها الملوك الجلة الهمم ، وأخذها التنجيد ، فجاءت فائقة الحسن : مـا شئت من أبواب نحاسية ، وبرك فياضة ، تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية ، وفيها خزائن الكتب ، والجراية الدارّة على العلماء والمتعلمين ، وتفضل هـــذه المدينة كثيراً من لداتها بصحة الهواء ، وتبحّر أصناف الفواكه ، وتعمير الخزائن ، ومداومة البر لجوار ترابهـا سليماً من الفساد ، معافى من العفن .

ومحاسن هذه البلدة جمة ، قال ابن عبدون من أهلها ولله درّه :

إن تفتخر فاسٌ بما في طيها وبأنها في زيهـــا حسناء
يكفيك من مكناسةٍ أرجاؤها والأطيبان هواؤها والمـــاء

وقد وصفها — أيضاً — في مقامة البلدان على منوال السجع فقال :

مكناسة مدينة أصيلة، وشعب للمحاسن وفضيلة . فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها . فجانبها مريـع، وخيرها سريـع، ووضعها له في قنة الفضائل تقريـع . اعتدل فيها الزمان ، وانسدل الأمـان وفاقت الفواكهَ فواكهُها ، ولا سيّما الرمان ، وحفظ أقواتها الاختزان ، ولطفت فيهـا الأواني

والكيزان ، ودنا من الحضرة جوارها ، فكثر قصادها من الوزراء وزوّارها ، بها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء .

الكلمات والاساليب

الذي أخرج المرعى : أي الله سبحانه وتعالى . النص : واحد النصوص ، الكلام المنصوص ، ومن الكلام ما لا يحتمل إلا معنى واحد ، أو لا يحتمل التأويل .

والقيد : حبل يجعل في رجل الدابة فيمسكها . يقال على الاستعارة فرس قيد الأوابد أي سريع في عدوه يدرك الوحوش ولا تفوته فهو كالقيد لها . وهو هنا على الاستعارة أيضاً بمعنى أن مكناسة فاقت في حسنها درجة أعجزت النص عن وصفها فكأنها قيدته فلم يستطع أمام روعتها وحسنها أن يبرز مفاتنها .. الفذلكة : مجمل أو خلاصة ما فصّل أولاً. المغلة : من أغلت الأرض أعطت الغلّة ، صارت ذات غلة . إشراف الربوة : أي علوها . الزاوية القدمى: زاوية بناها السلطان أبو الحسن المريني الكثير الآثار بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس بناها في زمن أبيه السلطان أبي سعيد . فجانبها مريع : مخصب . القنّة : أعلى مكان في الجبل والمراد هنا أعلى وأعظم الفضائل. الحضرة : مدينة فاس : لأنها كانت إذ ذاك كرسي الخلافة ، ومكناسة مقر الوزارة ، وأهل المغرب في ذلك الوقت كانوا يعبرون عن المدينة التي فيها كرسي الخلافة بالحضرة.

مناقشة

١ – وازن بين رسالة لسان الدين ومقامته وبيّن اتجاهه في كتابته على ضوء دراستك لهذين النموذجين .

٢ – وصف لسان الدين مكناسة في أسلوبين مختلفين. وضح ذلك مبيناً أيهما أحسن في رأيك ولماذا ؟

٣ – استخرج ما في الوصفين من صور مجازية ومحسنات بديعية ، وبين نوع كل .

٤ – قارن في النثر بين كل من لسان الدين ، وابن زيدون ، وابن حزم مبيناً أهم خصائص النثر الأندلسي على ضوء هذه المقارنة .

٥ – أطلق على بعض نثر ابن الخطيب لفظ « مقامات » ...

فهل ترى في مقامة مكناسة ما يصلح لهذه التسمية المعروفة لفن المقامات في العصر العباسي ؟ وضح ذلك وبين سبب تسميتها بهذه التسمية .

ابن شهيد

كان ابن شهيد ناثراً كما كان شاعراً ، وقد درسنا له نموذجاً من الشعر في وصف عاصفة ، وها نحن نعود فنذكر له نموذجاً من النثر من رسالته « التوابع والزوابع » التي سبق أن عرّفناك بها ، والتي اسمها ايضاً « شجرة الفكاهة » . وهذه الرسالة لم تصلنا كاملة ، وإنما وصلتنا منها مقتطفات أوردها ابن بسّام في « الذخيرة » ، وقد خاطب بها صديقه ابن حزم حينما تساءل معجباً ببلاغة ابن شهيد « كيف أوتي الحكم صبياً ، وهز بجذع الكلام فاسّاقط عليه رُطَباً جنياً » وحاول أن يعلل ذلك في مطلع الرسالة بانه ، وإن كان قليل الأطلاع فهو ذو موهبة طبيعية ، وسمى هذه الموهبة ، جنّيّاً تابعاً له كان يلهمه ، ويثير القول على لسانه ويخدمه في كل حال ويعينه إذا أُرتِجَ عليه ، وكانت كلمة السرّ بينهما أن ينشد :

والي زهيرَ الحبّ يا عزّ إنهُ إذا ذكرتْهُ الذاكراتُ أتاها
إذا جرتِ الأفواه يوماً بذكرها يُخيَّل لي أنّي اقبِّل فاها
فأغشى ديار الذاكرين وإن نأت أجارِعُ[1] من داري هوًى لهواها

فيحضر عندئذ صاحبه زهير بن نمير ، وهو مثله أشجعيّ ، فيصحبه في ارض الجن ، ويتنقل معه ، وسترى ذلك فيما نقدمه لك من هذه الرسالة :

---

١ ـ الأجارع : رمال مستوية لا تنبت شيئاً .

مجلس ادب

« وحضرت أنا أيضاً وزهير مجلساً من مجالس الجن ، فتذاكرنا ما تعاورته الشعراء من المعاني ، وما زاد فأحسن الأخذ ومن قصّر . فأنشد قول الأفوه[1] بعض من حضر .

وترى الطيرَ علـى آثارنا رأيَ عينٍ ، ثقةً أن سَتُمارْ[2]

وأنشد آخر قول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلَّق فوقَهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ
تراهنَّ خلْفَ القوم خزْراً عيونُها جلوسَ الشيوخ في ثيـاب المرانبِ
جوانح ، قد أيقنَّ أن قبيلَهُ إذا ما التقى الجيشانِ ، أولُ غالبِ

وأنشد آخر قول أبي نواس :

تَتأَيّى الطيرُ غدوتَهَ ثقةً بالشبْع من جَزَرِهْ[3]

وأنشد آخر قول صريع الغواني[4] :

قد عوَّد الطيرَ عاداتٍ وِثقْنَ بها فهُنَّ يتبعنَهُ في كل مُرْتَحَلِ

وأنشد آخر قول أبي تمام :

---

١ - الأفوه : أي الأفوه الأودي من شعراء الجاهلية .
٢ - ستمار : أي ستعطى ميرتها من جثث القتلى .
٣ - تتأيى : تقصد وتتعمد . من جزره : أي مما يترك من لحوم القتلى .
٤ - صريع الغواني : مسلم بن الوليد .

وقد ظُلِّلتْ عقبانُ أعلامه ضحىً بعقبان طيرٍ في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتلِ

فقال شمردل السحابي : كلهم قصَّرَ عن النابغة ؛ لأنه زاد في المعنى ودل على أن الطير إنما أكلت أعداء الممدوح ، وكلامهم كلهم مشترك يحتمل أن يكون ضد ما نواه الشاعر ، وإن كان أبو تمام قد زاد في المعنى ، وإنما المحسن المتخلص المتنبي حيث يقول :

له عسكرا خيلٍ وطـــيرٍ إذا رمى
بهـــا عسكراً لمَ تبْقَ إلا جماجمُهْ

وكان بالحضرة فتىً حسن البزة ، فاحتد لقول شمردل . فقال : الأمر على ما ذكرت يا شمردل ، ولكن ما تسأل الطير إذا شبعت أي القبيلين الغالب ؟ وأما البيت الآخر فلا أدري لأي معنى عافت الطير الجماجم دون عظام السوق والأذرع والفقارات والعصاعص ؟ ولكن الذي خلص هذا المعنى كله ، وزاد فيه ، واحسن التركيب ، ودل بلفظة واحدة على مـا دل عليه شعر النابغة ، وبيت المتنبي ، من أن القتلى التي أكلتها الطير أعداء الممدوح ، فاتك بن الصقعب في قوله :

وتدري سِباعُ الطّير أنّ كماتَه إذا لقيتْ صيْد الكماة سباعُ
لهنّ لِعابٌ في الهواء وهِزّة إذا جدّ بين الدارعين قراعُ
تطيرُ جياعاً فوقه وتردُّهـــا ظُباه إلى الأوكار وهي شِباعُ
تملّك بالإحسان ربْقَةَ رِقّها فهن رقيق يُشترى ويبـــاعُ

وألحمَ[1] من أفراخها فهي طوعه لدى كل حرب، والملوك تطاعُ
تماصع جرحاها فيجهز نقرها عليهم، وللطير العتاق مِصاع

فاهتز المجلس لقوله، وعلموا صدقه، فقلت لزهير: من فاتك بن الصقعب؟ قال: يعني نفسه. قلت: فهلاّ عرّفتني شأنه منذ حين؟ إني لأرى نزعات كريمة. وقمت فجلست إليه جلسة المعظم له، فاستدار نحوي، مكرماً لمكاني».

التعليق والنقد

هذا نموذج من القسم الثاني الذي أورده ابن بسام من رسالة ابن شهيد وهو يدور حول مشكلة أَخْذِ المعنى الواحد وتداوُلِهِ بين الشعراء. ويورد ابن شهيد أولاً معنى تداوله كلٌّ من الأفوه، والنابغة، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وذلك هو أن الطير ترافق الممدوح لعلمها بانتصاره فتشبع من لحوم القتلى، وتدور محاورة حول المفاضلة بين هؤلاء الشعراء في ذلك المعنى نفسه، وهنا تحضر ابن شهيد ذاكرُته وتنفتق قريحته، فيتخذ لنفسه تابعاً آخر يسميه فاتك بن الصقعب، وهكذا يكشف ابن عامر عن كثير من آرائه في النقد مصوراً الصراع بين الموهبة وسعة الاطلاع.

وقد قدّم في رسالته هذه احسن ما تخيّره من نظمه هو ونثره مبنيّاً في أكثره على المعارضة والأخذ والمزج بشيء من التخيل.

---

١ ـ : أطعم اللحم.

موضوعات للبحث

١ – هل كان للاتجاه الشرقي أثر في نثر الأندلس ؟
وما مظاهر ذلك إن وجدت ؟

٢ – وضح الخصائص الفنية للنثر الفني الاندلسي مبيناً المذهب النثري لكاتبين من الكتاب الذين درست لهم .

٣ – لثقافة منذر ابن سعيد البلوطي أثر في خطابته .
ناقش ووضح واستشهد .

٤ – تنوع أسلوب الخطابة وموضوعها تبعاً للدوافع المتنوعة في الأندلس .
ناقش هذا الرأي وبرهن .

المراجع

الفن ومذاهبه في النثر العربي	للدكتور شوقي ضيف
النثر الفني	للدكتور زكي مبارك
قصة الأدب في الأندلس	لعبد المنعم خفاجى
بلاغة العرب في الأندلس	لأحمد ضيف
تاريخ الأدب العربي	لكارل بروكلمان
تاريخ الفكر الأندلسي	ترجمة حسين مؤنس
ظهر الاسلام جـ٣	لأحمد أمين

الادب المغربي

الاتجاه الشرقي والاندلسي[1]

وأثرهما في الأدب المغربي

لبث المغرب طيلة ثلاثة عشر قرناً – منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم – يربط مصيره بمصير الشرق العربي ، يتأثر به ويؤثر فيه كما يتأثر ويؤثر أي جزء من الأقطار العربية الأخرى . ولو تتبعنا جزئيات الثقافتين المغربية والشرقية في جوهرهما ومظهرهما لما وجدنا فرقاً كبيراً إلا كما وجدت الفروق اليسيرة في بعض عصور الأدب من ظهور بعض النزعات الإقليمية حسب ظروف البيئة المحلية ، وقد رأينا مثل ذلك في العصر العباسي الثاني حينما تعددت الاوطان السياسية وأصبح لكل اقليم مشكلاته واهتماماته .

أما صلة المغرب بالأندلس فقد كانت أقوى ، وكانت كلمة (المغرب) في وقت طويل تعني شمال إفريقيا والأندلس . ولا غرو ، فلا حاجز طبيعياً بين المغرب والاندلس إلا ان يكون ذلك المجاز الضيق . والمغاربة هم الذين فتحوا الأندلس ، وهم الذين عمروا أرضه ، وهم الذين أعادوا فتحه في عهد المرابطين ثم في عهد الموحدين ثم في عهد المرينيين. وكانت الأندلس جزءاً من المغرب– ولا سيما في القرون الثلاثة التي استغرقت حكم المرابطين والموحدين والمرينيين – لا يكاد ينفصل عنه الا قليلا ريثما يعود الى أحضانه مرة اخرى .

---

١ ـ أول الابواب المقررة في الادب المغربي لشعبتي الآداب والعلوم (لمحة موجزة في جغرافية وتاريخ المغرب)، وقد سبق الحديث عنها في أول هذا الكتاب.فارجع إليها في موضعها.

وأنت لا تكاد تقرأ ترجمة لعالم أو أديب أندلسي كبير الا وجدت له جذوراً مغربية أو رحلة الى المغرب أو ثقافة فيه ، وليست أخبار ابن هانىء أو الفتح بن خاقان القيسي أو المعتمد بن عباد أو لسان الدين بن الخطيب أو ابن رشد أو ابن زُهر أو ابن طفيل وغيرهم – بخافية وان اختلفت ظروف كل منهم ، والعكس صحيح تماماً . وهكذا رأينا هجرات جماعية أو فردية من وإلى الأندلس والمغرب ، كانت من العلماء والأدباء والمفكرين والأمراء والملوك ثم الشعوب .

فهل يستطيع مؤرخ بعد ذلك ان يفصل في الشئون الفكرية والجمالية والعمرانية والحضارية بين المغرب والأندلس فصلاً تاماً ؟

ومع ذلك فإنا سنحاول هذه المحاولة التي حاولها قبلنا كثيرون ولا سيما اولئك الذين يتعصبون للمغرب أو الذين يظهرون التعصب له ، وهم يرون ان الأندلسيين ظفروا بالشهرة والعناية دون المغاربة ، وانهم ضموا الى انتاجهم ما المغاربة أولى بنسبته اليهم ، وهذا الجزء يمثل كل ما صدر في المغرب من شعر وأدب وعلم وفلسفة ولو كان أصل قائله غير مغربي ، وانتاج المغاربة الذين ذهبوا الى الشرق وانتجوا فيه عن ثقافتهم تلك المغربية . ويمثل الطائفة الأولى ابن الخطيب ومن التف حوله من ادباء القيروان وفاس وغيرهم في فترة اقامته الأولى بالمغرب ، وابن رشد وابن طفيل والمعتمد بن عباد والفتح ابن خاقان وغيرهم . ويمثل الطائفة الثانية ابن خلدون (مثلاً) والمَقَّري والمرّاكشي وغيرهم .

والواقع أن نكبة الأندلس قد استرعت انتباه المشرقيين اليهم فاهتموا بهم ونشروا انتاجهم وتحدثوا عنهم بينما اغفلوا ذكر المغرب والمغاربة ، فكان هذا من أسباب انزواء التراث المغربي حتى الآن ، رغم بعض المجهودات التي بذلت حديثاً لإحياء هذا التراث ونفض غبار الإهمال عن بعض المخطوطات – وما اكثرها – التي يضن وارثوها بإطلاع الناس عليها أو مساعدتهم في نشرها .

وعلى كل حال فقد تظاهرت قرطبة وفاس ومراكش مع بغداد والقاهرة والموصل ، والكوفة والبصرة وغيرها في حمل راية الحضارة الإسلامية فلم يكتمل صرح هذه الحضارة الا بالبناة العظام من المغرب كابن خلدون بتاريخه ، والإدريسي بجغرافيته ، وابن البناء برياضته ، وابن بطوطة برحلاته ، والثلاثة الاندلسيين الذين احتضنهم المغاربة الموحدون : ابن زهر الطبيب ، وابن رشد وابن طفيل الفيلسوفين وغير هؤلاء .

★

بدأ الأدب المغربي بداية شرقية بحتة في نظمه ونثره ، واستمر على هذا النهج من بداية الفتح الاسلامي حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، اذ لم يكن من اليسير في هذه الفترة القلقة أن تبرز الشخصية المغربية في الأدب . فلما كان الصراع بين الفاطميين وأمويي الأندلس بدأت تبرز الشخصية المغربية ،وظهرت البوادر الأولى للأدب المغربي الذي لم يحفظ منه قدر يصلح لأصدار حكم شامل ، وانما روي بعضه مفرقاً مشتتاً في بعض كتب الآداب والعلوم . وهو مطبوع بالطابع الشرقي على كل حال .

ومنذ اواخر القرن الخامس الهجري اشتد اقبال المغاربة على الأدب الشرقي وكانوا يأخذونه عن الاندلس التي قصدها بعض ادباء الشرق ونابهي رجاله كأبي علي القالي ، وصاعد البغدادي ، وزرياب المغني ، ثم ان الاختلاط كان على اشده حين شجع المرابطون والموحدون العلماء والأدباء على الرحلة الى حاضرتهم مراكش، فاجتمع بمجالسهم وعلى ابوابهم منهم ما لا يماثله الا ما اجتمع لكبار خلفاء بني العباس والمتشبهين بهم ، فانتفع المغاربة بذلك كثيراً . وكان هؤلاء الخلفاء قد نقلوا من الأندلس كل نابغة في العلم والادب والفن ، ففتحوا العقول على آفاق بعيدة وخلقوا نهضة ثقافية وحضارية عظيمة كانت عاملاً ضخماً في بروز الشخصية المغربية في العلوم والآداب .

تأثر الأدب اذن في هذه الفترة بادب المشرق وأدب الأندلس دون أن

يفقد شخصيته المغربية وما لها من مميزات في الوضوح والبساطة والتدين . واذا كان الشعر لم يخرج في أغراضه عن الموضوعات التقليدية في الشرق ، فذلك لان ظروف البيئة المغربية نفسها استدعت القول في هذه الاغراض ، فكان الصراع المستمر يستدعي القول في الحماسة والفخر . والمدح – وهو من لوازم البيئة المغربية الاولى – لم يكن يمكن الاستغناء عنه في ظروف قيام الدول والفتوحات ... وهكذا . ولا تنسَ أن طبيعة العربي وطبيعة المغربي واحدة وكلاهما لا يحب التغيير سريعاً فيما درج عليه . أما النثر فقد أصبح في هذا العهد (عهد المرابطين والموحدين) نوعين ، أولهما النثر الفني المعروف ، وهذا لم يتغير عما كان معهوداً في الشرق وان آثروا فيه في الغالب طريقة الجاحظ من الاهتمام بالصياغة والترادف والإطالة والإكثار من الجمل الدعائية والاعتراضية ومزج الجد بالهزل ... الخ ، وقد ظهر في نثر تلك الفترة عناية بالألقاب ، وصُوَر البدء والختام ، والتكرار والبسط . وكان بعض المغاربة كالقاضي عياض مثلاً يقلد الأندلسيين كما سترى ذلك فيما اخترناه له من نصوص . اما النوع الثاني من النثر فهو النثر التأليفي الذي نبغ فيه المغاربة فرأينا لهم مؤلفات في اكثر العلوم (انظر كتاب النبوغ ، الجزء الأول) .

وقد بدأ دخول الموشحات الى المغرب في العصر الموحدي ، وكانت تقليداً لموشحات الاندلسيين، وسنرى أمثلة لذلك عند حديثنا عن مميزات الأدب المغربي وعند ترجمتنا لابن الطيب العلمي . وذلك بصرف النظر عن العصر الذي قيلت فيه .

وعلى كل حال فلم يترك أهل المغرب فناً من فنون الشعر إلا قرعوه ؛ فمنه ما ترسموا فيه خطى أهل المشرق فجارَوْهم في معانيهم وشاركوهم في أساليبهم وعارضوهم في قصائدهم الشهيرة ، ومنه ما نسجوا فيه على منوال الأندلسيين ، ومنه ما طبعوه بطابعهم الخاص .

فلما كان العصر المريني والوطاسي ازدهر الأدب وبدأ يتخلص من التأثيرات

الخارجية، وبدأنا نرى ادباء كباراً كمالك بن المرحّل وغيره . وكان لوفود لسان الدين بن الخطيب الى المغرب حينئذ أثر كبير في تنشيط الحركة الأدبية .

وقد توبع في هذا العهد ، وبشكل أروع وهمة أكبر ، بناء المدارس وإنشاء خزائن الكتب وتشجيع الآداب والعلوم والفنون ، وساعد على ذلك رخاء وأمن ولا سيما في عهد المنصور المريني ، ورأينا في بلاد المرينيين حينئذ ابن بطوطة وابن جزيّ وابن الخطيب وابن زمرك[1] . وكان المغرب قبلة الادباء ومنتدى العلماء من جميع الاصقاع .

وقد رأينا في المقدمة التاريخية وفي قسم تاريخ الادب من هذا الكتاب العلوم التي كانت تدرس في مراكش وفاس أيام المرابطين والموحدين والمرينيين . وإنه وان كان المنطق من هذه العلوم الا انه لم يظهر له اثر في انتاج الادباء مما يدل على نبوّ الطبيعة المغربية عن هذه العلوم الفلسفية حتى ان حكمهم جاءت فطريّة تجريبية سطحية .

فمع أن المغاربة جاروا المشارقة والاندلسيين في كل شيء وكاثروهم في القصور والمدارس والمساجد وتقريب العلماء والشعراء واطلقوا على نابغيهم أسماء شعراء الشرق وكناهم وتلقب خلفاؤهم بالقاب بني العباس – الا انهم مع ذلك لم يتعمقوا تعمقهم في المعاني ولم يستفيدوا كثيراً من الفرصة التي اتاحها لهم الموحدون والمرينيون من دراسة الفلسفة والعلوم الكونية .

ثم بدأ الضعف يتسرب الى الدولة في اواخر القرن الثامن الهجري من جراء تلك الحياة الكئيبة التي كان يحياها المغرب ، واستمر الضعف ينخر في جسم الدولة المرينية ، ورحل العلماء الذين وفدوا عليه أيام عزه الى الأندلس وغيرها، وتوقفت – أو كادت – الرحلة اليه ، بل هجره بعض أبنائه الى المشرق ، حتى جمدت القرائح وفسدت الأذواق .

---

١ – من نوابغ العلماء في العصر المريني كذلك ابن آجروم النحوي الشهير ، وابو الحسن المراكشي الطبيب ، وابو العباس الجزنائي الكيميائي .. وغيرهم .

وفي هذه الفترة ظهر الأدب الشعبي من الأزجال وعروض البلد وغيرها .
وفي عهد الوطاسيين احتل البرتغاليون جهات المغرب ، فشمر المغاربة عن ساعد الجد والكفاح ، وأعلنوها حرباً تحريرية شعواء شارك فيه العلماء بخطبهم ودروسهم ومؤلفاتهم ، والأدباء بأشعارهم ، والزَّجالون بأزجالهم وأشعارهم الشعبية، وكانت النتيجة مجموعة هائلة من شعراء « المقاومة » الذي يكوّن جزءاً مهماً من أدب المغرب الصميم .

ولم ينقذ المغرب من هذه الكارثة والانحدار الأدبي إلا سقوط الأندلس وهجرة علمائها وأدبائها الى المغرب .

واحتل الإسبان بعض بلاد المغرب فاستنجد هؤلاء بالأتراك فانتهزوها فرصة احتلوا بها المغربين، الأوسط والأدنى، منذ سنة ٩٣٢ هـ ، وظل المغرب بمنجى من خطر مزاحمة الطورانية (التركية) التي زاحمت العربية في تونس والجزائر.

وبايع المجاهدون المغاربة الشريف أبا عبدالله محمداً القائم بأمر الله ، فاسس هذا صرح الدولة السعيدية التي طردت البرتغاليين والإسبان وقاومت الترك في نفس الوقت .

ونالت البلاد في هذا العهد ، وعهد العلويين بعده ، قدراً كبيراً من الثقافة والتقدم العلمي والأدبي ، فقد رزق المغرب في أشخاص بعض ملوك هاتين الدولتين بعلماء كبار كالمنصور السعدي الذي وصل الى مرتبة الاجتهاد وكان الى جانب ذلك شاعراً أديباً ، وكالمولى اسماعيل العلوي الذي استطاع أن يعيد إلى البلاد سالف عهدها في الازدهار .

وبينما كانت شمس العلوم تأفل في الشرق كانت تضيء في هذه البلاد ، وظلت كذلك ردحاً من الزمن كان الانحطاط قد بلغ فيه أقصاه في بلاد المشرق؛ سياسياً وأدبياً وعلمياً .

المراجع

صفوة الاعتبار — لمحمد بيرم الخامس
تاج العروس ج٢
هذه مراكش — لبن جلون
نفح الطيب ج٣
الموجز في الادب العربي وتاريخه ج٤
الجديد في الادب العربي ج٦
مجلة البينة . الأعداد ٦، ٧، ٨ من السنة الاولى
النبوغ المغربي ج١
الأدب المغربي

ظاهرة التقليد والتجديد

أمـــا ظاهرة التقليد فتتمثل ملامحها في معالجة الشعر المغربي للموضوعات التقليدية العربية التي سار عليها الشعر في الشرق ، كالحماسة والفخر ، والمــدح والهجاء ، والرثاء والشكوى ، والحكم والزهد ، والغزل والنسيب .

كما تتمثل في الاحتفاظ بنظــام القصيدة العربية العتيد ، وفي بنائها على هــذا النمط الذي يلتزم القافية والوزن الواحد في سائر أبيــات القصيدة ، وفي عدم الخروج عن الأوزان العربية الستة عشر

ويبدو أيضاً في الصور الشعرية والخيال البدوي حتى انــه لم تظهر البيئـــة المغربية في الانتاج المغربي إلا بعد عهد طويــل جداً في أواخر العصر الموحدي وفي العصر المريني والسعدي .

والمعاني والأفكار السطحية في الشعر العربي القديم كانت هي الملتزمــة في الشعر المغربي .

وما قلناه عن الشعر ينطبق على النثر ، حتى إنك لا تكاد تفرق بين أسلوب كأسلوب القاضي عياض مثلاً وأسلوب الجاحظ أو اسلوب ابن زيدون .

فأما ظاهرة التجديد فقد بدت ملامحها في معالجة الشعر المغربي للموضوعات المستحدثة كالغزل بالمذكر وبواكير الطبيعة والخمريات والمجونيات والموشحــات والأزجال ، وعروض البلد . وفي الأسلوب ايضاً حيث كان اتجــاه هذا الشعر يميل كثيراً الى التفصيل والقصص ، ويتميز بروح الخفة والفكاهة ، والدعابـــة والسخرية ، ويجنح غــالباً الى الأوزان الشعرية الخفيفة وتكثر مُلَحه ورشاقة تعبيراته .

وكان هذا النوع من الشعر أكثر تجـــاوباً مع البيئة وتفاعلاً مع عواملهــا المختلفة لأنه أكثر امتزاجاً بالمشاعر ومساساً بالعواطف .

وسنرى بعض أمثلة ذلك في الحديث عن مميزات الأدب المغربي .

مميزات الادب المغربي

لا نحسب أننا في حاجة لأن نعيد ما كررناه من قبل من أن الأدب المغربي لم يبدأ يتخذ الطابع الشخصي المغربي إلا بعد فترة طويلة من استعراب البربر أي في أواخر الدولة المرابطية ثم في الدولة الموحدية ثم تمّ له ذلك في عهد المرينيين والوطاسيين والسعديين ، وأخيراً في عهد العلويين بعد الاستقلال .

فلقد تخلص الأدب المغربي في عهد المرينيين من التـأثيرات الأجنبية وشق طريقه نحو سد حاجة تلك النفوس الظامئة الى بروز شخصيتها وتميزها وتفوقها والتواقة الى أدب يحمل طابعها ويعبّر عن عواطفها وميولها في فهم وإدراك وثقة ، وفي صراحة ووضوح ، وبحيث لا رياء ولا تصنّع ، ولا ادعـاء ولا تقليد. وبلغ الشعر المغربي هذه الغاية، فكانت الحقيقة فيه تسبق الخيال، والطبع يغلب التصنع، والقصد الى الوضوح أكثر من التعمق والتعقيد والغموض، وبدت رقته وسهولته في غير ضعف ، وترفع عن السفاسف . وطبع بالروح الدينية منذ عهد الموحدين وتطرقت اليه العلوم الفلسفية .

ولقد أكثر شعراء المغرب من الحكمة والنصيحة ولكنها كانت سطحية بديهية التصوير لضعف الفلسفة وسيطرة الفقهاء الذين قهروا حريـة الفكر في كثير من عصور السياسة والأدب والفكر المغربي .

ولقد ظهرت في الشعر بعض الأفكار العلمية ، وتسربت إليه بعض الألفاظ البربرية .

وقد عرفنا أن المغاربة أُعجبوا بالموشحات الأندلسية ، ونسجوا على منوالها

منذ العهد الموحدي ، ونالت من الشعراء بعض العنـــاية . ولكن لم تَرْتَقِ الموشحات كثيراً في المغرب . وقد ظهر وشّاحون في عهد الأشراف ولكن الموشحات لم تنضج إلا أخيراً على يد ابن الطيب العلمي واستاذه ابن زاكور. وإنما أكثر المغاربة من ذلك الأدب الملحمي الذي يُعتبر الفن الشعبي حقيقة وهو الزجل الذي عرف في المغرب مع الموشحات ، ووجدنا للمغاربة فيـــه مطوّلات في موضوع الحرب ووصف المعارك ونحو ذلك .

ثم استحدثوا منه « عروض البلد » . قال ابن خلدون :

واستحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البـلد » ، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس ، يعرف بابن عمـير ، فنظم قطعة على طريقة الموشح ، ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب . منها :

أبكـــاني بشاطئ النهر نوحُ الحمام
على الغصن في البستان قريب الصباح
وكفّ السّحَر يمحو مِداد الظلام وماء الندى يجري بثغر الأقاح

*

باكرت الرياض والطل فيها افتراق سر الجواهر في نحور الجوار
ودمع النواعر ينهرِق انهراق يحاكي ثعابين حلقت بالثمار
لووا بالغصون خلخال على كل ساق
ودار الجميع بالروض دور السوار

الخ ..

فاستحسنه أهل فاس وولعوا بـه ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب .
ومنه ما قاله ابن شجاع من أهل تازة :

المال زينة الدنيا وعز النفوس   يبهى وجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس   ولوه الكلام والرتبة العاليـــا

الخ ..

هذا ولم تحظ الأزجـــال المغربية (الشعر الملحون – أو العـلم الموهوب) بالعناية الواجبة في تسجيلها شأنها شأن غيرها من الموشحات ونحوها ، مما كان يعده المؤلفون من العبث الذي ينزّهون كتبهم عن ذكره والبحث فيه .

ثم إن المغرب نظم قصائد طويلة عرفت بالمنظومات التاريخية أو الأراجيز الإخبـــارية أو نحو ذلك ، ويمثل هذا النوع من أدبهم أرجـوزة عبد العزيز الملزوزي مثلاً التي تناول فيها ذكرَ الانبياء والخلفـاء والملوك ولا سيما منصور المريني ومنها :

مجلسه ليس به فجور   ولا فتىً في قوله يجور
كأنهم مثل النجوم الزهر   وبينهم يعقوب مثل البدر
قد ألبس الوقار والسكينة   وحل في مكانـــةٍ أمينة

واليك أمثلة لبعض خصائص الأدب المغربي التي أجملنا لك الحديث عنهـــا فيما سبق :

فمما ظهرت فيه الافـــكار العلمية قول أحمـد بن شعيب يسأل أبا جعفر بن رضوان عن مسألة في الكيمياء :

ولله منك أبـــا جعفر   عميد الجلال حميد الخصالِ

تطارحني برموز الكنوز وتسفر لي عن معـــاني المعالي
فالقط من فيك سحر البيان مجيباً به عن عويص السؤالِ

ومن شعر الموشحات المغربية ما قاله ابن زاكور يصف الربيـع :

قد اكتسى العريان من مائس الأغصان
بالسندس
وطرّز البستان بالورد والريحـان
والنرجس
هبت به الأزهار بنسمة الأسحار
من الوسن
وهاجت الأطيار برائق الأشعـــار
أم الحسن
تسبّح الجبـــار الواحد القهـــار
مولي المنن

الخ ..

ومن أدب « المقاومة » الذي امتـــاز به الأدب المغربي لا سيما بعد سقوط حواضر الأندلس واحدة بعد أخرى وبعد تكرر الهجمات البرتغالية والاسبانية على الشواطىء والأطراف المغربية – قول مالك بن المرحل يستنصر المجاهدين لقتال العدو بالأندلس :

استنصرَ الدينُ بكمْ فاستقدموا فإنكمْ إِن تسْلموهُ يسْلَم
لا تُسلموا الإِسلامَ يا إِخواننا وَأَسْرِجوا لنصرِهِ وألجموا

وهي قصيدة طويلة تُنيف على الخمسين بيتاً .

ونكتفي بهذا القدر ، وإن شئت أمثلة كثيرة فعليك بالكتب الآتية :

١ – المعجب

٢ – النبوغ ، الجزء الثالث .

٣ – الأدب المغربي

٤ – الموجز ، الجزء الرابع

٥ – المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي ، الجزءان الاول والثاني ، وهو مطبوع حديثاً في القاهرة .

٦ – المطرب من اشعار أهل المغرب ، وهو مطبوع حديثاً في القاهرة

٧ – الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لابن سماك العامري ، طبع بالمغرب .

٨ – الأنيس المطرب بروض القرطاس ، لابن أبي زرع – مطبوع حديثاً بالمغرب .

٩ – المنتخب من أدب العرب ، الجزء الثالث .

★

أما النثر المغربي فقد تناول في البداية العهود والرسائل والخطب، وقد كثرت دواعي النثر بالمغرب لكثرة الفتن السياسية والقبلية والحزبية ، وقد نشط في عصر الموحدين نشاطاً كبيراً بسبب هذه الدعوة الدينية وما كان لها من خصوم ألداء ، وبسبب هجرة علماء القيروان وعلماء الأندلس. وقد عرفنا أنه كان يشبه أول أمر نهضته أسلوب الجاحظ ، ثم صار يميل الى السجع في أواخر عهد الموحدين. وكان متشبعاً بالروح الدينية في كل حال مما طبعه بطابع بيئة الصراع المذهبي المغربي ، وقد برزت الشخصية المغربية في ذلك النثر الذي عرفناه عن المغرب في العصور المتأخرة حين اصبح النثر في الشرق صناعة هزيلة متكلفة تنوء بحمل الزخارف اللفظية والالغاز التي تشبه الأحاجي، فكان في المغرب في ذلك الحين ذلك النثر الرائع الذي نراه في رسائل عبد العزيز الفشتالي وغيره . وتنوعت اغراض النثر عبر العصور فدخل فيها المقامات والتوقيعات

تطارحني برموز الكنوز وتسفر لي عن معـــاني المعالي
فالقط من فيك سحر البيان مجيباً به عن عويص السؤالِ

ومن شعر الموشحات المغربية ما قاله ابن زاكور يصف الربيـع :

قد اكتسى العريان من مائس الأغصان
بالسندس
وطرّز البستان بالورد والريحـان
والنرجس
هبت به الأزهار بنسمة الأسحار
من الوسن
وهاجت الأطيار برائق الأشعــار
أم الحسن
تسبّح الجبــار الواحد القهــار
مولي المنن

الخ ..

ومن أدب « المقاومة » الذي امتـــاز به الأدب المغربي لا سيا بعد سقوط حواضر الأندلس واحدة بعد أخرى وبعد تكرر الهجمات البرتغالية والاسبانية على الشواطىء والأطراف المغربية – قول مالك بن المرحل يستنصر المجاهدين لقتال العدو بالأندلس :

استنصرَ الدينُ بكمْ فاستقدموا فإنكمْ إن تسْلموهُ يسْلَم
لا تُسلموا الإسلامَ يا إخواننا وَأسْرِجوا لنصرِهِ وألجموا

وهي قصيدة طويلة تُنيف على الخمسين بيتاً .

ونكتفي بهذا القدر ، وإن شئت أمثلة كثيرة فعليك بالكتب الآتية :

١ – المعجب
٢ – النبوغ ، الجزء الثالث .
٣ – الأدب المغربي
٤ – الموجز ، الجزء الرابع
٥ – المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي ، الجزءان الاول والثاني ، وهو مطبوع حديثاً في القاهرة .
٦ – المطرب من اشعار أهل المغرب ، وهو مطبوع حديثاً في القاهرة
٧ – الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لابن سماك العامري ، طبع بالمغرب .
٨ – الأنيس المطرب بروض القرطاس ، لابن أبي زرع – مطبوع حديثاً بالمغرب .
٩ – المنتخب من أدب العرب ، الجزء الثالث .

★

أما النثر المغربي فقد تناول في البداية العهود والرسائل والخطب ، وقد كثرت دواعي النثر بالمغرب لكثرة الفتن السياسية والقبلية والحزبية ، وقد نشط في عصر الموحدين نشاطاً كبيراً بسبب هذه الدعوة الدينية وما كان لها من خصوم ألداء ، وبسبب هجرة علماء القيروان وعلماء الأندلس. وقد عرفنا أنه كان يشبه أول أمر نهضته أسلوب الجاحظ ، ثم صار يميل الى السجع في أواخر عهد الموحدين. وكان متشبعاً بالروح الدينية في كل حال مما طبعه بطابع بيئة الصراع المذهبي المغربي ، وقد برزت الشخصية المغربية في ذلك النثر الذي عرفناه عن المغرب في العصور المتأخرة حين اصبح النثر في الشرق صناعة هزيلة متكلفة تنوء بحمل الزخارف اللفظية والالغاز التي تشبه الأحاجي ، فكان في المغرب في ذلك الحين ذلك النثر الرائع الذي نراه في رسائل عبد العزيز الفشتالي وغيره . وتنوعت اغراض النثر عبر العصور فدخل فيها المقامات والتوقيعات

والمناظرات والرحلات والخطابة والتآليف والرسائل .

وفي كتابة النبوغ (الجزء الثاني) جملة صالحة من ذلك كله ، فأقرأه تكتسب معرفة ومتعة . وستجد في هذا الكتاب عند دراسة النصوص والمنتخبات أمثلة كثيرة ايضاً .

ولا بد لنا قبل ختام الحديث في الأدب المغربي وخصائصه من طرق موضوع الأدب المغربي الحديث في عصرنا الحاضر حتى نصل ما انقطع بين الماضي والحاضر بسَدّ الفجوة العميقة التي تركها الاستعمار .

وإذا كان المغرب قد تأخر في نهضته الحديثة عن إخوة له في الشرق العربي فذلك لظروف نعرفها جميعاً ، ولكنه الآن يحاول جاهداً أن يلحق بالركب على يد أبنائه المخلصين ، من أمثال محمد الفاسي ، وعبدالله كنون ، وعبد العزيز بن عبدالله ، وعبد الكريم غلاب ، وعبد المجيد بنجلون قوّاهم الله وامدهم بزاد من المثابرة لا ينفد ! .

وأهم ما جدّ في الشعر المغربي المعاصر مجاراته للنزعتين المتصارعتين في الشرق ، نزعة الشعر التجديدي المحافظ على نمط شعر شوقي: جدة في الموضوعات والمعاني والأفكار ، ومحافظة في الأسلوب وبناء القصيدة . ويمثل هذه النزعة الكثرة الغامرة من شعراء المغرب وعلى رأسهم علال الفاسي .

وطائفة قالت الشعر على نمط شعر نزار قباني وغيره من أصحاب مدرسة الشعر الحر والشعر الرومانتيكي الابتداعي . ويمثل هذه النزعة بعض الشعراء الناشئين الذين نقرأ لهم في الصحف في مناسبات مختلفة من امثال محمد الحلوي الذي يقول في قصيدته « ميلاد الزهور » :

أرقص الكون شجيُّ النغمِ سارياً يقطر من كل فمِ

دغدغته هبة من نسم قدسيّ ، فصحا من حلم

أتراها جنة ، أم سلوة عن فراديس أبينا آدم

أبدعت تصويرها العالي يد تلهم الفنان ما لم يلهم
فتنة حـــالمة في سندس خضل الملمس أو في برعم

★

كل ما في الكون من فن رفيع إنما تلهمه دنيا الربيع !

والشاعر النابغة علال بن الهاشمي الفيلالي الذي قال في قصيدة « بين الربيع والشباب » :

صفِّقي يا مروج إن غرَّدَ الطير يناغي صَفْو الشعاع المرقرقْ
واخضَلي من نداوة الظل في السفح ومن فيض جـــدول يتدفق
وازهري فالربيع يخضلّ إغدا قاً بزهرٍ ملء البساط المزوّقْ
وامرحي كالنسيم يأرج بالعطْـ ـر وإن هزّ زاهر الحقل صفَّقْ

وغيرهما من هذه المدرسة محمد الصباغ ، والمرحوم مصطفى المعداوي وبعض الناشئين الذين نقرأ لهم في الصحف في مناسبات مختلفة الخ ...

ومن أهم التجديدات في مواضيع الشعر المغربي الحـديث الشعر السياسي الوطني ، وهذا أمر طبيعي تحتمه ظروف المغرب السياسية ، والشعر الوطـني الاجتماعي ، وهو نوع من الشعر يحتاج الى رقي فكري ، وغير قليـــل من الاستقرار وليس من السهل ان يقول فيه كل شاعر فيجيد .

ومن أبرز شعراء المغرب في العصر الحاضر عبد القادر حسن وعبد الرحمن حجي وعبد المجيد بنجلون (وهو من الشعراء المجددين) وإبرهـــيم الألغي ، وإدريس العلمي ومحمد مكوار وعبد الكريم بن ثابت وعبد الرحمـــن الدكالي وغيرهم ، ولبعضهم دواوين شعر مطبوعة كمحمد مكوار وعبد المالك البلغيثي

وعبد القادر حسن ..

أما النثر فقد أسهمت في رواجه وتنوع أغراضه الصحافة والمطبعة ووسائل النشر الكثيرة ، ووجدنا من انواعه المقالة سواء كانت سياسية او اقتصادية أو اجتماعية أو تاريخية أو غيرها. كما وجدنا القصة والاقصوصة وإن كان اكثرهما لا يزال يعتمد في المغرب على الترجمة والاقتباس ، ووجدنا المؤلفات التي تعالج موضوعات مختلفة . ولغة النثر بوجه عام راقيـة في المغرب ، وأنت لا تفرق – ولا سيما في المقالات – بين الأسلوب المغربي والاسلوب المصري مثلاً بالرغم من حداثة عهد المغرب بنهضة النثر الحديثة ، ونحن نقرأ لعبد المجيد بنجلون أو لعبد الكريم غلاب أو لمحمد الوزاني أو لحسن السائح أو لعبد الجبار السحيمي أو لمصطفى الصباغ وعبد القادر زمامه وحسن الشريف ومحمد الطنجي ومحمد بن تاويت – كما نقرأ لأي أديب شرقي شهير من ناحية الأسلوب وطريقة العرض في سهولة وعذوبة وفكاهة أحياناً وسخرية أحياناً وثورية وتلميح .

وقد ساعد على ذلك كما قلنا انتشار الصحف والمجلات وإن كان نصيب المغرب منها لا يزال ضئيلاً في اللغة العربية .

وسنتناول في المباحث الآتية عن الأدب المغربي بعض نصوصه في عصوره المختلفة بالدرس والتعليق ، وسترى خلالها ما أجملنا الحديث فيه من الخصائص والميزات ، وعليك ان تجمع كل شكل على شكله وتضم كل ظاهرة إلى جذورها ومصادرها على ضوء ما عرفت .

أ ـــ الشعر في المغرب

حينما سار العرب سار في ركابهم شعرهم الذي لا غنىً لهم عنه في أشد الأزمات أو في بحبوحة الرخاء. ولئن شغل العرب قليلاً عن تسجيل هذا الشعر في عصور الفتح الأولى للمغرب فليس معنى ذلك أنهم تخلوا عنه ولم يقولوه . نعم قد يكونون أقلّوا منه ولكن لا يمكن ان نتصورهم هجروه، ونحن أعرف بطبيعة العربي في حبه للشعر الى درجة التقديس ، وفي ارتباط تاريخه وحضارته بل وحياته كلها بهذا الشعر . وبعد ، أفليس نزول القرآن بلغة العرب وان يكون هو معجزة رسول الإسلام عليه السلام – دليلا على ما وصل اليه العرب في ميدان الفصاحة والبلاغة وارتباطها بأرقى مشاعرهم وبمواطن الايمان من نفوسهم ؟ وأليس الشعر أعظم مظهر لهذه الفصاحة وأكبر معرض لجلوتها ؟

ولا بد لنا مع ذلك من ان نبدأ البحث من منابته ونسير معه في تطوره حتى نرى كيف أورق الأدب ثم أثمر ثم أينع فرأينا أدباً مغربياً يكاد يكون خالصاً مستقلاً بنفسه عما اختلط به من موثرات .

وقد اختلفت المؤثرات في الأدب المغربي واختلف مظهره وجوهره تبعاً لاختلاف المؤثرات فيه ، بحيث نستطيع ان نقسمه الى العصور الآتية :

عصور الأدب[1]

١ – عصر الفتوح وما بعده	(٦٢ – ٤٦٤ هـ.)
٢ – عصر المرابطين	(٤٦٣ – ٥٤٢)
٣ – عصر الموحدين	(٥٢٤ – ٦٦٧)
٤ – عصر المرينيين	(٦٦٨ – ٨٦٩)
٥ – عصر السعديين	(٩١٥ – ١٠٦٩)
٦ – عصر العلويين	(١٠٥٠ – •••)

هذا وقد جمع بعض الباحثين عصري المرابطين والموحدين في عصر واحد سموه (عصر الامبراطورية الموحدة) ، كما رأى آخرون ان العصرين الأخيرين هما عصر واحد سموه (عصر الأشراف) ، ورأى آخرون ان العصر الأول هو عصران : (عصر الفتوح) و (عصر الأدارسة) .

ولكنا رأينا – على ضوء دراسة المؤثرات الأدبية ثم مظاهرها في هذا الأدب - أنه يجب ان يكون التقسيم على هذه الصورة التي انتهينا الى إقرارها.

ذلك أن عصر الفتوح والأدارسة سواءٌ في عدم وضوح أية حركة علمية أو أدبية . واذا كان المولى إدريس الاول قد كان له أثر كبير في إسلام من لم يكن

---

١ - انظر فيما سبق من الكتاب ما يأتي :
الاتجاه الشرقي والأندلسي وأثرهما في الأدب المغربي ، ومميزات الأدب المغربي ، وستجد هناك حالة الأدب في كل عصر .

قد أسلم من قبائل الجبال او كان قد أسلم وارتد ، وانه نشر المعرفة الاسلامية جاهداً فيما بينهم ، فقد فعل ذلك كثير من الولاة قبله لا سيما حسان بن النعمان وموسى بن نصير وغيرهما . واذا كان المولى إدريس الثاني قد شجع العرب وأسند إليهم أهم مناصب الدولة وجعل لهم عصبية قوية ، وأنشأ مدينة فاس ووصل الينا شيء من كلامه ، فقد فعل نحو ذلك الولاة قبله .

أما عصر المرابطين فينبغي ان يفصل تماماً عن عصر الموحدين . فلقد كان لكل منهما اتجاه ، ولكل منهما سياسة ، ولكل منهما طريقته في تشجيع نوع من العلوم أو منهج من مناهج الأدب .

والأشراف السعديون لا ينبغي ان يخلط بينهم وبين الأشراف العلويين لمجرد تقارب الأنساب ، فقد كان لكل من العصرين مقوماته ومميزاته الأدبية والعلمية والحضارية والعمرانية ، وكان لاختلاف الأحداث في عصريهما أكبر الأثر في تميز أدب كل منهما عن الآخر .

أشهر الشعراء

١ ــ أبو الحسن ابن زِنباع

القاضي الفقيه الأديب الشاعر الطبيب أبو الحسن ابن زِنباع ، لم نعثر له على ترجمة مفصلة أو أخبار وافية فيما بين أيدينا من مراجع ، ويبدو أنه قليل الحظ من عناية الباحثين ، ولعل ذلك لانه عاش في فترة ضعفت العناية فيها بشعر المغاربة ، فهو من الأوائل الذين نعرفهم من أدباء المغرب ، وكان معاصراً للفتح بن خاقان القيسي الاديب والمؤرخ الاندلسي صاحب كتاب « قلائد العقيان » وكان يكاتبه . وقد مدحه ببعض شعره ، ومن ذلك قوله :

فتى فَتَحَ اللهُ المعارفَ باسمهِ ومن دونها بابٌ من الجهل مُبْهَمُ
تأخر في لفظ الزمان وإنهُ بمعناه في أعيانه متَقَدِّمُ

وقد أثبت له الفتح في كتابه السابق سبع قصائد ومقطوعة ، واذا عرفنا أن الفتح بن خاقان قتل عام ٥٢٩ هـ. بمراكش ، فان ابن زنباع يكون قد عاش قريباً من هذه الفترة .

وقد نسبه القَلْقَشَنْدِي في « صبح الأعشى » الى طنجة .

وشعره من الطبقة العالية اذا قيس بشعر ذلك العصر .

النص :

١ أبدَتْ لنا الأيامُ زَهْرَةَ طِيْبِها وتَسَرْبَلَتْ بنَضيرِها وقَشيبِها
٢ واهتزّ عطف الأرض بعد خشوعها
وبَدتْ بهـــا النعماءُ بعد شحوبهـــا
٣ وتطلّعَتْ في عُنفوان شبابها من بعد ما بلغت عِتِيَّ مشيبها
٤ وقفَتْ عليها السُحْبُ وقْفةَ راحمٍ
فبكت لهـــا بعيونها وقلوبهـــا
٥ فعجبتُ للأزهار كيف تضاحكت
ببكائِهـــا وتبـــاشَرَتْ بقُطوبهـــا
٦ وتسربلت حللاً تجرّ ذيولها من لوْمها فيها وشقّ جيوبها
٧ فلقد أجاد المُزْن في إنجادها وأجاد حرّ الشَمس في تربيبها
٨ ما أنصف الخيْريّ يمْنَعُ طِيْبه لحضورها ويبيحُه لمغيبهـــا
٩ وهي التي قامت عليه بدفئها وتعاهَدَتْه بدَرّهـــا وحليبها
١٠ فكأنه فرضٌ عليـــه مؤقتٌ ووجوبـــه متعلق بوجوبهـــا
١١ وعلى سماء الياسمين كواكبٌ أبدت ذُكاءُ العجزَ عن تغييبها

★

١٢ فأدرْ كئوسَ الأنس في حافاتها واجعَلْ سديد القول من مشروبها

١٣ فحديثُ إخوان الصفاء لذاذة   تجنَى ويؤمَنُ من جناية حُوبْها
١٤ وار ُكضْ إلى اللذات في ميدانها   واسبقْ لسدّ ثغورها ودروبها
١٥ أعريت خيلك صيفَها وخريفَها   وشتاءها ، هذا أوانُ ركوبها
١٦ أو ما ترى الأزهار ما من زهرة   إلا وقد ركبت فقارَ قضيبها؟!
١٧ والطير قد خفقت على أفنانها   تلقِي فنونَ الشدو في أسلوبها
١٨ تشدو وتهتزّ الغصون كأنما   حركاتها رقصٌ على تطريبها !!

تحليل النص :

النص في وصف الربيع ، وقد اشتملت الأبيات على ثلاثة عناصر رئيسية :

١ – وصف جو الربيع . ٢) وصف ازهار الربيع .

٣ – الفرحة التي تعم الخليقة في هذا العرس ، عرس الربيع .

والأبيات المحذوفة من النص إفاضة في العنصر الثاني .

والشاعر يحدثنا في الفكرة الأولى عن الأثر العام الذي يحدثه إقبال الربيع فيجدّد شباب الزمن وتلبس الأيام ثياباً زاهية قشيبة ، وتهتز جنبات الأرض بالخصب والأنبات والنضرة والحياة بعد الهمود والموات ، والقوة والشباب بعد الهزال والشيخوخة ، وتهطل السحب فتتفتّح لها الأرض فتروى وتمرع .

وفي الفكرة الثانية يتحدث عن الازهار المتفتحة ذات الألوان المتعددة والثياب النضرة ، والتي أرواها المطر الغزير ، ونمتها حرارة الشمس ، ويتحدث عن خصائص بعض الأزهار في ابداء عطرها وإخفائه ، ومن إشراق ألوان الزهور ذلك الإشراق الذي لا يخفيه ضوء الشمس القوي الذي يخبو معه كل ضوء وكل اشراق .

وفي الفكرة الثالثة يحث إخوان الصفاء على أن يأخذوا بحظهم من المتعة بهذا النعيم الذي جاد به الربيع على الكون ، وألا يدعوا باباً من ابواب اللذة إلا ولجوه، وكفاهم ما يلاقونه في سائر فصول السنة من صدوف عن اللهو ، وان لهم في الأزهار وتفتحها والأطيار وشدوها والأغصان في تراقصها لمثلاً وقدوة .

الشرح : ولنعد الى بعض الأساليب التي تحتاج الى ايضاح وبيان :

ففي البيت الثاني يعني الشاعر ان الارض كانت جامدة هامدة قبل مجيء الربيع ، فلما جاء بعث فيها الحياة والحركة التي تتمثل في النبات الذي يهتز مع النسيم ، فكأنه رقص للارض ، وهذه الخضرة والنضرة علامة الحياة والنماء . وعليك ان تبحث في قاموسك عن معاني الكلمات في هذا البيت والذي قبله والذي بعده (طيب – تسربلت – نضير – قشيب – عطف – شحوب – عنفوان) .

أما العتيّ بضم العين وكسرها فهو مصدر عتا يعتو فهو عاتٍ ، وهو المجاوز للحد في الاستكبار والتجبر، وعتا الشيخ كبر وولّى ، وهذا هو المراد هنا ، فالمعنى أن الارض بلغت شيبها وكبرها . قال تعالى على لسان زكريا عليه السلام حين بُشر بأن سيكون له غلام : «قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ؟) وقال المفسرون : مأخوذة من عتا بمعنى يبس ، أي نهاية السن مائة وعشرين سنة. وأصل عِتيّ عُتُوّ فكسرت التاء تخفيفاً وقلبت الواو الاولى لمناسبة الكسرة ياءً والثانية ياءً ايضاً لتدغم في الياء . قال صاحب الصحاح : « لا يقال عتيت لأن المادة واوية » .

يقصد الشاعر ان الأرض اصبحت تموج بالحياة بعد اليبس والجفاف .

اما البيت الرابع فإنه يصور السحاب إنساناً رحيماً رأى الأرض في حاجة شديدة إلى إحسانه فجاد عليها بما يحيي مواتها من الماء ، ويكمل هذه الصورة البيت الخامس ، فكلما بكت السماء ضحكت الازهار فأينعت وتفتحت .

وعليك ان تبحث عن معاني الكلمات (قطوب - لوم - جيوب) ولا يتبادر إلى ذهنك أن معنى (جيوب) هو ما نعرفه في العامية .

والشاعر يصور الارض في البيت السادس حسناء تلبس حللاً ملونة تتيه بها وتفخر ، وأعجب كيف اتتها هذه الحلل بسبب شق جيوبها ؟! فهذا البيت تكملة للصورة في البيتين السابقين له .

فنترك لك فهم الأبيات من السابع إلى الحادي عشر على ضوء ما تعرفه من علم الأحياء ، ونسعفك بمعاني بعض الالفاظ فحسب : الخِيرِيّ : منثور الزهور الصفراء ، تذكو رائحته ليلاً ويسمى (مسك الليل) لهذا السبب . الدَّرّ : اللبن . التربيب : التعهد بالتربية والانماء . فرض مؤقت : محدد . والضمير في (كأنه) يعود على منع الطيب . وجوبه متعلق بوجوبها : وجوبه حضور وقته يعني (الفرض) بوجوبها : اي الشمس . ويقال : وجبت الشمس اي غابت . فالمعنى : كان الخيري وهو يمنع طيبه عن الشمس يرى ذلك فرضاً عليه وهذا الفرض لا يحل أداؤه الا اذا غابت الشمس . ذُكاء: الشمس علم من أعلامها ، وهو غير منصرف . الإنجاد : الإنبات والإخراج . ومعنى قوله: (فاجعل سديد القول من مشروبها) في البيت الثاني عشر يقصد ان يدار الحديث الشيّق بين الأصفياء على الشراب فتجتمع لذة الحديث ولذة الشرب . الحوب : الإثم . تُجْتَنَى : تقطف ثمرتها . جناية : ارتكاب الإثم . أعريت خيلك : أعرى الخيل لم يضع عليها عدة الركوب من السرج ونحوه وهو كناية عن عدم الاستعداد والتقاعد ، ويقصد هنا أن هؤلاء قد تقاعدوا عن المسرات في الفصول الأخرى من السنة وأنْ قد آن لهم في فصل الربيع ان يعوضوا ما فاتهم . فقار القضيب : القضيب العود الذي يحمل الزهرة ، والفقار جمع فِقرة وهو الجزء من القضيب ، وفقار الظهر خرزاته .

التعليق والنقد

القصيدة من بحر الكامل وقافيتها ممدودة ، ولذا فموسيقاها واضحة مطربة،

والموضوع وصف الربيع، فهناك تناسب في اختيار الوزن والقافية للموضوع الجميل الذي يعمر بموسيقى الطبيعة وألحـــان الطيور ، وقد حفلت القصيدة بالصور الشعرية وتشخيص بعض مظاهر الطبيعة ، فــالأيام تجملت وتطيّبت ولبست أجمل الثياب ، والأرض تبدلت من خمودها وسكونها وجفافها حركةً وحيويةً ونضارة ، والسحب بكت رحمةً للأرض ، والأزهـــار جاوبتها بالتضاحك والتباشر ، وتسربلت بحللها وثيابها ، وقد تحالف المطر الهتون والشمس الحارة على تعهد الزهور بالنماء والنضرة والزهاء ، والمنثور يكفُر نعمة الشمس ؛ فـلا تذكو رائحته إلا بعد مغيبها، والقعود عن اللذات إعراء لخيول اللهو والسرور، وانتهاب الملذات إسراج لها وإعداد ، والطبيعة في عرس ، قد اعتلت الأزهار منابر العيدان ، وتعلقت الأطيار بالأغصان تشدو وتردد الألحان .

إلا أن الحيوية تنقص بعض هذه الصور . فانظر الى قوله : « اهتز عطف الأرض » ، « بذت بها النعماء » ، » قامت عليه بدفئها » .. الخ . وقارن هذه الصور بما جاء في وصف الربيع للبحـتري ، في قصيدة « أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً » ، أو بما جاء في وصف ابن المعتز للسحب وأثرها العجيب في الأرض :

فما زال مدمعهـــا باكيـــا على الترب حتى اكتسى ما اكتسى
فأضحت سواء وجوه البلا د وجُنّ النبات بهـــا والتقى

أو قول صفي الدين الحلّي في مظاهرة الطبيعة لقدوم الربيع :

والسحب تعقد في السماء مآتما والأرض في عرس الزمان وعيده
ندبت فشقّ لها الشقيقُ جيوبَهُ وازرقّ سوسنها للطم خدوده

وسوف تلاحظ أنها ملأى بالحياة زاخرة بالحركة ، وذلك بصرف النظر عما في صور الحلي من مآخذ أوقعه فيها غرامه بالبديع .

ووصفُ ابن زِنْباع للربيع وصفٌ مادي حسي ، شأن غيره من شعراء العرب الأقدمين ، وهذا مما يأخذه الغربيون على الأدب العربي ، كما يأخذون عليه ايضاً ما يبدو من انفصال وعدم تفاعل بين الأديب والطبيعة. ومن الشعر الذي يجاري النزعة الحديثة في « التفاعل » قول خليل مطران من قصيدته (المساء) :

والبحر خفاقُ الجوانبِ ضائق كمَداً كصدري ساعة الإمساء
تغشى الجوانبَ كدرةٌ وكأنها صعدتْ إلى عينيَّ من أحشائي
والأفق معتكر قريحٌ جَفْنُهُ يُغْضِي على الغَمَراتِ والأقذاء
يا للغروب وما به من عبرة للمستَهام وعِبرة للرائي
أو ليس نزعاً للنهار وصَرعة للشمس بين جنازة الأضواء
أو ليس طمساً لليقين ومبعثاً للشك بين غلائل الظلماء

فاذا عرفت أن خليل مطران كان عاشقاً مهجوراً أدركت سر هذه الظلمة النفسية التي تحط بأثقالها على عواطفه .

هذا ولا نكاد نجد صورة مبتكرة في وصف ابن زنباع ، فقد طرق الشعراء والأدباء جميع هذه الصور حتى ابتذلوها، والأمر أوضح من ان يحتاج الى الأمثلة. فأي شاعر طرق هذا الموضوع ولم يتحدث عن ملابس الأرض واهتزازها بالنبات ونضرتها وتجدد شبابها ، وبكاء السحائب وضحك الارض وشق الجيوب وغناء الأطيار وتلوّن الازهار .. الخ ? وقد تكون صورة عقوق « الخيري » للشمس مبتكرة، وفيما عدا ذلك فهي صور تقليدية قريبة التناول لم يحاول ان يحور فيها أو يكسوها ثوباً أزهى أو يصبغها بصبغ فيه شيء من طابع البيئة.

ونرى اهتمام الشاعر ببعض انواع البديع وإن كان قد تناوله بلطف فلم يكثر

منه ولم يتكلفه تكلفاً واضحاً . ففي البيت الثاني طباق بين « اهتز ؛ خشوعها » وبين « النعماء ، شحوبها » وفي البيت الثالث « عنفوان شبابها ، عتيّ مشيبها » بينهما مقابلة . وتجد هذا الطباق أو المقابلة في البيت الخامس والثامن ، كما تجد الجناس في « ووجوبه متعلق بوجوبها » وفي « تجنى ويؤمن من جناية حُوبْها » . وتجد غير هذا من المحسنات التي لا نرى داعياً للاشارة اليها كلها .

ويبقى بعد هذا أن الصياغة جميلة وفيها يسر ووضوح ، وإن يكن ليس فيها من ملامح البيئة شيء .

وليس يخاف أن أسلوبه يبدو فيه تعبير العلماء والفقهاء كقوله :

فكأنه فَرْضٌ عليه مؤقّت ووجوبُه متعلق بوجوبها

وكقوله :

تلقى فنون الشدو في أسلوبها ......

فهل نستطيع أن نعد ذلك أثراً من آثار تلك البيئة التي سيطر فيها الفقهاء وطائفة من العلماء على كل شيء في الدولة المرابطية التي تربى شاعرنا في حجرها؟

ثم تجده يلجأ إلى الحشو احياناً لتكملة بعض الأبيات ، كما هو واضح في الشطرة السابقة ، فإن كلمة (اسلوبها) ليس لها موقع في المعنى ، وكذلك كلمة (قلوبها) في قوله :

وقفت عليها السحب وقفة راحم فبكت لها بعيونها وقلوبها

وفي كل حال فإن هذه هنات لا تحط من قدر الشاعر ولا من قدر القصيدة التي جاءت على النمط التقليدي العربي .

مناقشة

« يمثل هذا الشاعر عصر المرابطين ، فهل تستطيع أن تثبت أنه كان في هذا العصر حركة أدبية ؟ » .

وفي إمكانك ان تراجع ، في هذا البحث ، المصادر التالية :

المراجع

النبوغ المغربي بأجزائه الثلاثة .

الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية (من مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ـ الرباط).

الأنيس المطرب بروض القرطاس ، لابن أبي زرع ، الجزء الثاني .

المغرب في حلى المغرب – طبع اخيراً بالقاهرة .

٢ ـ ابن حبوس [١] (٥٠٠ – ٥٧٠ هـ)

قصيدته في الحكم (رد الطرق ..) :

١ ردِ الطَّرْقَ حتى توافي النَّميرا فربَّ عسيرٍ أتاح اليسيرا
٢ وأَرسلْ قَلوصَك طورا شمالا وطورا جنوباً وطورا دَبورا
٣ وَفِرْ ماء وجهك حتى تجِمّ وأطْفِ السَّموم به والهجيرا
٤ وشُنَّ على غازيات البلاد من النقع والرمل جيشا مغيرا
٥ وَطِرْحين أنت قويّ الجناح لا عُذْرَ عندك ألا تطيرا
٦ ولا تقعنَّ وأنت السليم حيث تضاهي المهيضَ الكسيرا

★

٧ يعزُّ على النُّبل أني غدوت أكنّى أديبا وأُسمَى فقيرا
٨ وأني ثبتُّ لكفّ الزمان يعرّق عَظْميَ عَرْقا مُبيرا
٩ ومـــا ذاك أنيَ هيّـــابةٌ أخاف الرحيل وأشْنَا المسيرا
١٠ ولكن بحكم زمَانٍ غدا يَحُطّ الجياد ويُسْمِي الحميرا

---

١ ـ سبق ان ترجمنا له فارجع الى ترجمته في موضعها من هذا الجزء .

المفردات والأساليب :

الطرق : الماء الكدر والملوث ، وأصله طَرَق ؛ اسم مفعول بمعنى المطروق كسَلب بمعنى المسلوب . وفي كتب اللغة الطَّرَق والمطروق ، ماء السماء الذي تبول فيه الابل وتبعر ، ومنه قول إبراهيم النخعي ، الوضوء بالطرق أحب إليّ من التيمم ، ومن الطرق (وليس مراداً هنا) الضرب بالحصا لمعرفة المستقبل ، ومنه قول لبيد :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ

يقصد بالطوارق المتكهنات بضرب الحصى .

٢) القلوص : الشابة من النوق ، جمعها قُلُص وقلائص .

الدَّبور : ضد الصَّبا ، وقيل هي كل ريح تهب بين مهبين .

٣) فِرْ ماء وجهك : احفظه وصنه عن الابتذال ، من وَفَر يَفِر .

ومنه قول ابي فراس :

وما حاجتي في المال أبغي وفورَهُ

إذا لم أفِرْ عِرْضي فلا وَفَرَ الوفرُ

(السموم – الهجير) ابحث في قاموسك عن معناهما .

(تجمّ) جمّ الماء وغيره يجِمّ جُموماً ، كثُر ، والجم : الكثير .

(وتحبون المال حباً جما) ومن معاني المادة ، الراحة ، ومنه أخذ (الاستجمام) والنبت الجميم : الذي لم يستكمل طوله .

٤) النقع : الغبار المتراكم المظلم ، قال بشار يصف معركة :

كأن مُثار النَّقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ

٨) يعرّق عظمي : لا يترك عليه أثراً من لحم . مبيراً : مهلكاً .

٩) أشنا : مخفضة من (اشنأ) بمعنى أبغض ، من شنىء يشنأ الثلاثي ، قال تعالى : (ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنآنُ قوم على الا تَعْدلوا) ١٠) يحط الجياد : يضع من أقدارها . جمع جواد : الفرس الأصيلة . يُسْمي الحمير : يرفع من أقدارها .

التحليل

الأبيات الستة الأولى حكم يسوقها الشاعر مساق النصيحة ، خلاصتها أن الانسان يجب عليه أن يقتحم الصعاب ويرتاد المجهول ويتحمل الأهوال ويهتبل الفرص ويغتنم الشباب والقوة ، وأن يكون بصيراً لا يبذل من نفسه أو يوهي من قوته إلا حيث يجدي ذلك ، وانت لكي تصل الى الماء العذب يجب ان تخوض إليه الماء العكِر فكذلك يفعل من يريد أن يستقي من النهر ، ولكي تصل الى رزقك يجب أن تسعى لذلك وأن تجوب كل الطرق وتسلك جميع المسالك ،وإذا جاءت الأحداث وألقت بكلكلها ورمت بجرانها وأسفَتْ رمالها وأثارت غبارها فلا تقعدنّ عن الاستعداد لها بجيوش لا تقهر من العزيمة والصبر ... الخ .

وفي الأبيات الأربعة الأخيرة يشكو الزمان الذي اصابه بالفقر وقلّم أظفاره وقصّ ريشه ولم يترك له لحماً على وَضم ، ثم ينفي عن نفسه سمة العجز والتقصير ويعزو السبب إلى أن الزمان لا يفرق بين بيطار وعطار ، ولا بين جواد وحمار ، بل يرفع الأنذال ، ويضع الأحرار . ولعلنا نلحظ في البيت السابع مرارة وسخرية أنْ عرف بأنه أديب والشعرُ صناعته وهو في الوقت نفسه في عداد الفقراء ..

صور : لا نكاد نعثر للشاعر على صورة شعرية دقيقة في هذه الأبيات إلا حيث يقول : وأني ثبتّ لكفّ الزمان .. الخ البيت ، ولكن الرموز كثيرة في شعره فهو يرمز بالماء العذب والماء الكدر الى الطيبات وما يكتنفها من صعوبات ، فلا تصل إليها إلا بعد إزاحة ما في طرقها من أشواك ، وقد تدمى

يداك دون ذلـــك وتحفى قدماك وترسب في نفسك آثار جروح وكدمات. ويرمز الى الإنسان المجتهد في سبيل بلوغ أمانيه براكب القلوص يجوب البـلاد شرقاً وغرباً ويطوي القفار جنوباً وشمالاً..وهكذا..ولا نحسب أنه يعوزك أن تعرف باقي الرموز . وعلى كل حال فليس من شأن الحكم والنصائح أن تتحمل الصور الشعرية الرائعة لا سيما مثل هذه الحـــكم السردية التي لا عمق فيهـا ولا تحليل .

التعليق والنقد

لقد قال ابن حبوّس الحكمة وأكثر منها في شعره . والحكمة إذا لم تكن نتيجة دراسة فلسفية عميقة جاءت جافة مملّة ، كتلك الحكم الفطرية التجريبية التي كان يسوقها شعراء الجاهلية وخطباؤها. وحتى عهد ابن حبوس لم يكن قد تهيأ للمغاربة التعمق في عـــلوم الفلسفة والمنطق ، بـــل لقد كانوا — ولا سيما المرابطين — يشنون عليها حرباً عواناً ، وقد عرف تاريخ المغرب والأندلس جموداً عجيباً إزاء المفكرين والأعمال الفكرية فكانوا يعاملونهم ويعاملونهـــا بقسوة يشيب لها قرن الوليد ، فأنـّى تنضج الحكمة في مثل هذا الجو ؟

واذا كنا قد عرفنا مفكرين مغاربة أو متغربين عظماء فيما بعد فإنما جاء ذلك أواخر عهد الموحدين الذين حمـــل زعيمهم من المشرق بذرة التفكـــير الفلسفي فآتت ثمارها في عهد يوسف بن عبد المؤمن ، العالم المشارك في العلوم العقلية ، والذي احتضن الفيلسوفين العظيمين : ابن رشد وابن ُطفَيْل .

وهكذا نجد أن حكمة ابن حبوس — وإن صيغت في قالب شعري جميل — فإنهـــا مع ذلك دون حكمة الشعراء الذين اشتهروا بالحكمة بعد ان تعمقوا الفلسفة كالمتنبي والمعري وابن الفارض ، وإن شئت فقارن حكمته بهذه الحكم للمتنبي :

ليس عزاً ما مرّض المرء فيه ليس همّاً ما عاق عنه الظلامُ

واحتمال الأذى ورؤيةُ جانيه غذاء تَضْوَىٰ به الأجسام
ذلٌ من يَغْبِطُ الذليلَ بعيش ربَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمام
من يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه ما لجرح بميِّتٍ إيلامُ
وإذا كانت النفوسُ كبــارا تعِبَت في مُرادهـــا الأجسام

هذا وإنما ضربنا لك بمثال من شعر المتنبي على نمط حكمة ابن حبوس من حيث السرد حتى تكون الموازنة منصفة ، ولكن للمتنبي حكماً عميقة تحليلية يحفل بها شعره ولا يتعلق بذيلها شعراء اضخم من ابن حبوس .

أما أبيات الشكوى فانها تحمل مرارة العاطفة ومرارة الألم ، وكأنا به قد قال هذه القصيدة في منفـــاه بالأندلس إذ قد عرفنا أن أيامه في المغرب أولاً وآخراً كانت أيام عز وجاه ، وأنه لم يكد يبلغ العشرين من عمره حتى اشتهر لدى المرابطين . ثم ان العاطفة الصادقة تبدو في قوة التعبــير في هـذه الأبيات كلها ، وعمق الخيــال وإصابته المحز في البيت (وأنـّي ثبتّ .. الخ) وتلك المقارنة الساخرة في البيت الأخير .

ومن هذا القبيل من شعر الشكوى قوله :

يا غرابَ البَيْنِ لا طر تَ ومُلِّيتَ الوقوعا
رمت أن ترقىٰ سريعا فتردَّيتَ صريعـــا
ربما اصطاد بُغاثٌ شِبَعاً واصطَدْتَ جُوعاً

البُغاث : ضعاف الطير :

بُغاث الطير أكثرها فراخا وأُمّ الطير مِقـــلاةٌ نَزُورُ

مناقشة

أكتب نقداً للأبيات الآتية يتناول من كل منها الجانب الذي نشير لك إليه:

١ – البيت الأول : من حيث التناسب بين معنى الشطرة الأولى والشطرة الثانية على أساس فهم معنى حتى (الغاية أو التعليل) .

٢ – البيت الثالث : ماذا يقصد بالنصيحة ؟ وهل وفق في التعبير ؟ وما معنى (حتى) فيه ؟ .

٣ – البيت الخامس : ما رأيك في تأليفه ؟ وهل يؤدي المعنى الذي قصده ؟

٤ – البيت السادس : ماذا ترى في أسلوبه وفي التعليل الذي ساقه ؟

٣ ــ أبو العباس الجرّاوي[١] (٥٣٠ – ٦٠٩ هـ.)

منتخبات له

من قوله : يمدح عبد المؤمن حينما وافى الاندلس سنة ٥٥٦ هـ :

أعليتَ دينَ الواحِد القهارِ بالمشْرَفيّةِ والقَنا الخطّارِ

★

١ وافيت أندلساً فأمّن خائفٌ وسما لأخذ الثأر ربُّ الثار
٢ بعِراب خيلٍ فوقهن أعاربٌ من كل مقتحِم على الأخطار
٣ لو أنها نصرت عليّاً لم تَردْ خيلُ ابن حربٍ ساحةَ الأنبار
٤ مُلِئت به الدنيا صفاءً بعدما مُلِئت من الأقذار والأكدار
٥ أخليفةَ المهديِّ دُمْتَ مؤيّداً بالله منتقماً من الكفّار
٦ ترمي شياطين الأعادي في الوغى برُجوم خيل من سماء غبار
٧ روّعت كل مروِّع وحفظتَ كل مضيّع وحميتَ كل ذِمار

---

١ – راجع ترجمته في موضعها من هذا الجزء .

المفردات والاساليب :

المشرفية : السيوف . القنا الخطار : الرماح المهتزة في يد المحاربين، أو هي المرتفعة المنخفضة في أيديهم للطعن . عراب الخيل : الخالصة من البراذين (والبراذين دواب الحمل ، وهي أيضاً الخيول التركية أو غير العربية) . ابن حرب : معاوية بن أبي سفيان . الأنبار : بلدة على شاطىء الفرات الشرقي. يشير بهذا البحث الى ما رواه التاريخ من أن خيلاً لمعاوية وردت الأنبار وقتلت عامل علي بن ابي طالب حسان بن حسان فخرج علي مغضباً وخطب الناس : « .. ألا وإني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزِي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ... وهذا أخو غامد (سفيان بن عوف من قواد معاوية) قد وردت خيله الأنبار وقتلوا حسان بن حسان ... فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً .. » الخ .

وأما قوله : « ملئت به الدنيا صفاء » ... فهو إشارة إلى الأحاديث المروية عن المهدي المنتظر (وقد ادعى ابن تومرت المهدوية ، وهذا خليفته) من انه يأتي في آخر الزمان فيطهر الأرض ويملؤها عدلاً بعد ان ملئت جوراً .. الرجوم : ما يُرجم به من الحجارة وغيرها ، أي يُرمى به مفردها رَجم ، ويقال رُجِم الزاني أي رُمي بالحجارة حتى يموت ، ورجم الحجار في الحج الرمي بالحجارة بمنى . ومن معاني الرجم ايضاً الرمي بالتهمة الباطلة .. ورجوم الخيل التي يرمى بها في المعركة . وفي البيت استعارة تمثيلية مقتبسة من قوله تعالى في سورة الجن على لسانهم : « وأنا لَمسْنا السماء فوجدناها مُلئت حرَساً شديداً وشُهباً . وأنا كنا نقصد منها مقاعدَ للسَّمْع فمن يستمع الآن يجدْ له شهاباً رَصداً) . الذمار : كل ما تجب حمايته .

التعليق :

هذا ونلحظ في هذه الأبيات شيعية الجراوي في حديثه عن عليّ واعتقاده

بمهدوية ابن تومرت في قوله : « ملئت به الدنيا صفاء .. » الخ لما فيه من الأشارة إلى أحاديث المهدي المنتظر. والأبيات كما نرى قوية الأسلوب والمعنى وسيطرة الروح الدينيه واضحة فيها ، وانت وإن كنت لا تحس بأنه تعمّد أن يملأها بالمحسنات البديعية إلا انك لو تأملتها لوجدت الأمر كذلك ولكن في براعة وإتقان .

٢ – **ومن لطيف** قوله ما هجا به الأستاذ ابن الياسمين[١] :

إِسْتُ الحبارَىٰ ورأس النسر ، بينهما
لون الغراب وأنفاس من الُجعَل
خذها إِليك بحكم الوزن أربعة
كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

فكان جواب ابن الياسمين أحكم وأوجع :

يا أعرق الناس في نسل اليهود ومن
تأبى شمائله التفصيل للجمل
خذها بحكم اجتماع الذم واحدة
تغني عن العطف والتوكيد والبدل

الُحبَارى : طائر أكبر من الدجاج وأطولُ عنقاً ، يضرب به المثل في البلاهة . الجُعَل : ضرب من الخنافس كريه المنظر كبير الحجم .

---

١ ـ أبو محمد عبدالله بن حجاج الفاسي الرياضي الذي برع في عدة علوم كونية ولسانية ، وصاحب أرجوزة في الجبر – توفي بمراكش سنة ٦٠١ .

والإست : العَجُز . يذمه بالغبـــاء وغرابة الشكل وسواد اللون ونتن الرائحة .

أما ابن الياسمين فقد عيّره بأصله ، فقد زعموا أن (جراوة) قبيلة الشاعر كانت قبيلة يهودية ، وقد عرفنا في المقدمة التاريخية أن الإسلام دخل المغرب وكان فيه بعض اليهود ، ثم جـــاء آخرون بعد الاسلام مهاجرين من الأندلس وغيرها . ولكن تهمة اليهودية لا تزال تلاحق بعض الأسر المغربية وأغلبهـــا افتراء إن لم تكن جميعاً بدافع الحقد والحسد .

٣ — ومن سخريات الجراوي مـــا قاله في عمرة بنت أبي حفص السلمي[١] وكانت شاعرة وكان أبوها منافساً له :

نبغت عَمْرَةَ بنت ابن عمر هذه ـــ فلتعجبوا ـــ احدى العِبَرْ
قل لها عني إذا ما جئتها قولةً تترك صَدعا في الحجر :
هبكِ كالخنساء في أشعارها أو كليْلى هَلْ تجارين الذكر ؟

ولا يخفى ما في كلامه من تورية في البيتين الثاني والثالث .

هذا ويقال ان الجرّاوي لم يسلم من لسانه احد ممن تعرض له أو نافسه على كثرتهم ، وأن ذلك كان في أواخر عهده حين أخذ ضوؤه يخبو فأخمله المنافسون وتفوقوا عليه. هذا وللجرّاوي شعر كثير يقول صاحبا كتاب (الأدب المغربي) إنه لم يقع بأيديهما منه الا ٥٧٧ بيتاً . ولا شك في ان هذا قلٌ من كُثُر اذا عرفنا ان الرجل ظل يقول الشعر نحو ستين عاماً وان قصيدته في مدح عبد المؤمن التي ذكرنا بعض أبياتها في أول المختار له ، قالها في سنة ٥٥٦ هـ. فلا شك انه في هذا التاريخ كان قد اشتهر حتى وصل الى مدح الامير العظيم ، فاذا

---

١ — القاضي الأديب ابو حفص عمر عبدالله الأغمـــاتي ، اشتهر بانهاكـــه في العشق ، توفي سنة ٦٠٤ باشبيلية .

أضفنا الى ذلك أنه شاعر بلاط أربعة ملوك ، وانه تعرض لمنافسات كثيرة ، وأنه شاعر هجّاء ، سليط اللسان – عرفنا الى أي حد يمكن ان تكون غزارة شعره .

وهو جامع كتاب في الحماسة اشتهر باسم « الحماسة المغربية » فلا بد أنه كان صاحب اطلاع واسع اذ يؤلف كتاباً خاصاً بحماسة المغرب في الوقت الذي نعرف فيه ان المغرب كان حديث عهد بالأدب، بله تدوين انتاجه وحفظه . وللجرّاوي الى ذلك آثار نثرية فنية تمتاز بجملها المستقل بعضها عن بعض ، وبأنها تتخللها اشعار ، والسجع فيها ملتزم وتبدو عليها المسحة الشيعية .

ومن مجموع ما درسنا من شعره نستطيع ان نحكم بأنه شاعر مجيد متشيع مثقف مكثر وان أكثر شعره في المدح والهجاء .

مناقشة

للجراوي قصيدة في غزوة الأراك المشهورة . أدرس ما لا يقل عن عشرة أبيات منها ، واستنبط منها بعض خصائص شعر الجراوي التي القينا على بعضها ضوءاً فيما درسنا له من المنتخبات .

وارجع في النص الى كتاب النبوغ ج٣ ص ١٦، طبع دار الكتاب اللبناني.

٤ ـ مالك بن المرحّل (٦٠٤ - ٦٩٩ هـ)

حظِي أبو الحكم مالك بن المرحل المصمودي السبتي من عناية الباحثين بما لم يحظ به شاعر مغربي آخر ، ويسميه بعضهم « شاعر المغرب الأكبر » ، ويتفق الجميع على انه سيد شعراء العصر المريني الذي نهض فيه المغرب نهضة كبرى في شتى فروع المعرفة والفن ورفاهية العيش ، وقد تصرف هو في أنواع شتى من العلوم ، وكان بينه وبين بعض معاصريه منافسات وخصومات كالذي حدث بينه وبين ابن رشيق .

وكان ابن رشيق الثعلبي من منافسي مالك بن المرحل فأدى ذلك الى تهاجيهما، فنظم ابن رشيق قصيدة فيها :

لكلاب سَبتةَ في النباح مدارك　　وأشدها عند التهارشِ مالك
شيخ تفانى في البطالة عمره　　وأجلُّ مَحكِيهِ الكلام الآفك

واتخذ لها كنانة كأوعية الكتب وكتب عليها : « زمام معجّل الى مالك بن المرحل» وعمد الى كلب وجعلها في عنقه وأوجعه ضرباً حتى لا يأوي إلى أحد وطرده بالزقاق،فذهب الكلب يعوي وخلفه الناس أمة ،وأخذ الكتاب وقرىء فحمل إلى ابن المرحل فلم يخف عليه أنه من عمل ابن رشيق ، فقال في جوابه :

كلاب المزابل آذينني　　بأبوالهن على باب داري
وقد كنت أوجعها بالعصا　　ولكن عوت من وراء الجدارِ

وقد نظم بعض العلوم شعراً كارجوزته في « فصيح ثعلب » وكمنظومته في القراءات التي عارض بها الشاطبية وسماها « التبيين والتبصير » وكـ « الواضحة » في الفرائض والمواريث ، وأرجوزة في العروض ، وغير ذلك في غريب القرآن والمنطق ... ، وله ديوان شعر سماه « الجولات » وديوان آخر سماه « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى » وهو من قبيل التصوف ، وقد التزم فيه كثيراً مما لا يلتزم ؛ كافتتاح أبياتها بحروف الروي على أن يستمر ذلك في عشرين بيتاً ، فإذا كان الروي الباء مثلاً جعل بدء البيت باء ويستمر كذلك عشرين بيتاً ، ومن ذلك قوله في الحكم :

بأيِّ دواء أم بأيِّ طبيب يداوَى عِذارٌ من بياض مشيب
بياض كما لاحت كواكب سُمْرةٍ تريك طلوعاً مؤذناً بغروب
بشيراً نذيراً لاح كالفجر صادقاً على كاذب حلو اللسان خَلوب
بنَيَّ ابكِ لي إن البكا يبعث البكا
وليس جوابي منك غيرَ وجيب

وهكذا ..

ونظم مجموعة أخرى سماها « المعشَّرات النبوية » وهي على النمط السابق، ولكن يلتزمه في عشرة أبيات ، وله « العشريات الزهدية » كذلك ، وقصائده في « مدح الفعال النبوية » ونحو ذلك من شعر التصوف والتدين ، وزاد على التزامه هذا أن رتبها على حروف المعجم ، وهذا يدل على طول باع في الشعر غريب ، وعلى قاموس لغوي واسع .

ومن هذا الشعر قوله من « الوسيلة الكبرى » ؛ وقد التزم حرف الرويّ في أوائل الابيات :

منتخبات

«أ»

١ أيا عتقاءَ المصطفى إِن حقَّهُ عظيمٌ ، فكونوا أكرمِ العتقاءِ
٢ أما كنتمُ من قبله في شقاوة فلولاه هل كنتم من السعداء ؟!
٣ أترجون في يوم القيامة غيره إذا قيل هل للناس من شفعاء؟!
٤ إِليه يشير ابن البتول إِذا رأى ضجيج الورى في حَيْرة وعناء
٥ إِشارتَهُ من قبل ذاك إِلى اسمه وكان الحواريّون في الشهداء
٦ ألا يا رسول الله أنت ملاذنا وطِبّك مذخورٌ لأعظم داء
٧ أياديك يا خير الورى عمّت الورى فجازاك ربُّ الناس خير جزاء

المفردات والاساليب :

وعتقاء المصطفى هم الذين أعتقهم النبي عليه السلام من ظلام الكفر ومن عذاب النار ، يقال أعتق السيد عبده اذا وهبه الحرية والانطلاق، ومنه أخذ هذا المعنى ، فكأن الناس كانوا في قيد الضلال فأنقذهم نور الاسلام . والبيتان الأول والثاني مأخوذان من قوله تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شَفَا حفرة من النار فأنقذكم منها) . والبيت الثالث مأخوذ معناه من قوله تعالى : (هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ؟) ومن أحاديث الشفاعة . وكذلك أخذ معنى البيت الرابع من حديث النبي عليه السلام في الشفاعة، وان الناس يوم القيامة يذهبون الى الانبياء يستشفعون بهم وكل منهم يحيلهم على آخر حتى يصلوا الى عيسى عليه

السلام فيشير لهم الى محمد ﷺ ، فاذا جاءوه قال لهم : «أنا لها أنا لها». والبتول من النساء : العذراء المنقطعة عن الأزواج أو هي الطاهرة المنقطعة الى الله. ومنه قوله تعالى : « وتبتـلْ إليه تبتيلا » ، والمقصود بهـا في البيت مريم أم عيسى عليها السلام. والبيت الخامس إشارة الى قوله تعالى : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل، اني رسول الله اليكم مُصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد » ثم الى قوله تعالى بعد ذلك : « يـأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريـين مَنْ انصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله » .

هكذا نرى ان هذه الأبيات ذات المعنى الديني مقتبس أكثرها من القرآن والحديث في أسلوب سهل لين ولكنه باسم النظم أحق منه باسم الشعر .

ونذكر بهذه المناسبة أن شعر الدين والتَوسل كثير في الأدب المغربي لسيطرة الروح الدينية وسلطان الفقهاء وقيام أكثر الدول على دعوات دينية .

«ب»

وأجمل من الأبيات السابقة قوله في قصيدة من معشّراته :

١ أمالي إلى قبر النبي مبلّغ سلاما فقد أفنى الزمان ذَمائي
٢ أمانة مشتاق حمى الدمعُ جفنَه فما طاف طيف النوم خوف حمائي
٣ أمانيَ كانت لي زيارة قبره وأرضيَ روض يانع وسمائي
٤ أمالَ قناتي بعد حسن اعتدالها زمان أراني النقص بعد نمائي
٥ أمات قوى الأعضاء إلا أقلّها وأعطشَ روضي حين أنضب مائي

مفردات واساليب :

الذّماء : بقية الروح . حمى الدمع جفنه : منعـه النوم ، كما تقول حمى

الطبيبُ المريضَ الطعام . ومنه قوله ﷺ : « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء » ، والمصدر حماية ، فقوله : خوف حمائي لعلها ضرورة شعرية أو مأخوذ من الحِمَى وهو ما مُنِع وحُمِي أن يناله الغير ، ومد المقصور جائز في الشعر ، ومعنى البيت على كل حال ان المشتاق كثير البكاء فالدمع الذي يملأ عينه يمنعها النوم حتى ان النوم ليخشى ان يخترق هذا الحمى فيُطيف بالعين. وفي البيت الثالث قدمّ خبر كان عليها ، وهذا جائز والتقديم للاهتمام بالمقدَّم ، وهو يريد ان يقول في هذا البيت : ان زيارة قبر النبي كانت أمنيته ولكنها كانت ايام كان قوياً قادراً ، والى هذا يشير بقوله : « وارضي روض يانع وسمائي » ثم يؤكد هذا في شكواه في البيتين التاليين . وفي قوله « وسمائي » حذف الخبر إذ الأصل: وسمائي ظليلة ، وهذا حذف جميل وان كان الذي ألجأه اليه الوزن. والمعنى واضح في البيتين الاخيرين .

التعليق :

ونحن نرى في مجموع الأبيات فناً شعرياً جميلاً ، فمع ان الشاعر ألزم نفسه بقيود كثيرة كالبدء في كل بيت برويّه وكالتزامه قافية طويلة وحركاتٍ وسكنات خمسة احرف والتزام ثلاثة احرف عند بدء كل بيت وختامه ، إلا انه مع ذلك صوّر شوقه الى زيارة النبي تصويراً رائعاً ، فقد أفنى الزمان دَماءه وحمى الدمع جفنه ، وخاف طائف النوم حماه ، وارضه كانت يانعة وسماؤه ظليلة ، ثم ان قناته مالت ، ونماءه انقلب نقصاً ، وروضه صار الى عطش ويبس ، وماءه نضب .. الخ .

وانت لا تلحظ هذه المحسنات البديعية الفاشية في شعره في اتقان ومداراة عجيبين ، ولكنها لعين الفاحص المتأمل مدرَكة ، ففي البيت الثاني طباق بين « حمى وخوف » وجناس ناقص بين « طاف وطيف » ، وفي البيت الثالث جناس ناقص بين « ارض وروض » . وفي البيت الرابع طباق بين « آمال واعتدال » وبين « نقص ونماء » . وفي البيت الاخير احتراس في قوله : « إلا أقلها .. » وهكذا .

هل تستطيع ان تذكر كم فكرة بثها الشاعر في هذه الأبيات؟ سنترك ذلك لك ، وعليك ايضاً ان تعبّر عن معناها بأسلوب ابن المرحل في التصوير .

«ج»

وكان ابن الاحمر بالأندلس قد أرسل الى يعقوب المنصور المريني يستنجده حين ضيَّق عليه الإسبان الخناق فأجاب مالك عن هذه الرسالة بقصيدة منها :

شهد الإلهُ وأنتِ يا أرضُ اشهدي   أنّا أجَبْنا صرخَةَ المستنجدِ

ثم استنفر الناس بقصيدة أخرى للجهاد في الأندلس ، ومنها :

١ استنصرَ الدينُ بكم فاستقدموا   فإنكُمْ إن تسلموه يُسْلَمُ
٢ لاذت بكم أندلسٌ ناشدةً   برحِم الدِّين ونِعْمَ الرحِمُ
٣ فاسترحمتكم فارحموها إنه   لا يرحم الرحمن من لا يرحمُ
٤ ما هي إلا قطعة من أرضكم   وأهلها منكم وأنتم منهمُ
٥ لكنها حُدَّت بكل كافر   فالبحر من حدودها والعجمُ
٦ لهفاً على أندلس من جنة   دارت بها من العدا جهنم
٧ استخلص الكفار منها مدناً   لكل ذي دين عليها ندم
٨ دعّوا العهود واعتدوا وما دروا   بأنها بحبْلكم تعتصم
٩ ظنوا وكان الظن منهم كاذبا   أنْ ليس لله جنود تَقْدم
١٠ ما صدّقوا أن وراء البحر من   يغضب للاسلام حين يُظلم

١١ لو عرفوا قبائل العَدْوة ما عَدَوْا على جيرانهم واجترموا
١٢ اليوم يدري كل شيطان بها أن قد رَمَتْهُمْ بالشعاع الأنجم

نظرة عامة :

وهي قصيدة طويلة نكتفي منها بهذه الأبيات التي يبدو فيها منحى الشاعر في استنفار الناس ؛ فهو يثير فيهم نخوة الدين وحق الأرض وعصبية الدم ، ويستنهض حميتهم وهممهم بالتاريخ القريب والبعيد حين كانت الأندلس تلجأ دائماً الى المغرب فينجدها ، ويحرضهم على أولئك الذين تجرؤوا على إخوانهم دون أن يقيموا وزناً لهم وهم الذين طالما دوّخوهم وأذلوهم . وهذه براعة من الشاعر ساقها في أسلوب حماسي متوسط الجودة . وقليل من ألفاظها يحتاج الى شيء من البيان .

المفردات والاساليب :

فقوله : « استقدموا » في البيت الأول معناه : تقدموا ، كما تقول : استجيبوا او أجيبوا بمعنى واحد ، وقوله : إن تسلموه يسلم ، معناه : إن تخذلوه يُخذَل ، وهذا أشبه بقول صاحب البردة :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

لاذت : لجأت . ناشدة : يقال ، نشدته الرحم أي سألته بحقها ، ومنه نشدتك الله أي سألتك به ، واسم الفاعل ناشد . والرحم : القرابة . وقوله في البيت الخامس: فالبحر من حدودها والعجم، بعد قوله : حدّت بكل كافر، يعني أن البحر كافر ،وهو كذلك بالمعنى اللغوي إذ الكفر لغةً هو السّتر ،والبحر يستر ما فيه .وقوله:دارت بها من العدا جهنم ، أي أحاطت بها الأعاجم والكفار، فهي جنة أحاطت بها النيران من كل جانب . ومعنى دعّوا العهود : نقضوها .

التعليق :

وعلى خلاف المعهود من شعر الحماسة والفخر فإنا لا نجد في شعر ابن المرحل هذا أية مغالاة أو مبالغة ، ولا ألفاظاً تطل منهـــا ظُبا السيوف وأسنان الرماح ، وتفوح منها رائحة البارود والنار ، ويشتد فيهـا صهيل الخيل ، ولا أساليب تهدر بعواطف النفوس المتفجرة وتحمل في ثناياها أنفاساً لافحة ، إلا قليلاً . بل إنك حين تقرأ القصيدة كلها تجد أغلبها شكوى ودعاء ، هل ذلك لأن القائل ليس عنترة ولا عمرو بن كلثوم ولا الحارث بن حلزة ولا المتنبي ولا أبا فراس ولا البارودي وأشباههم من الشعراء الفرسان ؟ ربما ...

مناقشة

(شعر ابن المرحل ١ – تشيع فيه الروح الدينية ، وبعضه صورة للشعر الصناعي ٢– وبعض قصائده صورة مقلدة من شعر من قبله ٣ – وشعره الغزلي صناعي أو صوفي) .

أثبت هذه القضايا ، وبين الى أي حد نستطيع أن نعتبر ابن المرحل ممثلا للأدب المغربي المطبوع بطابع البيئة .

ولن تعوزك المراجـــع عنه فهي كثيرة ، وأنت لا تفتح كتاباً في الأدب المغربي أُلف بعد ابن المرحّل إلا وجدته فائزاً فيه بنصيب الأسد .

وأقرب المراجع إليك في تحقيق هــــذا البحث كتابا : النبوغ ، والأدب المغربي .

وموضع تحقيق الجزء الأول من البحث « الوسيلة الكبرى » و« المعشرات »، وموضع الثاني قصيدته في فتح مراكش ، والثالث كل شعره في الغزل .

عبد العزيز الفشتالي (٩٥٧ - ١٠٣٢ هـ.)

شاعر آخر ممن أراد المغاربة ان يفاخروا بهم الأندلسيين وبالأخص لسان الدين ابن الخطيب،كان شاعر أبي العباس المنصور أحمد الذهبي من أمراء السعديين ، نشأ بفشتالة حيث ولد بها ، وانتقل الى فاس حيث مناهل العلم ، فما لبث ان بدا نبوغه في فنون الأدب والتاريخ والسياسة ، جعله المنصور السعدي رئيس ديوان الانشاء ، وهي مرتبة تعدل مرتبة الوزارة حينئذ ، ثم وزر لابنه زيدان من بعده .

كان خير ما امتاز به أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الفشتالي الفاسي إجادة الوصف، وله في ذلك روائع في وصف قصر « البديع » الذي بناه المنصور بمراكش ، فنقشت على جدرانه وسقوفه وطرزت بها فرشه وأروقته .

ويعد الفشتالي من خير شعراء المغرب ، ومن حسنات عصر السعديين .

توفي بمراكش عام ١٠٣٢ هـ. تاركاً بعض الآثار الأدبية والتاريخية ، منها كتابه المطول في تاريخ السعديين وفتوحاتهم وأعمالهم ، والذي سماه « مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا » ومنها « مَدَد الجيش » الذي ذيَّل به كتاب « التوشيح » للسان الدين ابن الخطيب ، وقد كان متشبهاً به في انتاجه النثري. كذلك له مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم .

ومما يذكر أن المغاربة عموماً اهتموا بالمتنبي كثيراً ، فوضع أبو جعفر القزاز (المتوفي سنة ٤١٢ هـ.) كتابين عنه، هما « أبيات معان في شعر المتنبي»

و« مـــآخذ على المتنبي من اللحن والغلط » . واختصر عيسى بن عبد العزيز الجزولي (توفي ٦١٠ هـ) شرح ابن جني لديوان المتنبي . وحفل بـه المؤلفون والأدباء ، وبالأخص لسان الدين ابن الخطيب .

النص : والنص المختار من قصيدة له في وصف القبة الخمسينية (لأن فيهـــا خمسين ذراعاً) من مبـــاني المنصور الذهبي ، وهي منقوشة على ظـاهر القبة ومقولة على لسانها . وننبه بكثير من الإعجاب والتقدير الى اننا حيـنما أردنا ان نختار أبياتـــاً متماسكة من هذه القصيدة نتجاوزعما بينها مع الإلمـــام بعناصر الوصف – وجدنا صعوبة كبيرة في ذلك ، فالأبيات يأخذ بعضها بحُجُز بعض بحيث كان من الصعب في أكثر الاحيان ان بيتاً منها دون ان نخل بالمعنى. هــذا الى إحكام في الوصف ودقة في التصوير وتحليق في الخيـــال ونصاعة في التعبير .. الى غير ذلك من الخصائص التي لا توجد الا في أشعار فحول الشعراء، ومع هذا كان لا بد من هذا الاختصار :

من الطائية في وصف القبة الخمسينية

١ سموتُ فخرَّ البدر دونيَ وانحطَّا
وأصبح قرص الشمس في أذُني قرطا

٢ وصغْت من الإكليل تاجاً لمفرقي
ونيطت بيَ الجوزاء في عنقي سمطا

٣ ولاحت بأطوافي الثريا كأنها نثيرُ جُمان قد تتبَّعْتُهُ لقطا

٤ وأجريت من فيض السماحة والندى
خليجاً على نهر المجَرَّة قد غطى

٥ عَقَدْتُ عليه الجسر للفخر فارتمت
إليه وفود البحر تصرف ما أعطى
٦ تَنَضْنَضَ ما بين الغُروس كأنه
وقد رقرقت حصباؤه حيةٌ رقطا
٧ حواليه من دَوح الرياض خرائدٌ
وغيدٌ تجرُّ من خمائلها مرطا
٨ إذا أرسلت لدْنَ الفروعِ وفتَّحت
جَنَى الزهرِ لاح في ذوائبها وخطا
٩ يُرَنِّحها مَرُّ النسيم إذا سرى كما مال نشْوانٌ تشرّب إسْفَنْطا
١٠ يشقُّ رياضا جادها الجود والندى
سواء لديها الغَيث أسكبَ أم أبطا
١١ وسالت بسلسال اللجين حياضُه
بحاراً غدا عرضُ البسيط لها شطًّا
١٢ تطلّعُ منه وسط وسطاه دُمْيةٌ
هي الشمس لا تخشى كسوفا ولا غمطا
١٣ حكت وحبابُ الماء في جنباتها
سنا البدر حَلَّ من نجوم السما وسطا

١٤ إذا غازلتها الشمس ألقى شعاعُها
على جسمِها الفضيّ نهراً بها لُطا

١٥ تكَنّفُني بيضُ الدمى فكأننا
عذارى نَضَتْ عنها القلائد والرِّيطا

★

١٦ فيا لك شأواً بالسعادة آهلاً بأكنافه رَحْلُ العُلا والهدى حَطّا
١٧ وكعبة مجد شادها العزّ فانبرت تطوف بمغناها أماني الورى شوطا

١٨ ومسرح غزلان الصَّريم كِناسهـــا
حنايا قباب لا الكثيبَ ولا السِّقْطا

١٩ فَلُكْنَ به ما طاب لا الأثل والخمطا
ووَسّدْنَ فيه الوشي لا السِّدر والأرْطى

★

٢٠ جنابُ رواقُ المجد فيه مُطَنَّبٌ
على خير ما يُعزَى لخير الورَى سبطا

المفردات والاساليب والبيان :

١ ، ٢ ، ٣ – خر البدر دوني وانحطا : يكاد اللفظان أن يكـونا بمعنى واحد ، والتكرار « خر – انحط » للتأكيد . الإكليل : هو هنا السحاب الأبيض. نِيْطت بي الجوزاء في عنقي سمطا : – السمط : العقد. الجوزاء نجم عال. نيطت : عُلّقت ، من ناط السيف بكتفه اذا علقه به . الأطواق : جمع طوق

وهو ما يطـّوق به العنق من الحلية . الثريا : مجموعـــة نجوم في السماء تشبه عنقود العنب .

نثير جُمان : منثور فضة . (٤) الخليـج : القطعة من النهر أو هــو النهر كله . المجرة : مجموعـــة نجوم مختلطة لا يميز البصر مفرداتها فتبـــدو وكأنها طريق أبيض ، ولذا يسميها العامة « طريق التبانة » كأن الذي يبدو هو آثار تبن منثور تخلّف عن نقل التبن وجرّ أوعيته . ومعنى التعبير ان الخليـج ستر حُسن النهر وتفوق عليه « اي نهر المجرة » . ٥) المعنى ان الجسر المقام على الخليـج تلطمه أمواج البحر ثم تتراجع فكأنها تصحب في تراجعهـــا الماء الذي اعطاه لها الجسر . ٦) تنضنض : تحرك . الغروس : النبات جمع غَرْس . رقرقت حصباؤه : جاءت وذهبت في تلألؤ ولمعـــان ، والحصباء صغار الحصى ورقاقه ، يقول في الأبيات الثلاثة الأولى على لسان القبّة :

إنني قد علوت في الجو حتى أصبح القمر دوني ، والشمس حلية من حلاي ، واتخذت من الإكليل تاجاً لمفرقي ومن الجوزاء قلادة لعنقي ومن الـثريا أطواقاً لجيدي . هذا ما لم تكن هذه الكواكب مرسومة في القبـــة وهو ما لم نتحقق منه[1] .

ويقول في الأبيات ٤ ، ٥ ، ٦ : أجريت الى القصر خليجاً ، وأقمت على الخليـج جسراً ، وفرشت على الأرض حصباء يتخللها النبات وَيجوس خلالهـا الماء ، ولكن الخليــج انما هو فيض سماء حتى انه ليتفوق على نهر المجرة جمالاً وعلو قدر . واما الجسر فهو جسر من الفخر والسؤدد ، تتسابق وفود الماء في النزول بساحته وطلب نواله فتعود وقد أخذت مـــا أعطيت ، وقد لمـع الحصى في الماء بين سوق النبات كحية رقطاء .

---

١ ـ لم تتحدث المراجع التي بأيدينا عن رسوم كهذه في القبة،فأغلب الظن انها كانت مرسومة وان الحديث حينئذ يكون مفاخرة بأن هذه الكواكب قد تدلت من اعاليها فقبعت في مواضع مختلفة من القبة . فكأن القبة سماء دونها الكواكب والسحب ... الخ .

هذا ولعل الشاعر أخذ تعبيره (وفود الماء) من قول البحتري في وصف بركة المتوكل ، وإن كان قد تصرف في المعنى تصرفاً آخر :

تنصبُّ فيها وفود الماء مُعْجَلَةً   كالخيل خارجة من حبل مجريها

٧) حواليه : الضمير للخليج . خرائد : الخريدة من النساء هي البكر الحييّة الطويلة السكوت . الغيد : جميع غيداء وهي الناعمة اللينة الأعطاف ، وكذلك الغادة ، وتقول أغيَدت الفتاة اذا تثنت في مشيتها ، ومنه قول عمر ابن أبي ربيعة :

ولها عينان في طرْفيهما   حَوَرٌ منه وفي الجِيْد غَيَدْ

أي عنق ناعم لين كعنق الظبي . المرط : كساء من خز أو صوف يُؤتزر به ، وجمعه مروط . ٨) لدن الفروع : الأغصان الطرية اللينة . جنى الزهر : ما يجنى منه . الذوائب : مفردها ذؤابة ، وذؤابة كل شيء أعلاه ، فهي هنا أعالي الفروع والأغصان ، الضمير في « تجر » « أرسلت » للخرائد والغيد المستعارة للاشجار ، وكذا ضمير المفعول في « يرنحها مر النسيم » . ويرنحها : يُميلها فهي تترنح وتتمايل كأنها سكرى . وخطا : يقال وخطه المشيب اذا تخلل بياض الشعر رأسه ، يعني هنا الزهور البيضاء حين تنفتح في ذوائب الأغصان .
٩) سرى : مر في السحر ، والمادة سرى يسري . الإسفنط : الخمرة العالية .
١٠) جادها الجود : منحها وأعطاها .

في هذه الابيات يتحدث الشاعر عن الرياض التي تحف بالخليج :

محفوفة برياض لا تزال ترى   ريشَ الطواويس تحكيه ويحكيها[١]

والبيت : يشق رياضاً .. الخ . مأخوذ من قول البحتري :

---

١ – البيت للبحتري .

تغنَّىٰ بساتينها القصوى بزينتهـــا
عن السحائب مُنْحَلاً عَزاليهـــا

١١) سلسال اللجين : السلسال ، الماء العذب ، واللجين ، الفضة ، فهو من إضافة المشبه إلى المشبه به ، مثل قول الشاعر :

والريحُ تعبَثُ بالغصون وقد جرى ذهبُ الأصيل على لجَيْن الماء

وبين لفظي « سالت وسلسال » جناس . الحياض ، جمع حوض ، مجتمع الماء ، وقد يجمع الحوض على أحواض أو حيضان . البسيط ، الأرض الواسعة المستوية ، وتطلق احياناً ويراد منها الأرض كلها كما هو المراد هنا ، ولا نظنه قصد إلى التورية في عبارة « بحاراً غـدا عرض البسيط » باعتبار البسيط من بحور الشعر ولكل بحر منها عروض أو أعاريض — ١٢) تطلع : مضارع بمعنى تنظر في فضول . دمية : هي الصورة المجسمة ، والمقصود هنا القبة الرائعة . الغمط : الازدراء — ١٣) حباب الماء : فقاقيعه ونفاخاته ، وهي ناصعة البياض ، وتسمى أيضاً (اليعاليل) .

١٤) ُلط بها النهر : أُلصق بها ، ومن معاني (َلطّ) ضرب كما يقال لطّه بالعصا ، والأول هو المراد ، إذ المعنى أن شعاع الشمس كسا هذه القبة ثوباً من نور وأغرقها في نهر من الضوء .

ومعنى الأبيات أن الخليج قد سالت مياهه العذبة الصافية :

كأنما الفضةُ البيضاء سائلةً من السبائك تجري في مجاريها

حتى صار كل ما حوله من الأرض حياضاً له كأنها البحار العظيمة التي تغمر الأرض ، وقد بدت القبة العظيمة في نقطة المركز من هذه البحار الفضية كأنها الشمس المشرقة الوضاءة ولكن لا يعتريها كسوف ولا يحجب ضوءها سبب (ولا نرى لكلمة « غمطاً » موضعاً ذا بال .) ، أما الصورة التالية (في البيت

١٤) فلم يعد لها روعة ولا إشراق (وإن كانت الصورتان تختلفان تأليفاً) ؛ فقد شبهها بالشمس في الإشراق واللمعان ، ثم شبهها – ورغاوي الماء حولها – بالقمر المضيء يتوسط نجوم السماء . ومع أن كلمة « سنا البدر » تعطي معنى إيحائياً (وموسيقا داخلية) جميلاً ، إلا أنه يبقى أن الإشراق في الشمس أبهر وأقوى ، ثم ان قرن صورة القبة مع فقاقيع الماء بصورة البدر مع النجوم يعطي للفقاقيع أهمية ليست لها وللقبة ضئولة وقماءة .

وخير الأبيات البيت التالي (١٤) ففيه حركة وحيوية رائعة بدت فيها القبة تسبح في بحر من النور بالرغم من كلمة « لطا » .

والبيت (١٥) بيت منعش للنفس بما فيه من « الالتفات » والصورة الجميلة ؛ صورة الأميرة العظيمة الجميلة يحيط بها وصائفها الحسان ، وقد نزعت كل منهن حليها وثيابها .

١٦) فيالك شأواً : الشأو الغاية ، والأسلوب تعجّبي . ١٧) الشوط : أصله الجري مرة واحدة إلى الغاية ، ولكن المناسب هنا أن يكون المراد التكرار أي شوطاً بعد شوط ، والتنكير والتنوين يُعينان على هذا الفهم . والمغنى : المنزل والمكان الآهل . ١٨) الصريم[1] : العود يعرض في فم الجدي لئلا يرضع . الكناس بيت الظبي . الكثيب : الرمل . السقط : منقطع الرمل . معنى البيت ان هذه الغزلان المصورة قد انقطعت عن الرضاع واتخذت مسكنها ومراحها في حنايا القباب لا في الصحراء والرمال[2] . ١٩) الاثل شجر من نوع الطرفاء لا شوك له ويكاد يكون دائم الخضرة طول العام . الخمط ضرب من الأراك الذي تتخذ منه المساويك وله ثمر يؤكل ، وفي القرآن يصف جنتين : « ذَواتَيْ أُكلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وشيءٍ من سِدرٍ قليل » . وسدن

---

١ – ولنا ان نفهم من كلمة (غزلان الصريم) ظباء الصحراء ، فان من معاني المادة : (الصرماء) المفازة لا ماء فيها .

٢ – أنظر التعليق في رقم ١ .

الوشي : اتخذنه وسادةً ، والوشي الثياب المنمقة. السدر شجر النبق والواحدة سِدْرة ، والجمع سِدْرات وسِدِرات وسِدَر، اما السدر فهو اسم جنس جمعي. الأرطى : شجر ثمره كالعناب ، الواحدة أرطاة والجمع أراطي . معنى البيت : أن هذه الغزلان تأكل الطيبات لاما اعتادت ان تأكله في الصحراء ، وانها تنام على الوشي لا الحجارة والحصى . ٢٠) الرواق الفسطاط والخيمة ، ومن معانيها السقف في مقدم الخيمة ، وهو أيضاً السِّتر يُمـدُّ دون السقف . مطنب : ذو طُنُب ، والطنب حبل الخباء ، وفي الحديث : « حين ضرب الشيطان رَوْقَهُ ومدَّ اطنابه » . يُعزى : يُنسب . سبطا : السبط ولد الولد . الجناب : أصله الفِناء وما يقرب من محلة القوم، والمراد به هنا القصر . ومعنى البيت أن القصر قد اقيم على دعائم المجد مشتملاً على الأمير المنتمي نسبه الى سبط الرسول خير الورى صلى الله عليه وسلم .

التحليل والنقد

في هذا النص من الافـكار :

١ – وصف القبة بالعلو السامق في بهاء وجمال وعظم قـدر ، حتى صار البدر دونها ، والشمس قرطاً في أذنها ، والسحاب تاجاً لمفرقهـا ، والجوزاء والثريا قلادتين في عنقها .

٢ – وصف الماء الذي أُجري الى بهو القصر تحت القبة وما في قراره من الحصباء وما حوله من النبات .

٣ – وصف الرياض المحيطة بالقصر والحياض الملحقة به .

٤ – وصف القبة بالإشراق واللمعان والبياض .

٥ – وصف القصر الذي به القبة وأنه آهل بالسعادة ومَقْصِدُ آمـال الناس ومَراح الغزلان (المصورة)، ولا غرو فهو قصر الامير العظيم حفيد الرسول .

وقد مر في اثناء الشرح شيء من النقد ، ونزيد على هذا أن في النص صوراً شعرية جميلة لا يُنقص من جمالها أنها صور تقليدية أو أن الشاعر كررها في كثير من قصائده[1] ، وخير صورة ما جاء في وصف (دوح الرياض) وتشبيهها بالغيد الحسان ثم تناسيه للتشبيه :

إذا أرسلت لدْن الفروع وفتحت   جَنَى الزهر لاح في ذوائبها وخطا
يرنحها مر النسيم إذا سرى   كما مال نشوان تشرّب إسفنطا

ولو ان كلمة (اسفنطا) هذه غير سائغة .

ومن الصور الجميلة قوله :

إذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها   على جسمها الفضي نهراً بها لطّا

ولكنك تجد كلمة (لط) نابية عن الذوق، والظاهر أن اختياره لحرف الطاء رَوِيّاً ألجأه الى شيء من العنت والارهاق ، فوجدنا مثل هذه الكلمات القلقة : « تتبَّعْته لقطـــا » ، « تشرّب إسفنطاً » ، « لا تخشى كسوفاً ولا غمطا » ، « بها لطـّا » ،« رحل الهدى والعلا حطا » ، « لا الكثيب ولا السقطا » .

والقصيدة بوجه عام جيدة الصياغة منظمة الفكرة قوية المعنى ، وهي من الشعر الفحل الذي لا يجيد مثله إلا شاعر متفوق . وقد قـــال الشاعر قصائد ومقطوعات في قصر البديـع الذي بناه المنصور الذهبي السعدي وفي قبـابه ، وهو بناء مربـع الشكل بكل جهة من جهاته الاربـع قبة كبيرة وحوله قصور ودور وقباب أخرى ، واستغرق بنـاؤه عشرين عاماً (٩٨٦ – ١٠٠٢ هـ .)

---

١ – أنظر كتاب الاستقصا الجزء الخامس تجد قصائد ومقطوعات كثيرة في وصف القصر وجوانبه المختلفة للشاعر ، وسترى أنه كرر فيها أكثر الصور التي جاءت في هذه القصيدة الطويلة . وستجد هناك هذه القصيدة كلها .

جلب رخامه من ايطاليا مبادلة بالسكر وزناً بوزن ، وقد فرشت أرضه بهذا الرخام العجيب النحت الصافي البشرة ، وجعل في أضعاف ذلك الزُلَيْج المتنوع التلوين حتى كأنما هو خمائل الزهر ، وأما سقوفه فقد تجسم فيها الذهب وطليت الجدران به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجصّ .. وأجرى بين قبابه الماء :

كلٌّ قَصْرٍ بَعْدَ البديع يُذَمُّ   فيه طابَ الجَنَى وطابَ المَشَمُّ
منظرٌ رائقٌ وماءٌ نَمِيرٌ   وثرىً عاطرٌ وقصرٌ أشمُّ

وقد امر المولى اسماعيل بهدمه عام ١١١٩ هـ. فلم يبق منه إلا أوصافه مسجلة في تلك الأشعار ، أما هو فقد صار (مرعى للكلاب والمواشي ووكراً للصدى والبوم) ، وقد لاحظ بعض الباحثين مصادفة عجيبة بين اسم القصر (البديع) وبين مدة بقائه وهي ١١٧ سنة ، إذ أن حساب حروف (البديع) بحساب الجمل[1] هي ايضاً ١١٧ سنة ، فالألف بواحد واللام بثلاثين والباء باثنين والدال باربعة والياء بعشرة والعين بسبعين ، والمجموع ١١٧ وهي المدة من تاريخ الانتهاء من بنائه سنة ١٠٠٢ إلى هدمه سنة ١١١٩ هـ .

مناقشة

١ – شعر الفشتالي وغيره في قصر البديع وغيره ، يدل على حضارة فنية رائعة وذوق مترف في ضروب الزينة في اللباس والفراش والأثاث

---

١ – حساب الجمل هو الحساب على اساس اعطاء رقم لكل حرف من الحروف الابجدية ، ونظامه أن حروف الهجاء الثمانية والعشرين المرتبة هكذا (ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت تخذ ضظغ) ترقم هكذا : ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ٢٠، ٣٠، ٤٠، ٥٠، ٦٠، ٧٠، ٨٠، ٩٠، ١٠٠، ٢٠٠، ٣٠٠، ٤٠٠، ٥٠٠، ٦٠٠، ٧٠٠، ٨٠٠، ٩٠٠، ١٠٠٠ والتاريخ الشعري كثر استعماله على عهد الفشتالي ومن بعده حتى بداية العصر الحديث . وترى في الاستقصا جـ ٥ أمثلة لهذا قيلت في ختام بناء قصر البديع وسجلت على جدرانه وابوابه .

والموسيقى ... الخ .

تحدث عن الحضارة في هذا العصر وحقق وجوه الابداع فيها .

المراجع

١ – الاستقصا ج ٥ .
٢ – النبوغ ج ١ .
٣ – نفح الطيب (في عصر السعديين) ج ٨ .
٤ – البيان المغرب عن اخبار المغرب .
٥ – نزهة الحادي للأفراني .

المحادثة

١ – استنفدت القرائح مكنونها في شعر الوصف في عصر المنصور السعدي. ما أسباب ذلك ؟ وما مظاهره ؟ اضرب أمثلة منه ولا سيما للفشتالي. وأضف إلى المراجع السابقة :

أ – الأدب المغربي .

ب – الحلل الموشية .

٦ ـ ابن الونان (... – ١١٨٧ هـ)

عاصر أبو العباس احمد بن محمد بن الونان التواتي الفاسي ، السلطان محمد بن عبدالله فخر الدولة العلوية وباعث مجد المغرب ، الذي وجّه عناية كبيرة إلى تقوية الجيوش وإنشاء الأساطيل والمعاقل والحصون ، والذي وطد علاقة المغرب بالدول الإسلامية في الشرق وتحمل في سبيل ذلك عداوات كبيرة وكثيرة ، ولم تضطرب شئون المغرب إلا بعد وفاة هذا السلطان العظيم .

كان أسلاف الشاعر بتوات ثم انتقلوا الى فاس واستوطنوها وبها نشأ الشاعر وتعلم ، وكانوا يُدْعَون « أولاد ابن الونان » . وكان والد شاعرنا هذا جليس السلطان محمد ونديمه ، وكناه أبا الشمقمق (تشبيهاً له بشاعر بهذا الاسم اشتهر في الكوفة بنوادره وفكاهاته) ، وكان شاعراً متعلقاً بهذا السلطان ، فلما مات هذا الوالد أراد ابنه أن يحل من نفس السلطان محل أبيه وأن يظفر بمكانته ، ولكنه لم يستطع أن يصل الى بابه ، ربما لأن ذوي الأغراض منعوه ، فوجد سانحته في خروج السلطان مرة ، فاعتلى نَشَزاً من الأرض ونادى بأعلى صوته : «يا سيدي سبط النبي ! أبو الشمقمق أبي» . فلما عاد الى قصره أمر به فأحضر فقربه اليه وأجزل صلته ومنحه ألف دينار حينما أنشده هذا أرجوزته التي سميت بالشمقمقية وعرفت في الأدب بهذا الاسم .

وشاعرنا شاعر فحل صاحب قريحة سيالة وخاطر متدفق وفكر نقاد ، ونوادر ومُلح . نظم صاحب[1] « المنتخبات العبقرية » فضائل الشاعر ومعارفه

---

١ ـ هو محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن السائح الرباطي .

في الأبيات :

أحقُّ من سُمِّي بالأستاذ والشيـ ـخ الفقيهِ العـالم المحققِ
وبالمحدث الشهير والأديب والمجيـ ـد والبليـغ المُفْـلقِ
وأعلم الناس بـدون مِرْيةٍ سيّانِ في مغربٍ ومشرق
بالشعر والتاريـخ والأنساب والآثـار سَلْ ، تُصدق

هذا ولا نحب أن نذهب مذهب هذا القائل في رفع قدر الشاعر على أقدار كل العلماء والأدباء ، ولكن مما لا شك فيه أن من يقرأ قصيدته الشمقمقية يعجب من سعة معلوماته وعظيم اطلاعه .

والشمقمقية تقع في ٢٧٥ بيتاً ، وقد نالت شهرة كبيرة هي بها جديرة ، وجمعت بين الغزل والنسيب ، والوصف ، والحماسة والفخر ، والمدح والهجاء ، والحكم والنصائح ، وأخبار العرب وأيامهم . وقد عارضها الشعراء وشرحها الأدباء ، وممن عارضها شاعر حميري من نسب ابن الونان اسمه ابو عبدالله محمد بن محمد التهامي الرباطي[١] .

وسنثبت هنا من هـذه القصيدة ما يمثل اسلوبهـا وطريقتها وأكثر عناصرها ... وسنهتم اكثر بالنصيحة والحكمة :

— من الشمقمقية —

ا — في الغزل والنسيب :

١ مهلاً على رِسلك حادي الأَيْنُقِ ولا تكلفْها بما لم تطَقِ[١]
٢ فطالما كلفتها وسقتها سَوْق فتىً مِن حالها لم يُشْفِقِ

---

١ — انظر المنتخبات العبقرية ص ٩٨ وما بعدها .

٣ حتى غدت خُوصاً عجافا ضمّرا أعناقها تشكو طويل العَنَقِ[٢]
٤ من بعدما كانت هُنَيْدة غدت أكثر من ذَوْد ودون شَنَق[٣]
٥ وإن تماديت على إتعابهـــا ولم تكن منتهيا عــن رهق
٦ فسوف تعروك على إتلافها ندامةُ الكُسْعِيِّ والفَرزْدَق[٤]

★

٧ رفقا بها شفيعُها هوادج غدت سماء كل بدر مشرق[٥]
٨ من كل غيداء عَرُوبٍ بَضَّةٍ رُعْبُوبةٍ عَيْطَاء ذاتِ رونقِ[٦]

★

٩ لُبْنَى ـــ وما أدراك ما لبنى ـــ بها
عُرِفْتُ صَبّاً مُغْرَمـــاً ذا قلـــق
١٠ تسبي بثغر أشنبٍ ومَرْشَفٍ قد ارتوى من قَرْقَفٍ معتّق[٧]

ب – في الحماسة والفخر :

١١ لا بدّ لي منها وإن تحصّنتْ بالأبلق الفردِ وبالْخَوَرْنَق[٨]
١٢ أشن كل غارة شعوا عـــلى من يَحْمِها في مِقْنَبٍ أو فَيْلَقِ[٩]
١٣ وفي خميس من خيار يَعربٍ ذوي رماح وخيول سُبَّقِ[١٠]
١٤ من أسرتي بني ملوك كلهم أطوع لي من ساعدي ومرفقي[١١]
١٥ سل ابن خلدونَ علينا فلنا بيَمَنٍ مـــآثرٌ لمَ تُمْحَقِ
١٦ وسل سليمان الكَلاعِي كم لنا من خبر بخيْبَرٍ والخَنْدَقِ[١٢]

١٧بهم فخرتُ ثم زاد مَفخري بأدبي الغضّ وحُسن منطقي
١٨وزان علمي أدبي فلن ترى مَنْ شِعْرُه كشعريَ المنَمَّقِ

ج – في الهجاء :

١٩فبشِّرَنْ ذاك الحسود أنّـــه يظفر في بحر الهجا بالغَرَق
٢٠نطقتَ بالزور أما كنت تعي أن البلا موكّلٌ بالمنطق[١٣]
٢١فَلْتَقِ نفسك بكفّك ولا تسُمْ فصيح النُّطَاق بالتمشْدق[١٤]
٢٢فذاك خير لك واستمع إلى نصح الحكيم الماهر المدقق

د – في الحكمة والنصيحة :

٢٣فكن مهذب الطباع حافظا لِحكَـــم وأدب مفـــترق
٢٤وعاشر الناس بخُلق حسن تُحمدْ عليه زمن التفرق
٢٥ولا تصاحب مَن يرى لنفسه فضلاً بلا فضل وغيرَ المتقي
٢٦وكل مَن ليس له عليك من فضل فلا تطمعه بالتملق[١٥]
٢٧وفوِّقَنْ سهم النُّميريِّ لمن لطرُق العلياء لم يُوَفَّقِ[١٦]
٢٨وافعل بمن ترتاب منه مثل فِعْـــلِ المتلمِّسِ اللبيب الحذق[١٧]
٢٩ولا تَعِدْ بوعد عُرْقوب أخاً وَفِهْ وَفَا سموأل بالأبلق[١٨]
٣٠واعْدُ على رِجْلَيْ سُلَيْكٍ هاربا من قرب كل خنْبُقٍ وسَهْوَقِ[١٩]
٣١ولا تحارب ساقط القدر فكم من شاهَةٍ قد غُلِبَتْ بِبَيْدَقِ[٢٠]

٣٢ لا تُلزم المرءَ عيوبَ أصله فالمسك أصله دمٌ في العنق
٣٣ والخمر مهما طُهرت فبينها وبين أصلها بحكمٍ فرّقٍ[٢١]
٣٤ ولا تبع عِرضك بيعة أبي غبْشَانَ بَيْعَ الغبن والتبصْلَقِ[٢٢]
٣٥ لا تَرْجُوَنْ صفواً بغير كدر فـذا لعمر الله لم يتفّـق
٣٦ لا تنس من دنياك حظاً وإلى كالطّلقاني والخصيب انطلق[٢٣]
٣٧ وحصّل العلم وزِنْهُ بالتقى وسائرَ الأوقات فيه استغرق

هـ – في المدح :

٣٨ له محيا ضاء في أوْج الدجى سناه مثـل القَمر المتّسق
٣٩ وراحة تغار مـن سيولها سيول وَدْقٍ وركام مُطْبق[٢٤]
٤٠ فاق الرشيد وابنـه بحلمه وعلمه ورأيـه الموفَّق[٢٥]
٤١ والسعد قد ألقى عصا تسْياره بقصره وخصّـهُ بمعشق

و – في الفخر بالأرجوزة :

٤٢ إليْكَها أرجوزةً حسّانةً لمثلهـا ذو أدب لم يرتق
٤٣ ما لجرير وجميل مثلها في غزل وفي نسيب مونق
٤٤ ولا أديب في قرى أندلس جرت بها أقلامه في مُهْرَق
٤٥ مَن كان يرجو من سواي مثلها رجا من القِربة رشْح العرق

المفردات والاساليب :

١) الرِّسل : التمهل والتؤدة والرفق ، يقال : على رسلك يا رجل أي على مهلك وتأنَّ . ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : « إلا من أعطى في نجدتها ورِسْلِها » وهو حديث في الصدقة والزكاة ، يريد بالنجدة الشدة وذلك حين يعطي المزكّي من الإبل السمان الحسان ، ويريد بالرسل الرخاء ، وذلك حين يعطي المهازيل ، فذاك أشد على النفس وهذا أيسر لها . حادي الأينق : سائق الإبل ، مأخوذ من حدا الإبل ؛ ساقها وغنى لها . ٢) خُوصاً : خَوِصَ يَخْوَص خَوَصاً غارت عينه في رأسه فهو أخوص وهي خَوْصاء والجمع خُوْص – المعنى أنها أصبحت كليلة النظر من شدة التعب . العَنَق : نوع من السير يتسع فيه الخطو ، ومنه :

يا ناقُ سيري عَنَقاً فسيحا إلى سليمان فنستريحا

أي أن رقاب الإبل تشكو من السير السريع . ٣) الهنيدة : مائة من الإبل . والذود : ما بين ثلاث نياق وعشر . والشنق : ما بين عشر وعشرين – المعنى أن النياق بعد ما كانت كثيرة هلك أكثرها وبقي منها القليل .
٤) تعروك : تصيبك :

وإني لتعروني لذكراكِ هِزّةٌ كما انتفض العصفور بلّله القطر

الكُسَعِيّ : كُسع حيّ من اليمن ، والكسعي رجل ربى نبعة (شجر القِسيّ) حتى أخذ منها قوساً ، فرمى عنها وحشاً بليل وحسب أنه أخطأه فكسر القوس غضباً عليها ، فلما أصبح عرف أن السهم الذي رمى به الصيد قد أصاب فندم على ما فعل ، وضُرب به المثل في الندم على ما فات ولا يدرك بعد . قال الشاعر :

ندمت ندامةَ الكُسَعِيِّ لما رأت عيناه ما صنعت يداه

أما الفرزدق فقد طلق امرأته (نوار) ثم ندم على ذلك فقال متمثلاً :

ندمتُ ندامةَ الكُسَعِيّ لما غدتْ مني مطلَّقةً نوارُ

٥) معنى البيت ان النوق جديرة بالرفق لما تحمل من الغيد الحسان التي اتخذت الهوادج ستراً لها وسماء (وكل ما أظلك فهو سماء) .

٦) رعبوب عروب : العروب من النساء المتحببة إلى زوجها . بضة ناعمة رقيقة البشرة . رعبوبة : ممتلئة والجمع رعابيب .

يقول المتنبي :

ما أوجُهُ الحضَرِ المستحسَنات به كأوجه البدوياتِ الرعابيبِ

عيطاء : طويلة . ٧) الشنب : عذوبة وبرودة الأسنان ، المرشف : الفم لأنه مكان الرشف . قرقف معتق : الخمر القديمة الجيدة . ٨) الأبلق : حصن السموأل بن عادياء الذي استودعه امرؤ القيس دروعه وأهله فضحى بابنه في سبيلها فضرب به المثل في الوفاء . الخَوَرْنق : اسم قصر بالعراق للنعمان الأكبر أحد ملوك المناذرة ، وهما قصران ، الخورنق والسَّدير . ٩) مقنب : جماعه الخيل تجتمع للغارة . الفيلق : الجيش ، وجزم الفعل (يحمها) للضرورة ١٠) خميس : هو الجيش . ١١) يشير إلى اصله في ملوك حمير من اليمن وقد كان لهم ملك عظيم في الجاهلية الأولى ، وشأن عظيم في الإسلام ممثلاً في الأنصار ، وعزٌّ في الجاهلية التي قبيل الأسلام جعلهم أنداداً لقريش سادة الحجاز ١٢) سليمان الكلاعيّ : عالم مؤرخ مشهور في السِّير بكتابه « الاكتفا في سيرة المصطفى » ـ يريد ان يقول إن كتب التاريخ مملوءة بأخبارهم وأمجادهم ومعاركهم ، وان علماء الأنساب والتاريخ أدرى الناس بذلك وقد ضمنوه كتبهم . ١٣) إن البلاء موكل بالمنطق : جملة قالها ابو بكر الصديق حينما خرج هو وعلي بن ابي طالب رضي الله عنهما مع النبي عليه السلام في جولة لنشر الدعوة الإسلامية بين العرب ، فتقدم إلى مجلس قوم يسألهم عن نسبهم ـ وكان

عالماً بالأنساب – حتى أحرجهم ، فنهض له واحـــد منهم أخذ يسأله عن نسبه قائلاً :

ان على سائلنا أن نسأله   والحق لا تعرفه أو تَخبُرَه

ولم يزل به حتى أحرجه ، فشدّ زمام ناقته مولياً ، فتبسم النبي عليه السلام وقال له : لقد وقعت من الاعرابي على باقعة !! فقال : إن البلاء موكل بالمنطق ، ١٤) لا تَسُمْ فصيح النطق بالتمشدق : أي لا تُكره الفصاحة ولا تتكلفها ، والتمشدق والتشدق ملء الشدق بالكلام ، وهو مكروه ، وفي الحديث :(إن أحبكم اليّ وأقربـكم مني مجالسَ يوم القيامة أحاسنـكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون . وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجـــالس يوم القيامة المتفيهقون المتشدقون الذين يقولون ما لا يفعلون) . ١٥) لا تطمعه بالتملق أي لا تجعله يطمع فيك ويستضعفك بسبب تملقك له ، إذ أنك حينما تتملق إنساناً فإنك تجعل قدره فوق قدرك فيستصغر هو شأنك ويطمع فيك . ١٦) سهم النميري : مثل يضرب في دقة التصويب ، وكانت نمـــير مشهورة بذلك . وتفويق السهم أن تجعل له شقاً في رأسه فيوضع بهذا الشق في الـــوتر ليرمى ـ معنى البيت ان عليك واجباً نحو النـاس ان تردهم إلى الصواب اذا اعوجوا . ١٧) المتلمس : هو خال طرفة بن العبد صاحب المعلقة في الجاهليـة وكانت لهما مع عمرو بن هند ملك الحيرة قصة معروفة انتهت بقتل طرفة ونجاة المتلمس لحذره . ١٨) وعد عرقوب : مثل للوعد الذي لن يتحقق ، وكان عرقوب قد وعد أخاً له بيثرب بثمر نخلة ، فلما استنجزه وعـده طلب منه أن يصبر حتى تصير رطباً ، فلما صارت استمهله حتى تصير تمراً ، فلمـــا صارت جزها بـَليْل وأصبح أخوه فلم يجد شيئاً . ١٩) سُلـَيْك بن السلكة من عدائي العرب المشهورين وأغربتهم يضرب به المثل في الجري . الخنبُق : البخيـل . السَّهوَق : الكذاب . ٢٠) الشاهـة (الملك) والبيدق (العسكري) قطعتان من قطع الشطرنج ، والبيدق أقل قطع الشطرنج شأنــاً في اللعب ،

والملك أقواها واذا ضاع خسر اللاعب الجولة ، وقد يغلب هـــذا الجندي الضعيف الشاه القوي ، فينطبق عليها المثل (لم يغلبك مثل مُغلَّب) . ٢١) المسك نوع من الطيب يُتخذ من دم الغزال بعد ذبحه . والخمر تتخذ من العنب ونحوه . وهي حرام والعنب حلال ؟ ولو كان حكم كل شيء ، حـــكم أصله أو فرعه لَحرُم المسك المتخذ من الدم (حرمت عليــكم الميتة والدم) ولحرم العنب لأن الخمر تتخذ منه .) أبو غُبشان : رجل من قريش كانت له سدانة الكعبة ـ وهي شرف عظيم ـ فباعها لقصي بن كلاب جد بني عبد مناف بقِربــةٍ من خمر ! . التبصلق : الخــداع والغش . ٢٣) الطلقاني : الصاحب بن عبـــاد الأديب العظيم والوزير الخطير في دولة بني بويه بفارس في العصر العباسي الثاني وكان كريماً معطاء مشجعاً للأدب ، يرحل إليه الأدباء والعلماء من كل حـــدب وصوب . الخصيب : أمير مصر أيام هرون الرشيد ، يقول ابو نواس :

تقول التي من بيتها خفَّ مركبي عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ
أما دون مصر للغنى متطَلَّبٌ ؟ بلى إنَّ أسباب الغنى لكثير !!
دعيني أكثِّرْ حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

٢٤) الوَدْقُ: المطر (وترى الوَدْقَ يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون). ركام مطبق : الركام السحاب المتراكم، والمطبق المظلم الذي ليس فيه ثغرة . ٢٥) المأمون بن الرشيد كان أعلم بني العباس ومن أَسدّهم رأياً وأعظمهم حلماً ، وكذلك كان الرشيد .

التحليل والنقد

فيما اخترناه من الشمقمقية نرى الشاعر بدأ قصيدته بذكر الرحلة والمطيّة على عادة شعراء الجاهلية ومن بعدهم ، ثم خلص الى الغزل العام ، وكانت نقلتـــه بارعة حيث جعل راكبات الإبل شفيعات لها في التخفيف من متاعبها ، ثم أخذ

يتغزل فيهن غزلاً محبباً ، ولولا الإطالة لذكرنا كل ما قاله في الغزل . وانتهى من الغزل العام الى الغزل الخاص بمحبوبته (لُبنى) ، ثم أراد ان ينتقـــل من ذلك إلى الفخر فما كان ألطف تخلصـــه ! فهو محب جريء قوي عـازم على اقتحام كل خطر ليظفر بمن يحب ، كيف لا وهو قادر على ان يفعل ، ويؤلف جيشاً عرمرماً من أسرته سليلة الملوك ووارثة الأمجاد ؟ . ولكن الإنسان لا يملك إلا أن يبتسم (في نفسه !) لهذا الجيش الكثيف ذي الرماح المشرعـــة والسيوف المصلتة ، وارث التاريخ القديم والأقدم والمجد الطارف والتليد، الذي جعل مهمته استخلاص معبودته له واستنزالها من المعاصم والمعاقل ،كأن لم يبق للجيوش ما تفعله إلا (خدمة العشاق !) فما اعظم ما يغـــالي العشاق في مطالبهم .

وهكذا يمضي الشاعر في فخره يستنطق التاريخ الجاهـــلي والإسلامي ، الحميري والأنصاري ، والغزوات والمعارك . ثم يريد أن يخلص إلى هجـاء من ينافسه فيحسن التخلص أيضاً ، هو يفخر بأصله ونسبه ويضم إلى ذلك فخراً بحسبه وحاضره وعلمه وأدبه وشعره ، ذلك أن الشعر هو الذي يرد به على كل حاقد وحسود ، فعليك ايها الحاقد الناطق بالزور والبهتان أن تأخذ حـــذرك وتبحث عن تقيّتك ولا تحاول أن تكون فصيحاً بالقوة والإكراه ، واستمـع إلى نصيحة الحكيم الموفق و ... ، وهكذا يخلص من ذلك إلى بث نصائحـه وحكمه ، ثم إلى مدح أميره ومدح أرجوزته .

يستغرق الجزء الاكبر من الشمقمقية الحكم والنصائح ، وهي حكم مشحونة بمعلومات واشارات تاريخية ورموز علمية وأدبية تـــدل على إحاطة واسعة ولكنها تبدو أشبه بأسلوب المقامات في النثر من تكلف المحسنات البديعيـــة وتعمد لسرد المعلومات ، « واستعراض العضلات !! » في غير عمق صادق ولا دراسة تأمّلية أو فلسفية عميقة ، ولذا فإن تأثيرها في النفس يـــذهب بمجرد انتهائك من قراءتها ، وكد ذهنك والاستغاثة بمعلوماتك ومراجعك التي قـد لا تسعفك أحياناً .. وما هكذا كان الأدب ولا لهـــذا كان الشعر وموسيقاه

وإيحاءاته ولحاته ، ولكنه شعر تعليمي ، كتاب منظوم في علم الاخلاق والسلوك . وفي أبيات النصيحة التي اثبتناها بِمَ ينصحنا ؟ انه ينصحنا بما يأتي :

١) خالق الناس بخلق حسن . ٢) لا تصاحب المدّعين ولا الكذابين ولا البخلاء فإن القرين إلى المقارن يُنسب . ٣) ليكن اساس تعاملك مع الناس الاحترام المتبادل ، فلا ملق ولا نفاق . ٤) سوء الظن في مواضع الريبة عصمة . ٥) الصدق في الوعد والوفاء بالعهد . ٦) لا تُعط الوضيع واللئيم فرصة ليقف منك موقف الند للند ، فقد يتفوق عليك فيكون ذلك أوجع لنفسك . ٧) المرء بنفسه لا بأصله ونسبه . ٨)هناك أشياء لا تقدّر بمال ولا ينبغي أن تكون موضع مساومة منها الشرف . ٩) ما في الدنيا صفو خالص، ومن طلب منها ذلك قضى ولم يقضِ من إدراكها وطرا ، فاته ما طلب ولم يتمتع بما حضر . ١٠) لا تنس نصيبك من الدنيا وحظك من لذائذها . ١١) اطلب العلم واعمل بما تعلم ...

وبعد فإن من حق الشاعر أن نشيد بجهوده ، ولو قارّنا شعره بشعر أكثر الذين قالوا في النصيحة أو التعليم لكان في القمة جودةَ سبكٍ وقوة تعبير وصحة معنى وتوفيقاً في تأليف الكلمات واختيار الألفاظ – إلا ما ندر مما لا تخلو من مثله قصيدة قصيرة فضلاً عن قصيدة تكاد تبلغ الثلثمائة بيت .

والأبيات التي اخترناها راعينا أن تجيء في أغلبها خالية من المآخذ ، فلا تكاد تجد إلا بعض كلمات غريبة اضطرته إليها القافية ؛ مثل : خنبق – سهوق – تبصلق – رعبوبة – عيطاء ..

ولكن من الذي يقرأ قوله :

رفقا بها شفيعُها هوادج غدت سماء كل بدر مشرق

ثم لا يعجب ؟

أو قوله :

لا بد لي منها وإن تحصنت بالأبلق الفرد وبالخورنق

الى غـير ذلك مما يهديك إليه الذوق .

ونحن نحب أن ترجع الى هذه القصيدة في مكانها لتقرأها كلها وتعلق عليها ببحث دراسي ، ويستحسن أن تستعين على فهمها بما كتبه الأستاذ كنون في شرح الشمقمقية ، فلا بد أنه أحسن شرحها على عادتـه فيما يتناول وان كان لم يتيسر لنا الاطلاع على كتابه في ذلك .

ب ـ الخطابة

إن معرفتنا بالخطابة في أدب المغرب أسبق من معرفتنا بالشعر المغربي . وأقدم ما وصل الينا من ذلك خطبة طارق بن زياد المشهورة ، ثم خطبة المولى ادريس الثاني ، ونحن إنما نتحدث عن الخطابة التي يمكن أن نسميها خطابة مغربية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إنما نتحدث عن الخطابة التي وصلت إلينا . فأما ما لم يصل فلا بد أن يكون كثيراً كثرة الفتن والأحداث بعد الفتح الإسلامي الى عصر المرابطين الذي وصل الينا شيء من إنتاجه معقول . ونخص بالذكر من هذه الأحداث فتنة الخوارج بالمغرب ثم قيام الإمارات المتطاحنة . وهكذا نرى أن الخطابة كانت ضرورية تقتضيها ظروف الحرب والنزاع والمناسبات السياسية والدينية المختلفة .

ولا بد أن الخطابة سارت على النهج الإسلامي المعروف ، حتى إذا جاء العصر المرابطي ثم الموحدي رأينا النثر المغربي الخالص ممثلاً في الخطابة والكتابة ، وبدت الخطابة في ثوبها المغربي الديني ، الواضح المعالم السهل الجلي ...

ثم سارت الخطابة في تطورها هذا[1] . وقد حدد المنهج الحديث ثلاثة من الخطباء هم : المولى إدريس الثاني – أبو حفص الأغماتي – ابن تومرت .

---

١ ـ انظر الجزء الخاص بتطور الأدب المغربي من هذا الكتاب .

١ ــ المولى ادريس الثاني[1] (١٧٧ – ٢١٣هـ)

خطبته إثر مبايعته

« الحمد لله ، أحمده واستعينه وأستغفره ، وأتوكل عليه وأعوذ بـه من شر نفسي ومن شر كل ذي شر ، وأشهد ان لا آ له إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ارسله الى الثقَلين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهـم الرجس وطهرهم تطهيراً .

أيها الناس إنا قد وَلِيْنا هذا الأمر الذي يضاعَف للمحسنين فيـه الأجر وللمسيء الوِزْر ، ونحن والحمـد لله على قصدٍ جميل . فلا تمدّوا الأعناق إلى غيرنا ، فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا . »

التعليق :

ولعلك تعجب أن تكون هذه الخطبة الموجزة المحكمة قالها غلام في الحادية عشرة من عمره ، ولكننا لا نستبعد صدورها منه ، فقد روت كتب التاريـخ أنه نال قسطاً وافراً من الآداب والمعارف والفروسية في سن مبكرة[2] ، هـذا إلى انه سليل أسرة عُرفت بالفصاحة والبلاغة .

---

١ ـ انظر ترجمته في القسم الأول من هذا الكتاب .

٢ ـ انظر كتاب النبوغ ج ٢ ص ٢٣٣ طبعة بيروت تجد محاورة بينه وبين احد الادباء وتعرف منها بعض جوانب الرجل الفذة .

وهذه الخطبة مع ذلك من السهل أن يكون قد حضّرها ، فما هي ـ إذا استثنينا مقدمة التمجيد والثناء ـ إلا بضع جمل يخبر فيها بولايته ويتحمل تبعاتها ومسئولياتها ويطلب من الناس في حزم وقوة الا يقعوا في فتنة أو يتطلعوا إلى غيره وإن لهم عنده ما يحبون من خير وعدل .

واما تمجيداته وصلواته ودعاؤه ـ فإنها قوية « أعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر ـ « أرسله الى الثقلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ـ « أذهبَ عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » . ولعله لا يخفى عليك أن اكثر معانيه مقتبس من القرآن والحديث ، فالجملة الأولى مأخوذة من سورة الفلق « قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق ... » والثانية مأخوذة بنصها تقريباً من آية قرآنية ، والثالثة كذلك . أما قوله : « يضاعف للمحسن فيه الأجر وللمسيء الوزر » فمأخوذ من حديث الرسول في الإمام العادل والظالم وجزاء كل منهما . وجميلٌ تعبيره « نحن على قصد جميل ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا » . إنه تعبير يدل على رجولة مبكرة ويكشف عن نفس سيّدٍ وعزة مَلِك .

وهذه خطبة ـ لعمر الحق ـ وافية شافية رغم قصرها ، ويكفي أن يشعر الناس أن إمامهم شاعر بمسئولياته مقدّر لخطورة منصبه ، قد جعل العدل منهجه وقد صمم على قطع دابر الفتن قبل بزوغها ، فأطمأنوا إلى قوته وحسن سياسته ، واستظلوا بعدله وجميل رعايته .

وقد عرفنا خطباً لكثير من الخلفاء في مثل هذا الموضوع فكانت أقرب إلى الايجاز وأجمعَ لرسم المنهج الواضح لطريقة الحكم ، وفيها التهديد وفيها الوعد والوعيد . فلم تخرج خطة المولى إدريس الثاني عن هذا الإسلوب .

لكن هل ترى أن ما يتبعه الملوك والرؤساء في العصر الحديث حين يتولون مناصبهم ، من اعطاء برنامج تفصيلي ـ افضل أم هذه الطريقة التي تجنح الى التركيز وتكتفي بالإشارة واللمح ؟ أم ان لكل عصر مقتضياته وظروفه

وطريقته في المشورة والديمقراطية ؟ وان الشعوب الواعية الفاهمة تخاطب بما لم تكن تخاطب به الشعوب التي لم تكن تشارك في سياسة الدولة الا بعدد اصابع اليد الواحدة من الرجال الذين يختارهم الحاكم لا الشعب !

هذا ولعلنا نلاحظ أن الخطيب لم يهتم بسجع أو بديع ، وأن جمله مرسلة لا يلتزم فيها نظاماً ما بعينه من قصر أو طول أو ازدواج أو غير ذلك .

المهدي ابن تومرت[1] (٤٨٥ – ٥٢٤ هـ)

(رأينـا تقديم الحديث عن المهدي ابن تومرت قبل الحديث عن أبي حفص الأغماتي (خلافا لنظام المنهج) لأسباب تاريخية وأدبية سنعرفها حين الحديث عن الاغماتي) .

خطبته في المصامدة عاهداً الى عبد المؤمن

« إن الله سبحانه وله الحمد منّ عليكم – أيتها الطائفة – بتأييده ، وخصّكم من بين اهل العصر بحقيقة توحيده ، وقيّض لكم مَن ألفاكم ضُلاّلاً لا تهتدون ، وعُمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً ، وقد فشت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل، وزين لكم الشيطان أضاليل وتُرّهات أنزّه لساني عن النطق بها ، وأربأ بلفظي من ذكرها ، فهداكم الله به بعد الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفُرقة وأعزّكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم ؛ ذلك بما كسبته أيديهم وأضمرته قلوبهم، وما ربُّك بظلاّم للعبيد .

فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم وأرُوه من الشكر قولاً وفعلاً ما يزكّى به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم ، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء ، وكونوا يداً واحدة على عدوكم فانكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى طاعتكم وكثُر أتباعكم وأظهر الله الحقّ على أيديكم ، وإلا

١ ـ أنظر ترجمته في الجزء الاول من هذا الكتاب .

تفعلوا شملكم الذلُّ وعمّكم الصّغار واحتقرتكم العامة فتخطّفتكم الخاصة. وعليكم من جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخرِ هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أوّلها. وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم، هذا بعد ان بَلَوْنا في جميع أحواله من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه، واخترنا سريرته وعلانيته، فرأيناه في ذلك ثبْتاً في دينه، متبصراً في أمره، واني لأرجو ألا يخلف الظن فيه. وهذا المشار اليه هو (عبد المؤمن).

فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه، فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين، أعزهم الله، بركةٌ وخير كثير، والأمر لله يقلده من شاء من عباده. »

المفردات والاساليب :

قيض الله لكم من ألفاكم ضلالا : قيض : هيأ. ألفاكم : وجدكم. يقصد باسم الموصول (مَن) نفسه. ترهات : أباطيل. رفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين : المروق : الخروج من أي شيء، والمراد هنا الخروج عن أصول الدين، ويعني بالمارقين المرابطين. لا يصلح أمر هذه الأمة .. الخ يعني بـ (اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف). بلوناه : اختبرناه وجربناه. نكص على عقبه : النكوص الاحجام والرجوع، والعقِب مؤخر القدم، المراد بالتعبير التقصير.

التحليل والنقد

اشتملت الخطبة على العناصر الآتية :

١) ذكر فضله على المصامدة. ٢) وصية وتحذير لهم. ٣) عهده بالأمر بعده الى عبد المؤمن.

فأما فضله عليهم فهو أنه هداهم بعد ضلالة، وطهرهم بعد رجس، وبصّرهم

بعد جهل ، وجمعهم بعد فرقة ، وأعزّهم بعد ذلة ، وأورثهم ملك المرابطين .

أما وصيته لهم فأن يخلصوا لله أعمالهم ويُصفوا له نياتهم ،وان يتجنبوا الفرقة ، وان يكون الحزم رائدهم بلا ضعف ولا عنف .

وفي عهده لعبد المؤمن ذكر بعض صفاته ، وصدق نيته وايمانه وبصره بالأمور ، وذكر انه قد اختاره بعد تجربة واختبار . ثم أمرهم بطاعته والالتفاف حول رايته إلا أن يحيد عن الدعوة .

والخطبة في ذروة البلاغة ، فصاحةَ أسلوبٍ ووضوحَ معنى وتفضيلَ فكرةٍ وحسنَ تأتٍّ لما أراد .

فموضوع الخطبة هو أخذ البيعة لعبد المؤمن ، وقد مهد لذلك بتذكيرهم بأنه صاحب هذا الأمر وأنهم إنما استجابوا له لوثوقهم بأنه يعمل لصالح الدين ولصالحهم وأنه مخلص فيما دعا اليه ، وقد رأوا نتيجة هذه الاستجابة من تحوُّلِ أحوالهم وتبدل أمورهم من سيء الى أحسن ، ثم أخذ ينصحهم بما يحبون وبما يعرفون به أنه معنيّ بأمورهم متوخٍّ لعزهم وسؤددهم ، فلا جرم أن عهده بعد ذلك سيكون مقبولاً وأن أمرهم بالطاعة سيكون مسموعاً .. وهكذا كان .

وأنت ترى أن الخطبة أشبه بخطب الرعيل الأول من المسلمين ، تسودها الروح الدينية وتأكيد المعاني في ايجاز وقوة ، وقصر الجمل وازدواجها دون مراعاة لسجع أو بديع، إلا ما يكون من طباق يكثر في مثل هذه الموضوعات دون أن يكون مقصوداً أو متكلفاً . إنها طريقة الجاحظ الكتابية المشرقية التي أعجب بها المغاربة وساروا على منوالها ردحاً طويلاً من الزمن مع تشكُّلها بشكل البيئة ، الفكري والسياسي والمذهبي .

وإن في الخطبة لتفهُّماً عميقاً لنفسية سامعيه وبصراً بما يجذبهم ، فقد عرف التاريخُ البربرَ قوماً يقدسون حريتهم ويتوقون الى ان يسودوا أمر أنفسهم ، فضرب على هذا الوتر الحساس في براهينه وأدلته في منطق سديد ، وأسلوب سلس ، وبلاغة مؤثرة .

مناقشة

« لابن تومرت خطب أخرى ورسائل ومناظرات ومحاضرات وتحميدات. » هل تراه التزم طريقة واحدة في نثره ؟ وهل هو يمثل مدرسة جديدة في أدب المغرب النثري ؟

*

إرجع الى الكتب التالية تفدك في هذا البحث :

النبوغ ج١ ، ٢ .
المعجب .
البيان المغرب في أخبار المغرب ج١ ، ٢ .
الحلل الموشية .
المغرب في حلي المغرب .
من ذكريات مشاهير المغرب (المهدي ابن تومرت) للاستاذ كنون .
المهدي ابن تومرت . لأبي بكر بن علي البيدق بتحقيق المستشرق (بروفنسال) .

بعد جهل ، وجمعهم بعد فرقة ، وأعزّهم بعد ذلة ، وأورثهم ملك[٣] المرابطين .

أما وصيته لهم فأن يخلصوا لله أعمالهم ويُصفوا له نياتهم ،وان يتجنبوا الفرقة ، وان يكون الحزم رائدهم بلا ضعف ولا عنف .

وفي عهده لعبد المؤمن ذكر بعض صفاته ، وصدق نيته وايمانه وبصره بالأمور ، وذكر انه قد اختاره بعد تجربة واختبار . ثم أمرهم بطاعته والالتفاف حول رايته إلا أن يحيد عن الدعوة .

والخطبة في ذروة البلاغة ، فصاحةَ أسلوبٍ ووضوحَ معنى وتفضيلَ فكرةٍ وحسنَ تأتٍّ لما أراد .

فموضوع الخطبة هو أخذ البيعة لعبد المؤمن ، وقد مهد لذلك بتذكيرهم بأنه صاحب هذا الأمر وأنهم إنما استجابوا له لوثوقهم بأنه يعمل لصالح الدين ولصالحهم وأنه مخلص فيما دعا اليه ، وقد رأوا نتيجة هذه الاستجابة من تحوّلِ أحوالهم وتبدل أمورهم من سيء الى أحسن ، ثم أخذ ينصحهم بما يحبون وبما يعرفون به أنه معنيّ بأمورهم متوخٍّ لعزهم وسؤددهم ، فلا جرم أن عهده بعد ذلك سيكون مقبولاً وأن أمرهم بالطاعة سيكون مسموعاً .. وهكذا كان .

وأنت ترى أن الخطبة أشبه بخطب الرعيل الأول من المسلمين ، تسودها الروح الدينية وتأكيد المعاني في ايجاز وقوة ، وقصر الجمل وازدواجها دون مراعاة لسجع أو بديع، إلا ما يكون من طباق يكثر في مثل هذه الموضوعات دون أن يكون مقصوداً أو متكلفاً . إنها طريقة الجاحظ الكتابية المشرقية التي أعجب بها المغاربة وساروا على منوالها ردحاً طويلاً من الزمن مع تشكُّلها بشكل البيئة ، الفكري والسياسي والمذهبي .

وإن في الخطبة لتفهّماً عميقاً لنفسية سامعيه وبصراً بما يجذبهم ، فقد عرف التاريخُ البربرَ قوماً يقدسون حريتهم ويتوقون الى ان يسودوا أمر أنفسهم ، فضرب على هذا الوتر الحساس في براهينه وأدلته في منطق سديد ، وأسلوب سلس ، وبلاغة مؤثرة .

مناقشة

« لابن تومرت خطب أخرى ورسائل ومناظرات ومحاضرات وتحميدات. »
هل تراه التزم طريقة واحدة في نثره ؟ وهل هو يمثل مدرسة جديدة في أدب المغرب النثري ؟

*

إرجع الى الكتب التالية تفدك في هذا البحث :

النبوغ ج١ ، ٢ .
المعجب .
البيان المغرب في أخبار المغرب ج١ ، ٢ .
الحلل الموشية .
المغرب في حلي المغرب .
من ذكريات مشاهير المغرب (المهدي ابن تومرت) للاستاذ كنون .
المهدي ابن تومرت . لأبي بكر بن علي البيدق بتحقيق المستشرق (بروفنسال) .

٣ ـ أبو حفص الاغماتي (٥٣٠ – ٦٠٣هـ)

القاضي الأديب والشاعر الأنيق أبو حفص عمر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله ابن عمر السلمي الأغماتي، عاصرَ ابن حبوس الشاعرَ الذي درسناه. ولد بأغمات سنة ٥٣٠ هـ وسكن فاس وعاش بها وبتلمسان بالأندلس وتوفي بإشبيلية حيث كان قاضياً بها سنة ٦٠٣ هـ. كان من بيت علم وحسب عريق، وقد كان والده قاضياً لمدينة فاس، وفيها تلقى علومه فأخذ عن كبار علمائها وغيرهم من علماء المغرب والأندلس، ثم غلب عليه الأدب فشهر به. وقد خلد في شعره يوسف بن المؤمن الموحدي. روي أنه خرج في صباه مع أبي ذر الخشني النحوي وشيخهما معاً ابي بكر بن طاهر الى ظاهر المدينة، فأثرت الشمس في وجهه – وكان وسيماً – فقال أبو ذرّ:

وَسَمَتْكَ الشمس يا عُمَرُ   سِمَةً بالحسن تُعْتَبَرُ

فقال أبو حفص:

علمتْ قدر الذي صنعت   فانثنت صفراء تعتذرُ[١]

وقد نشأ الشاعر في ترف ونعيم حتى إنه كان: «إذا أقبل شُمت رائحة الطيب منه على بعد». واشتهر بغزلياته وانهماكه في العشق، حتى وجد منافسوه في ذلك مطعنا في رجل يخطب في الناس الجمعة، ويؤمهم في الصلاة،

---

١ ـ مجلة البينة عدد ٩ ص ٤٨ من مقال للأستاذ كنون عنه.

ويتولى أرفع مناصبهم الدينية ، منصب القضاء . ولكن يعقوب المنصور خليفة الموحدين لم يقبل فيه مطعناً ، وولاه قضاء إشبيلية بعد قضاء أغمات والإمامة في فاس ، ثم تولى القضاء أيضاً في تلمسان وفي فاس (على خلافات فيها وفي ترتيبها) .

وشعره رقيق ، فيما عدا المدح من ذلك قوله وقد أُهديت إليه جارية فوجدها ابنة سرية كان قد تسرّاها فردها وكتب الى مهديها :

يا مهديَ الرشأ الذي الحاظه تركت فؤادي نصب تلك الاسهم [1]

ريحانة كل المنى في شمّها لولا المهيمن واجتناب المَحْرَم

ما عن قِلًى صُرفتْ إليك وإنما صيد الغزالة لم يُبَحْ للمحْرِم [2]

وله موشحات جيدة ، وبهذا يعتبر من أقدم الوشاحين المغاربة ، وكانت موشحاته معروفة بالأندلس بل وبالمشرق على ما يذكره بعض الباحثين وإن كانوا لم يذكروا شيئاً منها[3] .

أما نثره فسترى أنه مسجوع كثير الاقتباس من خطبته التي تعتبر نموذجاً صادقاً لنثره الذي لا نعرف منه إلا هذه الخطبة ورسالة في ذم الدنيا .

وبلدة أغمات خلدها المعتمد بن عباد حين نفي اليها فذكرها في اشعاره التي كانت تفيض بالشكوى والأنين ، كما خلدها كثير من الأدباء الذين كانوا يزورون قبر ابن عباد بأغمات ، كلسان الدين ابن الخطيب وغيره .

---

١ ـ الرشأ : الظبي .

٢ ـ القلى : البغض

٣ ـ ارجع الى عدد البينة ج ٩ واقرأ مقال الاستاذ كنون والامثلة التي ساقها لهذا الأديب من الشعر والنثر .

خطبته في ذم الفلسفة

« إياكم والقدماء وما أحدثوا ، فإنهم عن عقولهم حـدّثوا ، أَتَوْا من الافتراء بكل اعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة .

الأنبياء ونورُهم ، لا الأغبياء وغرورهم ، عنهم يُتلقّى وبهم يُدرك السُّول، « عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » . الدين عند الله الإسلام والعلم كتاب الله وسنة محمد عليه السلام ، ما ضرَّ مَن وقف عندهما ما جَهِل بعدهما . خير نبيّ في خير أمة « يزكيِّهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » دلهم من قربٍ عليه ، واختصر الطريق إليه ، فما ضر تلك النفوس الكريمة، والقلوب السليمة ، والألباب العظيمة ، ما زوى عنها من العلوم القديمة . نقّاهم من الأوضار والأدناس، وقال « كنتم خير امة أُخرجت للناس ». كتابهم أعظم كتاب أُنزل ، ونبيهم أكرم نبي ارسل ، السيد الأمام ، لبنة التمام ؛ خير البرية على الإطلاق ، بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ، أنزل الكتاب اليه « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » ومهيمناً عليه . هو الشفاء والرحمة ، وفيه العلم كله والحكمة . معجز في وصفه عزيز في وصفه ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » . آياته باهرة قائمة ، ومعجزاته باقية دائمة ، إذ هي للنبوة والرسالة خاتمة . لا تنقضي عجائبه ، ولا تنتهي غرائبه . ماذا أقول ، وقد بهر العقول . حسبي حسبي ، « قُلْ لو كان البحر مِداداً لكلمات ربي لنفِد البحرُ قبل أن تَنْفَدَ كلمات ربي » .

المفردات والأساليب :

القدماء : يقصد بهم الفلاسفة . عن عقولهم حدّثوا : يعرّض بهم . الأنبياء ونورهم : خبر المبتدأ قوله (عنهم يتلقى) — يقصد ان الانبياء هم المصدّقون لا الفلاسفة . السول : مخفف السؤل وهو حاجة النفس . ما جهل بعدها : ما اسم موصول فاعل للفعل (ضرّ) ومفعوله (مَن) يزكيهم : يطهرهم. دلهم من قربٍ عليه : الضمير في (عليه) للعلم ، يقصد أن الأنبياء دلّوا الناس على

العلم من أقرب الطرق وبدون أقيسة منطقية أو أدلة جدلية كما هو أسلوب الفلاسفة في الاستدلال على معتقداتهم. ما زوى عنها : أخفى وأبعد . الأوضار والأدناس: الأقذار والنجاسات ، مفرد الأول وَضَر ، والثانية دَنَس . لبنة التمام : اللبنة ، الطوبة النيئة التي يبنى بها ، أي ان النبي هو آخر الأنبياء وبه خُتموا كما يختم البناء بالطوبة الأخيرة .

البرية : الخليقة . عزيز في رَصفه : الرصف النظام والإحكام .

التحليل والنقد

اشتملت الخطبة على الافكار الآتية :

١ – تحذير من آراء الفلاسفة . ٢) حث على اتباع الأديان السماوية
٣ – الإسلام وعمده .

فقد حذر الخطيب من اتباع مذهب الفلاسفة وخرافاتهم وافتراءاتهم . وحث على اتباع ما جاء به الأنبياء لأنهم على نور من ربهم وبيّنة منه ، والدين عند الله الإسلام ، والآية الإسلامية خير الكلام ، ونبي الإسلام خير نبي وخير انسان وخاتم الانبياء ، والقرآن شفاء ورحمة وعلم وحكمة ومعجزة خارقة في أسلوبه وأخباره .. والعلم الحق ما جاء به القرآن والسنّة ، وما خالفهما من الآراء والمعتقدات زائف ، ويجب أن يقتصر طلب العلم والتبحر فيه عليهما ، فالعلم بهما هو العلم والجهل بغيرهما ليس بجهل .

واسلوب الخطبة بليغ محكم واضح ، وهو محلّى بالمحسنات البديعية في غير تكلف ، مع أنك لا تكاد تمر بجملة دون سجع أو جناس ، إلا انه وشي الطبع الذي تقتضيه بلاغة الكلام وموسيقاه . والجمل قوية قصيرة فيها كثير من الازدواج الذي يُكسب الكلام نغمة موسيقية محببة . وقد ضمنت الآيات القرآنية في مواضعها المناسبة اللائقة ، فجاءت كنصوص من جواهر تتخلل حبات العقل ، "وقلّ من يستطيع ان يكثر من ذلك" دون تكلف او قلق ،

ولكن الخطيب – والخطبة دينية – فعل ذلك فاحسن واجاد . وفي الخطبة إطناب واضح استدعاه التفصيل والتوليد .

وفي الخطبة منطق هادىء وفكرة منظمة وبرهنة واستدلال . وهذا يعطينا فكرة عن النثر في هذا العصر الذي جمع بين الأساليب المنطقية والعناية بالمحسنات البديعية ، ورقي اسلوبه بتربية الفكر المنظم ودراسة الجدليات واعتراك المذاهب والنظريات . فإذا عرفنا ان الموحدين شجعوا الفلسفة مع جنوحهم بها الى تأييد الدين (على طريقة الغزالي في الشرق) أدركنا إلى أي حد تمثل هذه الخطبة روح ذلك العصر وأدبه في المغرب ، وقد مرّت فترة على قيام الدولة الموحدية .

مناقشة

« هذه الخطبة تميز أدباً مغربياً ذا شخصية مستقلة عن أدب الأندلس وأدب الشرق . »

حقق هذا الدعوى بالمقارنة بين هذه الخطبة وبين أي نثر خطابي او كتابي او تأليفي معاصر لها في الشرق وفي الأندلس .

وسنفيدك فقط بأسماء بعض هؤلاء المعاصرين ، وعليك ان تبحث عن انتاجهم في مظانّه :

الفتح بن خاقان – القاضي الفاضل – القزويني .

ج ـ الكتابة واشهر الكتاب

١ ـ القاضي عياض[1] (٤٧٦ – ٥٤٤ هـ)

منتخبات له

١ – قال الفتح بن خاقان في « قلائد العقيان » :

« حملني القاضي عِياض رقعة تحية للرئيس أبي عبد الرحمن بن طاهر رحمه الله ، وهي :

عمادي أبا نصر ، مُثَنَّى الوزارة ووحيدَ العصر ، وهل لك في مِنّةٍ تفوت الحصر ؟ تخفُّ مَحَملا ، وتُبلغ أملا ، وتُشكَر قولاً وعملا ، شكراً تترنم به الحداة ثقيلا ورَملا .

إذا لقيت الحضرة العلية مستلماً ، ولقيت الظاهر ابن طاهر فخر الوزارة مُسلِّماً ، وحللت من فنائِهِ الأرحب حَرَماً ، ولمست بمصافحته ركنَ المجد يندى كرماً ، فقِفْ شوقي بعرفات تلك المعارف ، وانسك شكري بمشاعر تلك العوارف ، وأطِفْ إكباري بكعبة ذاك الجلال سبعا ، وبوِّىء لودّي في مقر الكمال رَبْعا ، وأبلغ عني تلك الفضائل سلامـــا ، يلتئم بصريح الحب

١ – أنظر ترجمته في القسم الاول من هذا الكتاب .

التئاماً ، ويحسن عني بظهر الغيب مقاماً ، ويسير بأرَج الحمد إنجاداً وإتهاماً ».

المفردات والاساليب :

أبا نصر : لقب الفتح بن خاقان وكنيته (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله ابن خاقان[1] ، والكلمة عطف بيان على (عماد) المنادى بحرف محذوف. مثنّى الوزارتين : كثير من وزراء ذلك العصر كان يسمى « ذا الوزارتين » ومنهم الفتح ، والأصل فيها ان يجمع الرجل بين وزارتي القلم والسيف . الحُداة : مفردها حادٍ وهو الذي يغني للإبل ويسوقها . الثقيل والرمل : اصطلاحان عروضيان . مستلماً : يستعمل هذا التعبير في مناسك الحج (استلام الركن اليماني)وكأنه شبه حضرة الوزير بالكعبة . عرفات : جبل بظاهر مكة يقف عليه الحجاج ، استعاره هنا لحضرة الوزير . المعارف : الصفات والسجايا . العوارف : جمع عارفة وهي الإحسان والصنيعة . النسك : الانقطاع للعبادة . أطف إكباري : بلّغ الوزير تعظيمي وإكباري واجعله يطوف حول كعبته . ذي الجلال : المقصود به الوزير. بوّىء لودّي رَبْعاً : بَوّأ : أسكن ، الود : الحب ، ربعاً : منزلاً . صريح الحب : خالصه . ظهر الغيب : في الغياب . إنجاداً وإتهاماً : أنجد صار الى نجد، إقليم بالحجاز ، وأتهم صار إلى تهامة وادٍ بالحجاز ، ثم يستعملان بمعنى الارتفاع والانخفاض ونحو ذلك ، المعنى هنا أنه يحمده في كل حال . أرج الحمد : رائحته .

التعليق :

يريد الكاتب أن يحمّل صديقه رسالة إلى ذلك الوزير، خلاصتها : يا صديقي الذي أعتمد عليه ، هل تقدم اليّ معروفاً لا يكلفك أداؤه شيئاً وفيه قضاء وطري ؟ إذا بلغت الوزير فبلغه أشواقي وشكري وتعظيمي وحبي وسلامي .

---

١ ـ هو وزير وأديب اندلسي مشهور مات قتيلاً في فندق بمراكش ـ قيل بايحاء من علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٢٩ هـ .

واقرأ بعد هذا التلخيص الرسالة مرة أخرى ، واعرف موضع كل معنى وكيف أداه في ثوب زخرفي كادت المعاني معه أن تضيع في اللفائف ، او على الأقل أصبحت غامضة ؛ لولوع الكاتب بالسجع والجناس والاقتباس والتضمين (مثنى الوزارة – وحيد العصر) ، (وحيد العصر – تفوت الحصر)،(تخف محملا – تبلغ أملا – تشكر قولاً وعملا – ثقيلا ورملا) ، (مستلماً – مسلماً – حرماً – كرماً) ، (عرفات – معارف – عوارف)، (سبعاً – ربعاً)، (سلاماً – التثاماً – مقاماً – إتهاماً) !!

وأنت تعلم التضمين والاقتباس الواضح في هـــذا الكلام ، فالمثنى تعبير نحوي. وقولاً وعملا تعبيراً أصولي، وثقيلا ورملا تعبير عروضي، ومستلماً تعبير فقهي ، وإذا أنت ضممت كلمة ، مستلماً الى حرماً الى ركن الجد – وجدت أن الرجل قد هدم الكعبة ونثرها أجزاء كل جزء في جملة !! واضمم الى ذلك ان شئت أنت – كما شاء هو – الكلمات : عرفات ، انسك ، أطِفْ ، كعبة، سبعاً ...

ليس هذا أدباً مغربياً رُوْحاً ، انه وافد من الأندلس مع القاضي عياض ، والأندلس أخـذته من المشرق وهناك أساطين الصناعـة . انـه أدب التكلف والزخرف والصناعة .. أدب الألفاظ .

٢ – وله من كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » : إن كتاب الله العزيز منطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة ، وتحصيلها من جهة أنواعهـا في أربعة وجوه : أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ، ووجـوه إيجـازه وبلاغته الخارقة عادة ، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام ، قد خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤتَ انسان ، ومن فصل الخطاب مـا يقيِّد الألباب ، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به الى كل سبب ... الخ .

المفردات والاساليب :

وجوه من الإعجاز : أنواع يعرف بها إعجازه . حسن تأليفه : تركيب كلماته وجمله . ذرابة اللسان : حدته ومضاؤه . فصل الخطاب : الكلام الفاصل . يقيد الألباب : يدهش العقول . البديهة : دون تحضير . يُدلون : يصلون .

التعليق :

هذا الأسلوب أشبه بأسلوب الجاحظ ؛ جمل قصيرة، فيها موسيقى توقيعية، وأسلوب واضح ، واطناب وتفصيل . بيد أنه معنيٌّ بأمر المحسنات البديعية يلتزمها التزاماً ، ولا نظن أنه يعجزك أن تضع يدك عليها وتعرف أنواعها .

والكاتب يمضي على هذا النمط مكملاً للحديث عن الوجه الأول من الإعجاز ثم يقفـّي بالحديث عن باقي وجوه الاعجاز في حديث طويل ، وخلاصة ما جاء في النص الذي أثبتناه هنا : أن القرآن يشتمل على أربعة أمور هي التي جعلته معجزة لا تصدر عن بشر، منها بلاغته في كلامه وقوة أسلوبه ، وقد تحدى العربَ فلم يأتوا بسورة من مثله ، والعرب في الذروة من البلاغة والقمة من الفصاحة ، طبيعةٌ تلك جُبلوا عليها ، يلقون الكلام الفصل على البديهة ويحلـّون عقد المشكلات .. الخ .

٣ – هذا وان للقاضي عياض خطباً وشعراً وأدعية وتحميدات .

– ومن شعره قوله عند ارتحاله من قرطبة – وكان قد طلب العلم بها :

أقول وقد جَدَّ ارتحالي وغرّدَتْ حُداتي وزُمَّت[١] للفراق ركائبي
رعى الله جيرانا بقرطبة العلا وسقّى رباها بالعِهاد السواكب[٢]

---

١ ـ أعدت وشدت .

٢ ـ جمع عهد وهو المطر بعد المطر ، يدرك آخره بلل أوله .

وحيًّا زماناً بينهم قـــد أَلِفته طليقَ المحيَّا مُسْتلانَ الجوانب[1]

ومن ذلك قوله في خامات زُرِع بينها شقائق النعمان :

انظرْ إِلى الزرع وخـــاماته تحكي وقد ماست أمام الرِياح
كتائبـــاً تجفل مهزومـــة شقائقُ النعمان فيها جِراح[2]

ومن غزله :

رأت قمر السماء فأذْكَرَتْني لياليَ وَصْلهـــا بالرَّقْمَتَيْنِ[3]
كلانا نـــاظرٌ قمراً ولكن رأيتُ بعينهـــا ورأتْ بعيني

وافهم أنت معنى البيتين .

المناقشة

القاضي عياض من علماء عصر المرابطين وأدبائه .

هل ترى فيما درسته من منتخبات له أنه يمثل هذا العصر في أدبه ؟ وكيف ذلك ؟

---

١ ـ مألوف ، لين الجانب .
٢ ـ ماست : تبخترت . تجفل : تسرع ذاهبة في الارض. (الخامة القبضة الرطبة منالنبات).
٣ ـ الرقمتين اسم موضع .

ابو جعفر بن عطية[1] (٥١٧ – ٥٥٣ هـ.)

منتخبات له

١ – من قوله في الرسالة التي كتبها يستعطف عبد المؤمن من سجنه[2] : « تالله لو أحاطت بي كلُّ خطيئة، ولم تنفكَّ نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخِرْتُ بمن في الوجود ، وأنِفْتُ لآدمَ السجود ، وقلت : إن الله تعالى لم يوحِ في الفُلْك لنوح ، وَبرَيْت لقُدار ثمودَ نبلا ، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين ، وقبضت قبضةً من أثر الرسول فنبذتها ، وافتريت على العذراء البتول فقذفتها، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوة ، وذَمَمْتُ كل قرشيّ ، وأكرمت لأجل وحشيّ كلَّ حبشي، وقلتُ إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة الخليفة ، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شُعْبة، واعتلقت من حصار الدار ، وقتل أشمطها بشعبة ، وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والاصفر ، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر ، وغادرت الوجه من الهامة خضيبا ، وناولت من قرعَ سن الحسين قضيبا ، ثم أتيت حضرة المعصوم لائذاً ، وبقبر الإمام المهدي عائذاً ، لأُذِن لمقالتي أن تُسمع ، وتُغفَر لي هذه الخطيئات أجمع ، مع اني مقترف ، وبالذنب معترف :

١ – أنظر ترجمته في الجزء الاول من هذا الكتاب .

٢ – مر في ترجمته الجزء الاول المنظوم من هذه الرسالة .

فعفواً أميرَ المؤمنين فمن لنا   بردٌ قلوبٍ هدّهـا الخفقان؟

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته . »

المفردات والاساليب :

حتى سخرت .. وأنفت : اشـارة الى صفات إبليس وما فعله حين أمره الله بالسجود لآدم . قدار ثمود : هو قـدار بن سالف المسمى « احمرعاد » الذي عقر ناقة صالح وقـد جعلها الله معجزة له ، والقصة مذكورة في سورة هود فارجع إليهـا . نار الخليل : هي النار الـتي أوقدهـا قومـه ليحرقوه بها حين اتهموه بهدم أصنامهم . شجرة اليقطين : حيـنما قذف الحوت يونس في أرض عراء أنبت الله عليه شجرة اليقطين (القرع) ، وارجـع الى التفسير في سورة يونس تعرف تفاصيل القصة . هامان : وزير فرعون الذي قـال له : « يا هامانُ ابنِ لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب أسبابَ السموات فأطلع الى إله موسى » . أثر الرسول: اشارة الى قصة السامري مع بني اسرائيل حين تركهم موسى مع أخيه هارون ، أنظر تفصيل القصة في سورة طه . العذراء البتول : هي السيدة مريم وقصتها مفصلة في سورة مريم . صحيفة القطيعـة : هي تلك المعاهدة التي أمضتها أُسَر قريش لمقاطعة بني هاشم لمناصرتهم للنبي عليه السلام بدار الندوة[1] . وظاهرت الأحزاب .. الخ : اشارة الى غزوة الخنـدق (إذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) . فكان الكفار[2] في العدوة القصوى. وذممت كل قرشي : وقد نهى النبي عليه السلام عن ذم قريش . وحشيّ : عبدٌ حبشي لجبير بن مطعم ، وكان هو الذي رمى حمزة فقتله غِيْلةً في غزوة أُحُد فكان مقتله شديد الوقع في نفس النبي عليه السلام . بيعة السقيفة: بيعة أبي بكر حين كادت تحدث فتنة بين المسلمين . غلام المغيرة : هو أبو لؤلؤة (عبد المغيرة ابن شعبة) الذي قتـل عمر بن الخطاب لأنه لم يخفف عنه الضريبة التي كان

١ – هي دار كان يجتمع فيها اشراف قريش في مكة للتشاور في الأمور الخطيرة .
٢ – هم قريش والقبائل التي اشتركت في غزوة الخندق وسموا « الاحزاب » .

يؤديها لسيده أو لغير ذلك من الاسباب . اعتلقت من حصار الدار : تسوَّرتها للاشتراك مع من قتلوا عثمان وتسوروا عليه الدار لمّـا لم يستطيعوا الدخول من بابها الذي كان محروساً بالحسن والحسين، اللذين أرسلهما أبوهما لمـا استغاث به عثمان . أشمطها : هو عثمان بن عفان . يقول حسان بن ثابت في رثاء عثمان :

ضَحَّوْا بأشمَطَ عنوانُ السجود به يقطِّعُ الليلَ تسبيحاً وقرآنا
لتسمعَنَّ وشيكاً في ديارهمُ الله أكبر !! يا ثاراتِ عثمانا !!

ثم كان ما تنبأ به حسان .

والشعبة : قطعة الحجر ونحوها تكون مسننة، وهي السكين ايضاً. تقاتلوا: فعل ماضٍ يشير به الى ما كان بين علي ومعاوية من حروب وهل كانت للدنيـا أو للدين ، فمن قال إنهم تقاتلوا على الدنيا قال إنهم اختلفوا من اجـــل الذهب والفضة وطيبات المآكل . الثريد الأعفر : خـــبز يفتّ في مرق اللحم ، فاذا وضع على الفتة الأبزار صار لونها أعفر مغبراً وهي أطيب الأكل عند العرب . وغادرت الوجه من الهامة خضيباً : نرجح ان المراد بالهامة رأس الحسين حيـنما تخلى عنه أنصاره فقُتل وحُملت رأسه الى الخليفة الأموي في دمشق ، وقـــد يكون المراد علي بن أبي طالب الذي قتله أحد الخـوارج . ناولت من قرَع سن الحسين قضيباً : القرع، الضرب والنقر، والقضيب العود من خشب أو غـيره ، والمشار اليه هو حادثة الحسين حيـــنما حملت رأسه الى يزيد بن معاوية فوضعها أمامه وأخذ يعبث بأسنانها بعود كان في يده . حضرة المعصوم : ابن تومرت . لائذاً : لاجئاً مستجيراً وكذلك (عائذاً) . هدّها الخفقان : أنهكها الخوف .

التعليق : يقول الكاتب في هذه الرسالة : « لو ارتكبت أعظم ذنوب البشر وأشهرها ثم استجرْت بالمهدي وقـــبره لحُقَّ لي ان أطمع في الرضا والعفو من أمير المؤمنين . »

وقد ذهب يعدد هذه الذنوب التي عرفها التاريخ وقصّتْها كتبُ الأديان ، في

أسلوب مسجوع مجنّس ، وهذا الأسلوب وما فيه من حشو للمعلومات واقتباس الألفاظ وتضمين المعاني – هو الأسلوب الذي ساد حينئذ في الشرق وأُعجب الناس به فأغرم الأدباء بالتفنن فيه وإظهار البراعة والمقدرة على سلوكه . ومع أن الكاتب لم يدرك مدرسة القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) في الشرق ، تلك المدرسة التي كانت تلتزم السجع وتتكلفه تكلفاً ممقوتاً – إلا أننا مع ذلك نحسّ هذا التكلف ونشعر بوطأته على الذوق الأدبي ، وطغيانه على وضوح المعنى في بعض الأحيان، كقوله : «اعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة»وكقوله: « تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر » .

هذه إذن صورة مبالغة من النثر على طريقة ابن العميد .

والجمل كما ترى قصيرة تكاد كل جملتين منها أو أكثر تكون متساوية ، والمعنى قليل واللفظ كثير ، وأحيـــاناً يُتخم اللفظ بالمعنى ويزدحم به حتى لينوء بحمله .

وإنا لنرى فيها عبارات العصمة والتقديس للمهدي وهذا أثر البيئة التي قيل فيها هذا الأدب .

٢ – ومن رسالة له كتبها على لسان عبد المؤمن سنة ٥٤٦ هـ الى طلبة سبتة ، وكان أهل سبتة قد ثاروا على عبد المؤمن :

« أما بعد . فالحمد لله مُولي الرغائب ، ومُسْني الآمال والمطالب ، وقابل توبة التائب ، نحمده بما يتعين من حمده الواجب ، ونصلي على نبيه محمد العاقب ، وعلى آله وصحبه أُولي المفاخر السنية والمنـاقب ، ونصل الرضا على الإمـام المعصوم ، المهدي المعـلوم ، المحرز شرف المبادىء والعواقب ، المجلـّي بنوره الثاقب ، حُجُب الظلام الواقب . وكتبنـــاه لكم – كتب الله لكم شكراً مُوالىً معاداً – من حضرة مراكش – حرسها الله – وقد وصلنا – بحمد الله – على أتم أحـوال الظفر واليُمن ، وعدنا إليها تحت ظل السلامة والأمن ، بعـد كمال الغزوة المباركة وتمامها ، واطفاء نار الفتنة بِبَرد الهدنة وسلامها » .. الى

ان يقول : « وان النعمة – وفقكم الله – بهذه الفتوح العميمة العامة شاملة على من أخذ بهذا الأمر العزيز ودان، وتزيـّا بحلـّته البهية فازدان، فهي الفتوح التي ظهر بها من آيات المهدي – رضي الله عنه – العَجَبُ العُجاب ، وفاض من بركاته الفيض المنساب .. الخ . »

المفردات والاساليب :

مُسْني الآمال : ميسِّرها . المناقب : المكرمات والفضائل . المجلي حجب الظلام : الذي يكشفها. الظلام الواقب: وقب الظلام دخل على الناس ، ومنه قوله تعالى : « ومن شر غاسق اذا وقب » ، والغاسق ظلام الغسق . موالىً مُعاداً: متوالياً مكرراً، والجملة اعتراضية دعائية. برد الهدنة: طمأنينة السلام.

التعليق والنقد

هذه الرسالة أهدأ أسلوباً واكثر روية من الرسالة الأولى وأقل صخباً وضجيجاً ، ولا غرو فهذه رسالة المطمئن وتلك رسالة القلق على مصيره المهدد في حياته الذي يصرخ ألماً ويعوي عواء الذئب الجريح . هنا سجع متكلف ولكنه مقبول، وقد خلا من الحشو والغموض والتطويل، والجمل أطول قليلاً.

وبالبداهة فان هذه الرسالة متقدمة في الوجود على الرسالة الاولى بنحو عشر سنوات ، وكان التطور الأدبي سريعاً في تلك الفترة . واذا كان ابن زيدون الذي عاش قبل ذلك بنحو قرن من الزمان جاءت رسالته على نمط رسالة أبي جعفر الاولى فذلك لان تطور الادب في الاندلس كان سابقاً دائماً لتطوره في المغرب .

مناقشة

(أُدرس بضع رسائل كُتبت في عصر الموحدين ، واستنبط منها خصائص النثر في هذا العصر موضحاً ما فيه من آثار البيئة المغربية الطبيعية والسياسية والمذهبية والفنية) وتجد مجموعة صالحة من الرسائل في النبوغ ج٢ والأدب المغربي متفرقة ، وفي نفح الطيب ج٢ .

٣ ـ عبد الواحد المراكشي (٥٨١هـ - ...)

قدمنا صاحب الترجمة على ترتيبه في المنهج لتقدُّمه على مَن بعده في التاريخ بسنين طويلة ، وبالتالي سوف يختلف التقدير الأدبي حسب عصر كل منهم ، فلا بد لنا من متابعة هذا التطور بالحديث عنهم حسب وجودهم . وكذلك فعلنـــا في غيره .

وهو عبد الواحد بن علي ، محي الدين التميمي المراكشي ، ولد في مراكش سنة ٥٨١ هـ. في بدء حكم أبي يوسف المنصور الموحّدي ، وغادر مراكش وهو في التاسعة الى فاس ، حيث حصّل القرآن حفظاً وتجويداً ، ثم عاد اليها وهو في الرابعة عشرة من عمره حيث التقى ببعض علمائها . وفي الثانية والعشرين رحل الى الاندلس حيث التقى بعلماء أشبيلية وقرطبة ، ثم عاد الى المغرب وظل بـه الى أن رحـــل الى الشرق سنة ٦١٣ هـ. حيث قضى سنوات بمصر ثم بالحجاز والشام وبغداد . وتنقطع أخباره بعدئذ فـلا نعرف أين ذهب ولا أين ومتى مات ، اذ كل ما لدى الباحثين من مراجـع عنه هو كتابه الفذ « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » الذي يعتبر من أهم المصادر في الادب المغربي وتاريخه لا سيما في عصري المرابطين والموحدين بالمغرب والاندلس[١] .

وقد فهمنا من كتابه هذا أنه كان أديباً ومؤرخاً عظيماً ومؤلفاً متمرساً ، وأنه كان ذا مكانة سامية واطّـلاع على بواطن الأمور ، ممـا يؤكد عظم قدره

---

١ - أنظر المقدمة التي كتبها سعيد العريان في مقدمة المعجب طبعة القاهرة .

واتصاله الوثيق بأولي الأمر في المغرب وفي الأندلس وبكبار العلماء والأدباء .

منتخبات له

قال متحدثاً عن ابن تومرت :

« من هذا الموضع[1] قامت دعوته وبه قبره ، ولما نزله اجتمع اليه وجوه المصامدة ، فشرع في تدريس العلم والدعاء الى الخير ، من غير ان يظهر إمرةً ولا طِلْبَة ُملك ، وألّف لهم عقيدة بلسانهم ، وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان ، فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له وأُشربت قلوبهم محبته وأجسامهم طاعته . فلما استوثق منهم دعاهم الى القيام معه أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير ، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها .. »

التعليق والنقد

وأنت ترى أن الكلام من الوضوح والبيان والسلاسة والعذوبة بحيث لا يحتاج الى بيان، فلا سجع ولا زخرف ولا تقطيع للجمل ولا إيجاز ولا تطويل. اللفظ على قدر المعنى ، والمعنى هو المقصود بالعناية . فالرجل عالم مؤلف التزم هذه الصفة بأمانة مع أسلوب رائق بليغ .

٢ — ومن قوله في أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين :

« فأما أحوال جزيرة الأندلس ، فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف ، اختلّت أحوالها اختلالاً مفرطاً ، أوجب ذلك تخاذلُ المرابطين وتواكلهم وميلهم الى الدعة وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء . فهانوا على أهل الجزيرة أو قلّوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . وكان أيضاً من اسباب ما ذكرناه من

---

١ — تينمل بالسوس .

اختلالها قيام ابن تومرت بسوس واشتغال علي بن يوسف عن مراعاة أهل الجزيرة .

التعليق

يذكر المراكشي في هذا النص الأسباب التي اختلت من أجلها احوال الأندلس في أواخر عهد المرابطين، فذكر من ذلك ميل المرابطين الى الراحة، وطاعتهم للنساء ، وهجوم النصارى على الثغور المجاورة للبلاد ، واشتغال المرابطين بأمر المهدي عما سواه .

ولاحاجة بنا الى القول بأن هذا الاسلوب في رونقه وصفائه ووفائه بالمعنى في غير زخرف ولا إطناب — هو أشبه بأسلوب ابن المقفع ومدرسته في الشرق من القصد الى المعاني مع عدم إهمال جانب اللفظ واختيار الاسلوب .

وارجع إن شئت — وينبغي لك ان تفعل — الى كتابه «المعجب» فهو المصدر الوحيد لأدب المراكشي ، وستستفيد علماً واسعاً بأحوال المغرب وأدبه وعلمه ومبرّزيه في فترة من أهم فترات حياته ، وكذا ستطلع على احوال الأندلس وتاريخها من الفتح الاسلامي الى نهاية عصر الموحدين في دقة وأمانة علمية . وهو القائل : (ولم أثبت في هذه الاوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلاً من كتاب أو سماعاً من ثقة عدل ، أو مشاهدة بنفسي ، هذا بعد ان تحرّيت الصدق وتوخيت الإنصاف في ذلك كله ، وجهدت ألا أنقص احداً ذرّة مما له ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه » . وقد ألف هذا الكتاب وهو في مصر .

٤ — ابن عيسى (... — ٩٩٠ هـ)

هو كبير كتاب المنصور السعدي الذهبي أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عيسى الصنهاجي ، كان وزير القلم للمنصور ، ثم غضب عليه فألقى به في السجن، فلم يزل به إلى أن مات .

كان ابن عيسى متضلعاً في فنون الأدب والتاريخ وأيام العرب وعلوم اللغة ، وله مشاركة في النظم والنثر إلا أن صفة الكتابة الإنشائية النثرية غلبت عليه فشهر بها . وهو معاصر لعبد العزيز الفشتالي .

وله مؤلفات منها « الممدود والمقصور في سنا السلطان المنصور » .

منتخبات

١ — **فصل** من مقامة له يصف فيها بعض معاصريه من الأدباء :

« قلت : فأين الأديب الكاتب أبو الفضل يونس بن سليمان ؟ فقال : بَيْدَق السُّفْرة ، والكريم الواضح الغرّة ، والغصن الرقيق القشرة، والفَكِهُ الحُلْوُ العِشْرة ، وبَغْلُ العقيلة الحرة ، عِقْد الجُمانة والدرة ، ينظِم وينثُر ، وأفق خاطره يَكِفُ ويقطر، طريقه السهل ، وكلامه بين الشباب والكهل ، وهو اليوم صاحب قلم الإنشاء ، ورب الدلو في الحضرة المنصورية والرّشاء .

٢ — قلت : وأين الكاتب والأديب أبو العباس الغرديس ؟ فقال : الدر النفيس ، الغالي الرخيص ، وارث المجد الذي له التهويم والتمريس ، فِعْلُ

سؤدده غير مقيس ، فهو والسيادة سليمان وبلقيس ، وإنـــه اليوم بفاس دار قراره ، ومشرق أنواره ، ومنبت رَنْده وعَراره ، فـــلا تسل عن النُّبل ، والنباهة والفضل ، هنالـك الحسب الوضاح والمجد الصُّراح ، والأدب المزري بالراح ، ممزوجـــاً بالماء القراح ، ينظم وينثر ، وعلى كل مـــا يشاء الخاطر عنده يعثر .»

المفردات والاساليب :

بيـدق السفرة : البَيْدَق طائر في الجوارح في حجم الباشق (الصقر) ، والسفرة السفر . الواضح الغرة : المشهور . الرقيق القشرة : ليِّن الجانب . بعل العقيلة : البعل الزوج والعقيلة السيدة العظيمة المحجبة . الجمانة : الفضة . يكف ويقطر : وكف البيت بالمطر يَكِفُ ، سال ، وبابه وَعَدَ ، ويقطر مثـله في المعنى ، فهو نزول المطر . والمعنى أن الرجـــل يجود خاطره بالنظم والنثر . الرِّشاء حبل البئر يعلَّق به الدلو لجلب الماء . يقول أحد الشعراء :

وإذا امرؤ مدحَ امرءاً لنوالهِ ... وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدِّر فيه بُعْدَ المستقَى ... عند الورود لما أطال رشاءَه

والمقصود بالتعبير أنـــه صاحب الأمر والنهي في دولة المنصور .

الغالي الرخيص : لعـله يقصد بالرخيص الكثير الإنتاج وإلا كانت حشواً مخلاً . التهويم والتمريس : الطارف والتليد والجديد القديم ، الأولى مأخوذة من هوَّم الرجل : هز رأسه ، والثـــاني مأخوذ من مرَّس إذا زاول الشيء بقوة وشدة ، ويؤول كلا المعنيين الى ما ذكرنا . غير مقيس : كما تقول (غير محدود) أي كثير عظيم . سليمان وبلقيس : هو نبي الله سليمان وبلقيس ملكة سبأ ، وقصتها مذكورة في سورة النمل من القرآن الكريم . والمعنى أنـه والسعادة مقترنان . رنده وعراره : الرَّند شجر طيب الرائحة من شجر البادية ، وهو العود أيضاً ، والعرار بَهَار البر ، وهو نبت طيب الرائحة . يقول الشاعر :

تمتعْ من شميم عَرار نجدٍ فما بعد العشية من عَرارِ

وواحدته عرارة . المجد الصُراح : الخالص من الشوائب . المزري بالراح : الذي يجعل الخمر دونه تأثيراً .

التعليق : يصف الكاتبُ في النص الأول الأديب الوزير أبا الفضل يونس ابن سليمان كاتب المنصور وصاحب ديوان إنشائه ؛ بأنه أحد أعلام تلك الدولة ومشاهيرها ، وأنه رقيق الحاشية فكه المحادثة طيب العشرة ، ناظم ناثر في سهولة لفظ وتراوح في أسلوبه بين اللين والعنف ، وأنه صاحب الامر المسموع الكلمة في دولة المنصور .

وفي النص الثاني يصف الاديب الكاتب أبا العباس الغرديس بأنه جوهرة بل جواهر كثيرة نفيسة عالية القدر ، قد اجتاز أسباب المجد والسيادة ، وأنه من أهل فاس وبها عمّ فضله ونبه ذكره ، وذاع أدبه العذب من نظم ونثر .

والاسلوب كما ترى هو أسلوب المقامات في سجعه وبديعه المتكلف الذي لا تخرج منه بطائل في المعنى لا سيما إذا طرق المناحي العلمية كالتراجم ونحوها فانك ترى فيه غموضاً وألفاظاً غير محددة المعنى . ولكنه يدل على طول باع في صناعة الكلام وصياغة الالفاظ وتنميق الاسلوب ، وعلى قاموس لغوي واسع المدى .

وقد شاع فن المقامات في المغرب بعد شيوعه في المشرق والأندلس فوجدنا مقامات كثيرة مختلفة المنحى .

٣ ـ ولابن عيسى شعر أقل مرتبة من النثر ، ومنه قوله في المنصور :

هو الغيثُ ثم البحر في الجود والندى
وليثٌ إذا جد الطِّعان هَصورُ
يفوق السِّهام عزمُه وانبعاثه ويَقْصُر عنه في الثبات ثبير

والعزم والانبعاث : الإرادة والتنفيذ . وثبير جبـــل في الحجاز ، وصفه الشاعر امرؤ القيس وقد غطاه ماء السيل وغثاؤه فقال :

كأن ثَبيْراً في عَرانين وَبْلِهِ   كبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ[1] مُزَمَّلِ

ومن ذلك قوله وقد كتب اليه المنصور بالخط المشرقي :

سقتنيَ كأسَ السرور دهاقا   خطـــوط أتتنيَ في مُهْرَقِ
رأت كفّ أحمد في الغرب بحرا   فجاءت إِليه مـــن المشرق

دهاقا : مملوءة . مهرق : الصحيفة المملوءة .

مناقشة

شاع فن المقامات في المغرب فوجدنا مقامات لعبد المهيمن الحضرمي ومحمـد المكلاتي وابن الطيب العلمي والوزير ابن باديس وغيرهم .

أدرس ما تستطيع العثور عليه من هذه المقامات وقارنها بمقامات البديــع والحريري وابن شهيد ولسان الدين ابن الخطيب واستخلص من المقارنة مقومات المقامات المغربية .

المراجع

نفح الطيب ج ٧، ٨ القسم الثاني الباب الخامس (طبعة حديثة) .
أزهار الرياحين للمقري .
مقامات البديع والحريري في مراجعها الكثيرة .
النبو غ المغربي ج٢ .
الادب المغربي .
سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب .

---

١ ـ ثوب غليظ مخطط من صوف ؛ (العباءة) . والمزمل : المدثر بالثوب ، والعرانين : جمع عرنين وهو اول الشيء، ومقدمته . الوبل : المطر الغزير .

٥ ــ الحسن اليوسي (١٠٤٠ - ١١٠٢ هـ.)

أبو علي الحسين بن مسعود بن علي اليوسي ، نسبة الى قبيلتـــه آيت يوسى البربرية . تتلمذ في مختلف علوم الدين واللغة والأدب على كثير من علماء المغرب في مختلف عواصمه العلمية من سجلماسة الى درعة الى سوس الى مراكش، وتصدى للتدريس بالزاوية الدلائية ثم بجامع القرويين بفاس حين نقله اليها السلطان رشيد ابن الشريف العلوي ، وكانت حلقته بالقرويين غاصة بالمتعلمين لحسن إلقـــائه وغزارة مادته ، حتى قال فيه أحد معاصريه : « من فـــاته الحسن البصري يصحبه ، فليصحب الحسن اليوسي يكفيه . »

وقد اعترته حال من الزهد والتصوف فذهب الى قبيلته بالبادية معتزلاً ، ثم عاد الى مراكش لتدريس العلم بجامع الأشراف، وتوجه الى المشرق في أخريات حياته فحج وزار مصر ، ثم رجع الى المغرب حيث توفي بهـــا في قبيلته آيت يوسى .

واليوسي يمثل حركة أدبية توسطت العصرين السعدي والعلوي . وقد ترك بعض المؤلفات ، منها كتاب المحاضرات، وزهر الأَكَمْ في الأمثال والحِكم ، والقانون في ابتداء العلوم ، وديوان شعر . ولقد كان اليوسي علاّمة في العـــلوم النقلية والعقليـــة ، راوية يستحضر ديوان المتنبي وأبي تمام والمعري وشعراً غيرها كثيراً . ولذا فقد كان الى أدبه الكتابي شاعراً متـــين الأسلوب رصين العبارة . وكتابه المحاضرات جعله كالجواب عما أجاب به بعض أهل فاس عن بيتين قالها فيمن يتأخر عن مجلسه من أهلها :

ما أنصفت فاسٌ ولا أعلامها علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبَوْا إليَّ كما صبا راعي سنين إلى الغمام الصيِّب

منتخبات له

١ ـ من فوائده في « القانون » ، قال في مدح العلم والعالم والمتعلم :

أغدُ عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالث فتهلك . العلم خير من المال لأن العلم يحرسك والمال تحرسه ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه . العلماء ورثة الانبياء . العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كل علم أحسنه . قيمة كل إنسان ما يحسن . قلت : وهذه مروية عن الإمام علي كرم الله وجهه وأنه قال في خطبة خطبها : واعلموا أن الناس ابناء ما يحسنون وقدر كل امرىء ما يحسن ؛ فتكلموا في العلم تتبين أقداركم . قيل ولم يسبق اليها . وقال بعضهم : ليس كلمةٌ أحضَّ على طلب العلم منه ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وقول الشاعر في معناه :

لم يَدَعْ مَن مضى للذي قد غبَرْ فضلَ علمٍ سوى أخذِهِ بالأثرْ

التعليق :

هذه جمل وجيزة في مدح العلم وأهله من كتاب « القانون » ، منها حديث ومنها حكمة ، وهي وإن كانت جملاً متقطعة إلا انها موصولة المعنى صائبة الفكرة ناصعة الأسلوب تدل على تمكُّن في فن التعبير والتفكير . والقطعة طويلة فارجع اليها إن شئت في كتاب « المنتخبات العبقرية » للاستاذ السائح الرباطي ، تتخللها أشعار وأحاديث ومأثورات تدل على اطلاع واسع .

٢ ـ ومن رسالة بعث بها الى المولى إسماعيل يحثه على رعاية أهل (تطاوين) :

« ... فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من : قلعية الى درعية ماسة ، ويحرضهم على الجهاد والحراسة ، بعد ان يحسن اليهم ويُعفيهم مما يكلّف به

غيرهم ، ويترك لهم خيلهم وعُدّتهم ، ويزيدهم ما يحتاجون اليه ، فهم حماة بيضة الاسلام ، ويتحرى فيمن يوليّه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ، ونجدة في المضائق ، وغيرة على الاسلام ، ولا يولي فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته » .

التعليق :

مثل هذه القطعة في ذلك التاريخ الذي قيلت فيه لا يمكن إلا ان تكون أدباً مغربياً ، فقد كان الادب في ذلك التاريخ قد فسد في الشرق وانتهى في الاندلس ، وهاأنت ترى في هذا النص كلاماً واضحاً مبيناً بلا زخرف ولا تكلف ولا سجع ، فهو أشبه بأسلوب النثر في أرقى عصور الادب، الى جزالة وسهولة .

٣ ـ وديوان شعره متنوع الأغراض وأكثره في الوصف والرثاء والحكمة والحماسة والمدح .

ومن شعره في مدح شيخه العارف بالله أبي عبدالله سيدي محمد بن ناصر الدرعي:

١ وأعاد وجهَ الدين أبيضَ مُسفِراً بَهِجاً مُقِرا عينَ كلِّ موحِّدِ

٢ وأقام سُمْكَ بنائه حتى سما فوق السِّماكِ على الأواسي الوُطَّدِ

٣ وأزاح عنه كل حِنْدِسِ شبهة وضلالةٍ وغواية وتشدّد

٤ وافيت والبِدَعُ الحوادثُ قد دَجَتْ
ظُلُماتها والجهلُ واري الأزْنُد

٥ والدينُ مطموسُ المعالم والهدى بَيْضُ الأنُوقِ ولقْطَةٌ لم تُنْشَدِ

٦ والسُّنة الغرّاء قَفْرٌ موحشٌ ما فيه من هادٍ ولا من مهتد

٧ نَشبت بِضَبْعَيْها مخالبُ ضيغمٍ من مألف العادات عادٍ مُحْرِد

٨ وعفت اعاصيرُ الهوى آثارها فاستبْهمتْ عن ناشدٍ أو منشدِ

المفردات والاساليب :

٢) الأواس الوطد : جمع آس شجر والوطد الثابتة العالية . السماك : نجم عالٍ في السماء. ٣) الحندس : الظلمة ، والضلالة والغواية بمعنى واحد . ٤) واري الأزنُد : ورى الزند خرجت ناره والزند هو قطعة من الصوان تحك بأخرى مثلها حتى تخرج منهما شرارة النار ، والأزند جمعها . دجت : أظلمت . المعنى أن الشيخ حضر والبدع المنكرة قد فشت والجهل له صولة . ٥) بيض الأنوق : الأنوق الرخمة ، وبيضها يكون في شواهق الجبال فهو عزيز المنال، وهو مضرب المثل لكل شيء بعيد المنال . لقطة : هي المال الضائع . لم تنشد أي لم تطلب ولم ينادَ عليها . ٧) نشبت بضبعيها : علقت بهما والضبع العضد أو الإبط . ٨) عادٍ محرد : العادي المهاجم والمحرد الكثير الحرَد والغضب .

التعليق :

هذا شعر تلحظ فيه كدّ الطبع والذهن وغير قليل من التكلف ، وبه غير قليل من الألفاظ الغريبة . وإنما أتينا بهذا المثل ــ مع أن لهذا الاديب شعراً يتدفق ماء الشعر في أسلوبه وتتجلى فيه الصور البديعة والمعاني الرفيعة ، وذلك شأن أكثر شعره ــ لاننا أردنا ان ندلك على ان أثر الصناعة كان قد بدأ يتطرق الى أدب المغرب وإن ظل الأدب المغربي مقاوماً لهذا التيار مشيحاً عنه بوجه الزاهد فيه الكاره له .

المراجع

النبوغ ج١ .

المنتخبات العبقرية .

الصفوة للافراني .

الاستقصا ج٤ – ديوان اليوسي .

٦ — ابن الطيب العَلمي (... – ١١٣٤ هـ)

أبو عبدالله محمد بن الطيب الشريف العَلمي ، ولد ونشأ بفاس ، وبها درس وفيها تخرج ، وأستاذه في الأدب الشاعر الشهير ابن زاكور الفاسي .

كان ابن الطيب العلمي أديباً رقيق الحاشية، فَكِه الروح،صاحب براعة في صناعتي النثر والنظم . وألفاظه في كلٍّ فصيحة ومعانيه واضحة .

ظهر في عهد المولى إسماعيل العلوي وفي فترة نشاط أدبي ، فكان من فرسانه المجلين . ومن أعظم آثاره كتابه الشهير : « الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب » ترجم فيه لاثني عشر من أدباء وقته ونسج فيه على منوال قلائد العقيان للفتح بن خاقان الأندلسي المعروف .

كانت له رغبة ملحة في زيارة البقاع الطاهرة وله القصائد العشر في التشوق إليها ، والهتاف بالديار الحجازية ، فلما قدّر له أن يفعل وعزم على المسير لزيارة قبر الرسول الكريم الذي طالما لهج لسانه بحبه وسار مشرّقاً — مات في طريقه إلى تلك الديار المقدسة حيث وافته منيته بالقاهرة فدفن بها .

منتخبات له

١ — من قوله في « الأنيس » :

قال : أخبرنا بعض الظرفاء، من ذوي المروءة والوفاء، ممن أعتمد على نقله وروايته ، وأحكمُ بصحة عقله ودرايته ، قال : جلست يوماً مع جماعة من الأحباب ، على شيء من الشراب ، نتذاكر ما مر في أيام الشباب ، وبيننا شاب حسن الصورة ، عليه الملاحة مقصورة ، واللطائف في شمائله محصورة ، إلا أن

شعر شاربه قد طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسألناه عن سبب طوله ، وعدم قصّ طويله ، فقال : أنا أخـــبركم بخبر يعجب لذكره الحاضرون ، ويطرب لسماعه المنصتون والناظرون ... الخ .

التعليق :

ها إنك ترى اسلوباً سهلاً واضحاً لا تـكلـّف فيه وإن كان فيه ، شيء من السجع الرائق الجميل . وأقرأ بقية المقامة في كتـــاب الأنيس المطرب وهو متوفر وسهل الحصول عليه، أو إن شئت فأقرأه في كتاب المنتخبات العبقرية، وستجد قصة طريفة بهذا الأسلوب السلس البسيط الفكـه ، أسلوب المقامات .

٢ – من رسالة له إلى صديقه الأديب محمد بن العربي الشرقي :

« ... فما عثرت بعد معاناة البين ، ومعاتبة الدهر المفرق بين المحبّين ، إلا على بعض درر من كلامك ، استخرجتْ من بحور مددك بمداد أقلامك ، كنت ادخرتها عن القوم ، لمثل هذا اليوم :

تفقدتها بعد السرور بأنسها «وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر»

فما زالت تذكرني بأيام الوصال ، وتقطع من غراب البين الأوصال ، وتخرسه ان صاح أو صال » .

التعليق :

السجع هنا ملتزَم مع السهولة والتضمين ، ولعله لا يخلو أسلوب من أساليب الرسائل الفنية من مثل هذا الالتزام وذلك النمط .

٣ – ومن شعره في الغزل بالمذكر من إحدى موشحاته :

واستنطق الأوتار تحـــت الوَرَقْ
ظبيٌ صفا منـــه الجبـــين ورَقّ
قـــام وأهـــدى للعيون الأَرَقْ

★

عارِضُهُ فوق الخـــدود استـــدارْ
ثم استنارْ
وألبس الحمـــرة ثوبَ اخضرارْ

التعليق :

لم يكن التغزل بالغلمان مألوفاً لدى المغاربة قبل فترة الاشراف ، وإنما هو اتجاه طارى، في هذا العصر، ولعل السبب فيه اتصال المغاربة بالاتراك ، فرأينا أثر ذلك في بعض موشحات ابن زاكور الذي كان في الجزائر في عهـد الأتراك ثم وجدنا ابن الطيب العلمي يسير على منواله .

ونختم حديثنا عن ابن الطيب العلمي – وعـــن الأدب المغربي – بجزء من موشحته وبكلمة عن الموشحات في المغرب وتطورها الى عروض البلد :

يا ليلـــة السكْر

يا ليلة السكر ويومَ الخُمار
بـــين الصغار
علـّمتُما الأكؤسَ رَمْيَ الجمار

★

بات يُحيّينـــا نسيمُ الرياض
حـــتى اكتسى الليل قميص البياض
كأ ّنما يملا الـّطـــلا من حيـــاض

★

مهفهف ينسيك ذات الخمـــار
غِبّ المـزار
يدير باليمنى لنـــا واليسار

★

فأشرب فما في شربها من جُنـــاح

هذا غراب الليـــل ضم الجناح
وقَهْقَــهَ الأبريق والطـــير ناح

*

وفاح كالعنـــبر نشر العرار
بـــين الثمار
وأنشـــد القمْرِيُّ : حَيَّ الديار

المفردات :

الخمار : أثر الخمر في الرأس . الجمار : صغار الحصى، كأنما الأكؤس أصابت الرؤوس بما ترميه . والضمير في علتها للّيلة واليوم . الطلا : الخمر ، مقصور الطلاء وهو العنب يطبخ حتى يصير خمـــراً . مهفهف : غلام رشيق رقيق الخصر . ذات الخمار : كنايــة عن المرأة . غب المزار : عقب الزيارة . الجُناح : الأثم . غراب الليل : الظلام . ضم الجَناح : كنـاية عن انكمـاش الظلام . قهقه الإبريق : كاد ان يفرغ مما فيه فلخروج الخمر منه صوت متردد . الطـــير ناح : صياح الطيور ينبىء بقرب الفجر ، والتعبـير بالنواح حسنٌ في موضعه لانه تعبير عن نفسية الشارب حينما توشك سهرته على الانتهـاء . نشر العرار : رائحته ، وقد تقدم معنى العرار . القمري : ضرب من الحمائم لـــه صوت يتأوله الشعراء كلٌّ على ما أحب .

التعليق :

عرف المغرب الموشحات منذ العهد الموحدي على يد مالك بن المرحل وغيره واقتصر بعضهم على التعريف بالموشحات أو شرحها كما فعل الإفراني ، وقـــد كانت قبل عصر الأشراف تقليداً لموشحات الأندلسيين في غير اجـادة ، فلما جاء ابن زاكور وابن العلمي قالا في الموشحات فأتقنا وأجـــادا، وتناولا فيها الأغراض الشعرية المعهودة، فقد رأينا لابن زاكور موشحات في وصف الربيع أو في تطوان وأهلها. ونظمها ابن الطيب وابن زاكور في الغزل والخمر، ونظمها

غيرهما في المدح والمعارضة .. الخ .

وكما تطورت الموشحات في الأندلس والشرق إلى الأزجال التي تقال على نمط الموشحات ولكن بالعامية – فكذلك تطورت الموشحات في المغرب حتى قيلت ملاحم زجلية ثم الى (عروض البلد) ومن عروض البلد (ملعبة) الكفيف المكناسي ، ومطلعها :

سبحانْ مالكْ خواطر الأُمَرَا ونواصيها في كل حينْ وزمانْ
إِن طِعْناهْ عَطَفْهُم عَلينا قسْرا وانْ عَصَيْناه عاقبْ بكل هوانْ

وارجع الى ديوان ابن الطيب العلمي وديوان ابن زاكور لتدرس هذه الموشحات المغربية ، والى الأدب المغربي لتعرف نماذج للملاحم الزجلية وعروض البلد .

مناقشات في الأدب المغربي

١ – استخلص مما درست من الأدب المغربي خصائص وميزات انفرد بها هذا الأدب عن مثيله في الشرق وفي الأندلس .

٢ – متى تميز الأدب المغربي واستقلت شخصيته وأصبح لسان البيئة المغربية ؟ تابع تطوره مع التمثيل .

٣ – هل أدى الأدب المغربي رسالته في التعريف بالحضارة المغربية ونقل صورها الينا كما فعل الأدب العباسي مثلاً ؟ برهن .

٤ – بمَ تعلل سطحية الحكمة في الأدب المغربي ؟

٥ – لم شاعت الروح الدينية فيه ؟

٦ – استحق جزء كبير من الإنتاج الأدبي في المغرب لقب (أدب المقاومة). ما الأسباب التي أدت الى ذلك ؟

٧ ــ هل تعتقد أن الأدب المغربي كان صورة مقلدة لآداب الأقطار الأخرى في أي فترة من فتراته ؟

٨ ــ هل ابتكر المغاربة شيئاً من أغراض الشعر أو نوعاً من أنواع النثر ؟

٩ ــ لو رفعنا من المعارف والثقافة العربية الإنتاج المغربي في العلوم والآداب والفنون والحضارة ، هل ينقص ذلك من قدر التراث العربي ؟ علل لما تقول .

١٠ ــ شعر الوصف والرثاء والحماسة والمدح ظفر بنصيب الأسد من الشعر المغربي . ابحث في الأسباب التي أدت إلى ذلك ، مع التمثيل .

عصر النهضة الحديثة

١ – عصر ما قبل النهضة في الشرق وبخاصة في مصر

انطوى الشرق العربي على نفسه انطواء تاماً ، بعـد الحروب الصليبية ، وانعزل عن العالم ، وفقد ثقته بنفسه ، فاعتَوَرَهُ الفقر والجهـل والانحطاط الفكري والتأخر الاجتماعي والحضاري .

والواقع أن الشرق بدأ يضمحل عندما اندفقت على البـلاد العربية سيول الأعاجم والأتراك وغـيرهم من الشعوب التي لم تُقِم للمدنيات وزنا ، فـدكت أركان البناء القائم ، وعَفت على آثار صروح الثقافة الشاهقة ، ونشرت القلق والفوضى ، فانصرف الناس عن الجهد العلمي ، وراحوا يتّقون ضربات الأيام ، ويصدّون نوائب الحدثان .

وهكذا ظل الشرق يتقهقر حتى استغرق في سبات عميق .

بـدأ الانهيار التام بسقوط بغداد سنة ١٢٥٨م على يـد هولاكو حفيد جنكيزخان الذي أباحهـا أربعين يوماً لجنـده ، يقتلون رجالهـا ويخربون عمرانهـا ، ويرمون كتبهـا في دجلة . وأتم عمـله تيمورلنك فقضى على مـا بقي من معالم العـلم والحضارة حوالي سنـة ١٤٠٠م ، ثم تحرك الأتراك العثمانيون في آسيـا الصغرى ، فـكانوا ناراً في هشيم . وبهم عمّ الويـل ، وانتشر الضنك والقلـق ، وجفت القرائح وذبلت الحيـاة

العلمية والأدبية ، وتسلط الخمول على العقول فقصّرت عن الخلق والابتكار ، وانصرفت الى الجمع والتقليد والزخرفة .

وأخذ الشرق يترقب يوماً يُبعث فيه حبّاً ، واذا ذلك اليوم يقترب ، وإذا هنالك فجر لاح إشراقه في الأفق المعتكر بظلمة الذبول : ثم إذا نهار تتصاعد شمسه لألاءة باهرة الضياء .

كانت القاهرة بعد سقوط بغداد والأندلس قد أصبحت مركزاً للمجتمع العربي الاسلامي فوفد إليها العلماء من كل مكان ، فوطّأ لهم السلاطين أكنافهم وأنزلوهم منزلاً حسناً وأصبحت مصر عاصمة الإسلام والعرب جميعاً .

ثم كانت مصر في حوزة الدولة العثمانية ، وقد استبد الأمراء المماليك بها وتنازعوا على الاستئثار باموالها دون شعبها الذي كان يعاني البؤس والحرمان ، وأدى هذا التنازع إلى حروب طويلة بين زعمائهم ولا سيما بين « علي بك الكبير » و « محمد بك ابي الذهب » ، ثم انتهت السيادة بمصر في اواخر القرن الثامن عشر إلى « مراد بك » و « ابراهيم بك » اللذين أعادا مسرح الحروب الدامية فأصبحت البلاد مرتعاً للحرب والقلاقل والفتن ، وانقضى القرن الثامن عشر ، وسكان مصر ينقرضون فقراً وجوعاً وأمراضاً وبؤساً يخيم على الاجسام والعقول ، فكانوا نحو ثلاثة ملايين أكثرهم عرب مسلمون ثم يليهم الأقباط ثم الأتراك ثم شراذم أخرى من جنسيات مختلفة .

وكان الحاكم يعيَّن من الآستانة فيقيم في القلعة يخطب باسم السلطان ويضرب النقود باسمه ويعين (الملتزمين) لجمع الضرائب فيجبونها بالظلم والاضطهاد والإفساد ، وهمهم ان يثروا وهمّ الوالي أن يرسل للسلطان خراجاً كبيراً ، وهدايا ثمينة .

وكان هؤلاء الملتزمون ـ كما كان الجند والقواد ـ من المماليك الذين كانت لهم السيادة الفعلية ، وهم أخلاط من الاتراك والشراكسة والكرج . وكانت الثروة والإدارة بأيديهم ، أما المسلمون أهل البلاد فكان منهم جماعة العلماء والفقهاء

وفي أيديهم إدارة المعابد ، والأوقاف والتكايا ، واصبح كثير منهم ذوي نفوذ وثروة ومناصب لا سيا أصحاب الأنساب الشريفة ، أما الأقباط فكانوا يتولون الأعمال الحسابية أو الكتابية وجبـاية الخراج ، وكانت طوائف الأرمن والسوريين تتعاطى التجارة ، وكانت بالبلاد جاليات رومية وفرنسيـة . وما قيل عن مصر يقال عن سوريا فقد كانتا تكوّنان بلداً سياسياً واحداً ، إلا أن نوراً ضئيلاً كان يشع في سوريا أواخر القرن السابع عشر على إثر قدوم البعثات الدينية وإنشاء الرهبنات الكاثوليكية ، وكان لهذه الرهبنات نشاط تبشيري وثقافي . ونبغ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر طبقة من العلماء أكثرهم من رجال الاكليروس ، واشتغل كثير منهم بالأدب واللغة والتاريخ كالبطريرك مكاريوس الحلبي الأرثوذكسي ، والمطران جرمانوس فرحات الماروني والشماس عبدالله زاخر الكاثوليكي .

أما في لبنان فكانت حركة البعثات الدينية أقوى ومفعولها أعمق أثراً ، وقد كان لها الفضل في إنشاء المطبعة العربية ، وإن كانت سبقت محـاولات قاصرة كمطبعة دير قزحيا بلبنان سنة ١٦١٠ ومطبعة حلب سنـة ١٧٠٢ م ومطبعة دير الشوير بلبنـان سنة ١٧٣٤ م ، فطبعت بها بعض المخطوطات العربية . وقد سبق لبنان البلاد العربية في الاحتكاك بالغرب لأسباب يطول ذكرها .

٢ – النهضات المنبعثة في كل بلدان العالم العربي

لما كانت سنة ١٧٩٨م زحفت جيوش نابليون بونابرت على مصر ، وفيهـا الأديب والشاعر والطبيب والفيلسوف ، وفيها المؤرخ والجغرافي ، وفيها رجال الصناعة والفن والاختراع ، فكان أول احتكاك لمصر بالأوربيين عن كثب ، وذهبت الحملة مخلفة وراءها دوياً هائلاً في عالم الفكر والثقافة ، فتح الأعين على عالم جديـد . فلما جاء محمد عـلي أرسل البعثات الى أوربا وعمل على فتح المدارس ، ولا سيا ما يتصل منهـا بالفنون العسكرية ، وشجع حركة النقل

والترجمة والطباعة ، والصحافة .

كان الفرنسيون قــد أخــذوا في تأسيس المعاهد العلمية ومسارح التمثيل ومجامــع علمية ، ومصانع ومعامل الورق والأقمشة ، وبنوا أماكن للأرصاد الفلكيــة والرياضيات والنقش والرسم والتصوير وأفردوا داراً للتجارب الكيمائية والطبيعية .

أمــا علوم المصريــين فقد كانت قاصرة حينئذ على آداب اللغة والعلوم الإسلامية التي كان يقوم بها الأزهر الشريف خير قيام إلى مشاركة في العــلوم العقلية والكونية .

وبنى محمد علي، على أساس هذه النهضة الحركة التي أشرنا إليها سابقاً، وقد أخذت مصر في أول عهده في اقتباس أسباب المدنية الحديثــة واستعانت في ذلك برجال من الفرنسيين والأتراك .

فلما جاء عهد اسماعيل شرع المصريون يتمون العمل الكبير الذي بدأ من قبل ، فكثرت المدارس والمطابع والجرائد ، وتقاطر الاجانب حتى اصبحت مصر كما اراد لها اسماعيل « قطعة من اوربا » . وقد ارتكب في سبيل هــذه الفكرة حماقات كثيرة ، وقاد البلاد في طريق وعر كانت له أوخم العواقب على استقلالها السياسي والاقتصادي ، وان كان هذا لا يقلل من أهميــة الدور الذي قام به لأخراج هذا الجزء من البلاد العربية من عزلته الانطوائية .

ولما حمل ابراهيم باشا ــ ابن محمد علي باشا ــ على سوريا وفتحها ظلت تابعة لمصر بعض الوقت ثم انسحبت منها الجيوش المصرية وعادت الى السيادة التركية. وتوالت عليها بعدئذ القلاقل لفساد الاحكام واضطراب الاحوال فأدى ذلك الى مذابح عدة آخرها مذبحة ١٨٦٠ م في سوريا ولبنان : والتي هــاجر بعدها اللبنانيون من أوطانهم ، وكانت الهجرة التي استمرت بعد ذلك وأصبحت من طبيعة الشعب اللبناني، فنزح افراده الى أوربا ومصر والاستانة ثم إلى أمريكا ، وإن كان أكثر المهاجرين اللبنانيين من المسيحيين . ثم كان من أثر ذلك أن زاد

قدوم الأجانب الى سوريا ولبنان للتجارة والتبشير، فتكاثروا وانشأوا المدارس وبـــدأت نهضة أدبية اجتماعية في البلدين تبعاً لذلك . وكان من آثارها جمع المخطوطات ، ونقل الكتب الغربية الى العربية ، والعربية إلى لغات الغرب . أما العراق فكان لسوء الحظ أقل نهضة ، وأطول ركوداً ، إذ لم يتيسر له ما تيسر لمصر وسوريا ولبنان من التخلص من الحكم العثماني أو الهجرة الأجنبية ، ولهذا تأخرت نهضته .

وكذلك كان الأمر في بلاد المغرب ما عدا المغرب الأقصى الذي نجـا به السعديون من السيطرة التركية .

وعلى أية حال ، فقـــد توفرت مقومات نهضة عظيمة في معظم الأقطار العربية بإنشاء المدارس الحديثة ، وانتشار الطباعة والصحافة والجمعيات الأدبية والعلمية ، والمكتبات العامة ، والمتاحف ، ودور التمثيل ، وحركة الترجمـــة والاستشراق[1] .

٣ – الشعر في النهضة الحديثة

يمكن أن نجمل سير الشعر الحديث في ثلاثة أطوار :

١ – الطور الأول : الذي نفض فيه الشعر غبار السنين الطويلة التي تفصله عن الشعر القوي في العصر العباسي ، فعاد الى الشعر في عصره الذهبي يستوحيه ويتأثر به ، وكان الرائد في ذلك هو الشاعر الفارس محمود سامي البارودي .

٢ – الطور الثـــاني الذي تـأثر فيه الشعر العربي بالشعر الغربي الفرنسي والانجليزي ، كما هو الحال مع خليل مطران ، واحمد زكي أبو شادي ، والمـازني ، والعقاد ، وجبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمه .

---

١ ـ ارجع في تفصيل ذلك الى تاريخ الأدب العربي لحنا فاخوري ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان .

٣ – الطور الثالث : الذي حاول فيه الشعراء الابتعـاد عن الشعر القديم والتخلص من آثاره وقيوده في الوزن والقافية والموضوعات وهم كثيرون .

ونعود الى تفصيل ما أجملنا فنقول :

أ – طور الانبعاث واليقظة :

تعتبر سنة ١٨٠٥م. وهي السنة التي نودي فيها بمحمد علي والياً على مصر ، بدء النهضة الحديثة والتطلع الى الآفاق الجديدة ، وقد كان الشعر قبل ذلك بادي الهزال والضعف ، حافلاً بالزخارف الزائفة والألاعيب اللفظية والألغـاز والعمليـات والتواريخ الحسابية ، وكان صناعة ذوي الحرف من الجزارين والصباغين والاسكافيين وغيرهم .

فلما كانت يقظة الشرق عندما اتصل بحضارة الغرب تجلى للعيان مـا وصل اليه الشعر من سخافة في المعاني وركاكة في التعبـير وضيق أفق في التفكير ، فراح رواد النهضة يستوحون الشعر القديم – ولا سيما العباسي – عرائس إلهـامهم ويستقون من ينابيعه ويطبعون على غـراره ، فتدارسوا آثار الفحول وحفظوا أشعارهم ، ومالوا بادىء ذي بدء الى أدب المناسبات كالمدح ، والرثاء، وهكذا تقيدوا بالموضوعات القديمة ، لكن مع الحرص على دقة التعبير ومتانة الأسلوب ووفرة المعاني وصفاء ماء الشعر. ولم يكن من المعقول ان يتخلصوا من كل نقص دفعة واحدة . فاستمرت عنايتهم ببعض ألوان البديـع ، وبالألغـاز والتواريخ الشعرية والتخميس ، كما أخفقوا في ناحية الابتكار والتجديد .

ذلك هو طور الانبعاث والايقـاظ الذي يعتمد الأفكار والموضوعـات والأخيلة والأساليب العربية القديمة .

وقد انبثق من هذا الطور شعبتان :

الاولى شعبة التقليد المتأثر بالانحطاط ، وذلك حينما بـدأت نهضة تحصيلية واجترارية ليس فيها أصالة ولا تمكـّن ، فجاء شعرهم يحمل آثار الماضي القريب من الركاكة والضعف ويحمل ايضاً محاولة للارتقاء والتقدم . ويمثـل هذا الدور

اسماعيل الخشاب ، وحسن العطار ، وأمين الجندي ، وبطرس كرامه[1] .

والثانية شعبة التقليد للشعر العباسي ، واحتذاء أمثال المتنبي وأبي تمام والبحتري ، وذلك بعد ان تمكن الادباء من اللغة العربية حتى أدركوا سر تقهقرها ومواطن ضعفها ، وبعد ان نشرت دواوين الشعراء الأقدمين ، وأقبل عليها المتأدبون درساً وحفظاً وتقليداً متحرّين في ذلك الدقة في التعبير والقوة في المعاني ، والصفاء في الأسلوب ولكن – كما سبق أن قلنا – في غير ابتكار ولا تجديد ، فكان شعراً منفصلاً عن العصر الذي قيل فيه ، وكأنما هو قطعة من أدب عصر آخر وصورة لأصل غبّر وذهب .

وكان من شعراء هذه الفترة البارودي ، وناصيف اليازجي[1] .

ب – طور التجديد :

فلما قوي اتصال الشرق بالغرب ، واطلع العرب على آداب الغرب وثقافاته ، فذهبوا اليها أو جاءت اليهم ، أدهشهم ما هم فيه من تأخر ، وما عليه القوم من آفاق واسعة . وحينئذ أدركوا ما يجب عليهم عمله ، فلقد توفر لهم تراث قديم أزيح من فوقه الغبار فبدا ناصعاً مشرقاً ، وانتفعوا بتجارب محاولي التخلص من القديم والنزعة الى التجديد ، وأضافوا الى ذلك تلك الآفاق الفكرية والتعبيرية الشاملة التي اطلعوا عليها في آداب الغرب ، فكان كل ذلك دافعاً لهم لان يعقدوا صلة وثيقة بين أدبهم وواقعهم وان يطبعوا شعرهم بطابع عصرهم ، وانشعبت عن هذا الطور ثلاث شعب :

١ – **شعبة المخضرمين** التي نزعت الى التجديد على اساس القديم . وقد ظل هؤلاء على الأغراض الشعرية القديمة ، والأساليب المعروفة في نظم القصيد العربي ، وكان تجديدهم في محاولة ان يكون شعرهم صورة لعصرهم لا لعصر آخر ، فكان

---

١ – أنظر تراجمهم في الجزء الرابع من تاريخ الآداب العربية لجورجي زيدان ، ونماذج لهم في المفصل جـ٢ والمنتخب من أدب العرب جـ١ .

تجديدهم محدود المجال ولكنهم أبدعوا في تسجيل حوادث عصرهم والتعبير عن مشاعره وآلامه وآماله، وبعثوا صحوة فكرية وعاطفية لا يزال صداها يتردد، وأشعلوا جذوة الوطنية والعزة في النفوس . ومن أكبرهم أثراً في ذلك أحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، وكان تجديد أحمد شوقي في مجـــال المسرح والتمثيل والقصة وغير ذلك بارعاً وكاملاً .

ومن شعراء هذه الفترة أيضاً خليل مطران ومعروف الرصافي ، ولا ننسى أنه في هذه الفترة بدأ الشعراء ـ ولا سيما شعراء المهجر المتأثرين بالثقافـــات الغربية ـ ينفون عن الشعر العربي مـــا يتهمه المستشرقون به من عدم التفاعل والاندماج مع الطبيعة ، وظهر ذلك جلياً في شعر خليل مطران .

٢ ـ **شعبة المتطرفين الابتداعيين** : هذه الشعبة وإن عاصرت الشعبة الاولى باهتة الظل معها ، إلا انها برزت بعد الحرب العالمية الاولى حين اشتد التلاصق بين الشرق والغرب ودمجتهـــا الاحداث ، وصهرتها في بوتقة واحدة نيران الكوارث ، وحين اشتدت عليها سطوة الاجانب ، فراحت تستعير من الغرب أفكاره وصوره وشعره ، وكانت نزعة هذه المدرسة (رومانتيكية[١]) عاطفية حزينة ، وكان ابناء هذه المدرسة أول من نادى بهجر الأساليب العربية القديمة بل والتقاليد الشرقية كلها بوجه عام .

وممن مثلوا هذا الدور جبران خليل جبران ، وخليل مطران في بعض قصائده كالمساء والاسد الباكي . ولم يسلم منه الشعراء الاتباعيون ايضاً كشوقي وحافظ بل والبـــارودي . وكان من شعرائه ايضاً فوزي المعلوف في ملحمة (بساط الريح) ، وشكرالله الجرّ من شعراء المهجر في قصيدتـــه (هيكل الطبيعة) ، وسيد قطب في قصيدته (الى الشاطىء المجهول) وكثير من شعر الشابي الانعزالي وشعر عمر أبي ريشة ونزار قباني وخليل شيبوب وغيرهم[٢] .

---

١ ـ أنظر المذاهب الادبية في هذا الكتاب .

٢ ـ أنظر تراجمهم ونماذج من آثارهم مفرقة في أجزاء الجديد في الأدب العربي ، وتاريخ آداب اللغة العربية ، وتاريخ الأدب العربي والموجز في الأدب العربي ، وتاريخه جـ ٥ ، المفصل جـ ٢ .

٣ – **شعبة الواقعية :**

وكان شعرهم مقاومة لتيار الرومانتيكية الواهمة المجنحة الخيال السلبية الانطوائية الهاربة من الواقع ، فاتجهوا الى الحياة كما هي يعالجون قضاياها ويتحسسون ما فيها . وجاءت التيارات الوطنية فقوّت هذا الاتجاه وشارك معتنقوه في أحداث أقوامهم السياسية وحل مشكلاتهم الاجتماعية . ومن شعراء هذا الاتجاه : علي محمود طه ، واحمد زكي أبو شادي ، والياس أبو شبكة ، وفوزي المعلوف في بعض إنتاجه ، وأمين نخلة كذلك وعمر ابو ريشة.

والى جانب هذا كان فريق من الشعراء قد اتجهوا الى الرمزية ، فأدخلوا على الشعر العربي ما حملته الثقافة الحديثة من فكر ومجردات وُعنوا بالألفاظ الشفافة ذات الجرس الموسيقي والتعبير المعقد ، وأسرفوا في تطلب السهل اللين حتى سقطوا – دون مبالاة – في أخطاء لغوية صارخة وأسفوا إسفافاً شديداً. ويمثل هذه الفئة ، بشر فارس ، وتأثر بها بوجه ما بعض كبار الشعراء المحدثين كإيليا أبي ماضي والصيرفي ونزار قباني وأمين نخلة وسليم حيدر وأبي شادي ، وكثير من الشعراء الناشئين[١] .

موضوعات للبحث

١ – لمصر فضل كبير على النهضة الأدبية الحديثة .

تحدث عن الظروف التي هيأت لها أن تكون في المقدمة ، وعن جهود أدبائها في هذا السبيل .

٢ – تحدث عن الأسباب التي ساعدت على ظهور النهضة الأدبية في العالم العربي واذكر أهم مظاهرها .

٣ – ما أهم آثار الثقافة الغربية في الشعر الحديث من حيث الأغراض

---

١ – أنظر نماذج لهذا الشعر في كتاب الموجز جـ٥ ص ١٣٦ وما بعدها .

والأساليب والمعاني والنزعة ؟

٤ – يقال إن الشعراء الابتداعيين كانوا أجانب الروح والأحاسيس وطرق التفكير والتعبير عن مشاعر أمتهم .

ناقش هذا الرأي .

مراجع

تاريخ الآداب العربية ج ٤	لجورجي زيدان
دراسات في الأدب العربي المعاصر	للدكتور شوقي ضيف
المفصل في تاريخ الأدب العربي ج٢	لأحمد الاسكندري وآخرين
الموجز في الأدب العربي وتاريخه ج٥	لبعض الأساتذة
الجديد في الأدب العربي	لحنا الفاخوري
رواد النهضة الحديثة	لمارون عبود
الفن ومذاهبه في الشعر العربي	للدكتور شوقي ضيف
في الأدب الحديث	لعمر الدسوقي
تاريخ الأدب العربي	لحنا الفاخوري

أ ـ الشعر

١ ـ طور التقليد

البارودي (١٢٥٥ - ١٣٢٢ هـ – ١٨٣٨ - ١٩٠٤ م)

حياته : هو الوزير القائد الشاعر محمود سامي البارودي نسبة إلى إيتاي البارود بمحافظة البحيرة شمال القاهرة – فقد كان جده ملتزماً لها – كان أبوه مدير دنقله وبربر في السودان في عهد محمد علي ، وكان أجداده من المماليك حكام مصر (الشراكسة) .

ولد بالقاهرة فلم يكد يتم السابعة من عمره حتى تيتم فكفله بعض أهله ، وأحضروا له المربين والمعلمين الى المنزل ، فتعلم الى سن الثانية عشرة ، ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها سنة ١٨٥٤ ، وهو في السادسة عشرة ، وذلك في عهد عباس الأول الذي كان من المعوقين للنهضة ، فسرّح معظم الجيش ، وكذلك فعل سعيد بعده فلم يجد البارودي وزملاؤه ما يفعلون ، فاتجه إلى كتب الأدب .

وكان عنده استعداد فطري لتذوقه ـ يلتهمه التهاماً ، فراقه منه شعر الحماسة والفخر والبطولة ، ثم تدرج الى نظمه مقلداً فحول الشعراء الذين قرأ دواوينهم وحفظها ، فجاء شعره فحلاً مثلهم لا تكاد تجد في بيت منه.

إسفافاً على الرغم من أنه لم يدرس قواعـد اللغة والعروض ، ولم يطلع كثيراً على قواميس اللغة :

تكلمتُ كالماضين قبلي بما جَرَتْ   به عادةُ الانسان ان يتكلّما
فلا يعتمدني بالاساءة غافـلٌ   فلا بُدَّ لابن الأيك ان يترَنّما

ثم ضـاقت به مصر فرحل الى الاستانة مقر الخلافــة ، وأُلحق بوزارة الخارجية التركية، وهناك أتقن اللغة التركية واللغة الفارسية وحفظ كثيراً من شعرهما ، وقال الشعر فيهما . وفي إحدى زيارات اسماعيـل – خديوي مصر بعد سعيد – للاستانة عاد بالبارودي الى مصر وأشركه في الجيش ثم سافر الى انكلترا وفرنسا للاطلاع على نظمها العسكرية ، وشارك – مع الجيش المصري – في حروب تركيا ضد بلاد البلقان التي حاولت الخروج عن السلطان. وفتنت البارودي مناظر جزيرة كريت ومعاركها فسجلها في شعره . وفي سنة ١٨٨٧ سافر مع الجيش المصري لمعاونة تركيا في حروبها ضد روسيا ، وأبلى بـلاء حسناً ، فنال رتبة (لواء) . وكان ميدان القتـال غذاء دسماً استمد من وحيـه كثيراً مما نظم من شعر ، وعاد الى مصر في سن الاربعين ، وتولى فيهـا عدة مناصب حتى وصل الى درجـة رئيس النظار (رئيس الوزراء) في عهد توفيق – الخديوي بعد اسماعيل – . ولما قامت الثورة العرابية حاول التدخل للاصلاح بين زعماء الثورة والخديوي فلم يفلح فانضم الى الثوار . ثم لما أحس بتدخـل انكلترا وفرنسا ، واستعانة الخديوي بهما نصح للثوار بالحـذر . فلم يستجيبوا لنصحه ، وكانت النتيجة هزيمة الثورة نتيجة الغدر والخيانة ، ونُفي زعماؤهـا – ومنهم البارودي – الى سرنديب (سيلان) فبقي هناك في منفاه سبعة عشر عاماً فقد في اثنائها زوجته وابنتيه . وفي المنفى قـال قصائده الخالدة في الشكوى والحنين الى الوطن ورثاء من مات من أهله وأصدقـائه ، وهناك تعلم الانجليزية وقرأ بها وأنتج فيها وأخذ يراسل الادباء. ثم عاد الى مصر سنة ١٩٠٠ كفيف البصر منهوك القوى ضعيف السمع :

كيفَ أندُبُ الشّبابَ وقد أصبحـ ـتُ كهلاً في محنــةٍ وٱغترابِ
كلّما رُمتُ نهضــةً أقعدَتْني ونيةٌ لا تُقِلُّهــا أعصابي
لم تــدَعْ صولةُ الحوادثِ منّي غير أشْلاء همّــةٍ في ثيابي

واستمر نحو خمس سنين ينظم ويجمع حتى توفي سنة ١٣٢٢هـ. - ١٩٠٤م.

شعره وآثاره : نظم البــارودي الشعر أول مرة مقلداً فتحرى في نظمه مجاراة الأقدمين في أساليبهم ومعانيهم ، فوقف على الأطــلال ، وذكر نجداً وروابيها وحيوانهــا ، والدّمن والغيث والبرق ، وشبّه المرأة بالظباء والمها ، وترسّم عادات الأقدمين في تعبيرهم ، وكان في تقليده خير كبيرٌ للادب العربي اذ انتقل بالشعر من وهدته وسفاسفه وركاكته وسخافة موضوعــاته وتفاهة معانيه الى مجال الشعر العباسي الذي جعله مثالاً يحتذيه ، فكان أن هيأ الطريق ومهّدها لمن أتى بعده من الشعراء ليسلكوا سبيل الجــودة . ثم استحدث بعد ذلك موضوعات وابتكر في بعض أساليبه ومعانيه ، فقد تمثلت في أوصافــه حركة النهضة الآلية ، وفي اجتماعيــاته حركة النهضة القوميــة المرتكزة على الثورات وترمــيم الاخلاق[١]، فتنوع شعره . ووصف الكهرباء والقاطرات ، كما وصف السجون والآثار والمشاهد الحربية ، وصوّر في حماسياته آمــال أمته وآلامها وتعطشها الى الحرية ومحبتها للديمقراطية ، وفتح بذلك الباب لحــافظ وشوقي وأمثــالهما ليجولوا في هذا الميدان الواسع بأشعار الوطنيــة والاجتماع والسياسة ، ثم أضاف الى ذلك ما نستطيع ان نسميه (الهجاء الاجتماعي) فجسّم عيوب المجتمع ونعى عليه التأخر والجهل والعادات السخيفة .

وللبارودي ديوان في جزءين فيه المــدح ، والنسيب والفخر ، والحمــاسة والسياسة والأوصاف والإصلاح الاجتماعي والرثاء والشكوى والحربيات . وله

---

١ - كانت هذه الاخلاقيات من آثار صحبته لجمال الدين الافغاني ، وكذلك كانت هذه الصحبة السبب في انحيازه للثورة العرابية .

أربع مجموعات شعرية سماها (مختارات البارودي) على نمط حماسة أبي تمام والبحتري . جمع فيها مختارات من الشعر العباسي ، وله مختارات من النثر سماها (قيد الأوابد) جمع فيها عيون الرسائل والخطب والتوقيعات ، ولا تزال مخطوطة ، وله أيضاً رسائل نثرية طريفة .

مختارات له من أدب الحرب

أولاً : من قصيدة في الحماسة والحرب :

١ إذا المرء لاقى السيلَ ثُمّتَ لم يَعُجْ ... إلى وَزَرٍ يحميه أرداه مَدُّهُ
٢ عفاءٌ على الدنيا إذا المرء لم يعشْ ... بها بطلاً يحمي الحقيقةَ شدُّهُ
٣ من العار أن يرضى الفتى بمذلةٍ ... وفي السيف ما يكفي لأمر يعده

*

٤ ولا بد من يوم تلاعبُ بالقنا ... أسودُ الوغى فيه وتمرح جُردُه
٥ يمزّق أستار النواظر برقُه ... ويقرع أصداف المسامع رعدُه
٦ تدبِّر أحكام الطّعـان كهولُه ... وتملك تصريف الأعنَّة مُردُه
٧ قلوبُ الرجال المستبدة أكلُه ... وفيض الدماء المستهلَّة وِردُه
٨ أَحمِّلُ صدر النصل فيه سريرةً ... تُعَدُّ لأمرٍ لا يحـاوَل رَدُّه
٩ فإما حياة مثل ما تشتهي العلا ... وإما ردىً يشفي من الداء وفده

المفردات والاساليب :

١) : ثمت : حرف عطف . لم يعج : لم يلجأ ولم يرجع إلى مـا يسنده .

الوزَر : الملجأ . أرداه مدّه : أهلكه مد السيل واتصال تدفقه . ٢) عفاء على الدنيا : زوال لها (أسلوب دعاء) . يحمي الحقيقة شده : الحقيقة: الحِمى ، والشد : الضرب والقتال . ٤) التلاعب بالقنا : الطعن بالرماح . أسود الوغى : أبطال الحرب . الجرد : الخيل قصيرة الشعر . ٥) يمزق أستار النواظر: الأستار غبار الحرب المتراكم. برقه : لمعان السيف أو نيران الحرب . أصداف المسامع : أغشية الآذان تشبيهاً للآذان بالأصداف البحرية وقواقعها . رعده : قعقعة السلاح . ٦) الأعنة : اللجم والمقصود بتصريفها تنفيذ خطط القتال . المرد : جمع امرد وهو الشاب لم تنبت لحيته ، يقصد أن الكبار يضعون الخطط والشباب ينفذونها .

٧) معنى البيت أن قلوب المستبدين وقود هذا اليوم وأكله ، وأن دماءهم السائلة شربه ، والورد هو الماء في النهر ونحوه مما يرد الناس لشربه ، وفيض الدماء كثرتها . ٨) النصل : حديدة الرمح والسهم ، لا يحاول رده : لا يستطاع دفعه . المعنى: سأكتم في ذلك اليوم في صدر رمحي أو سيفي أسرار الخطة التي أعددتها لأمر عظيم لن يستطيع أحد دفعه . ٩) وفده : قدومه . المعنى : أنه لايبقى من وراء ذلك القتال إلا أحد أمرين : حياة عزةٍ وكرامة كأحسن ما تشتهي المعالي ، او موت يريح من الهوان .

التعليق :

يشتمل النص على الأفكار الآتية :

١) على المرء أن يدفع عن نفسه الذل بقوة السيف . ٢) وصف يوم القتال . ٣) الغاية من القتال تحقيق الكرامة أو الموت في عزة . والأبيات كما ترى بناء متماسك يدور حول البطولة والقتال ففيها ثورة وقوة خيال عاصف. فانظر كيف صوّر الظلم في صورة سيل لا بد لك من ان تلوذ منه بحصن وإلا جرفك ، وهذا الحصن هو سيفك وقوة نفسك وشجاعتك . ثم أُنظر كيف صور ساحة المعركة : أسود تلاعب القنا ، وأفراس تمرح متبخترة ، وسماء

متراكمة الظلمة لا ترى فيها إلا لمع السيف، ولا تسمع إلا قعقعة السلاح، وقلوب جبارة تؤكل ، ودماء سائلة تشرب ، وأسنّة تحمل الأسرار ، فلا تبوح بها إلا وقت الطعان .

كل ذلك في معانٍ واضحة ، وألفاظ ضخمة، وموسيقى صاخبة. إنها صورة الشاعر نفسه ، وتجربته الذاتية ، وعواطفه المتأججة ، التي تدين بالبطولة ، وتمحو الظلم ، وتثور ضد الطغيان ، ترى أين نحن الآن من ذلك الشعر المتهالك الذي كان يسود قبل البارودي ؟

هل تريد مثلاً قصيراً ؟

قال نصير الدين الحمامي المتوفى سنة ٧١٢ هـ .

رأيت شخصا آكـلاً كرشةً وهو أُخو ذَوقٍ وفيـه فِطَنْ
قال : ما زلتُ محباً لهـا قلت: من الإيمان حب الوطنْ!!

ثانياً : من قصيدة يصف فيها حرب الترك مع الروس والبلقان وكان مشاركاً فيها :

١أدور بعيني لا أرى غير أمة من الروس بالبلقان يخطئُها العد
٢جواثٍ على هام الجبال لغارة يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو
٣إذا نحن صرنا صرّح الشر بـاسمه
وصاح القنا بالموت واستقتل الجند
٤فأنت ترى بين الفريقين كُبّةً يحدّث فيها نفسه البطل الَجعْدُ
٥على الأرض منهم بالدماء جداول وفوق سَراة النجم من نقْعِها لُبْد

٦ إذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف خِلْتَهُمْ
بُحُوراً توالى بينهـا الجزْرُ والمـدُّ
٧ نُشِلُّهم شلّ العطاش وَنَتْ بها مراغمة السقيا وماطلها الوِرد
٨ فهم بين مقتول طريح وهاربٍ طليحٍ ومأسور يجاذبه القَدُّ
٩ نروح إلى الشورى إذا أقبل الدجى ونغدو عليهم بالمنايا إذا نغدو

المفردات والأساليب :

٢) جواث : من جثا يجثو إذا ركع على ركبتيه . يطير بها ضوء الصباح : ينتشر بها وتظهر بظهوره . ٣) صرح الشر باسمه : ظهر وبان ، أي اشتد القتال . صاح القنا بالموت : ناداه . استقتل الجند : استماتوا في القتال .

٤) الكبة : الحملة والانـدفاع . الجعـد : الكريم الذي يجـود بالنفس ٥) سراة النجم : أعلاه . النقع : الغبار المتراكم . لبد : ما يكون على رقبة الأسد من شعر كثيف . والمعنى : أن الأرض سالت بالدماء والجوُّ أظلم بالغبار فتلبّد . ٧) نشلّهم : نسوقهم . معنى البيت : أن الأعداء كانوا في هزيمتهم يتقهقرون ويتدافعون كالإبل العطاش تأخر وردهـا فاندفعت الى الماء في غير نظام . ٨) طليح : متعب منهوك القوى ، القد : القيد ، وأصله الحبل يربط به . ٩) نروح الى الشورى : نرجع للتشاور في وضع خطة محكمة . نغدو عليهم بالمنايا : نذهب إليهم بالموت .

التعليق :

يمثّل هـذا الشعر أخص خصائص البارودي في شعره ، فهو الشاعر الذي يستجيب للشاعرية والفن الحربي والخبرة العملية ، وهو يعرض علينا تجارب واقعية مأخوذة من التنظيم الحربي ، فيها مواقف القتال وخدعه وهجماتـه

واشتباكاته وآثاره : دم وغبار وفرار وقتلى ومجالس حربية ومباغتات الخ .

فهو يذكر : ١) بدء المعركة باستكشاف مواقع العدو فيرى منظرهم جاثمين في قمم الجبال منتظرين إشارة البدء بالقتال . ٢) جنوده مستعدون . ٣) يلتقي الجيشان ويتسابق الأبطال كل يحدث نفسه بالفتك بعدوه . ٤) وتنجلي المعركة عن جداول من الدمـاء وتلبد السماء ، وقتلى وأسرى وفارين . ٥) وقـد كان لهم النصر لأنهم كانوا يُحكمـون خطتهم ويدبرون أمرهم بالليل فاذا جاء الصبح نفذوا .

والصور رائعة : فهو يشبه مثلاً اشتباك الفريقين تارة وتراجعهما تارة أخرى بما يكون في البحر من مدّ ترى فيه الأمواج كالجبال ، وجزر ينحسر به الماء عن قاع البحار . ويشبه تقهقر الأعداء بتلك الإبل المتدافعة الى الماء في غـير نظام ، ثم يصور حال القتلى والأسرى الهاربين في صور كلها أخاذة .

مناقشة

١ – وازن بين شعر البارودي في القطعة الثانية وبين قول بشار :

وجيشٍ كجنح الليل يزحف بالحصى
وبالشوك والَخطِّيّ حمْر ثعـالبُهْ [١]

غَدَوْنا له والشمسُ في خِدْرِ أمها تطالعنا والطَّلُّ لم يَجْر ذائبُهْ [٢]

بضَرْب يـذوق الموتَ من ذاق طعمه
وتدرك مـن نجّى الفرارُ مَثالبُهْ [٣]

١ ـ الخطي: الرماح ، ثعالبه : أطراف الرمـاح . ٢) الطل : الندى . ٣) مثالبه : عيوبه .

كأن مُثَارَ النقْع فوق رؤوسنا   وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبه
بعثنا لهم مَوْت الفُجاءَة إننا   بنو الموت خفاقٌ علينا سبائبُهْ [1]
فراحوا فريقٌ في الإسار ومثلُهُ   قتيلٌ ومِثلٌ لاذ بالبحر هاربه

٢) من قصيدة للبارودي يصف حرب اقريطش (كريت) :

أَخذَ الكَرى بمعاقد الأجفان   وهفا السُّرى بأعنَّة الفرسان
والليلُ منشورُ الذوَائب ضاربٌ   فوق المتالع والرُّبـا بجران
لا تستبينُ العينُ في ظلُماتـه   إلا اشتغـال أسنَّة المرَّان
في كـل مرآة وكـل ثنيّة   تهدار سامرة وعزف قِيـان
تستنُّ عـادية ويصهل أجرد   وتصيح أجراس ويهتف عاني
قوم أبى الشيطان إلا خُسرَهُمْ   فتسللوا من طـاعة السلطان
ملأوا الفضاء فما يبين لنـاظر   غير التماع البيض والخُرصان
والخيـل واقفة على أرسانهـا   لطراد يوم كريهة ورهـان
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا   يتكلمـون بألسن النيران
حتى إذا ما الصبح أسفر وارتمت   عيناي بين رُباً وبين مجـان
فتوجست فُرُطُ الركابِ ولم تكن   لتهابَ فامتنعتْ عن الأرسان

---

١ ـ سبائبه : أعلامه .

فزِعت فرَّجعت الحنين وإِنمـــا تحنانها شجنٌ من الأشجان
ذكرت مواردها بمصر وأين من ماء بمصر منـــازل الرومان

استعن بقاموسك لفهم مفردات الأبيات ، واكتب تعليقا يظهر مـــدى تقديرك لهذا الشعر وما فيه من صور ، وبين الى أي حد تمثل هـــذه القصيدة شعر البارودي ثم احفظ هذه الأبيات .

هذا وإذا كنا قد أطلنا في البارودي فلأنه رائد نهضتنا الحديثة في الشعر فمن حقه علينا أن نقف عنده ونعنى به .

المراجع

تراجم مشاهير الشرق ج ٢	لجورجي زيدان ، طبعة ٢
البارودي	لمحمد صبري ، طبعة القاهرة
البارودي	لعمر الدسوقي
شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي	للعقاد
شعراء الوطنية	للرافعي
تراجم شرقية وغربية	لمحمد حسين هيكل
الأدب العربي المعاصر	لشوقي ضيف
تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين	لشيخو، طبعة بيروت

٢ ـ الطور المجدد المحافظ

١ ـ حافظ ابراهيم (١٢٧٨ ـ ١٣٥١ هـ ، ١٨٦٩ ـ ١٩٣٢)

حياته : شاعر النيل محمد حافظ بن ابراهيم فهمي، ولد بديَروط احدى مدن محافظة أسيوط بصعيد مصر ، أبوه مصري وأمه تركية ، توفي أبوه وهو في الرابعة ، فانتقلت به أمه الى القاهرة حيث كفله خاله ، وكان مهندساً كأبيه ، تعلم في المدارس الأولية ثم الابتدائية والثانوية ، ثم انقطع عنها حينما نقل خاله الى طنطا وبها المعهد الديني الذي كان حافظ يختلف اليه بينما ينفرد بنفسه يطالع الادب أو يطارح زملاءه الطلبة الشعر. ولكنه ملّ هذه الحال ، وملّها وملّه خاله ، فقال يعاتبه :

ثقلت عليك مئونتي إني أراها واهيهْ
فافرح فإني ذاهب متوجّه في داهيهْ

التحق بعد ذلك بخدمة احد المحامين بطنطا ، ولكنه تركه راحلا الى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الحربية ويتخرج فيها بعد حين ويعين في وزارة الحربية . وأرسل حافظ الى السودان كضابط في الجيش المصري هناك ، فلم تعجبه الحال فشكا الى الشيخ محمد عبده ، وطالت بينها المراسلات . ثم حدث تذمر في الجيش انتهى بإحالة حافظ الى الاستيداع ثم بإحالته الى المعاش وهو في سن الثلاثين فقضى حياة مضطربة بائسة ، ولكنه كان معتداً بشخصيته

شامخاً بأنفه فلم تنلْ الايام من عزة نفسه . وكان بعد عودته من السودان ملازماً لمجلس محمد عبده الذي كان يجمع صفوة ممتازة من أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم امين وغيرهم ، وأفسحوا له جميعاً لأنه كان فكهاً لطيفاً صاحب نوادر ودعابات . وكان الى ذلك يقضي أكثر وقته في مقاهي القاهرة يخالط الشعب ويدرسه عن كثب ، فعمُق احساسه ببؤس الشعب ووقف معه في ظروف آلامه ، وأبرزها في ذلك حادثة دنشواي المشهورة التي سجلها حافظ كأبشع لون من ألوان الاضطهاد الاستعماري . وقد حاول حافظ التقرب من القصر فمدح بعض أولي الامر في غير عاطفة صادقة .

وأخيراً عطف عليه بعضهم فعين رئيساً لدار الكتب وظل بها حتى مات بضاحية الزيتون ، احدى ضواحي القاهرة .

شعره وآثاره :

لقد عرفنا من ظروف حياة حافظ المؤثرات التي أنتجت شعره ولونته ، وهو لا يخرج في مجموعه عن الشكوى والاخوانيات والمدح والوصف ثم الرثاء والخمر والغزل والهجاء ، وهو صادق العاطفة في الشكوى والاخوانيات ، مقلد في المدح ضعيف في الخمر والغزل والهجاء ، رائع في الرثاء لانه كان مطوياً على ميل طبيعي للحزن والالم لما أصابته به الايام من أسى وضياع ، فكان يجتر في الرثاء آلام نفسه ، ويعتصر ذوب عواطفه . ولم يبدع حافظ في الوصف كثيراً اذ لم يكن ذا ثقافة واسعة تتيح له التأمل فيما حوله .

أما شعره في الاجتماعيات والوطنيات – وهي تشكل جزءاً ضخماً من إنتاجه – فذلك هو الشعر ، وهذا هو اختصاصه ، وقد سجل في هذا الشعر حوادث عصره واضطرام نفوس قومه ، ودعا الى الاصلاح وحاول علاج المشكلات المستعصية .

وأسلوبه ذو روتق وبهاء ونقاء وجزالة ، ولكن معانيه سطحية غالباً وخياله ضيق ، أما موسيقاه فواضحة رنانة ، وإن كانت في أغلبها حزينة .

وقد ترك حافظ ديواناً يقع في ثلاثة أجزاء ، واشترك مع خليل مطران في نقل كتاب « الموجز في الاقتصاد السياسي » عن الفرنسية ، وترجم قسماً كبيراً من رواية « البؤساء » لفيكتور هوجو ، ساعده في ذلك من يجيدون الفرنسية أكثر منه . وله في النثر « ليالي سطيح » نحا فيه منحى المويلحي في مقاماته « حديث عيسى بن هشام » .

من قصيدته في رعاية الطفولة

المناسبة: كان من أثر الحركة الوطنية المصرية ان اشتركت النساء مع الرجال في الجهاد ونشر التعليم والقيام بالاعمال الخيرية العامة. وكوّنّ لذلك جمعيات مختلفة ، منها جماعة رعاية الطفولة . وكنّ يقمن حفلات لجمع التبرعات يدعون اليها الرجال البارزين ، وفي احدى الحفلات ألقى حافظ هذه القصيدة مشجعاً وداعياً الى التشجيع ومنها :

أيها الطفل لا تخف عَنَتَ الدهْـ ... رِ ولا تخشَ عادياتِ الليالي
قيّض الله للضعيف نفوسا ... تعشق البرّ من ذوات الجمال
أيْ ذواتِ الجمالِ عشتن للبِـ ... رّ ودمتُنّ قدوة للرجال
لم يكونوا ليدركوا المجد لولا ... كنّ أو يسلكوا سبيل المعالي
بسمة تجعل الجبان شجاعا ... وتعيد البخيل أكرم نال[1]
قد أجبنا نداءكن وجئنا ... نسأل القادرين بعض النّوال
لو ملكْنا غير المقال لَجُدنا ... إن جهد الُمقلِّ حسنُ المقال

★

١ ـ رجل نال : رجل جواد كريم .

أنقذوا الطفل إن في شِقْوة الطفل شقاء لنا على كل حال

إنْ يعش بائسا ولم يطوه البؤس يعشْ نكبة على الأجيال

ربَّ بؤسٍ يخبِّثُ النفس حتى يطرح المرءَ في مهاوي الضلال

أنقذوه فربّما كان فيه مُصلح أو مغامر[1] لا يبالي

ربما كان تحت طِمريه[2] عزم ذو مضاء يدكّ شُمّ الجبال

رب سرٍّ قد حلَّ جسماً صغيراً وتأبّى على شديد المِحال[3]

فخفاف الأفيال أرفق وقعا لو تبيَّنتَ من دبيب النمال

أيدوا كل مجمع قام للبرِّ بجاهٍ يُظله أو بمال

كم يتيمٍ كادت به البأساء لولا رعاية الأطفال

★

فاصنعوا البر منعمين وجودوا أيها القادرون قبل السؤال

لانتشار العلوم أو لانطواء البؤس والشر أو لترفيه حال

التعليق :

هذا لون من الشعر الاجتماعي . ١) يستهله الشاعر بالحديث إلى الطفل مطمئناً له ومبشراً بما له من الرعاية على يد ربات الجمال . ٢) ثم يمدح هؤلاء السيدات اللاتي يرعين الصغار بل والكبار الذين لا يمكنهم أن يحققوا نجاحاً في الحياة إلا إذا دفعتهم النساء الى ذلك .

---

١ ـ المقاتل الجريء . ٣ـ الطمر : الثوب البالي . ٣ـ القدرة والقوة .

٣) ثم يقرر أنه جاء يساعدهن بلسانه الذي لا يملك غيره . ٤)ثم يدعو إلى انقاذ الطفل ، ويوجه خطابه الى المدعوين ليجودوا بالجاه وبالمـال ، ويعمّم الدعوة لعمل الخير في اي صورة .

وهو في دعوته لإنقاذ الطفل يذكر أن شقاء الطفل شقاء للمجتمع كلـه في حاضره وفي مستقبله ، ويقول : إن الطفل الذي يأكل البؤس نفسه ولا يقضي عليه سوف ينقلب مجرماً حاقداً على المجتمع ، أما إنقاذه ففيه خـير للوطن ، فربما كان بين الأطفال البائسين من يفيده في ناحية مما يحتاجه ، وربما كان فيهم صاحب الموهبة والاستعداد والقوة والذكاء .

وحافظ يصطنع في هذا الشعر الاجتماعي أسلوباً سائغاً سهلاً قريب المعنى لطيف المدخل الى النفوس، فهو اذا خاطب الطفل قال : لا تخف، وإذا خاطب النساء قال : عشتن للبر ، ثم أخذ يطنب في الثناء عليهن وعلى عظم الدور الذي يقمن به في الحياة . أما في دعوته إلى البر فإنه يستعمل المنطق المقنع ، ويحرك العاطفة الخيِّرة . ومع هذه السهولة البادية فإن الشاعر لم يتخلّ عن العبـارات الجزلة : عنَت الدهر ، وعاديات الليالي ، ومضاء يدكّ شم الجبال ، دبيب النمال الخ ... ولا نستطيع مع ذلك أن نقول إن القصيدة في الدرجة العاليـة من البلاغة ، فهي عادية الاسلوب والتفكير وليس فيها معنى جديد .

المراجع

حافظ وشوقي لطه حسين

شعراء الوطنية للرافعي

تراجم شرقية وغربية لهيكل

الأدب العربي المعاصر لشوقي ضيف

التجديد في الأدب العربي لعبد الوهاب حمودة

شعراء مصر للعقاد

حافظ وشوقي لحسن كامل الصيرفي

في الأدب الحديث لعمر الدسوقي

تاريخ الادب العربي لحنا الفاخوري

المفصل في تاريخ الأدب العربي ج ٢

ذكرى الشاعرين لأحمد عبيد

احمد شوقي (١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ .) (١٨٦٨ - ١٩٣٢ م.)

أمير الشعراء أحمد شوقي ولد في القاهرة من أب كردي وأم تركية وأصول شركسية ويونانية من الجدات ، تلقى تعاليمه الاولى في الكتّاب ، ثم التحق بالمدارس الابتدائية والثانوية ، فانتهى من هذه المراحل وهو في سن الخامسة عشرة، ثم التحق - على صغر سنه - بمدرسة الحقوق فقضى فيها عامين ثم بمدرسة الترجمة ونال منها إجازته ، ثم أرسله الخديوي توفيق الى فرنسا لمتابعة دروسه على نفقته ، ذلك ان جدته لأمه كانت من وصائف قصر الخديوي اسماعيل، وفي حجرها نشأ ربيب هذا القصر الذي تولاه أربابه بالعناية والرعاية . فلما تخرج في قسم الترجمة ألحقه توفيق بمعيته ثم أرسله الى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب الفرنسية ، وظل هناك أكثر من أربع سنوات زار في اثنائها انجلترا ومكث نحو خمسين يوماً بالجزائر للاستشفاء . وفي طريق عودته الى مصر عرج الى الآستانة ، وقام بجولة واسعة في عواصم اوروبا موفداً من قبل الخديوي لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين بجنيف سنة ١٨٩٤ . وفي اثناء خدمته في بلاط الخديوي نال ثروة وجاهاً عظيمين ، واتخذ له ندوة يجتمع فيها علية القوم وأصبحت داره (كرمة ابن هانىء) محط آمال الناس ، وذوي الحاجات. وكان كثير السفر الى مقر الخلافة بالاستانة يلقى من الخليفة الترحيب والإجلال، كما كان كثير السياحة الى بلاد الشرق لا سيا سوريا ولبنان سنة ١٩٢٧ . ولما خُلع عباس سنة ١٩١٥ لاتصاله بالأتراك في الحرب العالمية الاولى ، وولي مكانه حسين كامل ، نُفي الشاعر الى مالطة ثم الى برشلونة في اسبانيا . فلما كانت سنة ١٩١٩ وانتهت الحرب عاد شوقي الى مصر ، وقد تبدلت أحوالها

السياسية ، ونزعاتها الشعبية أيما تبدل . فترك القصر ولم تعد له صلة به، وعاش في بيته مكرماً ثرياً لا يبرحه إلا للاصطياف في أوروبا أو في سوريا ولبنان . ونظم شعره في كل مكان حلّ به لا سيا في سوريا ولبنان واسبانيا واستامبول مسجلاً كل الاحداث ، راصداً كل الحركات ، فاستحق بهذا ان يبايعه رجالات العلم والادب العربي بإمارة الشعر في مؤتمر عقد لتكريمه بالقاهرة سنة ١٩٢٧ في دار الاوبرا الملكية ، وما زال يتابع نشاطه لا سيا في المسرحيات حتى توفي بالقاهرة في أكتوبر سنة ١٩٣٢ م.

شعره وآثاره :

جاء شعر شوقي فخم اللفظ متلاحم النسج محكم الصياغة ، دسم المعاني ، غير محتفل بالمحسنات والزخارف اللفظية ، ولقد قرض الشعر وهو لا يزال طالباً حدثاً ومدح الخديوي بقصائد كانت تنشرها له (الوقائع المصرية) الجريدة الرسمية حينئذ ، وكان يعرض قصائده أول الأمر على اسماعيل باشا صبري الشاعر المصري المعروف فكان يرشده ويسدد خطاه ، وقد كان شوقي شغوفاً بقراءة كتب الادب دؤوباً على قراءة دواوين الشعراء لا سيا دواوين أبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي . وراقه من شعر أبي نواس غزلياته وخمرياته[١]، ومن البحتري صفاء الخيال ودقة التصوير وجمال الموسيقى ، وأعجبه من أبي تمام والمتنبي احتفالهما بالمعاني الرقيقة والعميقة ،كما أعجبه منهما قوة الشخصية . واطلع شوقي على الآداب الغربية ولا سيا الفرنسية ، ولعله انتفع منها في أدبه المسرحي والتمثيلي والقصصي . أضف الى ذلك حياته الخاصة وما كان فيها من تقلبات أنضجت شاعريته ، ثم الاحداث السياسية والحربية والاجتماعية ، والاقتصادية التي تميز بها عصره ، سواء في مصر أو الأقطار العربية أو العالم كله ، فإذا اضفنا الى هذا كله الموهبة والاستعداد — اللذين قد يكون لتعدد أعراقه دخل في تكونها — أدركنا شيئاً من سر عبقرية

---

١ ـ أنظر نماذج في المفصل ج٢ والمنتخب ج١ .

الرجل الفذة . وشوقي شاعر مجدد في أغراض الشعر وفي أنواعه ، وفي معانيه وأفكاره ، وصوره وأخيلته ، وإن كان محافظاً فيما عدا ذلك . فهو مقلد في أغراض المدح والرثاء والغزل والفخر والخمر . وهو بين بين في الوصف . فقد وصف أشياء اعتيادية ، كما وصف أشياء جديدة . أما في الدين والسياسة والتاريخ والاجتماع والقصص والمسرح فهو شاعر مجدد[1] .

وقد ترك ديواناً ضخماً في أربعة مجلدات يعرف بـ « الشوقيات » ، وله ايضاً كتاب «دول العرب وعظماء الأسلام» ، وله روايات تمثيلية أشهرها «مصرع كليوباتره » و« مجنون ليلى » ، وله من النثر مسرحية « أميرة الاندلس » ، ورواية « عذراء الهند » وهي تمثل تاريخ الفراعنة ، و« ورقة الآس » ، وهي تاريخية أيضاً ترتقي إلى زمن سابور ملك الفرس .

وله كتاب « اسواق الذهب » للزمخشري و « أطباق الذهب» للأصفهاني . هذا ومن أوصاف شوقي الحلقة الجناح في روعة ابتكار ودقة وصف وبلاغة إيجاز ، وصفه لروع النساء في نكبة دمشق سنة ١٩٢٥ على يد الجنرال الفرنسي (ساراي) ، وإليك جزءاً من هذه القصيدة :

١ رماكِ بطيْشهِ ورمى فرنسا   أخو حربٍ به صَلَفٌ وحُمْق

٢ إذا ما جاءه طلابُ حقٍّ   يقول : عصابةٌ خرجوا وشَقّوا

٣ دمُ الثوار تعرفه فرنسا   وتعلم أنه نور وحق

٤ جرى في أرضها فيه حياة   كمُنهلِّ السماء وفيه رزق

٥ بلادٌ مات فِتيتُها لتحيا   وزالوا دُونَ قومِهمُ ليبقوا

٦ وحُرِّرَتِ الشعوب على قناها   فكيف على قناها تُستَرقّ !!

---

١ ـ انظر بحثاً مطولاً عن شعره في تاريخ الادب العربي لحنا فاخوري والمفصل ج ٢ .

٧ وللحرّية الحمراءِ بابٌ بكل يَدٍ مُضَرَّجةٍ يُدَقُّ!!

★

٨ إذا رُمْن السلامة من طريق أَتَتْ من دونِه للموت طُرْقُ

٩ بلَيْلٍ للقذائفِ والمنايا وراءَ سمائِه خَطْفٌ وَصَعْقُ

١٠ إذا عصفَ الحديدُ احمرَّ أُفقٌ على جنَباتِه واسودَّ أُفْقُ

المفردات والاساليب :

١) الصلف : الكبر . والحمق : الاندفاع في طيش وعدم روية وهو أيضاً ضعف في العقل . ٢) خرجوا وشقوا : خرجوا عن الطاعة وشقوا عصاها . ٤) منهلّ السماء : المطر الكثير ، وفيه رزق : أي خير وذلك لما يؤدي اليه من الحرية والانعتاق . ٥) بلاد : أي فرنسا . ليبقوا : الضمير للقوم ، أي يموت الفتيان ليبقى ذووهم وأهل وطنهم بقاء لا ذل فيه . ٦) القنا : عصا الرمح والرمح كله والمعنى أن الشعوب تحررت بثورة فرنسا فكيف تُسترق بما تحررت به . ٧)مضرجة : ملطخة بالدم ، أي ان الحرية لا تنال إلا بالدماء . رمن السلامة : طلبن السلامة والضمير للنساء اللائي روّعن في هذه النكبة . ٩) خطف وصعق : — الخطف : الاستلاب وفيه إيهام معنى ومضة البرق لما تقدمه من الليل والسماء . والصعق : الصاعقة ، نار تنزل من السماء في رعد شديد ، وصعقتهم السماء ، ألقت عليهم الصاعقة ، ويقال صُعق الرجل اذا أُغمي عليه وقوله تعالى : فصعق من في السموات والارض : أي مات وهذا هو المراد هنا ، وإن كان الاسلوب يفهم ارادة احد المعنيين السابقين . ١٠) عصفت الريح : اشتدت ، وعصف الحديد : اشتد الضرب بآلاته حتى صار له دويّ ، ومعنى احمرار الأفق واسوداده ما يتصاعد فيه من نيران ودخان إثر اطلاق المقذوفات النارية .

التعليق :

في هذه الابيات يتحدث شوقي عن :

١) بطش القائد الفرنسي وطيشه وحمقه الذي يضر بدمشق وبوطنه فرنسا معاً لما يلحق سمعتها من سوء ، وهو كأنما يصف في شخص هذا القائد جميع قادة فرنسا وسياسييها أو أكثرهم .

٢) ان اسكات الثورات ليس هذا طريقه ، وان الثورات بركة وخير على الشعوب ، وتدرك فرنسا هذا جيداً فثورتها أشهر ثورة في العصر الحديث .

٣) ان الحرية لا تنال إلا بالقوة .

٤ – وصف ما أصاب النساء من ذعر ، وما أصاب الجو من كدرة وقتام .

ونقف عند بعض المعاني التي أثر بها شوقي مع ملاحظة ان الموضوع يكاد يكون جديداً في الشعر العربي ، وجدته آتية من أنه حديث عن الشعوب وكفاحها لا عن الحكام ولا عن السياسة ولا عن الحرب وأبطالها .

في البيت الاول أعطانا الشاعر صورة يعرفها الناس الى اليوم عن الفرنسيين ، كل الفرنسيين تقريباً . ومن عجب أن هذه الصورة– الاندفاع والطيش والكبر والحمق – لم تتغير حتى الآن .

وفي البيت الثاني نرى – بكل سخرية الآن ! – منطق الاستعمار الأعرج العجيب في فهم مشاعر الشعوب والرد عليها ، ومن عجب أيضاً أن هذا المنطق لم يتغير وإن تغيرت صيغة الرد ، وبعد ان كانت التهمة هي مجرد الخروج عن الطاعة ، أضيف اليها اليوم القومية أو العصبية الخ .. وفي الأبيات الأربعة التالية عتاب لفرنسا ـ التي كان الشاعر يحبها ـ لتنكرها لمبادئها التي قامت عليها ثورتها التي قلبت كيان العالم وشقت له طريقاً جديداً ، أفترى هذه الفكرة تغيرت الآن ؟ كلا .. ولك ان تعجب من ذكاء الرجل ونفاذ بصيرته ودقته في فهم طبائع الاشياء ، وذلك هو الذي خلد شوقي .

وفي البيت السابع مأثرة خالدة يتمثلها الناس في كل صحوة ويستحضرونها في كل جولة من جولاتهم مع الظلم والاضطهاد من أي لون كان ومن أي جهة أتى.

أما في الأبيات التالية فهو يصف رَوْع النساء في نكبة دمشق وحيرتهن ما بين القذائف والمنايا ، في ليل لعلع فيه صوت المدفع ، فما ان ينطلق بقنبلة حتى يحمرّ أفق بالنار الخارجة من فوهته ، ويسودّ أفق آخر بدخانه ، ونتائج تدميره . أفلست ترى جدة وطرافة في التفكير والتعبير ، ودقة في التأمل وروعة في المعاني ، حقيقيّها وخياليّها ؟

ذلك هو شوقي . وارجع الى القصيدة كلها في ديوانه فانها رائعة ، رائعة !

منتخبات أخرى

أ – قال يخاطب أبا الهول بمناسبة رفع الستار عن تمثاله في مسرح الأزبكية يوم افتتاحه :

١ أبا الهول طال عليك العُصُر   وبُلِّغْتَ في الأرض أقصى العُمُرْ
٢ فيا لِدَةَ الدهر، لا الدهرُ شابَ   ولا أنت جاوزت حد الصِّغَرْ
٣ إِلامَ ركوبُك متْن الرمال   لِطَيِّ الأصيل وَجَوْبِ السَّحَرْ
٤ تسافر منتقلا في القرون   فأيّانَ تُلقِي غبارَ السَّفر؟
٥ أبينك عهدٌ وبين الجبال   تزولان في الموعد المُنتظَر؟
٦ أبا الهول ، ماذا وراء البقاء   إذا ما تطاول غيرُ الضجر؟
٧ عجبتُ للقمان في حرصه   على لُبَد والنسور الأُخَرْ
٨ وشكوى لَبِيْدَ لطول الحياة   ولو لم تَطُلْ لتَشَكَّى القِصَرْ

المفردات والأساليب :

٢) لدة الدهر : قرينه . ٧) تزعم الأسطورة أن نعمان بن عاديا كان له نسر يدعى لبد وبه ضرب المثل فقيل « طال الأبد على لبد » . ٨) لبيد ابن ربيعة الشاعر المخضرم الذي أدرك الاسلام وحسن إسلامه وقد عمر طويلاً (١٣٠ سنة) وشكا طول عمره .

التعليق :

عالج شوقي موضوع الآثار المصرية القديمة في كثير من قصائده ، وفي سياق مختلف ، في سياق السرد لكبريات الحوادث في وادي النيل ، وفي معرض التدليل على عظمة قدماء المصريين .

وفي قصيدة أبي الهول يتخذ من هذا الأثر مبعثاً للتفلسف ، ومعرضاً لرسم معالم التاريخ .

والقصيدة طويلة وجميلة فارجع إليها في ديوانه .

وهو في المقطع الذي اخترناه يبرز فكرة الربط بين أبي الهول والدهر فكلاهما قرين للآخر ، وكلاهما لا يزال شاباً رغم طول الأمد، وكلاهما مسافر لا يلقي عصا التسيار . ثم يعقد مقارنة بين أبي الهول والجبال في الثبات وطول البقاء ، ثم يتساءل عن البقاء وسر حرص الناس عليه وتناقضهم في ذلك مع أنفسهم فأحياناً يتمنون طول الحياة ، وأحياناً يتمنون قصرها .

ولا حاجة بنا إلى بيان قوة التعبير وشدة أسر الأسلوب وعظمة المقارنة ، وأنت تراه ينتقل من النداء الى التساؤل الى التقرير في حركة وحيوية لا تتوفر كثيراً في شعر غيره .

ب – قال في وصف الطيارة :

١ نصفُهُ طيرٌ ونصف بشرٌ يا لها إحدى أعاجيب القضاءْ !

٢ حمل الفولاذَ ريشاً وجرى في عِنانَيْنِ له : نارٍ وماءْ
٣ وجناحٍ غيرِ ذي قادمةٍ كجناح النحل مصقولٍ سَواء
٤ وذُنابىً ، كل ريح مسّها مسّهُ صاعقة من كهرباء
٥ يتراءى كوكباً ذا ذنب فإذا جدّ فسهماً ذا مضاء
٦ فإذا جاز الثريا للثرى جَرَّ كالطاووس ذيلَ الُخيَلاء

هل ترى أبرع من هذا في وصف الطيارة ؟ أي مخلوق هذا الذي يصفه ؟ طير بجناحين وذنابى (ذنب) ، نصفه بشر له رأس البشر وعيناه وهيئته ؛ طائر ريشه من فولاذ مصقول مستو (أو فرس يتحكم في سيره نار وماء) وذنب لا يمسه الهواء إلا صار شرراً ، تراه فتحسبه كوكباً ، فإذا بَعُدَ بدا سهماً نافذاً ، وإذا نزل جرَّ كالطاووس ذيل الخيلاء !! أي تصوير وأية حركة وأية دقة ؟ وبعد فأنت تسمع قصيدته الهمزية :

وُلِد الهدى فالكائنات ضياء وفمُ الزمان تبسُّمٌ وثناء

ونهج البردة ، ، وأغنية السودان ، والنيل ، تغنيها وغيرهما أم كلثوم ، وقصيدة : يا جارة الوادي يغنيها عبد الوهاب وغيره ، وقصيدته في وصف الربيع : آذار أقبل قم بنا يا صاح ...

وغير ذلك من قصائده المشهورة ، فتعجب لهذا الشاعر العظيم وتسلم له بإمارة الشعر حقاً واقتناعاً ، وهو قد سجل مفاخر العروبة وأيامها وآثارها وجمال طبيعتها في شعره الرائع الكثير فحق على العرب في كل مكان أن يجلّوه ويقدروه .

مناقشة

١ – شوقي بين التقليد والتجديد .

٢ – شوقي شاعر اجتماعي . ما القضايا الاجتماعية التي عالجها ؟ وكيف كانت معالجته لها ؟

قارن بين شوقي وحافظ في اجتماعياتهما .

٣ – شعر شوقي سجل تاريخي لمصر القديمة ، وللأحداث المعاصرة ، حقق ذلك .

٤ – كيف تفرق بين شعر شوقي وشعر حافظ من حيث الموضوع والمبنى والفكرة والصور والأخيلة والمعاني ؟ وما الجوانب التي يتفقان أو يختلفان فيها ؟

٥ – حلل إحدى تمثيليات شوقي وبين رأيك فيها ؟

بعض المراجع

١ ـ حافظ وشوقي	لطه حسين
٢ ـ مقدمة الجزء الاول من الشوقيات	لمحمد حسين هيكل
٣ ـ شعراء مصر	للعقاد
٤ ـ تاريخ الفكر العربي	لاسماعيل مظهر
٥ ـ امير الشعر شوقي	لمحمود خورشيد
٦ ـ شوقي على المسرح	لادوار حنين
٧ ـ المسرحية في شعر شوقي	لمحمد حامد شوكت
٨ ـ ذكرى الشاعرين	لأحمد عبيد
٩ ـ الرؤوس	لمارون عبود
١٠ ـ المنتخب من ادب العرب ج ١	
١٠ ـ تاريخ الادب العربي	لحنا الفاخوري

٣ ــ خليل مطران (١٢٨٩ - ١٣٦٩ هـ. ١٨٧٢ - ١٩٤٩م.)

ولد خليل مطران في بعلبك (لبنان) وتلقى مبادىء العلوم في مدرسة ابتدائية بزحلة ، ثم في المدرسة البطريركية ببيروت فتخرج فيها على يد العالمين والأديبين اللغويين الشيخين خليل وابراهيم اليازجي ، وأظهر في هذه المدرسة ميله الى ايجاد كلمات عربية تحل محل بعض التعبيرات الاجنبية التي درج الناس على استعمالها وأخذ ينشر في ذلك بعض البحوث حتى شاع اسمه وهو صغير. أكبّ على الدرس واعتمد على نفسه حتى أجاد الاطلاع على كثير من الآثار الأدبية الخالدة ، ونظم الشعر وهو طالب في تلك المدرسة ، وكان رأيه « أن خطة العرب في الشعر لا يجب ان تكون خطتنا ، فللعرب عصرهم ولنا عصرنا ، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولهذا يجب ان يكون شعرنا ممثلاً لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم » ، تلك كانت خطته. وهو وإن نظم كثيراً من قصائده على النمط القديم فما ذاك إلا لمجاراة الأذواق التي كانت تسود وقته .

وفي سنة ١٨٩٠ غادر خليل مطران بيروت الى باريس بعد ان ضاقت نفسه بالقيود التي فرضها عليه الحكام إثر اشتغاله بالسياسة ونقد المجتمع ، وراقته الآداب الفرنسية ، ودرس أيضاً الأدب الانجليزي ولا سيا أدب شكسبير ، واتصل هناك ببعض الجماعات الثائرة كجمعية (تركيا الفتاة) فضيقوا عليه الخناق ، فسافر الى الاسكندرية ، وما ان مضى عليه قليل من الوقت حتى اشتهر في مصر بشعره كما اشتهر في ميدان الصحافة ، واتصل بشوقي وغيره من

طبقات المجتمع المصري ، وأنشأ هناك بعض المجــلات مثل « المجلة المصرية » و « الجـوائب المصرية » . وأصدر ايضاً كتابه « مرآة الايام » و « مراثي الشعراء » و « ديوان الخليل » كما كتب أو ترجم بعض المسرحيـــات ولا سيما مسرحيات شكسبير .

ثم اشتغل ببعض الشؤون الاقتصادية حتى أصيب بنكبات خلفت له البؤس وحطمته تحطيما ، فاعتزل بإحدى ضواحي القاهرة (عين شمس) وفيهـا نظم قصيدة (الاسد البـــاكي) . وفي فترة اقامته بمصر نظم ملحمة (نيرون) وبعض قصائد المناسبات .

وقد أقيمت له في أبريل سنة ١٩١٣ حفلة تكريم بـإيعاز من عباس حلمي الثـاني شهدها أدباء البلاد العربية ، وفي سنة ١٩٤٧ أقيم له مهرجان عظيم في القاهرة .

ويلقب خليـــل مطران بـ « شاعر القطرين » ، وهو شاعر مجدد مثقف يأتيك بالأفكار والخواطر متسلسلة مطردة ، ويُدخـل في الأدب العربي الشعر القصصي والتصويري في مجاله الواسع ، وينقل الخيال الشعري من الخارج ليربطه بوجدان الشاعر وإحساسه .

من قصيدته (فتاة الجبل الأسود)

قال في حادثة جرت قبيل استقلال ذلك الجبل :

طَغَتْ أمةُ الجبل الأسودِ على حكم فاتحها الأيّدِ
وهبّتْ مُنيخات أطوادها نواشزَ كالإبـــل الشُرَّدِ
وَأبلى النساء بلاء الرجال لدى كل معتَرَك أربـــد
نِساء لدانُ القُدود لهـــا خدودٌ كزهر الرياض الندي

تَنَظَّم مـــن حُسنِها جَنَّةٌ   على ذلك الجبل الأجْرَدِ
ويوم كأن شعاعَ الصَّباح   كساهُ مطارفَ من عَسْجَدِ
تَفَرقت التُّركُ فيه عَصائبَ   كُلٌّ فريقٍ على مَرْصَدِ
يَسُدّونَ كلَّ شِعَاب الجبالِ   عَلى النازلين أو الصُّعَّدِ
أُسُودٌ تراقِبُ أمثالهـــا   ولا يَلْتَقُون على مَوعِدِ
وكان عِداهُمْ على بُؤْسِهِمْ   وَطُولِ جهادهمُ المُجْهِدِ

التعليق :

قيلت هذه القصيدة في حادثة جرت قبيل استقلال الجبل بلبنان من حكامه الأتراك وهي اكثر من سبعين بيتاً تصور نهضة الشعب الأبي للتحرر والاستقلال تساهم فيها المرأة مساهمة الرجل ، وتدَّرع للحرب والجهاد ، وتخوض الغمرات من أجل وطنها لتنقذه من أيدي مغتصبيه :

فما بلد تفتديه النساء   كهذا الفداء بمستعبد .

وهي من قصائده التوجيهية ، فيها عبرة جلية ، وادب توجيهي خليق بأن تأتمّ به البلاد الشرقية عامة والعربية خاصة . وهو شعر قوي الأسر ، متـين الاسلوب ، والقصيدة كلها وحدة متماسكة .

وهو هنا في الأبيات الآتية يذكر فتاة الجبل بعد أن ذكر ان غلاماً كان من المناضلين، يقاتل مع المقاتلين في جرأة عجيبة ، ثم أحاط به الأعداء وأخذوه إلى اميرهم :

فأقصى الفتى عنه حُراسَه   وشق عن الصدر ما يرتدي
وأبرز نَهْدَي فتاة كعابٍ   بطرفٍ حييٍّ ووجهٍ ندي

وأرخت ضفائرها فارتمت   إلى منكبيها من المعقدِ

وقالت: أمهجة أنثى تَفِي   بثارات صرعاكمُ الهُمَّدِ!!

فأصغى الأمير إلى قولهـا   ولم يُستفزَّ ولم يَحْقدِ

وأعظم نفْسَ الفتاة وبأساً   بها في الصناديد لم يَعْهَدِ

أبى عزةً قتـل أنثى تذود   ذِيادَ المُدافع لا المعتدي

٤ ــ الرصافي (١٢٩٢ – ١٣٦٥ ﻫ) (١٨٧٥ – ١٩٤٥ م)

شاعر العراق معروف الرصافي ، ولد ببغداد من أصل كردي . بدأ تعليمه في الكتّاب ، ثم دخل المدرسة العسكرية ، ولم يتم دراسته بها لأنها كانت بالتركية وحصوله فيها قليل ، كما أنه لم يطق صرامة النظم العسكرية ، فانصرف الى الدرس الحر ، واتجه الى الأدب يَدْرُسه في مدرسة الألوسي أكثر من اثنتي عشرة سنة ، ويُدرِّسه في بغداد وفي القسطنطينية . وقد تقلّب في التدريس على اختلاف أنواعه كما اشتغل بالصحافة حيناً من الوقت ، وأصدر بعض الصحف ، وقد انتخب نائباً في المجلس العراقي ، ولما كان صريحاً في آرائه جريئاً في نقد الحكومات جافاه الحكام فاعتزل الناس ينظم الشعر حتى توفي .

وللرصافي آثار كثيرة في النثر والشعر واللغة والأدب ، ومن أشهرها ديوانه الضخم الذي رتبه على أحد عشر باباً تشتمل على الكونيات والاجتماعيات والفلسفيات والوضعيات والمراثي والنسائيات والتاريخيات والسياسيات والحربيات والمقطعات وهو كما ترى أشتات متنوعة من الشعر ، وقد طبع عدة طبعات أحسنها طبعة بيروت المبوبة على النظام المذكور .

ولشعر الرصافي ميزات كثيرة ، فهو سهل متين اللغة رصين الأسلوب يساير العصر ومطالبه ، ويصف الحياة الحاضرة في نواحيها المختلفة ولا سيما النواحي الاجتماعية التي تحسَّس فيها آلام أمته، ووضع يده على أدوائها وطالب بالإصلاح . وهو يسير على أسلوب الأقدمين في التعبير والصياغة وطرق الأغراض القديمة .

وشعره في العهد الأول فيه شيء من الاضطراب والحشو ، وعلى كل حال، فهو أحد الشعراء الأربعة المجيدين ، ومن شعراء العراق المحدثين وهم: الزهاوي، والرصافي ، والكاظمي ، والشبيبي ، وشعره من بينهم غني بالعواطف الجياشة ، والشعور ببؤس الفقراء وآلامهم ، والنزعة الوطنية الإصلاحية .

منتخبات من وطنياته

١ – في سبيل الوطن :

١ مواطنكم يا قوم أمٌّ كريمةٌ   تَدُرُّ لكُمْ منها مَدَىٰ العمر ألبانُ
٢ ففي حضنها مهد لكم ومَبَاءة   وفي قلبها عطف عليكم وتحنان
٣ فما بالكم لا تحسنون ، وواجب   على الابن للأم الكريمة إحسان
٤ أصبراً وقد أمسى العدوّ يهينها   أما فيكمُ سهم على الأمِّ غيران؟
٥ أجل ، إنكم تأبى الحياة نفوسكم   إذا لم يكن فيها على المجد عنوان
٦ ألستم من القوم الذين علاؤهم   تقاعس عنه الدهر ، وانحط كيْوان
٧ نمتْكم إلى المجد المؤثَّل تغلب   كما قد نمتكم للمكارم غسّان
٨ فلا تنكروا عهد الإخاء وقد أتت   تصافحكم فيه نزار وعدنان
٩ أجب أيها النَّدْبُ المسيحي مسلما   صفا لك منه اليوم سرٌّ وإعلان
١٠ فلا تحرما الأوطان أن تتحالفا   يداً بيد ، حتى تؤكد أيْمان

المفردات والاساليب

٢) مباءة : مرجع وملاذ . ٦) كيوان : كوكب (زحل) . ٧) المجد

المؤثــل : المؤسس . تغلب : قبيلة عربية استمرت على نصرانيتها بعــد الاسلام ، وهي قبيلة اشتهرت في الجاهلية والاسلام فمنها كليب والمهلهل ، ومنهــا عمرو بن كلثوم ، وأيامهم معروفــة في الأدب والتاريخ الجــاهلي ومنها الأخطل شاعر بني امية وشاعر تغلب التي كانت أشد أنصار الأمويــين على العلويين وغيرهم .

غسان : التي منها ملوك الغساسنة ، وقد كانوا نصارى ايضاً .

ومعنى البيت أن نصارى البلاد العربية – ولا سيما في العراق والشام – إنما هم عرب فهم والمسلمون أصل واحد ، ومعنى نمتــكم : وصلتــكم ونسبتــكم .
٨) نزار وعدنان : أجداد قريش ويرمز بهــم إلى العرب المسلمين . الندب : الشجاع .

التعليق :

القصيدة كبيرة ، وهي موجهة الى المسيحيــين الذين ظهر منهم في ذلك الوقت توانٍ في الجهاد وبعض الفتن ومضالعة الاستعمار مما هدد وحدة البــلاد بالخطر ، فهو يذكرهم في الأبيات التي معنا بأن الوطن للجميع وإن اختلفت الأديان ، فالوطن أم للجميع وواجب على الكل البّر بها ، ثم يــذكرهم بانهم والمسلمين من أصل واحد ، الجميع عرب وماضيهم واحد ،وحاضرهم ومستقبلهم مشترك ، ثم يخلص من ذلك إلى حثّ النصارى على الاستجابــة ليد المسلمين الممدودة إليهم للإخاء والاتحــاد . والاسلوب كما ترى في الغاية من السهولة والوضوح ، وإن كان خالياً من الصور أو العمق ، أما الموضوع فهو موضوع العصر واحداثه .

٢ – محاباة الاصهار :

١ هُمْ يُعَدُّون بالمئات ذكورا ... وإناثا لهم قصور مُشالــه
٢ تركوا السعي والتكسُّب في الد ... نيا وعاشوا عــلى الرعية عاله

٣ يتجلّى النعيمُ فيهم فتبكي أعين السعي من نعيم البطاله
٤ يأكلون اللُّباب من كدِّ قوم أعوزتْهم سَخينة من نخالة
٥ وإذا ما اسْتهلَّ فيهم وليدٌ فعلينا رضاعُهُ والكفالة
٦ حمّلونا من عيشهم كل عبء ثم زادوا أصهارهم والكلالة
٧ فكفَيْنا أصهارَهُم مؤنةَ العيش فكانوا ضِغثا على إِبّالة
٨ تلك والله حالة يقشعرّ الحقّ منها وتشمئز العدالة

المفردات والاساليب :

١) مشالة : عالية مرتفعة . ٣) تبكي أعين السعي من نعيم البطالة : تعبير جميل يقصد به المقابلة بين حال الشعب الذي يسعى لهؤلاء الناس وحالهم هم من النعيم والترف الذي يجيئهم من كد الأشقياء ودموع البؤساء . ٤) وهذا البيت ايضاً الذي يصور العثمانيين يأكلون اللباب من كد قوم لا يجدون تافه الطعام ، والسخينة نوع من طعام رقيق يتخذ من الدقيق وهو لا يكلف شيئاً ، وهو أردأ طعام وهم لا يجدونه من نخالة فضلاً عن ان يجدوه من دقيق . ٦) الكلالة : الاخوة من الأم . ٧) ضغثاً على إبالة : سوءاً على سوء .

التعليق :

قال الشاعر هذا الشعر حينما تقدمت الحكومة الى مجلس النواب لتخصيص رواتب لأصهار البيت العثماني المالك ، وفيها سخرية لاذعة بتناقضات الحياة ، وفيها صور جميلة رائعة لا تصدر إلا عن عاطفة صادقة شاعرة بالألم والمفارقات الظالمة ، وارجع الى الأبيات وتأمل بعض صورها .

ولما انتهت الحرب العالمية الاولى وتقسم الغرب البلادَ العربية وجثمت انجلترا على صدر العراق ، قال قصيدة عنوانها : « الحرية في سياسة المستعمرين »

وتهكم ذات مرة على نواب بغداد الذين يؤثرون الصمت على الصراحة والجرأة . ولما أبرمت المعـــاهدة الانجليزية العراقيــة رأى فيها الرصافي ذلاً ، وقيداً ، وقال فيها :

١ نشروا المعاهدة التي في طيّها قيدٌ تقضّ بأرجل الآمال

٢ قد أبلغونا حجّة استعبادنا لكن مموّهة بالاستقلال

٣ والعهد بين الإنجليز وبيننا كالعهد بين الشاة والرئبال[1]

ويقول في اخرى :

١ وليس الانجليز بمنقذينا وإن كُتبَت لنــــا منهم عهود

٢ متى شفق القويّ على ضعيف وكيف يعاهد الخرفانَ سِيْدُ[2]

---

١ ـ الرئبال : الاسد .

٢ ـ السيد : الذئب .

٣ – الطور المجدد

١ – محمد بن ابراهيم (١٩٠٠ – ١٩٥٥م)

شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم المراكشي، ولد في مراكش، وتعلم في الكتاب، ثم في جامعة ابن يوسف ، فجامعة القرويين ولكنه مال الى دراسة الأدب وما يتصل به من نحو ولغة وعروض وبلاغة ، وكان يختلف إليه خلسة عن دراسته . كما فعل أخ له من قبل هـو المنفلوطي . فطالع دواوين الشعر وبخاصة شعراء العصر العباسي ، ثم جاشت نفسه بقول الشعر وهـو صغير لمّا تتجاوَزْ سنة الخامسة عشرة ، واتصل بباشا مراكش يمدحه ويهجو مناوئيه ، واشتغل ببعض الوظائف الكتابية والتربوية ، ثم بالصحافة ، وهو ينعم في كل ذلك بكنف الباشا ، مما جعل بعض الوطنيين يتهمونه بممالأة الاستعمار وأعوانه ، وفي سنة ١٩٣٥ ذهب في رحلة الى الشرق بقصد الحج وعرج في عودته على مصر ، والتقى بكبار أدبائها ثم عاد الى المغرب متأثراً بذلك الأدب المصري في روحه وأسلوبه ولم يزل حتى توفي سنة ١٩٥٥ م .

وقد برزت مواهب الشاعر في كل فن من فنون الشعر وبخاصة في المديح والهجاء والخمريات والوصف ، وكان ذا روح فكهة وبديهة حاضرة ودعابة محببة ، وكان الناس يذهبون الى مجلسه في مراكش من كل صوب وفج ، فكان مجلسه أشبه بمجلس شوقي في كرمة ابن هانىء .

وإنتاجه مهمل – على غزارته – مفرق في المجلات والمكتبات الخاصة. وكان قد أعد ديوانه للطبع ، ورتبه في ثلاثة اجزاء :«اللزوميات» ، « الليالي الحسينية » ، و « روض الزيتون » ولكنه مات قبل أن يطبعه .

ومن شعره الفكاهي قصيدته « المطعم البلدي » المشهورة المتداولة . ومن شعره الاجتماعي قصيدة ألقاها بمناسبة تأسيس جمعية خيرية لرعاية الفقراء والمساكين . ومن شعره في الوطنيات قصيدته في دعوة أبناء وطنه الى التحلي بالعلم والتسلح بسلاحه ، وسنختار جزءاً من كل منها :

أ – الجمعية الخيرية :

١ عار علينا أن تموت ضعافنا جوعاً ، وتَفضُلَ عندنا الأموالُ
٢ إِخوانُنَا ، اللهَ في إِخواننا فببطنهم تتقطّع الأوصال
٣ اللهَ في البؤساء إِنك منهمُ لولا كريمٌ واهبٌ مفضال
٤ لا فرق بينكمُ وبينهمُ سوى أنتم ذوو مال وهم لا مال
٥ قدساءت الأحوال لكن ما نرى منكم به تتحسّن الأحوال
٦ حققتمُ الآمال في إِخوانكم حاشا تخيب لديكمُ الآمال
٧ سألوا فلبّيتم سؤال ذويكمُ ما ضاع بين المسلمين سؤال
٨ ضاءت قلوبكمُ بنور هداية إِياكمُ أن يعتريه ملال

المفردات والاساليب :

٣) معنى هذا البيت : اتقوا الله في هؤلاء البؤساء ففضل الله فقط هو الذي جعلكم في موقف المتفضل وقد كان قادراً أن يضعكم

في صفوف المتفضّل عليهم ، فوجب شكر الله على نعمتـــه بالإحسان إلى هؤلاء المساكين . ٥) هذا البيت وما بعده حثٌّ على التبرع لهذه الجمعية الخيرية ، وشكر على استجابة الدعوة على نمط ما فعل حافظ فيما قدمناه من نص له .

التعليق :

النص يؤدي معنيين رئيسيين : الأول شرح حال الفقراء ، والثاني ما يجب نحوهم ، والأسلوب كما ترى يكاد يكون اسلوب النثر السهل الواضح ، وفيه تكرار كثير ، وهو أسلوب قريب إلى افهام العامة وإن كان لا يروق في عين من يحفلون بالأساليب القوية العالية والصور الرائعة . والموضوع جديد ووحدته كذلك .

وقد أصاب الشعب المغربي فقر شديد أيام الاستعـــمار ، فكان الشاعر من الداعين إلى تأسيس هذه الجمعية والإشادة بها .

ب — العلم والوطن :

١ بني وطني إِن الشعوبَ وأهلها قد استيقظت طُرًّا وأنتم نُوَّمُ
٢ هو الوطن المحبوب يرجو من أهله سماعاً لشكواهُ وأهلُـــوه أنتم
٣ مَضَى زمنُ الجهلِ الذميمِ زمانُهُ وهذا زَمَانٌ آن فيه التعلّم
٤ فبالعلم شادُوا في البحار مَسَاكِناً وفيها مَعَ الحيتان عَامُوا وعوّموا
٥ وبالعلم سارَتْ في السماءِ ركابُها وقد أسرَجُوا متْنَ الرِّياح وألجموا
٦ وبالعلمِ أنْ كانوا جلوساً بمشرقٍ وفي الغَرْبِ مَنْ يَبْغي الكلام تكلّموا

٧ أتاكم زمان يطلبُ العلمَ منكم بجدٍّ فإن لم تطلبوا العلم تندموا

٨ إليكم بني الأوطان أشكو صنيعكم
ولم أشكُ إلا منكمُ وإليكمُ

المفردات والاساليب :

١) طراً : جميعاً . ٤) المساكن : هنا هي المواخر . عاموا وعوّموا : غاصوا في أعماق البحار ، وعاموا على سطحها لتحقيق المسائل العلمية وعوموا المواخر وآلات الاختبارات العلمية . ٥) سارت في السماء ركابهم : يعني بذلك الطيران ، ولم يكن الشاعر قد أدرك عصر الصواريخ . أسرجوا من الرياح وألجموا : جعلوا الرياح خيلاً تُركب فتُسْرج وتلجم ، والمتن الظهر ،وذلك لأنهم تصرفوا في الهواء . والمعنى مستعار من وصف شوقي للطائرة . ٦) المقصود في هذا البيت الحديث عن بُعْدٍ بالهاتف والمذياع ونقل الصور في دور الخيالة . ٨) وفي البيت الثامن تعبير جميل مأخوذ من (اللهم إني لا أشكو منك إلا إليك).

التعليق :

١) يدعو الشاعر قومه إلى أن يتعلموا وينهضوا كسائر الاوطان . فالوطن في حاجة إلى جهودهم ، فقد مضى الزمن الذي كان يمكن للشعوب فيه أن تعيش في جهل ، فاليوم لم يبق لجاهل مكان . ٢) لهم فيما سلكه الآخرون في سبيل العلم والتقدم الإنساني قدوة . ٣) من لا يدرك ركب العلم يندم على تأخره ، وحديثي لكم دون غيركم فأنتم الخصم والحكم وانتم أصل الداء وبكم يكون الدواء .

هذا الشعر في وضوح معناه ، وسهولة الفاظه ، وبساطة تصويره ووحدة فكرته ، يعتبر نموذجاً للشعر المجدد .

٢ – ايليا ابو ماضي (١٨٨٩ – ١٩٥٧)

شاعر المهجر الكبير إيليا أبو ماضي ، ولد بقرية المحيدثة بلبنان ، وفي الحادية عشرة هاجر إلى مصر ، وظل يحرر بها الصحف والمجلات عشر سنوات وفيها نشر ديوانه (تذكار الماضي) . ثم هاجر إلى الولايات المتحدة ، واشترك في الرابطة القلمية التي أسسها جبران خليل جبران سنة ١٩٢٠ وأصدر في نيويورك مجلة « السمير » سنة ١٩٢٩ ونشر هناك ديوانين (الجداول سنة ١٩٢٧ والخمائل سنة ١٩٤٦).

وقد أتاحت له الهجرة الى امريكا ثقافة واسعة، فاطلع على الآداب الغربية وتعمق في دراستها ، وجاء شعره مثلاً لهذه الشخصية المتأثرة بالتراثين العربي والغربي فاذا هو جديد الموضوعات، ذو منحىً فلسفي خاص يقوم على التفاؤل، والدعوة الى المتعة وتملـّي الجمال، ويمثل شعره القصيدةُ المختارة :

من قصيدته « فلسفة الحياة »

١ أيُّهذا الشاكي وما بكَ داء كيف تغدو إذا غدوتَ عليلا
٢ إن شر الجناة في الأرض نفسٌ تتوقّى قبل الرحيل الرحيلا
٣ وترى الشوكَ في الورود وتعمى أن ترى فوقها النّدى إكليلا
٤ والذي نفسُه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلا

٥ فتمتَّعْ بالصبح ما دمتَ فيه   لا تخفْ أن يزول حتى يزولا
٦ أدركتْ ُكنْهَا طيورُ الروابي   فمن العار أن تظلَّ جَهولا
٧ تتغنى والطيرُ قد مَلَكَ الجوَّ عليها   والصائدون السبيلا
٨ تتغنى وعمُرها بعضُ عام   أَفتبْكي وقد تعيش طويلا
٩ فاطلب اللهو مثلما تطلب الأطيارُ عند الهجير ظلاً ظليلا
١٠ وتعلَّمْ حُبَّ الطبيعة منها   واتركِ القالَ للورى والقيلا
١١ أنْتَ للأرض أوّلاً وأخيراً   ُكنت مَلْكاً أو ُكنْت عَبْداً ذليلا
١٢ كلُّ نجمٍ إلى الأُفول ولكنْ   آفةُ النجم أن يخافَ الأفولا
١٣ فإذا ما وجدتَ في الأرض ظِلاً   فتفيَّا به إلى أن يَزُولا
١٤ وتوقَّعْ إذا السماء اكفهرَّت   مطراً في السُّهول يُحيي السهولا
١٥ ما أتينا إلى الحياة لِنَشْقى   فأريحُوا أهلَ العقول العقولا
١٦ كل من يجمع الهموم عليه   أخذته الهموم أخذاً وبيلا

المفردات والاساليب :

١) كيف تغدو اذا غدوت عليلاً : كيف يصبح حالك إذا صرت مريضاً حقاً . ٢) تتوقى الرحيل: تخاف الموت . ٦) الكُنه : الحقيقة والطبيعة. ٩) الهجير : حر القيلولة . ١٠) القال والقيل : الكلام الذي لا يجـدي . ١٢) الأفول : الغروب . ١٣) تفيَّأ : استظل .

التعليق :

تتناول الأبيات الأفكار الآتية :

١) أن الإنسان يجب أن يعيش في حاضره . ٢) أن على الإنسان أن يقتدي بالطيور وغيرها في اغتنام فرص الحياة . ٣) ينبغي أن ننظر دائماً الى الجانب الخيِّر من الحياة وحتى ما يبدو فيها من سوء يجب أن نتوقع انجلاءه وصيرورته الى خير .

والأسلوب – كما ترى – سهل في موسيقى واضحة جميلة ، ويجمّله بعض المحسنات البديعية الطبيعية ، وبعض الصور الخيالية كما في البيت الثالث .

والتوزيع في الأسلوب بين الخبر والإنشاء أعطاه جاذبية وحيوية . أما المعنى فأنت ترى كل بيت يكاد يكوّن حكمة رائعة جميلة جديدة . وما أجمل قوله :

والذي نفسُه بغير جمالٍ لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

أليست هـذه كلمة صادرة عن فيلسوف أدرك أسرار النفس الإنسانية الغامضة ، جمع فيها كل مظاهر الإنسان وعلاقاته ومصادر تفكيره وسلوكه ؟ وأنت تجد في شعره صوراً معروفة في الأدب العربي كما في البيت الثاني والحادي عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر ، ولكنك تحس بجدتها وطرافتها إذا قرأتها مع ما قبلها وما بعدها .

والقصيدة تدور حول فكرة واحدة (وهذا تجديد في الشعر العربي) هي الإحساس بالجمال في الوجود . والموضوع نفسه جديد ، فلم يكن القدماء يحلّلون في قصائدهم – بتوسع – النفس البشرية أو يطبقون الحكمة على عناصر الطبيعة ، فهذا المزج بين الإنسان والطبيعة جديد .

والقصيدة بهذه الصورة تفتح آفاقاً واسعة أمام القارىء العربي للتفكير في الكون وفي الإنسان ...

مناقشة

١ – سادت عاطفة التفاؤل في قصيدة أبي ماضي . ارجع الى ديوانه وابحث هل تجد هذه العاطفة تسود كل إنتاجه ؟

٢ – قارن بين شعر أبي ماضي وشعر الرصافي بالرجوع الى ديوان كل منهما ببعض القصائد المشتركة في موضوع واحد، واستنبط من هذه المقارنـــة الفرق بـــين الطور المجدد المحافظ والمجدد المنطلق من حيث الموضوعات والأساليب والأفكار .

٣ – الشابي (١٩٠٩ – ١٩٣٤م)

ابو القاسم الشابي الشاعر التونسي الذي قضى حياته القصيرة كالشمعة تنير لغيرها وتحترق هي بالنار .

ولد بجنوب تونس في توزر وتلقى علومه الأولى على يد والده القاضي الشرعي خريج الأزهر ، ثم التحق بجامعة الزيتونة في العاصمة حيث نال شهادتها ، وكان في اثناء ذلك يقرأ كتب الأدب والشعر فأعجب بشعراء المهجر وطريقتهم التجديدية ، والتحق بعد ذلك بكلية الحقوق التونسية وتخرج فيها سنة ١٩٣٠ ، وكان والده قد مات قبل ذلك وترك له أسرة كبيرة حمل همّها ، فناء بالثقل وأجهده العمل والحزن ، ومرض بتضخم في القلب، ونصحه الأطباء بالراحة وتغيير الجو والهواء ، فأخذ يطوف بالمناطق الجافة الهواء وحيداً منعزلاً حتى وافته منيته سنة ١٩٣٤ في تونس ودفن ببلدته .

أما شعره فقد قاله مبكراً ، إذ أثبت في ديوانه قصيدة قالها في سنة ١٩٢٤ بعنوان (يا حب) . وكانت ثقافته عربية محضة ، ولكنه أكثر من قراءة الشعر المعاصر في مصر وسوريا ولبنان والعراق والمهجر ، فنفعه ذلك في التجديد ، وانضم الى زاده الكثير من الأدب العربي القديم .

وقد شارك في شعره في حركات الاصلاح ، وشارك في بعث حركة الشبان المسلمين ، ودعا الى تجديد الجهاز الثقافي التقليدي ، وناصر حركة تحرير المرأة ، ودعا الى التجديد في الأدب ، وكان من أثر محاكاته لشعراء المهجر ذلك الشعر التصوفي ، المليء بالخيالات ، والذي تبدو فيه مسحة الحزن والثورة النفسية ، والثورة على التقاليد ، وفيه حث الأمة على النهوض ومقاومة الاستعمار الفرنسي[1] ، وأكثر من وصف الطبيعة ، وأجاد وصف آلام النفس .

وقد ترك الشابي من الآثار الأدبية ديوانه « أغاني الحياة » و «الخيال الشعري عند العرب » و«مجموعة رسائل الشابي»،و« يوميات الشابي » و «جميل بثينة» .

ولكن كتبه لم تنل عناية من الناشرين ولم يهتم به إلا العالم الأديب احمد زكي أبو شادي في مجلة (أبولو) .

من أغاني الرعاة :

١ أقبل الصبْح يغني للحياة الناعسه

٢ والرُّبا تحلم في ظـــلِّ الغصون المائسة

٣ والصَّبا تُرقِص أورا ق الزهور اليابسة

٤ وتهادى النور في تِلْـــك الفجاج الدامسة

*

٥ أقبل الصبح جميلاً يملأُ الأفقَ بهاه

٦ فتمطى الزهر والطّــيْرُ وأمواج المياه

٧ قــد أفاق العالــم الحسِّي وغنى للحياه

٨ فأفيقي يا خرافي واهرعي لي يا شياه

*

٩ واتبعيني يا شياهي بين أسراب الطيور

١٠واملئي الوادي ثغاءً ومراحاً وحبور

١ ـ انظر ترجمة مفصلة له في مقدمة ديوانه (أغاني الحياة) .

١١ واسمعي همس السواقي وانشقي عطر الزهور

١٢ وانظري الوادي يغشّيـــه الضبابُ المستنير

★

١٣ واقطفي من كلأ الأر ض ومرعاها الجديد

١٤ واسمعي شبّابتي تشد و بمعسول النشيد

١٥ نغماً يصعد من قلـــبي كأنفاس الورود

١٦ ثم يسمو طائراً كالبلبُـــل الشادي السعيد

المفردات والاساليب :

٢) المائسة : المتمايلة . ٤) الفجاج الدامسة : الطرق الواسعة المظلمة . ٨) اهــرعي : اسرعي . ١٠) الثغـــاء : صوت الغنم . ١١) انشُقي: شمّي . ١٣) الكلأ : العشب رطباً ويابساً . ١٤) الشبابة : الناي .

التعليق :

القصيدة أنشودة من أناشيد الرعاة ، فيها مرح يترنم بشروق الصباح ويغني للحياة النائمة فيوقظ الرياض من أحلامها ، وقد أقبلت الأنوار من كل الطرقات، والصّبا ترقص أوراق الأشجار وتلاعبها ، والأزهار والأمواج والأطيار تتمطى وتتثاءب ، وهو ينادي خرافه وشياهه لترعى بين أسراب الطيور ، ولتمرح وتملأ الجو ثغاء وسروراً ، ويصيح بها أن تسمع همس السواقي ، وتنشق عطر الزهور ، وتتحلى بجمال الضباب المنتشر في الوادي وتقطف من نباته على صوت ألحان شبابته ، ثم يدعوها أن تتناول ما تشاء من أطايب كلأ الغابة من أعشاب وأزهار وثمار ..

والموضوع جديد كما ترى ولعله مستعار مما كان عند اليونان والرومان من

أغاني الرعاة ، وما انتشر في أوربا في العصر الحديث . والوحدة الفنية واضحة في القصيدة حتى لتبدو كسلسلة متصلة الحلقات يأخذ بعضها بحُجُزِ بعض وهي حافلة بالخيال ، ولا يُعْوزك أن تضع يدك على كثير من صورها الجميلة . هذا الى ما فيها من عبارة واضحة وموسيقى متناسقة ناشئة من تناسق الصور وتلاؤم الأجزاء ، وحسن اختيار الألفاظ المعبرة عن تجربة ذاتية للشاعر .

ولم تجرِ القصيدة في قافية واحدة ، وإنما لكل مقطع قافية .

مناقشة

١ – إلى أي مدى كان الشابي موفقاً في تصوير العاطفة والوجدان ؟ وما شواهدك على ذلك ؟

٢ – وضح مظاهر التجديد في القصيدة .

٣ – هل يناسب أسلوب القصيدة موضوعها ؟ وضح ذلك .

٤ – ما السِّمات العامة لأسلوب الشابي ؟ وما رأيك في كيفية تناوله لموضوعات شعره ؟

المراجع

أغاني الحياة — ديوان الشاعر
الخيال الشعري عند العرب — للشاعر ايضاً
الأدب التونسي في القرن الرابع عشر ج ١ — لزين العابدين التونسي
مجلة العالم الأدبي نوفمبر سنة ١٩٣٤
مجلة أبولو اعداد سنة ١٩٣٣
الينبوع : للمترجم له بتصدير لأحمد زكي أبو شادي
جريدة العمل التونسية ، عدد العالم العربي ديسمبر سنة ١٩٣٤ م .

٤ – عمر ابو ريشة

هو الشاعر السوري الكبير المعاصر عمر أبو ريشة ، نشأ في حلب ودرس في الجامعة الأمريكية ببيروت ، ثم أتم دراسته العليا بلندن ، وقد رافق سوريا في محنتها زمن الاحتلال الفرنسي ، وغناها أشعاراً حماسية ووطنية أوقدت نار الثورة في صدور أبنائها ، وقد تقلد مناصب سامية في بلاده ، فكان مديراً لدار الكتب بحلب ثم انتقل إلى السلك السياسي بعد استقلال سوريا وتنقل في بعض بلاد أوربا وزيراً مفوضاً ، كالأرجنتين والنمسا ، ولا يزال يعمل بهذا السلك (الدبلوماسي) حتى اليوم وعمره الآن فوق الستين .

يمتاز شعره بأنه سجلٌ لنهضة سوريا الوطنية ، وهو عميق المعاني كثير الابتكار جيد السبك ، يتوفر على مادة تصويرية قوية ، وله ذوق بديع يعرف به كيف يعرض شعوره وفكره عرضاً تصويرياً بارعاً . وهو شاعر وجداني وخيالي محلق في آفاق واسعة بعيدة الإيحاء . وهو ممن يزاوجون بين القديم والحديث في شعره ، يحتفظ من القديم بالوزن والإطار الموسيقي والصياغة ، ويضيف إلى ذلك تجديدات واضحة في الموضوع وبناء القصيدة والمعاني والصور .

من قصيدته (النسر) :

١ أَصبح السَّفْحُ مَلْعباً للنُّسورِ فاغضبي يا ذُرى الجبال وثُوري

٢ إِنَّ للجُرح صيحةً ، فابعثيها في سماعِ الدُّنى فحيحَ سعير

٣ واطرحي الكبرياء شِلْواً مدَمّى تحت أقدامِ دهرِكِ السِّكّيرِ !
٤ لَملمي يا ذُرى الجبال بقايا النسْرِ
وارْمي بهـــا صُدورَ العُصُورِ
٥ إنَّه لم يَعُدْ يكحِّلُ جفْنَ النّجْمِ تِيهاً بريشهِ المنثورِ !
٦ هجَرَ الوَكْرَ ذاهِلاً ، وعلى عينيْه
شيءٌ مِنَ الوداعِ الأخيرِ
٧ كمْ أكبَّتْ عليه وهْي تُنَدِّي فوقهُ قُبْلَةَ الضُّحَى المخْمُورِ
٨ هَبَطَ السفحَ طاوياً من جناحيْه على كُلِّ مَطْمعٍ مَقْبورِ
٩ فتبارتْ عصائبُ الطَّيْرِ ما بَيْنَ شَرُودٍ من الأذى ونَفورِ
١٠ لا تطيري، جوّابَةَ السَّفْحِ فالنسْرُ إذا ما خَبَرْتِهِ لمْ تطيري
١١ نسَلَ الوَهْنُ مِخلبَيْه، وأدمتْ مَنكبَيْه عواصفُ المقدُورِ
١٢ والوقارُ الذي يشيعُ عليه فَضْلَةُ الإِرْثِ من سحيقِ الدُّهُورِ
١٣ وقف النَّسْرُ جائعاً يتلَوَّى فوقَ شِلْوٍ على الرِّمالِ نَثيرِ
١٤ وعجافُ البُغاثِ تدْفَعُــهُ بالمخْلَبِ الغَضِّ والجناحِ القصيرِ
١٥ فسرَتْ فيه رِعْشَةٌ من جُنُونِ الكِبْرِ واهتزَّ هِزَّةَ المقْرُورِ
١٦ ومضى ساحباً على الأفقِ الأغبرِ أنقــاضَ هيكلٍ مَنْخُورِ

١٧ وإذا ما أتى الغياهب واجتاز مَدَى الظنِّ في ضمير الأثير
١٨ جَلْجَلَتْ منه زعْقَةٌ نشَّت الآفاقُ حرَّى مِـــنْ وَهْجها المُستَطير
١٩ وهوى جُثَّةً على الذِّرْوَةِ الشَّمّاء في حِضنِ وَكْرِه المَهْجُورِ
٢٠ أيها النَّسْرُ هَلْ أعُودُ كما عُدْتَ أم السفحُ قد أمات شعوري؟

المفردات والاساليب :

١) الذّروة : والجمع الذُّرى : أعلى الشيء ، والمكان المرتفع . ٢) الدُّنى جمع دنيا : نقيض الآخرة وهو العالم الذي أنت فيه. الفحيح : صوت الأفعى من فمها ، والكشيش: صوتها من جلدها. السعير: النار ولهبها . ٣) شِلواً : الشلو كل شيء مسلوخ أكل منه شيء وبقيت منه بقية ، والعضو من اعضاء اللحم . ٥) تيها : عجبا . ٧) تَنَدّى المكان : أصابه الندى. الضحى: أول النهار بعد شروق الشمس. المخمور : الذاهـــل من السُّكر . ٩) الشارد : النافر وصيغة المبالغة منها شَرود : كثير النفور ، ونفرت الدابة : جزعت وخافت ومصدرها نِفار وصيغة المبالغة نَفور . ١١) نسل الصوف نسولاً : انتفش وسقط ، ونسَل الماشي : أسرع في سيره . الوهن : الضعف . ١٢) يشيـع عليه : يظهر عليه . سحيق الدهور : بعيدها . ١٤) الأعجف (والجمـع عجاف) : المهزول . البُغاث : طائر أغـــبر من طيور المـــاء طويل العنق . ١٥) المقرور الذي أصابه برد. ١٧) الغيهب (والجمع غياهب) : الشديد السواد من الخيل والليل والضعيف من الرجال ، والبليد . ١٨) جلجـــل : اظهر صوتاً شديداً . نش الغدير: أخذ ماؤة ينشف وينضب . المستطير : الساطع المنتشر .

التعليق :

يتحدث أبو ريشة ١) عن نسر سقط من وكره في ذروة الجبل إلى السفح مترنحاً . ٢) ينادي الجبال أن تسعف هـــذا النسر الكسير الجنـــاح . ٣) يخبر عن ضعف النسر ووهنه وتدليه من عليائه وان الطيور الصغيرة أصبحت لا تخافه. ٤) لم يطق النسر على هذه الحال صبراً فحلـّق وزعق ثم هوى ، لقد سقط النسر ضعيفاً مهيضاً على السطح ، وتجمعت بغاث الطير تشمت بـــه ولكنه لا يزال به أثر من كبرياء جريح وهو جائع شديد الجوع ، يدفعه جوعه أن يشارك الطيور الضعيفة في مراحها فلا تخشى بأسه فتنوشه وتحاول ان تنال منه فيغضب لكرامته ويثور فيجر جسده جراً إلى وكره في اعالي الجبال حتى يموت ميتة كريمة ، وما ان يصل الى الذروة حتى يصيـح صيحة مدويـة يهوي بعدها إلى وكره جثة هامدة ، وهنا يتســاءل الشاعر (حين يرى في الصورة نفسه) هل سيقدر له أن يتخلص مما هو فيه كما فعـل النسر ؟ وإذن فقد عبر الشاعر في هذه القصيدة عن حالة نفسية عنده، فهذا شعر رمزي، ليس الغرض منه تصوير النسر في ميتته وإنما تصوير مطامح الشاعر ومطالبه الانسانية السامية فيشعر انه نسر مهيض ، ثم تتســـع الصورة في نفسه ، فإذا هو يرى النسر قد هبط ذليلاً من أعلى إلى اسفل وبغاث الطير تستخف به بعد ان كانت تفْرَق لمرآه ... الخ .

وهذه الرمزية طريقة جديدة في التعبير الفني ، يعمـــدون إليها بأحوال تصيب أحد عناصر الطبيعـــة ليصوروا معانيهم الذهنية وخلجات شعورهم النفسية . والقصيدة مترابطة في بنائها ، وفيها تشخيص وخيال واسع المدى ومزج بين الإنسان وعناصر الطبيعة المختلفة .

٥ – مُفدي زكريّا

شاعر الثورة الجزائرية الخصب الثائر بطبعه ، الذي لم يكتف بالمشاركة في إذكاء روح الثورة الجزائرية بقلمه الفياض وشعره المتقد بل شارك في نشاطها السياسي والحربي كذلك ، ودخل بسبب ذلك السجن خمس مرات متوالية الى ان فر منه في فبراير سنة ١٩٥٩ لآخر مرة ، وتوجه الى المغرب حيث لقي التكريم والحفاوة من المغفور له جـــلالة الملك الراحل محمـــد الخامس ، وأنشأ قصيدة « أنا ثائر » :

في الحنايا

وسواد الليل قاتمْ

مالت الأكوان سكرى

ثملاتٍ

أودعتها مهجة الأقدار سرّا

في الزوايا

بين سهرانٍ ونائم

ونجوم الليل حيرى

حالماتٍ

ضارعاتٍ بثّ فيها الغيب أمرا

وقد أهدى الى الملك مجموعة مسجلة من ملاحمه الثورية التي نظمها في سجن بربروس ، وقدمها بقصيدة ارتجالية « لا تعجبوا إن جاءكم برسالة » .

وقد كان الشاعر دائم الصلة بالمغرب ، فقد أنشأ قصيدة في عيد استقلال المغرب بين يدي جلالة الملك الراحل المغفور له محمد الخامس في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٥ . ولما مات الملك أبـّنه بقصيدة أرسلها الى الأسرة المالكة يوم وفاته من تونس ، وألقى بالسفارة المغربية في تونس في ٢٧ فبراير سنة ١٩٦١ قصيدة رثاء له بعنوان « قد عاد للقمر » . وفي الذكرى الاربعينية أتى الرباط بدعوة من جلالة الحسن الثاني ملك المغرب وشارك في الحفل التأبيني بقصيدته « أفي السماوات عرس انت تنشده » وذلك في ٧ ابريل سنة ١٩٦١ .

وقد أنشد بين يدي جلالة الملك الحسن الثاني في الحفل الذي أقيم له في ضريح المولى ادريس الثاني بفاس في زيارته الرسمية الاولى ٢٥ ابريل سنة ١٩٦١ قصيدة ، قلده الملك على أثر إلقائها وسام الكفاءة الفكرية ، وقد وصف في هذه القصيدة الجندي المغربي وصفاً دقيقاً رائعاً . وهو لا يفتأ يقول القصائد في المناسبات المختلفة ، وقد ألقى في عيد العرش هذا العام ١٩٦٣ قصيدة رنانة .

وهو لا يحصر اهتمامه في وطنه الصغير الجزائر ، وانما عواطفه متجهة الى وطنه الأكبر ، العالم العربي ، يسجل حوادثه الكبرى سواء أ كانت في القاهرة أو في تونس ، أو في لبنان أو دمشق أو المغرب ، فهو يلقي قصائده في الاعتداء الثلاثي على مصر ١٩٥٦/١٠/٢٩ وهو في السجن ، وينظم في ذكرى هذا الاعتداء وهو في بيروت سنة ١٩٦١ ، ويلقي بصوت العرب في القاهرة ، وينشد في مناسبة جلاء الفرنسيين عن القواعد المغربية (أكتوبر سنة ١٩٦١) ، وفي حوادث بنزرت (٦١/٧/١٩) ، وتذاع له من إذاعة تونس عند اعتداء الفرنسيين عليها . وهو يقول القصائد في كل المناسبات العلمية ، والادبية والوطنية . وكم من القصائد دبّجها وهو في سجنه (بربروس) أو (البرواقية) يسجل أحداث عالمه الضيق ، ولا يغفل عن العالم الواسع خارج السجن ، وصوته يعلو مخلداً ومسجلاً كل الأحداث والذكريات العظيمة .

وقصائده التي اعتمدت رسمياً من جبهة التحرير لتقال في المناسبات المختلفة هي:

١ – النشيد الرسمي لثورة الجزائر :

قسماً بالنازلات الماحقات ...

٢ – التحية الرسمية للعلم الجزائري :

هيا هيا قفوا وارفعوا العلم ...

٣ – نشيد جيش التحرير الجزائري بلغة شعبية :

هذي دمانا الغالية دفاقه ...

٤ – نشيد الشهداء الذي يردده المحكوم عليهم بالإعدام قبل الصعود الى المقصلة :

اعصفي يا رياح واقصفي يا رعود

٥ – النشيد الرسمي لاتحاد الطلاب الجزائريين :

نحن طلاب الجزائر نحن للمجد بناة

٦ – النشيد الرسمي للاتحاد العام للشغالين الجزائريين :

نحن جند الاتحاد والعمل ننجز الأشغال لا نرضى الكسل

٧ – ملحمة (يوم الجزائر) التي ألقيت في بيروت في نوفمبر سنة ١٩٦١ وأذيعت في جميع محطات الاذاعات العربية بمناسبة الذكرى السابعة للثورة الجزائرية :

مددنا خيوط الفجر قم نصنع الفجرا

وضعنا كتاب البعث قم ننشر السِّفْرا

هذا هو مفدي زكريا الشاعر المجدد المتطرف في التجديد .

وقد ولد في ابريل سنة ١٩١٣ ، وتلقى علومه بمختلف المدارس والمعاهد

ابتداء من الكتاب حتى معهد الزيتونة بتونس . وشعره يمتـاز بصدق التعبير ، والواقعية وتسخير الفن للحياة ، وفي كل كلمة من شعره ثورة ولهب ، فلاعجب أن يسمى ديوانـه الاول « اللهب المقدس » . وله دواوين أخرى بعضهـا تحت الطبع منها :

« أهازيج الزحف المقدس » ، « انطلاقـة » ، « الخـافق المعذب » ، « محاولات طفولة » . وله مؤلفات نثرية بعضها تحت الطبع أيضاً منها :

« ست سنوات في سجون فرنسا » ، « حوّاء المغرب العربي » ، « قاموس المغرب العربي » (في اللهجات المغربية) رواية « الثورة الكبرى » ، روايـة « اليتيم في العيد » ، « الجزائر بين الماضي والحاضر » وغيرهـا . وشارك في مؤلفات نثرية منها : « الأدب العربي في الجزائر عبر التاريخ » وهو أربعة أجزاء ؛ « أنتم الناس أيها الشعراء » ، ويشترك معه فيها الأديب التونسي (الهادي العبيد رئيس تحرير جريدة الصباح التونسية) .

وإليك جزءاً من إحدى قصائـــده التي كتبهـــا من سجن (البرواقية) سنة ١٩٥٨ وألقيت بإذاعة صوت العرب بالقاهرة ، « اقرأ كتابك ! » .

هذا (نفمبر) قم وحيِّ المدفعا   واذكر جهادك والسنين الأربعا

واقرأ كتابك للأنـــام مفصّلا   تقرأ به الدنيا الحديثَ الأروعا

واصرع بثورتك الزمان وأهله   واقرع بدولتك الورى (والمجمعا)

واعقد لحقِّك في الملاحم ندوة   يقف السلاح بها خطيبًا مِصْقَعا

وقل : الجزائر ؛ واصغ إِن ذُكر اسمها

تجدِ الجبـــابر ساجدين ورُكّعـــا

إِن الجزائر في الوجود رسالة   الشعب حرّرها ، وربُّك وقّعا

إنّ الجزائر قطعة قــدسية في الكون لحنها الرّصاص ووقّعا
وقصيدة أزليــة أبياتهــا حمراء كان لها (نفمبر) مطلعا
نظمت قوافيهــا الجماجم في الوغى
وسقى النجيع رويّها فتدفعــا
غنَّى بها حرٌّ الضمير فأيقظت شعباً إلى التحرير شمّر مسرعا

ومن شعره المجدد في الأسلوب قوله بمناسبة اعتداء فرنسا على بــنزرت :

ادفعوها :
ادفعوها ..
في ضمير الليل تجتاح السكون
تترامى كالقضاء
وتدوّي في الفضاء
تسمع الأكوان قصة الايمانْ ..

وارجع الى ديوانه : (اللـّهب المقدس) إن شئت .

٦ – احمد زكي ابو شادي

هو الطبيب الشاعر الأديب المصري الدكتور أحمد زكي أبو شادي ، أشهر أصحاب مدرسة (أبولّو) التي كان لها أثر كبير في تجديد الشعر على يد أساطينها : خليل مطران ، وأبي شادي ، وابراهيم ناجي ، وصالح جودت ، والشابي وغيرهم ، والتي كانت تخرج مجلة (أبولو) يُنشر فيها جيد الشعر ومختاره ، ولا سيما المجدد منه . وكان أبو شادي هو رئيس تحرير هذه المجلة التي يعرفها المثقفون في كل الأقطار العربية .

ففي عهد شوقي وحافظ ومطران كان بعض الشعراء يحسون في أنفسهم رغبة ملحة في تجديد الشعر العربي ليتمشى مع الشعر العالمي . وفي الطليعة كان أبو شادي ، فأسس في مصر سنة ١٩٣٢ هيئة أدبية سماها (جمعية أبولّو) ، نسبة إلى (أبولّو) إله الشعر والفن في أساطير اليونان والرومان . وعقدت جلستها الأولى في (كرمة ابن هانىء) برئاسة شوقي ، وأصدرت الجمعية مجلة مقصورة على الشعر أخذت أعدادها تظهر في حلة قشيبة ، وكان من أبرز شعراء هذه الجماعة : علي محمود طه والدكتور ابراهيم ناجي. وقد انقطعت هذه المجلة عن الظهور ، وإن كان لا يزال بعض أعضاء أبولو أحياء . وقد نشر فيها إيليا أبو ماضي) ، وإلياس أبو شبكة ، وشفيق المعلوف بعض شعرهم .

وقد قرأ أبو شادي الشعر عربياً وقرأه إفرنجياً ، وطالع التواريخ وبخاصة ما يتعلق منها بأصول الأدب الإغريقي ، وقارن بين المذاهب في البيان سواء أكانت خيالية وجدانية أم موضوعية ، ثم كوّن لنفسه وجهة فنية جديدة يوليها شطره فأحدث في العربية شعراً سلساً بألفاظه قريب المأخذ بسهولة ، سليماً بلغته جهد ما تسعه المعاني العصرية متقيداً بأوزانه تقيُّد الموشك أن يعمد إلى الفكاك من كل ثقيل الكلفة في تلك الاوزان .

وهو لا يرى عيباً في الوثبات يثبها في استعاراته إلى أبعد مدى ، ولا يرى بأساً في تحريف موازين الشعر قليلاً أو كثيراً أو التخفف من التزام الحرف الواحد في كل قوافي القصيدة .

وفي الكثير من شعره ابتكار وإبداع ، وإن كان في بعضه هنات من الإغراب في اللفظ أو الإغماض في المعنى يراها هيّنات بجانب مأربه السامي الكبير في الجزالة والموسيقى والتجانس .

وله غير مؤلفاته ديوانان من الشعر أحدهما « الشعلة » والثاني « اطباق الربيع » .

وقد هاجر الى امريكا سنة ١٩٤٦ بعد ان ضاق بنظام الحكم في مصر حينئذ وتوفي بمدينة واشنطن سنة ١٩٥٥ .

وإليك نموذجاً من شعره :

القلق

١ أستقبلُ النُّعمى كأنيَ حالمٌ ... ولَكَمْ أطلت العمر بالأحلام
٢ وأنا لها والحب في قلبي لظىً ... والخوف ألف شجىً وألف ضرام
٣ فكأنني النهم الذي تُزْجى له ... طُرَفُ التنعُّم ساعة الإعدام
٤ تترّشف اللذات وهو كأنه ... يترشف المعسول من آلام
٥ هذي هي الدنيا ، أحبُّ جمالها ... قلق وشعلتها دليل ظلام

والموضوع كما ترى جديد ، والشعر حافل بالمعاني المتناقضة ، مما يجعل العقل يسبح في افكار بعيدة عميقة ، وتبدو الفكرة الغربية الجديدة في البيت الخامس .

ومن شعره التجديدي ما كان يفيض به على الطبيعة من احساسه فيراها من خلال هذا الإحساس ، ويفجر صدرها مصبوغة بدم قلبه فيصيح :

ما للغروب ينوء بالأنواء من قلبي الحزينْ
يا للدماء تكاثفت كالموج ، والغيبُ السفين

★

أين الضحايا قد تراءى الأفق يعكس روحها
هيهات قد ذهبت وإن أبقى الزمان جروحها

★

يا ثورة عنـــد الغروب لمحت فيك فؤادي
هذي دمائي استُنزِفت وعلى السماء حدادي

★

كم في السماء شعور هذي الأرض في ماضي القُرونْ
كم تعكس الأقدار في صفحاتها صوَر الجنون

هذا شعر الاندماج في الطبيعة ، والصور المصبوغة بصبغـــة النفس ، هو الشعر الذي استحدثه في العربية شعراء المهجر وخليـــل مطران وأبو شادي وغيرهم .

فنون الشعر الرئيسية

فنون الشعر الرئيسية هي : ١) المسرحي أو التمثيلي . ٢) القصصي أو الملحمي . ٣) الغنائي أو الوجداني . ٤) الشعر التعليمي او الحكمي . وسنتحدث عن الأنواع الثلاثة الأولى بالتفصيل . أما النوع الرابع فإن سبب ضمه إلى الشعر هو لما فيه من النظم والقافية ، ولكنه لا يشبه الشعر فيما عدا ذلك ، وهو بالنثر أليق .

تعريف المسرحية : الشعر التمثيلي أو المسرحي يقوم على المسرحية .

وما المسرحية إلا رواية تجري حوادثها على مسرح ويقوم بأدائها طائفة من الناس يحاكون ما يجري على مسرح الحياة أو ما حدث في التاريخ محاكاة حيةً عن طريق الحركة والحوار والانفعال .

شروطها : يشترط في المسرحية أن تكون صورة للحياة البشرية ، وان تكون موحدة العمل ، أي أن تكون الأجزاء المختلفة التي يتركب منها العمل الروائي متحدة لإيجاد حادث واحد أو منعه ، فهناك حرب دائمة النشوب بين الوسائل والحوائل التي تتنازع حادثاً من الأحداث ، تعمل الوسائلُ لوقوعه ، وتعمل الحوائل لمنعه ، فالعمل الروائي ينبغي أن تكون وظيفته التوفيق بين الأمرين لايجاد الحل الملائم للمشكلة . ويُشترط في أشخاص الرواية أن يسند إلى كل منهم الدور الملائم لسنّه وشكله ونفسيته وسلوكه ، والدور الذي يمثله بحيث يلائم التاريخ والتقاليد ، وأن «يلبس» الدور من أول المسرحية حتى آخرها . ويشترط في أسلوب الرواية أن يكون واضحاً مفهوماً للمشاهدين ،

طبيعياً لا تكلف فيه، حياً لا تخمد جذوته ولا يبتذل، بسيطاً، ملائماً للمتكلم في هيئته وشكله وطبيعة الدور الذي يمثله.

فإن عناصر العمل في المسرحية هي: العرض، والعقدة، والحل. فالعرض هو الفكرة العامة المجملة التي تتقدم المسرحية وتمهد لحوادثها وتهيء لها الأذهان، وتشوق النفوس. والعقدة هي الجزء الذي تشتبك فيه الظروف والوقائع أمام البطل فتتعلق الأنظار به لترى كيف يتخلص من ورطته، وتتلهف المشاعر الى معرفة النتيجة. ثم يأتي الحل الذي تنحل به العقدة وتنتهي به الرواية. وبقدر ما يتقن الفنان كل عنصر من هذه العناصر بقدر ما ينجح العمل الفني.

أقسام المسرحية: تنقسم المسرحية الى فصول ومشاهد، فالفصول هي مراحل العمل ودرجاته، وبين كل فصل وآخر تكون استراحة أو ما يشبهها، والمناظر أثناء الفصل.

أنواع المسرحية:

١) المأساة: (تراجيدي) وهي تمثيل حدَثٍ عظيم يبعث في النفس الرعب والرحمة والإعجاب.

٢) الملهاة: (كوميدي) وهي تمثيل حادثٍ منتزعٍ من الحياة العامة يبعث على الضحك، وموضوعها الجهة الوضيعة من طبائع الناس وعادات المجتمع ونقائص الحياة ومناقضاتها.

٣) وقد يتكون من النوعين: (المأساة والملهاة) نوع جديد يسمى «المأساة الحديثة» (الدرام).

٤) وتؤدى هذه الأنواع كلها عن طريق الإلقاء، فإذا أدّيت بالغناء والموسيقى فتلك هي المسرحية الغنائية (الأوبرا).

٥) وإذا اقتصر الغناء والموسيقى في المسرحية على فصل واحد، أو مشهد مختصر سمّيت المسرحية الغنائية الصغيرة (الأوبريت). فهذه هي أنواع المسرحية:

١ – المأساة (La tragédie) ٢ – الملهاة (La comédie) ٣ – المأساة العصريــة الحديثة (Le drame) ٤ – المسرحية الغنــائية (L'opéra) ٥ – المسرحية الغنائية الصغيرة (L'opérette). ويتفرع عن المأساة نوع يسمى (المأساة العامية : Le mélodrame) وعن الملهاة نوع يسمى (الملهاة العامية : La farce) .

العرب والمسرح :

خلا الادب العربي القديم من الفن التمثيلي أو كاد،لأسباب أهمها عدم ممارسة العربي لشئون الفكر المتصلة الطويلــة . ثم جــاءت النهضة الحديثة ، واحتك الشرق بالغرب ، وكان الرائد العربي لهذا الفن هو « مارون النقاش » الذي اطلع على الآداب الغربية ، وأعجب بصفة خاصة بالمسرح الايطالي حيث عاش هناك مدة طويلة كان يتاجر فيها بــين بيروت والقاهرة وايطاليا ، فلما عاد الى بلاده ، عرّب روايــة البخيل لموليير الفرنسي ، ونقل حوادثها الى جـــو عربي ، وقدمها سنة ١٨٤٨ م. ممثلة - وفيها موسيقى- الى أصحابه في بيته ، ودعا اليها القناصل وأعيان البلد . وشجعه النجاح على التأليف للمسرح ، فنجح في تقديم بعض الروايات العربية المقتبسة أو المُنشأة. ثم تلقف العصا أحمد شوقي فأبدع وخلق المسرح العربي الحديث الذي نسج على منواله عزيز اباظه وأحمد باكثير وغيرهما .

مر المسرح العربي في ثلاثة أطوار: (١) طور الترجمة والاقتباس، والمحا كاة للغرب ، واشتهر في هذا الطور عدا النقاش أديب اسحاق ، وخليل اليازجي، ونجيب الحــداد ، وفرح أنطون ، وأبو خليل القبــاني . وفي هــذا الطور أنشأ اسماعيل (خديوي مصر) دار الأوبرا الملكية أعظم مسرح تمثيل في الشرق ، بمناسبة افتتاح قنــال السويس . (٢) طور التأليف ، وكان المؤلف هو أحمــد شوقي. (٣) والطور الثالث طور الاتجاه الكلاسيكي على يد سعيد عقل وقدموس وغيرهما .

المسرحية عند شوقي : ألف شوقي مسرحيته الاولى (علي بك الكبير) حين كان طالباً في فرنسا مما يدل على أنه تأثر بالمسرح الفرنسي ، وربما كان ذلك هو الملهم له على تأليف مسرحياته فيما بعد . وقد رأى شوقي أن أدب مصر الحديث في حاجة ماسة الى غذاء روحي يطل عليه من المسرح فأسهم بروايته التي أعطت للمسرح العربي الحديث أخلد مآثره الفنية. وقد ظفرت مسرحيات شوقي بالإعجاب والتقدير من الجمهور والصحافة والنقاد ، ودور الادب . وكان من أبرز من كتب عن هذه المسرحيات طه حسين في كتابه (حافظ وشوقي)، والدكتور شوقي ضيف في كتابه « شوقي شاعر العصر الحديث » .

ويبدو ايضاً أن أحمد شوقي تأثر بالأدب الانكليزي التمثيلي ، وبخاصة شكسبير – في رواية مصرع كليوباترة .

استمد شوقي موضوعات مسرحيته من التاريخ العربي القديم : « عنترة » ، و « مجنون ليلى » و « أميرة الاندلس » . ومن التاريخ المصري القديم : «قمبيز» و « كليوباترة » . ومن عصره الحاضر : « الست هدى » . ولكنه لم يحافظ على روح التاريخ في سبيل المحافظة على حبكة المسرحية . فأكثر من المفاجآت ، ولم يتوخّ الصدق في التحليلات النفسية ، ولكنه مع ذلك نجح في « مصرع كليوباتره » و « مجنون ليلى » كما نجح في تصوير اللون المحلي ، وإخضاع الشعر العربي للحوار ، وأكثر من تنويع القوافي والأوزان ، ولم يتقيد بالتقاليد الشعرية العربية ، وهو على كل حال أبو المسرح العربي الحديث.

مسرحية (مصرع كليوباترا)

تجري حوادث هذه الرواية في الاسكندرية وأرباضها حوالي سنة ٣٠ ق م وكان (انطونيوس) القائد الروماني ، قد عشق كليوباترا وتخلى في سبيل حبها عن روما . لكن روما حاربته بقيادة (اكتافيوس) وهزمته فانتحر هو وكليوباترا .

وتسير المسرحية هكذا : الفصل الأول : « الظافر الضعيف » .

المنظر الأول : (في مكتبة الملكة) تحاول كليوباترا أن تكذّب ما شاع بين الشعب من أن أسطولها عاد ظافراً من المعركة (معركة اكتيوم البحرية) التي دارت بين كليوباترا وانطونيوس من جهة ، واكتافيوس من جهة أخرى .

يا لإفك الرجال ماذا أذاعوا؟ كذبٌ ما رووا ، صُراحٌ لعمري

أي نصر لقيت حتى أقاموا ألسن الناس في مديحي وشكري؟

المنظر الثاني : « في إحدى غرف القصر » ، الملكة تعقد زواج (حابي) امين المكتبة و (هيلانة) وصيفتها بحضور الكاهن (أنوبيس) ويدخل أنطونيوس يحمل بشائر النصر فتقيم الملكة وليمة كبيرة .

الفصل الثاني : (في غرفة الولائم) يغار القواد الرومان من منظر العاشقين ، وأخيراً يستأذن القائد في الذهاب إلى القتال فتأذن له :

يا ليثُ سِرْ ، يا نسر طِر عد ظافراً أو لا تعد

الفصل الثالث : (معبد الأسكندرية) مصرع القائد ، فرّ أنطونيوس وعارُ الهزيمة يلاحقه، وينمى إليه ان كليوباترا انتحرت فيطعن نفسه بخنجر .

الفصل الرابع « غرفة العرش ، مصرع كليوباترا : تعلم كليوباترا بانتحار أنطونيوس فتنتحر هي ايضاً بلدغة حية كانت قد أعدتها بمساعدة الكاهن لمثل هذا اليوم ، ثم تنتحر وصيفتاها بنفس الطريقة (شرميون ، وهيلانة) ولكن هيلانة تعالج من السم فتنجو ، ثم يأتي اكتافيوس ومعه أولمبوس الطبيب ، فتلدغ الحية الطبيب فيموت ، ثم يودع اكتافيوس جثة كليوباترا ، ويبقى أنوبيس الكاهن يهدد روما والرومانيين :

قسماً ما فتحتمُ مصرَ لكنْ قد فتحتُمْ بهَا لرومَةَ قبرا

ومن يقرأ هذه المسرحية تنطبع في ذهنه صورة عن كليوباترا الجميلة التي تستغل مواهبها ، وذكاءها في شهواتها والاحتفاظ بسلطانها في نفس الوقت ، وهي ربة قصر عطوفة على خدمها ووصائفها وبارّة بكاهنها ، وهي شديدة الدهاء بعيدة النظر ، وهي أبية جريئة .

واقرأ أنت المسرحية وتبين انطباعاتك عن اكتافيوس ، أنطونيوس أنوبيس ، هيلانة ، شرميون ، أولمبوس ، أورروس .

ولكن الذي يوازن بين صورة كليوباترا كما أبرزها شوقي ، وصورتها التي تحدّث عنها التاريخ يلاحظ أن الشاعر حاول أن ينصف كليوباترا ، ويبديها في صورة الملكة المظلومة ، أما التاريخ فيحدث أن كليوباترا هربت من المعركة التي اشتركت فيها هي وأنطونيوس بمجرد أن لاحت بوادر الهزيمة فكأنها غررت بحبيبها الذي فر في إثرها . وهكذا .

ولكن المسرحية من الناحية الفنية موفقة ، فالمسرحية التي تجري حوادثها في هذه البيئة المصرية ، والتي تتجلى فيها عادات المصريين وبعض انظمتهم الحربية والسياسية والدينية ، وأخلاقهم وطباعهم ، تخلق لوناً محلياً أصيلاً ،

والشعر نفسه رائع من الناحية الفنية ، ومواقف المسرحية ومفاجآتها وترابطها وختامها .. كل ذلك جميل بلغ الغاية من الروعة والاتقان .

وإليك جزءاً من هذه المسرحية : من الفصل الثالث .

المنظر : معبد الاسكندرية . تظهر حجرة الكاهن الأكبر أنوبيس وعلى جدرانها رفوف نسّقت فيها قوارير وصرر وصناديق يشفّ بعضها عما فيه من حيّات وأفاعٍ .

(أنوبيس يناجي نفسه)

١ يقولون أنوبيسُ ... وَلوعٌ بأفــاعيهِ
٢ ومشغوفٌ بثعبانٍ ... من الوادي يُربّيــهِ
٣ وفي ناديه حيّات ... من الجن تناجيهِ
٤ ولو ذاقوا هوى العلم ... كما ذقت فَنُوا فيه
٥ ألا يا رُبَّ خداعٍ ... من الناسِ تلاقيه
٦ يعيب السم في الأفعى ... وكلّ السمِّ في فيه

(يخرج من الباب الخلفي) .

خارج الهيكل – تحت الشجرة – انطونيوس وأوروس) .

أنطونيوس :

١ أوروسُ إني جهدت مشياً ... ومسّني الضُّرُّ والكلالُ
٢ فمِلْ بنا نسترِحْ قليلاً ... من قبل أنْ يَدْهمَ الرجالُ

يجلس أنطونيوس منهوكا على حجر فتأخذه الذكرى :

١ أوروس ماذا دهاني حتى نسيت مكاني
٢ أتيت ما هدّ مجدي وحـــطّ رفعة شاني
٣ جلّلت نفسي بعارٍ يبقى بقاء الزمانِ

وهكذا تمضي المسرحية فاقرأها كلّـها تتمتع بها أيما متعة .

مسرحية (اميرة الاندلس)

هي المسرحية النثرية عند شوقي ، وهي قطعة من تاريخ الأندلس في زمن ملوك الطوائف ، ولدت حوادثها وتمت في اشبيلية عاصمة العباديين ، وانتهت في أغمات بمراكش .

وموضوعها: أن الأميرة «بثينة» بنت المعتمد بن عباد زارت قرطبة بثياب غلام ، فرأت فتى في السوق يشتري كتباً ، فحادثته وحادثها على أنها فتى مثله وافترقا وقلبها مشغول بهواه ، وخطبها وزير يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، فردت يده وبحثت عن فتاها حتى عرفتــــه ، وإذا هو جَسُّون بن ابي الحــن التاجر الاشبيلي ، فزارته في داره متنكرة بالزي الغلامي ، فرحب بها ، وأخذ يروي خبر مقتل أخيها الظافر بقرطبة – وهو لا يعرفهـــا – فاغمي عليها وانسدل شعرها فتبين حقيقتها وعشقها . ولمـا غزا ابن تاشفين الأندلس نفى المعتمد وأسرته إلى اغمات الا بثينة ، فقد سباها مغربي. فعرف أبو الحسن التاجر مقرها ، فاشتراها وأتى بها الى ابنه جسون ، فابت ان تتزوجه إلا برضا أبيها وأمها فسار بها الى اغمات حيث تم الزواج ، وسننقل لك جزءاً منها نــترك لك التعليق عليه .

المنظر الثالث – من الفصل الاول

الملك ـ المعتمد بن عباد – نشوان ومعه مضحكـُه « مِقْلاص » وهمـــا يجدّفان بزورق صغير على نهر الوادي الكبير ، وقد جرت بينهما مناقشة هاكَ تكملتها :

الملك : انظر وراءك ، يا مقلاص ، إني أرى قارباً يندفع نحونا مسرعاً ... كأنه مذعور .

مقلاص : هوذا قد دنا يا مولاي . فأحسنْ مسك الدفة واجتنب الصدمة ، وأنا اذوده عنا بمجدافي هذا ، وأضربُه ضربةً تقذُف به إلى الشاطىء الآخر في النهر .

الملك : إيّاك أن تفعل بل ائسره ، فلا بـــد لنا أن نؤدب هذا الشاب المغرور . إني أرى الملاّح فتى كريم الهيئة ، فهو ولا شك من أبناء أعيان إشبيلية .

وهنا يصطدم الزورقان ، ويُظهر مقلاص ارتباكاً وجبنا ، فيقبض الملك على الزورق المهاجم بقوته ويقول لمقلاص :

الملك : إقذف الآن به إن استطعت الى الشاطىء الآخر من عندك . ثم يلتفت الى الشاب الملاّح ، ويقول : مكانك أيها الملاح الوقاح ، ما هذه الجرأة على التيّـــار وعلى شبابك هذا الغض النّضير ؟ ومــا غرّكَ بالملك حتى قرّبتَ عودَك من عوده ، تريد ان تأخذ عليه الطريق ؟

الملاّح : مولاي ، إن الرعيَّة يهفون ، وإن الملوك يعفون ، وزورقي إنما اندفع بقوة التيّار القاهر ، فوافق مرور مركبك المحروس ، فكان ما كان مما أعتذر الى الملك منه .

الملك : (بصوت منخفض) ويح أذني ، ما تسمع ؟ هذا الصوت أعرفه . ثم يلتفت الى الملاّح قائلاً : قد عرّفناك أيُّها الفتىَ مَنْ نحن، فعرّفنا بنفسك .

(الملاح يرفع قناعه فاذا هو الأميرة بثينة) فيقول الملكُ : الأميرة !!

الأميرة : أجَلْ أيُّها الملك ، ابنتك وأمتك بثينة .

الملك : عجباً ، أأنت هنا بين الـعبَب والتيار ، وعلى هذا العود الذي يشفق

أبوك من رُكـُوبه ، وأبوك من تعلمين أشجع العرب قلباً .

الأميرة : ولِمَ لا تكون ابنــة الملك شجاعــة القلب مثله ، إن الأسد لا يلد إلا اللـَّباة .

الملك : (وقد هدأ غضبُه) ومن أين مجيئك الساعةَ يا بثينة ؟

الأميرة : من الموضع الذي أحبه ، كما أحببتُ الحجرة التي وُلدتُ فيهـا ومن ناحية السَّرحة التي أحِنُّ اليها ، كحنيني للمقاصير التي ضمَّتني طفلة ، ومن بُقـْعة مباركة ، وقفت السعادةُ بكَ في ظلها على أمي « الرميكية » فرأيتَـهـا فأحببتَـها أولَ وهلة ، ولم تكن إلا غسَّالة مغمورة فتزوجتَـها فرفعتهـا أعلى ذُرا الشرف ، ومن هذا الزواج الموفق السعيد وُلدتُ أنا ، لأب قصر الآباء عن برِّه ، وملكٍ جل عن النظراء والأمثال .

أليس ذلك المكانُ الذي هو مصدر حبكما الأول من حقـّه أن يُحَنَّ اليـه أحياناً ، بل من حقه أن يحجَّ اليه آناً فآناً ؟

الملك : (متأثراً) بنفسي وروحي أنت يا بثينة ! لقد عظـَّمتِ المهــد ، وقضيت الحق ، والآن ألا ترجعين الى القصر بسلام ، فــلا أحسب القصر إلا قائماً لغيبتك على ساق ، حتى لكـأني بأمكِ تسأل عن أمرك ويجدتك أشغل وأشدُّ قلقاً .

الأميرة : لقد كنتُ يا مولاي في طريقي الى القصر ، لولا هذا الاتفــاق السعيد ، الذي صَدم عودي بعودك. والآن اذا أمرت فإني أنطلق في سبيلي، وأستـَوْدِعُك الله يا مولاي .

الملك : اذهبي يا بنيتي في كلاءة الله ، وإياك والمجــازفة فيما تفعلـين ، فإن الحياة أعز وأنفسُ من ان تعرَّض للتهلكة ، وأنهاك عن الخروج بعد اليوم إلا مصحوبة بلؤلؤ أو جوهر ، فإنهما لا يألوانك خدمةً وحراسة .

الأميرة : لن يكون يا مولاي إلا ما أشرْتَ .

(تندفع بثينةُ بالزورق ، وتغادر الملك ، وقد أطرق مليـاً ، الى ان بدا لمقلاص ان ينبهه من هذه السِّنة).

الملك : كيف رأيت بثينة يا مقلاص ؟

مقلاص : تلك اللـَّباة من هذا الأسد يا مولاي .

الملك : ما كل جريء فطن ، ولا كل فطن جريء . وهـذه الفتاة جمعت الحجا والشجاعة . انها تعلم أني رجل رقيق القلب مجيب العاطفة ، وتعلم كذلك أن شيئاً من النفور قد دخلني نحو أمها منذ حين ، فـانظر كيف تحيَّلت حتى ذكـَّرتني العهد القديم ، فوالله ما انا الساعة بأقل حباً للرميكية ولا عطفاً عليها مني منذ عشرين سنة . جدِّف يا مقلاصُ جدِّف ، سبحـانك اللهمَّ جعلتَ الوَلدَ سفير المودة والرحمة بين الوالدين .

(يندفع الزورق) .

الملك : (يغني) الجوز واللوز .

مقلاص : (يجيب) : بوادي الجوز .

ستار

منتخبات اخرى من مجنون ليلى

تجري الرواية في بادية الحجاز ونجد، وعهد بني أمية ، وموضوعها حب قيس لليلى ابنة عمه، التي شبَّب بها ، ثم خطبها الى أبيها المهدي فأبى وزوَّجها وَرْداً الثَّقَفي . فجُن قيس ومرضت ليلى ثم مات كلاهما عشقاً .

واليك حواراً منها بــين قيس وليلى في الفصل الرابع ، حيث التقى قيس بزوجها وسمح له هذا بلقاء ليلى بعد أن أنشد :

قيس ، أرى الموقف لا يجمعنا   أنت حبيب القلب والزوج أنا
يا لكما مني ويـــا لي منكما   نحن الثلاثة ارتطمنا بالقضا

فإذا التقيا قالت ليلى بعد أن عاتبها قيس :

١ كلانا قيسُ مذبوحٌ   قتيل الأب والأمّ
٢ طعينـــان بسكين   من العـــادة والوهم
٣ لقد زوِّجت ممن لم   يكن ذوقي ولا طعمي
٤ ومن يكبر عن سني   ومن يصغر عن علمي
٥ غريب لا من الحيّ   ولا مـــن ولد العمّ

٦ فنحن اليوم في بيت		عــلى ضِدّين منضم
٧ هو السجن وقد لا يَنْـطَوِي السجن عــلى ظلم
٨ هو القبر حَوَى مَيْتَيْن		جارَين عــلى الرغم
٩ شتيتيْن وإن لم يَعُــدِ العظم مــن العظم
١٠ فإن القُرب بالروح		وليس القُرب بالجسم

وهي مسرحية من أروع مسرحيات شوقي التي أتحف بها أدب العصر الحديث.

الملحمة

تعريفها: هي شعر قصصي طويل يدور حول البطولات ، والاعمال المجيدة بـــأسلوب تحتشد فيه الخوارق ، وتنهض به الآمال الواسعة والتغني بالمنــاقب القومية أو العواطف الانسانية .

فالملحمة اذن شعر قصصي لا تمثيلي ولا غنـــائي ، وهي تتناول الوقــائع التاريخية أو الاسطورية الخطيرة ، وتعالج شئون أمة أو حضارةٍ ما ، لا شئون فرد واحد ، وإنما تثير مشاعر أمة بأجمعها .

أنواعها : اشتهر من الملحمة نوعان – والتنويع باعتبار طريقة ظهورهـــا لا بالنظر الى موضوعاتها أو اساليبها أو أهدافها ، وهما : الملحمة الطبيعية ، والملحمة المصطنعة .

أما الملحمة الطبيعية : فهي التي تظهر في صفوف الشعب ظهوراً تلقــائياً ، يتناول فرد منهم أو أكثر عملاً بطولياً فذاً، يتحدث به آخر فيضخّمه، وينتقل من لسان الى لسان حتى يصير ضخماً بارزاً تدور حواليه الابطال لتزيده بروزاً ، وتتزيّد فيه ... ثم يقوم شاعر موهوب ، يتناول مــا دار على الألسنة فيخرج عملاً جليلاً مربوط الأجزاء كثير المفاجآت ، ويسوق ذلك سياقاً فنيـــاً وفي وحدة فنية حافلة بالجمال والإبداع .

أما الملحمة المصطنعة : فهي التي ينشئها عبقري في أحد عصور الحضارة ، ويجعل لها موضوعاً يهم شعباً بأسره . ويمزج أحداثها المستوحاة من التاريخ

بالخوارق ، فيدخل فيها الآلهة او الملائكة او الجن أو ذلك كله ، ويصل بتصميمه للحوادث إلى حد المعجزات والمستحيلات .

ومن أشهر ملاحم النوع الأول إلياذة هوميروس ، وأوديسته

ومن أشهر ملاحم النوع الثاني إنيادة فرجيل ، وشاهنامة الفردوسي .

مظاهر ملحمية في الشعر العربي :

يقول الأب (أنستاس الكرملي) إن العرب القدامى عرفوا فن الملاحم . وأتى لهذا الزعم بأدلة لا مقنعة ولا موثوق بصحتها . ولعل الصحيح أن العرب لم يعرفوا الملحمة . وقد تتبع سليمان البستاني في مقدمة ترجمته لإلياذة هوميروس هذا البحث بكثير من الأستقصاء ، فارجع إليه إن شئت .

ولا يمكن أن نعد شعر المهلهل في حرب البسوس مثلاً وشعر عنترة أو غيرهما من شعر الملاحم لما عرفت من تعريف الملحمة سابقاً .

ولمحمود تيمور رأي آخر وهو : « أن الأدب العربي لم يخلُ من هذا النوع الذي نسميه الشعر الملحمي ، وإن كان الشبه غير قريب بينه وبين ملحمة اليونان ...)

والراجح لدينا أن العرب لم يكن عندهم الصبر على التتبع الطويل لحوادث متصلة في آلاف الأبيات ، بل كانوا أقرب إلى البديهة والارتجال والايجاز منهم الى الرويّة والتنظيم وخلق المفاجآت وغير ذلك مما يستلزمه نظم الملاحم . ثم انهم كانوا اكثر ميلاً إلى الذاتية ، والتحدث عن انفسهم ، والملحمة تستدعي الحديث عن بطولات الغير ، إلى غير ذلك من الأسباب . وقد يوجد في شعرهم لقطات متقطعة تشبه أجزاء الملاحم .

وارجع إلى الشعر الجاهلي والاسلامي وسترى لمحات ملحمية في شعر عمرو ابن كلثوم من معلقته التي كان قومه يرددونها ويحفظونها حتى قيل فيهم :

ألهى بني تغلبٍ عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم

ومطلع هذه المعلقة هو :

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وكذلك ستجد شيئاً من هذا في شعر غريمه الحارث بن حـــلزة اليشكري البكري في معلقته التي مطلعها :

آذنتنا ببَيْنها أسماءُ رُب ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواءُ

أما في العصر الحديث فقد حاول عدد من الشعراء ان ينظم الملاحم منهم :

بولس سلامة	صاحب ملحمة (عيد الغدير) ط بيروت سنة ١٩٤٨
شفيق معلوف	صاحب ملحمة (عبقر) ط البرازيل سنة ١٩٤٩
محمد محمد توفيق	صاحب المعلقة الاسلامية ط القاهرة سنة ١٩٥٥
عبد السلام هاشم حافظ	صاحب ملحمة راهب الفكر ط القاهرة سنة ١٩٥٥
عبد الوهاب الحناوي	صاحب ملحمة الثورة الكبرى ط القاهرة سنة ١٩٥٦
جميل صدقي الزهاوي	له مطولة باسم (ثورة في الجحيم)
عباس محمود العقاد	له مطولة باسم (ترجمة شيطان)
فوزي المعلوف	له مطولة باسم (على بساط الريح)

بحوث ومراجع في المسرحية والملحمة

البحث :

١ – لم يعرف العرب فن التمثيل إلا في العصر الحديث .

ما أسباب ذلك ؟

٢ – تتبّع نشأةَ المسرحيات وتطورها .

٣ – مـــا أبرز الأسباب التي حالت دون ظهور الملحمة في الأدب العربي القديم ؟

٤ – وإلى أي حد يصحّ اعتبار الخطرات الواردة في شعر عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة والمهلهل وعنترة ، ملحمة ؟

المراجع

١ - زكي طليمات : كيف دخل التمثيل بلاد الشرق؟ مجلة الكتاب، المجلد الأول سنة ١٩٤٦ .

٢ - زكي طليمات : نهضة التمثيل في الشرق العربي . مجلة الهلال، ابريل سنة ١٩٢٩ .

٣ - محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث . ط . القاهرة سنة ١٩٥٢ .

٤ - محمود تيمور : فن القصص - مصر سنة ١٩٤٨ م .

٥ - منير البعلبكي : المسرح العربي القديم وبذوره في الأدب العربي ، مجلة العروة الوثقى سنة ١٩٤٠ .

٦ - توفيق حبيب : تاريخ التمثيل العربي : مجلة الستار سنة ١٩٢٧ .

٧ - سليمان البستاني : مقدمة الإلياذة .

٨ - عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب : القاهرة سنة ١٩٥١، الأدب المسرحي ط . القاهرة سنة ١٩٥٨ .

٩ - زكي المحاسني : شعر الحرب في أدب العرب ـ القاهرة سنة ١٩٤٧ .

١٠ - مسرحيات شوقي .

١١ - من الأدب المقارن لنجيب العقيقي ط . القاهرة سنة ١٩٤٨ .

١٢ - عبدالرحمن صدقي - مقالات في الأدب المسرحي، نشرت في أعداد «المجلة» سنة ١٩٥٨ .

١٣ - شوقي شاعر العصر الحديث . للدكتور شوقي ضيف .

١٤ - أدوار حنين : (شوقي على المسرح) مجلة المشرق مجلد ٣٢ سنة ١٩٣٤ .

١٥ - توفيق الحكيم : مقدمة مسرحية الملك أوديب .

١٦ - الدكتور مندور : مقدمة محاضرات عن مسرحية شوقي سنة ١٩٥٥ .

١٧ - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ لجورجي زيدان .

ب - النثر

النثر في النهضة الحديثة

والاطوار التي مرّ بها

حينما اتصل الشرق بالغرب أخذ بعلوم الغرب وفنونه ، وكان لا بد لأداء هذه بالعربية من مراجعة معجمات اللغة وتقليب مجفوّاتها في الأساليب المختلفة توسّلا إلى هذه الغاية ، فكان من أثر ذلك أن استخرجت صيغ قديمة وطبعت صيغ جديدة ، وجعلت اللغة تتطور تطوراً سريعاً ، يشتد ويعنف باشتداد حركة الترجمة والتأليف . وأتاح تفتّح العيون على أسباب الحضارة الحديثة فرصة للكاتبين أن يتجهوا باهتمامهم إلى المعاني وعدم استهلاك جهدهم كله في الألفاظ – شأن اللغة والأدب في العصر التركي . ولكن لم يكن من الممكن أن يبدو هذا التطور فجأة ، بل لقد سلخ النثر دهراً يسير على نمطه التقليدي السابق مع ظهور محاولات التغيير ، وظل الأمر كذلك الى أن ظهرت طائفة المطلعين على الأدب الغربي ولغاته ، وإمعانهم في قراءته وتقليب الذهن فيه فكان لذلك في أقلام الكاتبين أثر بعيد ، فتغيرت طريقة الكتابة طوعاً لتغير طريقة التفكير ، فكان من خصائص النثر في هذه الفترة ، الانصراف الى جلاء المعاني ووضوحها لا إلى تحسين اللفظ وتبهيجه ، والتجرد من المبالغات الممقوتة والأخيلة السخيفة،

وسوق المقـــال في الغالب لأداء فكرة واحـــدة بدلا من تقصير الجمل ، وحبس كل جملة على أداء معنى واحد . واستُحدثت صيغ جديدة لأداء معان جديدة والتجوز بكثير من المفردات لإصابة ما لا تطوله بأصل الوضع اللغوي .

ولقد استحدث قيام الحرب العالمية الأولى وما وليهـا من الرّجات العنيفة — وخاصة في مصر — صيغا كثيرة جداً لا عهد للعربية بها من قبل ، بـل لقد دخلت ألفاظ واصطلاحات أجنبية كثيرة ، لغة الأدب كما هي أو بتحريف قليل . والمجامع العربية تعالج الآن هذه الحالة باستنباط مصطلحات عربيـة ، وألفاظ عربية تؤدي نفس المعاني بدلا من أدائها بالعبارة الأجنبية .

الاطوار التي مر بها النثر

من العرض السابق نرى أن النثر الحديث مر في أطوار ثلاثة حتى صار على الصورة التي نعرفها الآن :

١ — **طور التقليد** ، وكان همُّ الأدباء في هـذا الطور بعثَ اللغة والحفاظ على الأسلوب القديم ، فتوكأوا على الأساليب العباسية ، وتعشقوا الصيـاغة والصنعة ، فكانت الكتابة بوجه الإجمال ركيكة التعبير غامضة المعنى حافلةً بالإسفاف . وكان على رأس هـذا الطور الشيخ حسن العطار ، والشيخ ناصيف اليازجي .

٢ — **طور التجديد المحافظ** : وذلك حينما تمكن بعض الأدباء من الآداب الغربية ، فراحوا يتوخون في كتاباتهم التخلّص من بعض الآثار القديمة في النثر ولا سيما الصناعة المتكلفة . وكان حامل لواء هذا الطور جمال الدين الأفغاني ، وأحمد فارس الشدياق ، وتبعهم الناس فيه ، ولا سيما المصلحون من أمثال محمد عبده ، والصحفيون مثـل سليم البستاني وأديب إسحق ، وأصحاب المقتطف والهلال ، والمترجمون عن الأدب الغربي كنجيب الحداد ، وسليم النقاش . ومن

أبرز رجال هذا الطور المنفلوطي .

٣ – **طور التجديد المتطرف** : تطرف بعض أصحاب الطور الثـــاني في الأخذ بالآداب الاجنبية حتى حاول بعضهم الخروج التام على اساليب العرب ، فعل هذا كثير من الكتاب ولا سيما المهاجرون منهم ، وزعيمهم في هذا جبران خليل جبران . وقد نزعت هذه المدرسة نزعة التحرر من كل قيد، وراح كتّابها يعتمدون لوناً طريفاً في ترتيب الكلام وتبويبه ، ويتوخون الأساليب العالية ، والمعاني الدقيقة بعبارة سهلة خاليـــة من الزخرف ، تجري على الطبـــع ومقتضيات الحال . ودخلت اللغة – على أيديهم – صيغ وطرق جديدة لأداء معان جديدة . (راجع كتاب تاريخ آداب اللغة العربيـة لجورجي زيدان ج ٤)

أ - طور التقليد

١ - حسن العطار (٠٠٠٠ - ١٢٥٠ هـ - ١٨٣٤ م)

الشيخ حسن بن محمد العطار كاتب شاعر ولد بالقاهرة من أسرة مغربية ، كان ابوه عطاراً فعلق به لقبه . تلقى تعليمه بالأزهر ، وظهر نبوغه في الشعر والكتابة بالطابع الذي كان معروفاً عنها حينئذ ، وقد زار كثيراً من الاقطار العربية ، وتولى تحرير « الوقائع المصرية » الجريدة الرسمية للحكومة حينئذ ، ثم صار شيخاً للأزهر ، ولم يزل به حتى توفي سنة ١٢٥٠هـ .

جُمع أدبه النثري في كتاب «إنشاء العطار» وجلّه إخوانيات كالرسالة التي سنقتطف جزءاً منها . أما شعره فلم يجمع في ديوان خاص ، ولكنه متناثر في الكتب ، وان شئت فانظر نموذجاً له في كتاب المنتخب من ادب العرب ج ١ .

نموذج من نثره : كتب الى صديق له يهدي إليه سلامه ويصف خلقه وبيانه ، فقال :

أما بعد : فإن أحسن وشيٍ رَقّمَتَه[١] الاقلام ، وأبهى زهر تفتّحت عنه الأكام ، عاطرُ سلام يفوح بعبير المحبة نفحُه ، ويُشْرقُ في سماء الطروس صبحه .

---

١ - الوشي :النقش. الترقيم: الرسم والكتابة .

سلامٌ كزهرةِ الروضِ او نغمة الصبا
أو الراح تُجلى في يد الرَّشأ الأقنى[1]

سلام عاطر الأردان [2] ، تحمله الصبا على الرَّند والبان [3] ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذي هو عندي بمنزلة العين من الفؤاد صاحب الأخلاق الحميدة وحلية الزمان ، التي حلي بها .. الذي إذا أجرى أقلامه في ميدان الطروس ، أودع فيها من لآلىء البيان ما يفعل بالنفوس فعل حُمَيّا الكئوس ، من معانٍ حيرّت المعاني ، وفعلت بالألباب ما لا تفعل المثالث والمثاني :

يلهو بأطراف اليراع فلم يدع قولا يقال ولا بياناً يُدَّعى

التعليق: هذه الرسالة ملتزمة السجع مليئة بالمحسنات البديعية شأن الأسلوب الموروث عن العهد العثماني قبل العصر الحديث ، وهي نموذج للنثر في طوره الأول في العصر الحديث ، والفرق بينها وبين مثلها في العصر العثماني ، أن التكلف هنا أقل والمعنى ليس تافهاً والأسلوب ليس ركيكاً .

---

١ ـ الرشأ : ولدالظبية.المراد به هنا الساقي الرشيق.
٢ ـ الاردان جمع ردن وهو اصل الكم .
٣ ـ الرند والبان من اشجار البادية الطيبة الرائحة .

٢ – ابو عبدالله السليماني (١٢٨٥ هـ. – ١٣٤٤ هـ.)

ولد أبو عبدالله محمد بن محمد السليماني الحسني بفاس من أسرة مجيدة ، ولما نال قسطاً من التعليم في المنزل التحق بالقرويين وتخرج فيها ، وكان جريئاً ذا نفس حرة أبيّـــة ، فقام بحركة إصلاحية اجتماعية ، دعا فيها الناس الى التحرر من التقاليد البالية ، والعقائد الفاسدة ، والبدع الضالة . ودعـا الى إنشاء المدارس الحرة ، وبث في نفوس الشباب روح الحمية والوطنية ، ولم يزل دؤوباً على نجاح مسعاه في إصلاح البيئة وتخليصها مما لحق بهـــا من أدران حتى توفي بفاس سنة ١٣٤٤ هـ. وكانت له رحلة الى الشرق التقى فيها بالادب الجديد في مصر .

وهو شاعر وكاتب ، يختلف شعره ونثره قبل ان يرحل الى الشرق عنه بعد رحيله . فقد كان في الطور الاول يمثل الادب في العصر التركي بالشرق من حيث التزام أغراض الشعر القديمة وأساليبه ، ومن حيث الإكثار من البديع وتكلفه في نثره ، ثم لوحظ تغير كبير في إنتاجه بعد ان عاد من الشرق.فبدت فيه بوادر التطور الذي ظهر في مصر وغيرها من الأقطار الشامية . وحتى افكاره نفسها تغيّرت ايضاً ، فاهتم بشئون العالم الاسلامي والعالم العربي الذي يرى انه وطنه الاكبر .

وله عدة مؤلفات لا تزال مخطوطة . منها :

(رسالة في أصل البربر) و (تاريخ المغرب العربي) ومحاضرات في (فلسفة التاريخ والاجتماع) ، وديوان شعر ، وغير ذلك من مؤلفات أكثرها في التاريـخ والأدب .

ب - الطور المحافظ المجدد

١ - جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤- ١٣١٥هـ/١٨٣٩-١٨٩٨م)

ولد محمد بن صفتر المشهور بجمال الدين الأفغاني في أسعد أباد بأفغانستان من أسرة ينتهي نسبها إلى الحسين بن علي بن أبي طالب ، وتحول مع ذويه إلى كابل (عاصمة أفغانستان) وتلقى ثقافته الأولى في العربية والتاريخ والشريعة والفلسفة والرياضة والطب ، ثم شخص الى الهند ، واطلع على علوم الرياضة الحديثة فيها . ولما عاد الى بلده اتهم بالاشتراك في مؤامرة سياسية، فغادرها الى مصر والهند والآستانة وساح في بلاد الشرق والغرب ، وكان رسول الفكر والاصلاح الديني والاجتماعي أينما ذهب مما جلب له عداوة الحاكمين في كل مكان . ومع ذلك فقد استطاع أن يكوّن قادة الفكر والثورة ولا سيما في مصر سنة ١٨٧١ م من أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول وغيرهما . وقد نظم حلقة دروس لقراءة كتب في التوحيد والفلسفة ، وأصول الفقه وغيرهما . وكان لا يفتأ يبث في نفوس طلاّبه وجلاّسه روح الحرية السياسية ، ويدعو الى العمل على جمع كلمة المسلمين في أقطار العالم . وكان لسِناً فصيحاً ذكياً شديد الطبع . والى جانب تلك الدروس المنظمة كان يجلس بأحد المقاهي القريبة من حديقة الأزبكية (في قلب القاهرة) يلقي الدروس في حالة الأمة ، الأجتماعية والسياسية ، وفي حقوقها وواجباتها . وقد تخرج في هذه

المدرسة محمود سامي البارودي وأديب اسحق وغيرهما . أراد جمال الدين في مدرسته المنظمة - أن يعوّد طلبته البحث الحر والتفكير الشخصي ، وأراد في مدرسته العامة تربية الشعب تربية سياسية . وكانت دروسه أقوى أسباب الثورة العرابية ، فلما أخفقت رحل الى الهند وأوربا واستقر في باريس حيث لحق بـه تلميذه وصديقه محمد عبده ، فأصدرا معاً جريدة (العروة الوثقى) بالعربية والفرنسية . ولم يطل ظهورها وتقلبت عليه أحوال شتى . وانتهى به المطاف الى الآستانة مرة أخرى بجوار السلطان عبد الحميد الذي كان يجلّه ويهابه ، وبقي الى أن مات .

وكان جمال الدين يلفت أنظار تلاميذه الى الاهتمام بالمعاني ، وترك الزخارف اللفظية ، والتكاثر بالعبارات الجوفاء ، وَصرَفَهُمْ عن التمهيد بين يدي كل موضوع بتلك المقدمات الطويلة التي لا تدعو اليها حاجة .

وكان هو يتقن العربية والفارسية والتركية والفرنسية والانجليزية والروسية ، وكان واسع الاطلاع على العلوم القديمة والحديثة ، وكان الى جانب ذلك وطنياً حراً ، ومفكراً مجدداً منطلقاً في تفكيره ، فكان لهذا كله أثر في اسلوبه الذي طبع به تلاميذه .

ولم يخلّف من الآثار المكتوبة إلا كتاب (تاريخ الافغان) و (الرد على الدهرية) بالفارسية وقد نقله محمد عبده الى العربية .

نموذج : كتب الى عبدالله باشا فكري (العالم المصري منذ عصر محمد علي) يعتب عليه ما بلغه من سكوته على رجل تناوله بالذم في مجلس الخديو توفيق . منها :

مولاي : إن نسبتُك الى هوادة[1] في الحق ، وانت تقدست جبلتُك[2] ، فطرت عليه - وتخوض الغمرات[3] اليـه - فقد بعتُ يقيني بالشك . وإن

١ - الهوادة : اللين والابطاء . ٢ - جبلتك : طبيعتك . ٣ - الغمرات : الشدائد .

توهمت فيك حيَدانــاً [1] عن الرشد وجوراً عن القصد — وأنـا موقن أنـك لا زلت عـلى السداد ، غـير مُفْرطٍ ولا مُفرِّط — فقـد استبدلت حلمي بالجهل . ولو قلت : إنك من الذين تأخذهم في الحق لومةُ لائم وتصدّهم عن الصدق خشية ظالم .. وانت تصدع [2] به غير وانٍ ولا ضجر ، ولو ألـّب الباطل عليك الكوارث المردية ، وأجرى عليك الخطوب الموبقـة [3] لكذَّبتُ نفسي وكذّبني من يسمع مقالتي ..

التعليق : ترى ان الـكاتب يكثر من الجمل الاعتراضية في كلامه .

وهذا من خصائص أسلوبه الذي لم يرتفع كثيراً في اللغة العربية لتَمكّن العجمة منه ، كما نلاحظ ذلك في بعض عباراته ، ولكن الأهم من ذلك البعـد عن التزام السجع والتماس البديـع على عكس ما كان شائعاً في ذلك الحـين . وخاصية أخرى خالف فيها نثرُه النثر في ذلك العصر هي طـول الفقرات ، واتصال الفكرة .

٢ — محمد عبده (١٢٦٦ — ١٣٢٣هـ/١٨٤٩— ١٩٠٥م)

الشيخ محمد عبده بن حسن خيرالله ، ولد بمحلة نصر (من محافظة البحـيرة شمال القاهرة) وتعلم في الكتـّاب ثم بالجامع الأحمدي الأزهري بطنطـا ، ثم بالجامع الأزهر بالقاهرة ، وتخرج فيه . ولما هبط جمال الدين الافغاني مصر لزمه وكان ألمع تلاميذه . وقد اشتغل بالتدريس ثم التحرير في صحيفة الوقائـع ، وحبس في سجن القاهرة عند قيام الثورة العرابية ، ثم أبعد عن مصر فذهب إلى سوريا ، ثم إلى باريس ، حيث التقى بأستاذه ، ثم عاد الى بيروت فمصر قاضياً، ثم مستشاراً، ثم مفتياً للديار المصرية وعضواً في مجلس إدارة الأزهر . وكان الى جانب الفتيا يدرّس في الأزهر التفسير والبلاغة بأسلوب جديد ، ولم

١ — حيداناً : تحولاً . ٢ ـ تصدع : تجهر . ٣ ـ الموبقة : المهلكة .

يزل كاتباً مصلحاً حتى توفي سنة ١٩٠٥ م .

وقد ألف وهو في المنفى (رسالة التوحيد) أشهر كتبـــه، وشرح (نهج البلاغة) لعليّ بن أبي طالب ، وشرح (مقامات البديع ، وتفسير جزء عمّ) ورسالة (العلم والمدنية في الاسلام والنصرانية) .

وأسلوبه في الكتابة سلس قوي حافل بالمعاني ، بعيـــد عن السخف ، وقد كان أول أمره مسجوعاً ثم تحرر بعد احتكاكه بجمال الدين .

نموذج : هذا نموذج من كتابته في طوره الثاني ، من رسالة بعث بهـــا الى صديق له من السجن في نوفمبر سنة ١٨٨٢ هـ. « رأيت نفسي اليوم في مهمهٍ[1] لا يأتي البصر على أطرافه ، وليـلة داجية غطّـى فيهـا وجه السماء غمـام سوء ، فتكاثف ركاماً ركاماً[2] ، لا أرى انساناً ، ولا أسمع ناطقاً ولا أتوهم مجيبـاً ، أسمع ذئاباً تعوي ، وسباعاً تزأر وكلاباً تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان[3] عظيمان ، وقد خوِيَت بطون الكل وتحكّم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من الهالكين .

التعليق : هذا أسلوب قوي بليـغ ، لا يلتزم سجعاً ولا يحفل بزخرف، بيد أن الجمل فيه قصيرة ، تكاد تكون متساوية ، وهذا أثر من آثار الماضي، ولعله الماضي البعيد جداً ، فهو يشبه أسلوب الجاحظ كثيراً ، وعلى كل حال فهذه نقلة من الأديب الملتزم الصناعي الى شيء آخر ستتضح معالمه عندمـا نتوغل في العصر الحديث .

٣ – المنفلوطي (١٢٩٣ – ١٣٤٣ هـ. ١٨٧٦ – ١٩٢٤ م .)

ولد السيد مصطفى لطفي في منفلوط (من محافظة اسيوط في صعيد مصر)

---

١ – القفر الخالي من العلامات . ٢ـ ركاماً ركاماً : طبقات .

٣ – التنين : الثعبان العظيم .

من اسرة مجيدة عُرفت بالعلم ، وقد تعلم – أول حيـــاته – في الكتاب ، ثم أرسل إلى الأزهر، فحصّل بعض علومه. وكان في اثناء ذلك يقرأ ما تصِل اليه يـده من كتب الأدب ، ويخالط العلمـاء والأدباء والكتاب ، وحفظ دواوين الشعراء . وكان موهوباً فأخذ ينظم الشعر ويحاول كتابة الأدب ، حتى شغله ذلك عن دروسه ، إلا دروس الشيخ محمــد عبده ، وكان في اثناء ذلك يدبج المقالات في الصحف ، وينشر القصائد . ثم فصل من دراسته حينما حكم عليــه بالسجن بعد أن نسب اليه هجاء الخديوي بقصيدة نشرهــا في بعض الصحف الاسبوعية ، ثم عفي عنه . فلما صارت وزارة المعارف الى سعد زغـلول عيّنه محرراً عربياً لها . ثم انتقل الى وزارة الحقّانية في مثل هذا المنصب، وأخـيراً فصل. وبعد مدة عين سكرتيراً في البرلمان، ولم يلبث ان مات في العقد الخامس من عمره .

كان المنفلوطي ينشر في جريدة المؤيد (وطنية معارضة للأجانب وأذنابهم) سلسلة مقالات بعنوان (نظرات) جمعها فيما بعد في كتاب اشتهر بهذا الاسم في ثلاثة أجزاء ، وله أيضاً كتـــاب (العبرات) وهي مجموعة قصص موضوعـة ومقتبسة من الفرنسية ، تغلب عليها صبغة التشاؤم والحزن . وله مختـــارات بديعة من أشعار المتقدمين ومقالاتهم سماها (مختارات المنفلوطي). وكتب بقلمه مترجمات لروايات (في سبيل التاج) لفرنسوا كوبيه (مجـدولين – أو تحت ظلال الزيزفون) لألفونس كار، (الفضيلة – او بول وفرجيني) لبرناردان دي سان بيير ، الشاعر – (او سيرانو دي برجراك) لادمون روستان .

وكلها كما ترى لكتاب فرنسيين ، والعناوين من عنده ، كان بعض أصدقائه ممن يحسنون الفرنسية يترجمها له حرفياً ثم يصوغها هو بقلمه .

وقد تحرر المنفلوطي من التقاليد الكتابية الموروثة في الإنشاء والموضوعات المألوفة في الأدب ، واعتمد على أفـكار وعواطف مستمدة من حاجات المجتمع الذي يعيش فيه . وكان يهدف في كتاباته الى غاية اجتماعية ، غير حافــل

بالزخارف اللفظية فأهمل السجع وصاغ افكاره في لغة صافية . وينبغي قراءة كتبه للاستفادة منها ، والوقوف على ما فيها من أساليب مؤثرة يمكن ان تساعد على التذوق الأدبي .

نموذج : من رواية مجدولين (إنقاذ من الغرق) .

:.. وما زلنا كذلك حتى بلغنا شاطىء النهر ، فراعنا ان رأينا هنالك جمعاً عظيما من الناس ، يندفع فوق الشاطىء الآخر ، تدفّع الموج المتراكب ويشير الى الماء بأصابعه وينادي : الغريق الغريق : النجدة النجدة ، فالتفتنا حيث أشاروا ، فإذا رجل بين معترك الأمواج ، يصارع الموت والموت يصرعه ، ويغالب القضاءَ والقضاءُ يغلبه ، يطفو تارة فيمد يده إلى الناس فلا يجد يداً تحنّ اليه ، ويرسب أخرى حتى تنبسط فوقه صفحة النهر فتحسبه من الهالكين ...

٣ – أشهر الفنون المستحدثة

اتسعت أغراض النثر ، وكثرت فنونه في العصر الحديث ، فلم يدع شأناً من شئون الحياة الا تناوله ، وبتعقد الحياة الحديثة كثرت المشكلات، وتعددت النزعات ، وقد وسّع النثر كل هذه الشئون ، وتفرع وتنوع حسب ما يتناوله من موضوعات ، وما يناسب كل موضوع من منهج وأسلوب وقد ساعد على ذلك انتشار الصحافة والمجلات ، والمطبوعات وسنتحدث الآن عن :

ا – المقال الاجتماعي ، ب – المقال السياسي ، جـ – المقال الأدبي ، والمقال العلمي ، د – القصة .

أ – المقال الاجتماعي

دعا الى هذا النوع من النثر ما كان عليه الشرق من تأخر اقتصادي ومعنوي ، وخلقي ، مما تولد عنه شرور في المجتمع ومفاسد ، وبدع ، لا سيما بعد اختلاط الشرقيين بالغرب ، وانبهارهم بمدنية الغربيين ، ومجاراتهم في

التحلل من كثير من القيم التي كان يتقيد بها الشرق ، وخاصة فيما يمسّ المرأة والاخلاق والتقاليد ، ثم ما جرته الحروب من ويلات وما خلـّفته من آثار ، ثم مشاكل الاسرة ، ومشاكل العمال والطوائف المختلفة .

ويعتمد أسلوب النثر الاجتماعي على صحة العبارة ، وقصد المعنى ، وجلاء الفكرة ، ومن رجاله كل المصلحين الذين عرفهم الشرق في هذه الفترة ، وكانوا فصحاء وكتاباً مثل محمد عبده ، وقاسم امين ، وجبران خليل جبران ، والمنفلوطي ، وولي الدين يكن ، وغيرهم .

١ – ولي الدين يكن (١٢٩٠ – ١٣٤٠هـ/١٨٧٣–١٩٢١م)

الشاعر الناثر ولي الدين يكن ، كان جده ابن أخت محمد علي وأمه اميرة شركسية ، ولد في الآستانة ونشأ في القاهرة حيث التحق بمدرسة الأنجال (مدرسة الاسرة الخديوية) بعابدين، فتعلم العربية والتركية والفرنسية وشيئاً من الانكليزية ، ثم أقبل على الكتابة ونظم الشعر فلم يلبث أن ذاع صيته ، وكان يكتب ضد العثمانيين مناصراً للنزعة الانفصالية المصرية عن الخلافة العثمانية كما كان من انصار المرأة العربية في ندائها بالتحرر من الحجاب وسيطرة الرجل .

وهو أديب حر مخلص لقضية الادب والمجتمع ، ويعد بمجموع ادبه صوتاً للحرية والجرأة علا به منذ أواخر القرن الماضي حتى موته بحلوان سنة ١٩٢١ حيث دفن بالقاهرة .

له في النثر مقالات في نقد المجتمع والسياسة والاستبداد، وفي التصوير الفني لأروع الحوادث العاطفية والدامية التي شاهدها في عصره . وكتبه تضم شعراً أو نثراً . وهي (الصحائف السوداء) و (التجاريب) وكلاهما ظهر في الصحف قبل طبعه ، و (المعلوم والمجهول) في جزءين ، وهو كتاب تاريخي

توفر فيه على (وصف أخلاق الناس وعاداتهم وأحوالهم في قالب قصصي غالباً . وله ايضاً (خواطر نيازي) نقله عن التركية، و(دكران ورائف) وهما روايتان جمعنا في كتاب واحد ، وله ديوان شعر مطبوع .

نموذج من مجموعة مقالاته (الصحائف السود): حوار بين جماعة ولي الدين ، وفقيه تقدمي :

قلنا : هل حجاب المرأة واجب شرعاً ؟

قال : لا ، وأي شرع يكون شقاء على العباد ؟

قلنا : ولِمَ يتخرص بعض الناس بأن ذلك حرام ، وذاك واجب، ويقيمون القيامة علينا ، وعلى من يقولون بمثل قولك الآن ؟

قال : يفعلون ذلك تعصباً واستبداداً ، وهم يعلمون من الاشياء ما تعلمون ، وهم بعد هذا يُحِلّون ما يريدون ان يجعلوه حلاً ، أفلا ترون كيف ينظرون الى النساء يجررن أذيالهن ويتهالكن في مشياتهن ، وليس على وجوههن إلا براقع تشفّ عما تعلوه ، فهن حاسرات مقنعات ، ولكن لا يعارض ذلك معارض .

التعليق : ذلك هو التعصب الأعمى الذي يريد ان يبرزه الكاتب بهذا الحوار وتلك المحاجّة : يتكلم الناس باسم الدين ويختفون وراء قناع منه .

والأسلوب كما ترى هو الأسلوب السهل البسيط الذي تقرأه الآن في الصحف السيارة .

٣ – جبران خليل جبران (١٣٠١/١٣٥٠هـ. ١٨٨٣/١٩٣١م.)

ولد الكاتب المفكر الشاعر الرسام جبران خليل جبران في بشرّاي من أعمال لبنان ، ورحلت به أمه الى امريكا في الثانية عشرة من سنه ، ثم عاد الى لبنان يتلقى العلم في مدرسة الحكمة. وفي سنة ١٩٠٣ عاد الى أمريكا واستقر في

بوسطن ، ثم أبحـــر الى فرنسا بعد خمس سنوات يدرس الرسم وزار رومـــا وبروكسل ولندن وغيرها، وأقام في نيويورك منصرفاً الى الكتابة والرسم حتى نبـغ فيها ، وكان قد قرأ الانجليزية وأتقنها فأخرج أجمل وأعظم تآليفه فيها ، وقد ألف هو ومجموعة من رفاقه في نيويورك كميخائيل نعيمة ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب وغـيرهم (الرابطة القلمية) التي كانت بعيدة الاثر في حيـــاة المهاجرين العرب الى أمريكا ، ثم توفي بنيويورك ونقل جثمانه الى لبنان .

يمتاز جبران بخيـاله الخصيب ، وصوره العميقة ونثره الشعري . كان أول عهده ثائراً على ضعف الانسان وتقاليده وشرائعه ثم لم يلبث ان مال الى الصوفية الرقيقة ، فظهر في كتبه واعظاً مرشداً يبشر بالعطف والمحبة . وقـد رأى في المجتمع عيوباً وخرافات وتقاليد ضيقة ، وكان ينقم على الأغنيـــاء استئثارهم بالخير والنعيم والاستبداد . وأسلوبه لا يلـتزم فيه الرصانة، ولا ينحو منحى التعمق الهادىء وقد صبـغ أقواله بأصباغ زاهية من صنع الخيال والعاطفة . وترك من الآثار في العربية : الاجنحة المتكسرة –دمعة وابتسامة – الأرواح المتمردة – عرائس المروج – العواصف ، أما كتابه (النبي) فقد ألفه بالانجليزية كما ألف غيره بهذه اللغة .

نموذج : من كتابه (الأرواح المتمردة) خليل الكافر :

... فالتفتي أيتها الحرية وانظرينا في زوايا الأكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان ، تقرع أمامك الصدق ، وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهـــل والغباوة تطرح لديك القلوب ، وفي قراني المنازل المحجوبـة بضباب الجور ، والاستبداد ، تحن إليك الأرواح ، فانظري أيتها الحرية وارحمينا ...

التعليق : ها هي ذي ثورة صادرة عن قلب كبير يطلب الرحمة والعدل والحرية في أسلوب عاطفي حي مؤثر .

ب ــ المقال السياسي

دعا الى معالجة المقال السياسي ما كانت عليه البلاد من ظلم وجور من الأتراك ، وما كانت عليه من نظام الحكم المطلق والإقطاع ، ثم ما أثار الاستعمار في نفوس الأحرار من غيظ وحفيظة ، ثم ما كان من أثر ذلك من قيام الكتل والأحزاب السياسية ، وتصارُعها وتطاحنها على الحكم أو منهج محاربة الظلم والاستبداد والاستعمار ، فتناول هذا الفنّ الدفاعَ عن الشعوب المظلومة والتنديد بما عليه أبناؤها من جبن واستكانة، كما تناول الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى ، ثم محاربة الاستعمار وإثارة الحمية الوطنية في نفوس الشعوب المستعبَدة ، التي غُلبت على أمرها ، وقادها رؤساؤها وزعماؤها الى الهاوية .

ويمتاز أسلوب هذا النوع من النثر بالسهولة والإيضاح والتصوير وإثارة العواطف ، والتكرار التأكيدي ، والغمز والتجريح ، وأحياناً المغالطة والمبالغة .

ومن كتّاب هذا النوع : طه حسين ، وفكري أباظة ، والمازني ، ومحمد حسين هيكل وغيرهم ، وسنترجم لفكري أباظة والمازني المقررين في المنهج :

١ – المازني (١٨٩٠ – ١٩٤٩ م)

ولد ابراهيم عبد القادر المازني بالقاهرة ، وتلقى علومه الثانوية بها ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا بعد محاولات له في الطب والحقوق كانت فاشلة .وتخرج في

مدرسة المعلمين العليا ، واشتغل بالتدريس ، ثم انقطع للصحافة ، واشترك مع العقاد في بواكيره الادبية ، ومنها نقد لطائفة من أدباء الطليعة وشعرائها كشوقي وحافظ والمنفلوطي . وقد كان لهذه الأبحاث النقدية أثر كبير في تنبيه الرأي العام الى البحث والدرس في فهم الأدب المعاصر .

وكان لأدبه في الصحف والمجلات قبول وفيه فكاهة ، وله جاذبية كبيرة . كان يتناول نقائص المجتمع بالنقد ، فإذا أورد مثلاً جعل نفسه ذلـــك المثل فأفاد ولم يجرح . ويمتاز أسلوبه بالبساطة مع توخي الدقة والإحـكام في تصوير المعنى وحبكه . وكان يتحرى في كتابته أن يستخدم التعبيرات العربية التي ذاع استعمالها في لغة الكلام مما يدل على ثقافة واسعة ، ورد هذه الكلمات إلى أصلها في الوقت الذي كان يظن فيه الناس أنهـــا عامية . ومن آثار المازني رواياته (ابراهيم الكاتب) ، (ابراهيم الثاني) وكثير غيرهما .

وله أيضاً مجموعـــة مقالات و (صندوق الدنيـــا) و (حصاد الهشيم) و (قبض الريح) و (خيوط العنكبوت) وله (رحلة الحجاز) وله دراسات أدبية للشعر والفنون كانت فتحاً جديداً في أدب العصر .

وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م .

وقد اتصل المازني – بطبيعة اشتغاله بالصحافة – برجـــال الأحزاب السياسية التي تكونت بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، ولكنها لم تُدَنِّسْهُ، بل ظل مستقلاً برأيه ، مؤمناً بأفكاره .

وإليـــك نصاً قصيراً تحت عنوان (القومية العربية) كتبه سنة ١٩٣٥ داعياً إلى قيام جامعة عربية ، قبل بروز فكرتها لدى السياسيين بسنين طويلة :

لقد أحطنا قوميتنا بمثل سور العين ، ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهماً لاسند له من حقائق الحيـــاة والتاريخ لوجب أن نخلقها خلقاً ، فما للأمم الصغيرة أمل في حياة مأمونة... وإن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع

أن تثب عليهم وتأكلهم أكلا بلحمهم وعظمهم ، ولكن مليون فلسطين إذا أضيف إليه مليونا الشام وملايين مصر والعراق وغيرهما يصبحون شيئاً له بأس يتقى » .

٢ – فكري اباظة

ولد فكري أباظة في قرية الأباظية من محافظة الشرقية (شمال القاهرة)، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي والعالي حتى تخرج في كلية الحقوق بالجامعة المصرية ، ثم اشتغل بالصحافة وفيها اشتهر وبها عرف . وقد أصبح من أساطين الصحافة العربية ومن عمد دار الهلال ، أكبر وأعرق دار صحفية في القاهرة بل في الشرق العربي كله . وصال وجال في مجلة الهلال وفي مجلة المصور التي كان رئيس تحريرها ، وهو الآن رئيس تحريرها مع علي أمين بعد أن كان قد أقصي عنها مدة لظروف خاصة .

ولم يقتصر نشاط فكري أباظة على الصحافة والمحاماة ، فهو محاضر من الدرجة الأولى ، وله أحاديث إذاعية اجتماعية فكهة خفيفة يلقى بعضها باللغة العامية . وهو من رجال النوادي ، والصالونات والعلاقات المتعددة مع رجال الأدب والعلم والصحافة والسينما والمسرح ، ورجال الاقتصاد والسياسة وغيرهم .

وهو ممن عرفتهم منابر السياسة في مجلس النواب ، ومجلس الأمة لساناً مقولاً جريئاً ، ومنافحاً وطنياً قوي المراس ، مشاركاً في أهم لجانها وقد كان من سياسيي الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل واستمر بعده يؤدي رسالته .

وفكري أباظة ممن أضربوا عن الزواج حتى فاتهم القطار ، فندموا . ولا يزال يتابع نشاطه الصحفي على أوفر ما يكون النشاط .

ولفكري أباظة أسلوب في الصحافة ، يكاد يعرفه الناس دون أن يذيل المقال باسمه ، فهو في هذا أشبه بطه حسين ، تعرف كلا منهما بمجرد أن تقرأ أسلوبهما .

وهو إذا كتب في السياسة كان مستقرئاً ثم متنبئاً فلا يقصّر في الاستقراء ، ولا يخيب في التنبؤ ، مطلع واسع الاطلاع على أسرارها واتجاهاتها ، وإذا كتب في الاجتماعيات فهو المصلح الجريء ، والطبيب البارع الذي يـكاد يلمس الداء بيده .

وإليك مقتطفات من مقال له في المصور بعنوان (عيد يبتسم) :

عيد يبتسم :

نعم يقبل العيد السعيد هـــذه المرة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ترمز الى التفاؤل والى الأمل والى النصر ...

ولسان حال العيد يقول للجمهورية العربية المتحدة : هنيئاً لك : هنيئاً لك هذه الخطوات الواسعة في إنشاء أضخم وأعتى صرح يتدفق منه الخير ، وتندفع منه الثروة وهو (السد العالي). والعيد يبتسم لليمن ويقول :

هنيئاً لك الثورة اليمنية المباركة انتصارها واستقرارها بعد فواجع ومآسي وثورات القرون المظلمة ؛ قرون الظلم والمرض والجهل والحرمان ...

والعيد المبتسم يقول للجزائر :

مرحى مرحى وأهلاً أهلاً (بالشعب الجزائري) الذي ضرب في التاريخ الحديث أروع الأمثال في تاريخ الجهـــاد والكفـاح والصمود والتضحية . ثم النصر .

والعيد يبتسم ابتسامة عـــريضة .. عريضة (للثورة العراقية) ثورة ١٤ رمضان – ويقول لها : الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ! لقد سحقت الدكتاتورية

الغاشمة بسرعة البرق ، لقد مسحت (وصمة التاريخ) التعس المجنون .

والعيد بجانب ابتسامته العريضة لهذه الانتصارات يبارك (مؤتمر وزراء خارجية تونس والجزائر والمغرب) بعد أن نجح في إزالة ما بين تونس والجزائر من خلاف ، ثم يبارك محاولة (الوحدة) بين هـــذه الدول العربية الصميمة ، على أن تكون مقدمة (للوحدة العربية) الشاملة التي ينشدها الجميع .

جـ – المقال الأدبي والعلمي

السبب الذي دعا الى ظهور المقالة العلمية والأدبية في هذا العصر ، هـــو إنشاء الصحف والمجلات ، إذ لم يكن الغرض منها إخبارياً فقط ، ولكنهـــا وسيلة الى معالجة الحالات السياسية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية وغيرها .

ويختلف أسلوب المقال الأدبي عن أسلوب المقال العلمي من وجـــوه كثيرة أهمها توخي جمال الأسلوب قصد التأثـير العاطفي في الأول ، وتوخي الوضوح والمنطق قصد الاقناع والبيـان في الثاني .

ويعالج المقال الأدبي مختلف شئون الحيـــاة والأدب، والنقد ويعالج المقال العلمي مختلف شئون العلم ، يشرح قواعدها ويفصل غوامضها ويجلو عُقدها .

ومن أشهر كتاب المقال الأدبي طه حسين والعقاد والزيات ...

ومن كتاب المقال العلمي أحمد زكي وأحمد أمين ...

١ – طه حسين

ولد عميد الأدب العربي طه حسين بالمنيا (إحـدى محافظات صعيد مصر سنة ١٨٨٩ ، وفقد حاسة البصر في حداثة سنه ، وتعلم في كتّـاب القرية ، ثم أرسل إلى الأزهر بالقاهرة ، فدرس به ولكن لم ينل إجازته لأنه كان مغضوباً عليه ، ثم التحق بالجامعة المصرية أول إنشائها فتلقى فيهـــا دروس الأدب والنقد ، والفلسفة والاجتماع ، واندمج في مجتمع النشاط الثقافي والصحفي منذ

يقظة النهضة المصرية ، وقد نال شهادة الدكتوراه من جامعة السربون بفرنسا برسالة عن ابن خلدون ، وقــدم الى الجامعة المصرية رسالة في « ذكرى أبي العلاء » فنال لقب الدكتوراه منهـا أيضاً . واشتغل أستاذاً في كلية الآداب ثم نُحّي عنها بسبب جرأتـه في آرائه التي نشرها في كتابه «في الأدب الجاهلي» ثم عاد إليها . وقد ذاع صيته في الشرق والغرب لإنتاجــه الأدبي الكثير ، ومشاركته الواسعة في نشاط الصحافــة وفي القصة والنقد والأدب والاجتماع والسياسة والمحاضرة والمناظرة ، وهو الآن عضو بالمجمع اللغوي بالقاهرة ومن أركان المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون .

وقد عرف أسلوب طه حسين حتى أصبح صاحب مدرسة لها تلاميذهـا ومقلدوها ، وتعتمد طريقته على توخي السهولة ، والإدراك العميق ، وتكرار بعض الألفاظ .

ومن اهم آثاره – غير « في الأدب الجاهلي » – ، الأيام، في ثلاثـة أجزاء ، وحديث الأربعاء ، في ثلاثة أجزاء ، وعثمان والفتنة الكبرى، وقادة الفكر ، وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية، وعلى هامش السيرة ، ومرآة الاسلام ، وشوقي وحافظ ، ومقالات ومحاضرات لا تعد ولا تحصى .

نموذج : من مقال له في الدفاع عن اللغة العربية ، قال بعد ان ذكر تفوقها على اللغات الأخرى :

« ... ثم لم تكتف اللغة العربية بذلك، وإنما أثبتت أنها لغة لا تكتفي بأن تتسلط وتقهر، ولكنها لغة طامعة حريصة على أن تسيغ وتهضم كل ما تستطيع أن تلقاه أمامها من أنواع البحث والعلم والحضارة على اختلاف فروعها ، فكل ما كتبه اليونان وأكثر ما كتبه الرومان ، كل هذه الحضارات ، وكل هــذه الثقافات أساغتها اللغة العربية ، وحولتها الى ثقافة واحدة، وحضارة واحدة، هي الثقافة العربية والحضارة العربية . »

٢ – الزيات

ولد أحمد حسن الزيات بإحدى قرى المنصورة ، شمال القاهرة سنة ١٨٨٦ وتعلم في الكتاب ، ثم انتسب الى الأزهر بالقاهرة فكان هو وطه حسين زميلين ، حتى إنه لما فصل طه حسين في بعض الظروف من الأزهر فصل معه الزيات ، ولما عاد عادا معاً ، وانتسبا الى الجامعة المصرية معاً ايضاً ، وإن كانت ظروف الزيات قعدت به عن اكمال تعليمه فاشتغل بالتدريس، ثم أكمل دراسته فيما بعد بمدرسة الحقوق الفرنسية فدرس بها سنتين سافر بعدها الى فرنسا ، ونال إجازة الحقوق من جامعة باريس .

وأهم عمل أدبي قام به الزيات هو إصداره مجلة (الرسالة) التي كان لها شأن كبير في النهضة الأدبية الحديثة .

وكانت معرضاً لكبار الأدباء يصولون فيها ويجولون بالممتع الرفيع من الأدب والفن والعلم ، وقد أتى عليها زمن كان الناس يتلقفونها فيه وقت ظهورها في جميع أقطار العالم العربي . ثم احتجبت عن الظهور منذ بضع سنين حينما طغت عليها المجلات المصورة التي استهوت أفئدة الناس .

ويعمل الزيات الآن في النشاط العلمي والأدبي الممثل في المجالس والمجامع العلمية والأدبية التي ترعاها الحكومة ، ولا يزال جم النشاط .

ويمتاز أسلوب الزيات بالعناية الشديدة بصياغة الأسلوب والارتفاع به عن مستوى فهم الرجل العادي ، وهو كثير العناية بحسن الوقع وجمال الجرس .

وله مؤلفات كثيرة منها : « تاريخ الأدب العربي » ، « في أصول الأدب» ، « دفاع عن البلاغة » وترجم « آلام فرتر » لجوته ، و « رفائيل » للامارتين: وقد جمع مقالاته التي كان يفتتح بها أعداد الرسالة في كتاب ذي أربع مجلدات سماه « وحي الرسالة » .

نموذج : من مقال له بعنوان « الفردية علتنا الاصلية » :

« من الصفات التي يقوم عليها المجتمع المتماسك الراقي ، أن يكون لأفراده وعي مشترك ، وأهداف مشتركة ، ونظام مشترك ، وأن تشيع بينهم مبادىء الاتحاد والتعاون .. والمجتمع المنحل الضعيف المتهالك هو الذي يكون افراده، رجالاً أو نساء – أثرين أنانيين كالأطفال فيما قبل سن الخامسة ، يتمركز كل واحد منهم حول ذاته ، ويدور في فلكها ، ويهتم بها وحدها ، ولا ينصرف عنها ولا نفكر فيها ، لا شأن له بالآخرين إلا فيما يعود على نفسه بالخير والمنفعة ، وقد شاعت هذه الصفات ، صفات الطفولة الصغيرة بين الامم العربية الى عهد قريب ، فأدت الى تأخرها وعجزها عن اللحاق بالأمم الغربية ، وعن الوقوف أمامها موقف الند ، وترتب على ذلك تعرضها للاحتلال والاستعمار ، وما ينشره الاحتلال من الفقر والمرض والفساد . »

٣ – العقاد

الشاعر الكاتب الأديب الفذ والناقد المثقف ، والمفكر الفيلسوف الذي يعد بحق من عظماء المفكرين والمطلعين والكتاب العرب ، ومفخرة هذا الجيل الذي نعيشه العملاق الكبير عباس محمود العقاد ، ولد في أسوان في أقصى صعيد مصر سنة ١٨٨٨ ، ولما نال الشهادة الابتدائية تطلع الى الآفاق الجديدة في القاهرة فتمرس بدراسة الآداب واشتغل بالتدريس حيناً مع صديقه ابراهيم المازني ، ثم اشتغل بالصحافة والتأليف مشتركاً مع المازني ومستقلاً . ويمتاز العقاد بغزارة الانتاج في الدراسات الأدبية والنقدية والتراجم. وهو كاتب دسم عميق التفكير ، دقيق التعبير أصيل الرأي حر متمرد على الطغيان وقد جر عليه قلمه السجن في عهد النظام الملكي بمصر . وفي سجنه كتب كتابه القيم (ابن الرومي من شعره) وقد كان العقاد معجباً بسعد زغلول ، وله عنه كتاب ضخم هو سجل جهاد ذلك الزعيم ، وسجل فترة من حياة مصر في عهده . وللعقاد كتب كثيرة عدا ذلك من أشهرها العبقريات ، وساعات بين الكتب ، وقصة (سارة) وعدة تراجم وأبحاث ودواوين شعر ،ولا تقل كتبه عن السبعين كتاباً كلها ذخائر ثمينة .

وقد شغل العقاد عدة مناصب ، فكان عضواً في مجلس الشيوخ قبل الثورة وعضواً في المجمع اللغوي كـذلك ، ولا يزال ، ثم هو الآن عضو في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وهو كفكري أباظة ممن أضربوا عن الزواج.

وإليك نموذجاً من ترجمته للفيلسوف الألماني جوته وتحليله لعبقريته :

« ... واذا كان بعض الكتاب يمشي إلى غرضه كما يمشي البهلوان على الحبل أو كما يمشي اللاعب على يديه ، أو كما يمشي الراقص المترنح أو كما يمشي الكاهن الوقور لا ينظر إلى يمنة ولا إلى يسرة فجوته ليس يعرف هـذا المشي ، وليس يركب إلى غرضه حبلاً ، ولا يترنح ولا يتكلف ، بل يخيل إليك أحياناً من قلة النصَب في حركته أنه يمشي إلى غير غرض كما يمشي المتريض في ساعة فراغه فإذا أفضيت منه إلى غايته، فقد تتعب وقد تنكر المسعى ، ولكنـك تشعر أنك كنت تمشي مع دليل امين ولم تكن تتبختر مع رقاص أو تقفز مع بهلوان. وكلمة واحدة مع هذا — تسمعها من جوته تنبئك أنه قد وصل إلى مـدى لا يصل إليه الكثيرون ، ولا يلزم أن تكون هذه الكلمـة رنانة ولا موشاة ولا صاخبة ولا أنيقة ، فقد تنبئك نبأها الصحيح ، ولاحظ لها من رنين أو وشي أو صخب أو أناقة » .

٤ — ميخائيل نعيمة

ولد الشاعر الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة في إحدى القرى اللبنانية القائمة على هضاب جبل صنين سنـة ١٨٨٩ ، وتعـلم في مدرسة القريـة ، ثم مدرسة ابتدائية أنشأتها الجمعية الروسية الإمبراطورية في قريتـه (بسكنتا) ولما نجح فيها بتفوق أرسل في بعثة إلى دار المعلمين الروسية سنـة ١٩٠٢ ، في مدينة الناصرة بفلسطين ، ثم اوفدته الجمعية سنة ١٩٠٦ إلى اوكرانيـا سنة ١٩١١ فمكث هنـاك ، واكب على الأدب الروسي الإنساني ، وعلى روائع الآداب العالمية ، فتفتحت له آفاق زاخرة بالفكر والشعور . وقرض الشعر

بالروسية ، ثم عاد إلى لبنان ، وفي سنة ١٩١٢ التحق بجامعة ولاية واشنطون في امريكا ونال منها بكالوريوس علوم وليسانس حقوق ، وعمل هناك في الصحافة ، فنشرت له الصحف العربية نقداً وادباً ، وكون مع إيليا ابي ماضي وجبران خليل جبران ورشيد ايوب وغيرهم من الأدباء « الرابطة العلمية » واشترك في الحرب العالمية الاولى مع الجيوش الامريكية ، وأرسل بعد انتهاء الحرب للدراسة في جامعة (رين) في شمال فرنسا ثم عاد الى الولايات المتحدة فلبنان حيث لا يزال فيه الان .

ويمتاز ميخائيل نعيمة بكثرة الإنتاج في كل مكان ذهب إليه او عاش فيه . وقد طبعت كتبه في مصر ، وفي بيروت ، وفي نيويورك ، ومنها : همس الجفون، كان ما كان، الغربال، جبران خليل جبران، زاد المعاد، في مهب الريح، أبعد من موسكو وواشنطون ، النور والديجور ... الخ ...

وقد عالج جميع أنواع الأدب : القصيدة ، والقصة والمسرحية والسيرة والمقالة والخطبة ، فأجاد فيها جميعاً بأسلوب شيق مبين موجز في أغلب الأحيان ، وقد طبع أدبه بطابع شخصيته الفنية المتفردة المثقفة الواسعة الاطلاع .

وإليك مقتطفات من مقالة له بعنوان : غداً تنتهي الحرب .. « غداً تنتهي الحرب، فلا مدفع يقذف الدمار ولا دبَّابة تنشر البوار، ولا طيارة تمطر الفناء ، ولا غواصة تزرع الأعماق ركاماً وعظاماً .

وتنكمش الأرض هنيهة على ذاتها فتناديها الشمس من فوق :

السلام يا بنيتي ، ماذا عندك اليوم ؟ فتجيبها الأرض :

(كل شيء ما عدا السلام يا أماه) وتمضي تنهب الأبعاد، وتلفّ الأزمان ، وكأن شيئاً مما كان لم يكن، فلا معالم امحّت آثارها ولا مدن دكت الى الحضيض، ولا ممالك تقطعت أوصالها ، ولا عروش ثلّت ، وتيجان تدحرجت عن رؤوس ، ورؤوس تطايرت عن أجساد ، وأجساد تفسخت أعضاؤها ،

فتناتشتها الكواسر والضواري ، وتقاسمتها الأوحال والأدغال ، والفلوات والمستنقعات ... »

٥ – أحمد أمين (١٨٨٦ – ١٩٥٤)

ولد الكاتب المؤلف العالم الجليل أحمد أمين بالقاهرة ، والتحق بالأزهر بعد المدرسة الابتدائية ، ثم بمدرسة القضاء الشرعي ، فنال شهادة العالمية سنة ١٩١١ ، وأصبح قاضياً ثم مدرساً بمدرسة القضاء الشرعي التي تخرج فيها، ثم عين مدرساً فأستاذاً بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، ثم عميداً لها ، ثم مستشاراً للثقافة فمستشاراً لوزارة التربية والتعليم ، فلما انتهت خدمته بالحكومة ببلوغه سن المعاش في سنة ١٩٤٦ . عُيّن مديراً للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، وأقعده المرض في نهاية عمره عن عمله هذا فأعفي منه ، ثم توفي سنة ١٩٥٤ بالقاهرة .

كان أحمد أمين غزير الانتاج حر الرأي دؤوباً على التأليف ، وكان أحد قادة الفكر العربي في العصر الحديث ، ومن أكبر الداعين الى التجدد في الأدب واللغة ونبذ القديم ، والأخذ بأسباب الإصلاح الحديثة ، كتب في التاريخ والفلسفة والأدب بأسلوب يجمع بين الوضوح والسلاسة ، ومن أهم مؤلفاته : سلسلة فجر الإسلام ، وضحى الاسلام ، جزءان ، وظهر الاسلام ، ٣ أجزاء ، و « قصة الفلسفة الحديثة » و « قصة الأدب في العالم » و « إلى ولدي » و « حياتي » و « فيض الخاطر » ستة أجزاء ، واشترك في إحياء كتب قديمة ، وفي ترجمة الآثار الغربية ، وأصدر مجلة « الثقافة » ؛ وكتبه معروفة بجدة البحث والثقة ، والأسلوب الجامعي في التحقيق والتقصي .

واليك مقالة له بعنوان :

صديق خجول

لي صديق خجول ، اصطلحت عليه الأضداد ، وائتلفت فيه المتناقضات

سواء في ذلك خَلقه وخُلقه وعلمه . حييٌّ ، خجل ، يغشى المجلس فيتعثر في مشيته ، ويضطرب في حركته ، ويصادف أول مقعد ، فيرمي نفسه فيه ، ويجلس ، وقد لف الحياء رأسه ، وغضّ الخجل طرفه ، وتُقدّم له القهوة فترتعش يده ، وترتجف أعصابه ، وقد يداري ذلك ، فيتظاهر أنْ ليس له فيها رغبة ، ولا به إليها حاجة ، وقد يُشعل لفافته فيحمله خجله أن ينفضها كل حين ، وهي لا تحترق بهذا القدر كل حين !!

وقد يهرب من هذا كله ، فيتحدث الى جليسه ، لينسى نفسه وخجله ، ولكن سرعان ما تعاوده الفكرة ، فيعاود الهرب ، وهكذا دواليك ، حتى يحين موعد الانصراف ، فيخرج كما دخل ، ويتنفس الصعداء ، حامداً الله على أنه لم يخر صريعاً ، ولم يدركه حَيْنُه كرباً وقلقاً !!

٦ – احمد زكي

العالم الكاتب الأديب الدكتور أحمد زكي الذي ألبس العلم حلة قشيبة من الجمال بطريقة فذة وأسلوب عجيب ، هو الآن رئيس تحرير مجلة العربي التي تصدر في الكويت . وكان قبل ذلك رئيساً لتحرير مجلة الهلال بالقاهرة ، كما كان أستاذاً للكيمياء في الجامعة المصرية فعميداً لكلية العلوم فمديراً للجامعة .

وكان رئيس (مجلس البحوث العلمية) بمصر ، وكان في جميع مواقفه رجل العلم والمعرفة ، الذي يتخذ كلامه حجة موثوقاً بها .

له غير مقالاته التي لا تحصى كثرة ، والتي نقل فيها كثيراً من حقائق العلوم إلى اذهان متوسطي الثقافة من الناس ، بل إلى غير المختصين جميعاً في هذه العلوم – له غير ذلك مؤلفات منها « قصة المكروب وكيف كشفه رجاله » و « مع الله في السماء » .

ومن مقالاته العلمية ما ننقل لك جزءاً منه تحت عنوان (المجرة) :

« إنك إذا نظرت الى السماء في ليلة ظلماء ، لا قمر فيها ولا نور يصلك من الأرض إلا الضعيف الذي لا يمكن حبسه ، رأيت شيئاً في السماء عجباً ، انها السماء السوداء ، زينتها تلك النجوم البيضاء . وتمسح السماء بعينك ، فتجد نجوماً هنا ونجوماً هناك ولكن ليس كنجوم توشحت بها السماء ، كما يتوشح القاضي على منصة القضاء بشريطه الأخضر أو الأحمر ، إنها منطقة طويلة تمتد فوق رؤوسنا كالقوس ، يَشْبُر السماء شبراً ، ويعبرها عبراً ، ويمتد من أفق إلى أفق ، وقد تركزت فيها النجوم اكثر تركز ، وتكثفت فيها بعضها فوق بعض اكبر تكثف ، أو هي كالطريق في السماء ، ازدحم بسالكيه ازدحاماً ، وما سالكوه إلا النجوم . »

ثم يمضي في المقال فلا ينتهي منه حتى يكون قد بين لك بصورة واضحة مبسطة الحقيقة العلمية للمجرّة ... إلى أن يقول : « ولكن أين نحن – أهل الأرض – من هذه المجرّة ؟ اننا فيها ، وفيها شمسنا والكواكب » .

القصة الحديثة

التعريف بها : معنى القصة الخبر المرويّ ، ثم صارت بمعنى الخبر المكتوب ثم دلت على حوادث متصلة ترجع الى شخص أو أشخاص يـــدور ما فيها من الحديث عليهم .

والقصة انواع كثيرة : فهي بالنظر الى مصدرها إما تاريخية واما خيالية ، وبالنظر إلى غايتها إما تعليمية أو تفكيهية ،وبالنظر إلى موضوعها اما بطولية أو غرامية أو اجتماعية أو سياسية أو اخبـــارية أو نحو ذلك ، وبالنظر الى تركيبها الفني أقصوصة (أو حكاية) أو رواية، والفرق بينهما أن الأقصوصة قصة صغيرة ، والرواية هي التي تستوفي شروط القصة في تطويل وتفصيل .

وللقصة شروط منها وحدة الموضوع والعمل ، فلتوفير المتعـــة الأدبية وصيانتها ، على الـكاتب ان يوضح الفكرة الرئيسية وموضوع الحبكـة، وأن يجعل من الحادث الذي تساق اليه وقائع الرواية شيئاً واضحاً يكون هو محـور سائر الأحداث والأفكار. ومن الشروط ، التوافق بين الموضوع والواقع ، بحيث يكون في الإمكان حدوث مثل حوادث الرواية وشخصياتها في الزمان والمكان اللذين تجري فيها الرواية . ومنها أن يكون تسلسل الحوادث الضخمـــة والمفاجآت الغريبة بحيث يكوّن عقدة تحتاج الى حل .

والشخصيات من أهم عناصر الحبكة في الروايات الحديثـــة ، ولذا تكثر العناية بالتحليل ، ونشر العواطف والآراء وتفسير بعضها بعضاً .

القصة في الأدب العربي الحديث :

تتسم المحاولات الأولى لكتابة القصة العربية بالتردد وعدم الأصالة، كما نرى ذلك في القصص التاريخية عند سليم البستاني ، وفرح أنطون ، وفي قصص المغامرات عند الدكتور يعقوب صروف وأمين الريحاني ، وفي القصص الاجتماعية عند حافظ إبراهيم ومحمد فريد وجدي ، والمنفلوطي .

أما الرواد الحقيقيون للقصة العربية الحديثة فهم :

جرجي زيدان في القصة التاريخية، وجبران خليل جبران ، في الأقصوصة والقصة العربية في أمريكا ، وميخائيل نعيمه الذي تكتمل عنده عناصر الأقصوصة ، وتبدو عنده النزعة الإنسانية التي تأثر بها من الأدب الروسي ، وحسين هيكل في قصة : (زينب) التي يميل فيها إلى التحليل النفسي ، ومحمد تيمور رائد الأقصوصة .

ثم يأتي الجيل الحديث فيكتب القصة العربية الخالصة من الشوائب الأجنبية كبعض قصص : يحيى حقي ، ومحمود تيمور ، وتوفيق الحكيم ، ومحمد فريد أبو حديد، والعقاد، وطه حسين، وإبراهيم المازني، ونجيب محفوظ ، وعبد الحليم عبدالله ، ويوسف السباعي ، وإحسان عبد القدوس .

وقد أنشئت مجلات خاصة بالقصة كمجلة الرواية ، هذا بصرف النظر عن الروايات الرخيصة – وما أكثرها – ! التي تتملق غرائز الناس ، وتنحط بعواطفهم .

وسنترجم لاثنين من كتاب القصة ، ونكتفي بنموذج واحد من قصة نحللها حتى لا نطيل :

عبد الرحمن الفاسي

هو الناقد البصير ، والكاتب الشغوف بالفن ، الولوع بالبحث والتنقيب ، الأديب المعاصر ، الأستاذ عبد الرحمن الفاسي الفهري، من أسرة « آل الجَدّ »

الأندلسية التي نزحت من الأنـــدلس إلى المغرب ، واستقرت اولاً في « القصر الكبير » ثم ثانياً في « فاس » ومن ذلك كان نسب الأستاذ عبـــد الرحمن الى فاس. تلقى دروسه الأولى في الكتاب ، ثم التحق بجامعة القرويين فتخرج فيها حيث حصل على الشهادة العالمية .

وقد شارك في الحركة الوطنية بقلمه وعمله، وكان ينشر في الصحف والمجلات مقالاته الوطنية الرمزية نظراً للضغط الاستعماري حينئذ .

وله منذ أمد طويل نشاط كبير في ميدان الأدب ، فقد عهدناه كاتباً وناقداً واديباً يمتاز بالتذوق والدقة والفهم وسعة الأفق ، وعمق الثقافة . وكثـيراً ما قرأنا له في مجلة رسالة المغرب فوجدناه ينقد ويعلق ويبدي آراء تدرك منها كل هذه الصفات التي امتاز بها .

وقد كان الاستاذ عبد الرحمن الفاسي ، يعطي دروساً في اللغـــة العربية لجلالة الملك الحسن الثاني حينما كان ولياً للعهد ، ايام المغفور له جـــلالة الملك « محمد الخامس » رحمه الله .

وقـــد شغل وظيفة « خليفة الباشا » في عهد الحماية ثم انتقل الى السلك « الديبلوماسي » في عهد الاستقلال فكان سفيراً للمغرب في « سوريا » ثم في السودان ، وهو لا يزال الآن في السك الديبلوماسي .

★

ونحن الآن لا نكاد نقرأ لـــلأستاذ عبد الرحمن الفاسي شيئـاً بعد أن شغلته المناصب الدبلوماسية عن الأدب .

وسنختار نموذجاً للقصة الحديثة من إنتاج الأستاذ محمود تيمور (أبي القصة الحديثة)، ولكن هذا لا يمنعنا من التنويه بفن القصة عنـــد الأستاذ الفاسي، ذلــك الفن الذي يعتمد على تصوير الشخصيـات بدقة وتحليـل نفسياتهـــا وعلائقهـــا ، وعلى إضفاء جو من الواقعية والصدق على حوادث قصصه ، وعلى قوة الملاحظة وحسن اختيار الزاوية التي ينفذ منها الى هدفه دون أن يبين عن

هذا الهدف أو يسوق أجزاء القصة سوقاً له – كل ذلـك في أسلوب فني راق غني بالألوان المعبرة والظلال الموحية ، وسنثبت هنا مقتطفات صغيرة – بقدر ما يتسع له المقام – من قصة (عمى بوشناق) لنتعرف على أسلوبه البديع في العرض والتحليل ، ولتعرف صلة هذه المقتطفات بالقصة نوجز لك فكرتها :

بوشناق رجل عمر طويلا ، كان يدير مقهى صغيراً على قارعـة الطريق في ظل كرمة ، وهو رجـــل محافظ كثير النقد للناس ولا سيما الذين يدخنون ، يحب ابنته (عويشة) حباً كبيراً ، وحبه لها جعله ينقلب مدخناً حين عـــلم أنها – بعد أن تزوجت – أصبحت تدخّن!! ثم مايزال يهوي وتتدهور أحواله حتى يصاب بما يشبه (الخبل) .

واليك الآن كلمات من أسلوب القصاص متفرقة في ثنايا القصة :

« ولعل أول ما يلفت نظر السائر في هــذا الشارع الفاسي تلك السقايةالتي جثمت في منتصف الشارع بادية الانقاض متهدمة البناء ، قــــد تهدلت على واجهتها أغصان كرمة فارعة ظللت الشارع من أقصاه الى أقصاه .

« لكم كان يبدو هذا الشارع في زينة فاتنة حين يتلصص شعاع الشمس من خصاص الكرمة ، فينفذ مرتجفاً على شخوص السابلة والباعـــة ومنتشراً بقعاً شمسية تتراقص على حفافي الطريق .

« وكأن مظاهر الحياة المستجدة أبت الا أن تكون إلباً على هذا الرجل ، وكأن الزمان قد أعد عدته ليقوم بهجوم حاسم على هذا الشيخالفاسي. وكانت طلائع هذه الحملة الفاصلة في انتشار حوانيت الدخــان بشوارع فاس ، وأصبح الدكان المجاور لسقايـــة الشيخ – رفوفاً تنتظم لفائف التبـغ وعلب السجاير وحركة الشراء تنمو يوماً بعد يوم .

« فأنت أمام شيخ فارع الشطاط أبيض في اصفرار قد شاب عند الرأس والقذال ونمـّت تجاعيد وجهه على الثمانين .

« وتنصرم السنون تتلوها السنون ، ويمضي تجار الشارع ويخلفهم آخرون وآخرون، وتتغير معالم الشارع كلها وتحُول ، ولكن الشيخ القهوجي ماثل لا يغيب ، قائم لا يمضي .

« وبعد سنين شاهد أهـــل الحي شيخاً ضامراً فانياً قد استند الى ساقية الشارع مقلصاً أصابعه كمن يحتال للقبض على شحاد أو يهوّم بيديه كمن يتوعـد أحداً ... وبين يديـــه كومة كبيرة من أعقاب السجاير يدس واحداً منها إثر الآخر بين شفتيه ... إيه .. عويشة تشرب الدخان !! »

٢ ـ محمود تيمور

يرى كثير من الباحثين ان محمود تيمور يعتبر عميد الفن القصصي في البـلاد العربية ، فهو كثير الانتاج متنوعه ، وقد خدم المسرح بقصصه الطويـــلة والقصيرة، ولد في تيمور سنة ١٨٩٤ م ، ونشأ في القاهرة في بيئة ارستقراطية وكان ابوه (احمد تيمور باشا) من علماء عصره ، وقد ترك مكتبـــة تشغل جناحاً كبيراً في دار الكتب المصرية ، بمخطوطاتها ومطبوعاتها .

وكان أخوه محمد تيمور أديباً كبيراً، ولا سيا في فن القصة، وقد اصبح محمود تيمور شخصية مرموقة في المجتمع العربي بأسره بثقافته الواسعة في اللغة العربية وبعض اللغات الاجنبية، وبإنتاجه الغزير في عالم القصة والرواية والمسرحية .

وقد كان في مطلع حياته يؤثر الكتابة بالعامية ، ثم عدل عنها الى اللغـــة الفصيحة ، وقد ترجمت بعض كتبه الى اللغات الأجنبيـــة وانتخب عضواً في المجمع اللغوي في القاهرة ولا يزال به ، كما أنه عضو في المجلس الأعلى للفنون والآداب .

ومن اشهر مؤلفاته وكتبه فن القصص ، الشيخ جمعـــه ، مكتوب على الجبين ، بنت الشيطان، أنا ابن جلا ، كليو باترا ، خان الخليلي ، حواء الجديدة

قال الراوي ، ... الخ من الانتاج الضخم .

وهو يختار نماذج كتبه من صميم الشعب المصري في أسلوب شيق يسيل عذوبة ورقة وسهولة على ما فيه من نظرات تحليلية ونفسية عميقة .

يقول محمود تيمور «كنت استنير في مطالعاتي بهداية شقيقي (محمد) فنصح لي فيما نصح أن أطالع حديث عيسى بن هشام للمويلحي ، وزينب لهيكل ، فرأيت فيهما لوناً يختلف عن اللون الرومانسي الذي كنت غارقاً فيه ، لوناً واقعياً ينزل بالقارىء من سماء الخيال العليا حيث يعيش كالملائكة فوق الضباب الى الارض التي نحن عليها حيث نرى الناس بشراً مثلنا على فطرتهم التي خلقوا عليها .

ولكن تيمور لم يجمد على هذا فقد تطور الى التحليل النفسي في رسم الشخصيات .

ولبعض الباحثين رأي آخر في محمود تيمور لا نريد ان نعرض له لعدم وجود الأدلة الحقيقية عليه .

واليك الأن مقتطفات من قصة « ابو عرب » :

«في خيمة حقيرة من الوبر ، قريبة من ضيعة «عمادبك» يعيش « سليمان وبده » وزوجته وأولاده ، وهم قوم من الأعراب الرحّل ، يرتزقون من تربية الأغنام ، وينتقلون بها من مكان الى مكان ، طلباً للرعي . و «سليمان» هذا يسميه الناس « أبو عرب » احتراماً له ، وخشية منه ، وهو رجل عملاق الجسم ، عريض المنكبين ، له وجه جاف مشدود الجلدة ، اذا سار ملتحفاً بطرفه الابيض الكبير ، خلته ناقة تتهادى في سيرها ، واذا سمعته يغني غناءه ذا الرويّ الواحد ، وهو يدخن الطباق في قصبته — خيل اليك انك على مقربة من ذئب يعوي سريع الغضب اذا استفزه أحد هاج هياج الثور الوحشي سريع الرضا اذا لوطف كالحمل الوديع ، كله بشاشة واخلاص .

يحب اولاده الستة حباً عظيماً فكأنه أم رؤوم تغمرهم بحنانها الدائم ،

ولكلبه « ذهب » في قلبه مكانة أحد أولاده ، فقد التقطه من الطريق رضيعاً ، يكاد يهلك من الجوع ، وآواه وعُني به حتى كـبر وترعرع ، وأصبح اليوم حامي قطيعه ، وحارس خيمته ، وهو كلب أسود غزير الشعر مخيف الهيئة ، تأثرت أخلاقه بأخلاق سيده ، فاكتسب منه العنف في مواطن العنف ، والحلم حيث يجب الحلم .

وكان « عماد بك » صاحب الضيعة يقيم مع زوجته وابنه الوحيد « حامد» في بيته القديم الذي يسميه الفلاحون بالقصر . و « حامد » غلام في العاشرة مدلل محبوب من والديه حباً يقرب من العبادة ، يقضي وقته مع خادمه « مبروك » يصطادان العصافير والسمك ، او يلعبان على التلال القائمة على حافة الترعة ، يقذفان الكلاب بالحصى والحجارة . وقد قامت بينه وبين « ذهب » خصومة كبيرة ، نشأت من تحرش الغلام بالكلب ، فأضمر كل منهما لصاحبه العداوة ، فإذا أحس « ذهب » وجود « حامد » — ولو على مسافة بعيدة منه — نشر أذنيه باهتمام ، وجعل يشم الهواء وهو ينظر الى جهة الغلام نظرة شزراء مكشراً عن أنيابه متحفزاً للهجوم ، ثم يبدأ ينبح نباحاً عالياً . وإذا لمح « حامد » « ذهباً » — وكان في رفقة من أتباعه — أمطر الكلب وابلاً من الحجارة واحتمى بمن معه إذا هجم عليه .

وخرج « حامد » ذات يوم ومعه « مبروك » وقصد التلال يلعبان فوقها على عادتها ، وكانا وحيدين في هذا الوقت . واتفق أن جاء « ذهب » ليشرب من الترعة ، وبينما هو منهمك في الشراب إذ رماه حامد بحجر أدمى رأسه ، فقفز الكلب متنمراً يبحث عن الجاني وقد أحس أنه لن يكون غير «حامد». وكان « حامد » محتمياً مع خادمه فوق تل عال صعب المرتقى . وعرف الكلب مكان الغلام ، فهجم صاعداً في التل وهو ينبح نباحاً جافاً متقطعاً غير مبال بوابل الحجارة ينهال عليه بشدة ، وأحس الغلام الخطر ، فوهنت عزيمته ، وتخاذلت قواه ، وجعل يصيح بصوت مخنوق يستنجد « بمبروك » ولكن « مبروك »

أطلق ساقيه للريح ناجياً بنفسه . ووجد « ذهب » الميدان أمامه خالياً ، وقد زاده هذا الانتصار قوة وإقداماً ، وأوشك أن يصل الى قمة التل ، ولم يعد يفصله عن الغلام سوى مسافة قصيرة ، ورأى « حامد » الكلب يقترب وعيناه تقدحان شرراً ، وشعره قائم كالشوك ، فارتجف ، ولكنه أحس بغتة بقوة غريبة تحل فيه ، فوقف مستبسلاً وقفة الجندي ساعة الخطر ووقف الكلب يحدج عدوه بشرر عينيه وهو يأخذ أهبته لهجمة فاصلة . ومضت لحظة ، والعدوان واقفان وجهاً لوجه لا يتحركان ، كأنهما تمثالان أودع فيهما المثّال أقوى معاني التحفز والشر ، وكان أن هجم الكلب هجمته الأخيرة ، بيد أن الغلام عاجله بحجر شج رأسه ، وترنح « ذهب » ، ثم نكص على عقبيه وهو يحاول النهوض والهجوم عوداً على بدء ، وقد بدأ الدم الفائر يسدل على وجهه ستراً أحمر أمام عينيه ، واختل توازنه فانقلب يتمرغ على التل متدحرجاً من أعلاه الى أسفله ، هناك سكنت حركته سكونها الأخير . وحدق الغلام ذاهلاً في جثة الكلب ، ثم أخذ يتتبع بنظره طريق الدم المرسوم على التل من قمته الى أصله ، فخاله بحراً من الدماء أو طريقاً من اللهب وشعر بتخاذل مفاجىء ، فجلس على الأرض يرتجف ، وعلت وجهه صفرة الأموات .

وسمع أبو عرب ندباً وعويلاً منبعثين من خيمته ، وهو عائد إليها فهاله الأمر وتوقع مصاباً ودخل الخيمة في عجلة وهو يسأل الخبر ؟.. فسكت الجميع واطرقوا . ودار (ابو عرب) بنظره على من حضر فوجد أهله لم يغب منهم أحد ، فخرج الى حيث قطيعه يرعى ، فلم يجد نقصاً أصابه ولكنه أدرك أن (ذهب) لم يخفّ لاستقباله على مألوف عادته . فعاد الى الخيمة وصاح في الجمع :

أين ذهب ؟

فلم يجبه أحد .. فقال :

إذن هو الذي تندبونه ؟! »

فأومأ إليه أحد أولاده بنعم ، فسأل : ولكن كيف مات ؟ أمقتولاً ، أم حتف أنفه ؟ فتقدمت إليه زوجته في هوادة وأخذت تروي له حادثة مصرع الكلب ، وهو يسمع إليها واجماً ، ثم ما لبث أن اربدّ وجهه رويداً ، وما أن أتمت كلامها ، حتى صرخ قائلاً :

« أقسم بتربة أبي ثلاثاً لأقتلنه ، وبمثل الطريقة التي قُتل بها (ذهب) !»

ومضت بضعة أشهر . ونسي الناس حادثة الكلب، وأخذ (أبو عرب) يحوم حول القصر في الخفاء ، كلما جن الليل ، وانتشر على الضيعة الصمت والسبات كما يحوم الذئب حول فريسته المطمئنة .

وفي ليلة خرج من خيمته ، ووجهته قصر (عماد بك) وهو ملثم بطرفه الكبير ، يحمل في صدره طائفة من الاحجار المسنونة كانت تثقل خطاه في سيره، وسار متسللاً بحذر، ولما دنا السور اعتلاه بمهارة ، وهبط الى الحديقة في خفة الهرة ، وتسلق شجرة كثة الأغصان ، وكمن بين فروعها . ومن ثم جعل يراقب حجرة الغلام بعيني الصقر الجشع ، وكانت الشجرة على مقربة من نافذة الحجرة .

ومضت ساعة و (حامد) يدخل الحجرة لاعباً ، ثم يتركها الى ردهة المنزل ، لا يستقر له قرار في مكان واحد ، فجعل (ابو عرب) يداعب الأحجار في قلق .

وأخيراً جاءت الأم بابنها وحملته الى السرير ، ووضعته فيه ، ثم أشارت له ان ينام ، فأمسك الغلام برقبتها وانهال عليها يقبلها ، ويحتضنها ويهمس في أذنها فأخذته بين ذراعيها وسارت به تضمه وتقبله ، وتطيل النظر اليه في حنو وعبادة ، وكانت اذا ما انتهت مرة عادت تحتضنه مرة أخرى .

واعتدل (ابو عرب) في جلسته ، وجعل يراقبها باهتمام ، وراحت الأم تلاعب طفلها في شغف ، وتصغي الى ضحكاته المرحة الساذجة كما يصغي الفنان

الى أشهى ألحانه وأغلاها، ثم قامت وهي محتضنة إياها ، وأخذت تطوف الحجرة بخطى هادئة، وتغني له بصوت حنون ، والطفل متعلق برقبتها مغمض العينين في طمأنينة عذبة ، يردد أغانيها ويستزيدها . واعترى (أبو عرب) وجوم غريب وأحس الضيق يغزو صدره ، وسقط من يده حجر الى الارض دون ان يشعر ... وبعد هنيهة ، وقد أحست الأم ان وحيدها قد نام اقتربت في سكون نحو السرير وأرقدته عليه ، ثم غطته وطبعت على جبينه قبلة هادئة، وخرجت على أطراف أصابعها ... ونظر (أبو عرب) طويلاً الى الطفل وهو نائم مشرق الوجه هدوءاً وغبطة ، كأنه مَلَكٌ صغير فابتسم مضطرباً كأنه يقابل ابتسامة الطفل بمثلها .

وبغتة شعر كأن خنجراً يطعنه في قلبه فهبط الى الارض مسرعاً ، وأخذ يعدو في الطريق الى خيمته ، يمتلىء اشمئزازاً وكرهاً لنفسه .. وما ان وصل الى الخيمة ، حتى هرع الى ولده ، وكان في مثل سن « حامد » وأخذه بين ذراعيه وجعل يضمه ويقبله في شغف والدموع تسح من عينيه !

التعليق والنقد

قصة (أبو عرب) تورد موضوعاً تدور عليه الحوادث باختصار يستوفي فيه المؤلف عناصر الفن القصصي ، فهي لون من القصة القصيرة أو الأقصوصة . ومحمود تيمور يأتي لنا بأشخاص هم من الأعراب الرحل ، سليمان ، وزوجته وأولاده ، ينتقلون وراء الكلأ طلباً للمرعى .

وقد صور لنا « سليمان » بصورة العربي في جسمه وصورة وجهه ، ونزعة دمه من البادية ، وشكل هندامه .

« اذا سار ملتحفاً بمعرفه الابيض الكبير خلتَه ناقة تتهادى في سيرها » بل إنه استطاع ان يبرز لنا صورة أسرة بدوية محضة ، الخيمة والكلب والشيخ سليمان والأولاد والزوجة . وبجانب ذلك يرينا مشهداً آخر حضرياً هو

قصر « عماد بك » صاحب هذه الضيعة التي يعيش فيها الشيخ سليمان وأسرتـــه ومعهم كلبهم ، وهو غال وثمين وعزيز عند الشيخ سليمان يحبه كأحد أولاده .

والى هنا يكون القصّاص قد صور مسرح الحوادث .

ثم تأتي بعد ذلك الحـادثة التي جرت على هذا المسرح ، حـــادثة الكلب وحامد أحب أولاد عماد بك، والذي لم يتخط العاشرة من عمره ، والخصومـة التي بينه وبين الكلب، واشتداد الخصومة بينهما، وقد انتهت الى ان ضرب حامد الكلب فصرعه . وهنا أوجد القصّاص المشكلة ، وأضفى عليها عنفـاً وحرارة حيث يقسم الشيخ سليمان ان يقتل حامداً ، لانه صرع عزيزاً عليه كأحد أفراد أسرته .

ومن منا لا يصدق أن الشيخ سليمان سوف يقتل « حامد » حقاً ؟

ويتحفز الشيخ سليمان للانتقـــام فيستطيـع الوصول الى مكان بالقرب من حجرة الفتى ويكمن بين فرع شجرة في الحديقة ، ويرقبه وهو في سرير نومه ويرى ما جرى بين الأم وابنها ، فيردعه ما شاهده من الحنان والبراءة ، فيسقط الحجر من يده ، ويعود أدراجه الى بيته ليحتضن ابنه الذي هو في سن حامد، وينتصر الخير على الشر .

مناقشة عامة في فنون الادب المستجدة

١ – أذكر ما تعرفه من الفروق بين المقال الاجتماعي،والسياسي، والأدبي، من حيث : الموضوع ، والاسلوب ، والمنهج .

٢ – هل تستطيع ان تعقد مقارنة بين خليل مطران، وجبران خليل جبران أو بين ميخائيل نعيمة ، وايليا أبي ماضي ، أو بين أحمد أمين والعقاد أو بين محمود تيمور والمازني ؟ وضّح واستشهد .

٣ – حاول ان تؤرخ للقصة العربية منذ العصر الجاهلي حتى الآن ذاكراً أشهر رجالها ، ومستقصياً أقسامها وفروعها .

٤ – أنشأ الزيات مجلة (الرسالة) و (الرواية) وأحمد أمين مجلة (الثقافة) وأبو شادي مجلة (أبولو) .

ما دور كل من هذه المجلات ؟ وما أثرها في نهضة الادب الحديث ؟

٥ – رأس فكري أباظة تحرير مجلة المصور ، ورأس الدكتور أحمد زكي مجلة الهلال ثم مجلة العربي ، كيف كان اتجاه كل منهما ؟ وما أثر كل مجلة من هذه المجلات في الفكر العربي لا سيما في فن (المقالة) ؟

المراجع

ارجع الى ما تجـــده من الكتب والمجـــلات التي ذكرت اثناء الحديث عن كل من الأدباء الذين تحدثنا عنهم .

الفن ومذاهبه في النثر العربي	لشوقي ضيف
أدب مصر الحديث	لمصطفى أبو زيد
جبران خليل جبران	لميخائيل نعيمه
تراجم مشاهير الشرق ج٢	
تاريخ آداب اللغة العربية ج٤	لجورجي زيدان
الجديد في الادب العربي	لحنا الفاخوري

٤ ـ المذاهب الادبية

تنوعت المذاهب النقدية والأدبية الجديدة،التي نشأت في الغرب وأفرخت في الشرق ، وكان تأثر أدبائنـــا المعاصرين بها عظيماً ، فهي إذن مدارس دخيلة مستوردة .

١ – المذهب الكلاسيكي :

ويعرف ايضاً بالمذهب الاتـّباعي ، وكلمة (كلاسيك) مشتقة من الكلمة اللاتينية (كلاسوس) التي تشير الى الطبقة العليـا من الشعب في روما القديمة ، ومن ثم صارت هذه الكلمـــة (كلاسيك) تدل على ما يُحتذى من شعر رائع وأدب عالٍ كأنما شبهت طبقة الادباء الذين صعدوا بأدبهم وفنهم الى مـــنزلة رفيعة بالمجتمع ، بالطبقة الارستقراطية من الشعب ، ثم صار كل من يحـاول ان يحذو حذوهم فينتج أدباً رفيعاً أديباً (كلاسيكياً) ، وصار أدبـــه ، أيضاً (كلاسيكياً) ، والأدب الكلاسيكي ، يمتاز بقوة التفكير وسمو المعاني وروعة الخيال وهدوئه ، وجمال العاطفة ، وطمأنينتهـا ، وفصاحة الاسلوب وسحر الألفاظ ووضوح الموسيقى. ثم أصبح هذا اللقب يطلق على الادب (التقليدي) لأن أصحابه ينسجون على منوال من سبقهم .

وقد ظلت الكلاسيكيـــة سائدة حتى هاجمتهـــا مدرسة الرومانتيكيين الابتداعيين . ومن رجال المذهب الكلاسيكي في الشعر العربي زهير والحطيئـة والفرزدق وأبو تمـــام والبحتري والمتنبي ، وابن هانىء والبـــارودي وشوقي

وحافظ ، والجارم ، وابن المرّحل ، والفشتالي ، وابن الونان وغيرهم ممن يغلب عليهم عنصر التقليد للنظام الشعري المألوف .

٢ – المذهب الرومانتيكي او الرومانسي الابتداعي :

ظهر في العصر الحديث بعد الثورة الفرنسية الدامية ، حيث فزع الأدباء والشعراء الى نفوسهم ووجداناتهم يلوذون بتجاربهم الباطنة ، ويهتمون بمشاهد الجمال والطبيعة ، ويميلون الى الاصالة والابتكار والتجديد والتحرر في الافكار والأساليب ، يصدرون عن انفعال قوي ، وعواطف مضطرمة ومشاعر حية . والكلمة انجليزية الاصل أطلقها أحد الأدباء الانجليز على « لامرتين وهوجو » الفرنسيين وغيرهم . والأدب الغنائي العربي الذي يتحدث عن العواطف الشخصية في شدة انفعال وجموح عاطفة هو من الشعر الرومانتيكي – وذلك كشعر عمر بن أبي ربيعة ، وجميل بثينة ، وابن الفارض ، ومطران ، وأبي شادي ، والشابي وأكثر شعراء المهجر ولبنان وسوريا .

٣ – المذهب الواقعي :

لما أسرف الرومانتيكيون في مذهبهم ، وجنحوا الى صبغ أدبهم بصبغة شديدة من العواطف الجياشة بالحزن والألم والكآبة والهروب من الواقع ، والتعلق بالأوهام ، والاستغراق في الخيال و (المثالية) ، كان لا بد ان تظهر جماعة من الادباء تدعو الى الاتصال بالحياة ، كما هي لا كما يجب ان تكون ، وتنادي بمشاركة الادب والشعر للمجتمع مع الايمان بالتجربة والاعتماد على الحس، ومع العناية باللفظ والصيغة والصورة ، ووصف الاشخاص والبيئات والزمان والمكان وصفاً يتفق والواقع . وذاع هذا المذهب في القصة والتمثيليات ، ونجده في شعر الزهاوي وأبي ريشة ، ورشيد الخوري (الشاعر القروي) ومفدي زكريا ، فنرى في شعرهم ألواناً من الشعر القومي والوطني والاجتماعي ، وتصويراً لحياة العامل والفلاح .

والواقعية تنكر مذهب (الفن للفن) وتقول (إن الفن للحياة) وفي خدمتها وإلا كان تافهاً وعبثاً .

٤ – المنهب الرمزي :

لقد تحرر الرومانتيكيون من تقاليد الكلاسيكيين ، وتخلص الواقعيون من الرومانتيكيين أوعلى الأقل ردوا إلى التقاليدروح الاعتدال، واتخذت الواقعية من الشعر تمريناً لفظياً يخضع خضوعاً أعمى لقواعد الوزن والقافية والاسلوب ، وجاءت طائفة أرادت التحرر من هذه القيود ، ورأت أن العالم ليس إلا مجموعة طلاسم ، ودنيا تخلقها المخيلة الجبارة لا الملاحظة العابرة ، وكانت محاولة جديدة للافصاح عن العواطف المكبوتة في أعماق النفوس الانسانية مع الميل الى الغموض والإبهام والتجارب الموضوعية الموزعة بين الحلم واليقظة والنوم والوعي ، فكان مذهب الرمزيين قائماً على التوافق بين المادة المحسوسة والفكرة المتخيَّلة .

وقد ظهر الشعر الرمزي في فرنسا عند أدباء القرن التاسع عشر ثم عند الانجليز .

وإليك ترجمة قصيدة « لبول فاليري » الفرنسي عنوانها (المقبرة البحرية) نظمها في مقبرة مشرفة على البحر ، وأثارت جدلاً شديداً بين النقاد والشعراء، والأدباء وترجمت الى اللغات الحية :

إنها قُدْسيةٌ مُغْلَقة نارها توقدُ من غير غذاء
خيَّم الصمتُ على ارجائها وعلى صفحتها رفَّ الضياء

★

سقطت أضواؤها وهَّاجة وأثارتْ فيَّ أسباب الطربْ
فظلالٌ كالدُّجى ممدودة وقبورٌ رصَّعوها بالذهب

★

أرأيتَ الظلّ في أكنافِها حيثُ يرتجّ على الظلّ الرخام
وهناك البحر في غفوته قد ترامى قرب أجداث ونام

★

ها هنا أمواتُنا قد جثموا مُدفئا أجسادهم هذا التراب
طاوياً أسرارهم في جوفه ألِنَشْرٍ يَنْطوي هذا الْكتاب؟

والقصيدة طويلة نجتزىء منها بهذا القدر ، وقد كتب الدكتور طه حسين في مجلة الرسالة عن هذه القصيدة يقول : « أنفق النقاد الفرنسيون أعواماً يدرسون هذه القصيدة ، ويحللونها ويلتمسون معانيها وأغراضها ، ومظاهر الحسن ودخائله فيها ، فرفعها بعضهم الى أرقى المراتب ، ونزل بها بعضهم الى حضيض السخف الذي لا ينبغي الوقوف عنده . وموطن الاختلاف هو مذهب الشاعر في فن الشعر وما ينبغي له من الارتفاع عن هذا الوضوح الذي يفسد الفن. وبول فاليري يرى ان جمال الشعر يأتي من أنك تجد اللذة الفنية في نفسك كلما جددت قراءته ، وموت الاثر الفني يأتي عنده من فهم الناس له . »

وقد تردد صدى هذا المذهب الرمزي في أدبنا العربي قديماً وحديثاً كما هو في شعر الحلاج ، والخيام وابن الفارض وابن عربي وغيرهم من شعراء الصوفية ، وكما هو عند أمثال أبي شادي وأبي ماضي ، والصيرفي ، وبشر فارس .. وقد ذكر قدماء النقاد والعرب هذا المذهب ، وإن لم يسموه بهذا الاسم . فقد كتب عنه الصابي ، وعرض له الجاحظ في البيان والتبيين وعبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة .

ومما قاله : « من المركوز في الطبع اذا نيل بعد الطلب له ، والاشتياق اليه ، ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى .. الخ) .

واختلف أدباؤنا المعاصرون في مسألة الغموض والوضوح اختلافاً بيناً .

فأحمد أمين – مثلاً – يرى أن الغموض فقر في اللغة وقصورها عن الإفصاح عن عواطف الشعراء النفسية وميولهم ورغباتهم . ويرى العقاد أن وراء الغموض في الشعر والادب إبداعاً فنياً ، وهذا هو ايضاً رأي طه حسين وكثير من النقاد .

٥ – الفن للفن

وهناك نزعة جديدة متطرفـــة تدين بالحرية المطلقة في اختيار الموضوع ، فالأديب غير مقيد بقانون يحد من حريته ، والادب هو تمثيل ذاتية الانسان وحقه الحر في التفكير كما يشاء وباللغة التي يريدهـــا ، وأصحاب هذا المذهب يرون أنه كلما حددنا للأديب مجال القول خنقنا فيه روح الابداع الفني ، إنهـم الوجوديون ، أصحاب الآراء الخـــاصة في الدين والسياسة والاجتماع والأدب والشعر ، وزعيمهم جان بول سارتر الفيلسوف الأديب الفرنسي الشهير .

وهناك فرقة متطرفة تـذهب الى أبعد من ذلك ، وتـدين بالخروج عن كل عرف وتقليد ، فهي في الأدب مثلاً تنفر من موضوعات الفكر الجارية، وتحتقر الاساليب السائدة في أشـكالها وصورها ومجازاتها وكلماتها ، وتسخر من العقل ومنطقه . وجل إلهاماتها من الأحلام والرؤى ودفعـــات اللاشعور والتأثرات الماضية . وأصحاب هذا المذهب يرسلون كلامهم إرسالاً عفو الخاطر والقريحة ، هؤلاء هم السرياليون الذين نعرف مذهبهـم في الفنون وبخـــاصة الرسم ، ومن أدبائنا الذين يسيرون على هذا المذهب في بعض انتاجهم :

كامل زهيري، وعادل أمين، ومحمود حسن اسماعيل، وكامل أمين، وغيرهم.

هذه هي أهم المذاهب الأدبية المعروفة في الأدب الغربي والتي يحتذيهـا بعض أدبائنا وشعرائنا ، يرتضي كل منهم مذهبـــاً منها ينسج على منواله ، ويدعو بعض الادباء الى التوفيق بين هذه والى تقديرها جميعاً.

وإن شئت التوسع في هذا الموضوع فـارجع الى كتـــاب (رائد الشعر الحديث) للسحرتي، والى كتاب (دفاع عن البلاغـــة) للزيات ، و (الشعر المعاصر) للسحرتي، وأسس النقد الأدبي ، للدكتور أحمد بدوي ، وغيرها من كتب النقد الحديثة .

حركة الترجمة

واثرها في العلوم والآداب

مرت الترجمة في مراحل نلخصها فيما يأتي :

١ - احتكاك لبنان بالغرب :

سبق لبنان سائر البلاد العربية إلى الاتصال بالغرب ففتح أبوابه للإرساليات الأجنبية ، وقبض على زمام السلطة فيه « بطاركة وأساقفة وكهنة » ورجال علم استقوا علومهم من مدارس الغرب ، وصبغوا الفكر والثقافة بالصبغة الدينية التبشيرية . بيد أن هذا أفاد العلم والأدب ، فقد انصرف أبناء لبنان إلى جمع المخطوطات ، ونقل الكتب الغربية إلى العربية ، والعربية إلى لغات الغرب ، وكان من ذلك أن رهبان لبنان وسوريا تنبهوا للطباعة الآلية ولأهمية المدارس ، أنشأوها أولا على غرار مدارس رومة في نظام التدريس ، وفي المواد الدراسية . وممن تخرج في هذه المدارس المعلم بطرس البستاني صاحب أول « دائرة معارف » عربية ، وصاحب « المدرسة الوطنية » الشهيرة التي خرّجت سليمان البستاني وأحمد فارس الشدياق وغيرهما .

٢ - احتكاك مصر بالغرب :

كان للحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م. التي قادها نابليون بونابرت أثر كبير في نهضتها ، وفي ايقاظها من سباتها العميق . فقد اصطحب نابليون

أساطينَ المعرفة الفرنسيين من مختلف القطاعات الثقافية ، كما حمل معه مطبعة ، وقامت الحملة بحركة علمية إلى جانب الحركة العسكرية ، ورأى علماء القاهرة بأعينهم أشياء لم تكن تخطر لهم على بال، وفي تاريخ الجبرتي تفصيل كثير لهذا .

وما كادت مصر تتخلص من حكم الفرنسيين ، وتبعد قليلاً عن حكم الأتراك حتى وضعت لنفسها أساس نهضة شاملة في الصناعة والزراعة والجيش والتعليم والإدارة ، وسلكت كل الوسائل التي تكفل لها تحقيق تلك النهضة ، فأرسل محمد عليّ البعوث الى الغرب وفتح المدارس الكثيرة ، ثم نقلت مصر الطباعة عن الغرب ، وترجمت كثيراً مما أنتجه الفكر الغربي في الآداب والعلوم .

واعترضت « محمدَ علي » عقبة كأداء حينما فتح المدارس العليا ، واستقدم أساتذة الطب والهندسة ، وغيرها من أوربا ؛ إذ كيف يدرس الطلبة على يد هؤلاء الاساتذة ولا معرفة للأولين بلغة الآخرين إطلاقاً ؟ وهنا كان المترجمون من السوريين والمغاربة والأرمن الذين قاموا بين الأساتذة والطلبة بترجمة الدروس ، ولم يكن هذا ميسوراً لهم فحفزهم إتقان العمل الى مراجعة معجمات اللغة العربية والكتب القديمة التي وضعها ابن البيطار وابن سينا وابن رشد ، وغيرهم لاستخراج المصطلحات العلمية أو لصياغة ما يؤدي مطالب العلم الحديث .

ثم خطت مصر خطوة أخرى في الاسراع بنهضتها التي صممت عليها ، فقد أدركت أن هذا الأمر لن يتم إلا على يد أبناء البلاد أنفسهم ، فأرسلتهم ليتزودوا بالعلم في مواطنه الأصلية ، فأرسلت أول بعثة الى أوربا سنة ١٨٢٦ من أربعين طالباً، ثم توالت البعثات حتى بلغت سنة ١٨٥٠ إحدى عشرة بعثة للتخصص في كل علم وفن ، من حقوق وعلوم سياسية واقتصادية ، وهندسة حربية وزراعة وطب وميكانيك وتاريخ طبيعي وطباعة وحفر ... فلم يكادوا يعودون حتى أقيموا بالقلعة لا يبرحونها إلا بعد أن يترجم كل منهم ما

كانت الدولة في حاجة سريعة إليه في مادة تخصصه ، وفي اللغة التي يتقنها ثم دفعت هذه الكتب الى المطبعة الأميرية ببولاق (أحد أحياء القاهرة) ثم وزعت على المدارس .

وكانت هناك طائفة بزعامة الشيخ رفاعة الطهطاوي قد آلت على نفسها أن تسير قدماً بحركة الترجمة والتعريب ، فأنشأت الدولة مدرسة الألسن ، وأسندت إدارتها الى الشيخ رفاعة الذي كان قد ترجم قبل ذلك نحو اثنتي عشرة رسالة في مختلف العلوم والفنون، وملأ البلاد علماً وحكمة هو وتلاميذه من مدرسة الألسن التي كانت تدرس الحقوق والآداب ، وتدرّس فيها اللغات الفرنسية والتركية والفارسية والإيطالية ، والإنجليزية ثم الألمانية .

لم تكن العناية قد بدأت بعد بالأدب ـ إلا قليلاً ـ فكانت الحركة علمية لحاجة الجيش آنذاك الى ذلك لتقويته في حروبه ضد تركيا وأوربا مجتمعة ، فلم يترجم في الأدب إلا رواية (تليماك) عن الفرنسية . ولكن اللغة العربية أفادت فائدة عظيمة ، ودخلها فيض زاخر من الكلمات الجديدة المعربة والمصطلحات العلمية في شتى فنون المعرفة ، كما أحييت فيها صيغ وكلمات عربية .

وفترت الترجمة بعد ذلك الى أن جاء إسماعيل سنة ١٨٦٣ فاستأنفت مصر نهضتها العلمية ، وظل الاتجاه علمياً ، ولكن بعض تلاميذ الطهطاوي اتجه الى النواحي الأدبية من تلقاء أنفسهم ، فترجم محمد عثمان جلال بعض مسرحيات موليير ، وراسين ، كما ترجم قصة (بول وفرجيني) ، وقد وصل ما ترجم في مختلف العلوم والفنون الى نحو ألفي كتاب ورسالة حتى أواخر عهد إسماعيل.

وتصادف أن نزح الى مصر عقب حوادث سنة ١٨٦٠ بسوريا – وقد أشرنا الى ذلك من قبل – عدد من أدبائها فارين بحريتهم ، فأفسحت لهم مصر من صدرها مكاناً فسيحاً ، فكان لهم أثر حميد في الصحافة والترجمة .

ومن هؤلاء أديب اسحق وسليم نقاش اللذان أسسا مسرحاً عربياً سنة

١٨٧١ ، وأخذا يترجمان له شتى المسرحيات الأوربية.

وكان يعقوب بن صنوع المصري قد أنشأ قبل ذلك بعام أول مسرح عربي بمصر وترجم أو اقتبس له بعض المسرحيات ، وقد بلغت هذه المسرحيات في الاثنين أكثر من خمسين مسرحية .

وفي هذا الوقت ظهرت بعض المجلات العلمية التي تعتمد على المترجمات . ثم عربت الدواوين بعد أن كانت تركية ، وذلك على يد الكاتب المصلح الكبير عبدالله فكري .

٣ – الترجمة في عهد الاحتلال الانجليزي :

اهتم المصريون في عهد الاحتلال باللغات الأوربية ، وأنشئت إلى جوار مدرسة الألسن (التي أدركها الضعف) مدرسة أخرى هي (دار العلوم التوفيقية) لتخريج مدرسين في اللغات الأوربية ، ثم أنشىء قلم الترجمة والتحرير سنة ١٨٨١ ، وفرض الانجليز لغتهم على المدارس [١] فكانت تدرس بها كل المواد ما عدا العربية ، وألغى الانجليز البعثات إلى فرنسا.

وظل بعض العلماء يوالون حركة النقل والترجمة في بعض العلوم ، واشتدت حركة التعريب في الآداب ولا سيما في القصة والمسرحية ، وعني بذلك الأدباء السوريون واللبنانيون المقيمون في مصر مثل نجيب حداد ، وخليل مطران ، وطانيوس عبده ، فنقلوا قصصاً ومسرحيات كثيرة . ثم تطورت حركة الترجمة تطورها الطبيعي ، فاتجه بعض العلماء إلى احتذاء هذه المترجمات والتأليف على منوالها ، فكثرت القصص والمسرحيات الموضوعة كروايات جرجي زيدان التاريخية ، كما ابتدأ المسرح العربي يمثل روايات مصرية وعربية صحيحة .

ماذا أفاد الأدب والشعر من هذه الحركة في الترجمة حتى نهاية القرن

---

١ ـ الغي هذا القرار سنة ١٩٠٨ ، وحلت اللغة العربية محل الانجليزية التي استأثرت بأغلب المدارس العليا .

التاسع عشر ؟

اما في الشعر : فقد أفـاد بعض الشعراء من اطلاعهم على الأدب الأجنبي وبخاصة شوقي وخليل مطران ، فاهتموا بالمعاني اهتماما بالغاً، كما أصبحت اللغة العربية ، غنية بكثير من الكلمات والمصطلحات العلمية والأدبية .

أما في النثر : فقـــد تخلص من القيود البديعية الثقيلة ولا سيما السجع ، وتعددت صور المقالة من المقالة الصحفية الى المقالة الاجتماعية والعلمية والأدبية نتيجة لتأثر الأدباء بالثقافة الغربية وموضوعاتها .

وقد ظهرت المجلات الكبرى التي كانتْ تعتمد في كثير من مقالاتهـــا على المترجمات، فارتقت بهـــا لغة الأدب والعلم كمجلة الهلال والمقتطف والطبيب وغيرها .

الترجمة في القرن العشرين

بعد أن فرضت اللغة الانجليزية في المدارس ، نشأ جيل من المصريـين يجيد الانجليزية فهماً وقراءة ، ويتأثر بأدبهـــا ، ولم تحل سطوة الانجليزية دون استمرار الفرنسية في نفوذها .

وفي هــذه الفترة الأولى من القرن العشرين أنشأ الحزب الوطني (مدارس الشعب) وجعل لغـة التعليم بهـــا العربية في كل المواد ، كما أنشئت الجامعة المصرية بسعي المصلحين والأغنياء سنة ١٩٠٨ م وألحق بها نوابـغ طلبة الأزهر ، ودعي كثير من المستشرقين للمحاضرة فيها .

وقوي نفوذ الإنجليزية في مصر ، وبعض بـلدان الشرق العربي على مرور الأيام ، وكثرت المؤسسات التعليمية ، انجليزية وأمريكية ، ولا سيما الجامعة الأمريكية في مصر ، والجامعة الأمريكية في بيروت . ثم كان حظ انجلترا من بعثات الجامعة المصرية والمعاهد العليا كبيراً في مختلف العـــلوم ، ثم تعددت الجامعات ، وزادت البعثات منها ومن مصالح الحكومـــة المختلفة ، وصارت

لدى مصر طبقة ممتازة من المتخصصين في كل فروع العلم والأدب واللغات ، فكثرت الكتب المترجمة من مختلف اللغات إلى العربية .

وألف المجمع اللغوي بالقاهرة سنة ١٩٣٢ لمقاومة تيار غزو اللغات الأجنبية، وعنيت المجلات الأدبية الراقية التي ظهرت في هذه الحقبة، كالسياسة والبلاغ ، والرسالة والثقافة بأن تزود قراءها بكثير من القصص القصيرة والطويلة على يد محمد السباعي ، والزيات وطه حسين وغيرهم . وعمد بعضهم إلى الشعر الأجنبي يترجمه كالإلياذة وغيرها ، واعتمدت المسارح الكبرى على المترجمات كما فعل يوسف وهبي عند إنشاء مسرح رمسيس .

ثم فترت حدة الترجمة بعد الحرب العالمية الثانية ، واستمرت واتجهت وجهة أدبية ، وترجم المترجمون أخيراً كثيراً من كتب علم النفس والتربية والاجتماع والتاريخ مما لا يحصى ، كما ظهرت دراسات كثيرة معتمدة على خلاصة الفكر الغربي .

اثر الترجمة في الآداب والعلوم
منذ مستهل القرن العشرين

نلخص ما مر متفرقا أثناء الحديث سابقاً من أثر الترجمة فيما يأتي :

١ – في الاداب

النثر : كثرت القصص والمسرحيات الموضوعة المستمدة من التاريخ العربي الاسلامي وتأثر الأدب بالأدب الأجنبي الذي طرق موضوعات الشعوب وتواريخها وكفاحها .

٢ – لم تعد المقالة الأدبية صاحبة السيطرة الكاملة بل شاركها في الأهمية كل من القصة والأقصوصة .

٣ – تنوعت موضوعات النثر فتناولت كل شئون الحياة .

٤ – كون المجمع اللغوي ليضع كلمات جديدة أو يعرب أو يشتق من الكلمات القديمة .

٥ – كان للمجلات الأدبية أثر كبير في رقي الثقافة العربية فمال النثر إلى السهولة والتحليل والاستفادة من الدراسات الاجتماعية .

٦ – اشتدت العناية بالقصة واستأثرت باهتمام كثير من الأدباء وجمهرة القراء .

الشعر : اعتمد المسرح على بعض المسرحيات الشعرية المترجمة ، واهتم الشعراء بالمعاني ، وأصبح الشعر لغة العاطفة والوجدان ، وتحرر الشعراء من نظام القصيدة التقليدي ، وأصبحت وحدة القصيدة مستأثرة باهتمام الشعراء .

هذا ولا ننسى بوجه عام ان المذاهب الأدبية الجديدة في الشعر والنثر–وهي التي أشرنا إليها من قبل – إنما ظهرت بفضل الاطلاع على الآداب الغربية وترجمة كثير من روائعها .

ب – في العلوم :

عني المترجمون بكتب علم النفس ، والتاريخ ، والاجتماع . كما بذل المؤلفون جهوداً موفقة في تذليل العربية لمواد الزراعة ، والاقتصاد ، والكيمياء ، والتاريخ الطبيعي وغيرها من العلوم التي أصبحت تدرس بالعربية ، كما ذللت لها الرياضيات (والميكانيكا) والطبيعة ، والجغرافيا ، والفلك .. الخ .

وبفضل الترجمة دخل اللغة العربية آلاف الكلمات العلمية ومصطلحات العلوم ، وصارت قادرة على مجاراة سائر اللغات الغربية في كل ميادين العلم والمعرفة .

وقد خطا المغاربة خطواتهم في الثقافة ، قبل أن يتصلوا بالثقافة الفرنسية – متأثرين خطى المشرقيين ، ولا سيا مصر بما فيها من إنتاج أدبي جديد لأعلام النهضة في العالم العربي . وكان من هؤلاء الشاعر محمد السليماني ،

والأديب أحمد بن المواز ، والكاتب المؤرخ محمد بو جندار وسواهم .

ولما اتصل المغرب بفرنسا فرضت عليه ثقافتها في التعليم ، والإدارة ، وكل شئون الحياة مدة نصف القرن الماضي ، فشيد الفرنسيون المدارس الأولية والثانويات ومعهد الدراسات لوضع نواة الثقافة الفرنسية ، باعتبارها الحضارة الإنسانية الممتازة التي يجب أن تحتذى، واستطاعوا أن يخلقوا جيلا من المغاربة زعم أنه يعرف سر قوة الأوربيين ، وسر ضعفنا وتخاذلنا ، وقال إن السر هو (الايديولوجيات) الغربية ، وهكذا تسممت أفكاره ، وتنكر للغته وحضارته وبهره الأجانب وأُعجب بكل ما يأتي من قِبلهم ، كما فعل إخوان له من قبل في لبنان ، رغم كثرة النابهين منهم . ومتى انهار الإيمان بالذاتية فإن الأمة تصبح عرضة لأشنع أنواع الاستعمار .

وهكذا حلت الثقافة الفرنسية ، وانحلت الثقافة المحلية .

ولما انتفض المغرب انتفاضة الاستقلال ، وطد العزم على التحرر الثقافي ، وولى وجهه شطر أبناء عمومته في الشرق يربط ثقافته بثقافتهم ، فلا يبقى ثمة فرق بينهما يجدفيه المؤرخ للثقافات العربية مجالا للفصل بين المشرق والمغرب.

حركة الاستشراق

المستشرقون هم جماعة من العلماء الغربيين نبغوا في لغات الشرق وتخصصوا فيها وفي آدابها ، وقاموا بدراسة الشرق وتاريخه ودياناته وعلومه في عصوره المختلفة .

وقد أفاد المستشرقون الثقافة العربية والإسلامية فائدة جليلة بما نشروا من مؤلفات ، وما كتبوا من بحـــوث ، وحفظوا كثيراً من تراثنا القديم مخطوطاً أو مطبوعاً .

وقـــد عرف الغرب الاستشراق في القرن العاشر الميلادي حينما كان الشرق في قمة مجده عامراً بالمدارس والجامعات .

وكان الغرب غارقاً في ظلمات الجهل والتأخر العلمي والحضاري ، وقـــد اقتحم الشرق على الغرب دياره في صقلية والأندلس والموانىء الإيطاليـــة ، وجنوب فرنسا . وملك المشارقة كل جزر البحر الأبيض المتوسط ، وكانوا سادة هذا البحر الكبير الذي تقوم على شواطئه كثير من الدول الأوروبية ، فأخذ الغربيون يتصلون بالثقافة العربية التي بهروا بها ، وأخذوا يتعلمونها في المدارس العربيـــة أو ينقلون كتب العرب في الطب والهندسة والرياضيات والفلك والفلسفة والجبر والكيمياء والطبيعة الى لغة الثقافة عندهم (اللاتينية) . وكان أول من عني منهم بذلك طائفة من رجال الدين المسيحي ، وساعدهم على ذلـــك علماء اليهود الذين نقلوا مئات الكتب العربية الى اللاتينية .

وأكب الغربيون على هذه الكنوز فـــدرسوها وهضموها ، وكانت أساس

البناء في نهضتهم وحضارتهم . وقد شجع بعض ملوكهم هــذه الحركة كالملك فردريك الثاني ملك صقلية سنة ١٢٥٠ م وألفونس ملك قشتالة ، وغيرهما من ملوك أوربا الذين عملوا على ترجمة علوم العرب وفنونهم حتى بلغ ما ترجم اكثر من ثلاثمئة كتاب . وظــل الأمر كذلك حتى القرن السابع عشر حين استيقظت أوربا ، وجاء القرن الثامن عشر ، فاشتغل كثــير منهم بطبع الكتب العربية ، وإنشاء مدارس اللغات الشرقية . ثم زادت عنايـة الغرب بالدراسات الشرقية ، فظهر الاستشراق في العصور الحديثـة ، وظهر نشاط أصحابه الكبير في الآداب والعلوم والفنون ، ونجمل بعضه فيما يأتي :

١ – طبع كثير من الكتب العربية المخطوطة ، والعناية بضبطها وتبويبها وعمل فهارس منظمة لها وشرح ما يحتاج الى شرح منها .

٢ – حفظ المخطوطات العربية في المكتبات الكبرى في عواصم أوربا .

٣ – انشاء فروع جامعية لتعليم اللغة في الجامعات الكبرى .

٤ – تحقيق كتابة تاريخ الآداب العربية .

وكانوا يتوسلون الى ذلك بإنشاء الجمعيـات ، وعقد المؤتمـرات واقامـة المكتبـات ، وتـأسيس المعاهد ، والقاء المحـاضرات ، وتشجيع البعثـات ، واستقلال الصحافة والاذاعة .. الى غير ذلك من طرق النشر .

ومن اشهر المستشرقين :

١ – البارون سلفستر دي ساسي الفرنسي (ت ١٨٣٨م) الذي فرغ لتعليم العربية والفارسية ، وتخرج عليه فيهما كثير من أعلام المستشرقين، ومن مؤلفاته العربية « الأنيس المفيد للطالب المستفيد » وكتاب «تاريخ العرب ايام الجاهلية» وكتاب عن ديانة الدروز .

وله شرح مختصر على مقامـات الحريري ، وهو الذي نشر كتاب كليلة ودمنة ، وألفية ابن مالك، والبردة ، ورحلة عبد اللطيف البغدادي، كما ترجم بعض الكتب والبحوث الى لغته .

وهو الذي أنشأ الجمعية الآسيوية الفرنسية وأشرف على مجلتها .

٢ – ادوار لين الانجليزي (ت ١٨٦٤م) الذي درس عادات مصر ، حينما قدم اليها سنة ١٨٢٥ ، وألف كتاباً في وصفها ، وآخر في آداب المصريين وعاداتهم في القرن التاسع عشر ، وترجمت آثاره الى العربية .

٣ – فرايتاخ الالماني (ت ١٨٦١م) الذي ألف معجماً في العربية واللاتينية في أربعة أجزاء ، ونشر (حماسة أبي تمام) مع شرح المقريزي مصحوبة بالترجمة اللاتينية ، و « حكم لقمان » و « فاكهة الخلفاء » لابن عربشاه ، و « المنتخب من تاريخ حلب » و « أمثال الميداني » وطبع « معجم البلدان» لياقوت ، ووضع فهارس قيمة له ، وعلق عليه . هذا غير ما ألّفه بلغته عن العرب والعربية .

٤ – كراتشقوفسكي الروسي الذي اهتم بالأدب العربي وعمل استاذاً بجامعة القاهرة ، وله أكثر من ثلثمائة كتاب منها « الرواية التاريخية في الأدب العربي المعاصر » . ونشر بعض المخطوطات الجغرافية ، وكتاب علم الفلك في الحبشة واسبانيا المسلمة ، وقام بطبع كتاب « البديع » لابن المعتز ، مع تقديم له ، وشرح عليه .

٥ – كازمرسكي البولوني (ت ١٨٧٠م) الذي وضع قاموساً عربياً فرنسياً ، وترجم القرآن الكريم الى الفرنسية ، ونشر طائفة من الكتب العربية .

٦ – دوزي الهولندي (ت ١٨٨٣ م) الذي ألف معجماً عربياً جمع فيه الألفاظ التي لم ترد في المعجمات العربية في جزءين ونشر تاريخ ابن زيان، وتاريخ المعجب لعبدالواحد المراكشي، والبيان المغرب لابن عذاري، وجغرافية الإدريسي.

٧ – جلتزير المجري (ت ١٩٢١) صاحب المؤلفات الكثيرة في اللغة العربية والإسلام ، وبحوث الفقه الاسلامي ، والحديث النبوي ، وآداب البحث والمناظرة عند الشيعة ، ومذهب الظاهرية ، وطبقات المفسرين ... الخ وكلها بالألمانية .

وغير هؤلاء من المستشرقـــين مثل دي سلان ، ولويس ماسينيون ، وليفي بروفنسال الفرنسيين ، وجوستاف فلوجل ، والبارون فون كريمر ، ووستنفيلد ، وتيودور نولدكه ، وبروكلمان الالمانيين، ودي جويه الهولندي ، ومرغليوث، ووليم رايت، وتوماس أرنولد ، ونيكلسون الانجليزيين، وجويـدي الأب والابن الايطاليْين وغيرهم .

ومن أشهر المسسرفين الذين كان لهم أثر كبير في المغرب الاستاذ ماسينون الفرنسي الذي كان لمقـامه في بغداد سنة ١٩١١ أقوى الأثر في حيـــاته ، إذ اضطره مرضه هناك الى ان يمكث ببغداد ، ويتصل بعامة الناس ، واصحـاب الطرق الصوفية، وتشبّع بروحهم لما رأى من عطفهم عليه والدعاء الخالص له بالشفاء ، ومكث يتردد مدة في اعتناق الاسلام ، ولكنه لم يسلم . وقد تبحر في علوم العربية ، ونال شهادته في الدكتوراة ببحث وضعه عن الصوفي المشهور (الحلاّج)فانكب عشر سنينعلى دراسة حياته وآثاره، ثم اتسعت دائرة معارفه، فأصبح يجيد عدة لغات شرقية وغربية ، وصار من الاخصائيـــين في مسائل الاديان المختلفة ولا سيما الدين الاسلامي ، وأصبح عضواً في عدة مجامع علميـــة في بلاد مختلفة ، ومنها المجمع اللغوي بالقاهرة .

وقد زار المغرب لأول مرة في سنة ١٩٠٤ وقـام بدراسة وافية عن الحسن ابن الوزان المعروف عند الاوروبيين بـ« ليون الافريقي »ونشر كتاباً عنه . ثم نشر سنة ١٩٢٤ دراسة مستوفاة عن الحرف التقليدية بالمغرب وتاريخها ونظمها وتقاليدها ، وله غير ذلك كثير من المؤلفات عن المغرب بصفة خاصة ، والعالم العربي والاسلامي والشرقي بصفة عامة .

وقد زار المغرب عدة مرات غير مـا سبق ، وناصر المغرب في محنتـه الكبرى بعد إبعاد المغفور له الملك الراحل « محمد الخامس » سنة ١٩٥٣ م في الوقت الذي كان يعلن فيه « بيدو » وزير خارجيـــة فرنسا ، أن فرنسا لا يمكنها بحال من الأحوال أن تترك الهلال ينتصر على الصليب .

ودافع عن كرامة العلماء حينما سيق علماء فاس كالأنعام إلى الرباط لاعتصامهم بالضريح الإدريسي مطالبين برجوع « محمد الخامس». ثم يعود جلالة المغفور له « محمد الخامس » ، ويكون ماسينيون من أوائل الزائرين للمغرب .

ودافع ماسينيون عن قضية الجزائر أيضاً ، ولما توفي في نوفمبر عام ١٩٦٢ تأسف عليه أصدقاؤه ، ولا سيما في المغرب العربي ، رغم ما يوجه الى هذا المستشرق من نقد لا مجال للتعرض له هنا .

ومن أبرز المستشرقين الذين يعرفهم العرب عامة ، والمغرب خاصة الأستاذ بلاشير مدير المعهد الإسلامي في باريس ، والأستاذ بجامعة « السربون » وصاحب النشاط الكبير في الآداب العربية ، والمؤلفات الجمة ، ونصير كل عربي يهبط باريس للالتحاق بمعاهدها وجامعاتها ، وله في كل عام تقريباً زورة الى المغرب حتى يومنا هذا .

أثر حركة الاستشراق
في اللغة العربية

لخص الأستاذ عمر الدسوقي وزملاؤه ، فضل المستشرقين على اللغة العربية فقال :

« تفرغ المستشرقون للبحث ،ومنحتهم أممهم المال والوقت ووضعت تحت أيديهم المكتبات العامرة بالأبحاث والمخطوطات النادرة . وكلهم يعرف عدة لغات غربية وشرقية ، فكان من الطبيعي أن تتسم آثارهم بسمات التحقيق والمثابرة والاطلاع والموازنة ومراجعة الأصول والمخطوطات الثمينة في طبعات أنيقة مصححة مُزودة بتعليقات نفيسة ، وبفهارس تيسر الاطلاع ، وتجمع الأشخاص والأماكن والموضوعات . واشتهروا بتحقيقاتهم اللغوية وبأبحاثهم في أصول اللغات ، وفقه اللغة ، والساميّات ، وباكتشافاتهم الأثرية في بلاد العرب ، وقد

غيرت هذه الاكتشافات كثيراً من نظريات التاريخ وحقائقه المتداولة. وامتازت أبحاثهم بحسن العرض ، وبالتدقيق العلمي ، وبالنظرات الشاملة . وأهم أثر للمستشرقين يتضح في الكتب العربية التي أُلفت على نمط كتبهم . وإن الدراسات الأدبية ، وتاريخ الأدب بصورته التي نعرفها اليوم هي أثر من آثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم » .

نعم فهم الدين أخرجوا كنوز العرب الى الوجود ، وحفظوا أصولها في خزائنهم ومتاحفهم ومكتباتهم ، وألفوا دوائر المعارف الإسلامية ، باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وهم الذين أرسوا قواعد الجامعات الشرقية وطرق التدريس المنهجية بها .

هذا بصرف النظر عما كان يدفعهم الى هذه الخدمات وعمن استطاع الاستعمار أن يسخّره منهم لأغراضه ، وبغض النظر عن هوياتهم الدينية والعقائدية ، فنحن نعترف لكثير منهم بالفضل الخالص ، ونعرض عن إساءات بعضهم المقصودة ، وغير المقصودة .

مناقشات في النهضة
وحركة الاستشراق والترجمة

س ١ : اشرح عوامل نهوض الشعر في العصر الحديث ، وتحدث عن تطور الأغراض – خصائص الشعر من حيث بناء القصيدة وأسلوبها ومعانيها – عوامل التجديد ومظاهره .

س ٢ : بيِّن أسباب نهضة النثر في العصر الحديث مؤيداً قولكَ بالأدلة .

س ٣ : كان من نتائج تقدم النهضة الأدبية والعلمية واتصالنا بالغرب أن تطور النثر .

اشرح هذا التطور في : أغراض النثر وفنونه ، وأساليبه ، ومعانيه وأفكاره .

س ٤ تحدث عن الأطوار التي مرت بها الترجمة بإيجاز .

س ٥ : وضح أثر الترجمة في الآداب والعلوم منذ أول القرن العشرين حتى اليوم .

س ٦ : تحدث عن حركة الاستشراق :

أسبابها ، وتاريخها ، وأهدافها .

س ٧ : للاستشراق فضل كبير على اللغة العربية ، وضح ذلك بإيجاز ذاكراً بعض آثار المستشرقين المشهورة .



خاتمــة

وبعد ... فهذا هو كتابنا الذي بذلنا فيه مجهوداً لا يقدره إلا من مارس فن التأليف ، متوخياً الصدق والأمانة والدقة ، أطلنا حيث ينبغي أن نطيل، وأوجزنا حين لا داعي للإطالة ، وقــد وجدنا كثيراً من الصعوبات استطعنا تذليلها بالمثابرة وطول البحث والتنقيب .

وما نرجو بعد ذلك إلا أن يظفر هذا المؤلف برضى الأساتــذة والطلاب ولا نقول إعجابهم ، بل نرجو أن ينتفع به كل باحث ومؤلف في موضوعــه والله الموفق ، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

الدار البيضاء في ١٤/١١/١٣٨٢ ؛ ٨/٤/١٩٦٣

المؤلفان

فهرست

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل lisanerab.com